د. إسماعيل ناصر الصمادي

نقد النص التوراتي

التاريخ التوراتي المزيف

بين
إسرائيل الكنعانية
وإسرائيل العبرية
وإسرائيل الصهيونية



حفرية نصية تاريخية أركولوجية
في الماضي المتخيل الافتراضي لليهود

دار علاء الدين

نقد النص التوراتي

الكتاب الأول

د. إسماعيل ناصر الصمادي

نقد النص التوراتي

التاريخ التوراتي المزيف

بـــــــــــين

إســــــــرائيل الكنعانيـــــــــة

وإســــــــرائيل العبريـــــــــة

وإســــــــرائيل الـــــــصهيونية

حفرية نصية تاريخية أركولوجية

في الماضي المتخيل الافتراضي لليهود

الكتاب الأول

(تمـ



رقم الـ

منشورات دار علاء الدين

- **نقد النص التوراتي الكتاب الأول**
- **تأليف: د. إسماعيل ناصر الصمادي**
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين.**

- الإدارة والإشراف العام: **م. زويا ميخائيلينكو.**
- التدقيق اللغوي: **صالح جاد الله شقير.**
- المتابعة الفنية والإخراج:

أسامة راشد رحمــة.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

مقدمة

يتحول الصراع على الماضي إلى صراع على الحاضر، من خلال ابتكارات خيالية لماض يعاد بناؤه بشكل تعسفي ومن الطبيعي والمفهوم أن التاريخ من المنظور الفلسطيني قد ركز على العصر الحديث وعلى الكفاح لتحقيق كيان ودولة مستقلة.
ويبدو أن الماضي قد ترك للغرب ولإسرائيل

كيث وايتلام

الزمكان

إن الزمان المطلق، زمان قائم ومدرك في ضمير الغيب، لأنه زمان لا إنساني، أما الزمان الفيزيائي فهو الزمان المستدرك من قبل الوعي، والذي يستحوذ على وجوده وقيمه ومفاهيمه الأولية من خلال جدله مع المكان، بحيث إن جريان المكان يؤدي إلى اختلاق الزمان، وتماماً يمكن عكس هذه المقولة إلى أن جريان الزمان هو الذي يختلق المكان، وبمعنى آخر لا مكان من دون زمان، ولا زمان من دون مكان، وأن الجدل بين الزمان والمكان هو الذي يشكل أو يختلق ما يمكن تسميته بالزمكان، المنحوت من كلمتي الزمان والمكان، وليس هناك من معنى للمكان دون وجود العناصر المادية، ولا معنى للزمان دون حدوث الفعل، وحسب النظرية النسبية فإن الزمان يشكل البعد الرابع للمكان، على اعتبار أن الطول، والعرض، والارتفاع تمثل الأبعاد الثلاثة الأولى التقليدية للمكان، أي أن الزمان هو الجزء من المكان الذي يضيف بعداً وجوديا، فعليا، تاريخياً للمكان.

والزمان الفيزيائي هو زمان دائري، مغلق، لا بداية ولا نهاية له، وبدايته مرتبطة بنهايته بحيث لا يمكن تحديدهما، فاليوم هو حركة دائرية وأي لحظة - من اليوم - يمكن اعتبارها بداية ونهاية في آن معا، وينتج الزمان الفيزيائي عن دوران (حركية) المكان، فحين تدور

الأرض حول محورها ينتج اليوم، وحين تدور بحركة نوّاسية حول نفس المحور تصنع الفصول، وحين تدور حول الشمس تنتج السنة، والسنوات بتكرارها تقسّم إنسانياً إلى عقود وقرون، وما إلى هناك من تقسيم زماني إنساني.

إن حركة المكان هي التي تشكل الزمان، كما أن دوال الزمان يؤدي إلى تشكيل المكان، فالكون في حالة تمدد مستمر مع الزمان، وهناك نجوم تولد، وأخرى تختفي، كما أن الأرض كمكان وُلِدَ وتشكّل وتجغرف - وما زال - بفعل الزمان، ويمكن اختزال هذا الجدل بين الزمان والمكان بالقول أن المكان هو تغير الزمان، والزمان هو تغير المكان.

ولجعل المفاهيم والدلالات الزمكانية أكثر بساطة على الذهن، فقد تم تقريب هذه الدلالات بيانياً من خلال تمثيل المكان بمحور أفقي، والزمان بمحور عمودي، والمساحة الناتجة والمتشكلة بينهما هو الزمكان الذي تتحرك ضمن فضائه النقطة الزمكانية، وهذا يعني أن محور الزمكان هو مرجع لقياس ورصد حركة النقطة الزمكانية، وبسقوط هذا المحور لا يبقى أي معنى لتلك الحركة التي تصبح مطلقة أو مجردة وليست ذات معنى بالنسبة لحالة الوعي.

إن حركة الزمان يمكن مقاربتها حسب قوانين الحركة النيوتنية، والتي يمكن أن نستخلص منها أن الزمان يتباطأ، ويبدأ بفقدان فعاليته، كلما تباطأ تغير المكان، ويفقد الزمان معناه، وينعدم تماماً إذا ما توقف تغير المكان، ، ويمكن عكس هذه المقولة بتبديل الزمان بالمكان، وبالتالي فإن سرعة الزمان تتناسب طرداً مع سرعة (تسارع) تغيّر المكان، كما أن سرعة تغير المكان تتناسب طرداً مع سرعة (تسارع) تغيّر الزمان.

وإذا ما استطعنا أن نعرف حيثيات الجسم أو النقطة المتحركة ضمن إحداثياتها الزمكانية، ولا سيما سرعتها، وتسارعها واتجاه حركتها، بشكل أكثر دقة كلما استطعنا أن نتنبأ بصورة أكثر دقة عن مسالكها في المستقبل (الزمكان)، كما يمكن في الوقت نفسه أن نعرف أو نقارب مسارها في الماضي أيضا، ولو استطعنا أن نمتلك معلومات دقيقة عن تلك الحيثيات (الحاضرة) فبمقدورنا أن لا نشكك بتنبؤنا عن ماضي ومستقبل تلك الحركة الزمانية.

أما حسب النظرية النسبية والتي جعلت من الزمان البعد الرابع للمكان، والتي صاغها أينشتاين في خمسة قوانين: الأول منها يذهب إلى أن أي جسم يتحرك باتجاه حركته ينكمش، بحيث يقصر، ويختفي إذا ما وصل سرعة الضوء، وهكذا فالمكان (وبالتالي الزمان) حسب النظرية النسبية هو نسبي، أما القانون الخامس من النظرية النسبية فيذهب إلى

أن الزمن يتسارع أو يتباطأ تبعا لحيثيات، أو لسرعة وبطء المراقب، وعلاقة المراقب بالجملة المتحركة.

وحسب النسبية فإن الزمكان هو تشكيل ثابت، لا يخضع لأي تطور أي أن الزمان (الماضي والحاضر والمستقبل) موجود كلوحة واحدة على المحور الزمكاني، ولكن اكتشاف هذه المساحة أو هذا الفضاء يتم بطريقة تسلسلية نعتقد من خلالها أن الزمان يمر على المكان، ولكن في الحقيقة، وحسب النظرية النسبية، فإن الزمان، والمكان متطابقان، ومتشابكان بطريقة ثابتة.

إن التاريخ يتشكل من وعي الإنسان لحركة النقطة الزمكانية ضمن مسرح الزمكان، أي أن التاريخ هو الحالة الإنسانية للزمكان، حيث يصبح المكان حالة جغرافية، والمكان الجغرافي يتأنسن ويصبح وطنا، وارتباط الوطن مع الزمان يُنتج التاريخ، والتاريخ يتأنسن وينقسم إلى الماضي (مجموعة من الذكريات بما يستدعيه من حنين ومشاعر مختلفة)، والحاضر (مجموعة الأحداث التي تتمسرح على خشبة الواقع)، والمستقبل (مجموعة من الطموحات، والتطلعات، والأحلام، والأماني، والنبوءات)، والتاريخ بالتالي هو حالة زمكانية متأنسنة، وهو لا يدل فقط على ما حدث في الماضي، بل وعلى ما يحدث في الحاضر، وما يمكن أن يحدث في المستقبل أيضا.

والماضي هو الأثر الذي يتركه الزمن المنفلت إلى الوراء من الحاضر، وهو يشكل حالة عاطفية تأتي من الاستشعار الإنساني بالموت وبالخسران، لذلك فغالباً ما يحاط الماضي بهالة من القدسية، ويدخل على تأريخه انزياح عن الحقيقة نحو الأسطرة، فبعد أن يتم تنقية الماضي من شوائبه السلبية، يتم تضخيم كل ما يشكل حالة إيجابية، ثم يضاف إليه بعض المحسنات لمزيد من أسطرته، وانزياحه نحو الحالة الصوفية، ويصبح بعدا من أبعاد (الفردوس المفقود).

أما الحاضر فيشكل حجر الزاوية في الزمان الإنساني، وهو الزمن الذي لا يمكن الإمساك به لأنه ينفلت إلى الوراء ليشكل الماضي، ويلتهم الأمام الذي يُعرف إنسانيا بالمستقبل.

والمستقبل هو الزمن المتخيل، أو المفترض الذي سيدخل في بوتقة الحاضر ليتحول إلى ماضٍ، وبينما يشكل الماضي حالة عاطفية، ويتم تسويقه بطريقة ذاتية صوفية، ويشكل الحاضر البؤرة التي يلقي أو يلفظ أو يبصق بها الإنسان تذمره، فإن المستقبل يشكل حالة حلمية غالبا ما تتمحور في استحضار الماضي (الفردوس المفقود) في المستقبل، وهذا ما يشكل للمرء حالة عزاء، تشد من أزر صبره، واصطباره على حاضر كائن على غير ما يرتضيه المرء.

واستحضار الماضي، أو المستقبل يشكل حالة تجاوز للزمن، واستحضار الماضي الموضوعي (التاريخ الذي كان) يجعلنا ندرك كيف وصل الحاضر إلى هنا، كما يعطينا العظة للتعامل بحكمة مع الحاضر، أما استحضار المستقبل (التاريخ المتوقع الذي سيجيء) فيجعلنا نتوقع إلى أين يمكن للحاضر أن يذهب، كما أنه يعطينا الفرصة للمشاركة ضمن المتقدرات الإنسانية في صناعته.

أما استحضار الماضي الذاتي (الذكريات) فإنه يغرق الإنسان بحالة من العاطفة الوجدانية الصوفية، تجعلنا نرى التاريخ بطريقة ذاتية، تميل نحو التخيل، أكثر منه نحو الحقيقة الموضوعية، كما أن استحضار المستقبل الذاتي (الحلم) يستطيع اختطاف الإنسان من الحاضر الكائن المفروض، والمرفوض، إلى ما يريده، أو يطمح الإنسان في أن يكون.

لا يمكن معرفة التاريخ الحاضر كيف وصل إلى (هنا - الآن) ما لم نعرف ذكرياته القابعة في روحه، كما لا يمكن لنا أن نعرف إلى أين سيمضي (أو ما الذي سيفعل) ما لم نعرف بماذا يحلم، لأن التاريخ لا يعيد نفسه، أي لا يكرر أحداثه تماماً كما يُعتقد أحيانا، فهو يستفيد من تجاربه، ويتجاوز أخطاءه، ولذا لا يمكن التأكد بماذا يفكر، مع التحفظ على أن التاريخ على الرغم من مقدرته على إدراك وتحليل أخطائه، إلا أن ذلك لا يعفيه من أن يُتهم كثيرا في أنه قد لا يتعظ من بعض تجاربه، فيقع في نفس المطبات ثانية.

إذا، فمعرفة الذاكرة التاريخية، والاستحواذ عليها لا تمكّن الراصد من معرفة - على وجه الدقة - ما الذي سيحدث في المستقبل، لأن التاريخ يخضع إلى مجموعة من القوانين المتعددة، فيها الكثير من المجاهيل التي لم يستطع الإنسان مهما بلغ من الدراية أن يقف عليها، ومن هنا، فإن التاريخ لا يخضع إلى قانون ثابت (ضمن معادلة ثابتة)، بحيث يمكن معرفة حتمية المستقبل من خلاله، على خلاف حركة الزمان التي تخضع إلى قانون حركة المكان، وعلى خلاف حركة المكان التي تخضع إلى حركة الزمان، إلا أن بعض الأشخاص من ذوي المدارك الفذة يمكن لهم التنبؤ، أو استقراء، أو توقّع ما يمكن حدوثه في المستقبل من خلال معرفة الشخص العميقة بالماضي والقوانين التي تحكمت في صناعته، وقد يقوم البعض منهم أن يعلنوا عن استقراءاتهم على أنها نبوءات ذات مصدر مطلق، على اعتبار أنهم وسطاء (أنبياء أو رسل) بين المطلق السماوي الثابت، وبين الحاضر الأرضي المتحول، ومن ثم، وبامتلاكهم، أو بامتلاك أتباع هؤلاء الأنبياء في وقت ما لقوى الحاضر، يستطيعون أن يحققوا، بعض نبوءاتهم (أحلامهم)، أي أنهم يدفعون بالتاريخ حسب ما كانوا قد تنبؤوا به، على الرغم من ادعائهم بأن نبوءاتهم كانت ذات مصادر غيبية تتعلق بارتباطهم

بـالإرادة، أو بالمـشيئة الـسماوية، وقـد وصـلتهم هـذه النبـوءات بواسـطة الـوحي الـذي يـصل ما بينهم وبين السماء.

وعـودة إلى التـاريخ، الـذي درج التعامـل معـه ذهنيـا علـى أنـه مجموعـة الأحـداث الـتي تمسرحت في الماضي، فهنالك خلط ما بين التاريخ الذي تمسرح على الواقع (الذي حدث فعلا)، والتأريخ، أو النص التاريخي الإخباري الذي يتشكل من المادة اللغوية الذي ينقلها السلف إلى الخلـف، والغائـب إلى الحاضـر، في محاولـة لمقاربـة الماضـي وتشخيـصه علـى مـسرح متخيـل افتراضي تتدخل في إخراجه القناعات، ووجهات النظر، والموقف الأيديولوجي للراوي أو المؤرخ، وهو، أي التأريخ، يتأثر أيضا بقرب، وبعد المؤرخ من الحدث زمكانيا، كما يتأثر بشمولية وعمق معرفة المؤرخ بالأحداث، وبذلك فإن التأريخ هو مقاربة إخراجية لمسرحة واقع أفلت من قبضة الحواس، وعلى المرء الذي يقرأ التأريخ أو النص التاريخي - كي يقارب الحقيقة التاريخية - أن يكون على دراية بالبواعث الغائية (الإيديولوجية) التي تم بناء النص الإخباري التأريخي عليها، لأن التاريخ كنص، لا يعني الحقيقة المطلقة الكامنة في ضمير الماضي، بل هـو، في أنزه حالاتـه، الحقيقـة كمـا يراهـا المؤرخ الـذي قـام بتسجيل الأحـداث حـسب موقعـه منهـا، وترتيبهـا حـسب تعاقبهـا الـزمني، وباختـصار، فـإن التـاريخ الإخبـاري، أو التـسجيل التـاريخي، يكتـب، أو ينقش، أو يـسجل تحـت تـأثير دوافـع إيديولوجيـة تـصور الأحـداث مـن الزاوية التي لا تتعارض مع ذاتية المؤرخ الفكرية.

هذا بالنسبة للتاريخ الذي يشكل حالة الوعي الإنساني لجدل الزمان مـع المكـان، أمـا بالنسبة لجدل المكان مع الزمان، فإن (المكـان - الـوطن) يشكل بنيـة فيزيائيـة ثابتـة كحالـة جغرافية، ومتغيرة كحالة طبيعية، وتختلف الحالة الإنسانية العاطفية الوجدانية إلى (المكان - الـوطن) بـين المـرء الحاضـر في المكـان (في الـوطن)، والمـرء الغائـب عـن المكـان (في المهجـر)، فبالنسبة للحاضر في المكان (إي بالنسبة للشخص الذي هو هنا)، فإنه يرى المكان، ويتحدث عنه على أنه ليس تماماً هو المكان الـذي كـان في الماضي، بل حصل عليه تغيرات في طبيعته الجماليـة، وبـذلك يكـون حنـين الإنـسان (الـذي هـو في المكـان، أي الـذي هـو هنـا) أشـد إلى الزمان الـذي مـر علـى المكـان (الزمـان الوجـداني، أو الزمـان الـصوفي)، والـذي يـزداد غرقـا في عمق الماضي، أما حنينه إلى المكان الذي مر عليه الزمان، فيكون بالدرجة الثانية.

أما بالنسبة للمرء الغائب عن المكان (إي بالنسبة للشخص الـذي هـو هنـاك في المهجـر)، فيحمّل المكان الجغرافي المادي للوطن معنى روحيا ذهنيـا توهميـا اختزاليـا صـوفيا، يـؤدي إلى تـضخم المكـان - الـوطن، الـذي غالبـا مـا يختـزل الوجـود فيـه، ويـصبح المكـان هـو الفـردوس

المفقود الذي لن يشعر المرء بالتوازن، والطمأنينة إلا إذا عاد إليه، ويصبح هذا المكان مركز تفكيره، وقبلة عواطفه ووجدانه، وسر، وسرة وجوده، ويشعر المرء أن لا هوية، ولا معنى له تاريخيا أو وجوديا دون (المكان - الوطن)، فيكون حنينه الأول إلى (المكان - الوطن) الذي يصبح قبلة المرء الروحية (الفردوس المفقود)، ويصبح غاية حياته هو العودة إليه بالدرجة الأولى، واسترجاع الزمان الذي مر بالدرجة الثانية، أي أن الوطن يمثل البعد الروحي (الصوفي) للمكان، حيث تتحول ذكريات الماضي فيه إلى حلم المستقبل للعودة إليه، وهذا المكان غالبا ما يكون أو يتمركز في مدينة مقدسة.

ومن هنا يحاول الإنسان التشبث بالمكان، وإيقاف، أو استرجاع الزمان، حيث يشعر الإنسان بأن الزمكان أصبح جزءا داخليا منه، أو جزءا خارجيا مرتبطا به، وغالبا ما يشعر المرء بالوطن كما لو أنه الأم الأبدية له، أما الزمان فيأخذ دور الأب الذي انحدر منه الإنسان.

هذه المقدمة النظرية الفلسفية المركبة شيئا ما، والتي حاولت تبسيطها، أو تبسيط مجموعة أفكار ازدحمت في فقرة ضيقة، هي محاولة لمقاربة، وتشخيص ودراسة الزمكان اليهودي الذي سأحاول مقاربته وتشخيصه بصورة موجزة.

الزمكان اليهودي

لقد مرت البشرية في سياق تطورها الروحي الديني، بمرحلة عبدت فيه الآباء الأوائل، أو ما دعي بعبادة الأسلاف، ولأن الإنسان فُطر على تمجيد، وتقديس ما يفقده، فقد تداخلت عبادة الأسلاف مع عبادة أو تمجيد أو تخليد الماضي بمركبيه الزماني، والمكاني، اللذين شكلا مسرحا للأباء الأوائل، واستمرت بقايا هذه العبادة متسللة بشكل خفي حتى يومنا هذا، لا سيما عند الجماعات والشعوب العرقية والأثنية، وقد تجاوز الإنسان خلال مراحل تطوره الروحي هذه العبادة إلى ما هو أكثر إنسانية وصولا إلى الديانات السماوية وعبادة الإله المجرد صاحب الزمكان المطلق، ولم يبق من هذه العبادة سوى زيارة مدافن الآباء والشخصيات الدينية والتاريخية، ولكن اليهود، وبسبب تحنط تصوراتهم، ومعتقداتهم في زمن ليس ببعيد عن بداية التطور الروحي الفكري الحضاري، فقد بقيت آثار تلك العبادة بارزة ضمن المعتقد اليهودي، على الرغم من أن اليهود يعتبرون أصحاب رسالة سماوية توحيدية من خلال عبادتهم للإله (يَهْوَه) المجرد، ومن خلال هذه النظرة فإن اليهود قدسوا الماضي على اعتبار أن الماضي يمثل المسرح الذي تمثل عليه تاريخ الآباء الأوائل، أي أن الماضي يعني لهم تحديدا الآباء الأوائل، وكان اليهود كلما ابتعد الزمان ونأى ازدادوا تقديسا وتنزيها للماضي الذي مهما كان قاسيا

بالنسبة لهم، فإنهم ينظرون إليه وعيونهم تملؤها دموع الحنين والندم، الندم الذي يشعرون به دائما لأنهم حسب تصورهم قد خانوه من أجل الحاضر، ولذا فعليهم كي يتطهروا من آثامهم أن يعودوا إلى المكان (الفردوس المفقود) نادمين طالبين الصفح والغفران، وقد عانى اليهود في تاريخهم من عدة نكبات جعلت من التاريخ اليهودي يبدو كما لو أن له صفة دورية، بحيث يمكن تصوره على أنه تشكيل شبه دائري (إهليلجي غير منتظم)، في الوقت الذي ينظر إلى التاريخ على أنه يمضي فوق خط أو طريق مستقيم، أو شبه مستقيم يمر من الماضي نحو المستقبل عبر الحاضر، وكان الباحث فراس السواح قد لخص ذلك بقوله {إن التاريخ من وجهة نظر التوراة هو تاريخ الخطيئة بامتياز. ويسير عبر النمط المتكرر التالي: خطيئة - عقاب جماعي رادع - توبة - خطيئة... إلخ}.

وهكذا فإن الحاضر عند اليهود لا تتعدى وظيفته دور مطية تعبر بهم نحو الماضي، أي تعيدهم إلى الماضي، ولكن في المستقبل، أي أن الحاضر هو الفعل الذي يمكن أن يستحضر الماضي كما يتذكرونه أو كما يتصورونه في المستقبل، ويعتبر الماضي المرجعية التاريخية بالنسبة لليهود، ولذا فقد أوكل إلى الرب اليهودي (يَهْوَه) مهمة حراسة، وحماية الماضي اليهودي من الضياع والتشتت، ومن خلال التوراة يمكن تتبع مسار تمجيد أو تخليد الماضي منذ الآباء الأوائل (إبراهيم وإسحاق ويعقوب) الذين حرصوا كل الحرص على شراء قطعة في أرض كنعان كي يدفنوا، وتُدفن فيه ذريتهم في مكان معلوم يكون ملكا ماديا، وقبلة روحية لهم، بحيث يستطيع أحفادهم العودة إليه، والبكاء عليه نادمين، لأنهم تنكروا لآبائهم، ولرب آبائهم، ولذا عليهم أن يقدموا كل ما يمتلكونه للعودة إلى بلاد كنعان لإحياء آبائهم، وإقامتهم من بين الأموات من خلال استرجاع أسمائهم، وأسماء المواقع كما أطلقها آباؤهم، وبذلك فإن لم يكن باستطاعتهم استرجاع زمان الآباء بالمعنى الفيزيائي، فإنهم يستطيعون استرجاع الزمان الميثولوجي من خلال استرجاع الأحداث في المكان نفسه، أي أن ضرورة المكان في المعتقد اليهودي تتأتى من رغبة اليهود في استعادة الزمان، وبذلك فإن إعادة تكوين (دولة إسرائيل) على الجغرافيا التي جاءت بها التوراة على أنها هي مملكة داود هو إحياء لداود نفسه، وإن بناء الهيكل هو عملية إحياء للملك سليمان أيضا.

وبما أن الحاضر لا يمكن بناؤه إلا على أساسات يشكل فيه الماضي البنية التحتية، فقد قاموا في زمن تدوين التوراة باستقراض، وتطوير، وتهويد مجموعة من أساطير الشعوب، ولا سيما منها أساطير الآباء الأوائل ليؤسسوا عليها، ويعطوا لأنفسهم شرعية استيلائهم على الأرض التي تفيض لبنا وعسلا، والتي كانوا قد عاشوا فيها في إحدى مراحل تاريخهم،

والتي، وحسب تصورهم، وعدهم الإله بها، على اعتبارها إرثاً أبدياً لهم، وسيعيدهم إليها كلما تشتتوا في أصقاع العالم، وهم يعتبرون أن هذا الوعد يشكل وثيقة تاريخية دولية لا يرقى إليها أدنى شك، بل ويستغربون إنكار أو عدم قبول البعض بأن هذا الوعد أو العهد لا يمثل وثيقة تاريخية يجب الإقرار بها، وتعتبر التوراة بمجملها إيديولوجية استعمارية للسيطرة على الأرض، والآن تنهض الصهيونية بتطوير هذه الإيديولوجية بما يتناسب والحاضر كي يتمكن اليهود من استرجاع الماضي كما يتصوره اليهود، وبمعنى آخر إن بناء الحاضر في ذهنية اليهودي ليس إلا تأثيث للماضي في رؤية استراتيجية إلى المستقبل، وبذلك فإن اليهود لا يريدون من الإبحار في المستقبل إلا عودة إلى الماضي.

وهذا التصور اليهودي للزمكان يشكل أحد مكونات الخلاص، وانتصار الحياة على الموت، وهو ما يسوغ ضبابية مفهوم (يوم القيامة، والعالم الآخر) في العقيدة اليهودية، مع العلم أن يوم الرب (القيامة) في اليهودية، هو يوم يقع في الحياة الدنيا، وليس في الحياة الأخرى التي لا وجود لها أصلا في اليهودية التقليدية، كما هو الحال عليه في الديانتين السماويتين (المسيحية والإسلام)، فيوم الحساب في اليهودية، هو اليوم الذي يقوم فيه الرب بإعادة التوازن إلى التاريخ (اليهودي) من خلال معاقبة الإنسان الذي تمادى في أخطائه، وأفعاله الشيطانية، ووصل حدا لا يمكن تصحيحه إلا من خلال عقابه الصارم، وهو يوم يتكرر مع تكرار عودة الإنسان إلى الخطيئة، وبذلك فإن استحواذ اليهود على الماضي، هو استحواذهم على استمرار وجودهم، في الحاضر، والمستقبل أيضا، وهو الأمر الذي يفسر التصور الزمكاني في العقيدة اليهودية، والذي بدوره يفسر كون العقيدة اليهودية عقيدة عرقية، قبلية، إرثية، عنصرية، استعلائية، أنانية، وهي التي ساهمت في قبولهم، وقبول الشعوب الذين يعيشون بين ظهرانيهم، بالانعزال الثقافي والاجتماعي بين جدران المعتزلات (الغيتوات) العالية.

وقد ساهمت هذه العزلة بتطوير التصور اليهودي الحلولي للزمان والذي يذهب إلى أن اليهود هم تشكيل آخر طبق الأصل عن أجدادهم، وأن حياتهم هي استمرار، وإعادة إحياء لتجربة أجدادهم، على اعتبار أنهم الشعب المقدس الذي لا يخضع لقانون التاريخ الإنساني، وأن تاريخهم تاريخ مقدس مطلق لا زماني، وهو ناتج عن إرادة إلهية تمثلت، أو حلّت هذه الإرادة في تاريخ شعبه المختار، ولذا فاليهود لا يعيرون الكثير من الاهتمام للزمانية التاريخية الإنسانية، ويعتقدون أن نهاية التاريخ ستتم عندما يصبح التاريخ اليهودي المقدس مركزا للتاريخ البشري، وحينها يدخل التاريخ سبته في (يوم الرب).

الهامشية الزمكانية والتاريخ اليهودي:

إن التاريخ الموضوعي هو تسجيل للصيرورة الدنيوية المادية، والدينية الروحية، أي هو سجل لما حصل في الماضي كزمان محدد، وفي المكان كجغرافيا محددة، أما اليهودية - حسب ما جاء في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية للدكتور عبد الوهاب المسيري - فتذهب، من وجهة نظرها الذاتية، إلى أن التاريخ هو الماضي كما يتذكره الإنسان، وبذلك فإن التاريخ - حسب التصور اليهودي - يتخلى عن جانبه الموضوعي لمصلحة جانبه الذاتي بشكل كامل، حيث يتطابق التاريخ المقدس، أو التاريخ العاطفي الذاتي مع التاريخ الحقيقي الموضوعي، والتاريخ الماضي (كما يتذكره أو يتخيله الإنسان) - وعلى الرغم من أنه نص أسطوري عاطفي نفسي ذاتي أدبي - فإن اليهودية تفترضه كياناً موضوعياً تحاول استرجاعه وتحضيره في الواقع من خلال استذكاره، وبذلك يتحول التاريخ في اليهودية من حالته الموضوعية - على اعتبار أن التاريخ هو المادة اللغوية التي تسجل ما حدث حقيقة في زمان ما على مكان ما - إلى حالة ذاتية تتعلق بالمشاعر (الذكريات والأحلام والأمنيات والتمني) التي يحملها الإنسان، والوعي اليهودي للتاريخ يتمركز على الحالة الشعورية الذاتية، حيث تتحول الهذيانات والإهلاسات (التخيلات) إلى حالة واقعية بغض النظر عن موضوعيتها، وتذهب اليهودية إلى أن قوة الحاضر تستطيع أن تجعل من الماضي الذاتي العاطفي تاريخا موضوعيا، وأن تجعل المستقبل إعادة تشكيل الماضي كما يتذكره أو يتخيله أو حتى يتمنى الإنسان أن يكون قد حدث.

إن العقائد السماوية بشكل عام تتصور أن آدم الأول كان يعيش في الجنة في زمان ديني يقع قبل التاريخ، وفي فضاء خارج المكان، وأن الإنسان لديه حلم مستمر ودائم للعودة مرة أخرى إلى الجنة التي فقدها بسبب الخطيئة، ولكن هذا الإنسان يحلم أن يعود إليها أيضا بعد نهاية التاريخ، أي في الزمان الديني، أما اليهودية فتتصور أن الجنة أو الفردوس الذي عاش فيه اليهودي كان داخل التاريخ (مرحلة الملوك الآباء داود - سليمان)، وأن على اليهودي أن يناضل من أجل أن يصل إلى فردوسه المفقود داخل التاريخ (هنا والآن)، كي يستطيع أن يعيش سويا في مدينته الفاضلة.

وبذلك فإن الحاضر اليهودي لا هم له سوى تشكيل أو استحضار الماضي في المستقبل، إي إعادة إنتاج الماضي في الحاضر والمستقبل، وبطريقة علمانية برغماتية تأخذ بالحسبان السياق الزمكاني، وترى اليهودية، لا سيما بعد انتصار وسيادة التصور الصهيوني، أنه إذا

ما كان الماضي (وما يفرزه من ذكريات وأشواق) محل صراع في الحاضر، فالأقوى حسب القانون الداروني النيتشوي - وبغض النظر عن موضوعية التاريخ - هو من يثبّت نفسه في الماضي، ويطرد منه الآخر، وبذلك فعلى الفلسطينيين - حسب الرؤية اليهودية الصهيونية - أن يكونوا واقعيين، وأن يخضعوا للقانون الواقعي البرجماتي الذي يسنّه الأقوى في صراع البقاء، وعلى الفلسطينيين أن يغادروا أرض فلسطين (إيرتس إسرائيل)، وأن يتحولوا إلى أي مكان آخر مقابل بعض المال، وأن يتخلوا عن هويتهم الفلسطينية (ماضيهم المتمثل بذكرياته، وحاضرهم بواقعيته، ومستقبلهم بأحلامه)، لأن ارتباط اليهودي بأرض فلسطين المتأتي من ارتباطه بماضيه كما هو يتخيله أقوى من ارتباط الفلسطيني بأرضه وماضيه كما يتخيله الفلسطيني، فأينما كان اليهودي، وفي أي زمان فإنه يعيش ذهنيا في أرضه المقدسة، ولا يمكن أن يستبدلها بأي مكان آخر، أما الفلسطيني فيمكنه، أو هو الأقدر على أن يتخلى عن كل هذا (الماضي والحاضر والمستقبل) بحفنة من النقود، وترى الصهيونية اليهودية أن ذلك خير للفلسطينيين من أن يجبروا على التخلي عن الأرض المقدسة بالقوة ودون مقابل، وأن الشعب المقدس هو الأولى بالأرض المقدسة، لأن الشعب المقدس لا يمكنه العيش بطريقة سوية خارج أرضه المقدسة، أما الشعب المدنس (أي شعب غير يهودي) فيمكن له أن يعيش في أي مكان مدنس (أي مكان خارج إرتس إسرائيل)، بدل أن يدنّس الشعب المدنس الأرض المقدسة.

إن اليهودية تشكل حالة متطرفة مزمنة لها خصوصيتها التي تتأتى من أن الفرد اليهودي تخلّى عن هامش واسع من ذاتيته الفردية لحساب موضوع يهوديته، واليهودية حالة موضوعية بالنظر إلى ذاتية الفرد اليهودي، فأي فرد يهودي يطرح نفسه أولا على أنه يهودي ثم يطرح اسمه كحالة ذاتية، فانتماؤه إلى موضوعه اليهودي له أولوية على انتمائه إلى ذاتيته الفردية الإنسانية.

ولكن هذه اليهودية أيضا شكّلت حالة ذاتية شديدة التطرف بالنظر إلى الحالة الأثنية الإنسانية ككل، وبمقارنتها بنمط الانتماءات للعروق والأديان الإنسانية الأخرى عبر التاريخ، وهو الأمر الذي أدى إلى استمرار اليهودية كحالة إنسانية متحوصلة بقيت مستمرة على منحدر الزمان، فلا هي انتصرت، ولا هي اندحرت، ولا هي سقطت من الهامش التاريخي، ولا هي توضعت في مركز التاريخ، وكلما حاول التاريخ أن يلقي باليهودية من حافة الهامش، كلما تمسكت اليهودية بتلابيب المركز التاريخي دون أن تبلغه، والصهيونية الحالية هي التي استطاعت أن تعزز التواجد اليهودي، وأن تتدخل كحالة متحوصلة من الهامشية نحو المركزية التاريخية، وبالنظر إلى تجارب وحراكية اليهودية التاريخية، فإننا نستطيع أن نقارب التجربة

الصهيونية المستقبلية بأنها حالة ستنتهي ثانية - من خلال النظر بحكمة إلى الحراكية والحتمية والضرورة التاريخية - إلى هامش التاريخ دون اندحارها النهائي وسقوطها من على الهامش.

تعود عقيدة الزمكان اليهودية (شعب الله المقدس صاحب التاريخ اليهودي المقدس على الأرض المقدسة) إلى العبرانيين أسلاف اليهودية الحالية، فالعبرانيون، كحال الكثير من القبائل والجماعات الجوالة، كانوا في النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد يعيشون على محيط المدن والقرى في الشرق الأدنى القديم، على شكل جماعات متفرقة دون أن يستطيعوا، ودون أن تسمح لهم الشعوب المدنية بامتلاك أرض خاصة بهم يرتبطون بها، وترتبط بهم، ويحققون عليها سيادة أثنية بحيث يستطيعون السيطرة على حراكيتهم التاريخية عليها، فقد بقي العبرانيون، أسلاف اليهود، يعيشون هامشية جغرافية (مكانية)، وهامشية تاريخية (زمانية)، وهامشية حضارية (وجودية) ولّدت لديهم - كحالة تعويضية عن هامشيتهم وشعورهم بدونيتهم - عقيدة شعب الله المختار، واستمروا على حالتهم الهامشية إلى أن سمح لهم التاريخ، (في سياق الألفية الأولى قبل الميلاد) في لحظة ارتباك له تزامن مع مرحلة المراهقة التاريخية العبرانية، أن يرتبطوا بأرض كنعان (الأرض المقدسة)، وأن يشكلوا عليها حراكية تاريخية (التاريخ اليهودي المقدس)، الأمر الذي حوّل ذلك المكان في تلك الفترة من الزمان إلى حالة انفعالية وجدانية، وقد تعززت تلك الحالة النفسية العاطفية بصورة عمودية عندما فقد العبرانيون حراكيتهم التاريخية القصيرة - والتي تكررت أكثر من مرة - على الأرض، وتعززت تلك الحالة الانفعالية بحالة تخيلّية، اختلاقية عندما عادوا إلى تمزقهم وهامشيتهم الزمكانية ليعيشوا في المنافي والشتات، والتي أدت تراكميا إلى تشكيل اليهودية التي ساهمت في تكون هوية عاطفية تكوكبت حولها الجماعات اليهودية.

إن المكان اليهودي، حسب التصور اليهودي، هو مكان مطلق، أو متمطلق في (الفردوس المفقود - الأرض المقدسة - إرتس إسرائيل)، أما المكان الجغرافي الإنساني (في بلاد الشتات) فما هو سوى منفى أينما حل وارتحل اليهودي، أي أنه ليس بمكان (ليس له أي انتماء إليه وبشكل مطلق)، فأرض المنفى هي أرض إنسانية (مدنسة)، والناس فيها أناس عاديون أو مدنسون (أغيار) ليسوا من طينته المقدسة، وبمعنى آخر فإن اليهودي هو غائب في حضوره هناك في المنفى (في الشتات)، وحاضر هنا في غيابه عن الأرض المقدسة، ولذا فقد عزلت اليهودية نفسها ضمن الغيتو في أوربا، وهو الأمر الذي حافظ، في زمن الشتات الطويل، على (الشعب المقدس) ضمن الشعب غير المقدس (المدنس)، والأرض غير المقدسة (المدنسة).

كما أن الزمان اليهودي في التصور اليهودي هو زمان مطلق أيضا (آخر الأيام - آخر التاريخ - يوم الرب)، أما الزمان الذي عاشه ويعيشه في الشتات فهو ليس بزمان فيزيائي، بل هو حالة تشبه إلى درجة ما شعور المرء في الزمن وهو في حالة الغيبوبة، وهذا الزمان الذي يعيش فيه ليس هو زمانه (زمان مدنس)، بل هو منفى زماني يقع ما بين (أول الأيام، وآخر الأيام)، وأول الأيام هي الفترة التي حقق فيها اليهودي انتماءه إلى الزمكان، وأسطرها في زمن الملوك الأوائل (داود - سليمان)، وآخر الأيام هو عودة أول الأيام على يد المسيح اليهودي المنتظر، وبمعنى آخر فاليهودي في الشتات غائب (في الحاضر المدنس)، وهو حاضر هناك في أول - آخر الأيام (في الماضي المقدس الذي سيعود في المستقبل المقدس على يد المسيح اليهودي المنتظر)، وهذا ما جعل من الزمان التاريخي اليهودي زمان مطلق دائري، فيه أول الزمان هو نفسه آخر الزمان.

ومعتقد آخر الأيام وارتباطه بالمسيح المنتظر، إضافة إلى معتقد الأرض المقدسة، ومعتقد الشعب المختار المقدس (المقدسات الزمانية والمكانية والأثنية) ساهمت في مزيد من عزلة اليهود عن حراكية التاريخ (الزمان)، وعن المكان (المنفى)، وعن الشعوب (الأغيار) ضمن الغيتو (المادي، والاجتماعي، والنفسي، والفكري، والتاريخي) الذي قبع فيه اليهود بانتظار مجيء المسيح ليعود بهم إلى الأرض المقدسة، في آخر الأيام المقدس، وهذا التصور اليهودي المرتبط بالغيتو اليهودي هو الذي حافظ على اليهودية محنطة لمدة طويلة من الزمان.

وباختصار، فإن اليهود الذين كانوا يعيشون في أماكن متعددة دون أن يشكلوا إي ارتباط روحي في المكان، لأنهم كانوا يعيشون في وطنهم الصوفي في أورشليم، وبما أن اليهودي يعيش في مكان مؤقت، أو في محطات عابرة فلم يكن يهمه العيش في كوخ، أو في قصر، ولم يكن ليهمه أيضا ماذا يأكل، ما دام طعامه شرعيا بالمعنى الديني، الأمر الذي ساهم إلى جانب صفات أخرى بأن يجمع اليهود ثروات مالية ضخمة، هذا بالنسبة للمكان أما بالنسبة للزمان فلم يكن لهم الحاضر سوى زمان عابر ينتظرون فيه مجيء المسيح الذي سيعيدهم إلى هذا الوطن الصوفي، أي أنهم كانوا يعيشون على هامش الزمكان، وهذه الهامشية هي التي أعطتهم صفة العالمية.

إن عقيدة الزمكان اليهودي المطلق (إيرتس إسرائيل في آخر الأيام) جعلت من أي مكان آخر هو منفى بالنسبة لليهودي، يعيش فيه جسديا فحسب، أما روحيا فيعيش في الأرض المقدسة (إيرتس إسرائيل)، وبذلك فهو غائب روحيا في حضوره الجسدي في أرض المنفى، وحاضر روحيا في غيابه الجسدي عن الأرض المقدسة (إيرتس إسرائيل)، ومن هنا فإن

اليهودي الحقيقي (لا الصهيوني) لا يستطيع أن يتخلى عن المنفى الآن حتى لو سمحت له الفرصة العودة إلى (الأرض المقدسة)، لأن عودته إلى المكان المقدس منوطة بعودته على يد المسيح اليهودي المنتظر (المسيا) إلى الزمان المقدس الذي سيأتي في آخر الأيام ويرجع اليهود إلى أول الأيام الخالدة، وهذه تشكل مقولة اليهودية الأصولية الأرثوذكسية.

وقد ساهمت عقيدة انتظار المسيح اليهودي المنتظر بتهميش الإحساس بالانتماء إلى المكان، والزمان اللذين يؤطران التاريخ، ولذلك، وكما سبق ذكره، لم يكن اليهود في شتاتهم ينتمون إلى مكان بعينه، فالمكان الذي يعيشون فيه ليس أكثر من محطة ينتظرون فيه المسيح اليهودي المنتظر الذي سيجيء، مهما طال الزمن، ليبني لهم بيت الاستقرار الأخير في أرض الميعاد، كما ساهمت هذه العقيدة في بقاء شعب الله المختار، في مرحلة الشتات، يقف خارج، أو على هامش التاريخ كشاهد يراقب حركية الأمم، حتى تحين الفرصة المناسبة الذي يستطيع فيها الدخول إلى التاريخ من أجل العودة إلى الأرض المقدسة، واستعادة الماضي اليهودي المقدس، ومن هنا فقد كان هناك تصور يهودي ومسيحي (كاثوليكي) بأن على اليهود البقاء خارج السلطة كمراقب خارجي لها، وهو الذي وضع اليهود في حالة تاريخية سلبية لمدة طويلة من الزمان، وهي الحالة التي أطلق عليها (بالعجز اليهودي)، وقد تزعزعت هذه العقيدة، أو هذا التصور في القرنين الأخيرين، ولا سيما بعد قيام دولة إسرائيل، فبعد أن كان اليهود يعيشون في شتاتهم على اجترار الهزيمة المادية الأرضية، التي يشكل المنفى أساسا لها، بانتظار مجيء المسيح اليهودي الذي سيوصلهم إلى الانتصار الروحي السماوي، والعودة بهم إلى المكان الأنطلوجي السماوي، فهم الآن يعيشون على قلق الانتصار المادي الأرضي، بعد عودتهم الفيزيائية على يد الساسة الأرضيين، لا على يد المخلصين السماويين.

ولا يمكن حل هذه المعادلة الدائرية أو تحقيق الخلاص اليهودي حسب التصور الديني، والتي يمكن توصيفها بالفنتازيا الوجودية، إلا بالعودة إلى أول الأيام في آخر الأيام، وأول الأيام هي المرحلة التي كان قد عاشها أسلافهم في الأرض المقدسة، وعقيدة آخر الأيام تشكل قضية أساسية في اليهودية (قبلة اليهودي الزمكانية)، وهي حالة تتم في الزمان الأرضي (داخل التاريخ)، وليس خارج التاريخ، وخارج الزمكان كما هو الحال في يوم القيامة عند المسلمين، ولا يمكن أن يصل اليهود إلى آخر الأيام إلا بعودة اليهود الواقفين على الهامش الزمكاني، إلى الأرض المقدسة، وتحوّلهم إلى مركز التاريخ (المركزية الزمكانية).

وهذه الهرطقة اليهودية التي ماهت ما بين المتناقضات، والتي ساهمت اليهودية الحلولية التصوفية، التي تبلورت في مرحلة الشتات اليهودي في تفشيها في كل المفاهيم والتصورات

اليهودية، بحيث أن الثابت لديها أصبح هو المتغير (التوراة هي حالة ثبات، ولكنها متغيرة من خلال التلمود)، والمتغير هو حالة الثبات (فالتلمود يشكل حالة أكثر قدسية وثباتاً من التوراة، وإذا ما كانت التوراة تمثل البنية أو جسد الدين اليهودي، فالتلمود يمثل روح العقيدة اليهودية)، والحاضر هو الغائب، والغائب هو الحاضر، والهامش هو المركز، والعكس صحيح أيضا، والخارجي هو الداخلي، والذات هي الموضوع، و (الأنا) هي (الهو)، والعكس في كل ذلك صحيح، والإنسان (المقدس) في اليهودية أكثر أهمية وقدسية من الإله، بحيث إن الإله اليهودي يقوم بدور خادم لإرادة الإنسان، بل وإن الإنسان (المقدس) هو الذي خلق الإله من خلال اكتشاف الإنسان المقدس (اليهودي) للرب (يَهْوَه)، حيث تم توقيع عهد أو اتفاق فيما بين الطرفين ينص على تقديم الطعام، والطاعة من قبل اليهود للرب (يَهْوَه)، مقابل تبني الرب (يَهْوَه) لليهود، واعتبارهم شعبه المختار.

كما أن هذه الهرطقة تجعل اليهودي يعيش حالة الوهم على أنها حقيقة، ويعيش الحقيقة على أنها حالة وهم عابرة، وهو يعيش ذهنيا في المكان المطلق، على الرغم من أنه جوال لا يستقر في مكان، ويدّعي ماضيا لم يكن، ويريد الوصول إلى زمان لن يجيء، أي هو حاضر في الغياب، وغائب في الحضور، وبالتالي فالحلولية اليهودية، وككل العقائد التصوفية هي محاولة من الإنسان للعودة إلى المرحلة الجنينية (الفردوس المفقود)، ورفض للمعرفة، ولحالة النضج والتمايز اللذين ينتجان، أو ينفرزان عن الحراكية التاريخية، ومن هنا فلا هم لليهودي سوى العودة إلى الماضي السحيق كما هو يتذكره، أو يتخيله، أو يتوهمه، وهذه الحالة الهرطقية تنسب إلى الطبيعة التناقضية - الجغرافية لليهودية والتي قام بتشخيصها الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، والتي يمكن أيضا تسميتها بحسب رأيي بالحالة الترقيعية، أو الرقعية، وإقحامي لهذا التصور الحلولي اليهودي غير التقليدي في هذه المقدمة، والذي أفرزته اليهودية في العصور الحديثة هو أنه شكل بنية تحتية عميقة، ومتخفية للصهيونية، وهذه الحلولية اليهودية بالخاصة، وكل الحلوليات، أو التصورات التصوفية للشرق الأدنى القديم هي ليست نتاج الفكر الديني الفلسفي في الشرق الأدنى، بل هي تصورات وصلت إلى الشرق الأدنى كجغرافيا، وإلى اليهودية في أوربا على اعتبارها ديناً أنتجته التصورات الشرقية، بعدة طرق منها التفشي، والنقل، والانزراع، والازدراع من التصورات الدينية في الشرق الأقصى، وهذه التصورات الحلولية الصوفية في الأساس تتعارض، أو لا تتفق مع جوهر التصور الديني التجريدي التوحيدي لديانات الشرق الأوسط، ولذا فقد حصل صراع بين التصورين التوحيدي، والتصوفي ما زال مستمرا حتى

الآن، وأبرز طرف في هذا الصراع هي الحركة الوهابية التي انطلقت في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي من شبه الجزيرة العربية، ولكن البعض يعتقد أو يذهب إلى أن الشرق كان يحمل، أو كان لديه تصورات حلولية في المراحل الوثنية، على اعتبار أن التصنيم نوع من الحلولية، لكن البعض يعارض هذا الاتجاه على اعتبار أن التصنيم حالة ترميزية، أو حلولية جزئية، على خلاف التصور الحلولي (التصوفي) بشكل عام، والذي يذهب إلى أن الكل يحل في الجزء، والجزء يحل في الكل.

إن الفكر الديني الروحي السماوي بشكل عام يبحث عن الخلاص في الزمان الأبدي، أما الدين الوثني المادي فيبحث عن الخلاص في المكان المادي، أما اليهودية فهي ترى الخلاص في الزمكان، فاليهودي بحاجة إلى المكان (الأرض المقدسة)، وإلى الزمان (آخر الأيام) والذي تزول فيه ممالك العالم على يد المسيح المنتظر وكيل الرب (يَهْوَه) على الأرض، ويحل مكانها (الملكوت الأبدي) والذي يقوم فيه المسيح اليهودي المنتظر (المسيا) بقيادة جماعة إسرائيل ليعيدهم إلى إرتس إسرائيل، بعد أن يخرج اليهود الخروج الأخير من عالم الأغيار المدنس، ويدخلون إلى أرض كنعان المقدسة الدخول الأخير، على اعتبار أن بداية الزمان كان بخروج اليهود من عبودية مصر ودخولهم إلى أرض كنعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وبذلك يصبح التاريخ اليهودي ذا مفهوم دائري، فحيث ابتدأ التاريخ في أرض كنعان، سينتهي فيها بعد أن تتزايد معاناة اليهود المضطردة، والتي تشكل إحدى علامات اقتراب آخر الأيام.

وقد دخل معتقد آخر الأيام بحالة جدلية مع معتقد يوم القيامة كما هو في التصور الإسلامي (للأحياء والأموات) الذي دخل على اليهودية في مرحلة ما بعد السبي، والذي سيحدث خارج التاريخ، والذي سيسبقه يوم الحساب، على الرغم من أن اليهودية التوراتية التقليدية تعتبر أن العقاب والثواب هي شؤون أرضية، وقد بدأ معتقد (يوم القيامة) يدخل على اليهودية في مرحلة متأخرة، وبطريقة خافتة، بعد احتكاك اليهودية بالزرادشتية في زمن السبي البابلي، وتبلور هذا التصور بعد انتشار الإسلام، بحيث أصبح يوم القيامة (نهاية التاريخ) في التصور اليهودي يقع أو يشكل اليوم الذي يمفصل ما بين داخل، وخارج التاريخ.

ولكن التصور، أو معتقد (يوم القيامة) انحرف كثيرا في الحلولية الغنوصية اليهودية، والتي تذهب إلى أن الإله والإنسان والطبيعة ذوو تشكيل واحد مندمج (وحدة الوجود الروحية)، وأن الكون شرير ويمثل سجناً إنسانياً، والزمان رديء، وأن الإنسان (ذو الصفة النورانية الإلهية) لا ينتمي إلى هذا العالم، ولكنه سقط فيه بسبب خلل كوني، ولا يمكن الخلاص إلا بوصول الإنسان إلى الكمال (بحيث يتحول الإنسان إلى إله)، وبمعنى آخر فإن

الخلاص يتحقق من خلال اتحاد الذات الإنسانية بالإله بحيث يصبحان واحدا متحدا، في المكان المقدس.

إن هذه الأنماط الفكرية اللاهوتية التي لا تخلوا من غرائبية، ولا سيما عقيدة شعب الله المختار، وعقيدة المسيح اليهودي المنتظر، وعقيدة أرض الميعاد، هي التي ساهمت بتشكيل (نحن) جمعية على نحو خاص، بحيث استطاعت اليهودية (لا اليهود) من عمق التاريخ أن تحافظ على الجماعات اليهودية، دون أن تصل إلى حافة الانقراض على الرغم من دنوّها منها في فترات ليست بالكثيرة، وبقيت هذه الجماعات (بغض النظر عن تماسكها الأثني) لها حراكيتها التاريخية الخاصة، على الرغم من دخول وخروج كثير من أنواع الدماء فيها.

كان العبرانيون الأسلاف الأثنيين لليهود، واليهود من بعدهم قد واجهوا عدة أزمات حضارية في الزمن القديم، أهمها الأزمة التي تشكلت في سياق مواجهة الجماعات العبرية للحضارة الفرعونية، والتي يقال إن على إثرها تبنت الجماعات العبرانية العقيدة اليهوية التفريدية، والتي تمثل عقيدة التوحيد بشكلها البدائي من خلال عبادتهم للإله (يَهْوَه) (رب الأرباب)، ثم مواجهتها مع الحضارة الكنعانية والتي انتهت بتشكيل مملكة إسرائيل التي أصبحت الأرض المقدسة والتي تمخضت عنها عقيدة أرض الميعاد، ثم مواجهتها مع الحضارة الرافدية الآشورية، والبابلية والتي ساهمت بتبلور العقيدة اليهوية، وشكلت الدين اليهودي التوراتي التقليدي، ثم مواجهتها مع الحضارة الفارسية حيث أفرزت اليهودية عقيدة المسيح اليهودي المنتظر، وأتت بعدها المواجهة الكبرى مع الحضارة الهيلينية، والتي استطاعت أن تتزاوج معها وتخرج من أزمتها من خلال ولادة عدة مذاهب (الصدوقية - الفريسية - الأسنية)، وكان للفكر الفارسي والتدمير الروماني التأثير الكبير في ولادة وانتشار الديانة المسيحية التي خرجت عن اليهودية بعيدا، ثم انزلقت اليهودية مع الحضارة الإسلامية متأثرة بعلم الكلام، والعقلانية الإسلامية وأفرزت المذهب القرائي في بغداد في بداية العصر العباسي، وكانت أزمتها الكبرى في العصر الحديث مع المادية العلمانية الأوربية حيث أفرزت اليهودية عدة أنواع أو اتجاهات يهودية عقيدية تصورية أهمها الغنوصية الحلولية التي أفضنا في الحديث عن أسسها العقيدية التصورية، كما أفرزت أيضا عدة أنماط إيديولوجية، اجتماعية، دينية أهمها (المحافظة - الإصلاحية - التجديدية - اللايهودية - الصهيونية)، وأهم هذه التيارات كانت الصهيونية التي استطاعت في نهاية القرن التاسع عشر أن تطرح حلا لهذه الأزمة بتشكيل دولة إسرائيل الصهيونية، ويبدو أن طرح الصهيونية بدل أن يساهم في حل المسألة اليهودية التاريخية سيقودها إلى أزمة أو كارثة تاريخية وجودية كبرى.

إن الصهيونية التي ولدت من تزاوج الفكر القومي الأوربي السياسي، والفكر القبّالي الصوفي الحلولي اليهودي الديني، كان طرحُها إثني - ديني - علماني، حيث اعتبرت الصهيونية نفسها مسيحاً سياسياً لخلاص الشعب اليهودي، من خلال الاستيطان الصهيوني في فلسطين والذي يمثل آخر الأيام الديني، وبذلك فقد قامت الصهيونية بتدجين اليهودية الدينية في حظيرة السياسة وحوّلت القوانين الروحية الدينية إلى قوانين فيزيائية مادية:

أرض إســــــــرائيل

لـــــشعب إســــرائيل

حــسب شــريعة وتــوراة

وهو شعار منظمة غوش إيمونيم، والذي يمثل - حسب ما جاء في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - الثالوث الحلولي السياسي الصهيوني الذي يشكل حالة سياسية مطلقة، والذي يُعتبر ترجمة للمقولة الحلولية اليهودية الدينية: الإله اليهودي للشعب اليهودي على الأرض اليهودية (إيرتس إسرائيل).

وقد اعتمدت الصهيونية في ذلك على عدة ركائز، أهمها أن اليهود يعتبرون حسب التصور الصهيوني أمة واحدة، منحدرة عرقيا من جد واحد، وأن هذه الأمة تتألف من شعب الله المختار، الذي يعاني من الاضطهاد والظلم، ولذا فإنه يستحق عطف العالم، وتأييده، وأن السبيل إلى خلاصه هو حشده في وطن قومي في أرض الميعاد، والتي لم تتنه حتى الآن الصهيونية اليهودية من وضع حدود واضحة لها، فبينما يحددها البعض بفلسطين وشرقي الأردن، يذهب المتطرفون إلى أن أرض إسرائيل تمتد من الفرات إلى النيل.

أما شعب إسرائيل حسب الإيديولوجية الصهيونية فهو الشعب اليهودي، ذو الخصوصية المتأتية من اقترانه بالإله اليهودي «يَهْوَه»، بغض النظر عن جنسيات اليهود السياسية، وفي الوقت الذي تفترض اليهودية أن اليهود شعب عرقي أثني ينحدر من نبع دموي واحد عبر تاريخ خاص مشترك، ومنفصل تماماً عن المجتمعات والشعوب الأخرى، فإن الصهيونية ترى أن اليهود شعب له تراث مشترك لا يشترط فيه وجود دم مشترك.

أما شريعة إسرائيل حسب الإيديولوجية الصهيونية فهي القوانين، والشعائر، والطقوس الدينية المتضمنة في التراث اليهودي الذي نتج بشكل تراكمي عبر أربعة آلاف عام، وأهم كتب هذا التراث هي التوراة والتلمود اللذان شكلا عاصمة دينية تراثية مجازية تكوكب

حولها اليهود على اختلاف قناعاتهم وتوجهاتهم، وبينما يعتبر المتدينون اليهود أن التوراة كلام الإله المقدس، فإن الصهاينة فيعتبرونها فلكلور الشعب اليهودي.

وهذا الثالوث الديني - السياسي (اليهودي - الصهيوني) يشكل كتلة متماسكة، متماهية، ممزوجة مع بعضها بحيث لا يمكن فصل عناصرها، فالإله اختار شعبه الذي تعاهد معه ليتعبد له في الأرض التي اختارها له، كما أنه - أي الإله (يَهْوَه) - قرر السكنى بها (على جبل صهيون)، فالإله (يَهْوَه) لا يتحقق وجوده إلا من خلال وجود شعبه المقدس (اليهود كهنة العالم وشعب الإله المختار) الذي سيتعبد له على أرضه المقدسة (إيرتس إسرائيل التي تشكل مركز الكون)، كما أن الشعب المقدس لا معنى له إلا على أرضه المقدسة التي سيتعبد عليها حسب شريعة إلهه المقدس (هذه الشريعة التي ستبقى بعد زوال العالم)، وكذلك الأمر بالنسبة للشعب المقدس، وتعتبر اليهودية الأصولية أن الشعب اليهودي في الشتات (خارج الأرض المقدسة) هو شعب بلا إله، لأن الرب (يَهْوَه) لا يمكن أن يمارس صلاحياته الإلهية إلا على أرضه المقدسة التي يجب أن يعيش فيها شعبه المقدس، كما أن (يَهْوَه) إله بلا شعب لأنه يقيم في أرضه المقدسة، وهي الأرض التي لا يعيش عليها شعبه المختار، ولأن الرب (يَهْوَه) لا يمكنه العيش خارج أرضه المقدسة، فعلى شعبه المختار أن يعود إلى أرض الميعاد كي يتحد الرب مع شعبه في أرضه المقدسة، ولكن بعض أتباع المذهب الحلولي يذهبون إلى أن الإله «يَهْوَه» قد تخلى عن اليهود، لذلك يجب تغيير اليهودية، بحيث تصبح ديناً من دون إله، أما التصور القبالي الحلولي السائد فيذهب إلى أن الرب (يَهْوَه) الذي يمثل الزوج، لا يمكن له أن ينام مع زوجته (الشعب اليهودي)، إلا على سرير الزوجية الشرعي (الأرض المقدسة)، وبذلك وبعد أن يتوحد، ويمتزج هذا الثالوث المقدس، بحيث يصبح الرب (يَهْوَه) رب العالمين، والشعب اليهودي كهنة الإنسانية، وأورشليم قبلة وعاصمة الكرة الأرضية، ومركز التاريخ.

وبذلك فعلى الصهيونية أن تقوم بامتصاص الشعب اليهودي (شعب بلا أرض) من شتاته، وإعادة ضخه في فلسطين (أرض بلا شعب)، على اعتبار أن التصور اليهودي الديني، والصهيوني الإديولوجي يذهب إلى أن الفلسطينيين لا يمكن أن يطلق عليهم صفة شعب، لأن الشعب الحقيقي التاريخي الوحيد الذي يعيش (حتى في غيابه) على أرض فلسطين المقدسة (إيرتس إسرائيل) هو الشعب اليهودي المقدس، وكل الجماعات التي تعيش في الأرض المقدسة لا تشكل شعبا، بل هم ليسوا أكثر من جماعات عابرة (نزلاء) تشغل المكان بينما يعود إليه أصحابه الحقيقيون حسب وثيقة التمليك الإلهية، وحينها تعود صفة القدسية إلى الأرض والشعب والإله.

وبذلك فإن الصهيونية وظّفت نفسها كقائد عالمي للشعب اليهودي أينما كان في العالم، وعليها أن تقوم بدور إحلالي يتمثل في:

تجميع الشتات اليهودي، وتوحيده، أو إحلاله على أرض فلسطين، وتشتيت الشعب الفلسطيني في العالم كحالة بديلة للشتات اليهودي.

استبدال، أو إحلال الغيتو اليهودي في العالم الغربي، بالمخيم الفلسطيني في البلاد العربية.

إحلال دولة إسرائيل مكان دولة فلسطين.

إحلال التاريخ اليهودي مكان التاريخ الكنعاني، وإحلال الشتات الفلسطيني مكان أو بدل الشتات اليهودي.

إن أهم مكون ساهم بتشكيل وتبلور اليهودية، كما سبق وذكرنا، هو الحالة الهامشية التي كانت قد عانت منها الجماعات اليهودية منذ مرحلتهم العبرية، ثم الإسرائيلية، ثم اليهودية، فقد كان العبرانيون، فيما بين الألف الأولى والثانية قبل الميلاد، يعيشون بشكل هامشي جغرافيا، وتاريخيا، وهذا ما شكّل لديهم شعوراً عميقاً بالدونية، وكانت الشعوب الحضارية (المركزية) تعزز هذا الشعور لديهم من خلال معاملتهم الشوفينية معهم، وهذا بدوره - وكردة فعل - أفرز لديهم عقدة الشعور بالعظمة، الأمر الذي وصل في بعض الحالات إلى أن يوصف بجنون العظمة، واعتقادهم بأنهم شعب الله المختار، الأمر الذي قام بطريقة التلقيم الراجع بتعزيز هامشيتهم وعزلتهم، حيث كانت تنمو لديهم مشاعر العداء والحسد والحقد على الشعوب والأمم، والرغبة في إبادتهم، وتحطيم حضاراتهم.

أما على المستوى الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي فقد أثرت الحالة الهامشية على الأنماط المعاشية الحياتية للجماعات العبرية في سياق انتقال الألف الثانية نحو الألف الأولى قبل الميلاد، كما أن الجماعات اليهودية المتحدرة ثقافيا وعقيديا على الأقل من الجماعات العبرية قد عانت في مرحلة الشتات اليهودي في أوربا ما عانته الجماعات العبيرية من الحالة الهامشية التي أفرزت عدة أنماط أهمها هو نمط الاعتياش الطفيلي، فعدم امتلاك العبرانيين جغرافيا خاصة بهم (وطن محدد بهم)، يعني عدم وجود بنية تحتية اقتصادية معاشية ثابتة تستطيع أن تؤمّن استمرارية وجودهم بطريقة شرعية، وهذا ما جعل العبرانيين ينتظمون على شكل جماعات متعددة، جوالة، منتثرة، مشتتة، متنقلة على أطراف المدن، والحضارات، ليقدموا خدماتهم الارتزاقية، كما أنها أفرزت لديهم، إضافة للنمط الرعوي، نمط الاعتياش على الغزو والسطو الذي كانوا يقومون به تحت جنح الظلام، ومن ثم كانوا ينتقلون إلى مكان آخر، أي أن الحالة العبرانية هي حالة خاصة تقع ما بين النمط الغجري الارتزاقي، والنمط البدوي الرعوي.

وككل الشعوب، حاول العبرانيون أن يستقروا، وأن يشكلوا هوية تكون محل اعتزاز لهم بين شعوب المنطقة، والهوية الحضارية تحتاج إلى الوطن الذي سيشكلون عليه سيادتهم، إضافة إلى بنية ثقافية تمثل تراث الشعب والذي فيه تتجلى فلسفته ونظرته الفكرية والروحية إلى الوجود، وكان لا بد لها في البداية من امتلاك الأرض (الوطن) التي يمكن أن يشكل الحاضن المادي لتشييد البناء الحضاري عليها، شريطة أن يؤمن لهم هذا الوطن حاجياتهم ومتطلباتهم المعاشية، وهذا ما تفتقده الصحارى، والبوادي التي كانوا يعيشون عليها دون الحاجة إلى الدخول في صراعات مع الشعوب عليها، وقد كان أفضل مكان حاولت الجماعات العبرية أن تجعله وطنا لهم هي أرض كنعان الضعيفة عسكريا، والتي من خلال خصائصها يمكن لها أن تستوعب - بدرجة ما من التسامح والتعايش - أثنيات متعددة، فبدأ العبرانيون يتسللون إليها منذ مرحلة الآباء الأوائل، وعاشوا هناك في البداية كبدو رحل، ثم في مرحلة لاحقة - المرحلة الإسرائيلية - استقروا كشعوب من درجة ثانية تعمل في أعمال الرعي، مع أعمال ارتزاقية أخرى (عمال - أقنان - جنود مرتزقة - عصابات وقطاع طرق)، ومع الزمن اندخلوا ضمن المجتمع الكنعاني، واستوطنوا على أطراف المدن الكنعانية، وفي بعض الأماكن ذات التوزع الديموغرافي الضعيف شكلوا تجمعات قروية عملت في الزراعة الرعوية، في الوقت الذي بدأوا يشكلون تراثاً خاصاً بهم، من خلال ما أفرزته تجربتهم الحياتية، إضافة إلى ما اقتبسه أسلافهم العبرانيين خلال تجوالهم على أطراف حضارات بلاد الرافدين وسوريا ومصر من معتقدات وطقوس وعادات مختلفة، لا سيما وأن العبرانيين قد احتكوا أثناء تجوالهم مع معتقدات، وثقافات وعادات متنوعة في أشكالها، إلا أنها ذات جوهر أخلاقي وتصوري واحد، بل إنهم كانوا من خلال اندخالهم في المحيط، أو مسام حدود الممالك كانوا يعتنقون معتقدات تلك الشعوب، وهذا ما مكّنهم من الاطلاع على كل الشرائع، والطقوس، والأعياد، والأناشيد الدينية، وبعد زمان، وبعد امتصاص هذه الأنماط الثقافية واندخالها مع الشخصية العبرية، وقد أورث العبرانيون هذا التراث الذي تعبرن (أي أصبح عبرانياً) مع الزمن، إلى الإسرائيليين الذين اندخلوا مع الشعب الكنعاني وأصبحوا جزءا شبه عضوي منه بعد إئتلافه معه، وقد ورث اليهود من الإسرائيليين هذا التراث، وقد قام اليهود بدورهم أيضا بإضافة مفرزات تجاربهم، مع ما اقتبسوه أيضا في سياق احتكاكهم بالكنعانيين، والبابليين، والفرس، واليونان، والرومان، وقد استفاد اليهود كثيرا في مرحلة السبي في بابل عاصمة الحضارة في تلك الفترة مما اطلعوا عليه من ثقافات، ومعتقدات، وقد حاولوا أن يماهوا، ويمزجوا تلك الثقافات

المتعددة في بوتقة واحدة، ولكنهم لم ينجحوا في مسعاهم، ولم يستطيعوا تشكيل وحدة ثقافية تراثية واحدة، وبقيت تلك الثقافات، والمعتقدات على شكل طبقات تراكمية متراصة متجاورة فيما بينها (الطبيعة الجيوغرافية لليهودية) حسب ما شخصها د. عبد الوهاب المسيري في موسوعته.

وكانت أهم النصوص، والمعتقدات، والتصورات التي قام العبرانيون بعبرنتها، والإسرائيلون بأسرألتها، ومن ثم اليهود بتهويدها بما يتلاءم مع المعتقد الديني التفريدي، هي الأساطير الرافدية وأهمها (الخلق - والطوفان..)، وكذلك الشرائع التي كانت سائدة في الشرق الأدنى القديم، وأهمها شريعة حمورابي، وشريعة القبائل العربية في سيناء، وأيضا الأشعار، والتراتيل والتسابيح الدينية التي كانت تتلى في المعابد التموزية عند الرافديين، والبعلية عند الكنعانيين، وقصائد إخناتون الفرعونية، والتي نجدها في أسفار (المزامير، ونشيد الأناشيد، ومراثي إرميا، وأيوب)، كما أنهم قاموا بتهويد الحكم الإغريقية، والأدب الشعبي للهلال الخصيب، وأمثال الأدب المصري لا سيما منها حكم أمنون مينوب، وقد هودوا هذا الثقافات في سفر الأمثال، أما التلمود فقد كتبوه تحت تأثير الفلسفة اليونانية، والتي اقتبسوا منها أيضا فكرة التوراة الشفوية، كما أخذوا فكرة أو معتقد المسيح المنتظر المخلص من التموزية البابلية، والبعلية الكنعانية، والزرادشتية الفارسية، أما أعيادهم الدينية (الفصح وعيد الأسابيع وعيد المظال) فقد أخذوها عن الكنعانيين، كما أخذوا عنهم، ومن أوغاريت على وجه التحديد، هندسة الهيكل المقدس، وعقيدة التفريد في مراحلها الأخيرة قبيل تطورها إلى عقيدة التوحيد، كما أخذوا عن الأكاديين، ومن بعدهم الكنعانيين الوحي، والملائكة، ولم يتوقف اليهود في تهويد ثقافات الشعوب على اقتباس الأساطير، والآداب، بل قاموا بتهويد تاريخ الشعوب، وتهويد شخصياتهم التاريخية، ولم يكن الآباء الأوائل (إبراهيم - أسحق - يعقوب)، والملوك الأوائل (داود - سليمان) سوى شخصيات قيادية لشعوب أخرى.

ويمكن القول أن التوراة (في جانبها النصي الثقافي - الأدبي) لا تمتلك أي نص أصلي، فجميع نصوصها إما مهودة، أو على أقل تقدير تشكل حالة تناص مع نصوص حضارات بلاد الشرق الأدنى القديم، وحتى قصة يوسف (وهي تعد نمطاً من أنماط الحكايات الشعبية) والتي يعدها البعض أنها نص توراتي أصلي، فقد تم اكتشاف نص في الأدب المصري متناص مع الجانب الأخلاقي الجنسي في قصة يوسف، وحكاية يوسف يعدها الكثير من الباحثين حكاية ملصقة غايتها ربط تاريخ الآباء الأوائل في بلاد كنعان، بالجماعات العبرية في

مصر، وبما أن الاكتشافات ستبقى مستمرة فمن شبه المؤكد أنه سيتم اكتشاف مزيد من النصوص الأصلية التي تتناص معها نصوص التوراة، كما أن التوراة اليهودية تتناص مع نفسها في كثير من المواقع لأن النواة، أو الطبقة الأولى للتوراة اعتمدت على تجميع تراثين شبه مستقلين، هما التراث الإسرائيلي (شمال بلاد كنعان)، والتراث اليهودي (جنوب بلاد كنعان)، وسآتي على بحث التناص في النصوص الشفوية، والمدونة الأسطورية، وعلاقة الأسطورة بالتاريخ.

الشخصية اليهودية

إن الشخصية تتمثل في مجموعة الصفات الشكلية والعاطفية والفكرية التي يتبدى بها الفرد في مرآة الآخر، والشخصية تختلف بين فرد وآخر في الظاهر، والباطن، وفي الثابت، والمتحول، وفي الساكن، والمتحرك، وفي الكينونة، والفعل، وردة الفعل، ومنذ بدء احتكاك الآخرين مع تلك الشخصية يبدأون بتشكيل تصور، أو انطباع عن تلك الشخصية يتوضح أكثر فأكثر مع مزيد من التفاعل معها، وهذا التصور يتحدر منه القانون، أو الأس الذي بمقتضاه يتفاعل الآخر مع تلك الشخصية، ويتطور هذا التصور من خلال مقاربة، ومقارنة الشخصية بالصفات العامة الشائعة لدى الأفراد، أو المجموعات التي تنتمي إليها، وبما أننا نناقش شخصية جماعية، هي الشخصية اليهودية، فمقاربتها تتم من خلال مقارنتها مع مجموعة الشخصيات الجماعية لباقي الأديان على اعتبار أن اليهود هم جماعة دينية، والجماعات الأثنية الأخرى إذا اعتبرنا أن اليهود يشكلون جماعة أثنية واحدة، والأقليات في العالم، على اعتبار أن اليهود يشكلون أقلية دينية، وأثنية في العالم، ولا سيما في العالم الغربي الأوربي المسيحي.

والشخصية اليهودية الجماعية تأتت من عدة ظروف موضوعية تعرض لها الشعب اليهودي في مرحلة الشتات على وجه الخصوص، ولكن، وحسب اعتقادي، فإن أهم ما ساهم في تشكيل الشخصية اليهودية هو الدين اليهودي على وجه التحديد، لأن الشريعة، والشعيرة، ومن خلال ممارسة بعض الطقوس، وتأثير النمط الغذائي الديني يمكن لها أن تساهم، أو تتدخل في صناعة البنية الشكلية للشخص، كما أنها تساهم بشكل كبير في سيكولوجيا الفرد، ونمطه الشخصي، وحتى نمطه الفكري، ومهنته، والذي بدوره أيضا يساهم في إعطاء صفات مورفولوجية، فكما أن بعض الأعمال، والوظائف، والهويات تساهم بتكوين شخصية الفرد كما هو الحال بالنسبة للأطباء، أو عمال المناجم، أو الفنانين التشكيليين، كذلك الأمر بالنسبة لبعض الجماعات المتشابهة بأنماطها الحياتية، وبغض النظر عن وجود صلات قرابة دموية فيما بينها، ومن هنا فقد ساهمت العقيدة اليهودية في إعطاء اليهود صفات شكلية، ونفسية متقاربة، ومميزة عن محيطهم الاجتماعي الذي كانوا قد حاولوا أن

يحافظوا على مسافة فضفاضة بينهم وبين أعضاء المجتمع العضويين، ويضاف إلى كل هذا أن اليهود حاولوا ما استطاعوا أن لا يندمجوا في المجتمع العضوي، وبالتحديد أن يحدوا من اختلاطهم الوراثي بعدم التزاوج معهم، كما أن هذه الظروف نفسها جعلت اليهود يتشابهون إلى درجة ما في الكثير من المجتمعات المتفرقة، والأماكن المتباعدة، على الرغم من وجود عوامل بيئية وجغرافية وقومية تؤثر في صناعة الصفات المورفولوجية للشخصية، كما ساهم المجتمع العضوي في صناعة بعض الصفات الشخصية لليهودي من خلال عزل اليهود اجتماعيا، ومن خلال توظيف الجماعات اليهودية في أعمال معينة أعطته، أو أكسبته، أو ساهمت في تكوين صفات شخصية محددة.

إن تحليل، أو مقاربة الشخصية الجماعية (الطبعية، والتطبعية)، يتطلب معرفة سيرة هذه الشخصية التاريخي، والاطلاع على معتقداتها، وتصوراتها، وتراثها، ورصد البواطن التي تقف وراء الظواهر التي يتبدى فيها الفرد للوصول إلى تجريد شخصية نمطية، اختزالية، عمومية، وليست شمولية، لأن الكثير من الشخصيات التي تنتمي لنفس المجموعة قد تحمل صفات متناقضة مع الشخصية النمطية الإدراكية التي يمكن تشخيصها، وهذا لا يضعف الثقة بالمقاربة التشخيصية، فالشخصية اليهودية يمكن رصد عدة أنماط لها تختلف باختلاف الزمكان، وحسب خصوصيات المجتمعات المحيطة، والقوى المؤثرة فيها، ولكن يمكن مقاربة أو تشخيص الشخصية اليهودية من خلال ما هو مشترك، ونسقي، ومتكرر في مجموع هذه الشخصيات، وقد كانت الشخصية اليهودية في التصور الذهني للأوربيين ذات خصائص متباينة تبعا لاختلاف الزمكان، والمجتمعات، وكانت تتدرج ما بين صورة اليهودي المرابي الجشع الذي يمتلك المال، ويستغل من خلاله المسيحي الذي اضطرته ظروفه إلى حاجته لمال اليهودي المرابي بشكل طارئ، وبين اليهودي المتسول الذي يحمل بعض الحاجيات على ظهره، أو على عربة ويبيعها في القرى والأرياف، وكان التصور الأوربي الأكثر شيوعا عن الشخصية اليهودية، هو الذي جاء في قاموس أكسفورد، والذي عرف اليهودي بأنه شخص ينتمي إلى العرق العبري، ويضيف القاموس أن اليهودي يعني في اللغة الدارجة مرابيا جشعا لا يعرف الرحمة في المعاملات، ويتابع القاموس، وهناك أيضا مَثلٌ يقول: غني كاليهودي، وهذا يعني أو يوحي أنه أصبح غنيا بطريقة غير إنسانية أو غير شرعية، وأن فعل jew الذي أُخذ من كلمة اليهودي بمعنى تهوّد كاشتقاق لغوي، يعني غشّ وخدع.

وقد تبلورت لدى العالم الأوربي في العصور الوسطى تلك الصورة الشخصية الاختزالية المجازية الإدراكية، وقد قام المسيحيون بتصوير تلك الشخصية بصورة بشعة، ونسبوا إليها

كل الأعمال الشريرة، والدنيئة، بل وانتشرت مجموعة من الخرافات حول الشخصية اليهودية منها أن لليهودي وجه كبش مع قرون، وذيل ينمو ليلا في مؤخراتهم، كما أنهم مصابون بداء السل، ودائموا النزف من أيديهم، كما أنهم ينزفون من سررهم يوم الجمعة العظيمة، ولديهم بواسير شرجية، ولا يستطيعون البصاق، وتتكاثر الديدان في فمهم ليلا، وتفوح منهم رائحة قذرة على اعتبارهم أبناء الشيطان، كما أنهم كانوا يعتقدون أنه إذا ما لمس اليهودي الفاكهة فإنها تجف لتوها، وقد توطدت هذه الصور الاختزالية بسبب حب اليهود للانعزال الذي كان يحرض الخيال الشعبي على ابتداع الخرافات عن تلك الشخصية.

والشخصية اليهودية في التصور الأوربي المسيحي تمثل بشكل عام التصور الانطباعي لكل الأمم، وهي ترتبط بالخلاف اليهودي المسيحي حول تاريخية، وشخصية يسوع عيسى بن مريم، فالعالم الغربي المسيحي، يحتقر اليهودي على اعتبار أنه ناكر وقاتل المسيح حسب ما جاء في إنجيل متى «فأجاب جميع الشعب - أي اليهود - وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا» متى ٢٧. ولكن في ذات الوقت فإن هؤلاء اليهود هم (الشعب الشاهد) على قيام المسيحية، ولذا فيجب الحفاظ عليهم، وهذه تمثل التصور الكاثوليكي لليهود، أما التصور البروتستانتي فيذهب إلى أن اليهود على الرغم من كل سيئاتهم، فإنهم يمثلون حجر الزاوية في الخلاص المسيحي حسب ما جاء في إنجيل يوحنا «لأن الخلاص هو من اليهود» يوحنا ٤. وكان مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) قد قال عنهم {إذا أردنا أن نجعلهم خيرا مما هم، فعلينا أن نعاملهم حسب قانون المحبة المسيحي، لا قانون البابا، علينا أن نحسن وفادتهم وأن نسمح لهم بأن يتنافسوا وأن نتيح لهم فرصة فهم الحياة والعقيدة المسيحيتين، وإذا أصر بعضهم على عناده فما الضرورة في ذلك؟، نحن أنفسنا لسنا جميعا مسيحيين صالحين}، {إن الله خلق اليهود أسيادا، وما نحن إلا الكلاب التي تأكل من فتات موائدهم}، إلا أن هذا الخطاب الاحتوائي تراجع عنه مارتن لوثر في مرحلة لاحقة {أيقنت أن اليهود أناس غلاظ الأكباد، انحرفوا عن شريعة موسى، وزوروا كتبه وأقواله، أما معابدهم فما هي إلا مواخير للفسق والفجور، فيجب علينا إحراق كتبهم المزورة، وتدمير معابدهم القذرة لننقذ شعبنا من خطرها، فلو عاد موسى بنفسه للحياة لأمر بحرقها، وإزالتها من الوجود}، {هم وحوش ضارية، وأفاع سامة، يجب مطاردتهم حيثما كانوا والقضاء عليهم كما يقضى على الكلاب المسعورة}.

وبشكل عام فإن المسيحي ينظر إلى اليهودي إلى أنه ضال، وجاحد لأنه لا يؤمن بأن المسيح عيسى بن مريم هو المسيح الذي بشّر به الأنبياء اليهود المتأخرين، بل وإن اليهودي حسب ما جاء في التلمود ينظر إلى المسيح على أنه كان يهوديا كافرا، وأنه ابن زانية، وقد حملت به

أمه مريم (العذراء) سفاحا من جندي روماني، فقد ورد في الكتابات اليهودية (سفر حياة يسوع الذي كتب في محيط القرن الثاني أو الثالث الميلادي) أن شخصا فاسقا، فاجرا كان يعيش في الجليل يدعى يوسف بانديرا، وقد غرر بجماله فتاة تدعى مريم. وقد جاء أيضا في إحدى الكتابات اليهودية «على أن امرأة (مريم) كانت حائضا في ليلة عرسها، ولذا فقد هجرها زوجها، فأتى إليها شيطان (روح شريرة) ونام معها فحملت منه، وولدت طفلا (المسيح) دون أن يمسها بشر» وهذه القصة (الإيحائية) التي دسوها في كتبهم غايتها الإساءة للمسيح ولوالدته مريم العذراء، وبالتالي للمسيحية، والمسيحيين ككل، كما أن المسيحيين يكرهون اليهود لأنهم ينعتون المسيح بأنه يهودي مجدف، خرق، وخان اليهودية، وغيّر العهد الأبدي اليهودي والمتمثل بالختان، واستبدله بالتعميد، كما أنه خرق أحد أهم مقدسات اليهودية، وهي سبوت يوم السبت، واستبداله بيوم الأحد، إضافة إلى ذلك وتوسعا في هذا السياق، فإن بعض المسيحيين الأوربيين كان يهاجم اليهود كهجوم مقنع على المسيحية (على اعتبار أن اليهود هم النسخة البدائية للمسيحية)، فكانوا يروّجون أن التوراة مزيفة، وأن الآباء الأوائل كانوا بلا أخلاق، وأن اليهود شعوب همجية لا تعرف الرحمة، وأن الدين اليهودي دين القانون والشريعة القاسية، التي لا تدرك المفاهيم الروحية، وتقضي على الحس الخلقي الداخلي (الضمير الإنساني).

ومن هذه التصورات المسيحية بشكل عام، والغربية الأوربية بشكل خاص اشتقت عدة صور إدراكية لدى المسيحي الأوربي، حيث كان ينظر إلى اليهودي على أنه مصاص دماء، وأنه يدنس خبز القربان، ويسمم آبار الماء، ويقوم بكل الموبقات والأعمال الشريرة لأن اليهودي يكره الآخرين بشكل عام، والمسيحيين بشكل خاص، وهذا التصور المسيحي للشخصية اليهودية يتماثل إلى درجة كبيرة مع تصورات الأمم والشعوب الأخرى دون استثناء.

وعلى الرغم من أن الشخصية تتأثر، وتتبدل تبعا للزمكان، إلا أن اليهودي حافظ، بشكل عام، على شخصية إدراكية نمطية شبه موحدة، وإن كانت هذه الشخصية تتغير قليلا حسب تغيرات الزمكان، لكنها تعود مرة أخرى إلى نمطيتها التقليدية في تصور الآخرين لها، وفي هذا السياق يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية {وأينما وجد يهود في أي زمان ومكان فإن المتوقع أن يسلكوا السلوك اللاأخلاقي نفسه الذي ينم عن الرغبة في تحطيم الآخرين والتآمر ضدهم. وبسبب هذه الأخلاقيات اليهودية المزعومة، يتسم سلوك اليهود بحب العزلة عن الآخرين وعدم الولاء للدولة والانحلال الجنسي، كما أنهم لهذا السبب ينخرطون بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية وينضمون إلى صفوف دعاة العلمانية الشاملة، كما أنهم عادة يعملون بالتجارة والربا والأعمال المالية}.

ويذهب د. عبد الوهاب المسيري الذي حاول جاهدا في موسوعته أن يدافع عن جوهر العقيدة اليهودية، وأن يفصل ما بينها، وما بين الصهيونية، إلى أن الصفات الشخصية اليهودية هي، بالدرجة الأولى، نتاج كون اليهود على مر تاريخهم في الشتات كانوا يشكلون أقليات يعيشون بين أغلبيات، وأن هذه الصفات التي تميز الشخصيات اليهودية، هي نفسها التي تميز شخصيات الأقليات على اختلاف أثنياتهم أينما وجدوا في العالم، متجاهلا إلى درجة ما تأثير التصور العقيدي الثقافي الفلكلوري اليهودي في تشكيل الشخصية اليهودية، ولم ينوه إلى أن الشخصية اليهودية في أكثر الدول، وبخاصة في الدول العظمى، وتحديدا في الولايات المتحدة الأمريكية التي تكثر فيها الأقليات، بل إنها تتشكل اجتماعيا من مجموعة أقليات بشكل عام، استطاعت الشخصية اليهودية أن تحقق حراكية مميزة عن باقي الأقليات، كما أنه لم يستحضر تجربة الجماعات الغجرية في أوربا الشرقية على وجه الخصوص، والتي تتشابه إلى درجة ما مع تجربة الجماعات اليهودية، وحسب اعتقادي، لو كان لدى الغجر كتاب ديني يلتفون حوله كعاصمة سياسية دينية كما هو الأمر بالنسبة لليهود لشكلوا هم أيضا سياقا مماثلا للسياق اليهودي الصهيوني، لأن من حافظ على اليهودية هو عاصمتهم الكتابية التوراة، والتلمود الذي ساهم في عصرنة اليهودية وشكل مصدرا تشريعيا حاول، دون أن يفقد قدسيته، أن يستوعب معطيات الزمكان، والتحولات التاريخية في أوربا على وجه الخصوص، وقد استطاعت الصهيونية أن توقّع تلك العاصمة الروحية على الأرض من خلال تشكيلها دولة إسرائيل الصهيونية، يقول جورجي كنعان في كتابه (الله هو القضية) {إن القصص الميثولوجية والمفاهيم الدينية التي ينشأ عليها ويؤمن بها الإنسان هي التي تفعل فيه وتحدد له شخصيته وترسم معالمها}.

ومن هنا، فإن مقاربة الشخصية اليهودية بطريقة موضوعية، توجب على المرء أن يدخل إلى اليهودية، وأن يتقمصها، ويفكر كما لو أنه يهوديا، وهو الأمر الذي من شأنه أن يبدد الكثير من النقاط التي ربما تثير لدى المرء الاستغراب من تراكيب وصفات الشخصية اليهودية التي تبدو أحيانا غير نمطية بسبب الطبيعة الجغرافية لليهودية.

وهذه القضية تحتاج إلى أن يلم المرء بالخطوط الكبرى - على أقل تقدير - للدين اليهودي (التوراتي - والتلمودي)، والتصورات الثقافية والفلكلورية اليهودية، وللتاريخ اليهودي الديني الأسطوري، إضافة إلى الظروف التاريخية التي مرت بها الجماعات اليهودية في غير زمكان، والتي لها دور لا شك فيه في تعزيز صفات الشخصية اليهودية، لأن التاريخ اليهودي في

الذاكرة والذهنية اليهودية أكثر حضورا من التجارب الشخصية، ومن الثقافات التي قد يتعامل معها اليهودي في سياق تجربته الحياتية الخاصة.

والطريقة المثلى لمعرفة، وتحليل، واحتواء الشخصية بشكل عام، يتم من خلال تقمصها، أو تمثلها، وهذا يبدأ بالدوران حول تلك الشخصية، ليحيط المرء بها من كل الجهات، وعلى عدة مستويات عمودية، ومن ثم الدخول إليها، كما يحتاج إلى دراسة عدة عينات من الشخصيات بحيث يستطيع المحلل، إلى حد كبير، أن يقارب الشخصية النمطية، واللانمطية، وعلى المرء أو المحلل كي يكون موضوعيا في تحليله للشخصية، أن يحيّد رؤيته الذاتية، ومجموعة القيم، والأخلاق، والتصورات والمعتقدات التي تشكل شخصيته الفردية، كما عليه أن يمتلك، أو يكون مطلعا على أكبر قدر ممكن من المعلومات العامة، عن الأنماط الاجتماعية، والمعتقدات الدينية، والتصورات الوجودية، والقيم، والعادات والأخلاق الإنسانية بشكل عام، والمتعلقة بالشخصية المرصودة بشكل خاص في حالة السبات، وفي حالة حراكها الاجتماعي، وانطلاقا من هذه المبادئ يمكن لنا أن نخوض غمار البحث عن صفات الشخصية اليهودية على وجه الخصوص.

إن أهم الصفات التي تميز الشخصية اليهودية، والتي يمكن للمرء استقراؤها، ودون الكثير من العناء، هي العنصرية، والأنانية، والنرجسية التي ترفض أي مقاربة لها لأنها تعتبر نفسها مميزة، ككل شخصية عنصرية، ولا يمكن مقارنتها مع سواها من الشخصيات، وهو الأمر، وككل الأنماط العنصرية، الذي جعل الجماعات اليهودية في العالم كما لو أنهم كتلة واحدة، إضافة إلى ذلك اتصفت الشخصية اليهودية بماديتها وبحبها، وولعها، وجشعها الشديد للمال، الذي يجب الحصول عليه بشتى الطرق الشرعية، وغير الشرعية، وقد جندت الشخصية اليهودية ذكاءها التي امتازت به، إضافة إلى الجهد، والمثابرة في الحصول عليه، وهو الأمر الذي جعل تلك الشخصية تتصف بالتطفل، كما أضاف إليها صفة الجبن، والغدر، والاستغلال، وهذه الصفة من الصفات التي اتسمت بها الشخصية اليهودية في كل زمكان بحيث لا يختلف اثنان على هذه الصفات، وقد تحدث عن هذه الصفة الكثير من المفكرين، والأدباء، والقادة السياسيين، يقول ماركس {جوهر اليهودية هو المتاجرة وأساسها المنفعة العملية والأنانية}، {المال هو إله إسرائيل الطماع ولا إله سواه}، أما المفكر الاشتراكي فورييه (١٧٧٢ - ١٨٣٧م) فيرى أن اليهود شريرون، ولا انتماء لهم كما هي التجارة، وأن نجاحاتهم المالية جميعا ذات مصدر واحد هي الأعمال الطفيلية غير الشريفة، إضافة إلى بخلهم وطمعهم المميزين، وإضافة إلى ذلك فإن فورييه يصفهم بأنهم خائنون لا عهد لهم، لذلك كثيرا

ما يعملون في الجاسوسية، والإجرام. وكان تلامذة فورييه قد وجهوا خطابا إلى اليهود في العالم يقولون فيه {أيها اليهود! إلى أعالي سيناء، حيث أرسل الإله بالوصايا العشر التي تخرقونها دائما، إلى موسى والإله الذي تركتموه بسبب حبكم الشديد إلى الذهب... اعبروا البحر الأحمر مرة أخرى، ولتنزلوا إلى الصحراء مرة أخرى، إلى أرض الميعاد التي تنتظركم، الأرض الوحيدة التي تناسبكم، أيها الشعب الشرير الوقح الخائن، اذهبوا إلى هناك}.

وقد ساهم امتلاك اليهود للمال، إلى جوانب عوامل أخرى إلى أن يكونوا أصحاب يد طائلة، فعلى الرغم من أن اليهود يمثلون أقليات هامشية في المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها، فإن لهم حضوراً كيفياً يفوق حضورهم الكمي بعدة مرات نسبة إلى الأغلبية، وإلى الأقليات الأخرى، وهم لا ككل الأقليات بل أكثر تميزا من هذه الجهة، ولذا كان لهم دور كبير في صناعة تاريخ الجماعات، والدول من خلال تحكمهم بما يدور في الكواليس من دسائس، ومؤامرات، وكان العالم الشهير أديسون في سنة ١٧١٢م قد وصف اليهود بأنهم يشبهون المسامير في المبنى، أو في الهيكل، فهي لا قيمة لها بذاتها، إلا أن لها أهميتها في تشكيل الهيكل، وكان ماركس يقول إن اليهود هامشيون، ولكن على الرغم من هامشيتهم وحرمانهم من حقوقهم، إلا أنهم كانوا يصنعون مصير الكثير من الدول، بل مصير أوربا كاملة، وبمعنى آخر إن الهامشية اليهودية كانت تمارس قرارات مركزية من خلال وظيفتهم كأقنان للملك، وللسلطة، ومن خلال بيوتات المال، وكان الرئيس جورج واشنطن (١٧٣٢ - ١٧٩٩م) قد قال عن اليهود {إنهم يعملون بشكل فعال ضدنا أكثر من جيوش العدو. فهم أكثر خطورة مئة مرة على حريتنا.. وهم السبب الرئيس في انشغالنا.. إن على الدول أن تنوح أو تحزن منذ فترة طويلة لأنهم لم يقوموا باصطياد هؤلاء القوم على أنهم الطاعون أو حشرات المجتمع.. فهم أعظم الأعداء لنا ولسعادة أمريكا}، وهو يتطابق مع خطاب الرئيس الأمريكي فرانكلين في المؤتمر الذي عقد لإعلان الدستور الأمريكي سنة ١٧٨٩م {حيثما استقر اليهود فإنهم يوهنون من عزيمة الشعب، ويزعزعون الخلق التجاري الشريف. إنهم لا يندمجون بالشعب، لقد كونوا حكومة داخل الحكومة، وحينما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا.. إذا لم يستثن اليهود من الهجرة بموجب الدستور ففي أقل من ١٠٠ سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التي ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا الفردية إذا لم يستثن اليهود من الهجرة فإنه لن يمضي أكثر من ٢٠٠ سنة ليصبح أبناؤنا عمالا في الحقول لتأمين الغذاء لليهود الذين يجلسون في بيوتهم المالية مرفهين يفركون

أيديهم غبطة.. النمر لا يستطيع تغيير لونه. اليهود خطر على هذه البلاد.} ، وهذا الخطاب هو حال كل الخطابات القومية الأوربية التي كانت تنظر إلى الجماعات اليهودية على أنهم كائنات طفيلية استغلالية، وجراثيم تسمم الجسد الذي تحل فيه، أو خلايا سرطانية تفتك في بنية المجتمع الذي يحلون فيه، وهو ما لخصه ماكس نوردو في قوله أن اليهود {كائنات دقيقة لا تراها العين ولكنها في واقع الأمر تقوض المجتمع من الداخل وتفت في عضده، وذلك إن لم تعرّض للشمس}.

وسأقتطف بعض الشهادات، وتحديدا من الشخصيات الشهيرة، والقيادية، حول طبيعة اليهود، وللاطلاع على مزيد من هذه الشهادات يمكن الرجوع إلى كتاب د محمد جمال طحان (الخديعة الكبرى).

يقول الكاتب الفرنسي صموئيل ميشيل {إن اليهود منذ أقدم العصور كانوا وما زالوا تلك العلقة الشرهة التي تعيش عالة على جسد كل مجتمع حلت فيه، وهي تعيش على حساب شعبه ومقدراته، وهي تشكل باستمرار المعول الهدام الذي يخرب كل قيمه وأخلاقه ومقدساته}.

ويقول نابليون بونابرت {لا يمكن لأي إنسان أن يعمل على تحسين صفات اليهود مهما بذل من جهد، ولا يمكن له إقناعهم بالحجج والبراهين، ويتوجب علينا أن نسن لهم قوانين تخصهم وتنحصر فيهم، فمنذ عهد موسى كان اليهود طغاة ظالمين أو مرابين حاقدين. إن موهبة اليهود وذكاءهم يتركزان على أعمال النهب والسلب والاحتيال، وهم يعتقدون حسب تعاليم التلمود أن ربهم يبارك سرقاتهم وجرائمهم وخطاياهم، فيجب علينا أن نحظر على اليهود التعامل بالتجارة وأعمال صياغة الذهب لأنهم يشكلون أحط صنف بشري في هذا المجال، إن اليهود هم جراد وديدان نهمة تفترس فرنسا، يجب أن لا نعتبر اليهود طائفة وإنما شعبا، فاليهود يشكلون شعبا يعيش في قلب الشعوب الأخرى، إنهم يشكلون شعبا قادرا على القيام بأبشع الجرائم فعلينا أن نعتبرهم أجانب وغرباء، وليس هناك حقارة أكبر من حكم اليهود للناس لأنهم أقذر الأجناس البشرية على سطح الأرض}.

أما الملك بطرس الأول فيصف اليهود بأنهم {نصابون محتالون ولا يأخذون إذنا من أحد في الاستيطان وممارسة تجارتهم الخبيثة في الربا الفاحش}.

أما الكاتب الفرنسي الشهير فولتير فيقول {اليهود همجيون لأنهم أذلاء في العسر، ووقحون في اليسر، ستجدون في اليهود شعبا همجيا جاهلا عدوا للقيم الإنسانية الرفيعة، وقد عرفوا بالبخل الكريه منذ زمن طويل}.

ويقول إمبراطور روسيا نيقولا الأول مشيرا إلى الدور الطفيلي الذي يلعبه اليهود {يعتبر اليهود ألعن وأخبث المخلوقات البشرية في ابتزاز الناس وخداعهم وطرق غشهم في كل شيء حتى الخبز الذي لم يبذروا حنطته كانوا يتقاضون أجرة حصاده وقبل بذاره، وكانوا أشبه بالعلقة التي تمتص دم الشعب وجهده وتحيله إلى الفناء والهلاك}.

أما فريدريك ملك بروسيا فيقول {لا يوجد خطر أشد فتكا من خطر التجار اليهود المعروفين بجشعهم في جني الأرباح الفاحشة غير الشريفة ولا المشروعة}.

وأخيرا يقول البابا كليمانت الثامن {جميع الأوربيين يعانون من الربا الفاحش وعمليات الاحتكار القذرة والغدر بالسكان المسيحيين الذين يعيش اليهود في وسطهم، هؤلاء اليهود الذين سببوا ويسببون الفقر المدقع لكثير من المسيحيين الأبرياء لا سيما العمال والفلاحين، هذه الطبقة المنتجة المهمة، وعلينا أن لا ننسى أن اليهود كانوا وما زالوا ضيوفا سيئين ومخربين في أوربا كلها التي عاشوا فيها، فعلينا أن نحذرهم ونحذر تعاليمهم الأخلاقية الشديدة السوء وتصرفاتهم اللاإنسانية والقذرة في البلدان التي تستضيفهم}.

ومن تلك التوصيفات السابقة، ومن معرفة بعض الأحداث والقصص التاريخية حول بعض الشخصيات اليهودية يمكن لنا أيضا أن نقارب صفة، أو نمطا آخر للشخصية اليهودية يتمثل في الشخصية المعادية للمجتمع، أو الشخصية السيكوباثية والتي تتميز بالأنانية، والعدوانية، والقسوة أيضا، والغدر، والاحتيال، والثعلبية، والخديعة، كما وأن الشخصية السيكوباثية تمتلك الذكاء الذي من خلاله لا تمل من إحداث واصطناع المشكلات ضمن المجتمع من خلال النميمة، والتجسس على الآخرين، وافتضاح، أو التهديد بافتضاح خصوصياتهم، لا سيما وأن الشخصية السيكوباثية من خلال حسها النقدي المميز تكثر من إنتاج، المجازات، والاختزالات، والنكات، والسخرية من الآخرين، كما أن تلك الشخصية المعادية للمجتمع لا تتورع أن تكذب وتفتري، وهي قادرة على الادعاء، والتبجح، والمحاجة إلى ما لانهاية حول أي شيء دون الوصول إلى أي نتيجة، والشخصية السيكوباثية لا تستطيع النوم هانئة إلا إذا أقضت مضاجع الآخرين، وجعلتهم يسهرون قلقا وانشغالا وخوفا، فاستقرارها، وبذلك استمرارها قائم على إحداث قلق محيط بها، والذي خبرت له الشخصية اليهودية السيكوباثية على وجه الخصوص طرقا متعددة للوصول إليه، وبطريقة مشروعة حسب العقيدة اليهودية، فقد جاء في التلمود {للوصول إلى الهدف الأعظم لا بد لك أن تكذب وتمالئ وتنافق وتسرق بل وتقتل أيضا}، وهو ما عبر عنه روتشلد {يجب على الذين يرغبون في الحكم أن يلجؤوا إلى الدسائس

والخداع، وتلفيق الحقائق لأن الفضائل الاجتماعية الكبرى كالصدق والاستقامة والأمانة ليست سوى عيوب كبرى في السياسة} ، وفي موضع آخر يقول {ليس هناك مكان في العالم لما يسمى بالحرية والمساواة والإخاء، ليست هذه سوى شعارات كنا أول من تظاهر بتبنيها، ووضعناها في أفواه الجماهير لترددها كالببغاء} ، كما جاء أيضا في البرتوكول الأول لحكماء صهيون {إن الغاية تسوغ الوسيلة وعلينا.. أن نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد. وعليه يجب أن يكون شعارنا: كل وسائل العنف والخديعة للوصول إلى الغرض هي السبيل.} .

والشخصية اليهودية المعادية للمجتمع تُخضع أو تسوغ كل مشكلة تحدثها إلى قانون ما، قد يختلف، أو حتى يتعارض تماماً مع قانون آخر تسوغ به مشكلة ثانية، فهي لا ميثاق، ولا عهد لها سوى ما يضمن لها مصلحتها الخاصة، ولن تتورع أبدا في أن تعض اليد التي تمتد إليها، وهو الأمر الذي ساق إلى اليهود كره ونبذ الشعوب، وبالتالي القيام بعدة أعمال اضطهادية، ومقابل الذكاء الذي تتمتع به هذه الشخصية المعادية للمجتمع، فإنها تفتقد إلى الحكمة، وبالذات الاستفادة من تجاربها السابقة، ولذلك فهي لا تستطيع أن تسيطر على نوازعها الشريرة التي ستقودها دائما إلى أن تتعرض للاضطهاد نفسه الذي عانته في تجاربها السابقة، وعلى الرغم من معرفة الشخصية السيكوباثية بنتائج مغامراتها، إلا أنها بحكم طبيعتها لا تستطيع أن توقف - أو تسيطر على - رغباتها ونوازعها الشخصية الأنانية النرجسية، وتمتعها في الخروج عن الأخلاق والقيم والمعايير الإنسانية، وأيضا من حماقة هذه الشخصية أنها بدل أن تؤوب وتمزق اتفاقيتها مع الشيطان فإنها توثق وتطور علاقتها به، وبدل أن تتعاطف مع المضطهدين تقوم هي باضطهاد الآخرين، بل وإبادتهم إذا ما تمكنت من ذلك، وتسوغ ذلك بـ (الإبادة المقدسة) والتي تعيدها إلى أوامر إلهية على اعتبار أن اليهود شعب الله المختار الذي يحق له إلغاء، وإمحاء الآخرين الرجسين للحفاظ على تواجد اليهود المقدس، وعلى تسويغ مشابه أيضا، وتحت شعار (الحرب الوقائية) تقوم الصهيونية بمجازرها واحتلالها واغتصابها لحقوق العرب.

وهنا لنا أن نستشهد بعدة مقولات لرمز النازية أدولف هتلر الذي حاول بنظرته الذاتية العنصرية النازية، التي تشكل حالة مراءاة للعنصرية اليهودية الصهيونية، أن يشخص اليهودية، فهو يقول:

{إن ذكاء اليهودي متجه دوما نحو الهدم والتخريب، فهو وإن فعل خيرا أحيانا فعن غير قصد، لأنه يعتقد فيه الشر، ففعله} .

{إن اليهود ليسوا رحلا، لأن الرحل يتميزون بالمثالية، وهم لم يكونوا رحلا قط، بل كانوا وما يزالون طفيليات تنافس الشعوب على مقومات وجودها، ولئن تركوا المناطق التي سكنوها، فإنما تركوها مرغمين، ملعونين من كل الشعوب التي طردتهم بعد أن ضاقت بهم وبخروجهم عن آداب الضيافة}.

{ليس لليهود حضارة خاصة، ولا أخلاق.. فالشرط الذي يجعل من الشعب شعبا ذا حضارة ليس موجودا في - الشعب المختار - فليس لليهود مثالية، ذلك أن روح التضحية عند اليهود لا تتعدى نطاق الأنا.. أما التضامن الذي تجده بين اليهود والذي يبدو قويا، ليس أكثر من تجمع زمني أشبه بتجمع قطيع من الذئاب لمهاجمة الفريسة، فما أن تنتهي الوليمة حتى يتفرق المدعوون، واليهودي لا يعرف التضامن إلا في حالة الخطر، والتضامن هنا يصبح واجبا في حالتين: تجاه العدو المشترك، أو تجاه فريسة مشتركة، فإذا زالت مسببات التضامن يرجع اليهود إلى أنانيتهم، ويصبح همهم الوحيد: الكيد والمؤامرات، ونهش بعضهم بعضا}.

{لقد تلمست بنفسي تكتل الإسرائيليين، وتجمعهم في حي واحد، ومحافظتهم الشديدة على تقاليدهم وعاداتهم وطقوسهم وإذا ظهر بينهم انقسام فهو مصطنع، وهم بذلك يلعبون لعبة قذرة، تعتمد الكذب طهارة مما يتنافى والطهارة الخلقية، طهارة الذيل التي يدعيها اليهود وطهارة الذيل هذه وكل طهارة يدعيها اليهود هي ذات طابع خاص فقذارتهم كانت تصدم النظر منذ أن تقع العين على اليهودي}.

وكان هتلر قد أجاب عندما، سئل عن سر عدائه لليهود، قائلا {لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران. ونحن وحدنا شعب الإله المختار. هل هذه إجابة شافية على السؤال؟}، وعلى الرغم من أن النازية قد أنتهت، وصمَت خطابها الشوفيني، فما زالت الصهيونية ترفع عقيرتها بخطابها الشوفيني، وتنفذه على الأرض بحق الشعب العربي الفلسطيني.

وهناك الكثير من الباحثين، والمنظرين، والمراقبين وسواهم من يتصور أن اليهود هم أصحاب اليد الخفية، وهم وراء أي عمل دولي خطير، ووراء كل عمل سري، أو ثورة، أو انقلاب سياسي، أو خلاف بين طرفين، وأن كل التنظيمات السرية وراءها يد يهودية، ويسمى من يتبنى هذا التصور بأنهم أصحاب نظرية المؤامرة، ويذهب الكثير من الباحثين إلى أن أصحاب نظرية المؤامرة يقومون بتقديم خدمات مجانية لليهود، وللصهيونية من بعدهم من خلال تضخيم صورة اليهود الشريرة، الأمر الذي يقدم الكثير من المكاسب

لليهود بعدة طرق، ومن هؤلاء د عبد الوهاب المسيري الذي يذهب أيضا إلى أن الخطاب العربي حول اليهودية، والصهيونية قام بتضخيم الصورة القبيحة لليهودية كما قام بتضخيم القوة العسكرية الصهيونية كي يسوغ العرب عجزهم على مواجهة أعدائهم.

ومن جهة أخرى فإن الشخصية السيكوباثية ترتبط، إن لم تكن ناتجاً أو أحد نواتج (فوبيا الآخر) أو ما يدعى بـ (الغيرية)، أي الخوف من الآخر، والذي بدوره يتقاطع أو يرتبط بعلاقة وطيدة مع التصور العنصري اليهودي الذي يذهب إلى أن اليهود هم شعب الله المختار، وهو الذي من جبل من طينة تختلف عن الطينة التي جبل منها باقي البشر (الغوييم) على الأرض، ولا يمكن أن يتجانس، أو يتمازج، أو يندمج اليهودي مع سواه كما لا يمكن تجانس الزيت مع الماء، وكلا الماء والزيت سيرفضان اندماجهما، فاليهودي سيرفض أي اندماج مع الآخر لأنه هذا الآخر سيقوم بتدنيس اليهودي المقدس، ولذا كان لا بد من وضع جدار عازل بينه وبين هذا الآخر المدنس، وهذا الجدار تمثّل في عدة أشكال منها أعمال الإبادة الإقصائية الجماعية التي مارسها اليهود التوراتيون للشعب الكنعاني، كما تمثل من خلال منع الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود، ويعتبر الغيتو نمطا إقصائيا إباديا (سلبيا)، فاليهودي الغيتوي يعتقد أنه هو من جعل العالم يعيش في معتزل عنه، أي أن الآخرين هم الذين يعيشون في غيتو كبير، ومن هنا قلنا إن الغيتو حسب التصور اليهودي يمثل فعلاً إبادياً سلبياً، أي إذا ما كان من الصعب إبادة المدنس، أو إبعاده، فيجب وضع جدار، أو ترك مسافة مناسبة تفصل بين المقدس والمدنس، خشية أن يختلط المقدس والمدنس، وهو ما يدعى بفوبيا الاختلاط، لأن اليهودي لا يمكن له أن يتخلى عن يهوديته بانصهاره مع الآخر، ولكن هناك من اليهود، وانطلاقا من عقيدة المسيح اليهودي المنتظر من يرى إمكانية حصول اندماج مع الآخر من خلال تهود الآخر، شريطة أن يحافظ اليهودي (العرقي) على قدسيته على اعتباره كاهنا لكل البشرية التي سوف تتهود، وبما أن هذا الأمر متروك حتى مجيء المسيح اليهودي المنتظر، فيمكن مرحليا، ولأسباب واقعية جبرية، الاندماج - دون الانصهار - حسب رأي بعض اليهود في مرحلة الاستتارة، وهذا الرأي الذي تبناه البعض يمثل حالة تكيف اضطرارية مؤقتة.

وإضافة للشخصية السيكوباثية، المتشربة بأنانية مفرطة، فإن الشخصية اليهودية أيضا تتصف بإصابتها بفصامية، بل وإن اليهودية التوراتية كعقيدة تعاني من حالة فصامية تتمثل بوجود مصدرين، المصدر الأيلوهيمي، والمصدر اليهوي، أي بوجود إلهين هما إيل، و (يَهْوَه)، بحيث يمكن أن نعتبر إيل يمثل الأنا العليا، حسب نظرية فرويد، أما (يَهْوَه)

فيمثل (الهو)، كما أن الشريعة اليهودية في التوراة، والتلمود أتت على الكثير من التناقضات، كما أن بعض النصوص الدينية في التوراة، والتلمود المكتوبة بلغة العنف، والقتل، وأفعال الأمر بالإبادة والتدمير، يقابلها بعض النصوص الشعرية التي تفيض بالعذوبة، والحب، والعطاء، كما هو الحال في سفر نشيد الأناشيد، كما أن يهودية الشتات (الحلولية الغنوصية التصوفية، والعلمانية المادية)، تحوي ضمن جوهرها حالة تناقضية عميقة بحيث أن اليهودية أصبحت تتدرج ما بين الوحدانية والإلحادية، مرورا بالحلولية، على شكل طبقات متجاورة مستقلة دون أي تزاوج أو تمازج فيما بينها، كما جاء في موسوعة د. عبد الوهاب المسيري اليهود واليهودية والصهيونية، وهذه الطبيعة جعلت من الصعب الوصول إلى إجابة قاطعة لسؤال من هو اليهودي كشخصية نصية عقيدية، وهذه الفصامية العقيدية، انعكست على الشخصية اليهودية بفصامية ذات طورين، طور زوري، وطور العظمة:

- **الطور الزوري (الاضطهادي)**، ويتجلى ذلك من خلال شعور الفرد اليهودي بأن الجميع يضطهدونه، ويحيكون المؤامرات للقضاء عليه، لأنه يمتلك من الصفات الخاصة ما يميزه عن سواه من الشعوب، فهو شعب الله المختار الذي تميز عن سواه من دون الشعوب، وهم أبكار، أو بكر الإله، وهذا الأمر ساهم في تشكيل رغبة ملحة لدى اليهودي لأن يتكتل مع اليهودي الآخر لحماية المكتسبات الخاصة التي يمتلكها اليهودي، والتي جعلت الآخرين حسب رأيه يحسدونه، بل ويحقدون عليه، ويقومون باضطهاده، وقد تعزز الطور الزوري من خلال الطور الآخر الذي يشكل الوجه الآخر لطور الزور، ألا وهو طور العظمة، والذي بدوره يعزز الطور الزوري.

لقد عانى اليهود الكثير من الاضطهادات (الطرد والمذابح) عبر الزمان، وفي غير بلد، في مرحلة الشتات، الأمر الذي منطقيا كان من شأنه أن يجعل اليهود يقفون إلى جانب كل الشعوب المضطهدة في العالم، نجدهم يقومون باضطهاد الشعب العربي الفلسطيني، كما لو أنهم ينتقمون من اضطهاد الآخرين لهم، وهذا يشكل أحد إفرازات الشخصية الفصامية، التناقضية والتي يمكن لي هنا أن أسوق مثالا لتفهم هذه النقطة، وهو ما كان يشعر به الطيارون الإسرائيليون، وهم يقومون بنسف المدن، والقرى الفلسطينية على رؤوس أصحابها في حرب ١٩٦٧م، وكانوا يجهشون بالبكاء، لا لأنهم كانوا يقومون بقتل أناس لا ذنب لهم، أناس بسطاء يعيشون في قراهم الزراعية الفقيرة، بل لأن ذلك كان يذكّر الطيارين الإسرائيليين بما فعلته النازية بالجماعات اليهودية في أوشفيستز، وغيرها من معسكرات

الإبادة، يقول إسحاق يفات في حديث له مع صحيفة لوموند الفرنسية في سنة ٢٠٠٤م، وهو قائد وحدة مظلية كانت قد استطاعت في حرب سنة ١٩٦٧م أن تحتل حائط المبكى، الرمز اليهودي الوحيد المعروف في فلسطين، وأقدس مكان يهودي {رأيت حجارة ضخمة تغلف تاريخ الشعب اليهودي بدءا من الحشمونيين إلى يهوذا المكابي مرورا بالمحرقة وحرب ١٩٤٨، كانت لحظة عاطفية مؤثرة جدا.}.

وهذه الفصامية ناتجة عن تصور أو عقيدة تذهب إلى أن إبادة الآخر غير اليهودي (المدنس) هو واجب ديني، وبمعنى ما فإن أعمال الإبادة المقدسة للفلسطينيين، والتي كان يقوم بها الصهيوني هي تمثل ممارسة طقسية دينية، سيكون لفاعلها جزء حسن عند الرب (يَهْوَه)، وهو الأمر الذي سيقوم بتحييد الضمير، والأخلاق الإنسانية، لأن الرب (الضمير الأعلى، أو ما فوق الضمير) هو الذي أمره بالقيام بهذا العمل، وهو لن يعاقبه على فعلته، بل سيكافئه على عمله هذا، ومن هنا نستطيع أن نفسر دموع الطيارين وهم يقصفون القرى الفلسطينية الآمنة، ومن هنا أيضا علينا أن نعيد النظر في الحكم على هذه الأفعال في محكمة تمثل فيها القيم والأخلاق الإنسانية دور القاضي.

- **طور العظمة**، وهو الطور الذي أفرز العقلية العنصرية اليهودية، التي وصلت هذياناتها إلى ادعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار حسب ما جاء في التوراة، وهو الأمر الذي جعل الشخصية اليهودية شخصية استعلائية شوفينية، نرجسية، وحسب التصور التلمودي، فقد قسم الرب (يَهْوَه)، البشر إلى يهود، وغوييم، أي غير اليهود من الأمم، ومنه اشتق تعبير الأمية، والأمي الذي يعني الجاهل، أو على وجه التحديد الذي لا يعرف القراءة والكتابة، فالعالم حسب التصور التلمودي ينقسم إلى: يهود، وإلى أميين (جاهلين)، والغوييم في التصور اليهودي التلمودي (حيوانات خلقهم (يَهْوَه) بصورة آدمية ليكونوا خدما لليهود)، وهم فاسدون، ومدنسون، وبالتالي فكل عقائدهم مزورة، ولذا يجب عدم الاختلاط بهم حتى لو جلب لهم ذلك كره الغوييم، كي لا يتدنسوا بهم، لأن الغوييم في محل الكلاب والخنازير، وبيوتهم كالحضائر، بل وإنهم دواب خلقهم الله كي يمتطي اليهود عليهم، وأن كل أذية يفعلها بهم اليهود تشكل تقرباً إلى الله، بل جاء أن قتل المصلحة من الأمميين هو ضمانة لاستمرار وجود اليهود، وقد شرع التلمود لليهود أن يتعاملوا مع الآخرين (الغويم، أو الأغيار) بمعيارين، الأول مع اليهودي (حسب الدين اليهودي)، والآخر مع الأغيار، يكون جوهره الأخلاقي المصلحة الخاصة لليهودي، وبذلك فقد حرّم التلمود على اليهود إنقاذ أي إنسان من غير اليهود، كما حرم على الطبيب اليهودي أن يعالج غير اليهودي، بل، وفي ذروة الشوفينية اليهودية، جاء في

التلمود (اقتل أفضل الأغيار، اسحق رأس أنبل الأفاعي)، ويرى اليهود التلموديون أن الإنسان الطيب الخيّر من الغوييم هو من الغوييم جسديا، ولكنها حلت عليه روح يهودية بطريق الخطأ، وبالمقابل فإن اليهود، حسب التصور التلمودي، هم أحب إلى الله من ملائكته، كما ينص تلمودهم على أن من يصفع اليهودي فهو قد صفع الله، وأن كل الخير الذي في الأرض ما كان ليوجده الله لولا وجود اليهود، ولذا فإن التلمود يشرّع لليهود اغتصاب أموال غير اليهود، وذلك لأن الرب قد منحهم الحق في أن يتملكوا بأي شكل من الأشكال كل حاجيات الأمميين (الجوييم)، الذين ما وجدوا إلا ليكونوا الهامش الضروري لتحريك التاريخ اليهودي المركزي المقدس.

وقد أدى هذا التصور الاستعلائي، العنصري، الشوفيني اليهودي التلمودي، إضافة إلى تصورهم الذي يغذي شعورهم بتميز الطينة التي جبلوا منها، وبعلاقتهم الخاصة بالإله، إلى عزلة اليهود، وعدم اندماجهم في المجتمعات، وهو الذي أدى إلى تشكيل الغيتو، كما ساهم في تشكيل الروح العدوانية العنصرية ضد الآخر، الذي بدوره ناصب العداء لليهود، وتشكيل ما يدعى بـ (اللاسامية)، والذي بدوره عزز العنصرية عند الجماعات اليهودية، واليهودي بسبب ما يتعرض له من أفعال (لاسامية) يشعر بيهوديته التي تقوقعه ضمن محيطه، والذي عليه أن يدفع ثمنا لانتمائه إليها، ولذا يعتبر اليهود من أهم الجماعات التي تهتم، وتكترث بانتمائها إلى (النحن) الجماعية.

إن العنصرية العرقية تذهب إلى أن الخصائص الشخصية للجماعة تعود إلى نمط الدم الذي يسري في عروق تلك الجماعة، ولذا فإن الحفاظ على الجماعة يحتاج إلى الحفاظ على صفاء الدم فيها، ومن هنا فاليهود يحرّمون على أنفسهم التمازج والتزاوج مع الدماء الأخرى للحفاظ على قدسية الجماعة المقدسة، كما أن هذا التصور يعني أن المكان والزمان لا أثر لهما في تشكيل الجوهر الثقافي للجماعة، أي أن عناصر الجماعة أينما حلوا، وارتحلوا في الزمكان، فإن ذلك لا يغيّر شيئا من صفات الفرد، أو الجماعة المتأتية من الدم، وهو الأمر الذي ساهم في تماسك اليهودية في المنافي، والشتات.

كما أن العنصرية تشكل سجناً ذهنياً يعتقل الجماعة أو شعب الله المختار نفسه، على اعتبار أنهم الشعب المنتخب المميز المتفوق ذو الطبيعة فوق البشرية، ولذا فقد عاش اليهود برضى ضمن جدران غيتواتهم العالية المكانية، والزمانية، وهو الذي عزز لديهم، ولدى الآخرين الذين يعيشون بين ظهرانيهم فكرة الشعب المنبوذ.

واليهودي العنصري يطرح خطابه مع الآخر آخذا بالحسبان مميزاته الخاصة والمتفردة، وهي المميزات التي أفرزتها عقدة النقص التي يعاني منها الفرد الممثل للجماعة، فهو وحده الذي خاطبه الرب، وهو مهبط الرسائل السماوية، وهو شعب الله المختار، وكان أقدم ما وصل من كتابات حول هذيانات العظمة اليهودية هو ما كان المؤرخ اليهودي يوسف فلافيوس قد سجله في كتابه ضد أبيون في القرن الأول بعد الميلاد، حيث يقول: {إن حوليات العبرانيين هي الأقدم من غيرها، كما أن اليهود قد علّموا الشعوب: لقد علّمنا الشعوب الأخرى الكثير من الأفكار الجميلة، فقد علّم إبراهيم المصريين في علم الحساب، ونقل لهم قوانين علم الفلك، فقبل وصول إبراهيم إلى مصر كان المصريون يجهلون هذه العلوم التي انتقلت بهذه الطريقة من الكلدانيين إلى مصر، لتنتقل منها إلى اليونان: لا يوجد مدينة يونانية ولا شعب بربري واحد إلا وانتشرت عنده عاداتنا في استراحته الأسبوعية والصيام وإشعال المصابيح وكثير من قوانيننا المتعلقة بالتغذية اتبعت.}، أما في العصر الحديث فهناك الكثير من الأقوال التي يمكن الاستشهاد بها على تأكيد أن اليهودية (وليس الصهيونية فحسب) هي نمط من أنماط العنصرية، وفي هذا الصدد يقول ليوبنسكر الطبيب اليهودي الروسي (١٨٢١ - ١٨٩١) {يقع جوهر المشكلة في أن اليهود الذين يسكنون بين الأمم المختلفة يكونون عنصرا لا يمكن أن يذوب في هذه الأمم} {إنه شعب فريد لا يمكن الاندماج مع غيره} {فمهما بلغ الاختلاف بين الأمم، فهي تتعاون معا على كره اليهود}، وكذلك الأمر بالنسبة لأينشتاين الذي يرى أن اليهودي يبقى يهوديا حتى لو تخلى عن يهوديته (عرقيته)، وكان أينشتاين يفتخر بأنه يهودي، لا ألماني ذو عقيدة يهودية، وهو الذي رفض أن يتبوأ رئاسة دولة إسرائيل حين عُرض عليه هذا المنصب.

أما أندريه نيهر في كتابه جوهر النبوة فيقول {إن إسرائيل هي الإشارة المميزة للتاريخ الإلهي في العالم. إن إسرائيل هي محور العالم، وهي عصبه، ومركزه، وقلبه.}.

أما لويس برانديس الزعيم الصهيوني الأمريكي فقد قال {- اليهود - شعب عريق، شعب مكنته ثلاثة آلاف سنة من الحضارة، من تقديم الكثير من أجل تقدّم الحضارة الإنسانية في المستقبل كما كان شأنه في الماضي}.

أما رفائيل باتاي فقد قال في كتابه (العقل اليهودي) {ما من جماعة بشرية أخرى تستطيع الافتخار بسجل حضاري مشابه، ولو مشابهة طفيفة، لسجل الحضارة اليهودية القديمة}.

أما ليوبنسكر فيقول {إن من لا يقول إن الشعب اليهودي هو شعب الله المختار، لا بد أنه مصاب بالعمى}.

كما أن اليهودي يعتقد أن إلهه (يَهْوَه) هو الأقوى بين الآلهة، وأن اليهودي هو الموحد الأول، وصاحب المعجزات، ومؤسس أول حضارة، يقول اسحق دوتشير {في إسرائيل، شكّل أقدم شعب في العالم أحدث دولة بين الدول القومية، وهو يرمي بكل حرارة عواطفه إلى استدراك الزمن الذي فات}.

أما بن غوريون فيقول {كان وضع الشعب اليهودي الفريد هو القوة التي تركت أثرها في تاريخ الإنسان وبواسطتها تمكن هذا الشعب من الاستمرار كقوة مبدعة في عالم اليوم}.

كما أن اليهودي صاحب الدور الرئيسي في {تاريخ الإنسانية أصبح مقدسا من خلال اليهودية} حسب ما أتى به موسى هس، وأن اليهودي هو الذي بلغ في الماضي شأوا لم ولن يصل إليه أحد في الحاضر، والمستقبل، وفي هذا الصدد يقول أبا إيبان {لقد خطا هذا الكوكب من البربرية إلى الحضارة في اللحظة التي غمره فيها نور إسرائيل عن طريق إشعاع الفكر اليهودي المشرق}.

ويتصور اليهودي أن البشرية لم تتأنسن إلا على يدي اليهود، وأن {التوراة هي أداة الخالق، بها ولأجلها خلق الكون، إنها أقدم من الكون، وإنها أسمى فكرة وروح حية في العالم} وهي التي {وضعت أسس الثقافات الدينية والأخلاقية في العالم} حسب ما قال نحمن بياليك، والعالم مدين لليهود لأنهم حفظوا للبشرية هذا الكتاب الذي بنت البشرية عليه حضارتها حسب ما عبر عن ذلك أسحق دوتشير نقلا عن هنري هايني {أن اليهود الذين طردوا من أرضهم تركوا كل ثرواتهم لكي لا يحملوا معهم سوى كنز واحد هو الكتاب، ثم قام هذا - الشعب الشبح - خلال قرن بحراسة هذا الكتاب، الكتاب المقدس، حافظا إياه للإنسانية}.

أما أحادها عام فيقول {إنني أومن بتفوقنا الأخلاقي والعقلي، وأومن بأهليتنا لأن نكون نموذجا لإنقاذ وخلاص الجنس البشري}، وهو الذي أكد أن اليهودية قد سبقت النيتشوية بفكرة الرجل المتفوق الذي لم يخلق العالم إلا من أجله، ويقول أحادها عام في موقع آخر {لكي ينبعث هذا العرق المتفوق لا بد له من مكان ثابت ومستقر حتى تتاح له الفرصة ثانية لتطوير عبقريته، وإبلاغ رسالته كاملة متفوقة}.

وهـذا الإحـساس بـالتفوق والفـرادة الـذي يطرحـه اليهـودي، والـذي يـسوغ فكـرة اصطفائه من بين الآخرين، ناتج عن عقدة النقص التي يعاني منها اليهودي على مـر الزمـان، وهو الذي جعل الآخرين يعملون - كما هو يحب - على عزلته الاجتماعية والتاريخية، ويعتقد برنارد لازار {إن اليهودي حافظ دينيا على فكرة الاستعلاء والتفوق، واستمر في النظر بأنفة واحتقار إلى كل الذين كانوا غرباء عن شـريعته، أمـا الـذي علمـه أن يكـون كـذلك فهـو كتابه التلمود المليء بعصبية ضيقة}، وجاء في كتابه اللاسـامية سـنة ١٨٩٤م {لقـد انعـزل اليهود وراء جدران أحاط بها التوراة، حتى أصبح اليهودي ينعت نفسه بوصف خطير، فهـو يزهـو بامتيـاز توراتـه، الأمـر الـذي أدى أن يعـد اليهـودي نفـسه نـسيج وحـده، وأن شـعبه فـوق شعوب الأرض جميعا}.

وهذه التصورات اليهودية التاريخية جعلت اليهود أفـرادا، وجماعـات لا يعرفـون كيـف يمارسون حياتهم حرة في الحاضر، ورضوا العيش مسجونين بين أسوار الماضي، وهـو مـا سـاهم في تعزيز عزلتهم عن المجتمعات الأخرى ضمن الغيتو اليهودي، وفي النهاية، يمكن أن نستشهد بمـا قالـه الفيلسوف اليهـودي المتنـور مـارتن بوبر الـذي اسـتطاع أن يقـارب الشخـصية المرضـية اليهودية {لا تـستطيع قـوة غير قـوة ثـورة داخليـة، أن تـشفي شـعبنا مـن مرضـه القاتـل المتمثل في كراهية الأغيار}.

أخيرا، وقبـل الانتقـال إلى دراسـة (الأنـا اليهوديـة) وارتباطهـا بـ (نحـن) الجماعيـة، يمكـن أن نـضيف إلى الشخـصية اليهوديـة صـفة اتـضحت في بعـض المراحـل التاريخيـة الـتي مرت بها الجماعات اليهودية، وهـي صـفة التذمر وبالتـالي التمـرد علـى الواقـع، أو الحاضـر، وهـو الـذي أفـرز الـروح الثوريـة عنـد اليهـودي، والـتي ضـعفت وشـحبت في المرحلـة التاريخيـة مـا بين الشتات اليهودي على يد الرومان، ومرحلة النهضة في العصور الحديثة، وهـذه الـروح الثورية تعود، أو تشكل بنيتها التحتية التصورات والمعتقـدات اليهوديـة حـول (العـالم الآخـر) أي عـالم مـا وراء الوجود، أو عـالم مـا بعـد الموت، والـتي تـرتبط ارتباطـا وثيقـا بعقيـدة المسيح اليهودي المنتظر.

فاليهوديـة التوراتيـة التقليديـة لم يكـن لـديها أي تـصور عـن الحيـاة الأخـرى ذات الـنمط الطوباوي، وهـي العقيدة أو التصور الذي أفرز أو سـاهم في تشكيل القدريـة الإسـلامية، والـذي حـرض المسلم علـى الـصبر الـذي هـو يمثل مفتـاح الفـرج، كمـا حـرض علـى احتمـال منغـصات الحاضر الزائل (الدنيا)، من أجل الوصول إلى نعيم الفردوس في الآخرة الخالدة الأبديـة، كمـا ساهمت هذه العقيدة الطوباوية أيضا بتشكيل الـروح الاسـتسلامية المسيحية مـن أجـل الـدخول

في ملكوت الرب الأبدي، ومن هنا فقد رفض اليهود الدعوة المسيحية الطوباوية (الخانعة)، لأن اليهود كانوا يريدون من المسيح أن يحمل السيف بيده، وأن يقوم بقيادة المعركة الكبرى، وأن ينتصر فيها، وأن يتربع على عرش التاريخ، ومن هنا فإن اليهود يعيشون دائما، وهم يحلمون، ومهما كان الحاضر قاسيا، بمجيء أيام تبعث الفرح والبهجة لليهودي، وسيادته على سواه، في الحياة الدنيا، لا في الآخرة، كما هو الأمر بالنسبة للجنة عند المسلمين، وللملكوت عند المسيحيين.

إن الجنة عند اليهودية تقع في الأرض وداخل التاريخ، ولذلك فإن صبر اليهودي، يجب ألا يطول، ويجب أن يأتي أكله في الحياة الدنيا لا في الحياة الأخرى، وإضافة إلى ما سبق، فإن عقيدة شعب الله المختار ساهمت أيضا في جانب من جوانبها في تعزيز الروح الثورية لدى اليهودي، فشعور اليهودي بأنه مجبول من طينة مميزة، جعله شديد التحسس والضيق والتبرم لأي سلطة غير يهودية يخضع لها، لأن على الجميع أن يخضعوا إلى سلطة اليهود (شعب الله المختار) لا العكس، فهم عبيد الرب فحسب، وأن يكونوا عبيدا لسلطة أجنبية ما، فهذا يعني كما لو أن تلك السلطة أصبحت مساوية، أو مماثلة لسلطة الرب (يَهْوَه)، وهذا ما يمكن أن يقبله اليهودي، وهو ما جعل اليهودي حتى في أسوأ الظروف يثور على الواقع الحاضر، وقد ورد في التوراة الكثير من التقذيعات على لسان الرب (يَهْوَه) لليهود، ووصفهم بأنهم شعب صلب الرقبة، كثير التذمر والتمرد، ليس لديه حكمة الصبر، وقد تجلت هذه الخاصة في مرحلة تيه في سيناء حيث تمرد بنو إسرائيل على موسى، بل وعلى الرب (يَهْوَه)، إلى درجة أنهم انقلبوا على الرب (يَهْوَه)، وصنعوا العجل وقاموا بعبادته لمجرد تأخر موسى عدة أيام على جبل سيناء، على الرغم من أن الرب (يَهْوَه) كان على أتم الاستعداد، لتحقيق رغبات شعبه، ودون أي إبطاء.

ومن هنا، وعلى الرغم من اندخال التصورات الأخروية في العقيدة اليهودية في مرحلة متأخرة، إلا أن تلك التصورات الأخروية ظلت متموضعة كطبقة جيولوجية على هامش البنية الجغرافية للديانة اليهودية، كما أن عقيدة انتظار مجيء المسيح اليهودي كان من شأنها أن تعزز خصلة الصبر، إلا إن تلك العقيدة لم تستطع أن تخفف كثيرا من سرعة ضيقهم وتبرمهم من الواقع القميء، ومن إصرارهم على تنفيذ رغباتهم على وجه السرعة وعلى أرض الواقع، ولذا فعلى الرب (يَهْوَه)، وبالتالي على الآخرين أيضا أن يلبوا رغبات اليهودي الكاهن الأعظم، ذي الأنا المتفردة في نرجسيتها، وعنصريتها وإحساسها بالتفوق.

وعلى مر التاريخ العبري، ومن ثم الإسرائيلي، ومن ثم اليهودي لم يقبل اليهود أن يحنوا رؤوسهم طويلا باستثناء مرحلة القرون الوسطى في الشتات الأوربي، حيث أدى الإذلال المزمن إلى تحجيم الأنا اليهودية، أو حصرها وتقوقعها وإخضاعها إلى الآخر (المدنس)، وبالتالي ضمور الروح الثورية داخل الذات اليهودية في الغيتوات، لا سيما بعد أن احتل التلمود المرتبة الأولى في العقيدة اليهودية، وهو الذي، ومن خلال الأحبار الذين عززوا عقيدة مجيء المسيح اليهودي المنتظر استطاع أن يدجن ويضعف الروح الثورية في يهودية الغيتوات، أو يهودية القرون الوسطى، ولكن كل ذلك لم يؤد إلى تحطيم كامل الروح والأنا اليهودية الثورية التي عادت ثانية إلى الوقوف، وهذا ما يؤكده دخول، بل قيادة اليهود للحركات الثورية على اختلاف أنماطها وفلسفاتها في أوربا، ابتداء بالثورة الفرنسية، وانتهاء بالثورات الشيوعية، وجاءت في النهاية الصهيونية لتأجج النار في الروح الثورية اليهودية، والتي استطاعت في النهاية أن تحقق أحد أحلامها التاريخية اللاهوتية الكبرى بالعودة إلى الأرض المقدسة، حتى دون مجيء المسيح الديني.

عسر التطور الحضاري
وتمزق اليهودي بين الأنا الفردية والأنا الجماعية

إن العبرانيين، أسلاف اليهود، واليهودية، كانوا يعيشون كجماعات شبه بدوية - شبه حضرية في الألف الثانية، والأولى قبل الميلاد، وقد عانوا من عسر تطور وانتقال ما بين النمط القبلي العشائري، والنمط السياسي المدني ببعده الجغرافي، وبالتالي ما بين الخيمة المتنقلة التي لا تنتمي إلى مكان بعينه، وما بين البيت المؤطر في مكان محدد، وفي مفاهيم متعددة، وهذا العسر في التطور، والتكيف، والتأقلم شمل كل النواحي التطورية بما فيها الانتقال لا في المكان فحسب، بل وفي الزمان أيضا، ما بين الماضي من جهة، والحاضر والمستقبل من جهة ثانية، ما بين تقديسهم للأب وبين أملهم بالابن، ما بين الحنين إلى زمن الآباء الأوائل، والتشوق إلى مجيء المسيح اليهودي المنتظر، وما بين هذا وذاك كان العبرانيون، ومن بعدهم اليهود يمررون وجودهم في أتون الحاضر الذي لم يعرفوا أن يتمتعوا بأبسط ضرورياته.

وقد أدى عسر التطور والتكيف ما بين الماضي والحاضر إلى تشكيل رهاب يهودي من المستقبل، الأمر الذي زاد في حالة تمزق الحاضر اليهودي ما بين الماضي المقدس والمستقبل الذي يخفي خلف ضبابه مخاوف متعددة، وهذه الفوبيا اليهودية من المستقبل هي التي جعلت اليهودي يغل يده إلى عنقه، وجعلت من المثل الذي يقول (خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود) من أهم الأمثال التي يحتكم اليهودي إليها، وهي التي ساهمت في جعل اليهود من أغنى الجماعات، والأفراد في العالم، هذا إلى جانب ممارسة اليهود للأعمال الطفيلية الجشعة بغض النظر عن أخلاقياتها التي تدر عليهم أكثر ما يمكن من الأرباح، في أقل ما يمكن من الوقت، ومن هنا فاليهودي يموت غنيا، على الرغم من أنه يعيش كشخص شديد الفقر.

وقد أدت هذه الارتباكات النفسية في التكيف الزمكاني التي حصلت على مستوى الجماعة إلى عسر تطور حضاري لدى الجماعات العبرية اليهودية، ولذلك فهم لم يقدموا للحضارة أي إمدادات لبنيتها التحتية (من علوم، ومعارف) سوى ما أفرزته لهم مشكلة عسر التطور الحضاري، والتمزق الذي استمر معهم من خلال تقديس الماضي في بيت الحاضر، فهم لم يسترجعوا الماضي بسبب اندفاق تيار الزمان العنيد، ولا استحوذوا على الحاضر الذي ينفلت

من بين أيدهم، والإسهام الوحيد الذي قدمه اليهود للحضارة الإنسانية هو المدونات الدينية، والأدبية التي جمعت في الكتاب المقدس، أما في العصر الحديث فأغلب الشخصيات اليهودية التي قدمت إبدعات في العلم، والفلسفة، وغيرها من العلوم الإنسانية كانت قد خرجت من الحظيرة اليهودية، أو أعلنت تمردها على كل ما يتعلق بالهوية اليهودية من أمثال سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧م)، وفرويد، وأينشتاين، ومارتن بوبر، ماركس وسواه من الشخصيات ذات الأصل اليهودي التي قدمت إسهامات مهمة إلى الحضارة الحديثة.

وقد أدى هذا المخاض الزمكاني العبراني اليهودي المستعصي، الذي لم يتوقف حتى الآن، إلى تقديم نمط حضاري خاص بهم، فبقوا كشعب لا هم دفنوا آباءهم، ولا هم ولدوا أبناءهم، وظلوا يعيشون حياتهم في مخاض مستمر لم، ولن ينقطع، وهو الأمر الذي يجعل المرء يشعر بشيء من الأسى عليهم، دون أن يجد علاجا ليخلصهم، ويخلص البشرية من حالة المخاض التي لا تنتهي، لأن اليهود لن يرضخوا إلى إرادة الزمان الفيزيائي، وعلى الجميع أن يدفع - دون أدنى خطية - ثمن تمسك اليهود بقناعاتهم المرضية، وكان كارل ماركس، وهو الفيلسوف اليهودي الشهير، قد قال: {ليست المشكلة في اليهودي كإنسان، ولكن المشكلة ثاوية في العقيدة اليهودية التي يتوجب علينا تخليصه منها كإنسان ليعيش حياته السوية وتخليص الإنسانية منها حتى لا يتهدم السلم والأمن العالميين}، أما غوستاف لوبون فيقول {لم يتجاوز قدماء اليهود أطوار الحضارة السفلى، التي لا تكاد تميز من طور الوحشية، وعندما خرج هؤلاء البدويون من باديتهم ليستقروا في فلسطين وجدوا أنفسهم أمام أمة قوية متمدنة منذ زمن طويل، فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما في حضارتهم}، وحملوا معهم هذه (الخساسة) عبر الزمان.

ويعتبر أهم نتيجة ومسبب، في آن واحد، لعسر تطور اليهود الحضاري، هو الحالة الخاصة للأنا اليهودية، فعسر التطور الحضاري لليهود، وعسر تشكل أنا حضارية تاريخية جمعية، أدى إلى تهميش للأنا الفردية التي بقيت تقدم نفسها رخيصة، بكل ممتلكاتها، وخصوصياتها في أتون الأنا الجماعية النرجسية ذات القيمة التاريخية العليا على مر التاريخ، ومن هنا فاليهودي يعتز بكونه يهوديا، أكثر من اعتزازه بشخصه مهما حقق من نجاحات فردية، لأنه يعتبر أن (الأنا) اليهودية هي مركز العالم المقدس ومرجع الأشياء، والآخرون مادة تدور في فلك، وحول مركز هذه (الأنا).

إن الأنا الفردية لا تبدأ بالبحث عن ذاتها، وإبراز معالمها وخصائصها ومميزاتها، إلا بعد أن تكون قد انضوت تحت مظلة، أو حماية، أو في حظيرة أنا جماعية ناضجة ومميزة، وذات تشكيل حضاري تاريخي، ولكن في الحالة اليهودية فالأنا الجماعية لم تستطع إلى الآن أن

تعطي لنفسها هويتها الوجودية الزمكانية، بحيث تستطيع أن تعطي هوية زمكانية اعتبارية للأنا الفردية، مما أدى إلى إرباك في انتماء الفرد اليهودي بين البلد الذي يحمل جنسيته، وبين الانتماء إلى مفهومه الديني العرقي كيهودي، والذي قدمه على انتمائه إلى جنسيته السياسية التي لم تكن تمثل لأغلبية اليهود سوى ورقة يستطيع من خلالها تصريف حياته (هنا الآن) بانتظار العودة إلى الأرض المقدسة، والقليلون هم من استطاعوا أن يتبعوا النصيحة اليهودية البرغماتية التي تقول: على اليهودي أن يكون يهوديا في بيته، ومواطنا في مدينته، أما الأكثرية فبسبب عدم تبلور مفهوم الهوية اليهودية كان يعيش في حالة مرتبكة، وهذه الهوية اليهودية تتشكل من عدة مكونات هي:

أولاً: عرقية، على اعتبار أن اليهود جنس عرقي دموي له خصوصياته.

ثانياً: تراثية أثنية، على اعتبار أن اليهود يشكلون جماعة أثنية لها تاريخها الخاص المشترك والمنفصل عن المجتمعات الأخرى، وهذا التاريخ هو الذي أدى إلى تشكيل روابط ذات طابع تراثي تراكمت عبر أربعة آلاف عام.

ثالثاً: دينية، على اعتبار أن الجماعات اليهودية تشترك بنمط ديني له علاقة خاصة بالإله.

وأضافت الصهيونية إلى تلك الهوية علامات مميزة جديدة، تنص على أن ثمة تاريخاً وهوية مشتركة لكل الجماعات اليهودية في كل زمكان، وهذه الهوية تشكلت من خلال عاملين:

الأول يتمثل بالضغوط الخارجية التي تعرضت لها الجماعات اليهودية وهو ما دعي بـ (اللاسامية).

والثاني هو ناتج عن ردة فعل الجماعات اليهودية على هذه الضغوط.

وموجز القول، إن (الأنا) الفردية اليهودية ارتبطت، أو اندمجت، أو اندغمت، أو خضعت بشكل شبه كامل لنظم وأعراف أنا جماعية لم تعط سوى هامش بسيط من الحرية للأنا الفردية للتعبير عن ذاتها، وقد تقبلت الأنا الفردية اليهودية ذلك على عدة أشكال، فبعضها حاول التمرد، والخروج من على الأسوار العالية للحظيرة اليهودية، والأكثر تقبلها بكل رضا وقبول داخلي، وككل أنماط الانتماء لدى الأقليات العالمية حاولت اليهودية الدفاع عن نفسها من خلال تماسك الروابط الداخلية فيما بينها أمام التحديات الخارجية فحسب، وتضخيم المثل الأعلى، والتمسك بالأعراف والتقاليد، والتي من شأنها أن تشكل دولة اجتماعية تتجنب التعارض مع أي نظام سياسي تنتمي إليه، لا سيما وأن اليهود، على مر الأزمنة، وعلى اتساع الأمكنة تعرضوا للمجازر والمذابح والاضطهادات، الأمر الذي جعل الأنا الفردية تندمج في أنا جماعية يمكنها أن تدافع عن الأنا الفردية عند الحاجة.

والأنا اليهودية دخلت حالة هامشية من التمزق بين انتمائها لذاتها الفطرية الطبعية (كغريزة إنسانية)، وبين انتمائها للأنا الجماعية والذوبان في بوتقتها، وقد عملت عصابية الأنا الجماعية ضمن الذات الفردية كشرطي داخلي متزمت، لا يرتشي، ولا يمكن مغافلته، وقد تعزز الشرطي الداخلي الممثل للأنا الجماعية في الذات الفردية، بشرطي خارجي تمثل بالتنظيمات اليهودية، والتي لا تتورع بالاعتداء على كل يهودي يحاول التحرر من ربقة الأنا الجماعية اليهودية، وفي هذا السياق يقول لويس بارنديس {يجب على العالم كله أن يعترف لنا نحن اليهود بأننا نكّون جنسية مميزة، فكل يهودي مهما كان بلده وموقعه واختلاف تفكيره فإنما هو بالضرورة عضو في هذه الجنسية اليهودية، وعلينا نحن اليهود أن ننظم أنفسنا أولا كي نقدم للعالم البرهان على تماسكنا}.

وعلى الرغم من أن الأنا الجماعية اليهودية استطاعت في النهاية أن تشكل لنفسها كياناً سياسياً هو دولة إسرائيل الصهيونية، والتي لم ينضوِ تحتها كل اليهود، فالهوية الإسرائيلية هي حالة خاصة أو جزء من الأنا اليهودية، وقد كانت الحالة معكوسة تماماً في مرحلة ما قبل السبي البابلي في منتصف القرن الأول ما قبل الميلاد حيث كانت اليهودية جزءاً من الهوية الإسرائيلية، وهذه الفصامية في مفهوم الانتماء اليهودي أدى إلى ضياع الفرد اليهودي ما بين تعريفه لذاته، هل هو ينتمي إلى عرق، أم إلى دين، أم إلى جماعة أثنية؟!. وعلى الرغم من محاولات رجال الدين على وجه الخصوص إقناع الجماعات اليهودية، بأن اليهود ينتمون إلى عرق ودين في آن واحد، ولكن الفرد اليهودي، في قرارة نفسه، يدرك أن هذه المعادلة ليست صحيحة، وقد أتت الصهيونية لتفاقم الارتباك في الإجابة على تساؤل اليهودي: من أنا؟؟، بطرحها مفهوم أن كل يهودي مهما كانت جنسيته السياسية هو إسرائيلي أولا، شاء ذلك أم أبى، يقول اليهودي البولوني يعقوب كلاتزكين {إن اليهودي المخلص لا يمكنه إلا أن يكون مواطنا يهوديا.. وكل يهودي يدعوا بلدا أجنبيا وطنه إنما خائن للشعب اليهودي}، وهذا الانتماء القسري زاد من استلاب وتمزق الانتماء بالنسبة للفرد اليهودي، وهو الذي انعكس على اتزان الأنا الفردية، وزاد من حالتها الفصامية الازدواجية.

الأسطورة والتوراة:

إن كلمة الأسطورة في اللغة اليونانية Mythos، أو Myth مرتبطة مع كلمة Mouth (أي فم)، وهذا يشير إلى أن الأسطورة عند الإغريق تعني فيما تعنيه نوع من الكلام المنطوق، أي أنها نوع من السرد الشفوي، أو أن أصلها كان سردا شفويا، أما كلمة الأسطورة في العربية

فمشتقة من كلمة سطر الذي يتألف من مجموعة من الكلمات على نفس الخط الأفقي، وجمع سطر أسطار، وجمع الجمع أساطير، ومن هنا فإن الأسطورة في العربية تشير إلى نص مكتوب بشكل تراتبي على شكل سطور متلاحقة، متعاقبة، مما يوحي بوجود صلة بين الأسطورة، والزمان، والفرق بين مدلولي الاسمين في اليونانية، والعربية ناتج عن الفارق الزمني والمكاني لتشكّل، وتطور الأسطورة.

والأسطورة هي نتاج التصور الجمعي للشعب العضوي، كما أنها تشكل أهم عنصر في المكون التراثي للشعب، والتراث يشكل الخزان أو الحوض الذي تصب فيه خبرات المجتمع، وآدابهم التي تعكس مشاعرهم ومعاناتهم، ولكن هذا التراث، كما هي الأسطورة، قد يصبح مقدسا ويعلو على المجتمع الذي صنعه، وإن أي مكون ثقافي تراثي لمجتمع ما، ومهما كان قديما فإنه يبقى حاضرا في ثقافة المجتمع، وهذا الحضور يتراوح بين التحجب، والتخفي، والتقنع، والسفور، إي أن التراث هو طبقة خشبية (برانشيمية) استنادية، حاملة، تساهم في إعطاء الشجرة هيكلها المميز، والبرانشيم يتشكل من عدة حلقات متحدة المركز تتزايد تلك الطبقات أو الحلقات كميا، من الداخل إلى الخارج، ونوعيا من الأسفل إلى الأعلى مع الزمن، وتشكل الحلقات العميقة التصورات، والتخيلات، والمعتقدات الدينية الراسخة في المجتمع، بينما تشكل الطبقات الوسطى الثقافة الاعتقادية الأيديولوجية المضمرة، بينما تمثل الطبقات السطحية، بما فيها القشرة، الوجه الثقافي الذي تعرف به الجماعة من قبل الجماعات، والمجتمعات، والشعوب الأخرى.

كما يساهم التراث (البرانشيم) في ضخ الروح (النسغ) إلى المجتمع العضوي، وبالتالي يصبح هذا التراث الذي قام المجتمع العضوي المؤتلف بإنتاجه، هو من يقوم بإعادة إنتاج المجتمع من خلال التحكم بأفكاره، وسلوكياته، وأخلاقياته، وبذلك فإن الأسطورة - على اعتبارها أحد أهم المكونات التراثية - هي التي تساهم في تشكيل الشخصية التاريخية للمجتمع، والتي تميزها عن سواها من المجتمعات، والأمم، والشعوب الأخرى.

والتراث يقوم بعدة وظائف سوسيولوجية، وسيكولوجية، ويشكل لكل أمة مرجعية تاريخية عاطفية، على اعتباره رمز، وقبلة الماضي الذي يتكوكب حولها المجتمع الإثني، وتشكل الأسطورة نصوصاً تعبيرية تعكس البنية التحتية لثقافات وفلكلور الشعوب، كما تشكل أهم مكون في العقيدة الدينية التي تشكل بدورها جزءاً من هوية الجماعة، كما تشكل العقيدة صلة وصل بين أعضاء الجماعة، ومن مجموعة هذه الصلات، يقوم حماة المعتقد (الكهنة) بجعل الجماعة وحدة عضوية أثنولوجية عرقية منحدرة من أب واحد، وفي

هذا السياق تقوم الأسطورة أحيانا بتقديم تفسير تاريخي لطقس أو شعيرة ما، تمارسها جماعة معينة، كما أن الأسطورة، حسب ما يذهب إليه الباحث مرسيا إلياد، تعطي مرجعية للقوانين والشرائع والشعائر والأخلاقيات والممارسات الإنسانية السائدة في مجتمع ما، حيث تعيد تلك العادات والنظم بطريقة قصصية إلى الآباء الأوائل، أي أن الأسطورة تحاول إيجاد تفسير تاريخي (في الماضي) لما هو حاضر، لا أن تؤرخ للماض تحديدا، وفي هذا السياق يقول الباحث مالينوفسكي {الأسطورة منظورا إليها بما فيها من عنصر غني بالحياة ليست تفسيرا يراد منه تلبية فضول علمي، بل هي حكاية تعيد الحياة إلى حقيقة أصلية وتستجيب لحاجة دينية عميقة، وتطلعات أخلاقية، وواجبات وأوامر على المستوى الاجتماعي}.

كما أن التراث الذي يمثل تجربة الجماعة في الماضي، يقوم على ضخ الوجدان بمشاعر، وعواطف تحاول أن تجعل الفرد متمسكا بتراثه، وبالتالي بجماعته في الزمن الحاضر، كما تحث الفرد على التمسك بالماضي، وبقيمه، وتجعل منه شاهدا، ومؤسسا للحاضر، ولا تحرض مشاعر الحنين إلى الماضي فقط، بل وتستحضره ولا سيما عندما يشعر المرء باختلال الحاضر، أو حدوث انعطافات سلبية فيه، والغاية من استحضار الماضي المحمول، والحامل للتراث، هو إيجاد مزيد من التماسك الأثني للجماعات، وللشعوب، وعلى سبيل المثال فقد ولدت النازية الشوفينية الألمانية وألمانيا على قمة هرم حضاري، بعد كبوتها، أو هزيمتها المؤقتة في الحرب العالمية الأولى، بينما ولدت اليهودية الشوفينية في بابل من قاع الهزيمة التاريخية، وقد أدى التراث اليهودي وظيفته من خلال تشكيله محارة متكلسة حمت الجماعات المسبية في بابل من ذوبانهم بسبب رخاوتهم بعد هزيمتهم التاريخية في المجتمع البابلي.

والأسطورة في سياق انزلاقها على الزمكان تخضع إلى إعادة إنتاج يضمن لها التطور الذي يتلاءم مع عقلية الحضارة التي تبنتها، وسياقها الزمكاني الذي نشأت، وترعرعت فيه، والسبب الأهم في تطور الأسطورة هو تعاقبها على ألسنة الحضارات والشعوب، ولا سيما وأن الأسطورة، والخرافات، وحتى الحكايات الشعبية تتمتع بقدرة عالية على التنقل والتسلل والتطور والانزياح والتكيف في الزمكان، والبنى الذهنية والتصورية والفكرية الجديدة، واللسان الجديد، بغض النظر عن التحولات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، للجماعة، وهي لا تغير سوى جلدها في سياق تتسللها من أمة، إلى أمة أخرى، ومن حضارة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، وهي وإن كانت تغير من أرديتها تبعا للتغيرات، فإنها تحافظ على جوهرها الأصلي، دون أن تفقد قدرتها العالية على التكيف مع جملة المعطيات الحضارية

الزمكانيـة الجديـدة، ودون أن تفقـد خصوصياتها أو وحـداتها الأساسـية، أي أن الأسـطورة بمقدار ما تمتلك قدرة على التكيف، تمتلك العناد الذي يحافظ على ثبات نسبي في الأسطورة قد يستمر طويلا، بحيث يمكن تتبع آثار خطى انتقال الأسطورة في الزمكان، وما بين الحضارات، وهنا يمكن أن نسوق مثالا على هذا الأساطير التموزية لبلاد الرافدين، والتي تتطابق في جوهرها مع الأساطير البعلية في سوريا، والزرادشتية عند الفرس، والمسيحية عند اليهودية، والأوزيريسة عند المصريين، والبروميثيوسية الغربية، والمهدية عند الشيعة، ومن هنا فالأسطورة على اختلاف انتماءاتها التراثية ما هي سوى تنويعات لنص أسطوري أولي مجهول الهوية، تلاشى في الهواء، لأنه كان نصا شفويا تنقل على ألسن أناس يعودون إلى شعوب وحضارات متعددة، وبشكل متواتر مع الزمكان، إلى أن تم تثبيته الأولي، لا النهائي تدوينيا، وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف النص الأسطوري عن النمو والتفرع والتطور بتدوينه، بل ظل يتطور مع تطور الحضارات المختلفة، وهنا لي أن أشير إلى أن النص الشفوي يظل هو النص الأسرع، والأكثر قابلية للانتقال بين الشعوب من النص المدون، ويمكن ملاحظة ومتابعة تشكل الأساطير، من خلال تتبع مساراتها التاريخية على تعاقب الحضارات، ولو تسنى لنا أن نطّلع على المرحلة الشفوية لتشكل أي أسطورة، لأمكننا أن نصل إلى البؤرة التاريخية للحدث الذي انبعثت منه الأسطورة.

ويمكن إيجاز ما سبق، بأن الاختلافات الشكلية ما بين النصوص الأسطورية ذات الجوهر الواحد فرضتها حركة انتقال الأسطورة ما بين لغة وأخرى، وما بين حضارة وأخرى، ومن زمكان لآخر، ويمكن، وبمقارنة الأساطير المتشابهة (المتناصة)، أن نجد الجوهر الواحد الكامن في تلك الأساطير، وهذا الجوهر هو النص الشفوي الذي شكّل النوية الأساسية في الأسطورة، والذي لم يتم تدوينه في شكله الأولي الأصلي البدائي.

لقد حاول العلماء الوقوف على أسباب، ودواعي، ودافع، وحاجة الإنسان إلى ابتكار، وابتداع الأسطورة، وقد طرحت عدة نظريات حاولت أن تقارب أصل الأسطورة، وكان لكل نظرية مؤيدوها، ومعارضوها، ومن خلال هذه النظريات المتعددة قام الباحثون بتقسيم الأسطورة إلى أربعة أنواع رئيسية أساسية:

- الأسطورة الأولى: وهي الأسطورة الدينية الطقوسية.

وقبل البحث في الأسطورة الدينية، لا بد من المرور سريعا على النظريات والأراء التي حاولت أن تشخص الظاهرة الدينية، أو المعتقد الديني الذي غالبا ما يقوم على أن للوجود مستويين: الأول مستوى أرضي مادي تاريخي قابل للفناء، والآخر مستوى مقدس غيبي ثابت

وأزلي ويقع خارج، أو فوق التاريخ، وهذا المعتقد يشكل الوحدة الأساسية في الدين، والذي من خلال تطور وتكاثر مجموعة المعتقدات والتصورات والتي تشكل البنية التحتية الأساسية، كما تشكل الهيكل الأساسي، أو العمود الفقري، وتتشكل هذه المعتقدات من الإفرازات التي تنتجها الجماعة في سياق تجربتها الحياتية، وفي سياق محاولة الجماعة الإجابة على مجموعة الأسئلة والخواطر الوجودية، واسترضاء الأحاسيس والمشاعر الإنسانية للجماعة، كما تقوم بتعريف وتنظيم العلاقة بين المقدسات والمدنسات، ويتطور البناء الديني بطريقة هرمية مترافقا مع إفراز مجموعة من الطقوس والشعائر والمسالك التي تأخذ من المعتقدات والتصورات الدينية شريعة لها، والتي تشكل الملاط الذي يربط ما بين هذه المعتقدات والتصورات، كما تقوم هذه الطقوس والشعائر على وجه الخصوص، والمعتقد الديني على وجه العموم بربط الجماعة وتشكيل بناء مجتمعي عضوي، وحسب تعريف فراس السواح فإن الدين {تعبير جمعي عن الخبرة الدينية الفردية، وقد تم ترشيدها في قوالب فكرية وطقسية وأدبية ثابتة.. ويتكون من معتقد (مركز الظاهرة الدينية) وطقس وأسطورة، هي عناصره الرئيسية، ومن أخلاق وشرائع، هي عناصر ثانوية}، أما جيمس فريزر فيرى أن {الدين هو الاعتقاد بوجود قوى عليا تعلو قوى الإنسان وتستطيع توجيه العالم الطبيعي وحياة الإنسان وتضبطها. وعلى ذلك يقوم الإنسان باستعطافها واسترضائها}.

وقد اختلف العلماء في ترتيب المراحل التطورية التي مر بها الدين، فالبعض يعتبر أن السحر هو نوع من الدين، وهو الذي يشكل النواة الأولى في الظاهرة الدينية، أما الأغلبية وعلى رأسهم تايلور يعتقدون أن المرحلة الأولى للدين كانت المرحلة الإرواحية، وهي التي تذهب إلى أن الإنسان اعتقد في مراحل تطوره الأولى أن للموجودات الحسية المادية أرواحا أو أشباحا، أو مكافئات غير مرئية (روحية)، وقد قام الإنسان بعبادة تلك الأرواح، وقد تطور هذا التصور عبر الزمان بحيث أدى إلى تضخيم هذه الأرواح، كما توسع انتشار تواجدها أفقيا، وارتفعت عموديا، إلى أن أوصلها، أو أسكنها الإنسان في السماء، وأصبحت بالتالي آلهة، وتشكل بانثيون إلهي ترأسه كبير الآلهة الذي في النهاية أصبح الإله الواحد، ولكن سبنسر يذهب إلى أن الظاهرة الدينية بدأت بعبادة أرواح الأسلاف تحديدا، والذين أصبحوا آلهة فيما بعد، وتشكل النظرية الإرواحية النظرية الأولى في الاتجاه العقلاني لتفسير نشوء الدين. أما النظرية الأخرى العقلانية في تفسير منشأ الدين فهي التي تدعى بالطبيعانية وهي التي تبناها موللر، وتذهب هذه النظرية إلى أن الدين كان نتيجة لارتباط الإنسان مع الطبيعة. ويذهب بيتازوني إلى أن أغلب المعتقدات أعطت الأولوية في البانثيون إلى إله السماء. وهناك النظرية العاطفية

التي تذهب إلى أن الدين نشأ كانعكاس للحالة النفسية العاطفية للإنسان، والتي تتمثل في خوف الإنسان من الموت.

أما العلاقة التي تربط الدين بالأسطورة، فيذهب بعض العلماء والباحثين إلى أن أصل الأسطورة هو الدين، أو أن الأسطورة هي أصل الدين، أو أن الأسطورة هي الدين في مراحله الأولى. وقد قال أصحاب هذه النظرية، في معرض تقديم حججهم على ما ذهبوا إليه بقولهم: كلما كان الدين أكثر بدائية، كلما كانت الأسطورة تمثل الهيكل أو القوام الأساسي للدين، أو لها الحضور الأقوى في بنية وتشكيل الدين، وفي هذا السياق يقول فراس السواح {يتبلور المعتقد الديني يدا بيد مع الأساطير التي تعيد تقديم الانفعال الديني إلى الوعي وقد تحول إلى معتقد}.

والأسطورة الدينية هي التي عالجت طقوس العبادة، وارتبطت بها. ويذهب لويس سبنس إلى أن الأسطورة كانت في الأساس نمطاً من أنماط طقوس العبادة، وقد بدأت من خلال مسرحة طقوسية دينية رقصية إيمائية تصويتية، ثم تحولت إلى أناشيد دينية، ثم حفظت أو دونت على شكل نقوش تصويرية، ثم سطرت كتابيا، وأخذت شكلها الذي انتقل بين الحضارات.

والأسطورة بشكل عام، والدينية منها على وجه خاص تقوم على منطق غير واقعي، توهمي، روحي، خيالي، يأخذ من الإبهار هدفا، وهي لا تتمسرح على خشبة ذات أبعاد زمكانية، أي إن الأسطورة لا تعتمد على منطق تاريخي (له تزامن، وجغرافيا)، وهي بذلك لا يمكن قبولها إنسانيا إلا على مبدأ إيماني على أساس أنها تمثل المادة الجوهرية في الدين، وهو منطق غير مقبول بالنسبة للعقلية العلمية المهيمنة على علمية هذا العصر، الذي يأخذ من المعطيات التجريبية التحليلية، ومن خلال منطق مادي، أساسا لاستكشاف العلاقة التي تربط بين السبب والنتيجة.

والأسطورة الدينية بشكل عام تعتبر نفسها خطاباً مطلقاً لا يرقى إليه أدنى شك، ومن هذا المنطق اتخذ الدين خطابه أيضا على اعتبار أن الأسطورة هي دين بدائي، والفكر لكل معتقد ديني يطرح نفسه على أنه، هو فحسب، من يمتلك الحقيقة الإلهية المطلقة، وأن النص الديني المقدس يمتلك حصانة قدسية، ومن المحرم على أحد أن يشكك أو يطعن في صدق مقولته. ومن الأمثلة الحديثة على هذا التوجه قيام كنيسة أمستردام بطرد سبينوزا من حظيرتها، واعتباره مهرطقا لأنه تجرأ على إعلان تشككه في أن موسى هو من كتب الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس، وقد تعرض أيضا جورج سميث إلى عاصفة

احتجاجات هائلة من قبل الكنيسة، لا سيما منها البروتستانتية الإنكليزية عندما نشر مقاطع من ملحمة جلجامش السومرية التي تحتوي على أسطورة الطوفان، والتي تتطابق في نسيجها مع قصة نوح التوراتية.

وختاما، فإن الفكر الإنساني، حسب المختصين، مر بأربع مراحل مميزة، كان أولها السحر، ثم الدين، ثم الفلسفة، ثم العلم التجريبي الذي نزع كل القدسيات، والمقدسات التي كان يكن لها الإنسان أعلى درجات الاحترام والتبجيل، كما أن العلم التجريبي، وبالتالي الإنسان الحديث جعل من الأسطورة عملا أدبيا بعد أن فقدت قيمتها الدينية، وقدسيتها اللغوية، وهو أمر له مخاطر كثيرة على التطور الروحي الإنساني، والقلة من استطاع أن يفصل مفهوم الدنيا عن مفهوم الدين الذي يشكل استمراره، وبالتالي استمرار قدسية أساطيره فراشا نابضا تسترخي عليه الروح بغض النظر عما يقوله العلم التجريبي الذي أودى من خلال نزعته العقلانية بقدسية الأساطير، وبالتالي زعزع الكثير من البنية الدينية، والتديّنية عند الإنسان الحديث، ليبني أسطورته العقلية الخاصة به.

- والأسطورة الثانية: هي الأسطورة التاريخية.

وهي التي سأتوسع قليلا في بحثها، على اعتبار أن الأسطورة التوراتية تقدم نفسها على أنها سجل لتاريخ اليهود.

- والأسطورة الثالثة: وهي الأسطورة الرمزية.

وهي التي تأتي على شكل قصة تعتمد على الإيحاء، يلعب فيها الآلهة، وأنصاف اللآلهة، وبعض الشخصيات المميزة كالملوك، والأنبياء الأدوار الرئيسية في القصة التي تتميز بأنها تحاول أن تجيب على تساؤلات الإنسان الوجودية، وحسب ما جاء به فراس السواح فإن {الأسطورة هي حكاية مقدسة، ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان}، ومن هنا فإن الأسطورة والفلسفة لهما هم مشترك واحد، ولكن بينما تعتمد الفلسفة على النص أو اللغة التي تخاطب العقل، فإن الأسطورة تخاطب الذهن من خلال القص الترميزي الذي غالبا ما يصاغ ضمن قالب شعري غنائي يتواءم مع قراءته في الاحتفالات والأعياد الدينية، وإلى هذا النمط تنتمي أغلب الأساطير، أو على الأقل فإن أغلب الأساطير تتضمن أو تحتوي على بعد رمزي، وتقوم على استخدام (الظلال السحرية للكلمات) التي تتدرج ما بين الخفاء والوضوح، والأسطورة الرمزية قادرة على الإيحاء واستثارة المشاعر حسب ما يذهب إليه فراس السواح، ويذهب أكثر أصحاب هذا الرأي إلى أن الأسطورة تخرج من منطقة ما قبل الشعور الجمعي، ولذا فهي تتوسط فيما بين الواقع، والحلم، في الوقت الذي

تميل فيه الخرافة (كنمط خاص من أنماط الأسطورة) نحو الحلم، أكثر من ميلها إلى أحلام اليقظة تلك التي تشبه الأسطورة، ويذهب أصحاب مدرسة التحليل النفسي، وعلى رأسهم فرويد، ويونغ وأتباعهما إلى أن الأسطورة تنبع من الجهاز اللاشعوري في الإنسان كرغبة في تفجير، وتفريغ ما يختلج في داخل الإنسان من رغبات.

وتعتبر الخرافة نمطاً خاصاً من أنماط الأسطورة الرمزية، والأسطورة بشكل عام تختلف عن الخرافة في نقاط عديدة أهمها هو أن الخرافة أكثر حرية في الترميزية، وتعتمد على عناصر التشويق، والإثارة من خلال المبالغات في سردها للأحداث الخارقة، وتنتشر في الأوساط الشعبية، ومن النادر أن يتم تبنيها من قبل السلطة الدينية، والمدنية أيضا، وتكثر فيها قصص الحيوانات، والكائنات الخرافية مثل الغول، والأشباح، وسواها، كما أنها أكثر قدرة من الأسطورة على التكيف، لأن لغتها شفوية، ولا قيمة لبنية اللغة فيها، وليس هناك من خصوصية لغوية لها، بينما الأسطورة فتعتمد على بنية لغوية محددة تتخذ من الشعر، ولا سيما الغنائي صيغة لها، وتعتبر الهند أهم منبع من منابع الخرافة، وقد سادت الخرافة عند العرب في شبه الجزيرة العربية أكثر من سيادة الأساطير لأسباب عديدة، على رأسها أن الثقافة العربية في شبه الجزيرة العربية ثقافة شفهية، والخرافة تنمو على الشفاه أكثر من نمو الأساطير، ولذا فهي قابلة للتضخيم، وقابلة لأن تحتوى كل ما يمكن أن يدلي به الخيال الفردي، والأوهام التي تبعثها الصحراء في نفوس سكان البدو، وتعتبر ألف ليلة وليلة مرجعا مهما ومستودعا للخرافات، أما كليلة ودمنة فهو نمط من أنماط الخرافة التي انتقلت من بلاد الخرافة (الهند) إلى بلاد العرب في العهد الإسلامي، كما أن الخرافة كثيرا ما تنشأ من تطور قصص البطولات الشعبية التي تكون أقرب إلى الممكن، والبطل فيها إنسان إنساني له قدرات مميزة، وهو ما يمكن ملاحظته عند عرب شبه الجزيرة العربية، والتي تطورت إلى حالات وسيطة ما بين القصص الشعبية، والخرافة، أما في بلاد الهلال الخصيب فقد سادت الأسطورة على حساب الخرافة نظرا لمعرفة شعوب بلاد الهلال الخصيب للكتابة في وقت مبكر من التاريخ الإنساني.

وغالبا ما تبنى الخرافة على شائعة، بينما الأسطورة فتبنى على نواة تاريخية، كما أن، الخرافة كما سبق، تميل إلى أن تكون شفوية لأنها تنتشر بشكل شعبي، أما الأسطورة فتميل إلى النمط التدويني لا سيما بعد أن تقوم السلطة الدينية والسياسية، وتدوينها بصيغة أدبية شعرية، وبمعنى آخر تعتبر الأسطورة قصيدة شعر للأنا الجماعية العليا، تقوم على تصوير الواقع بطريقة ميتافيزيقية، أي تقوم بتصوير ظل الواقع على الزمكان، ومن الممكن أن

تتحول بعض الأساطير إلى مجموعة من الخرافات إذا ما انتقلت من بيئة إلى أخرى، ومن ثقافة أو تراث إلى ثقافة أخرى، وهذا ما حصل حين انتقلت الأساطير التوراتية إلى العرب في شبه الجزيرة العربية، حيث تحولت تلك الأساطير إلى مجموعة من الخرافات، أو تولد من تلك الأساطير النصية مجموعة من الخرافات الشفهية، كما يمكن، في الوقت نفسه، وأن تتحول أو تتطور بعض الخرافات إلى أساطير.

- **والأسطورة الرابعة: هي الأسطورة الطبيعية التنشئية التكوينية التعليلية.**

ويذهب الباحثون إلى أن هذا النمط من الأساطير، والتي حاول من خلاله الإنسان تفسير الطبيعة والكون بما فيها الزمكان، ظهر بعد أن تبلور عند الإنسان مفهوم الروح، وقد استغل الكهنة هذا المفهوم بادعائهم أنهم على اتصال مع هذه الأرواح.

ويذهب أصحاب المنهج الطبيعي إلى أن الأسطورة، أتت بعد أن أدرك الإنسان جهله، وقد وظف الأسطورة كمرجع معرفي يجيب على أسئلة الإنسان الأولى حول تفسير الوجود، ويلخص فراس السواح أسباب نشوء الأسطورة بذهابه إلى أن الأسطورة هي تسجيل لمغامرة العقل الأولى في ليل جهل الإنسان البدئي، أما جيمس فريزر فيرى أن الأسطورة هي عبارة عن محاولة الإنسان لتفسير الكون والطبيعة، وتبدلاتها، أما ماكس مولر فيرى أن الأسطورة تمثل مرحلة أصيب فيها العقل البشري بالجنون، وهي مرحلة ضرورية صيرورية في التطور الفكري الإنساني.

ومن هنا فأنا أرى أن أساطير التكوين، والخلق هي ترجمة لذاكرة عميقة في الإنسان، متمشقة في المادة الوراثية، وهي تمثل أساطير أولية (نص أصلي) في كل الأمم، وهذه الأساطير قابعة في الذهن البشري، ويقوم الإنسان بالتعبير عنها حسب حيثياتها الحضارية، وتلك الأساطير التكوينية لا تتعارض أبدا مع الحقائق والفرضيات العلمية الحديثة، وكما تقوم المورثات بالتعبير عن نفسها من خلال تشكيلها للكائن جسديا، كذلك تقوم بالتعبير عن ذاكرتها الدفينة غير الواعية، التي كانت قد قامت بتسجيل تجربتها في الحياة ما قبل مرحلة الوعي الإنساني الفردي، والجماعي، وما أذهب إليه يتوافق أيضا مع ما ذهب إليه أصحاب النظرية الرمزية، ولا سيما فرويد الذي ذهب إلى أن أسطورة الطوفان، وأسطورة الجنة على سبيل المثال هي تخريج لا شعوري لمحنة ولادة الإنسان، وخروجه من فردوس الأم إلى قسوة الحياة.

ومن هنا فإن بعض الأساطير تشبه الأحلام من خلال كونها مجموعة رموز ذات معنى، وتكرار الأسطورة أي قصها يقوم بتفريغ حالة احتباس روحي لدى الجماعة، وهذا يتطابق مع

الوظيفة التي تقوم الأحلام بأدائها، وهذه الأساطير التكوينية الرمزية (الأصلية) تمثل أو تعكس المشاعر المشتركة للإنسان بغض النظر عن تجاربه التاريخية، ومن هنا يأتي التشابه الواسع في البنى العميقة للأساطير أينما كان الإنسان، وفي مختلف الأزمنة والبيئات، والأنماط الحياتية، ومن هنا، فإن تشابه الأساطير لدى الشعوب المختلفة يعود إلى آليتين، الأولى تعود إلى وجود أصول مستقلة متشابهة لدى الشعوب تنتجها الذهنية الإنسانية الفطرية، أما الآلية الثانية، فهي التي تقوم على انتقال الأسطورة بين الأمم والشعوب والجماعات البشرية.

وعودة إلى الأسطورة التاريخية، فأكثر الباحثين على اختلاف آرائهم في مقاربة الأسطورة، يجمعون على أن للأسطورة، إضافة إلى محاولتها مقاربة وتشخيص التاريخ الكوني، أو تاريخ الوجود، بعدا تاريخيا، فملينوفسكي، ويتفق معه ريموند فيرث، يذهب إلى أن الأسطورة تتشكل بعد حدوث (المعجزة السحرية)، وهذا يعني فيما يعنيه هو أن الأسطورة عبارة عن نص تعبيري يصور بطريقة مضخمة فعلاً أو حدثاً ذا طابع مميز، وهذا يتفق مع أريد تأكيده من أن الأسطورة تبنى على نواة فعلية تاريخية، أما مولر، ويتفق معه بعض الباحثين، فقد ذهب أيضا، إلى أن الأسطورة في أساسها هي أحداث تاريخية، وأن الآلهة في الأساطير هم أناس حقيقيون، لكنهم كانوا مميزين عن سواهم، وقد قام أبناؤهم بتخليد ذكراهم من خلال تضخيم ما لديهم من حسنات، ثم قام أحفادهم بتقديسهم، ثم تصنيمهم، وتأليههم، وبذلك تكتمل سيرة تشكل الأسطورة التي تتحول إلى قبلة روحية ميتافيزقية تصورية عقيدية قبلية عرقية أثنية، وظيفتها الرئيسية تجميع، ولمّ الجماعة العضوية الأثنية في غير مكان، وزمان، وهذا يتماشى مع ما ذهب إليه هربرت سبنسر من أن الأسطورة هي نص من عبادة الأسلاف، حيث يقوم أتباع شخص أو مجموعة أشخاص بتأريخ ماضيهم بطريقة شاعرية، أدبية، وهذا ما نجده في أسطورة الملك السومري دموزي، الذي قام أتباعه بتأليهه، وعبادته، بل والتبشير بعبادته التي انتشرت، بأسماء متعددة، في منطقة الشرق الأدنى، ومن ثم انتقلت من خلال الكنعانيين إلى حوض المتوسط، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في سياق بحث تشخيصي تفريقي بين الإله وبين الرب، وكان أول من قام بتشخيص ومقاربة أصل الآلهة في الأسطورة هو المؤرخ البيروتي سخونياتن الذي يُعتقد أنه عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والذي وصلت بعض أفكاره عن طريق فيلون الجبيلي، ومن بعده عن طريق المؤرخ والفيلسوف أوزيب الذي عاش في القرن الرابع الميلادي.

ولكن يمكن أن نشير هنا إلى أن التاريخ الأسطوري، له فضاؤه الزمكاني السماوي، وأحداثه التي لا يمكن إخضاعها إلى الواقع حسب منطق العصر الحالي، وأصحاب هذا الرأي

يشيرون إلى أن البشرية في بداية وعيها الحضاري كانت تأخذ من أي حادثة تاريخية نواة لتشكل حولها الأسطورة التي تتضخم إلى درجة يصبح من الصعب استنتاج الحدث التاريخي الذي بنيت عليه الأسطورة، ومع تطور الإنسانية نحو التفكير الموضوعي، بدأت تتراجع هذه النزعة (الميل للسرد الأسطوري) لمصلحة السرد التاريخي الموضوعي.

وبشكل موجز فإن الدين، وبالتالي الأسطورة الدينية تقدم التاريخ على أن له شكلاً دائرياً، كما هو الزمان، ويقسم الدين التاريخ إلى عدة مراحل أولها المرحلة السرمدية، وهي مرحلة الوجود في طوره السكوني، حيث لا وجود، ولا زمكان، ليس هناك سوى الإله المطلق فقط، والمرحلة الثانية هي المرحلة الكوزموغونية (الزمكانية) وهي المرحلة التي قام فيها الإله بخلق الوجود المادي، أما المرحلة الثالثة من التاريخ الديني فهي المرحلة التي قام فيها الإله بتنظيم الوجود، وبذلك تبدأ مسيرة التاريخ على الأرض، وهذه المراحل الثلاث للتاريخ الديني هي التي حاولت أساطير الخلق والتكوين أن تمسرحها، أما المرحلة الرابعة والأخيرة هي المرحلة الأبدية، حيث يعود التاريخ ثانية من المتحول ليدخل في بطن الثابت الأبدي، وبالتالي انغلاق الدورة الوجودية، ولكن بعض الأديان تختصر التاريخ على ثلاث مراحل كما هو الأمر بالنسبة للزرادشتية التي تقسم التاريخ إلى ثلاث مراحل: الأولى مرحلة الخير الكامل، والثانية: مرحلة امتزاج (وصراع) الخير بالشر، والمرحلة الثالثة هي مرحلة انتصار الخير على الشر، وبالتالي العودة ثانية إلى المرحلة الأولى، أما المسيحية فلا تختلف كثيرا عن الزرادشتية، سوى أن المسيحية ترى أن الشيطان سيسود على التاريخ في المرحلة الفاصلة ما بين المجيء الأول للمخلص والذي تحقق من خلال مجيء المسيح عيسى ابن مريم، وعودته ثانية حيث سينتصر على الشيطان، وتبدأ المرحلة الثالثة من التاريخ أو ما يسمى بـ (نهاية التاريخ)، وهو يقابل الآخرة في الدين الإسلامي، أما في اليهودية فهي تتشابه مع المسيحية في هذا الشأن، إلى أن اليهود يعتقدون أن المسيح لم يأتِ بعد، وما زالوا ينتظرون قدومه الأول.

وكما سبق وأشرنا فإن أساطير التكوين كانت معنية بتقديم تاريخ ديني لما حدث للوجود منذ المرحلة السرمدية، وحتى مرحلة انحدار التاريخ من السماء إلى الأرض، وبالتحديد أرخت لمرحلة الزمن الكوزموغوني، أو الزمن التكويني، وهو الزمن الذي يفصل بين الأزل، والتاريخ الذي يتمسرح في الزمكان، كما أن هذا الزمن التكويني (الأسطوري) حسب الديانات السماوية مستمر مع التاريخ على اعتبار أن الحدث التكويني فعل ماضٍ مستمر، أو فعل ماض عالق في الحاضر، أو فعل ماضٍ لا يمضي، بل يستمر في الحاضر والمستقبل، أي أن التاريخ الماضي، والحاضر، والمستقبل هو زمن مقدس، يشكل دائرة

وسينتهي إلى الأزل ثانية، بعد يوم الحساب، أو يوم القيامة، أي هو الزمن الذي يبدأ أو بدأ منذ الأزل وينتهي بالأبد.

وعلى الرغم من أن الأساطير على اختلافها، وعلى اختلاف المراحل التي غطتها، وتحديدا الأساطير التي أرخت لمرحلة الآباء الأوائل، لم تعد تقبل كحقائق تاريخية منذ زمان طويل، إلا أن هذه الأساطير تخفي وراءها، أو في جوهرها حقائق وظواهر طبيعية وتاريخية حدثت في سياق التطور الطبيعي بشكل عام، والإنساني بشكل خاص، وتم تناقلها شفويا في البداية، ثم تم تدوينها بطريقة أسطورية تتلاءم وروح العصر الذي حيكت فيه، بعد أن قام الخيال البشري الشاعري على العمل عليها، وأضفى عليها بعض المحسنات اللغوية ذات البعد الديني، ومن ثم تم حفظها في المعابد على اعتبار أنها تاريخ وتراث الشعب، أي بمعنى أن الأسطورة كمادة أولية هي مادة تاريخية أضيفت إليها محسنات من الخيال الإنساني، فالطوفانات في الأساطير على سبيل المثال هي حوادث حقيقية حصلت في التاريخ، وآثارها ما زالت قائمة، ونفس هذه الطوفانات ما زالت تحصل الآن في غير زمكان، ولكن تفسير هذه الظواهر هو الذي اختلف بين عصر وآخر، وهذا لا ينطبق على الخرافة التي تعتبر حكايات تشويقية شعبية، غالبا ما تبقى شفوية، وغير معتمدة من قبل السلطة السياسية والدينية، وهي نادرا ما تحتوي على نواة تاريخية، وليس لها هدف إخباري.

ويمكن لنا، استقراء، ومقاربة، واستكشاف التاريخ في الأسطورة إذا ما استطعنا تفسير وفك رموزها، الأمر الذي يتيح لنا تأهيلها، وإعادة كتابتها، بعد أن نضعها في زمكانها الذي يجب أن نكون على اطلاع بالتطور التاريخي، والأنساق المعرفية للشعوب والحضارات المتعاقبة، كما يجب أن نعلم ماذا تريد الأسطورة أن تقوله لنا، وما هي أغراضها، وما هي وظيفتها، إضافة إلى الإلمام بالشخصية التاريخية صاحبة الأسطورة، من جهة، ومعرفة معجم الرموز والإشارات التي تستخدمها الأسطورة بشكل عام، والبنية الثقافية الاجتماعية الحضارية، وكمثال على ذلك، فقد بينت أعمال البحث الأركولوجي أن طوفانا، يقدر ارتفاعه بثمانية أمتار، قد حصل في بلاد الرافدين، أنهى الحياة في تلك المنطقة، ومن ثم عادت الحياة إليها على يد السومريين الذين أرخوا تلك الحادثة بطريقة أسطورية، والتي وصلتنا من خلال ملحمة جلجامش، وقد انتشرت هذه الملحمة في كل منطقة الشرق الأدنى القديم، ووصلت في النهاية إلى محرري التوراة (الكتبة) الذين قاموا بتدوينها في التوراة بعد أن قاموا بتهويدها، أي قاموا بروايتها بعد تطويعها في حظيرة التصور اليهودي.

ويجدر الإشارة هنا إلى التمييز بين التاريخ، والرواية التاريخية، من حيث إن التاريخ هو مسرحة أحداث معينة ضمن سياق تاريخي (كرونولوجي) محدد، وضمن فضاء مكاني (جغرافي) محدد، أما الرواية التاريخية فهي مسرحة أحداث ربما تكون قد حصلت فعلا، إي أنها أحداث تاريخية بكل ما تعنيه هذه الكلمة، ولكنها مسرحت في زمكان مختلف عن زمكانها، أي في زمكان ادعائي، وبمعنى آخر فإن الرواية أو القصة التاريخية هي أحداث تاريخية تم إسقاط هويتها الزمكانية، بحيث أصبح من الممكن إعادة تركيبها ومسرحتها في أي زمكان آخر مع بعض التحوير البسيط، وهذه حال الروايات التوراتية التأريخية، والتي تُعتبر روايات دينية وعظية ليس لها أي علاقة حقيقية بالتاريخ الموضوعي، وتحديدا بالزمكان الذي مسرحت عليه.

ويعتبر التاريخ الديني المقدس نمطاً من أنماط الروايات التاريخية، والتاريخ المقدس هو التاريخ الذي ينشأ عن إرادة إلهية تكسر القوانين الفيزيائية والقواعد المنطقية من أجل فرض وتثبيت مقولة وعظية تعليمية أخلاقية، مع العلم أن تلك الروايات (القصص) التأريخية الدينية قد يكون لها نواة تاريخية بسيطة تم تضخيمها وتسييسها وأدلجتها لخدمة مقولة وعظية، وتم إسقاط البعد الزمكاني لتصبح تلك الأحداث أكثر حرية في التنقل بين الأمم والشعوب، وأكثر حرية في التنقل في الزمان، والمكان، بحيث يمكن أن تصبح تلك الأحداث تمثل تاريخا لأي شعب، ويمكن أن تحدث في أي زمان، كما يمكن أن تحدث في أي مكان أيضا، وخير مثال على ذلك هي ملحمة (هو الذي رأى كل شيء) التي اشتهرت باسم ملحمة جلجامش، والتي تتحدث بشكل ملحمي أسطوري عن ملك يدعى جلجامش كان ملكا على مدينة أوروك، والتي تتضمن أسطورة الطوفان التي قامت أكثر من حضارة باستقراضها، وقد ثبت حدوث الطوفان في بلاد الرافدين (منبع الأسطورة)، كما ثبت أيضا الوجود التاريخي لتلك المملكة (مملكة أوروك)، وأيضا ثبتت تاريخية الملك جلجامش الذي ورد ذكره في ثبت ملوك سومر وجاء ترتيبه الخامس في ملوك مدينة أوروك بعد الطوفان.

إن الملك جلجامش الأسطوري، والذي كُتبت ملحمته، على عدة مراحل تاريخية، وعلى أيدي أكثر من حضارة، هو شكل مضخم، ومبالغ فيه بالنسبة إلى الملك جلجامش التاريخي ملك مدينة أوروك الصغيرة البسيطة والتي ما زالت بقايا آثارها قائمة إلى الآن في جنوب بلاد الرافدين، أما أوروك التي بناها كتّاب الأسطورة فهي بعظمة الملك جلجامش الأسطورة، وما الرويات الدينية بشكل عام، والكتاب المقدس (التوراة) بشكل خاص إلا صورة طبق الأصل عن هذا الفارق بين الأسطورة والحقيقة، وإذا ما أردنا أن نستفيد من النص الديني من أجل

مقاربة التاريخ فعلينا أولا أن نسقط منه كل ما هو إعجازي ولاهوتي، ثم نجري تقاطعات ما بين نتائج البحث (شهود العيان) وما سيتبقى من النص الديني كمحاولة تجريبية لسد الثغرات في نتائج البحث التاريخي.

والأسطورة التاريخية لم تعالج الماضي في التاريخ فقط، بل حاولت أن تتدخل، وأن تشارك في صناعة التاريخ في الحاضر، والمستقبل، وهنا لي أن أذهب إلى أن الأسطورة التي نشأت حول نواة تاريخية، أي التي أرخت لحدث تاريخي ما بطريقة مضخمة، يمكن لها أن تصنع التاريخ، أو تنتج نفسها في التاريخ، من خلال فرض تصورها على المؤمنين بها، والذين يقومون بدورهم بفرض تصورهم الديني عن الماضي في الحاضر. فالأسطورة التي في النهاية تصبح نواة أو جزءاً من دين، فإن أتباعها سيحاولون أن يعيدوا إنتاجها في التاريخ، لأن الإنسان العقيدي يصبح جزءاً من النبوءة، ومن خلال إيمانه بها يتوجب عليه بشكل واع، أو من غير وعي، أن يساهم في دفع التاريخ ليتحرك نحو تحقق النبوءة، وبذلك يعيد التاريخ (الماضي) نفسه في خطوطه العريضة في التاريخ الحاضر بطريقة مضخمة، وعندما تبتعد تلك الأحداث في الزمان، يصبح الأمر ملتبسا على الباحث بين أولوية الأسطورة، على التاريخ الذي صنعها، أو أولوية التاريخ على الأسطورة التي صنعته. وهنا يمكن لي أن أستشهد بمثال يقارب ما ذهبت إليه، هو المسيح الذي كان قد تنبأ بمجيئه أنبياء اليهود في محيط السبي البابلي، والمسيح اليهودي يعتبر شخصية افتراضية، ستتمسرح تاريخيا في المستقبل، ومنذ تلك الأيام، ظهر عدة شخصيات ادعت أنها المسيح المخلص، وكانت جميع تلك الشخصيات التي ادعت مسيحيتها تحاول أن تتمسرح تاريخيا حسب ما رسمتها أسطورة المسيح التوراتية، وتعتبر إحدى تلك الشخصيات هو يسوع المسيح ابن مريم، الذي حاول أن يؤرخ، أو يمسرح أسطورة شخصية المسيح اليهودي كما أتت في أسفار الأنبياء المتأخرين في التوراة، فقد أتى في سفر النبي زكريا الذي تلا نبوءاته في المرحلة الأولى من عودة اليهود من السبي البابلي «هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان..» زكريا ٩، أما في إنجيل متى الذي أتى على تأريخ سيرة السيد المسيح ابن مريم «ولما قربوا من أورشليم.. حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلا لهما. اذهبا إلى القرية التي أمامكما فللوقت تجدان أتانا مربوطة وجحشا معها فحلاهما وأتياني بهما... فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل قولا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعا راكبا على أتان وجحش ابن أتان» إنجيل متى: ٢١، أما في إنجيل يوحنا فقد جاء «ووجد يسوع جحشا فجلس عليه كما هو مكتوب: لا تخافي يا ابنة صهيون. هوذا ملكك يأتي جالسا على جحش أتان. وهذه الأمور لم يفهمها تلاميذه أولا. ولكن

لما تمجّد يسوع حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه وأنهم صنعوا هذه له» إنجيل يوحنا: ١٢، وهذا يعني أن مسيح المسيحية حاول أن يمسرح النبوءة بمجيء المسيح اليهودي المخلص التي أتى بها الأنبياء اليهود، بل إن بعض الباحثين يذهب إلى أن شخصية يسوع المسيحية كما أتت في العهد الجديد كانت أيضا شخصية أسطورية، أو أنها شخصية بسيطة قام محررو العهد الجديد بنسجها من خيوط النبوءات القديمة، وأضافوا إليها بعض الزخارف التي أضافت لها بعدا أسطوريا جديدا، يتماشى مع العقيدة التي حاولوا التبشير بها، كما أن التصور البروتستانتي لعودة المسيح يسوع ابن مريم هو الذي يدفع الأصولية المسيحية البروتستانتية في إنكلترا، والولايات المتحدة الأمريكية التي تمثل القوى العظمى الوحيدة على الأرض إلى دفع التاريخ نحو حرب كونية على اعتبار أنها حرب هارمجدون حسب السيناريو أو التصور البروتستانتي الرؤيوي الذي جاء ذكره في سفر (رؤيا يوحنا اللاهوتي) والتي ستجعل المسيح يعود ليفتتح الألفية السعيدة، وما الحرب الأمريكية الإنكليزية (البروتستانتية) على (الإرهاب)، واحتلال العراق، وتقسيم العالم إلى (قوى الظلام، أو محور الشر)، و (قوى أو محور النور، أو الخير) إلا مراحل في سياق الوصول إلى حرب هارمجدون الدينية الكونية حسب التصور الديني البروتستانتي الميثولوجي الخلاصي، والتي يعتقد أنها ستشكل الحرب العالمية الثالثة، بل يذهب البعض إلى أن هذه الحرب قد بدأت فعلا، ولكنها لم تصل إلى تصاعداتها الكبرى بعد، وهذا يجعلنا نعتقد أن أعلى الفلسفات الأرضية المادية محكومة بمحركات ميثولوجية تتظاهر بأشكال متدرجة ما بين التخفي، والوضوح، وليس كذلك فحسب بل إن الأفكار الميثولوجية تستطيع أن تتسريل في أشكال مختلفة، كما أنها تستطيع أن تتسرب إلى جميع الأفكار والمعتقدات، والتصورات، والفلسفات، وعلى سبيل المثال فإن نظرية فرويد النفسية قد بنيت تحت تأثير التصور الخلاصي المسيحي التثليثي.

ومن جانب آخر، وعلى عكس علاقة الأسطورة بالمسيح، حيث قامت الأسطورة بصناعة التاريخ، فإن الأسطورة قد تكتب في مرحلة متأخرة عن التاريخ الذي صنعها، أي أن التاريخ هو من يقوم بصناعة الأسطورة، فقد جاء في بردية لايدن المصرية الشهيرة {.. لقد أصبح حكام البلاد يأتون أمورا ما كان ينبغي حدوثها. وخربت الأرض وليس من يأسى عليها.. يتحدث الجميع عن الحب.. لكن الخير اختفى. تناقصت الأرض لكن الموظفين تزايدوا. جفت الأرض لكن الضرائب تضخمت. قلت المحاصيل لكن المكيال اتسع. واقتحم القبليون أرض مصر. وما من مدافع ليسمع أو يجيب. تباعد (رع) عن الناس وأصبح الكليل صاحب سلاح. وصار القوم يبجلون من كان يبجلهم... لكن سيأتي ملك من الجنوب اسمه أميني. ابن سيدة

من تاستي. طفل خن نخن. سوف يتسلم التاج الأبيض. ويلبس الأحمر. والناس في زمنه. سيكونون سعداء. إن ابن أحدهم. سيخلد اسمه إلى أبد الآبدين. أما الذين تآمروا على الشر ودبروا الفتنة. فقد أخرسوا أفواههم خوفا منه. والآسيويون سيقتلون بسيفه. واللوبيون سيحرقون بلهيبه. والثوار سيستسلمون لنصائحه. والعصاة لبطشه. سيخضع المتمردون للصل الذي على جبينه. وسيقيم أسوار الحاكم. حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر. وسيستجدون الماء حسب طريقتهم المعروفة. حتى ترده أنعامهم. وستعود العدالة إلى مكانها. وينفي الظلم من الأرض. فليبتهج من سيراها. من سيكون من نصيبه التعاون مع ذلك الآتي} ، وقد كتبت هذه النبوءة بعد تسلم العرش الفرعون أميني، وادعى كتبتها، أن تلك النبوءة كتبت في زمان قديم، من أجل أن يضيفوا إلى الفرعون أميني هالة من القدسية عليه لأسطرة شخصيته.

أما المثال الأكثر التصاقا على ما أتيت عليه هو الأسطورة التوراتية حول المملكة المتحدة التي كان لها نواة تاريخية بسيطة، تم بناء الأسطورة حولها، وهذه الأسطورة نفسها هي التي صنعت التاريخ اليهودي بعد السبي البابلي، كما تعيد صناعته أيضا الآن لمرة ثانية على يد اليهودية العالمية، والجدير ذكره هنا، أن الديانة اليهودية تبنت الأسطورة التاريخية، والتعليلية، وجاءت المساهمة اليهودية الحقيقية من خلال تأريخ الأسطورة، وتدوينها بشكل تراتبي، وفهرستها، وحفظها لتراث الشعوب في العالم القديم، وقد قامت اليهودية بربط مجموعة كبيرة من الأساطير مع بعضها، وجعلت منها كيانا متسلسلا ومترابطا، نسبة لما كانت عليه كتابات الحضارات القديمة، التي كانت تدون أفكارها، ونشاطاتها، بشكل متفرق، ومستقل، وقد بدأ اليهود بتدوين التراث الشفوي الأسطوري في سياق القرن السادس قبل الميلاد، في الوقت الذي كانت الشعوب الرافدية الحضارية قد دونت تراثها الأسطوري منذ زمن بعيد، وكانت قد تطورت إلى مرحلة تدوين التاريخ التاريخي، ولم يكن تدوين التوراة مستغربا في تلك الفترة، لأن القرن الخامس قبل الميلاد يعتبر قرنا حضاريا إبداعيا على جميع المسويات الفكرية، والفنية، والروحية الدينية، وفي كل أرجاء العالم، وهو الزمن الذي تشكلت فيه اليهودية، والديانات الهندية، والصينية، والفارسية، والفلسفات اليونانية، وتم تدوين الكتب الدينية بشكل موسوعي لم يكن له مثيل من قبل، وقد أتى تدوين التوراة في سياق هذه الطفرة الدينية، التدوينية.

وقد قامت القيادات اليهودية في بابل، في مرحلة السبي البابلي، بتجميع شفوياتهم الشعبية، بما تشتمل عليه من الخرافات، والقصص والسير الشعبية، وبعض الأساطير، ولأنهم لا يعرفون أصولهم العرقية الحقيقية حق المعرفة، أو لأنهم يتحدرون من عدة أصول عرقية،

وأثنية، أو لأن الشعوب في بابل كانوا ينعتون الجماعات اليهودية بأصولهم الوضيعة، فقد وجدوا في بعض الأساطير التي تتحدث عن الآباء الأوائل، سبيلا للرد على اتهام الآخرين، وشكوكهم بوضاعة أصول الجماعات اليهودية من جهة، ومن جهة ثانية، فقد وظّفت الأسطورة التوراتية في لَمّ ما تفرق من دماء الجماعات المسبية، في حوض ثقافي، تراثي واحد، كما قام قادة اليهود في مرحلة السبي، وما بعدها بوصل جملة من تلك الأساطير، فيما بينها، وحاولوا تطويعها في حظيرة التاريخ، ووضعوا أساطير الآباء الأوائل في مقدمة الكتاب المقدس، وقد نجحوا في تكريس الأسطورة لخدمة ادعاءاتهم التاريخية، من خلال تدبيج ماض يهودي أسطوري عريق، ومستقبل زاهر ينتظرهم على الأرض المقدسة التي وعدهم بها الرب، على اعتبار أنهم شعبه المختار.

وبصيغة موازية وإيجازا لما سبق يمكن القول أن التوراة اعتمدت في نصها التأريخي على الأسطورة، والأسطورة تعتبر نمطا غير علمي من أنماط التأريخ، ذلك لأنها تخضع إلى عدة تحويرات وتحريرات غايتها إرجاع أو إسناد الحدث إلى قوة فوق طبيعية (ميثيولوجية)، كما أن تدوين الأسطورة من حيث كونها تاريخا فإنها تخضع لتأثير المعتقد الديني والأثني لمحررها، وتحتاج قراءتها إلى معرفة الحالة الدينية والعاطفية والفكرية لكاتبها، أو محررها، وموقعه منها، وكذلك هو الأمر بالنسبة للتأريخ ككل والذي هو دائما عرضة للتحوير والتزييف تبعا لموقف، وبعد، وقرب الكاتب أو المؤرخ من الحدث أو الأحداث التي يقوم بتأريخها، وبما أن التاريخ هو نتاج التحولات، والصراعات، فغالبا ما يقوم المنتصر بفرض نفسه كمؤرخ، فيكتب التاريخ حسب قدرته على التميز بين ذاتيته، وموضوعيته، ولكن التأريخ التوراتي لم يكن خاضعا لهذا القانون عندما كتبه أحبار اليهود في الأسر بعد هزيمتهم التاريخية كتعويض نفسي للذل والهوان الذي تعرضوا له في بابل، لا سيما وأنهم كتبوا تاريخ أزمان بعيدة عن زمن التأريخ، الأمر الذي منحهم إمكانية الكتابة بطريقة ذاتية، ودون أي رقيب أو حسيب، وهذا ما نجده في تأريخ المملكة المتحدة، الذي دوّن تحت تأثير الهزيمة، وما تمخض عنها من مؤثرات نفسية تعويضية، ومعالجة لحالة ذل وهوان في سياق السبي البابلي، ومن هنا فإن تأريخ مرحلة الخروج، والدخول، والمملكة المتحدة لم تكن سوى مسرحة هذيانية تناصية لمجموعة آمال، وأحلام، وادعاءات، ولم يكن مسرحة موضوعية على زمكان تاريخي، وهو الأمر الذي نجده في تأريخ مرحلة السبي البابلي وما قبلها.

وبشكل عام فقد دونت التوراة في المرحلة الوسيطة ما بين الكتابة الملحمية، والكتابة التأريخية، وعكست عقلية دينية - قبلية عشائرية - أثنية، أيدلوجية، وقد قام الكهنة اليهود

بتأريخ الأساطير التي توارثوها، أو اقتبسوها من الشعوب البائدة والمعاصرة لهم، فأتت الشخصيات التوراتية في الأسفار الأولى رموزاً مجازية، ولكنها طُوِّعت بلغة ونمط كتابي تاريخي، أو شبه تاريخي لأنها لم تتبن التاريخ على أنه نتاج الظروف والحيثيات الموضوعية ضمن سياقاتها التاريخية، بل قدمته على أنه يمثل علاقة الرب مع الشعب المختار، وهذا تماماً ما يمكن تسميته بالتاريخ الديني، الذي مثّل عاصمة روحية يهودية تمركزت حوله قلوب وعواطف المسبيين من جهة، ومن جهة ثانية شكل هذا النص التاريخي المقدس جدارا أحاط بهم، وحماهم من الانحلال في الشعوب.

وهذا لا يعني أن التاريخ التوراتي في مجمله هو تاريخ لا تاريخي، فقد جاء التاريخ التوراتي ذا نمط أسطوري في أسفار التوراة الأولى التي أرخت لمرحلة الآباء الأوائل، ثم مرحلتي، أو ملحمتي الخروج والدخول، حيث قام المحررون التوراتيون بتركيب المكان حسب مطامعها الجغرافية، كما قاموا بتركيب الزمان خدمة لاختلاق جذور لجماعة يراد لها أن تشكل شجرة واحدة، ذات ساق واحدة، وصنعوا من المكان، والزمان تاريخا سيّدوا عليه ربا لا هم له سوى تسخير التاريخ من أجل شعبه المختار، فكل ما يحدث في العالم هو فقط، من أجل صناعة التاريخ العبري اليهودي، وقيام الحضارات وسقوطها، هي أحداث كومبارسية من أجل أن يمر عبرها شعب الله المختار إلى نهاية التاريخ.

أما في مرحلة القضاة فقد اعتمد التاريخ التوراتي على تنضيد مجموعة من الحكايات (التاريخ الحكائي) على شكل لوحة فسيفسائية، على الرغم من أن المحررين التوراتين أرادوا لها أن تشكل سبّحة يربطها خيط زماني كرونولوجي.

أما في مرحلة المملكة المتحدة فقد اعتمدوا على التناص مع أحداث وشخصيات تاريخية لاختلاق تاريخ خاص بهم، بل جعلوا من هذا التاريخ الاختلاقي مرجعية تاريخية لهم.

أما في مرحلة انقسام المملكة، وتحديدا مرحلة التأريخ لمملكة الشمال (مملكة إسرائيل)، ومن بعدها مملكة يهوذا، فقد قام المحررون بالمزج ما بين التاريخ التاريخي، والتاريخ الأسطوري، مع بعض القصص الشعبية ذات الأصل الشفوي.

وعلى الرغم من اعتماد التوراة على الأسطورة، فقد جاءت بمعلومات تاريخية لم يكن المؤرخون قد تعرفوا عليها من خارج الكتاب المقدس، وقد أثبتت الدراسات الأركولوجية في منطقة الشرق الأدنى القديم صحتها، وهذا يعني أن التاريخ الديني الذي أتى في الأسفار الأولى يحتوي على بعض الحقائق التاريخية متناثرة هنا وهناك، ولكن بعض المؤرخين، وبسبب ما في الكتاب المقدس من أخطاء تاريخية، ومن سردية أسطورية، لم يستطيعوا الركون إليها، ومن هذه الحقائق على سبيل المثال ما جاء حول مدة أو أيام التحنيط في مصر القديمة التي تستمر

حتى أربعين يوما، ومدة المناحة والحداد على الميت التي تمتد حتى سبعين يوما كما جاء في سفر التكوين.

وهذا يعني أن التوراة، وعلى الرغم من أنها لا تمتلك مقومات النص التاريخي، إلا أنها تبقى وثيقة لها أهميتها، والتي يمكن الاستئناس بها من أجل قراءة تاريخ الشرق الأدنى القديم الديني والسياسي والاجتماعي في خطوطه الكبرى.

أي يمكن أن نحيط بحيثيات التاريخ التوراتي، وأن نصل إلى مقاربة تاريخية افتراضية في النص التوراتي، إذا ما استطعنا ترويض التاريخ التخّيلي اليهودي التوراتي في حظيرة الزمكان، وإذا ما أخذنا بالحسبان إن الدين اليهودي يمثل مرحلة المراهقة في سيرة تطور الدين الإنساني الذي يميل أكثر نحو أسطرة الأحداث كلما غرقت أكثر في الماضي، وعلى الرغم من أن الأديان تجاوزت تلك المرحلة، إلا أن الدين اليهودي وبسبب إصابة اليهود بحالة نفاسية ساهم بتشكيلها السبي البابلي، توقف عن التطور، وتكلس على نفسه في مرحلة وسيطة ما بين الدين البدائي الوثني المادي، مرورا بتعدد الآلهة، ثم الإله القومي (الدين اليهودي)، وانتهاء بالإله العالمي (الدين المسيحي، والإسلامي)، وفي الوقت الذي فيه اندثرت أو انحدرت أو تطورت الأديان البدائية بشكل عام، حافظ الدين اليهودي على مرحلة الدين القومي، إلا أنه أفرز المسيحية العالمية التي انفصلت عن اليهودية، وتطورت بشكل منفصل، ومستقل عن اليهودية، وكان العبرانيون كسواهم في الشرق الأدنى القديم، في سياق الألفية الثانية قبل الميلاد يدينون بالحنيفية (الإسرائيلية، أو الديانة الإيلية) مع وجود إله قومي لكل شعب، ولكن، وبسبب ظروف تاريخية خاصة بالجماعات العبرانية، فقد تبنت الدين القومي الذي اتخذ من (يَهْوَه) إلها قوميا، ولأن الرب القومي (يَهْوَه) لم يستطع أن يدحر آلهة الديانة الحنيفية، ولأن الجماعات العبرية لم ترض أن تتنازل عن آلهتها بسهولة، فقد تحول هؤلاء الآلهة بعد صراع طويل مع (يَهْوَه) ضمن الديانة اليهودية إلى ملائكة (جبرائيل - عزازيل - عزرائيل - إسرافيل..) حسب رأي ول ديورانت.

لقد حاول رجال الدين اليهودي، الذين مثلوا ضمير الجماعات اليهودية في السبي البابلي، أن يستنهضوا الانتماء عند المسبيين، وأن يعيدوا تجميع الشعب خوفا من ضياعهم في بلاد السبي، فقاموا بتدوين تراثهم الشفوي، بعد أن زاوجوا بينه وبين نفس النصوص التي كانت مدونة في بابل، كما قاموا بتهويد النصوص التي لم يكونوا على دراية بها، وعلى اختلاف أشكالها من أساطير وخرافات وقصص، وشعائر، وشرائع، وأشعار، وأغانٍ، وغزل، وقاموا بتطويرها بما يتلاءم والعقيدة اليهودية، والعصر الذي كتبوها فيه أيضا، وبعد أن منحوا تلك القصص والحكايات والأساطير بعدا تاريخيا، من خلال إحلالها بين محوري

الزمان والمكان، وقاموا بأرشفتها وتوثيقها وتدوينها في كتاب واحد في مراحل متعاقبة، وسجلوا عليه في وقت متأخر (حقوق الطبع محفوظة).

وكان أخطر ما قام به الكهنة اليهود هو تأريخ الأساطير الكبرى للشرق القديم، ومن وجهة نظر يهودية نفاسية ذاتية، وقد جعلوا من الرموز الأبوية المهودة مركز التاريخ، وزرعوها في أزمان قديمة، ضنّت علينا المدونات والحوليات والنصوص التي تضيء عتمة التاريخ في تلك الحقبة لا سيما فيما يتعلق بالمنطقة الجنوبية لبلاد الشام، وهذا ما سمح، وفسح المجال للنص الديني اليهودي المقدس أن يأخذ الميثاقية، ولفترة طويلة من الزمن استمر حتى العصر الحديث، حيث بدأت الاكتشافات الأثرية تبين، وتأكد أن التوراة ليست سوى نص ميثيولوجي ديني مقدس، وليست له أي مصداقية تاريخية، وهذا ما أدى إلى تشكيل أزمة حقيقية لإعادة كتابة تاريخ المنطقة، حيث لم يجد المؤرخون أمامهم سوى قطع فسيفسائية متفرقة لإعادة تشكيل التاريخ الحقيقي.

لقد ضلل، وشوّش النص التوراتي، ولفترة طويلة من الزمن، على محاولة الباحثين مقاربة التاريخ في الشرق الأدنى القديم، لا سيما في غياب الوثائق التاريخية الأصلية، والتي كانت تتلف في سياق الحروب الحضارية الفكرية الكبرى كما حصل لمكتبة الإسكندرية على يد الإغريق، وإحراق مكتبة صور وبيروت من قبل الإمبراطور قسطنطين بحجة أنه تراث وثني، كما أن المسلمين حاولوا إسدال ستار أسود على تاريخ ما قبل الإسلام على اعتبار أنه يمثل تاريخ المرحلة الوثنية (الجاهلية)، كما قام الغزو المغولي، وبشكل همجي، بإتلاف مكاتب بلاد الرافدين وبلاد الشام، وأخيرا الحرب الأمريكية على العراق التي - وبطريقة حاقدة - أتلفت، وأهانت المتاحف العراقية.

وإضافة إلى الحروب فقد تعاونت البيئة الرطبة لبلاد الشام، ولا سيما في المنطقة الجنوبية منها، على إتلاف الوثائق والمخطوطات التي كانت تكتب بالحبر على أوراق البردي، أو على الطين الهش الذي كان يتفتت بسبب المناخ الرطب في بلاد كنعان، كما أن الأبحاث الأركولوجية الملوثة، والمشوشة بذهنية النص التوراتي لم تستطع أن تحدد الهوية الحضارية بشكل واضح وحاسم لما تبقى من آثار عمرانية قابعة تحت التراب، ولا يستبعد أن يكون اليهود قد قاموا بالتعاون مع علماء الآثار في العصر الحديث بإخفاء كل ما يمكن أن يتعارض مع المقولة التوراتية، لا سيما وأن هؤلاء العلماء أيضا جاؤوا من العالم الغربي المسيحي متشربين بالتأريخ التوراتي، بل وكان مبعث قدومهم في البداية هو اكتشاف التوراة تحت التراب.

وعلى الرغم من أن البحوث الآثارية الأخيرة استخرجت، وما زالت، الكثير من النصوص التي ما زالت متخفية تحت التراب، وقد فندت هذه المكتشفات المقولة التأريخية في النص التوراتي، فما زال العالم ككل، والمسيحي على وجه الخصوص يعتمد في قراءة، ليس تاريخ الشرق الأدنى القديم وحسب، بل وتاريخ الجنس البشري على التوراة، خاصة وأن اليهود استطاعوا أن يجعلوا العالم المسيحي يؤمن بأن (التوراة) هو كتاب مقدس لا يرقى إليه الشك، وأنه يشكل العهد القديم الذي أسس عليه العهد الجديد (الإنجيل)، وبذلك لا مجال للشك والتشكك في مقولاته، وقد بقي الكتاب المقدس محصنا ضد أي نقد أو تشكيك في مقولاته إلى عهد ليس ببعيد، وهذا التشويش التاريخي التوراتي ترسّخ بحيث يحتاج إلى جهود مضنية لإعادة تصويب التاريخ الحقيقي، يقول جورجي كنعان في كتابه (الله هو القضية) {إذا كان التاريخ يصنع الإنسان، فإن القصص الميثولوجية والمفاهيم الدينية التي ينشأ عليها ويؤمن بها الإنسان هي التي تفعل فيه وتحدد له شخصيته وترسم معالمها، والحقيقة أن للمفاهيم الدينية قوة تتيح لها أن تأسر ألباب الأفراد والشعوب، وليس من السهل تغيير المفاهيم الدينية المتواترة منذ أكثر من ألفين وخمسمئة عام، لذلك فإن العودة إلى الفكر اليهودي الديني ضرورية لتفهم عقلية اليهود وعقلية الشعوب المسيحية التي تهلل لادعاءاتهم وتروج لمزاعمهم}.

أما بالنسبة للعالم الإسلامي فعلى الرغم من أن المسلمين هم أول من تحدثوا عن زيف المقولات في التوراة - من جهة القدسية - وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم في غير موضع، كانوا هم أيضا أول من أعتمد التوراة ككتاب ومرجع تاريخي، وقد قام المؤرخون (الإخباريون) الإسلاميون بكتابة التاريخ الديني لهم بالاعتماد على ما تناقلته ألسنة النسابين والرواة العرب، ورمموا ما كان ينقصهم من خلال التوراة، شريطة ألا يخالف ذلك مقولات التراث الإسلامي، ولم يشكك العرب المسلمون إلا في المفهوم والطرح الديني والتشريعي للتوراة، ولم يتنبهوا إلى الزيف التأريخي التوراتي، لأن القضية لم تكن لتهمهم، بل ما كان يهم الإخباريون والرواة العرب في قصص الأنبياء هو إيجاد مرجع ثقافي للعظة الدينية الأخلاقية الاشتراعية دون أن يكون لتلك القصص السردية التي دونوها أرضية تأريخية من حيث توثيقها وتثبيتها وربطها بالزمان والمكان، أي لم يكن لتلك القصص زمن كرونولوجي، ولا مكان جغرافي، وبالتالي لم يكن لها فضاء زمكاني محدد بحيث يمكن أن تبوّب تلك القصص في خانة التاريخ، كما حاول المؤرخ التوراتي أن يسوّقها ضمن رؤية أيديولوجية ذات غائية تأريخية، فالنص الديني الإسلامي قاوم زمكنة وتأريخ القصص الدينية، لأن تأريخها يضعف القصص بربطها بظرفيتها الزمكانية، أي تصبح القصص أسيرة لظروفها، في الوقت الذي أراد فيه الإسلام أن تكون تلك

القصص مرجعية مطلقة، بحيث يمكن استدعاءها كشاهد، أو إمام في أي زمكان، أي أن التاريخ الديني عند المسلمين هو تاريخ ثقافي سردي، غايته العبرة والعظة من خلال سرد قصص وسير آبائهم المؤسسين، بينما أراد النص التوراتي اليهودي لتلك القصص أن تحمل بعدا تاريخيا إيديولوجيا الغاية منه امتلاك الأرض والتاريخ، وتأكيد شرعية ملكية اليهود التاريخية للأرض المتنازع عليها، وهكذا فقد كان للنص الإسلامي دور ما في ترسيخ الزيف التوراتي في التصور الإسلامي، ومن ثم العربي للتاريخ، حين قاموا بتلقي، ونقل الادعاءات التاريخية الإيديولوجية اليهودية، وثبيتها في الذهنية الإسلامية كنوع من المسلمات على اعتبار أنها تاريخ مقدس، وهو الأمر الذي يجعل من تصحيح هذا التاريخ ضربا من الزندقة، وربما الردة التي تستوجب إقامة الحد.

والإشكالية الأولى التي عانى منها التأريخ الإسلامي للماضي، تمثلت في ربط الإخباريين العرب السلالة العربية، بالسلالة الإسرائيلية، من خلال نسبهم إلى النبي إسماعيل الأب الأول للعرب المستعربة (العدنانية)، وما النبي محمد إلا نبياً أو آخر أنبياء السلالة الإبراهيمية الحنيفية الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق (اليهودية أو الإسرائيلية)، وكذلك الأمر بالنسبة للمسيحين العرب أيضا، فهم أيضا ينتسبون إلى السلالة الإسرائيلية، وما السيد المسيح ورسله الاثني عشر إلا أحفاد لتلك السلالة، كما أن الديانة المسيحية، والمسيح لم يأت لينقض الناموس اليهودي، بل جاء ليكمله كما جاء في العهد الجديد، ولذلك فقد ارتبط تقديس المسيحيين للإنجيل بتقديسهم للعهد القديم، والمسيحية ما جاءت إلا لتحقيق النبوءات اليهودية بمجيء المسيح وقيام مملكة الله على الأرض.

والإشكالية الثانية التي عانى منها التأريخ الإسلامي للماضي، تكمن في عدم تقبل المسلمين أي مساس بتصوراتهم عن ماضيهم كما ورثوها، شأنهم شأن كل الشعوب، وهذه التصورات التي أصبحت مقدسة، على الرغم من أن أكثرها ليس لها أي سند، أو مرجعية في النص الديني الإسلامي المقدس، والتي قام الإخباريون المسلمون بافتراضها لسد الثغرات التي كانت تثير تساؤلات عديدة في النص القرآني المقدس، أي في التصور الحنيفي، وقد تم اقتراض بعض المقولات من النص التوراتي، وبعضها من التراث، أو التصور الحنيفي العربي، وبعضها كانت محض استنتاجات الباحثين والرواة المسلمين الأوائل، ومع التداول تحولت هذه المقولات، أو الافتراضات التي قامت بسد الثغر، إلى مسلمات أو نصوص مقدسة أيضا، وأصبحت أي يد تمتد إليها هي يد عابثة، مجرمة، كافرة.

ويبدو أن التصور العربي الحنيفي، كان أحد المصادر الذي رفد التوراة جزئيا، وبشكل جانبي عندما كانت التوراة ما زالت في طور التحرير في مرحلة السبي، وما بعد السبي البابلي.

وقد تعرض التراث أو التصور الحنيفي إلى الاختراق، والبعثرة، وتشتيت تماسكه، في صدر الإسلام بعد اندخال التراث والتصور اليهودي التوراتي في التراث والتصور العربي الإسلامي، على يد اليهود الذين أعلنوا إسلامهم، وعلى يد الإخباريين المسلمين في مرحلة لاحقة، والذين اعتمدوا على التوراة كمصدر لسد ثغرة في النص السردي الإسلامي، والجدير ذكره أن النص القرآني في زمن تشكله كان واضحا بالنسبة لذهنية العرب في تلك المرحلة من صدر الإسلام، ولم يرد أن المسلمين كانوا يستفسرون عن قصص الأنبياء تحديدا، والتي لم ترد في القرآن بطريقة سردية مكتملة، الأمر الذي يؤكد على معرفتهم بها بشكل شبه مكتمل.

وأخيرا جاء الصراع العربي الإسرائيلي، الذي هو صراع الحاضر على الماضي - والذي فرضته اليهودية الاستيطانية فرضا - الأمر الذي جعل العالم بعامة، والعرب بخاصة ينكبّون على قراءة النص التأريخي التوراتي الذي تحاول الصهيونية أن تفرضه كنص أو وثيقة تاريخية، على الجميع الالتزام بما جاء فيها، وهو الذي جعل العرب يهتمون بكشف لا تاريخية النص التوراتي، بل وقد تبين لهم أن كل النص التوراتي ما هو إلا تراث الشعوب القديمة للمنطقة، والتي انتحلها اليهود وقاموا بتهويدها كما ادعوا - في ظل هزيمتهم وسبيهم على يد البابليين - لأنفسهم تاريخا حضاريا عريقا، بل وقزموا الحضارات الإنسانية الكبرى في المنطقة، أمام تضخيم حضارة اليهود في مرحلة المملكة المتحدة التي لا يرد لها أي ذكر في الكتابات التاريخية، كما لم يجد لها علماء الآثار أي دليل ولو بسيط من الآثار التي تملأ بطون أرض الحضارات القديمة في منطقة الشرق الأدنى، وعلى الرغم من ذلك فما زالت عملية (التزوير) في كتابة التاريخ الماضي تفرض نفسها على كتابة الحاضر، لأن السطو على التاريخ كماضٍ، يعني السطو على الحاضر والمستقبل أيضا.

ومع أن علم الآثار قدّم الكثير من الاكتشافات التاريخية في العقود الأخيرة، والتي حجّمت التاريخ التوراتي أمام التراث التاريخي الضخم لحضارات الشرق الأدنى القديم، إلا أن الخطاب الآثاري ما زال خافتا لأسباب كثيرة أهمها وأولها ذاتية الباحثين المسيحيين الذين لووا عنق الحقائق من أجل الوصول إلى النتائج التي وضعها الباحثون، بصورة مسبقة، نصب أعينيهم كهدف بحثي، وثانيها هو هيمنة الضغط والإعلام الصهيوني، وثالثها يعود إلى غموض الكثير من النصوص التاريخية الآثارية التي تعود إلى لغات بائدة، ولا يتوفر إلا القليل من الخبراء ممن يستطيع ترجمتها إلى اللغات الحية، وبالأخص الإنكليزية والفرنسية، وهذه النصوص كانت تتكسر وتتحوّر على أكثر من قاموس فتفقد الكثير من خصائصها البنيوية والمعنوية، كما أن هذه القلة من المترجمين (المستشرقين) استطاعت الصهيونية أن تحتوي الكثير منهم، وبشكل

عام كان الباحثون الذين قدموا من العالم الغربي المسيحي في بداية القرن المنصرم يدورون حول الحقيقة دون أن يحاولوا الوقوف أمامها وجها لوجه، كما لم يستطع الكثير منهم التخلي عن ذاتيتهم المسيحية، والذاتية تكفر كل الروايات الخارقة الأسطورية، في نصوص الأخر، لا سيما بالنسبة للنصوص المتناصة، في الوقت الذي تتبنى فيه الذاتية أسطورتها الثقافية المؤسسة لمجتمعها الأثني، وربما تأخذ منها الحجة على اعتبارها هي الحقيقة، والحقيقة فحسب.

ولكن، في الآونة الأخيرة، بدأ الباحثون الذين يأتون من أوربا يميلون نحو الموضوعية أكثر.. فأكثر، والذين يزدادون يوما إثر يوم، والذين أخذوا يتخلصون شيئا، فشيئا من ذهنيتهم الثقافية المسيحية، والذين تبيّن لهم، وهو ما أعلنوه بشيء من الجرأة، أن اليهود العبريين، الذين يعتبرون أنفسهم الأكثر حضارة، وأنهم أصحاب الديانة السماوية الأولى، والتي من جبتها خرجت الديانات الأخرى، كانوا الجماعات الأقل حضارة من بين شعوب منطقة الشرق العربي، وكانوا متطفلين على الشعوب الحضارية، كما تبين لهم أن كل الفكر الديني اليهودي بما فيه الآلهة التي عبدوها، وكذلك اللغة، وكل نتاجاتهم التي نسبها اليهود لأنفسهم إنما هي من فكر الشعوب التي سبقتهم، وبالطبع لا يعيب أي جماعة، أو شعب، أو حضارة قيامها بإضافاتها الحضارية الإنسانية على ما قامت به الأمم السابقة، لأن الحضارة هي تشكيل هرمي تتعاقب الأمم الإنسانية على بنائه الهرمي، وفخر كل أمة يتمثل فيما أضافت إليه، أما العبريون فقد ادعوا بطريقة نفاسية أنهم المؤسسون، والمؤثثون للحضارة، وهم أصحابها الحصريون، على الرغم من أنه لا يوجد أي أثر حقيقي لحضارة اليهود المزعومة إلا على أوراق التوراة التي كتبوها كتعويض نفسي لحالة قهرية حضارية عانى، ويعاني منها اليهودي من جهة، ومن جهة ثانية للم شملهم في المنافي بعد سبيهم على يد البابليين، وتفرق جماعاتهم في منطقة الشرق الأدنى القديم، ومن ثم تشتتهم في كل أنحاء العالم على يد الرومان، وقد استطاع معتقدهم الديني الذي يشكل نتاج فكر عنصري، أن يحافظ على بقاء تلك الجماعات متدحرجة على منحدر الزمان دون أن تتلاشى على الرغم من خروج الكثير من الجماعات اليهودية عن معتقدهم الديني، ودخول الكثير من الدماء الجديدة إليها من خلال عمليات التهويد والتهود على مر الأزمان.

وبالطبع، لا نريد أن نترك الكلام على عواهنه كما يقال، ولا نريد أن نكون مغالين حين نتحدث عن التأريخ التوراتي بشكل عائم وننتهي إلى نتيجة أن ليس هناك وجود تاريخي حقيقي لليهود على مر التاريخ القديم كما يعتقد بذلك الكثير من الباحثين العرب ذوو الرؤية الذاتية الضيقة والتي تقع على الطرف المقابل للرؤية اليهودية الأكثر ضيقا وذاتية، وكلا الطرفين، ومن لف لفهم، كانوا يقودون الحقائق قسرا لإثبات ما يذهبون إليه، فالعبرانيون

(الذي انحدر منهم اليهود) كانوا موجودين كجماعات لعبت في كثير من الأزمان دورا في حركية التاريخ، ثم انحدروا على سفح التاريخ بتشكيلات متعددة حتى يومنا هذا، كان أهمها في المرحلة اليونانية والرومانية، وهذا ليس اعتراف بوجودهم بمقدار ما هو تشخيص لحالتهم.

وإذا ما كانت أغلب الدراسات الغربية (المسيحية) قد وظّفت بحثها في دراسة الأسطورة التوراتية لخدمة وتوطيد وتعزيز وتثبيت إيديولوجيا الحاضر الصهيوني، فإن الدراسات، والأبحاث العربية الحديثة، على قلتها، وظفت بحثها لتقويض المقولات التوراتية الثقافية عن الماضي اليهودي، ولا سيما في بلاد كنعان والتي قامت باحتلال الحاضر.

فالباحثون العرب لم يستطيعوا أن يبحثوا، أو يتحاوروا مع الماضي الذي يتعلق بفلسطين تحديدا، ومنطقة الشرق الأدنى القديم، ولا سيما في الأزمان التي تتقاطع مع الادعاءات التاريخية التوراتية، دون ضغط الحاضر الذي يولد لدى الباحثين العرب رغبات تقودهم إلى استنتاجات، واعتقادات، بل وتأكيدات تميل نحو الذاتية الذهنية، أكثر منها إلى الموضوعية العلمية، بحيث يصبح أو يتقمص الباحث العربي شخصية كنعان الذي قام العبرانيون القدامى باستلاب حقه، والذي يمثل الآن الفلسطيني الذي قامت الصهيونية باستلابه، وفي هذا السياق يقول د أحمد يوسف داود أن {الكتابة في هذا التاريخ لا تنفصل عن عملية الصراع الدائر اليوم في المنطقة بشتى الوجوه وعلى مختلف الصعد، بعد أن صار هذا التاريخ في صميم المعركة السياسية والعسكرية والجغرافية والحضارية والثقافية واللغوية}.

وكل هذه الدراسات التاريخية العربية كانت الغاية المضمرة منها هو دحر الحاضر، وللوصول إلى ذلك، كان لا بد من تقويض الذهنية التقديسية لذلك الماضي، كي يتمكن الباحث من التحرر من ربقة المعتقد الأسطوري، وكي يستطيع أن يستقرئ الواقع الممكن أو المحتمل أو المفترض في سياقه التاريخي، وبما أن الباحثين العرب، إضافة إلى عروبتهم الأيديولوجية، هم أصحاب عقيدة دينية، وبذلك لن يستطيعوا أن يتخلصوا من آثار ذهنيتهم المقدسة، وبذلك فلن يكون سعيهم في الوصول إلى مقاربات تشخيصية موضوعية بالأمر السهل، بل لا بد من حدوث تمزقات، واضطرابات، قد تُدخل الباحث في رمال متحركة ليتخبط فيها.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن بعض الباحثين العرب لم يتخلصوا من انتمائهم الإقليمي في معرض بحثهم في التاريخ التوراتي، إذ ركز الباحثون المصريون على المرحلة المصرية (الموسوية) في التأريخ التوراتي (مرحلة الخروج)، بينما ركز الباحثون السوريون على المرحلة الكنعانية (الاستيطان) في التأريخ التوراتي، وعلى مرحلة الآباء الأوائل، وكثير منهم ذهب إلى أن التوراة تمسرحت تاريخيا على جغرافيا تقع في أماكن متعددة من المنطقة الغربية من شبه الجزيرة

العربية، وأنا أعتقد أن هذا التوجه يأتي في سياق ذاتية عصابية ناتجة عن حالة دفاع شوكي انعكاسي، أكثر منه فكري موضوعي، على الرغم من أني لا أستبعد أن تكون النوى التاريخية، أو أجزاء من هذه النوى لمرحلة الآباء الأوائل قد تمسرحت في شبه الجزيرة العربية، وهو ما يفسر لنا انتشار الحنيفية في شبه الجزيرة العربية، ومنها، ومع الهجرات العربية انتشرت نحو الهلال الخصيب، لا سيما وأن الحنيفية في شبه الجزيرة العربية استمرت في تطورها حتى وصلت إلى التوحيد في أجلى مظاهره على يد الإسلام، بعد أن تخلت بشكل شبه نهائي عن عبادة الأوثان (الأصنام)، ولم يتبق من المرحلة الوثنية سوى تقديس الحجر الأسود، كما تبلورت أيضا التصورات، والمعتقدات الأخروية.

ومن الأمثلة البارزة على الباحثين الذاتيين العرب، هو الباحث السوري الدكتور أحمد يوسف داود، فكما قام الباحثون الأوربيون، وبعيدا عن أي موضوعية، بالمبالغة في رفع مستوى الحضارة (المعجزة) الإغريقية، والنص والثقافة اليهودية، قام د أحمد يوسف داود بذاتية عنصرية بالحط والاستخفاف، بل وبإلغاء دور الحضارات العالمية، ورفع من شأن الحضارة السورية واعتبرها مركز الحضارات في كل زمكان، حيث أعتبر أن كل أسس ومركز الحضارة منذ نشأتها الأولى انطلقت من سورية (المركز) وأن أصل أي منتج حضاري، وبالتالي أصل الحضارة كانت نواته الأولى قد تشكلت في سورية (الهلال الخصيب)، وأن النص الأصلي لكل المنتجات الحضارية العمرانية والفكرية وعلى الأخص اللغوية صدر من سورية (المركز)، وانتشر على شكل دوائر نابذة نحو المحيط البعيد ليصل إلى (المحيط الهمجي)، وأن كل المنتجات الحضارية لكل الأمم مستوردة مباشرة من سورية، أو على أقل تقدير متناصة مع سورية، وأنا أعتقد أن أكثر ما طرحه د أحمد هو عين الصواب، لا سيما وأنه اجتهد كثيرا في سوق الأدلة من خلال حفرياته اللغوية (الفيلولوجية) لإثبات صحة مقولته، وهذا يسجل له بكل اقتدار، ولكن ما آخذه عليه هو لغة الخطاب الشوفينية العنصرية، وكذلك الأمر بالنسبة للباحث جورجي كنعان، وكلاهما أرادا أن يطوعا التاريخ في حظيرة الإيدولوجيا، وليس من العيب أن يفتش الباحث عن عمق تاريخي لمعتقده الإيديولوجي كي يجد للمعتقد جذوراً تاريخية يستمد منها النسغ العضوي، وليس هذا تماماً ما يعيب أو ما يؤخذ على ما يذهب إليه أحمد يوسف داود، وجورجي كنعان، بل ما يؤخذ عليهما هو لوي عنق التاريخ لمصلحة الإيديولوجي، أو الانحياز لجانب محدد في التاريخ، بحيث يصبح البحث التاريخي انتقائياً، انحيازياً، شقياً، وفي هذا السياق يفصح، أو يلمح د أحمد يوسف داود في كتابه تاريخ سوريا القديم {إن من يدعي إمكانية الوقوف في التاريخ على (الحياد) لا يكون

(مؤرخا) بلا قضية فحسب، بل ومفتقرا إلى أدنى درجات الفهم للتاريخ، وإنه، شاء أم أبى، اعترف أم لم يعترف، لا بد من أن يجد نفسه ملتزما أحد طرفي الصراع في العملية السياسية لهذا الشعب أو ذاك، سواء تجلت تلك السياسة عملا عسكريا أو اقتصاديا أو فكريا محضا} ، وهو أمر لا يمكن أن ينكر له، كما لا يستطيع أن ينكره أحد على أحد، ولكن يجب ألا تؤثر ذاتية الكاتب على موضوعية البحث، لقد حاول د أحمد يوسف داود أن يعالج التاريخ من خلال أيديولوجيته الحزبية العروبية، وحاول أن يجد البنية التحتية الفكرية والعقائدية والقدسية في الماضي متطلعا إلى المستقبل، على الرغم من أن خطابه يميل إلى أن يكون ذا طابع قومي سوري، وهو ما ينطبق على الباحث جورجي كنعان.

وأحمد يوسف داود، وجورجي كنعان، وسواهم من المستكشفين التاريخيين الجدد، يربطون، أو يقومون على التأكيد على أن الحاضر الذي هو (هنا الآن) قد جاء من الماضي، أو هو الماضي (الثابت) بوجه متطور أو متحول، وبذلك فيمكن لنا أن نصيغ المستقبل من خلال معرفة حراكية الماضي الكرونولوجية، كما يمكن إعادة صناعة الشخصيات المميزة في التاريخ (قومية، أو دينية، ..) من الماضي في الحاضر، كما يمكن أن نربط بعض الشخصيات في الحاضر مع الماضي بحالة، وعي، أو دون وعي، وبذلك يصبح البحث عن الخلاص من انتكاسة الحاضر من خلال عودة الماضي في مراحله الذهبية إلى الحاضر بواسطة شخصية محددة تعتبر نمطاً من أنماط المسيحية، فالأسد ما هو سوى عودة سرجون الأول الذي سيجمع ما تفرق من القوم ويوحدهم في إمبراطورية جديدة، أما الباحث المصري د. سيد القمني فجعل من أحمس الأول رمز التحرر المصري، وقام باستحضاره في شخصية جمال عبد الناصر لا بجانبها القومي العربي، بل بجانبها المصري الفرعوني فحسب، والدافع المحرك عند أحمد يوسف داود، وسيد القمني، وعند جميع من وظف التاريخ في مكاتب الإيديولوجيا، لإعادة قراءة الماضي، هو نفس الأيدلوجيا اليهودية، والتي تمثلت في العصر الحديث بالصهيونية.

فاليهودية الصهيونية، تتطلع إلى داود الجديد، أما قومية أحمد يوسف داود، وجورجي كنعان، وعلى الرغم من عدم تطابقهما، إلا أن كليهما يتطلعان إلى شاروكين الجديد، كما، وبشكل عام، يتخذ أصحاب التيارات القومية العربية من الآكاديين المرجع التاريخي للأمة العربية، أما القوميون السوريون فيتخذون من الآراميين على وجه التخصيص مرجعا تاريخيا للأمة السورية.

والإشكالية هنا، في أن الخطابين والبحثين في التاريخ (الخطاب اليهودي الصهيوني، والخطاب العربي) لا يتماثلان من حيث بنيتهما الأخلاقية، لأن الخطاب اليهودي مبني على

الادعاء، أما الخطاب العربي فمبني على الحق، وبذلك فإن الخطاب العربي التاريخي لا يحتاج البتة إلى أي مؤثرات ذاتية عاطفية، بل من المفترض أن يكون صلبا، واضحا، وجليا، وشجاعا، وواثقا من النتائج التي ستسفر عنها أعمال البحث التاريخي في الماضي، ولا سيما الأركولوجي، كما من المفترض أن يكون واثقا تمام الثقة من حتمية المستقبل.

دراستي أو بحثي هذا، سأقدم فيه معلومات تنحو نحو الأفقية التبسيطية أكثر من العمودية التركيبية، وقد حاولت، ما استطعت، أن أوفق بين الدراسة الأفقية والعمودية لأي فكرة، أو قضية إشكاليه، فقد قمت باستعراض، أو قراءة الجزء من خلال الكل، وهي تشكل فضيلة من حيث إنها تعطي فكرة جيدة لغير المتخصص، أو لغير المطلع بشكل عام على ما يتعلق بالأفكار، والتاريخ الديني، من جهة، والتاريخ بشكل عام، ولكن في الوقت نفسه فإن ذلك قد أدى إلى تضخم حجمي في البحث سيجد فيه المتخصصون بدانة غير مسوغة، ولكن تسويغي لذلك يتأتى من معرفتي بأن القارئ العربي ما زال أميا أو شبه أمي بمعرفة التاريخ اليهودي والتأريخ التوراتي، ولذا فقد كان بحثي يميل لأن يكون شموليا دون أن يصل إلى الموسوعية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية لمعرفتي بحجم مقدرتي التحليلية واللغوية المتواضعة على قيادة بحث تغلب فيه القراءة التحليلية، على القراءة النصية المبسترة.

وأريد أن أشير إلى أن الكثير من الأفكار التي قد يعتقد أو يؤمن بها المرء بشكل عام، لا يمكن له الخوض فيها مراعاة لذهنية المحلل والمحرم للمخاطب، وتجنبا لما قد يظنه البعض إساءة له، وقد يضطر المرء أن يتجنب ذكرها، والإشكالية تكمن في أن المرء سيسلك طريقا التفافية جانبية حينا، وحينا سيسلك طريقا ضمن حالة ضبابية، وقد تجنبت الاستشهاد بالتراث الإسلامي إلا فيما ندر، لخدمة مقولتي، وافتراضاتي، والذي يمكن أن يشكل مبحثا آخر لم أقرر بعد الغوص فيه، ولكن المخاطِب يتوقع من المخاطَب أنه سيتورط في أن يستوحي، أو يستشرف، أو يقرأ ما لم يقل تحسبا، وبالتالي فإن بحثي هذا سيحاول أن لا يخرج، ما استطاع، عن المساحة التي تجمع الموضوعية بالواقعية، وربما يتعدى ذلك إلى هامش تلك المساحة، ولكن دون وصوله إلى المحرمات التي يفرضها الواقع الزمكاني.

ويأتي هذا البحث في سياق سلسلة من الدراسات والأبحاث العربية - التي بدت تزداد طفوا على السطح - والتي تطرح أو تعيد تشكيل التاريخ بطريقة تحليلية. وتأتي هذه الأبحاث العربية كحالة صدى لدراسات وأبحاث التاريخيين الغربيين المستشرقين الجدد، ولا سيما منها الدراسات الأمريكية التي تناولت تشخيص ومقاربة التأريخ التوراتي في الآونة الأخيرة بعد أن بدأت الأبحاث الأركولوجية تكشف حقائق جديدة جعلت من الذين كانوا يشككون في

التأريخ التوراتي يمتلكون وثائق ومراجع علمية لها قيمة ومصداقية عالية بحيث استطاعوا أن يقفوا على المنبر ليعلنوا نظرياتهم معتمدين على المعطيات الجديدة، وكانت جميعها أو أغلبها ولا سيما العربية منها تميل إلى أن تكون متأثرة بالنظرة الذاتية دون أن تفقد موضوعيتها، وكتابي هذا - والذي لا يخرج كثيرا عن النسق البحثي للكتب المشار إليها - حاولت فيه قدر الإمكان أن يكون بحثا موضوعيا في لغته الخطابية، وأن يكون أبعد ما يمكن عن الذاتية.

وكل هذه الدراسات انفرزت في سياق توسيع وتجذير الصراع العربي اليهودي الصهيوني عبر ارتباطاته في الزمكان، والتاريخ، وفي العقيدة والمصالح الاقتصادية، كما أنها تأتي كصدى لتنامي الصراع العربي - الإسرائيلي، لا سيما في السنوات العشر الأخيرة بعد انطلاق الانتفاضة الفلسطينية، وقد جاءت دراستي هذه في سياق هذه الدراسات، هذا وإن كنت قد كررت مقولات من سبقني في هذا المضمار، فقد قدمت بعض الإضافات، التي قد تسهم بطريقة ما في إعادة كتابة تاريخ المنطقة، وتصوراتي حول تشخيص الرب (يَهْوَه)، والمسيح عيسى ابن مريم، ونظريتي (إسرائيل الكنعانية) التي سأطرحها في هذا الكتاب، وسواها من الأفكار والتصورات والاستكشافات الخاصة ما هي سوى تعميق للحفريات البحثية النصية التي قام بها من سبقني، أو هي طبقة قد يبني عليها سواي، أو يقوم بتعديلها، أو إعادة بنائها، أو قد يرفضها، ويزيلها من البناء الهرمي لأنه قد تكون قد بنيت في بعض أجزائها على تصورات خاطئة، أو ضعيفة البنية، وتبقى كسواها عبارة عن افتراضات قابلة للتغيير، والتبديل في طبعات لاحقة، حسب ما قد تسفر عنه نتائج البحث الأركيولوجي والتاريخي، الذي سيساهم بطريقة أكثر علمية في إعادة كتابة تاريخ المنطقة الاستقرائي، الافتراضي، التحليلي.

ولأني، كسواي، لن أكون موضوعيا إلى درجة الصفاء كوني أحد أفراد مجتمع معتدى عليه بطريقة لا إنسانية، لذلك فإن قراءتي لليهودية لن تكون قراءة موضوعية إلى درجة الصفاء بل سيكون هناك تحيز ما مرتبطاً بالعوامل التي دعتني لأن أدخل غمار هذا البحث، ومن هنا فإن باحثا آخر في اليهودية يقف على النقيض من بحثي سيجد في اليهودية أيضا كل ما يخدم مقولاته أيضا، والتي تتعارض تماماً مع مقولاتي، لأنه سيقف في المكان أو الزاوية التي يجد فيها كل ما يؤكد مقولاته، ويعاكس ما ذهبت إليه بسبب الطبيعة الجغرافية (الرقعية) لليهودية، ولكن وعلى الرغم من هذه الذاتية فإني سأحاول ما استطعت أن أتجنب هذا التحيز التصوري لكي أكون أقرب ما يمكن إلى الموضوعية.

في بحثي هذا قمت أولا بسرد كل مرحلة من المراحل التاريخية التي أتت التوراة على ذكرها (مرحلة الآباء الأوائل - مرحلة مصر والخروج منها ومرحلة التيه في سيناء - مرحلة

الاجتياح اليشوعي لبلاد كنعان - مرحلة القضاة - مرحلة المملكة المتحدة - مرحلة الانقسام حتى السبي - مرحلة السبي - مرحلة العودة في ظل الحكم الفارسي - مرحلة الحكم اليوناني - مرحلة الحكم الروماني والشتات)، حيث قمت بسرد الأحداث كما أتت به التوراة، وفي نهاية كل مرحلة قمت بدراسة نقدية للنص التوراتي، ثم قمت بدراسة مقارنة بين النص التوراتي، والنصوص التاريخية والحوليات، والدراسات الأركولوجية لحضارات الشرق الأدنى القديم التي تتعلق بالنص التوراتي، وما توصل إليه الباحثون، وما طرحوه من نظريات حاولتْ ترميم وبناء كتابة تاريخية كرنولوجية للشرق الأدنى القديم.

وأريد أن أشير هنا، للمرة الثانية، إلى أني نهجت من حيث بناء هيكلية البحث نهج من سبقني ولا سيما الأستاذ فراس السواح، في كتبه التي ناقش فيها التأريخ اليهودي، ولكن هذا لا يعني عدم وجود خصوصية عندما اقتضت الحاجة أحيانا، وقد استشهدت بأقوال وأفكار الكثير من الباحثين ممن كتبوا في هذا الموضوع في أكثر من مكان، ولكن وبسبب أخطاء تنضيدية كمبيوترية حال الأمر دون توثيق، أو ترجيع الكثير من المواضوعات الأمر الذي كان من الصعب استدراكه، على الرغم من ضرورته من حيث المبدأ من أجل الباحثين على وجه الخصوص، ولكني أرجعت كل قول إلى صاحبه، ولكني لم أحدد بدقة رقم الصفحة، أو المرجع المحدد الذي استقرضت منه القول، وإذا كانت قضية الترجيع قضية علمانية حقوقية ذات نمط علماني لا يأخذ من مبدأ الثقة والأخلاق أساسا للعلاقة بين الكاتب والقارئ، فإنني أؤكد على نزاهة هذا البحث، أما إذا كانت القضية تتعلق بسياقات بحثية فللقارئ والباحث العذر مني على ذلك، وأتمنى أن لا يأخذ هذا العيب الأكاديمي أكثر مما يستحق، لأن بحثي هذا لا يخضع كثيرا إلى القيم والنظم الأكاديمية.

كما أريد أن أشير إلى أنني، ولعدم تمكني من اللغات الأجنبية، اعتمدت على مراجع عربية، أو مترجمة إلى العربية، ومنها نقلت - كوسائط - بعض الأفكار، والمقولات، وقد اعتمدت على الترجمة العربية للكتاب المقدس، والتي حسب الكثيرين من الباحثين الذين قرؤوا النص التوراتي بلغته (العبرية) أكدوا أن هناك انزياحا في الترجمة في مواقع متعددة ما بين النص الأصلي والنص المترجم إلى العربية، وقد حاولت البحث عن النواة التاريخية من الأسطورة الدينية في التوراة، وقمت - اجتهادا - بإعادة تركيب النوى (القطع)، مع ما التقطته من هنا وهناك، من نتائج البحث التاريخي، واعتمدتها كحجرات، أو مفردات لصياغة الأحداث في سياق نص تاريخي افتراضي، يحاول أن يدنو قدر ما يستطيع بما يمتلك من الحجج والحيثيات نحو الممكن الموضوعي، من خلال إسناد الافتراض المسبق الذي أتبناه.

لم يكن من أهدافي أن أكون مؤرخا، وليست لدي كذلك، ولا أمتلك مقومات أن أصبح مؤرخا، لقد بدأت بحثي هذا بمجموعة من المقالات التي كتبتها تحت تأثير، وفي سياق صراع الحاضر على الماضي الذي فرضته الصهيونية على المنطقة، مما اضطرني إلى التعمق في قراءة التاريخ، كي أقف على البنية التحتية لهذا الصراع، ومن خلال هذه القراءات بدأت تتكشف لي وبشكل متواتر الحقائق التي بني عليها هذا الصراع، ومن ثم بدأت تتكون لدي مجموعة من الأفكار، التي بمزيد من البحث تبلورت إلى مجموعة من النظريات، والباحث في نصي البحثي هذا يمكن له أن يتبين، أو يتوقع كيف تطور لدي التصور الذي سأقوم بعرضه.

إذا فبحثي هذا - وكما ذكرت - قد تم بناؤه كطبقة، أو لبنات في طبقة في البناء الهرمي البحثي لمن سبقني، ولكني جهدت في البحث أن أضيف ما استطعت من اللبنات إلى هذا البناء، والذي طورته قليلا، أو كثيرا بالاعتماد على من سبقني، وأهمها نظرية إسرائيل الكنعانية، والمقارنة التشخيصية بين الفرعون المصري إخناتون وكل من الرب (يَهْوَه)، وموسى، والتناص بين موسى، وعيسى والمعتقدات الخلاصية عند شعوب الشرق الأدنى القديم، والتناص ما بين الملك اليهودي هيرودوس الكبير، وكل من داود وسليمان، وبين أستير وكل من الملك الأكادي سرجون وعقيدة الخصب، وعلاقة اليهودية والأتونية والحنيفية بالمسيحية، وسواها من الاجتهادات التي كانت غايتها الوصول إلى الحقيقة في عتمة دامسة، ولذا فمن الصعب معرفة إلى أي درجة، استطعت أن اقترب منها، إذا ما كان الوصول إليها صعبا إلى درجة الاستحالة.

كما أريد أن أشير إلى أنني استخدمت كثيرا من التسميات، والمصطلحات والمفاهيم السائدة، من مثل مصطلح السامية، ومصطلح الشرق الأدنى القديم، وسواها من المصطلحات التي قام الغرب بنحتها من خلال تصورات أيديولوجية، ولكن ولعدم إمكانية إيجاد بدائل واضحة لهذه المصطلحات فقد استخدمت تلك المصطلحات على الرغم من مآخذي عليها.

سأبدأ بعرض موجز عن التأريخ التوراتي، دون البحث في الأدبيات التوراتية إلا ما له علاقة في التاريخ، ومن ثم سأدلو بدلوي في محاولة لمقاربة وتشخيص التاريخ العبري في المراحل ما قبل التاريخية، أي المراحل التي ضن علينا التاريخ بنصوص تضيء تلك المرحلة، معتمدا على تقاطع المعلومات بين المكتشفات الأثرية من جهة، والنصوص والحوليات القليلة التي تركتها لنا حضارات المنطقة، والتأريخ التوراتي، للخروج بمقاربة تأريخية على أرضية من التحليل المنطقي.

يضم الكتاب المقدس حسب التقسيم المسيحي جزأين: الأول هو العهد القديم، وقد أطلق عليه هذا الاسم بعد أن أضيف إليه في مرحلة متأخرة الجزء الثاني وهو العهد الجديد أي الإنجيل المسيحي.

يقسّم العهد القديم والذي كان قد كتب باللغة العبرية المشتقة من الآرامية، وهي من لهجات الفرع الشمالي من المجموعة الغربية السامية إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

ويشمل الأسفار الخمسة الأولى:

وهي تحديدا التي تُدعى بالتوراة (الناموس)، والتوراة كلمة آرامية تعني الهداية والإرشاد (مع العلم أنني سأعتمد كلمة التوراة على كل العهد القديم في الكتاب المقدس) وهي منسوبة إلى النبي موسى، والتي بدئ بكتابتها - حسب بعض المؤرخين - بعد القرن الثامن قبل الميلاد باللغة العبرية، في حين أن النبي موسى والذي يعود تاريخه إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان يتحدث إما بالمصرية، أو باللغة الكنعانية المتأثرة بالمصرية، وتضم التوراة كتب أو أسفار موسى الخمسة التي يدعي اليهود أن موسى من قام بكتابتها:

١ - **سفر التكوين** وهو يتحدث عن أساطير الخلق والطوفان، ونسل نوح حتى تاريخ الآباء الأوائل لليهودية إبراهيم، ثم إسحاق ثم يعقوب ثم يوسف، وهم الذين انتقلوا، أو هاجروا، أو تغربوا من أور الرافدين مرورا بحران آرام، ومن ثم بلاد كنعان، وصولا إلى استقرارهم في مصر.

٢ - **سفر الخروج** ويتحدث عن التاريخ التوراتي من يوسف حتى خروج موسى مع بني إسرائيل من مصر.

٣ - **سفر اللاويين** الذي يمثل صلب الشريعة الموسوية.

٤ - **سفر العدد** ويؤرخ لرحلة قوم موسى في تيه سيناء حتى وصولهم إلى تخوم بلاد كنعان.

٥ - **سفر التثنية** الذي يمثل خطبة موسى قبيل وفاته، وفيه يعيد موسى تاريخ التيه في سيناء على أتباعه.

القسم الثاني:

ويشمل كتب الأنبياء والتواريخ وتقسم إلى:

- **أسفار الأنبياء الأولين:** وهي أسفار يشوع، والقضاة، وصموئيل الأول والثاني، والملوك الأول والثاني.

- **وأسفار الأنبياء المتأخرين (الكبار)** وهي تضم أسفار إشعيا، وارميا، وحزقيال.

- **وأسفار الأنبياء المتأخرين (الصغار)** وهم هوشع، ويوئيل، وعاموس، وعابوديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجي، وزكريا، وملاخي وقد تمت كتابتها وتثبيتها في القرن الثاني قبل الميلاد حسب رأي أكثر الباحثين.

القسم الثالث:

وهي التي تسمى كتوبيم (الكتابات أو الكتب) وتضم:

أسفار المزامير، والأمثال، وأيوب، ونشيد الإنشاد، وراعوث، والمراثي، والجامعة، وأستير، وعزرا، ونحميا، وأخبار الأيام الأول والثاني، قد اتخذتْ صيغتها التي بين أيدينا في القرن الأول الميلادي حسب ما يؤرخ لها الباحثون.

ويوجد أيضا **مجموعة رابعة** تدعى الأبوكريفا (الأسفار غير القانونية) موجودة فقط في التوراة اللاتينية وتضم ١٤ كتابا، منها أسفار المكابيين الأربعة، ويهوديت، وطوبيت، وسفر الحكمة لسليمان، وسفر الكهنوت، وسفر تسبيحة الفتية الثلاثة، وسفر سوزان، وقد ظهرت هذه الكتب في القرون الثلاثة الأخيرة من قبل الميلاد، ولم يتم الاعتراف بها إلا من قبل القليل من اليهود والمسيحيين (الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، والكنيسة الروسية، وكنائس شرق أوربا) وقد أدرجت في الترجمة السبعينية التي تم تدوينها باللغة اليونانية.

ويقسم البعض أسفار التوراة إلى:

أولا أسفار الملاحم والأساطير وهي أسفار التوراة الخمسة الأولى وسفر يشوع.

وثانيا أسفار القصص التراثية وهي سفري صموئيل الأول والثاني.

وثالثا أسفار تأريخية وهي أسفار الملوك الأول والثاني، وأسفار أخبار الأيام الأول والثاني.

وقد ورد ذكر اسم تسعة عشر سفرا في التوراة لا يعرف لها مصير على الإطلاق، ويبدو أن محرري التوراة اللاحقين قاموا بإعادة تحريرها، واستبعاد ما لم يرق، ولم يرض عنها المحررون المتأخرون، إما لعدم انسجامها مع باقي الأسفار التوراتية، أو لأنها ربما تتناقض، أو لا تنسجم، مع الأسفار والتأريخ التوراتي، وبعد إعادة تحريرها قاموا بدمجها في أسفار توراتية أخرى، أو أنها أدرجت في التوراة بعد أن أعيد تسميتها بأسماء أخرى، وأما أسماء هذه الأسفار كما جاءت في التوراة

١ - سفر ملوك إسرائيل	٢ - سفر أخبار صموئيل الرائي	٣ - سفر أخبار ناثان النبي
٤ - سفر أخبار جاد الرائي	٥ - سفر نبوة أخيا الشيلوني	٦ - سفر رؤى يعدو الرائي
٧ - سفر أخبار شمعيا النبي وعدو الرائي	٨ - سفر مدرس النبي عدو	٩ - سفر أخبار ياهو بن حناني

١٠ - سفر مدرس سفر الملوك	١١ - سفر موسى	١٢ - سفر أمور عزيا التي كتبها أشعيا بن آموص
١٣ - سفر ملوك إسرائيل	١٤- سفر أخبار الرائين	١٥- سفر الشريعة/سفر العهد
١٦ - كتاب حروب (يَهْوَه)		١٧ - سفر نشيد القوس

وكبداية سأستشهد بمجموعة من الأقوال التي تعري الادعاءات والمقولات التوراتية، فقد جاء في قرار اللجنة الحبرية التوراتية يوم ١٩٠٦/٦/٢٧: {يمكن القول بأن موسى استغل وثائق مخطوطة وتقاليد شفوية سابقة ونقل عنها ما يوافق الغاية التي استهدفها بإلهام الروح القدس، وأنه نقل تارة النصوص بحروفها وتارة بمعناها وأخرى بتلخيص وإسهاب.. وأن الكتب الخمسة المذكورة قد أعيد تحرير نصوصها مع مرور الزمان بحيث أضيفت مثلا نصوص كتبها كاتب ملهم بعد وفاة موسى، وزيدت تفسيرات، وتحولت تعابير قديمة إلى تعابير مستحدثة، وأن هناك أخطاء اقترفها النساخون.}

كما صُدّرت الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس بالقول {ما من عالم كاثوليكي في عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة، منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف حتى على وضع النص، لأن ذلك النص قد كتبه عديدون بعده، لذلك يجب القول: إن ازديادا تدريجيا قد حدث، وسببته مناسبات العصور التالية الاجتماعية والدينية}.

ويرى سبينوزا أن سفر أيوب مترجم بشكل كامل من الآرامية، ولم يتم تهويده كباقي الأسفار وكذلك الأمر بالنسبة لأجزاء من سفر دانيال، ويعتقد سبينوزا أن سفر دانيال وسفر عزرا كانا سفرا واحدا، والكاتب الذي كتبهما هو نفسه من كتب سفري أستير ونحميا، وهذه الأسفار الأربعة كتبت على أساس أخبار الأيام في زمن الهيكل الثاني، أي بعد العودة من السبي البابلي، كما أن أسفار الملوك وصموئيل قد ألّفت على أساس سفري أخبار الأيام الأول والثاني التي كتبت في زمن الهيكل الأول، ولم يكن مؤلف سفري عزرا ونحميا هو عزرا أو نحميا، بل كان معاصرا للمكابيين في القرن الثاني قبل الميلاد، وأن حكماء التلمود (الفريسيون) اختاروا هذه الأسفار وقدسوها، ويذهب، وبشكل جازم، فراس السواح في تأكيده على تدوين التوراة في مرحلة ما بعد السبي في قوله {ولم يكن لهذه الديانة أي صلة بشعب معين اسمه شعب إسرائيل، لأن تاريخ هذا الشعب كما ترسمه الرواية التوراتية لا يعدو

أن يكون فانتازيا لا تصلها صلة بالتاريخ الحقيقي للمنطقة. بل لقد نشأت هذه الديانة وتطورت واتخذت شكلها الحالي خلال القرون السابقة للميلاد}.

أما تسونس فيرى من خلال تحليل البنية اللغوية لسفر حزقيال أن كتابته تمت بين (٤٠٠ - ٤٤٠ق.م)، ومن المعروف أن هناك قرابة شديدة بين سفر حزقيال وسفر اللاويين وهما يعكسان بيئة واحدة، ومن خلال دلائل وبينات متعددة توصل إلى أن {سفر اللاويين أحدث من سفر التثنية، وأكثر حداثة من سفر حزقيال، وكتب في زمن الهيكل الثاني عندما كان موقف الكهنة قويا، وأسلوب القرابين محددا ومفصلا، يعني نحو ألف سنة بعد موت موسى}.

يقول فيليب ديفز مؤكدا أن التوراة قد كتبت بعد الأسر البابلي {عندما بدأت مسألة النسب والأصل تتخذ طابع الأهمية في مجتمع مصاب برهاب الأجانب، هو مجتمع أورشليم ما بعد السبي البابلي}، ويضيف قائلا {إني أرى بأن النص التوراتي هو الذي ابتكر اليهود واليهودية وليس بالعكس}.

وحسب قاموس الكتاب المقدس يُعتقد أن عدد من ساهم في كتابة التوراة بحدود أربعين كاتبا على الأقل يعودون إلى مستويات شديدة التباين من حيث المستوى الثقافي والمعرفي والانتماء الطائفي والمذهبي، وقد أدى هذا التنوع إلى تباين شديد في المستويات النصية للكتاب المقدس، وقد حاول المحررون أن يعيدوا تأهيل النصوص المتفرقة، وأن يحلّوا انسجاما فيما بينها، ولكن التباينات، والتناقضات الداخلية بقيت آثارها العميقة واضحة للعيان، ويرجع كتابة التوراة إلى رجال الدين في مملكة يهوذا (اليهود)، بعد أن تم سبيهم من قبل نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م)، حيث بدأ المسبيون بكتابة التوراة باللهجة الآرامية الغربية القديمة (آرامية التوراة) أو ما يدعى بالعبرية، عدا أقسام من سفر عزرا، وسفر دانيال الذين كتبا بالآرامية، وقد اعتمد اليهود في كتابة التوراة على الخط الآرامي القديم (الحرف المربع أو الحرف العبري) والذي استعمل معه التنقيط والعلامات لتميز حروف العلة، وعلى الرغم من ذلك بقيت بعض الكلمات ملتبسة تأخذ أكثر من وجهة ومعنى، ثم ترجمت التوراة إلى الآرامية (الترجوم).

وبشكل عام فقد قسّم دارسو التوراة (مدرسة فلهاوزن الألمانية) العهد القديم إلى أربعة مصادر، وبالأحرى أربعة أنساق ومرجعيات، وهي:

- **المصدر الألوهيمي** (أو الإفرايمي كما يسميه البعض) والذي يتخذ من إيل إلها أوحدا، وألوهيم هي صيغة الجمع من إيل بقصد التقديس والتعظيم، ويصوّر هذا المصدر الإله إيل إلها كونيا غير مدرك بالحواس، ويتجلى من خلال ملائكته أو من خلال الأحلام، وليس له حالة تصورية تجسيمية، ويعود هذا المصدر إلى المملكة الشمالية (السامرة)، وقد أُلّف هذا المصدر

حسب مدرسة فلهاوزن في القرن الثامن قبل الميلاد (نحو سنة ٧٧٠ ق.م)، ويهيمن عليه تصور الأنبياء لا سيما المنحدرين من قبيلة أو سبط أفرايم، ويقسّم البعض المصدر الألوهيمي إلى مصدرين أحدهما شديد القرب من المصدر اليهوي.

- **المصدر اليهوي** وهو الذي يتخذ من الرب (يَهْوَه) إلها، ويرجعه الباحثون إلى القرن التاسع قبل الميلاد (نحو سنة ٨٥٠ ق.م)، ورواته يعودون إلى مملكة يهوذا الجنوبية، ويصوّر هذا المصدر (يَهْوَه) على أنه ذو رؤية ضيقة، وذو صفات بشرية، وذو سلطة محددة بشعبه المختار، وهو الذي تبنى منح الوعد بالأرض المقدسة لشعبه المقدس، كما يصور هذا المصدر الرب (يَهْوَه) على أنه جاهل أو ليس كلي المعرفة، قبلي، يمثل إلها رئيسيا في البانثيون اليهودي، وله صفات بشرية تجسيدية، تماثل صفات الشخصية اليهودية فهو (يأكل، يأمر وينهي، يرسم ويخطط، فهو إله تاريخي، وهو يعفو دائما ويندم أيضا، كما أنه يعمل بيديه، ويتعب، ويستريح)، وقد اتصف هذا المصدر بحيويته السردية القصصية.

وقد تم جمع، أو ضم، أو دمج المصدرين السابقين (الأولوهيمي، واليهوي) في محيط سنة ٦٥٠ قبل الميلاد، حسب ما يرى بعض المختصين.

- **المصدر التثنوي**، وكتّاب هذا المصدر هم الذين قاموا بتحرير سفر التثنية الذي ينطوي على عقلية خاصة به، ويعتبر هذا المصدر محاولة توفيقية بين المصدر اليهوي والألوهيمي، وبين التراث الشفوي للقبائل الشمالية الإسرائيلية، والتراث الشفوي للقبائل الجنوبية اليهوذية، ويؤرّخ لتأليفه القرن السابع قبل الميلاد.

ويعتقد الكثير من الباحثين أن سفر الشريعة أو سفر العهد (المتضمن داخل سفر التثنية) الذي قيل أن الكاهن حلقيا وجده أثناء عمليات الترميم في المعبد نحو سنة ٦٢٢ قبل الميلاد في عهد الملك اليهوذي يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٩ ق.م) صاحب الحركة التصحيحية الدينية، هو الأثر التوراتي الوحيد الذي يعود إلى مرحلة ما قبل السبي، وحتى بعد العودة من السبي البابلي فقد قام كل من الوالي نحميا وعزرا الكاهن بقراءته على الشعب في أورشليم أثناء اجتماعهم مع الشعب لمرتين في نفس اليوم، وهذا يشير إلى أن التوراة حتى ذلك التاريخ لم تكن أكثر من عدة صفحات، وحتى لو كانت هناك نصوص توراتية سابقة لمرحلة السبي فقد تم إتلافها على يد نبوخذ ناصر عندما قام بمسح مملكة يهوذا، وتسوية أورشليم بالتوراة، وحتى لو افترضنا وجود نواة نصية للتوراة في مرحلة ما قبل السبي، فهذه النواة لا تتعدى الوصايا العشر، والعهد بين الرب (يَهْوَه) والشعب المختار، والتي - كما جاء في التوراة - قام يشوع بكتابتها على كوم من الحجارة بعد عبور العبرانيين من منطقة موآب شرقا عبر نهر الأردن

إلى بلاد كنعان على الضفة الغربية، وهذه النوية هي التي كبرت وهي تتدحرج على منحدر الزمن لمرحلة ما بعد السبي، وحسب بعض الباحثين فقد كانت هذه النوية تشكل الطبقة الأولى لسفر الشريعة، والتي ضمت العنصرين أو المصدرين الألوهيمي واليهوي، وكانت هذه النويّة شفوية في البداية، ثم أصبحت خطية عندما تم ضم المصدرين في هذه الطبقة، وأضيف إلى هذه الطبقة الأولى طبقة ثانية بعد سقوط السامرة عاصمة المملكة الشمالية على يد الآشوريين، وتشكلت طبقة ثالثة بعد مرحلة السبي، ودليل أصحاب هذا التوجه هو أن الشريعة التي جاءت في هذا السفر (سفر التثنية) لا تتفق مع مجتمع قبلي مترحّل كان يعيش تائها في سيناء، بل تم تدوينه في مجتمع حضري زراعي مستقر ذي بنية طبقية هرمية.

ويذهب أكثر الباحثين إلى أن الكاهن حلقيا هو من قام بكتابة وتدوين سفر الشريعة من روايات شفوية وادعى أنه وجدها بين حجارة الهيكل المهدم أثناء ترميمه، ولكن هذا، في الوقت نفسه، يؤكد أنه حتى تلك المرحلة لم يكن لدى اليهود أي نصوص توراتية سابقة، لأن سفر التثنية (سفر الشريعة) موجود أصلا في الأسفار الأربعة الأولى للتوراة

- أما المصدر الرابع فهو المصدر الكهنوتي، والذي أَدخل ضمن التوراة قوانين وقواعد وطقوس العبادة، والشعائر الدينية، وتقديم القرابين وترتيب الكهنة، والسدنة، لمنح هذه القوانين صفة القدسية لا سيما في أسفار التوراة الخمسة الأولى، وهو الذي أولى اهتماماً كبيرا بالأرقام، والنسب والحسب، وتم إدخاله متأخرا إلى الكتاب المقدس في زمن الهيكل الثاني في سياق، وما بعد القرن الخامس قبل الميلاد.

ويعتقد أو يربط أبراهام جايجر بين كتابة التوراة وبين الكهنة من أبناء صادوق على وجه التحديد الذين قاموا بكتابة أو تحرير المرويّات التأريخية للمسبيين، مع تهويد الأدب البابلي ولكن بصياغة كهنوتية (المصدر الكهنوتي)، والكهنة الذين جعلوا من الهيكل والعمل الكهنوتي مركز الحياة الدينية والاجتماعية لبني يهوذا، وبالطبع إضافة إلى لم شمل المسبيين لتحقيق مصالحهم الخاصة أيضا، ويعتقد البعض مثل موريس بوكاي أن سفر التكوين هو من كتابة التقليدين اليهوي والكهنوتي فقط، وهناك من يرى أنه ناتج عن المصادر الثلاثة.

وحسب مدرسة فلهاوزن فقد تم تجميع المصادر الأربعة في كتاب واحد، هو ما يسمى الآن بالعهد القديم، نحو سنة ٢٠٠ ق.م، وقد تم تدوين هذه الكتابات على لفائف (أدراج) بواسطة قلم الإردواز، أو بواسطة الحبر.

وهناك نظريات كثيرة تتحدث عن علاقة هذه المصادر فيما بينها، فمنها من يقول إن المصدر الألوهيمي هو المصدر الأساسي، وجاء المصدر اليهوي ليكمل المصدر الألوهيمي،

ولكن الأكثرية يرون أنهما مصدران مستقلان، وعلى ما أعتقد أنه كان هناك مصدران مستقلان متآثران، متناصان يشكلان ديانتين، هما الديانة الحنيفية التي تدين للإله إيل، وتعتبره رب الأرباب (الواحد الذي يسكن في الأعالي)، وكانت تدين به شعوب الشرق الأدنى القديم المستقرة لا سيما منها الجماعات المدنية التي تعتمد على الزراعة الإروائية، وكان أول من عرف الإله إيل هم الأكاديون في سياق الألف الثالثة قبل الميلاد، وعلى ما يبدو فإن الإله إيل كان الإله الرئيسي في شبه الجزيرة العربية، ومن هناك، ومع الهجرات الفيضية نحو الهلال الخصيب انتشرت عبادة الإله إيل لتشمل الشرق الأدنى القديم.

أما المصدر التوراتي الثاني (المصدر اليهوي) فهو المصدر أو المعتقد البعلي (البعثي)، الذي انتشر عند الجماعات التي تعتمد في معيشتها على الزراعة البعلية (المطرية)، والإله بعل هو إله في البانثيون السوري تكثر عبادته في الأوساط الشعبية، بينما كان يمثل الإله إيل (رب الأرباب) الإله الرسمي للشعوب السورية، أما الديانة اليهودية التي تدين للإله الرعوي (يَهْوَه) الذي يسكن على الأرض، أو يسكن متنقلا ما بين الفيوم والأرض فلم تكن سوى الديانة البعلية في صيغتها الوسيطة بين الحالة الرعوية، والحالة الزراعية، والتي اشتق منها أو تفرع عنها الديانة اليهوية التي تدين بـ (يَهْوَه) الإله الرعوي.

وقد انتشرت الديانة اليهوية بين الجماعات البدوية القبلية العبرية، التي امتازت ككل الجماعات القبلية بامتلاكها ذاكرة قوية، حفظت تراثها الشفوي، والذي تم تدوينه بعد تعرض اليهود أحفاد العبرانيين إلى السبي في بابل، وتحولهم من المرحلة الشفوية إلى المرحلة التدوينية، حيث قاموا بتدوين كل المنتج الذهني التراثي الثقافي، لهم بشكل خاص، ولشعوب الشرق الأدنى القديم بشكل عام، وقد كان أحد أهم منتجاتهم الثقافية الأدبية هي الرثاء في الدرجة الأولى، والهجاء في الدرجة الثانية، ولهم فيه بعض النصوص الأصلية، بينما كان الغزل قد اقتبسوه من أتباع الديانات البعلية، كما تعلموا الرقص والغناء الديني، من الكنعانيين البعليين، لكن ذلك لم يتأصل لدى العبرانيين، وبذلك، وما إن زال المؤثر الكنعاني حتى تراجع لديهم الاهتمام بهذه الفنون، ويبدو أن الشريعة اليهودية (التفريدية التي تميل إلى التجريد) التي حرّمت على اليهود فن النحت والتمثيل، جعلتهم يحصرون نتاجهم الذهني في اللغة، وهذا هو سبب إجادتهم في فن الكتابة، ومن هنا أيضا جاء (الكتاب المقدس).

وتعتقد كاثلين كينون أن التوراة هي نتاج مزيج تراثين هما تراث قبيلة إبراهيم وإسحاق، وتراث قبيلة يعقوب، أما عبد المجيد همو فيذهب إلى أن التوراة هي نتاج تيارين متناقضين، الأول يمثله جماعة إيل وهو الذي يؤيد موسى، والثاني يمثله جماعة (يَهْوَه) وهي التي لم تسمع بموسى، ولكن هذه الجماعة قامت بالإساءة إلى موسى.

إن كل الباحثين يؤكدون على أن التوراة هي من نتاج تراثين تم تفكيك نصوصها من قبل المحررين، ثم بعد ذلك أعيد إنتاجهما في النص التوراتي، ولكن بسبب المسارات التاريخية والتزمينات المختلفة لكلا التراثين والتاريخيين فقد حصل خلط جعل التوراة شديدة الالتباس، وكثيرة التناقضات، وكما لم يتوحد شعبا التراثين (الإسرائيلي الحنيفي، واليهودي اليهوي) في وحدة أثنية واحدة كما أراد القادة لهما، كذلك لم يستطع محررو التوراة اليهود أن يوحدوا بشكل مقنع تراث وتاريخ الشعبين.

وإضافة إلى التراثين السابقين، فقد اقتبس اليهود تراث المشرق القديم، وبالتحديد تراث الهلال الخصيب، وقاموا بتهويده بطريقة ساذجة لم تأخذ بالحسبان أن لكل شعب نويات (رموز) ثقافية وظيفية حولها يتكوكب التراث، ويمكن لهذه النويات أن توظف بعد تأهيلها في تراث شعب آخر، ولكن الكتبة اليهود أخذوا تلك النويات، ولم يقوموا بتهويدها، وتأهيلها بشكل جيد، بل في بعض الأماكن أخذوها، وأقحموها في غير فضائها، وألصقوها لصقا، أو رقعوها ترقيعا في مكان أساء إلى النص التوراتي، وهذا ما أدى إلى تشكيل (الطبيعة الجغرافية) التي تحدث عنها د. المسيري في موسوعته المعرفية اليهود واليهودية والصهيونية، وهذا ما أفقد اليهودية مرجعية قيَمية أخلاقية واحدة، بحيث تشكلت، بسبب ما قدمناه، عدة نوى متناسقة حينا، ومتجانبة حينا، ومتعارضة في أحيان كثيرة، وهذا ما أفقد النص التوراتي أي انسجام حقيقي لديناميكية العقيدة اليهودية، فالكثير من الأساطير أُخذت من حضاراتها وترجمت إلى العبرية مع تهويدها تهويدا سطحيا مباشرا دون أن تكون قد أهلت، أو روضت، أو صقلت على ألسن العبرانيين، أما تلك التي صقلت على فم العبرانيين فأغلبها (والتي تعود إلى التراث الإفرايمي الإسرائيلي) كانت ذات عقلية كنعانية كما كان عليه دين الإفراميين، وقد اضطر اليهوذيون أن يهوّدوها وبذلك قاموا بمسخها، بدل تطويرها.

وبسبب ذلك فقد تشكلت التوراة من مزيج غير متجانس من أنواع النصوص أعطت التوراة نمطها الرقعي، والتي تعود إلى أزمان مختلفة، وأماكن متعددة، وشعوب متنوعة، فجاءت بعض النصوص ذات نمط أسطوري، وبعضها يعود إلى نمط الحكايات الشعبية، وبعضها يعود إلى النمط الملحمي، وبعضها يعود إلى النمط الخرافي، ولكن الكثير من القصص هي مزيج من أكثر من نمط، وربما اشتركت فيها كل الأنماط.

وأعتقد أن بعض تلك الجماعات العبرية قد هبطت من الشمال جنوبا نحو شبه الجزيرة العربية على شكل هجرات متعددة، قبل، وبعد هجراتهم إلى مصر، أو أنهم صعدوا حسب ما يرى البعض من جنوب شبه الجزيرة العربية، ومن هناك حملوا معهم أيضا تراث العرب،

وأعتقد أن بيت إيل، ما هو سوى بيت الله الحرام (الكعبة) الذي جغرف في بلاد كنعان، ومن ثم أصبح الهيكل في أورشليم، وقد أفرغت تلك الجماعات ما أتت به من التراث العربي الحنيفي في حوض أو مجمّع التراث العبري التي أتت به جماعات عبرية مختلفة من أماكن وشعوب متعددة، وهذا لا يعني أي تقاطع مع نظرية كمال الصليبي، أو أحمد يوسف داود، أو زياد منى، والتي تذهب إلى أن اليهودية بقضها، وقضيضها قد تمسرحت أحداثها في المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية.

وبسبب فقدان وغياب أي نقوش في شبه الجزيرة العربية تعود إلى الألف الأولى والثانية قبل الميلاد، فليس هناك من شيء يؤكد ما أعتقده، سوى الذهاب مع المنطق الذي يقول إن القبائل العبرية كانت تنتشر في كل بلاد الشرق الأدنى القديم، وهو ما ذهب إليه سيد القمني الذي يرى أن القبائل العبرية بعد خروجهم من مصر قد تفرقوا على كل أقاليم الشرق القديم، ومنهم من وصل إلى أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية.

وقد اكتشفت الأبحاث الأركولوجية أكثر النصوص الأصلية لشعوب المنطقة التي قام اليهود كجماعة بانتحالها، وتطويرها وتخصيصها (تهويدها) وهي تنتقل شفويا، كما كانت تنتقل الجماعات العبرية في المسافات، والفراغات، أو الهوامش بين الدول، والأقاليم، وهذه النصوص تعود إلى مراحل عميقة من مراحل التطور الإنساني كانت تنتقل شفويا متكيفة مع التغيرات المكانية والزمانية لتعاقب الأمم، ثم تدوينيا، وانتهت إلى حفظها في التوراة.

وقد مرّ تدوين التوراة، بعد أن قامت المصادر الأربعة بالتضافر في تأليفها، بعدة مراحل تعرضت خلالها إلى الكثير من الأخطاء النسخية إضافة إلى عمليات التزوير، وكان للتوراة عدة نسخ، أو نصوص أهمها هو النص الماسوري (العبري) وهو النص المعتمد عند اليهود وأكثر المذاهب المسيحية، وأقدم مخطوط له يعود إلى النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، وهو يحوي على التوراة (أسفار موسى فقط)، أما النسخة الكاملة فتمثلها المخطوطة الحلبية التي تعود إلى بداية القرن العاشر الميلادي، وتنسب النسخة الماسورية إلى قرية سورة البابلية حيث دونت هناك النسخة التوراتية التي عرفت بالنسخة الماسورية.

وهناك النص السامري والذي يضم الأسفار الستة الأولى (أسفار موسى الخمسة) وسفر يشوع فقط، ويحوي نقاط خلاف كثيرة مع التوراة الماسورية، وتعود أقدم نسخة من النص السامري إلى القرن الحادي عشر الميلادي، على الرغم من أن السامريين يؤكدون أن النسخة التي بحوزتهم تعود إلى أزمان قديمة، وقد تبين أن بعض نصوص البحر الميت (التي وجدت في الكهف الرابع) هي نفس النصوص السامرية.

وهناك أيضا التوراة أو النص اليوناني (الترجمة السبعونية)، وهي التي، حسب ما يتناقله المؤرخون، قد تمت ترجمتها عن نص عبري في الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، وأقدم مخطوطة لهذه الترجمة تعود إلى القرن الرابع بعد الميلاد، ويشكك أحمد يوسف داود في أن تكون الترجمة السبعونية هي ترجمة، بل يشكك في أنها كانت تأليفا، لا سيما لعدم وجود أي نص أصيل سابق لوجودها.

أما النص الرابع فهو نص أو نصوص كهوف قمران، والتي اكتشفت في منتصف القرن الماضي، وهي التي نُسخت على مراحل فيما بين القرن الثالث قبل الميلاد، والقرن الأول بعد الميلاد، إلا أن بعض الباحثين يشككون في إرجاعها إلى تلك المرحلة الزمانية، ويذهب العالم زايتلن إلى أن مخطوطات البحر الميت هي نصوص قام بكتابتها أتباع المذهب القرائي الذي تشكل في العصر العباسي في بغداد، ووضعوها في كهوف خربة قمران كي يثبتوا ادعائهم من أن فرقتهم تعود إلى القرن الأول الميلادي، كما أن بيير روسي يشكك في تاريخية هذه المخطوطات، لا سيما وأنه اكتشفت في زمن كان الجانب الإسرائيلي بأمس الحاجة إلى اكتشافها، وقد تم توظيف هذا الاكتشاف أفضل استغلال.

في الجزء الأول من هذا البحث سأتخذ من النص التأريخي التوراتي موضوعا بحثيا، منذ بداية التأريخ التوراتي، مرورا بمرحلة الآباء الأوائل، ثم مرحلة الخروج، ثم عصر يشوع والقضاة، ثم مرحلة المملكة المتحدة وانقسامها، وحتى مرحلة السبي البابلي، ثم سأتبع هذا البحث في الجزء الثاني بدراسة جغرافية، جيولوجية، انثربيولوجية، تاريخية لمنطقة فلسطين، مع تقاطعاتها مع تاريخ الشرق الأدنى الذي يشمل المنطقة الممتدة ما بين بلاد فارس شرقا، ووادي النيل غربا، وآسيا الصغرى شمالا، وشبه الجزيرة العربية جنوبا، ولب هذا المنطقة هو ما يسمى بالهلال الخصيب (بلاد ما بين النهرين، وبلاد الشام)، ومن ثم سأتبعها بعرض نتائج الأبحاث الأركولوجية، وسأقوم بدراسة تحليلية استقرائية للوصول إلى مقاربة منطقية للتاريخ العبري الإسرائيلي اليهودي، وبعد نهاية الدراسة، سأعود ثانية في الجزء الثالث من هذا البحث إلى متابعة التاريخ اليهودي في مرحلة السبي البابلي، وحتى مرحلة الشتات سنة ١٣٥ بعد الميلاد، والتي لم ترد أصلا في التوراة، بل وردت في مصادر تاريخية متعددة، ومن ثم سأنهي هذا البحث بدراسة موجزة لتاريخ الشتات اليهودي انتهاء بالمرحلة الصهيونية، والتي لا تعاني المنطقة العربية فحسب بل العالم من مفرزات التصورات التاريخية الصهيونية على الحاضر.

الباب الأول

التأريخ التوراتي

تمهيد

في البداية أريد أن أشير إلى أن أسماء الأنبياء الذين يرد ذكرهم في التوراة يختلفون في عديد من الأوجه عن الأنبياء كما هم معروفين في التصور الإسلامي، فما يجمع الأنبياء في القرآن الكريم والتوراة، هو تطابق، أو تقارب بأسماء بعض الأنبياء مع بعض التشابه في قصصهم، مع اختلاف جوهري من حيث مفهوم النبوّة كحالة وسيطة ما بين السماء والأرض، ومن حيث العقيدة والهداية ومضمون الرسالة السماوية التي يعبر عنها الأنبياء، إلى الدرجة التي تبيح لنا، أو حتى تفترض علينا، فإن نقول إبراهيم اليهودي، وإبراهيم المسلم، فالنبي إبراهيم في الدين الإسلامي هو نبي له قدسيته الخاصة، وقصته تختلف في بعض خطوطها العامة، وفي الكثير من تفاصيلها، وفي بعدها، ومفهومها الأخلاقي، فالتوراة صوّرت النبي إبراهيم في أكثر من مكان بأنه كان رجلا وصوليا، أنانيا، محكوما بما يمليه عليه الواقع، والمصلحة الشخصية المادية بحيث لن يتورع من أن يستغل جمال زوجته سارة ويبيعه إلى فرعون مصر مرة، وإلى ملك مدينة جرار الفلسطيني، وهذا يتعارض تماماً مع شخصية النبي إبراهيم (أبو الأنبياء) في التصور الإسلامي، ولذا فأنا لا أتحدث عن إبراهيم في التوراة كما لو أنه النبي إبراهيم المسلم الحنيف الذي جاءت قصته في القرآن الكريم، كما هو الحال أيضا بالنسبة لبقية الأنبياء الذين حرص محررو التوراة (الكتبة) على إلصاق أكبر قدر ممكن من الموبقات بهم.

ثم أن التزمين الذي سيرد في معرض سردي لما جاء في الأسفار التوراتية، هو التزمين الذي يتبناه المؤرخون التوراتيون، والذي سيكون لي عودة عليه لإبداء وجهة نظري فيه.

وبشكل عام يمكن أن نقسم التأريخ التوراتي حسب ما جاء في التوراة إلى:

١ - **عصر الآباء الأوائل:** تبدأ التوراة بسفر التكوين، والذي يبدأ بمقدمة يتحدث فيها عن بدايات الوجود، وعن خلق آدم وحواء وخروجهما من الجنة، ومن ثم يورد السفر قصة الطوفان التي تتحدث عن نوح وأبنائه الثلاثة سام، وحام، ويافث، ويتفرد في متابعة أحفاد سام وصولا إلى الآباء الأوائل بدءا بإبراهيم الذي يؤرخ له دارسو النص التوراتي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، حيث يهاجر النبي إبراهيم مع أبيه، ولوط ابن أخيه هارون، من مدينة أور

الواقعة في جنوب العراق، نحو حاران شمالا، ثم نزولا نحو الجنوب الغربي إلى بلاد كنعان، ومن بعده يؤرخ سفر التكوين لإسحاق ابن إبراهيم، ومن ثم يعقوب، ومن بعده النبي يوسف الذي في عهده تمت هجرة الجماعة العبرية من بلاد كنعان إلى منطقة الدلتا في مصر السفلى.

٢ - **عصر الخروج:** بعد فترة مجهولة وغامضة تمتد ٤٠٠ سنة من وصول يعقوب وأبنائه (الأسباط) إلى مصر، يعود التاريخ العبري للتمسرح من خلال سفر الخروج على يد النبي موسى وخروجه من مصر في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد (١٢٩٠ ق.م حسب أكثر المؤرخين التوراتيين)، ووصوله مع أتباعه إلى نهر الأردن بعد متاهة سيناء التي استمرت مدة أربعين سنة.

٣ - **عصر يشوع:** ويمتد ما بين موت النبي موسى على الضفة الشرقية لنهر الأردن، واجتياز القبائل العبرية بقيادة يشوع نهر الأردن نحو بلاد كنعان (١٢٤٠ ق.م حسب المؤرخين التوراتيين)، حيث يستولي عليها، وينتهي ببداية عصر القضاة الذي يلي موت يشوع.

٤ - **عصر القضاة:** وهو العصر الذي يبدأ بعد موت يشوع، حيث فيه تخضع الجماعات العبرية لحكم القضاة الذي يمتد قرابة قرنين من الزمان، وينتهي قبل تشكيل مملكة إسرائيل الموحدة بقيادة شاؤل أول ملوك القبائل العبرية في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

٥ - **عصر المملكة المتحدة:** وهو العصر الذي يبدأ بتعيين شاؤل أول ملك على الجماعات العبرية (١٠٠٧ - ١٠٠٤ ق.م)، ثم يليه حكم النبي (الملك) داود (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق.م)، والذي قام بتوسيع مملكة شاؤل، ومن بعده ابنه النبي سليمان (٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م) ذو الشخصية السياسية الدبلوماسية والذي قام - كما تدعي التوراة - ببناء الهيكل المقدس في مدينة أورشليم الكنعانية (القدس) بعد أن أسس فيها عاصمته، ومن بعده يبدأ عهد انقسام المملكة الموحدة سنة ٩٢٣ ق.م.

٦ - **عصر انقسام المملكة المتحدة:** وهو العصر الذي يبدأ بانقسام المملكة المتحدة بعد موت الملك سليمان، إلى مملكتين هما:

- **مملكة إسرائيل** (٩٢٣ - ٧٢١ ق.م) في المنطقة الشمالية من الضفة الغربية لنهر الأردن، والتي كان لها أكثر من عاصمة مؤقتة قبل أن تصبح السامرة عاصمة نهائية لها، وكانت نهايتها على يد الملك الآشوري سرجون الثاني (شاروكين) (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) في سنة ٧٢١ قبل الميلاد، ولم يبق لشعبها من أثر يذكر، بعد أن دامت قرابة القرنين من الزمان.

- **ومملكة يهوذا** (٩٢٣ - ٥٨٦ ق.م) في الجنوب، والتي اتخذت من عاصمة سليمان أورشليم عاصمة لها كما تابع أبناؤه الحكم من بعده حتى تم سبيها بشكل نهائي سنة ٥٨٦ قبل الميلاد على يد الملك البابلي نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م).

٧ - **عصر السبي البابلي:** وهو العصر الذي تم تشكيل وصقل اليهودية فيه، والذي بدأ بعد أن تم سبي شعب مملكة يهوذا على يد البابليين سنة ٥٨٦ ق.م، وحتى عودتهم على مراحل أو دفعات متعددة في نهاية القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد تحت ظل المملكة الفارسية الأخمينية التي أنهت الحكم البابلي، وهنا تتوقف التوراة عن متابعة أخبار الجماعات اليهودية، والتي سنتابعها من خلال عدة مصادر تاريخية.

٨ - **عصر العودة من السبي:** ويبدأ بعودة شعب يهوذا (اليهود) على يد الفرس الأخمينيين الذين أنهوا الوجود البابلي بعد السبي بنصف قرن، ومن ثم خضوع المنطقة للعهد الهيليني سنة ٣٣٢ ق.م، ومن بعده العهد الروماني سنة ٦٣ ق.م، وينتهي بقيام الرومان بتدمير أورشليم سنة ٧٠ للميلاد.

٩ - **تاريخ الشتات:** والذي يمتد من سنة ٧٠ للميلاد، وانتهاء بمرحلة الصهيونية.

١٠ - **المرحلة الصهيونية:** وهي المرحلة التي قامت بها الصهيونية بقيادة الجماعات اليهودية المشتتة في بقاع الأرض وتهجيرهم إلى فلسطين وتشكيل دولة إسرائيل الصهيونية.

كما يمكن أيضا من خلال هذا التقسيم، ومن خلال الأدبيات التوراتية أن نقسم التاريخ اليهودي إيديولوجيا إلى عدة مراحل:

- **المرحلة النظرية:** وتعود إلى مرحلة الآباء الأوائل، والنظرية تعتمد مرجعيا على الوعد الإلهي بمنح النبي إبراهيم ونسله من بعده أرض الكنعانيين، وهذا الوعد اعتبر صكا تمليكيا شرعيا لأرض كنعان، والتي عليها سيتم تشكيل الكيان السياسي، وبقي هذا الوعد يتناقله الخلف عن السلف شفويا منذ تلقاه أبرام (إبراهيم) وحتى (حسب التوراة) وثق في نهاية عهد النبي موسى أي بعد قرابة خمسة قرون.

- **المرحلة التأسيسية:** وتتضمن المرحلة الممتدة ما بين خروج موسى بجماعته من مصر، وحتى نهاية مرحلة القضاة، بعد أن حسم الموعودون أمرهم، وقرروا احتلال أو امتلاك أو السيطرة على الأرض الموعودة، لجعل النظرية (الحلم) واقعا، وبذلك تحضير المستقبل من خلال وعود الماضي.

- **مرحلة التشكيل:** وهي مرحلة تشكُّل المملكة العبرية، وتمتد من زمن الملك شاؤل (أول ممثل سياسي للملكة) وحتى السبي البابلي سنة ٥٨٦ ق.م، مرورا بمرحلة الانقسام، ثم مرحلة مملكة يهوذا.

وهذه المراحل الثلاث لا تعتبر مراحل تاريخية، بل هي مراحل نصية، باستثناء القرنين الذين سبقا السبي الآشوري بالنسبة للملكة الشمالية (مملكة إسرائيل)، والقرنين اللذين سبقا السبي البابلي بالنسبة لمملكة يهوذا.

مرحلة الحنين: وهي مرحلة الحنين إلى الماضي، والكفاح للعودة لتشكيل الماضي النصي كما جاء في التوراة، وتمتد هذه المرحلة على كل العصور اللاحقة للسبي البابلي وحتى الآن، وتتضمن تمضية الحاضر (أي تدجين الحاضر في الماضي)، وهي تتضمن ثلاث مراحل:

مرحلة السبي البابلي، ثم مرحلة العودة من السبي، والتي يمكن اعتبارها خارج مرحلة الحنين وأخيرا **مرحلة الشتات** وهي مرحلة الحنين الحقيقية، ويمكن أن نلحق بها مرحلة الصهيونية وتشكيلها لدولة إسرائيل الصهيونية الحالية.

إن دولة إسرائيل الحالية التي ساهمت الصهيونية اليهودية العالمية بتشكيلها قامت على أرضية تاريخية نتجت عن تقاطع ثلاثة عوامل:

- **الأول منها هو العامل التأريخي** - اللاهوتي الذي يتخذ من التوراة مرجعية له، وهذا العامل تتشكل بنيته التحتية من يهود العالم على اختلاف جنسياتهم السياسية، وعلى تعدد مذاهبهم الدينية، وهم الذين يعتبرون مرجعيتهم التاريخية هي التوراة التي تدّعي أن القبائل العبرية شكّلت في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد مملكة إسرائيل المتحدة في بلاد كنعان بقيادة شاؤل ثم الملك داود ثم الملك سليمان وهي التي تشكلت، وأخذت شرعيتها، حسب التصور اليهودي، على أساس الوعد الإلهي، وترى الصهيونية أن من حقها، بل من الواجب عليها أن تعيد تشكيل هذه المملكة.

ولم يبق من العامل التاريخي - اللاهوتي سوى البعد اللاهوتي الغيبي بعد أن أكد المسح الآثاري في منطقة الشرق الأدنى، لمرحلة العصر الحديدي الأول (١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م) زيف المقولة التوراتية التأريخية حول المملكة المتحدة، وتبين أن هذه الكيان لم يكن سوى مملكة صُمّمت في خيال الأحبار اليهود، وبُنيت على أوراق التوراة في مرحلة السبي البابلي، وقد أكد خطاب البحث الأركولوجي أن التأريخ التوراتي هو عملية مقلوبة للزمان، بمعنى أن كتبة التوراة لم يكونوا يتحدثون عن ماضٍ من خلال ذاكرة تاريخية، بل تحدثوا عنه من خلال تخيل ماضٍ يراد تشكيله في المستقبل، أي أن هذا الماضي التوراتي النصي ليس سوى حلم داعب خيال الكهنة اليهود في مرحلة السبي البابلي.

- أما العامل الثاني الذي قامت عليه دولة إسرائيل الصهيونية، فهو **الحراكية التاريخية** للجماعات اليهودية اليديشية، أو الأشكنازية، أو يهود شرق أوربا، ولا سيما في المملكة

البولندية، وبالتحديد في إقليم أوكرانيا، والذين شكلوا، من خلال هجرتهم من شرق إلى غرب أوربا، أزمة حقيقية للعالم الأوربي الغربي، وللجماعات اليهودية في أوربا الغربية، وهي التي عرفت باسم المسألة اليهودية، والذي تم من أجلها تشكيل الصهيونية كوسيط بين العالم الغربي والجماعات اليهودية اليديشية، والتي حلّت من خلال تهجير الجماعات اليهودية (الفائض البشري) إلى فلسطين.

- أما العامل الثالث الذي ساهم بتشكيل دولة إسرائيل الصهيونية فهو عامل سياسي نتج عن تقاطع المصالح المشتركة ما بين الجماعات اليهودية في أوربا، والبنية الاستعمارية الإمبريالية الأوربية الغربية ببعدها المادي، والتي عرفت كيف تستغل الروحانية اليهودية، فدفعت باليهودي المريض بالتاريخ الديني الشعري إلى فلسطين لتحقيق أهدافها وعلى حساب العربي المغفل، حيث تم توظيف الجماعات اليهودية في أوربا (بعد توطينهم في فلسطين كجيب استعماري، استيطاني) لمصلحة الإمبريالية الغربية.

وبالتالي فإن تقاطع تطور الجماعات اليهودية في أوربا الشرقية على وجه التحديد مع المصالح الأوربية الاستعمارية الغربية على أرضية دينية تاريخية وبواسطة ووساطة الصهيونية تم تشكيل دولة إسرائيل الصهيونية.

ولكل باحث وجهة نظر في أي من العوامل الثلاثة له الأولية، أو يشكل البنية التحتية الأساسية للدولة الصهيونية الحالية، والبعض قد يتطرف في أن يعطي لعامل محدد الأساس الذي تم بناء دولة إسرائيل الصهيونية عليه، ومنهم المفكر الشهير روجيه غارودي الذي يقول {إسرائيل حدث استعماري من حيث الجوهر مغلف بأسطورة لاهوتية كاذبة}، كما يقول أيضا في كتابه إسرائيل الصهيونية السياسية {الصهيونية السياسية لم تولد من التقاليد اليهودية وإن كانت إسرائيل تستغلها ستارا ومسوغا بل من القومية والاستعمار الغربي السائد في القرن التاسع عشر، وبالتالي فإنها أحد أشكال العنصرية القومية الاستعمارية}، وهذا التصور أعتقد أنه تأثر كثيرا بمقولات بعض الساسة الأوربيين الذين حاولوا أن يبرزوا إمكانية استغلال الصهيونية من قبل الفكر الاستعماري الأوربي الغربي، كما تأثر أيضا بالمقولات الصهيونية الأولية (الثعلبية) التي كانت تدعوا إلى إقامة وطن قومي يهودي بغض النظر عن المكان، وهذا يعني أن حل المسألة اليهودية هي العامل الوحيد في تشكيل دولة إسرائيل الصهيونية.

أما أنا فأعتقد أن العامل الرئيسي في تشكل دولة إسرائيل هو العامل اللاهوتي، وهو الذي جعل اليهود جميعا وعلى مر الأزمان يرددون هذه الجملة الشهيرة دون أي ملل أو كلل

(العام القادم في القدس)، إضافة إلى المزمور ١٣٦ الذي يقول «إن نسيتك يا أورشليم تنسى يميني. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي»، وأما العامل التاريخي اليهودي اليديشي تحديدا، والعامل السياسي الاستعماري هما عاملان ساهما، أو قدما المساعدة للعامل اللاهوتي أن يتمسرح في هذه الفترة من الزمان، وأنا حين أتحدث عن تشكيل دولة إسرائيل فإن ذلك لا يعني تشكيلها على يد القادة السياسيين، بل تشكيلها من قبل اليهود الذي قرروا أن يعودوا إلى وطنهم الصوفي حسب تصورهم التوراتي الشاعري، ولننظر إلى أن هذا الوطن الصوفي يمثل الآن الجحيم، بسبب المقاومة العربية بشكل عام، والفلسطينية منها على وجه التحديد، وعلى الرغم من ذلك فإن التصور الديني لليهودي يجعل من فلسطين (الفردوس المفقود)، والمكان الذي يشعر فيه اليهودي، كما لو كان طفلا في حضن أمه على الرغم من أن دولة إسرائيل تعتبر الآن المكان الأقل أمنا، والأكثر خطرا على اليهود في العالم بأسره.

الفصل الأول

عصر الآباء
كما جاء في سفر التكوين

سأوجز ما استطعت سرد ما جاء في سفر التكوين الذي يبدأ بالحديث وبشكل موجز، ومفكك عن ملحمة الخلق، ثم قصة الخطيئة الأولى وبدء الحياة على الأرض من خلال سقوط آدم وحواء من الجنة، ثم مرورا بطوفان نوح، الذي أعاد الحياة على الأرض وكأنه تكرار لحادثة السقوط أو الخروج من الجنة، ومن أبناء نوح الثلاثة تنقسم الشعوب، وهم سام أبو الشعوب السامية الشرقية حمَلة الدين واللاهوت، ويافث أبو الشعوب الأوربية والتي كان نصيبها وظيفة التفكير والإبداع، وحام أبو الشعوب الأفريقية التي كان نصيبها وظيفة العمل وخدمة الشعوب السامية، والأوربية، ولأن حام أبو كنعان رأى عورة أبيه نوح (الذي تعرى وهو ثمل بعد أن شرب الخمر) دون قصد فقد لُعن ابنه كنعان من قبل الرب وإلى الأبد.

ومن هؤلاء الآباء الثلاثة (سام - حام - يافث) تحّدرت الأمم، والشعوب، والقبائل، وانتشرت على بقاع الأرض، ومن هؤلاء تستفرد التوراة بمتابعة أخبار أبناء سام على وجه الخصوص والذي أعتبر أباً لكل بني عابر:

ومن سام وُلد أرفكشاد، ومنه شالح، ومنه عابر، ومنه فالج، ومنه رعو، ومنه سروج، ومنه ناحور، ومنه تارح الذي ولد له ثلاثة أبناء هم أبرام (أي النبي إبراهيم)، وناحور، وهاران.

وبعد هذا التاريخ العام النسَبي للإنسان، وبالأخص أبناء سام الذي يعود إليهم العبرانيون حسب ما أتى في التوراة، يبدأ التاريخ الخاص بالعبرانيين على اعتبار أن إبراهيم يشكل الأب الأول لهم، على الرغم من أنه، وحسب التوراة نفسها، أب للعرب أبناء إسماعيل والعبرانيين أبناء إسحاق والذي رزق بولدين هما عيسو (أدوم) أو العيص كما جاء تسميته

عند العرب وهو أبو الآدوميين الذين انتشروا جنوب البحر الميت، ويعقوب (إسرائيل) أبو بني إسرائيل.

تبدأ قصة إبراهيم التوراتية بذهاب تارح بن ناحور من أور الكلدانيين في جنوب بلاد الرافدين ومعه ابنه أبرام (إبراهيم) وزوجته ساراي، وحفيده لوط ابن هاران ابن تارح إلى حاران في شمال وادي الرافدين، وهناك مات تارح «وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين»، ثم تابع الباقون رحلتهم إلى بلاد كنعان وكان عمر أبرام (إبراهيم) حينها ٧٥ سنة، وهناك في إحدى السنوات حلّ جوع في بلاد كنعان أضطر أبرام ولوط إلى أن يهاجرا إلى مصر، وكان إبراهيم قد طلب من زوجته ساراي (سارة) أن تدّعي عند دخولهم إلى مصر أنها أخته، وكانت امرأة حسنة المنظر، فأخذها الفرعون (على أنها عازبة حسب قول النبي إبراهيم) وأغدق بالكثير من الخيرات على إبراهيم، ولما اكتشف الفرعون أنها زوجة إبراهيم، وليست أخته حسب قوله، ردّها إليه ومعها جاريتها هاجر، وطلب منه أن يغادر مصر بكل الخيرات التي أغدقها عليه بعد أن «ضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة إبرام»، على الرغم من أن الفرعون حسب سفر التكوين، لم يقم بأي ذنب، بل إن إبرام هو من قام بالكذب على فرعون وباع عرض زوجته طمعا في مكاسب مادية حين طلب منها «قولي إنك أختي.. ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك»، فعاد إبراهيم وابن أخيه لوط ثانية إلى أرض كنعان، وهناك اختلفا لأن الأرض بمراعيها لم تحتمل أغنامهما التي كان فرعون مصر قد أغدق عليهما بها، فتفرقا بحيث ذهب لوط شرقا ليرعى أغنامه بالقرب من البحر الميت، وبقي إبراهيم في بلاد كنعان بين غابات البلوط على مقربة من مدينة حبرون (وهي مدينة الخليل حاليا حسب التمكين التوراتي)، وهي الأرض التي كان الرب قد وعده بها، أما لوط الذي كان نزيلا في منطقة سدوم وعمورة فقد أُسر وكل ممتلكاته وممتلكات مدينة سدوم التي كان يملك عليها بارع، ومدينة عمورة التي كان يملك عليها برشاع، ومدينة أدمة التي كان يملك عليها شنآب، ومدينة صوبييم التي كان يملك عليها شمئيبر، ومدينة صوغر التي كان يملك عليها بالع، من قِبل حملة عسكرية اشترك فيها ملوك ممالك ما بين النهرين (كدر لعومر ملك عيلام، وتدعال ملك جوييم، وأمرافل ملك شنعار، وأريوك ملك ألاسار)، فقام إبراهيم، الذي تحول فجأة من رجل بسيط أسير خلافات عائلية بين زوجته وسريته، إلى قائد عسكري بحيث يستطيع يقوم مع عبيده بملاحقة الغزاة بمنطقة دان في شمال بلاد كنعان وباغتهم ليلا وحرر لوط، وتبع الغزاة

إلى حوبة شمال دمشق، واستعاد منهم الممتلكات التي نهبوها، ولما عاد إبراهيم قام «ملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا وكان كاهنا لله العلي وباركه وقال مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض» تكوين: ١٤.

ولأن سارة لم تنجب من إبراهيم بنين فقد قامت بتقديم جاريتها هاجر لتكون زوجة له علّها تنجب له ذرية، وحملت هاجر من إبراهيم وولدت له بكره إسماعيل، و «كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر اسمعيل لأبرام» تكوين (يؤرخ لولادته سنة ١٧٩٤ ق.م حسب التزمين التوراتي)، وظهر الرب لإبراهيم ليؤكد له عهده معه على أن يكون هذا العهد هو الختان، وخُتن إبراهيم وكان عمره آنذاك ٩٩ سنة، وعمر إسماعيل ١٣ سنة.

وبُعيد ذلك، وبسبب خطايا وشذوذ أهل سدوم وعمورة، أحلّ الرب كارثة قضت عليهم، ولكنه أنقذ لوطاً وابنتيه والذين التجؤوا إلى إحدى المغارات القريبة حيث هناك نامت ابنتا لوط مع أبيهن لوط بعد أن سقتاه خمرا، فولدت الأولى موآب أبو الموآبيين (مأدبا في شرقي البحر الميت حسب التمكين التوراتي)، وولدت الثانية بن عمي أبو بني عمون (عمّان حاليا حسب التمكين التوراتي) شرقي نهر الأردن.

أما إبراهيم، ومرة أخرى، حصل معه ما كان قد حصل بينه وبين فرعون مصر مع أبي مالك (ملك الفلسطينيين) {والذي كان يتخذ من مدينة جرار الواقعة على بعد ١٣ كم من مدينة غزة إلى الجنوب الغربي عاصمة له} بحيث ادعى النبي إبراهيم أن سارة هي أخته (وكان عمرها أكثر من تسعين سنة) فاستحلاها أبيمالك، وهو الرجل التقي الورع حسب ما جاء في سفر التكوين، ولكن أبيمالك اكتشف الأمر قبل أن يدخل على سارة، فردها إلى زوجها أبرام، وبعدها مباشرة حملت سارة وولدت له إسحاق (يزمن ميلاده نحو سنة ١٧٧٠ ق.م) وهي ابنة تسعين سنة، وإبراهيم ابن مئة سنة، فطلبت سارة من إبراهيم أن يطرد جاريتها التي قدمتها لإبراهيم هاجر، وابنها إسماعيل وهو ابن إبراهيم البكر الذي تتحدث عنه التوراة في هذا الزمان على أنه غلام صغير، على الرغم من أنه حسب ميقات ميلاده يكون عمره بين خمسة عشر، وسبعة عشر عاماً، وهذا ما فعله النبي إبراهيم «فبكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار. ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد» تكوين ٢١، فبكت، فحدثها الرب، وطلب منها أن تحمل الغلام، حيث أبصرت بئر ماء، وفي بئر سبع عاش إسماعيل وأمه ونسله من بعده.

أما إبراهيم فبعد أن سوّى خلافا مع أبيمالك حول بئر كان قد حفره عبيد إبراهيم في البرية سماه - بعد أن ذبح سبع نعاج لوليمة المصالحة - بئر سبع، بعد ذلك امتحن الرب إبراهيم بأن طلب منه أن يقدم له إسحاق كقربان، ولما نوى إبراهيم أن يفعل ذلك، وتأكد الرب من تبعية وخضوع إبراهيم له، افتداه بكبش.

ولما ماتت سارة عن عمر ١٢٧ سنة في حبرون (حيث يسكن الحثيون وهي مدينة الخليل) اشترى من عوفر بن صوحر الحثي مغارة وحقل المكفيلة ودفن سارة فيها.

ولما شعر إبراهيم أن أيامه قاربت على المغيب بعث بخادمه إلى مدينة حاران في فدان آرام شمال وادي الرافدين، وأتى له برفقة بنت بتوئيل الآرامي أخت لابان الآرامي أبناء ناحور أخي إبراهيم وزوّجها لإسحاق، ومن ثم تزوّج إبراهيم وكان عمره قرابة ١٥٠ سنة من امرأة اسمها فطّورة فولدت له ستة أولاد هم: زمران ويقشان ومدان ومديان ويشبان وشوحا، وبعدها مات النبي إبراهيم عن ١٧٥ سنة.

أما إسحاق فقد حملت منه زوجته رفقة وولدت له توأمين: الأول (البكر) عيسو، والثاني يعقوب، وبعد زمان حصل جوع في الأرض فذهب إسحاق إلى بلاد الفلسطينيين في جرار، وكما حصل مع إبراهيم وأبي مالك حصل أيضا مع إسحاق الذي ادعى أن زوجته رفقة هي أخته، وهناك أصبح إسحاق - كما حصل مع إبراهيم - صاحب خيرات فطلب منه أبيمالك أن ينزل بعيدا عن المدينة ففعل إسحاق ونزل في وادي جرار.

وفي أحد الأيام جاء عيسو متعبا من الحقل فوجد شقيقه يعقوب يطبخ حساء العدس، فطلب عيسو من يعقوب أن يطعمه شيئا ما من حسائه، فوافق يعقوب على ذلك مقابل أن يتخلى عيسو ليعقوب عن حقوق البكورية، الأمر الذي وافق عليه عيسو دون تردد، ولما بلغ عيسو من العمر /٤٠/ سنة تزوج من امرأتين حثيّتين، ولما دنت أيام إسحاق على المغيب طلب من ابنه البكر المحبوب عيسو أن يأتي له بصيد ليمنحه بركاته، ولكن أمه رفقة، التي كانت تحب يعقوب (ساكن الخيام) دون عيسو (الصياد)، طلبت من يعقوب أن يحضر لها جديين لتطبخهما، كما طلبت منه أن يلبس لباس عيسو، وأن يضع على يديه ورقبته جلد معزى (لأن عيسو كان رجلا مشعرا)، ويقدم لأبيه الضرير إسحاق الطعام على أنه عيسو ليحظى بمباركته، وهذا ما كان له.

ولما عاد عيسو بصيده الذي طلبه أبوه يعقوب، وعلم بما حصل غضب وعزم على قتل يعقوب، ولكن رفقة كانت قد هيأت ليعقوب سبل الهروب، وطلبت منه أن يذهب إلى بيت أخواله في حاران، وأن يتزوج من بنات خاله لابان، فبكّر يعقوب في الصباح ذاهبا، ولما حلّ

عليه المساء الأول في بيت إيل (التي يمكنها التوراتيون بالقرب من مدينة رام الله حاليا) ظهر له ملاك الرب ليؤكد له أنه وريث عهد الرب مع أبنائه من بعده، ولما وصل إلى حاران في شمال وادي الرافدين عمل لدى خاله لابان كراعياً لأغنامه لمدة سبع سنين مقابل أن يتزوج بابنته الصغرى راحيل، ولكن وبعد انقضاء المدة أدخل لابان على يعقوب ابنته الكبرى ليئة بدل راحيل، ولما أكتشف يعقوب ذلك في الصباح عاتب خاله الذي قال له اخدمني سبع سنين أخرى فأعطيك راحيل، وهذا أيضا ما كان، وبعد ذلك ولدت له ليئة (التي لم تكن قد ولدت قبل زواجه الثاني) رآوبين، ثم شمعون، ثم لاوي، ثم يهوذا، وبسبب غيرة راحيل فقد قدمت ليعقوب خادمتها بلهة ليدخل بها، فولدت له دان ونفتالي، ولما رأت ليئة أنها ما عادت تلد قدمت ليعقوب خادمتها زلفة ليدخل بها، فولدت له جاد ثم أشير، ثم عادت ليئة وولدت له يساكر ثم زوبولون ثم ابنة سمتها دينة، وأخيرا حملت راحيل وولدت يوسف.

وحينها بدأ يعقوب يخطط للهروب من حاران (بعد أن كان قد أمضى عند خاله قرابة عشرين عاما)، وبعد أن أخذ أجرته كل الأغنام ذات اللون غير الصافي (المرقطة والمخططة) من قطيع خاله لابان الذي كان نصيبه كل الأغنام ذات اللون الصافي، وبينما كان أولاد يعقوب يرعون بحصة أبيهم من الأغنام المرقطة، تابع يعقوب الرعي عند خاله، ولكن من خلال خبرة يعقوب بعملية التلقيح بين الذكور والإناث كانت الأغنام تأتي بمواليد مخططة، وكان يضيفها إلى أغنامه التي يرعى بها أبناؤه، وفي إحدى الليالي، وبعد أن شعر يعقوب أن خاله يشكك في أمانته، اتفق مع زوجاته على الهروب من حاران، وبعد أن قامت راحيل بسرقة أصنام والدها، ولّى يعقوب وجهه نحو جبل جلعاد (في شرقي الأردن - محافظة السلط حسب التمكين التوراتي) مع زوجاته الأربع وأبنائه الاثني عشر، دون أن تذكر التوراة كيف اجتازت عائلة يعقوب بكل ممتلكاتها نهر الفرات، وبعد ثلاثة أيام لحق بهم لابان، وقد أدركهم بعد سبعة أيام في جبل جلعاد، وهناك وبعد أن فتش عن أصنامه في الحاجيات فلم يجدها لأن راحيل - التي كانت قد سرقتها - جلست فوقها ولم تقم بحجة أنها حائض، وهكذا عاد لابان أدراجه، وتابع يعقوب طريقه، فبعث إلى عيسو أخيه الذي كان يسكن في أرض سعير أو أدوم جنوب البحر الميت يخبره بوصوله وبذلك يجس ردة فعله مما يعطيه فرصة للهروب فيما لو كان عيسو ما زال يضمر له الشر انتقاما منه على سرقته مباركة أبيه، «ثم قام في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة يبوق. أخذهم وأجازهم الوادي وأجاز ما كان له. فبقي يعقوب

وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه. فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت» تكوين: ٣٢، ثم جاء عيسو لاستقباله واحتضن يعقوب (إسرائيل) وبكى متناسيا ما قد فعله معه، ثم نزل يعقوب في شكيم (نابلس حسب التمكين التوراتي) بعد أن ابتاع من حمّور أبي شكيم حقلا أقام فيه مذبحا دعاه إيل إله إسرائيل.

وقد حدث أن شكيم ابن حمور أقام علاقة جنسية مع دينة بنت يعقوب وانتشر الخبر، فذهب حمور بدافع أخلاقي ليخطبها، فوافق يعقوب وأولاده شريطة أن يقوم كل ذكور مدينة شكيم بالاختتان، فوافق أهل مدينة شكيم على هذا الشرط، وفي اليوم الثالث لاختتانهم وكانوا متألمين قام ابنا يعقوب شقيقا دينة شمعون ولاوي وقتلا جميع الذكور، وسلبا كل خيرات المدينة، وأسرا جميع إناثها، وبعد هذه الحادثة ارتحل يعقوب وأهل بيته نحو الجنوب، وفي الطريق بنى يعقوب (إسرائيل) مذبحا في بيت إيل أسماه إيل بيت إيل، ومن ثم تابعوا طريقهم حيث ولدت راحيل بنيامين وماتت مباشرة، وهم في طريقهم إلى مجدل عدر.

وبعد هذه الأحداث «جاء يعقوب إلى إسحاق أبيه إلى ممرا قرية أربع التي هي حبرون. حيث تغرب إبراهيم. وكانت أيام إسحاق مئة وثمانين سنة. فأسلم إسحاق روحه ومات وانضم إلى قومه شيخا وشبعان أياما. ودفنه عيسو ويعقوب ابناه» تكوين ٣٥، وبعد زمان، وكان يوسف قد بلغ السابعة عشرة من عمره، وكان الأحب عند أبيه، ولذلك كان محل حسد من أخوته، والذين كانوا يتربصون به، وفي إحدى المرات، وكان يعقوب نازلا في حبرون (الخليل) بعث بيوسف إلى أخوته الذين يرعون في شكيم (نابلس)، وهناك تآمروا عليه وأسقطوه في بئر ناضب، وإلى هناك جاءت جماعة من التجار من بني إسماعيل (المديانيين)، فباع أبناء يعقوب أخاهم يوسف لهم بعد أن أخذوا قميصه ولطخوه بدم المعزى، وذهبوا به إلى أبيهم، وادعوا أن وحشا قد افترسه.

وبعد ذلك تزوّج يهوذا ابن يعقوب بامرأة كنعانية، ورزق منها بثلاث بنين هم عير وأونان وشيلة، ولما كبر عير تزوج بامرأة اسمها ثامار، ولما مات عير، أعطاها يهوذا لأونان زوجة، والذي أيضا مات، فأعاد يهوذا كنته إلى بيت أهلها بعد أن وعدها أن يزوجها بابنه الثالث شيلة الذي ما زال صغيرا، ولما كبر شيلة بدأ يهوذا يماطل في وعده لها خوفا من أن يموت كأخويه، فما كان من ثامار إلا أن تنكرت بزي زانية وعرضت

نفسها على يهوذا الذي نام معها مقابل جدي معزى، فحملت منه وولدت له توأمين هما فارص وزارح.

أما بالنسبة ليوسف فقد قام التجار الإسماعيليون (أو المديانيون) ببيعه في مصر إلى رئيس شرطة الفرعون الذي أوكله على كل ممتلكاته، وقد أُغرمت به زوجة سيده لجماله الأخاذ ولكنه كان يشيح بوجهه عنها، وفي إحدى المرات راودته على نفسه فأبى، فما كان منها إلا أن أمسكت به من قميصه، فخلعه وهرب منها فأخذت تصيح وادّعت أنه أتى يراودها على نفسها، وبذلك أودعه سيده السجن، وهناك اشتهر بقراءته وتفسيره للأحلام، وقد حلم الفرعون في إحدى الليالي حلما فلم يقدر أحد على تفسيره، فاقترح سقاي الفرعون - الذي كان سجينا مع يوسف - أن يأتي بيوسف، فأتى به الفرعون ليفسر له حلمه الذي كان قد رأى فيه سبع بقرات سمان تخرج من النهر ثم تلحق بها سبع بقرات هزال فتأكل السبع السمان، ثم رأى سبع سنابل ممتلئة تصعد وتلحقها سبع سنابل أخرى ذميمة فتأكل السمان، ففسره يوسف أنه سيأتي سبع سنين غلال تلحقها سبع سنين عجاف، واقترح على الفرعون أن يتم خزن الفائض من السنين الغلال من أجل السنين العجاف، فوافق الفرعون، وبعد أن أطلق اسما فرعونيا على يوسف هو صفنات فعنيح، وكان عمر يوسف حينها ثلاثين عاما، عين فرعون مصر يوسف الرجل الثاني بعد الفرعون نفسه، وفرض ضريبة على المصريين مقدارها الخمس على حاصلات الزرع، وبعد سنوات الغلال السبع جاءت السنوات العجاف ففتح يوسف المخازن لبيع القمح للشعب.

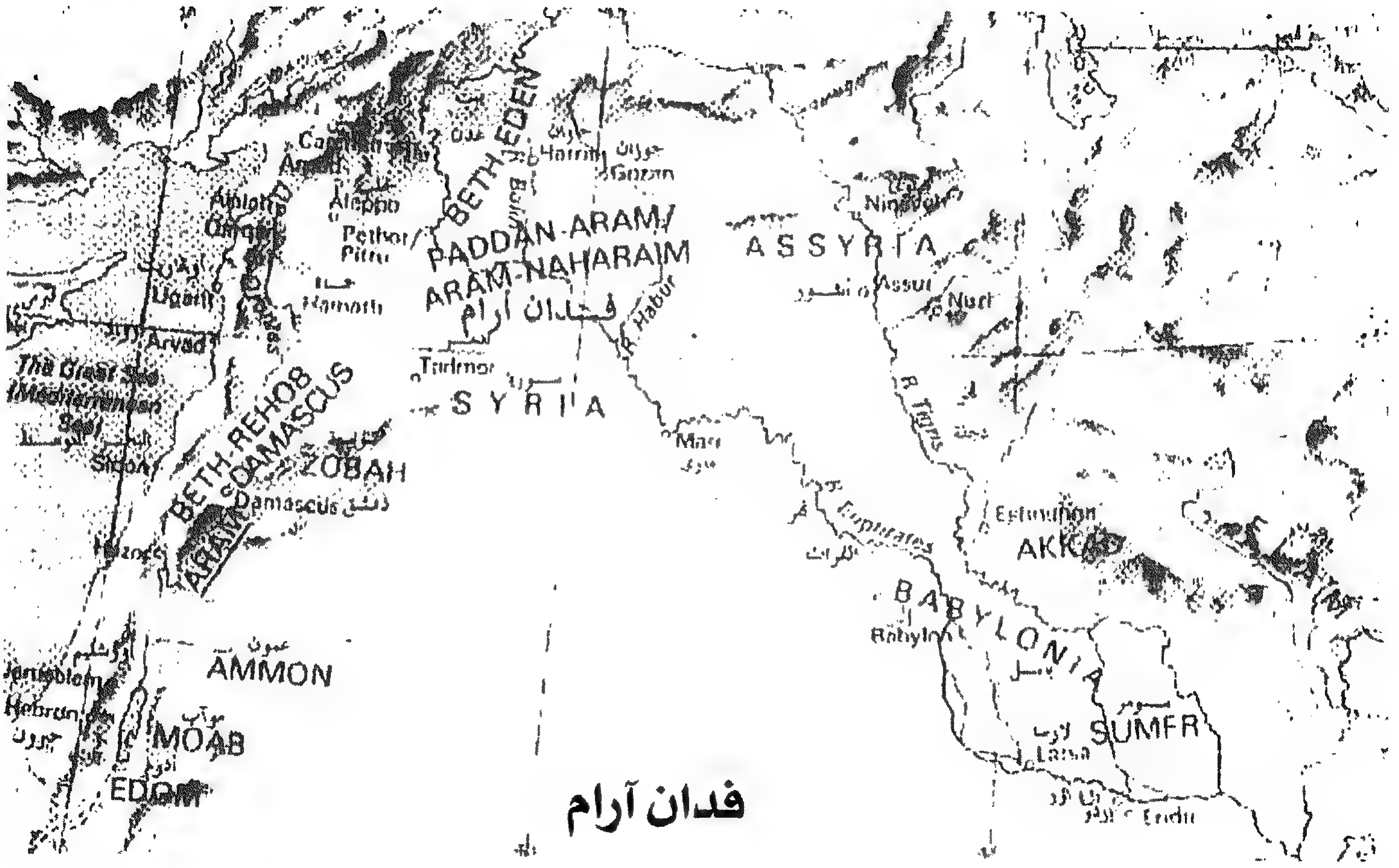
وكان الجوع الذي حدث في مصر، قد حدث أيضا في بلاد كنعان، فبعث يعقوب أبناءه (عدا أصغرهم بنيامين شقيق يوسف) إلى مصر ليشتروا القمح من هناك، وهناك عرفهم يوسف دون أن يكشف الأمر لهم، واتهمهم بأنهم جاؤوا ليتجسسوا على مصر، فحكوا له قصتهم، فطلب منهم - بعد أن حمّلهم بالقمح ووضع نقودهم في عدولهم دون علمهم - أن يأتوا بأخيهم بنيامين (شقيق يوسف) على أن يبقى شمعون عنده رهينة، ولما عادوا إلى أبيهم يعقوب لم يقبل بذلك، ولم يأبه لاحتجاز ابنه شمعون، ولكن، وبعد أن انتهى قمحهم خضع يعقوب للأمر وبعث بهم ومعهم بنيامين إلى مصر، وهناك وبعد أن أكرمهم يوسف وردّ لهم شمعون، وملأ عدولهم قمحا وضع طاس ماء من الفضة في عدل بنيامين ومضوا ناكصين إلى بلاد كنعان، فأتبعهم يوسف برجاله واتهموهم بسرقة الطاس وقالوا لهم من نجد لديه الطاس يصير خادما لسيدهم يوسف، ولما فتشوا العدول

وجدوه عند بنيامين فعادوا جميعا إلى عند يوسف الذي كشف لهم عن نفسه وردهم إلى أبيهم ومعهم الخيرات والعجلات (العربات) ليعودوا بأبيهم يعقوب وكل أفراد العائلة، وهذا ما جرى، ورحل يعقوب وأولاده إلى مصر حيث استقبل موكبهم يوسف في أرض جاسان (في أرض رعمسيس بالقرب من الدلتا) وهناك أسكنهم (يزمّن لذلك سنة ١٦٥٦ ق.م).

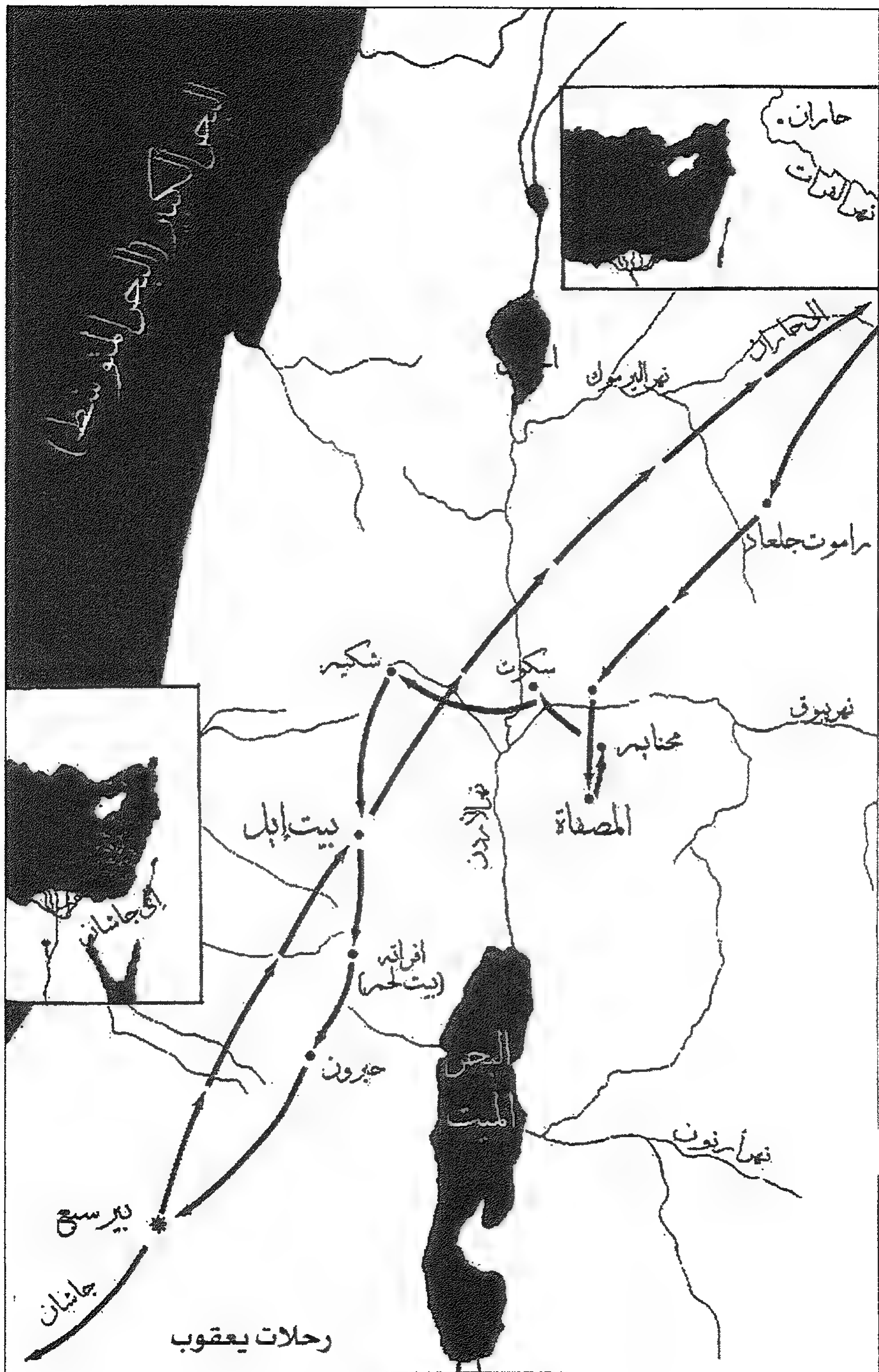
وبسبب المحل قام المصريون ببيع جميع ممتلكاتهم إلى الفرعون مقابل القمح بما فيها الأرض، وبذلك استطاع يوسف من خلال معرفته لتفسير الأحلام، ونبوءته لما سيحصل في المستقبل استغلال الشعب المصري لمصلحة الفرعون بحيث صار الشعب يعملون كأجراء في الأراضي التي كانت لهم، وصار عليهم دفع خُمس إنتاج الأرض لخزينة فرعون، وفي جاسان وبعد أن أقام فيها يعقوب مدة ١٧ سنة مات عن عمر ١٤٧ سنة (يزمن ذلك سنة ١٦٣٩ ق.م) بعد أن أوصى ابنه يوسف بأن يدفنه مع آبائه في بلاد كنعان، فحنطه أطباء مصر وصعد يوسف مع وفد كبير إلى بلاد كنعان ودفنوه في مغارة المكفيلة في حبرون (الخليل)، وبعد زمان مات يوسف عن عمر ١١٠سنة بعد أن أوصى أخوته أن يحملوا رفاته معهم عند عودتهم إلى أرض كنعان وقد تم تحنيطه كما تم تحنيط يعقوب من قبل، وهنا تنتهي قصة الآباء الأوائل.



موقع حاران


BETH-EDEN
Harran
Gozan
Aleppo
Pethor/
Pitru
PADDAN-ARAM/
ARAM-NAHARAIM
فدان آرام
R. Habur
Hamath
Ugarit
Arvad
The Great Sea
(Mediterranean
Sea)
Sidon
BETH-REHOB
DAMASCUS
ZOBAH
Damascus
دمشق
Tadmor
SYRIA
Mari
ASSYRIA
Nineveh
Assur
Nuzi
R. Tigris
Euphrates
Eshnunna
AKKAD
BABYLONIA
Babylon
بابل
SUMER
Larsa
لارسا
Eridu
Jerusalem
Hebron
AMMON
عمون
MOAB
موآب
EDOM
أدوم

فدان آرام



البحر الكبير (البحر المتوسط)
حاران
نهر الفرات
الى حاران
نهر اليرموك
راموت جلعاد
شكيم
سكوت
محنايم
نهر يبوق
المصفاة
بيت إيل
نهر الأردن
إلى جاشان
افراته
(بيت لحم)
حبرون
البحر الميت
نهر أرنون
بير سبع
جاشان

رحلات يعقوب

قراءة في النص
لمرحلة الآباء الأوائل

إن التأريخ التوراتي في الأسفار الأولى (التوراة) عبارة عن مجموعة من القصص بعضها ذو نمط أسطوري (قصة نوح)، وبعضها يعود إلى نمط الحكايات شعبية (قصة يوسف)، وبعضها ذو نمط خرافي (قصة النبي بلعام)، وبعضها يعود إلى الحكايات البطولية مثل قصة شمشون، وهذه القصص تعود إلى عدة أزمنة، وإلى عدة حضارات، وتعكس عقلية شعبية بدائية هدفها التركيز على جماعة معينة لتعزيز ترابطها، ومنحها معطيات قومية وعرقية أثنية، وإيجاد مرجعية تاريخية لما سيدور من أحداث وحوادث في مراحل زمانية لاحقة، وقد سردت تلك القصص بقصد تأريخها، وتم تدوينها في مرحلة زمنية بعيدة عن الأحداث المفترض أنها حدثت فيه، حاول من خلالها المحرر التوراتي تقسيم شعوب المنطقة في الشرق القديم بشكل مجازي ترميزي، اختزالي، وعلى عكس الفكر اللاهوتي التقليدي الذي يقوم أساسا على تجاوز التاريخ انتصارا للإنسان على طبيعته البشرية بمعناها الفيزيائي، قام المحرر التوراتي بإخضاع اللاهوت للتاريخ.

إن الإحداثيات التاريخية كما بينا سابقا تعتمد على محورين أساسيين هما الزمان، والمكان، ولأن التأريخ التوراتي ليس تاريخيا، لذلك، وبدل أن يكون الزمان التاريخي خطياً مستمراً (فقاري) كان زمانا مركبا متراكبا ومتقطعا أيضا (لافقاري)، أي أنه ليس بزمان تاريخي كرونولوجي (تطوري، فيزيائي) بل هو زمان ديني ميثولوجي، ولو حاولنا اعتبار الزمان التوراتي تاريخيا فعلينا أن نقبل أن أول إنسان وجد على وجه الأرض (آدم) كان سنة /٣٩٠٣/ قبل الميلاد، أي منذ /٥٩٠٦/ سنة فقط (حرر هذا الكتاب سنة /٢٠٠٣/ بعد الميلاد)، أما طوفان نوح فقد حصل سنة /٢٢٤٧/ قبل الميلاد، أي قبل /٤٢٤٠/ سنة فقط من تحرير هذا الكتاب /٢٠٠٣/ بعد الميلاد، أي أن الستة مليارات، وما يزيد من البشر، قد تكاثروا عن أولاد نوح الثلاثة خلال هذا الزمن.

أما بالنسبة للمحور الأفقي الذي يمثله المكان، فإن التأريخ التوراتي مليء بالأخطاء الجغرافية التي تدل على أن الزمان الميثولوجي ركّب على مكان أريد له أن يشكل حالة

جغرافية، وكاستشعار مبدئي على لا معقولية، ولا تاريخية المكان يمكن أن نسوق قصة الطوفان الذي استمر لمدة أربعين يوما، واحتاج حتى ينحسر لمدة سبعة شهور، وسبعة أيام (وهي الأرقام المقدسة لدى اليهود كما سنرى لاحقا)، «فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء. خمسة عشر ذراعا في الارتفاع تعاظمت المياه. فتغطت الجبال. فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض» تكوين ٧، ومقياس الذراع في العهد القديم كان يساوي ٤٥ سم فهل يعقل لمياه بعمق ٧ أمتار أن تغطي جميع الجبال بما فيها قمة إيفرست.

وملخص القول، إن التأريخ التوراتي يتركب من مجموعة من الحكايات، والأساطير، والخرافات، وتواريخ لأمم متنوعة عرقيا واجتماعيا وفكريا أنتحلها كهنة اليهود في مرحلة ما بعد السبي البابلي، وحاولوا إسقاطها، وإقحامها على زمان فيزيائي معين، ومكان جغرافي محدد مما أدى إلى تشكيل نص فسيفسائي الشكل أرادوا له أن يحاكي الحقيقة، وادعوا ماضيا في زمان لم يترك لنا الكثير من المعطيات التاريخية لتفنيد الادعاءات الكهنوتية اليهودية، وخير مثال يمكن أن نسوقه هنا هو أسطورة التكوين التوراتية، والتي قام اليهود بالاعتماد على أكثر من رواية في تحريرها مما أدى إلى تفككها، وافتقادها للانسجام، وإعطائها الشكل الرقمي، لا سيما إذا ما قارناها بأساطير التكوين البابلية التي دونت في سياق الألف الثاني قبل الميلاد، والتي تعتبر من أجمل الأساطير التي خلفتها الشعوب القديمة.

إن التاريخ، كما سبق، هو حركة أو تمسرح الأحداث بين محوري الزمان - المكان (الزمكان)، وللزمان حركتان، الأولى منهما دائرية متكررة، مغلقة تشكل الحركة الرئيسية الفاعلة، وهي التي تؤدي إلى الحركة الثانية الخطية الانسحابية التي تشكل الحركة الثانوية المنفعلة، أي بمعنى أنها تشبه تماماً حركة العجلة التي تدور حول محورها بشكل دائري متكرر، وبذلك تتقدم خطيا إلى الأمام، إن اليوم يشكل حركة دائرية ترتبط بدايته بنهايته بشكل مباشر، فلو اعتبرنا أنه يبدأ في لحظة ما من الفجر على سبيل المثال، فإنه ينتهي في نفس اللحظة أيضا، ولكن بتكرار هذه الحركة تتشكل الشهور أو الفصول، والتي بتعاقبها وتكررها تتشكل السنون، وهكذا دواليك، وبذلك فإن للتاريخ أيضا نفس الحركتين، فهو يكرر نفسه، ولكن بما يكفل له التقدم إلى الأمام، إي أن الزمان المجرد هو دائري الشكل بحيث إن اليوم يتكرر بشكل دائم، ولكن حين نتحدث عن زمان تاريخي فإن اليوم يصبح له اسم وتاريخ محدد، وهو لا يتكرر أبدا، فاليوم على سبيل المثال الذي يحمل تاريخ ٢٠٠٤/٧/١٠، سيطويه الزمن دون أن يستعاد ثانية، وبذلك يصبح خطيا ذا دلالة تاريخية.

إن الزمان الخطي المتواصل والمتسلسل (الفيزيائي - الفقاري - الكرونولوجي) يشكل المحور العمودي للتاريخ، أما المكان فيمثل المحور الأفقي للتاريخ، وبين فضاء المحورين يتشكل المسرح الذي تتحرك ضمنه الأحداث التاريخية، وحين قام اللاهوتيون بإخضاع وتدجين الزمان الميثولوجي التوراتي في حظيرة التاريخ وجعله زمانا تطوريا طبيعيا (كرونولجيا)، نشأت عدة فجوات زمانية اضطرت المحررين التوراتيين إلى سد تلك الفجوات بطرق متعددة، ولكنها بقيت المساحات الأكثر ضعفا وعريا في التأريخ التوراتي، ومن الطرق التي قام بها محررو التوراة لتأريخ الروايات والقصص والخرافات مط طرفي الزمان وربطهما مع بعضهما، وهذا ما أدى إلى أن يصل متوسط أعمار بعض الأجيال إلى ما يزيد على مئة سنة بكثير، ومن الطرق أيضا وضع رقع بين طرفي الزمان المقطوع، والبعض يعتبر أن قصة يوسف هي ليست سوى رقعة، أو وصلة وضعها كتبة التوراة كي تقوم بربط عبرانيي الآباء الأوائل في بلاد كنعان، مع عبرانيي مصر، كما قاموا بوضع وصلة زمانية بين مرحلة الآباء الأوائل (إبراهيم - إسحق - يعقوب - يوسف)، ومرحلة الخروج من مصر بقيادة النبي موسى الذي دام قرابة أربعة قرون، والذي لخصه محررو التوراة بخضوع الجماعات العبرية لأعمال السخرة في مصر، حين أعطوا لليهود وظيفة بناء مخازن فيثوم ورعمسيس.

يبدأ تاريخ بلاد كنعان حسب التأريخ التوراتي بدخول الآباء الأوائل (إبراهيم - إسحاق - يعقوب - يوسف)، أما ما قبل ذلك، حسب التأريخ التوراتي، فلا يوجد زمان سياسي لتلك البلاد، بل مرحلة ضبابية يمكن تسميتها بمرحلة ما قبل التاريخ، أو المرحلة الجاهلية التي لا يعني لها الزمان شيئا، وهذه المرحلة الجاهلية والتي طمست تماماً من قبل التأريخ التوراتي كانت الخلفية المبهمة التي تم رسم التشكيل التأريخي العبري عليها، أما بالنسبة للمكان والجغرافيا ما قبل التأريخ العبري فليس هناك سوى ذكر غامض لمكان لا يشكل جغرافيا سياسية محددة يعيش عليه أفراد أو قبائل أو مجتمعات لا تحمل هوية حضارية أو حتى عرقية، وما تلك الجماعات البشرية الأصلية سوى نزلاء في فندق، أو جاليات مرتزقة على الأرض، تأكل من فتاتها بانتظار مجيء أصحاب الأرض الذين سجلت باسمهم حسب السجلات اللاهوتية، وقد قام محررو التوراة بتغيير أسماء المدن والمواقع الجغرافية إلى أسماء جديدة تتعلق بحيثيات توراتية، وقد تم اختلاق مجموعة من القصص التي يفترض أنها تنتمي إلى تاريخهم والتي غايتها الوحيدة هي إعطاء المسوغ لإطلاق تسميات عبرانية للمواقع الجغرافية كما تم تسمية بئر السبع على سبيل المثال، وبذلك تم استلاب الزمان والمكان الكنعانيين، وبالتالي التاريخ الكنعاني بشكل كامل، أو على الأقل، تم تفريغ المحتوى التاريخي للكنعانيين من البعد الحضاري بشكل نهائي.

لقد قامت التوراة بتأريخ المكان من خلال حركية شخصيات الآباء التاريخيين الأوائل، وهذه الحركية أعطت أبناءهم (الأثنيين، والثقافيين)، ومن انتمى إليهم حق استعادة هذه الرحلة المقدسة، وحق امتلاك المكان المقدس الذي تمسرحت عليه رحلة الآباء المؤسسين المقدسين، والحق في القداسة، ينتقل من الآباء إلى الأبناء الذين يشكلون جماعة مقدسة لها تاريخ مقدس يتمسرح في زمكان مقدس، بل وينتقل معه فرض قداسة السلوك والتصرفات التي تحولت إلى شريعة مقدسة أيضا.

إن سفر التكوين الذي سرد قصة الآباء الأوائل، لا يمكن اعتباره مرجعا تاريخيا لأنه لا يحمل أي مكون من مكونات التاريخ الطبيعي، فالمركب الزماني فيه ذو طبيعة دينية ميثيولوجية ميتافيزيقية، لأنه:

أولاً.. لو قبلنا أن الزمان في سفر التكوين هو زمان فيزيائي تاريخي فإن ذلك يعني أن آدم - وهو صاحب الاسم المجازي المشتق من الأديم أي التراب - وحواء (المشتقة من الحياة) هبط من الجنة كأول إنسان منذ ما لا يزيد عن ستة أو سبعة آلاف سنة، وهذا لا يمكن قبوله من خلال النهج العقلي الذي يقول إن البشر وجدوا على الأرض منذ ما يزيد عن ملايين من السنين، وآثارهم القائمة في أكثر من موقع من بلاد كنعان محور بحثنا لهو دليل لا يحتاج إلى الغوص في هذا الموضوع البديهي.

ثانياً.. إن أعمار البشر كما أتت في التوراة لا يمكن قبولها علميا، لأن البحوث التاريخية الإنسانية الأنثربيولوجية تؤكد أن متوسط أعمار الإنسان في العصور الأكثر قدما هي إن لم تكن أقل من متوسط الأعمار في العصور الأحدث، فهي على الأقل متماثلة معها، وما إطالة أعمار الآباء الأوائل إلا تغطية، أو ترقيع لمساحات من الزمان الديني الذي أريد له أن يكون تاريخيا.

هذا بالنسبة لتاريخ أسلاف الإنسان كما ورد في التوراة، أما بالنسبة لتاريخ الآباء الأوائل لليهود، وبسبب الازدواجية النصية في سفر التكوين، فقد ذهب أكثر الباحثين إلى أن قصة الآباء الأوائل تعود إلى ثلاث مجموعات تراثية، أو مجموعتين على الأقل، تم إدخالهما مع بعضهما وأعيد تحريرهما، وأن أبرام وإبراهيم، ويعقوب وإسرائيل، وساراي وسارة، وعيسو وأدوم، وغير ذلك من الثنائيات هم أشخاص في أكثر من قصة أو رواية تم دمجهما مع بعضهما، وكذلك الأمر بالنسبة لثنائية الإله إيل، والرب (يَهْوَه)، وهذه النظرية يمكن أن تفسر لنا الكثير من التناقضات الواردة في سفر التكوين لا سيما بالنسبة لأعمار الآباء الأوائل، ولتكرار بعض القصص مع أكثر من شخص، وهو أيضا ما يفسر وجود روايتين

فيهما الكثير من الاختلاف لبعض القصص والأحداث، منها روايتا التكوين والخلق، وروايتا الطوفان، وروايتا قصة التخلص من يوسف التي ترد في سفر التكوين أن أخوته قد باعوه للإسماعيليين مباشرة، وفي رواية أخرى يرد أن المديانيين سحبوه من البئر الجاف بعد أن ألقاه أخوته فيها، وكلاهما، المديانيون والإسماعيليون، وحسب النسب التوراتي، لم يكونا قد تشكلا كشعوب، وبعض الباحثين يذهب إلى أن أبرام هو جد إبراهيم وهذا ما يفسر أن سارة كانت جميلة وهي بعمر ١٠٠ سنة، وبالتالي هي زوجة إبراهيم حفيد أبرام، وبسبب دمج الشخصيتين في شخصية واحدة أدى إلى هذه المفارقة.

ثالثاً.. إن قصة النبي إبراهيم مع أبيمالك (أبي مالك)، والذي كان إبراهيم قد قدم زوجته سارة لأبيمالك على أنها أخته؟، (كما كان قد فعل الشيء نفسه مع الفرعون عندما ذهب إبرام إلى مصر إثر الجفاف والجوع الذي حل في بلاد كنعان)، وقد أخذ أبيمالك سارة كسرية أو جارية إلى بيته، وكان عمرها قرابة التسعين سنة، فهل هي تصلح كسريّة في مثل هذا العمر؟، وتتكرر القصة تماماً مع ابنه إسحاق وزوجته رفقة ولكن بعد قرابة القرن من الزمان، ومع أبيمالك نفسه، فهل أبيمالك ما زال شابا بعد قرابة القرن بحيث يأخذ رفقة كسرية أيضا.

وإذا ما قبلنا أن أبيمالك قد عمّر طويلا، أو أنه لقب وليس اسما، أو أن هنالك أبيمالك الأول، وأبا مالك الثاني الذي قد يكون ابنا أو حفيدا لأبيمالك الأول، فكيف لقائد جيشه المدعو فيكول أن يبقى قائدا للجيش هذا الردح الكبير من الزمان، فقد دارت القصة مع إبراهيم عندما كان عمره دون المئة سنة، ومات عن عمر ١٧٥ سنة، أما القصة التي تمت مع إسحاق فكانت بعد موت إبراهيم بزمان يكفي ليكون ابناه قد بلغا الرجولة، وبمعنى آخر ربما امتد الزمان بين القصتين قرابة ١٠٠ سنة، فهل يعقل هذا؟!.

ثمة نقطة أخرى يُدخل المحرر التوراتي السفر فيها دون أن يستطيع إخراجه منها، وهي أن أبيمالك (والذي كان يدين بالدين الحنيف المتمثل بالإله إيل، والذي كان منتشرا في بلاد كنعان حسب ما يتبين من التوراة) عندما أخذ سارة كسرية له، وجاءه ملاك الرب في تلك الليلة ليقول له إن المرأة متزوجة ويجب أن يردّها إلى زوجها قبل أن يمسها فيموت، فقام أبيمالك بردها في اليوم الثاني لإبراهيم وعاتبه على فعلته، فاعتذر له إبراهيم وقال إنها «أختي ابنة أبي. غير أنها ليست ابنة أمي. فصارت لي زوجة» /تكوين٢٠/، وأعطى أبيمالك الكثير من الخيرات غنما وبقرا وإماء وألفا من الفضة «فصلى إبراهيم إلى الله. فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن. لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم»

/تكوين٢٠/، إن القصة تظهر أن أبيمالك لم يقم بأي فعل يدينه لأنه لم يمس سارة فلما يدفع بكل هذه الخيرات من المواشي والفضة لإبراهيم، ثم لماذا يصلي إبراهيم طالبا المغفرة لأبيمالك، ثالثا وهي النقطة المهمة التي يقول المحرر فيها إنه حل العقم على نساء بيت أبيمالك بسبب سارة التي لم يمسها، والتي لم تدم قصتها مع أبي مالك أكثر من ليلة واحدة، فهل هي كافية لتشخيص حالة عقم حلت بكل نساء أبيمالك..؟؟، وفي كلا القصتين، قصة إبراهيم مع فرعون مصر، ومع أبي مالك، فإن الفرعون، وأبيمالك لم يضاجعا سارة، بل اكتشفا كذب إبرام قبل أن يمسّاها، وكأن المحرر التوراتي لم يشأ أن تُذل جدة اليهود الأولى في مضاجع غير اليهود.

رابعاً.. إن أبيمالك والذي هو ملك الفلسطينيين في جرار، والذي عاصر الآباء الأوائل الذين يؤرخ لهم ما بين القرن التاسع عشر والسابع عشر ق.م، في الوقت الذي لم يكن للفلستيين ذكر أو وجود في منطقة الشرق الأدنى، وهم الذين قدموا من بحر إيجة واستوطنوا على الشريط الجنوبي للساحل الغربي للبحر الأبيض المتوسط بعد أن استطاع فرعون مصر رعمسيس الثالث (١٢٢٢ - ١١٧٠ ق.م) من طردهم قبل تمكنهم من الدخول إلى مصر، وبالطبع هذا أيضا ينطبق على الحثيين الذين تقول التوراة إنهم كانوا أصحاب حبرون (مدينة الخليل) ومنهم كان إبراهيم قد اشترى مغارة وحقل المكفيلة وهي التي يعتقد أن الحرم الإبراهيمي الشريف مقام عليها، والجدير ذكره هنا أن التوراة اعتبرت الحثيين (بني حث) هم من بني حث بن كنعان، أي أن الحثيين الذين كانوا يقيمون في الخليل هم من الكنعانيين، فهل حثيو بلاد كنعان يختلفون عن حثيي الأناضول، أما بالنسبة للحوريين فإن التوراة تعيدهم إلى بني سعير، أي إنهم من أبناء أدوم، فهل هم أيضا يختلفون عن الحوريين الذي كانت عاصمتهم واشكاني في الشمال الشرقي من سورية.

أما بالنسبة للآراميين فالمحرر التوراتي يتحدث عن حاران أنها مدينة آرامية، وأن النبي إبراهيم وقبيلته من أصول آرامية في الوقت الذي لم تكن القبائل الآرامية (باسمها) قد هاجرت أو شكّلت كياناً سياسياً حضارياً في بلاد الشام والتي يردّها المؤرخون إلى الفترة ما بين ١٥٠٠ - ١٣٠٠ قبل الميلاد (البعض يعيدون بدء تشكلهم إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، على اعتبار أن الآراميين هم الاسم الأحدث للعموريين)، ولكن على الأقل لم يكونوا قد شكلوا إماراتهم، والتي يأتي المحرر التوراتي على ذكر إمارة آرام النهرين، كما يرد في سفر التكوين أيضا أن إبراهيم خرج من أور الكلدانيين قبل أن يتم تشكل الكلدان تاريخيا بعد، والذين يعودون إلى الألف الأول قبل الميلاد، وسفر التكوين لم يحاول أن يوضح لماذا انتقل

إبراهيم إلى حاران في الشمال، ومن هناك انتقل إلى أرض كنعان، أي لماذا لم ينتقل مباشرة من مدينة أور في جنوب العراق إلى بلاد كنعان مباشرة عبر سورية الداخلية، ويبدو أن محرري التوراة في بابل الكلدانية حاولوا أن يجعلوا من إبراهيم كلدانيا، كي يوجدوا - بسبب الرهق النفسي - ولنوع من الدجل رابطة تربط بين الأب الأول التوراتي لليهود وبين الكلدان، ويمكن أن نشير هنا إلى أن سفر التكوين لم يأت على ذكر الهيمنة الفرعونية على بلاد كنعان، كما يمكن أن نضيف أيضا أن الآباء الأوائل كان لديهم حسب ما جاء في سفر التكوين من المواشي الإبل، ومن المعروف أن الجمل تم تدجينه بشكل واسع في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، بينما يورد سفر التكوين أن إبراهيم ويعقوب قد امتلكا الإبل، وإن كان الجمل قد دجن في مرحلة سابقة لذلك، ولكن بشكل ضيق جدا في منطقة الهلال الخصيب، وتشير بعض التصاوير والنقوش التي وجدت في أماكن متفرقة من منطقة شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب أن الجمل قد بدأ بتدجينه فيما بين الألف السابعة والألف الخامسة قبل الميلاد، وهناك من يعتقد أن موطن الجمل كان محيط بحر قزوين، وقد جاء مع الشعوب الحورية وانتشر في الشرق الأدنى، وكذلك الأمر بالنسبة للخيل والذي يعتقد أنها استقدمت من قبل الكاشيين والحثيين، ولكن تدجين الجمل بشكل واسع، والاعتماد عليه كثروة حيوانية يستفاد منه للنقل (كواسطة صحراوية)، كما يستفاد من وبره، ومن حليبه، ومن لحمه يعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقد جاء في الشريعة التوراتية أن الجمل حيوان غير طاهر، وهو محرم أكله، وربما أن ورود الجمل من ممتلكات الآباء الأوائل جاءت من إحدى الروايات التي أخذها اليهود وهودوها من قبائل عربية تعيش في شبه الجزيرة العربية.

- خامساً.. إن سارة التي طلبت من إبراهيم أن يطرد ضرتها هاجر، وهي التي كانت جارية لها، وقد أعطتها لإبراهيم زوجة ليكون له منها ولد، فولدت هاجر من إبراهيم إسماعيل، ولكن وبعد أن ولدت سارة إسحاق بعد أربع عشرة سنة من مولد إسماعيل، قررت طرد هاجر مع ابنها إسماعيل، والذي كان يزيد عمره عن ست عشرة سنة، لأن حادثة الطرد تمت بعد أن كانت سارة قد فطمت إسحاق، أي بعد قرابة سنتين من ولادته، وهذا يعني أن عمر إسماعيل كان حينها يزيد على ست عشر سنة، وهذا يعني أنه أصبح رجلا لا سيما وأن البدو يبلغون مرحلة الرجولة في أعمار مبكرة، وهذا ما جعل سارة تشعر بالضيق من إسماعيل الذي أصبح شابا، ويبدو أنه قد أغاضها «ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح، فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق» تكوين ٢١، ولكن التوراة في معرض حديثها عن طرد

هاجر تُظهر أن إسماعيل كان رضيعا أو طفلا صغيرا بحيث حملته أمه على كتفها مع الخبز والماء وتاهت به في برية بئر سبع «فبكّر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار. ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت. فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها ما لك يا هاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به. لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام» تكوين: ٢١.

ويمكن أن نضيف لما سبق، قيام المحرر بجرة قلم فيأتي بمن يخبر إبراهيم أن أخاه ناحور قد ولد له ثمانية من البنين بعد رحيل إبراهيم عنه منهم قموئيل أبو آرام، على الرغم من أن إبراهيم كان آراميا أو أنه على الأقل كان يعيش في زمن الآراميين، كما أنه ورد في التوراة أن عبد إبراهيم عندما ذهب إلى حران «أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده وذهب إلى أرام النهرين إلى مدينة ناحور» تكوين ٢٤: ١٠، «وكان إسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة رفقة بنت بتوئيل الآرامي من فدان أرام» تكوين٢٥: ٢٠.

كما أن المحرر قام بتزويج إبراهيم للمرة الثالثة وهو بعمر ١٥٠ سنة وولد له ستة أولاد أهمهم مديان أبو المديانيين والذي في موقع آخر يردّهم المحرر التوراتي إلى إسماعيل ابن إبراهيم، كما أن إبراهيم كان له الكثير من أبناء السراري ولكن وقبل موته «أعطى إبراهيم إسحاق كل ما كان له. وأما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقا إلى أرض المشرق وهو بعد حي» تكوين ٢٥.

وقد أتى أن إسحاق الذي عمل راعيا عند خاله لابان في حاران، وبعد سبع سنوات تزوج من ليئة، وبعد سبع سنوات أخرى تزوج من أختها راحيل، أي أنه تزوج من راحيل بعد أن عَمِل عند خاله لمدة أربع عشرة سنة، وبعد أربعة عشر عاما بدأت نساؤه يلدن له البنين الذين بلغوا أحد عشر ذكرا، وابنة واحدة من نسائه الأربع، فولدت له أولا زوجته ليئة كل من رآوبين ثم شمعون ثم لاوي ثم يهوذا، وبعد ذلك ولدت له بلهة (جارية راحيل) دان، ونفتالي، ثم بعد ذلك ولدت له زلفة (جارية ليئة) جاد ثم أشير، ثم وبعد انقضاء زمان طويل ولدت ليئة ثانية يساكر وزوبولون ثم دينة، ثم يقول المحرر إنه بعد عشرين سنة من وصول إسحاق إلى حاران قرر العودة

إلى بلاد كنعان، وهذا يعني أن أبناء إسحاق الاثني عشر ولدوا خلال أربع سنين، أي أن ليئة ولدت أبناءها الستة (رآوبين - شمعون - لاوي - يهوذا - يساكر - زوبولون - دينة) خلال أربع سنين، وهو يحتاج على أقل تقدير إلى عشرين سنة.

وقد جاء أن شمعون ولاوي الذين ارتكبا جريمتهما بحق مدينة شكيم، ولكن ضمن التسلسل المنطقي التاريخي للتوراة يكون شمعون ولاوي الذين قاما بقتل وتدمير شكيم ما زالا طفلين في حدود العشر سنوات من عمرهما، أما ليئة فكانت أصغر من ذلك بكثير..؟

ثم إن يعقوب الذي هرب من حاران بعد أن سرق أغنام، وأصنام خاله وولى وجهه شطر بلاد كنعان، وبعد عشرة أيام من هروبه أدركه خاله لابان في جبل جلعاد جنوب سورية، أي أنه قطع ما يزيد على ثمنمئة كيلومتر خلال عشرة أيام، وكان معه قطيع كبير من الغنم، كما كان معه مجموعة من الأبقار، والجمال أيضا، وأربع نساء، واثنا عشر ابنا، فهل يمكن لتلك الجماعة مع مواشيها أن تقطع هذه المسافة خلال عشرة أيام.

كما أن المحرر التوراتي يقول إن أخوة يوسف باعوه إلى المديانيين حين كان عمره آنذاك سبعة عشر عاماً، والذين بدورهم باعوه في مصر، حيث أصبح الرجل الثاني بعد الفرعون وكان عمره ثلاثين سنة، أي بعد وصوله إلى مصر بثلاث عشرة سنة، حيث عمل لمدة سبع سنوات في شراء القمح، ولما حل الجفاف بدأ ببيع القمح للعامة، وفي ذلك الوقت جاء أخوته لشراء القمح، ومن ثم تم رحيل يعقوب والأسباط إلى مصر، أي بعد وصول يوسف إلى مصر بعشرين عاما، وما بين وصول يوسف إلى مصر ووصول أبوه وأخوته يأتي المحرر التوراتي على ذكر قصة يهوذا الذي - بعد حادثة بيع يوسف - تزوّج من إحدى الكنعانيات وقد ولدت له ثلاثة أبناء هم عير وأونان وشيلة، ولما كبر عير زوّجه أبوه بامرأة اسمها ثامار، ولما مات عير بعد زمن أدخلها (زوّجها) من أخيه الثاني أونان، والذي مات أيضا بعد مدة، فأعاد يهوذا كنته إلى بيت أهلها ووعدها أن يزوجها بابنه الثالث شيلة الذي ما زال صغيرا، ولما كبر شيلة، وخوفا من أن يموت كأخوته، بدأ يهوذا يماطل في وعده لها، فما كان من ثامار إلا أن تنكرت على أنها زانية فنام معها يهوذا نفسه مقابل جدي معزى، فحملت منه وولدت له توأمين هما فارص وزارح (ومن فارص ابن الزنا هذا سيتحدّر أحد أحفاده وهو الملك داود، ومن بعده كل ملوك مملكة يهوذا)، ومثل هذه القصة تحتاج على أقل تقدير ومع ضغط الزمان إلى أربعين سنة، ولكن المحرر التوراتي زمّنها بأقل من عشرين عاما فقط.

والأمثلة على هذا لا يمكن حصرها ولكن مما تقدم نستنتج أن الزمان في سفر التكوين هو زمان غير طبيعي، وبالتالي فهو ليس تاريخي.

أما بالنسبة للمكان:

اولا.. من المستبعد لفرد مثل إبراهيم البدوي، الذي كان يعيش على رعي المواشي، أن يكون بمواشيه قد تنقل بين هذه المسافات الشاسعة من أور الكلدانيين في بلاد الرافدين الواقعة بالقرب من مدينة الناصرية (مع العلم أن الكلدانيين لم يكن لهم وجود بعد في ذلك الزمان، والذين لم يتشكلوا كشعب إلا بعد ألف عام من هذا الزمان المفترض)، إلى حاران في الشمال، وهي مسافة تقارب ٩٠٠ كم، ولم تأت التوراة على ذكر السبب الذي دعا إبرام إلى أن يهاجر إلى حاران أولا مادام الرب كان يعرف الموقع الجغرافي للأرض التي وعد إبرام بها، فهل هذا يفسر الجملة التي تقول «آراميا تائها كان أبي» تثنية ٢٦، أم أن حاران التي ورد ذكرها في التوراة تقع على الطريق المباشر ما بين مدينة أور في جنوب العراق، وما بين بلاد كنعان، وليست حاران التي تقع في الشمال السوري والتي يعتقد التوراتيون أنها نفس المدينة التي ورد ذكرها في التوراة، «فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك» تكوين ١١، ومن حاران انتقل إبرام، وعبر سورية الداخلية إلى بلاد كنعان، وهي مسافة تقارب ١٠٠٠ كم، ومن هناك قام بعدة رحلات بين فلسطين ومصر بحثا عن المراعي خلال مدة لا تتجاوز خمس سنوات، مع العلم أنه كان يمتلك من المواشي الكثير.. الكثير، ولكن هذا الكثير لا يمكن أن تكون أرض كنعان غير قادرة على احتمال مواشي إبراهيم وابن أخيه لوط، بحيث اضطرا إلى أن يتقاسما أرض كنعان، وأرض شرقي الأردن ومحيط البحر الميت لتتسعا لمواشيهما، وهي نفس الإشكالية التي عانى منها ابنا إسحاق يعقوب وعيسو: «ثم أخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وجميع نفوس بيته ومواشيه وكل بهائمه وكل مقتناه الذي اقتنى في أرض كنعان ومضى إلى أرض أخرى من وجه يعقوب أخيه. لأن أملاكهما كانت كثيرة على السكنى معا ولم تستطع أرض غربتهما أن تحملهما من أجل مواشيهما. فسكن عيسو في جبل سعير. وعيسو هو أدوم» تكوين ٣٦: ٦ - ٧ - ٨، ويمكن تقبل هذا الكلام إذا ما اعتبرنا أن أرض كنعان المقصودة في هذه الفقرات، هي غير أرض كنعان التي يرد ذكرها في فقرات أخرى والمعروفة أنها الممتدة من نهر الأردن شرقا والبحر المتوسط غربا، وبين الجليل الأعلى شمالا، وصحراء النقب جنوبا، ويذهب أحمد داوود أن أرض كنعان التي وردت في التوراة هي شريط ضيق يقع من بلاد غامدو زهران وهي بطول ٢٠ كم، وعرض ١٠ كم، وهذا يتماشى ولا يؤكد على ما سبق ذكره.

إن سيرة أبرام حسب ما أتت به التوراة لا يمكن أن تمثل أبدا سيرة فرد بل هو على ما يبدو تاريخ قبيلة، أو فخذ أو بطن من قبيلة من قبائل العبرانيين، أما فخذها الثاني فيمثل قبيلة لوط، وهذا يفسر حصول خلاف بين رعاة أبرام ولوط بسبب ضيق الأرض، إذ لا يمكن أن تضيق أرض كنعان على مواشي شخصين مهما كان حجم قطعان الأغنام التي يمتلكانها كما ذكرنا، فسكنت قبيلة لوط في شرقي نهر الأردن، وقبيلة أبرام في غربي الأردن، ثم أن قوم (قبيلة) لوط قد حل عليهم غضب الرب، ودُمّرت مرابعهم بسبب آثامهم، أي أن قوم لوط هم من أبناء قبيلة لوط، لا من أبناء المدينة التي كان يعيش فيها لوط كغريب، أو مهاجر كما جاء في التوراة، ومن هنا، فإن عمر إبراهيم، والآباء الأوائل بشكل عام، المبالغ فيه ما هو إلا تمديد، أو تمطيط ليشمل رحلة قبيلة أو جماعة، والتوراة بشكل عام تتحدث عن القبائل باسمها كمفرد (جاء أرام، جاء إسرائيل) وما شابه، وهذا يمكن له أن يفسّر كيف استطاع أبرام (على أنه يمثل قبيلة)، إذا ما تحالف مع جماعات أخرى في أن يكسر تحالف جيوش بلاد الرافدين، الذي أتى في التوراة أن إبراهيم استطاع ذلك من خلال ثلاثمئة وثمانية عشر عبدا من عبيده، وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة النحل الآية ١٢٠.

ويبدو أن المحرر التوراتي كان جاهلا بجغرافيا المنطقة «فصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب، وكان أبرام غنيا جدا في المواشي والفضة والذهب. وسار في رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل» تكوين ١٣: ١ - ٢، فكيف لأبرام أن يمضي من مصر جنوبا ويصل إلى بلاد كنعان، ولكن يمكن تفسير هذه النقطة إذا ما اعتبرنا أن المحرر التوراتي كان يقيم في بلاد كنعان، وبذلك فقد كانت منطقة صحراء النقب تقع جنوبا، وهو ما يتماشى مع ما جاء في سفر التكوين «فصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب» تكوين ١٢، والجنوب هنا، يأخذ على حسب اعتبار مكان المحرر، لا حسب وجهة تحرك إبراهيم الذي توجه نحو الشمال الغربي من مصر نحو بلاد كنعان، وهو أيضا ما يتماشى نسبيا مع ما جاء من تحديد جنة عدن «وغرس الرب جنة في عدن شرقا» تكوين، ومن هذه الجنة تخرج أربعة أنهار هي: حداقل (دجلة)، والفرات، وفيشون، وجيحون، وهما نهران مجهولان، وهذا يعني أن جنة عدن تقع في شمال الأناضول، ولكن هذا المكان لا يقع إلى الشرق تماماً من بلاد كنعان.

وبسبب هذا الغموض، أو التوهان، أو الالتباس في جغرافيا التوراة، والذي لا يتماشى تماماً مع بلاد كنعان، فقد قام الكثير من الباحثين بوضع نظريات متعددة للمكان، أو للجغرافيا التي تمسرح عليها التاريخ التوراتي، وهنا يمكن لي أن أذكر وجهة نظر حول المكان الأكثر احتمالا الذي دارت فيه الأحداث مع النبي إبراهيم:

إن القرآن الكريم لم يأت على ذكر المكان الذي كان يسكن فيه النبي إبراهيم، كما أنه لم يحدد مكان وزمان الأحداث الدينية، ولكن الرواة العرب المسلمين يقولون إن النبي إبراهيم قد جاء مع زوجته هاجر وابنهما الطفل الصغير إسماعيل إلى أرض مكة حيث تركهما وعاد إلى زوجته سارة ابنة خاله وإلى ولده إسحاق، وقد قام النبي إبراهيم بزيارات متكررة إلى مكة لزيارة زوجته هاجر وابنه النبي إسماعيل الذي تزوج بامرأة من قبيلة جرهم التي كانت تنزل بالقرب من مدينة مكة، وقد قام هو وابنه إسماعيل ببناء بيت الله الحرام قبلة لكل المسلمين الأحناف وهو دين إبراهيم الخليل، {ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما} آل عمران ٧٦، وقد قام بعدة زيارات إلى مكة، وهو الرجل الذي تجاوز المئة عام بكثير، فهل يعقل أن النبي إبراهيم كان يقيم في فلسطين؟، هل يعقل أن يأخذ هاجر وبكره من بلاد فلسطين إلى الحجاز قاطعا كل هذه المسافات الصحراوية الشاسعة، وأن يقوم بعدة زيارات خاصة إذا ما عرفنا أنه كان متقدما بالسن، وقد ذكر الرواة المسلمين أن النبي إبراهيم قام بزيارتين، ولم يجد إسماعيل في المنزل فترك له رسالة مع زوجتيه، وهذا يؤكد أنه كان على بعد مسيرة يوم أو يومين من مكة على أكبر تقدير بحيث لم يستطع الانتظار حتى يعود إسماعيل، ولو كان حقا في فلسطين فلا بد أنه سينتظره حتى يعود، والدليل الأكثر أهمية هو أن دين إبراهيم الحنيف كان منتشرا في بلاد الحجاز، وهذا ما يفترض أن إبراهيم (كشخص) كان يقيم في مكان ما من شبه الجزيرة العربية على مسافة ليست ببعيدة عن مكة، ولكن التوراتيين أرادوا له أن يكون في البلاد التي حاكوا مؤامرتهم لاستلابها تحت مسوغات واهية، وكان بعض الباحثين (د. كمال الصليبي، د. أحمد يوسف داوود، زياد منى، فاضل الربيعي، رياض الريس، مفيد عرنوق)، قد طرحوا نظرية تقول إن التاريخ اليهودي، منذ الآباء الأوائل وحتى السبي البابلي، تمسرح في جنوب غرب الجزيرة العربية، وليس في بلاد الشام، وأنا أتحفظ على هذه النظرية في مرحلة المملكة المنقسمة التي سنأتي على ذكرها لاحقا، أما التأريخ التوراتي العائد إلى مرحلة الآباء الأوائل فما هو إلا تاريخ مقدس (تاريخ ديني ليس له أي دلالات زمكانية محددة) وهمي في مركبته الزمانية والمكانية أو عبارة عن قطع فسيفسائية لحكايات قبائل صغيرة شبه بدوية ليس لها

أي قيمة تاريخية، ولذا لا يوجد أي أثر حقيقي لها، ولم يأت لها أي ذكر في سجلات ومستندات الحضارات التي شهدتها منطقة الشرق الأدنى، كما أنني أرى أن الباحثين الذي قاموا بنقل جغرافيا التاريخ التوراتي إلى شبه الجزيرة العربية، ربما قد قاربوا التاريخ الحقيقي حين أعادوا تاريخ النبي إبراهيم إلى منطقة جنوب غرب الجزيرة العربية، والذي يعود إليه ولابنه إسماعيل بناء بيت الله الحرام (بيت إيل)، على اعتبار أنه تاريخ ثقافي ديني، لا تاريخ تاريخي، ويرى البعض، ومنهم فاضل الربيعي أن الجماعات الإسرائيلية ضمن منطقها الثقافي الاجتماعي هي أقرب ما يمكن إلى منطق العرب البائدة (العاربة)، وقد هاجروا من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، وقاموا بنقل أسماء مدنهم وذكرياتهم وأطلقوها على أماكن أخرى في بلاد الشام، وأن موقع بئر سبع في بلاد كنعان ما هي سوى موقع شباعة في الجزيرة العربية.

والآن يشيع في الدراسات التاريخية توجه جديد يرى أن الآباء الأوائل هم شخصيات تاريخية حقيقية، وأنهم لم يكونوا يعرفون الإله (يَهْوَه)، بل كانوا يعبدون الله العلي، وكانوا يتحدثون العربية القديمة، بعد أن شاع أن الآباء ليسوا أشخاصاً حقيقيين، بل مفاهيم تجريدية، مشخصة.

وكان نولدكه قد قال في معرض تحليله للحملة العسكرية التي قامت بها ممالك بلاد الرافدين على ممالك شرقي الأردن حيث كان لوط نزيلا، والتي استطاع عبيد إبراهيم الانتصار عليهم، وردوهم على أعقابهم بعد أن استردوا منهم كل الممتلكات التي كانوا قد استلبوها {نحن غير مقيدين بزمن معين، لأن الحادث المروي كان يمكن أن يقع في سنة /٤٠٠٠/، تماماً كما كان يمكن أن يقع في سنة /٢٠٠٠/، إن الترتيب الزمني المصطنع في سفر التكوين ليس قاعدة بالنسبة لنا ... فلا نعلم من أين حصل الراوي على أسماء الملوك المعادين، إنه لمن الممكن حقاً أن تكون هذه الأسماء قد وصلت إليه بالتواتر أو بأي طريقة أخرى، ومهما يكن من أمر فإن أقصى ما نستطيع أن نسلم به هو أن الراوي قد استخدم قلة من الأسماء الصحيحة ممزوجة بأسماء زائفة أو مخترعة، ومظهر التاريخية - بالشكل الذي وردت به - يمكن أن يخدعنا ولكن لفترة قصيرة.. هذه الحملة برمتها مستحيلة تاريخياً بنفس المدى الذي يتفق مع التأثير الأخاذ الناتج عنها، وهي العلامة المألوفة على أنها وهمية ... ألا تكمن هذه الاستحالة الظاهرة للقصة في التفاصيل التي تضفي عليها مظهر التاريخية.}، وعن ملكي صادق والحلفاء الأموريين لإبراهيم، يقول {هكذا تتراكم الأدلة على أن قصتنا ليست بذات قيمة تاريخية ... وحتى لو كان سائر الإصحاح تاريخياً، فسنظل على اعتقادنا بأن ملكي صادق شخصية شعرية.. وبناء على ما ذكر، يكون من المستحيل الاعتقاد بأن المؤلف

كان يستند في المسائل الرئيسية على تقليد حقيقي للشعب، بل يجب أن نقبل - كحقيقة واقعة - أن الموضوع برمته إبداع حر} ، وبشكل مجمل يرى نولدكه أن سفر التكوين هو تأريخ غير تاريخي، وأن الأسماء والشخصيات وحتى الكثير من الأماكن هي نتاج الخيال الحر، أما الأحداث والحملات العسكرية في زمن الآباء الأوائل فما هي سوى قصص رومانسية، فليس من العقل التصديق بأن عبيد إبراهيم استطاعوا أن ينتصروا على جيش ملوك الرافدين الأربعة {من خلال كل هذا، على من يتمسك الآن بوجود نواة تاريخية، أن يعترف بأنه في وقت غير معروف تماماً، وفي تاريخ قديم جداً، سيطر ملك عيلام على أراضي الأردن في حملة حربية، لكن ذلك هو أقصى ما يمكن أن أسلم به. أما كل ما هو أكثر تحديداً كالأعداد والأسماء ... الخ، وأيضاً كل ما يعطي مظهراً لتقليد دقيق أو جدير بالثقة، فهو إلى حد ما مزيف، وإلى حد ما غير جدير بالتصديق. وعلى وجه الخصوص فإننا لا نستطيع معرفة شيء سوى الحرب وحدها. أما من جهتي أنا فما زال هذا يبدو لي أكثر احتمالاً جداً، في ضوء الترابط، وهدف الراوي المنظم بمهارة فائقة، ومع ذلك يظل مجرى القصة في الواقع مستحيلاً إذ لا يمكن أن نفصل عنها بعض الأشياء الواضحة مثل المبالغة المكشوفة في التقليد، وبذلك يكون أمامنا خيال متعمد قد تخللته بعض الأسماء التاريخية القليلة}.

ثانيا.. إن محرري التوراة، وبالذات الأسفار الأولى، ولا سيما سفر التكوين، كانوا يبحثون دائما عن قصص ومسوغات كي يعيدوا إلى، من ادعوا أنهم، آباؤهم الأوائل تأسيس وإطلاق أسماء المدن وبعض المناطق الجغرافية إليهم كاستحواذ على المكان بمعناه الجغرافي، ولأنهم كانوا أكثر من محرر فقد ارتكبوا عدة أخطاء وضعت النص التوراتي في موقف شديد الحرج، وأهم هذه الأماكن هي بيت إيل، وبئر السبع.

تسمية بيت إيل (الملاصقة لرام الله حسب ما يمكن لها):

١ - بعد أن خرج إبراهيم ومعه ابن أخيه لوط من حاران «فأتوا إلى أرض كنعان، واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة. **وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض**. وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحا للرب الذي ظهر له. ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي **بيت إيل** ونصب خيمته هناك» تكوين: ١٢، إذا منذ اللحظات الأولى لدخول إبراهيم كان موقع بيت إيل قائما بشكل لا مجال فيه للبس، وهو المكان الذي كان فيه الكنعانيون يتعبدون فيه للإله إيل.

٢ - لما ذهب يعقوب إلى حاران هاربا من وجه عيسو بعد أن سرق منه مباركة أبيه بالخدعة، ومن أجل أيضا أن يأتي بزوجة له من بنات خاله، ولما غربت عليه شمس اليوم الأول نام في مكان وحلم، بأن الرب تحدث معه قائلا «الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك.. فاستيقظ يعقوب من نومه.. ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل ولكن اسم المدينة أولا كان لوز» تكوين: ١٥، ن وهنا تذكر أو توحي التوراة بأن المكان الذي بات فيه يعقوب هو مكان خلاء، فكيف فجأة في نهاية سرد الحادثة يصبح مدينة واسمها لوز.

٣ - «وظهر الله ليعقوب أيضا حين جاء من فدان أرام وباركه....، ودعا يعقوب اسم المكان الذي فيه تكلم الله معه بيت إيل» تكوين ٣٥، وموقع بيت إيل الذي يبعد قرابة ستة كيلومترات عن القدس من جهة الشمال (بيتين)، هو على ما يبدو المكان المقدس الذي كان يتعبد فيه الذين يدينون بالدين الحنيف في بلاد كنعان، ولكن اليهود الذين أرادوا أن يعيدوا إلى آبائهم عبادة الإله إيل ومكان عبادته، حاولوا ابتكار القصص التي من شأنها أن تؤكد على هذه المقولة، ولكن، ولأنهم لم يقوموا بتحرير الأسفار بشكل منظم، ولم يقوموا بعمليات تشذيب، وصقل مناسبة بعد عمليات الدمج للروايات المختلفة، ولأنهم كانوا أكثر من محرر، ولأنهم اعتمدوا على أكثر من رواية، وكل رواية تعود إلى نمط ثقافي له بعض الخصوصية الحضارية، فقد جاءت هذه النصوص المتراكبة.

تسمية بئر سبع:

١ - جاء في قصة طرد إبراهيم لهاجر وابنها إسماعيل التي حملته على كتفها «فمضت وتاهت في برية بئر سبع.. ولما فرغ الماء من القربة.. فتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام»، ومن هنا يتضح أن موقع بئر سبع كان معروفا بنفس الاسم مع وجود البئر والماء فيه.

٢ - ومباشرة بعد هذا الحدث ودون مسوغ واضح، وبعد اتفاق بين إبراهيم وأبي مالك ملك الفلسطينيين في جرار ورئيس جيشه فيكول ينص على ألا يغدر أحد بالآخر، يعاتب إبراهيم أبي مالك حول بئر ماء كان اغتصبها عبيد أبيمالك، وقد أنكر أبيمالك معرفته بهذا الأمر، وبعد هذا العتب «أقام إبراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها. فقال أبي مالك لإبراهيم ما هذه السبع نعاج التي أقمتها وحدها. فقال إنك سبع نعاج تأخذ

من يدي لكي تكون لي شهادة بأني حفرت هذه البئر. لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع.» تكوين ٢١.

٣ - وأيضا وردت القصة نفسها تقريبا مع اسحق كما وردت مع أبيه إبراهيم قبل أن تحمل سارة بإسحاق، ومع أبيمالك ورئيس جيشه فيكول وكأن الزمان ما زال متوقفا، وعقدا نفس الاتفاق، ولكن الخلاف يأتي من أنه بعد أن أكلوا الطعام على شرف الاتفاق جاء عبيد إسحاق الذين كانوا يحفرون بئرا «وقالوا له قد وجدنا ماء. فدعاها شبعة. لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى هذا اليوم» تكوين ٢٦، وفي النهاية فإن البحوث الأركولوجية التي تمت على منطقة بئر السبع بينت أن المنطقة لم تكن مسكونة قبل الألف الأول قبل الميلاد.

ومن هنا يتبين أن هناك تشابها في الروايات التوراتية وهو ما يؤكد أن المحرر التوراتي اعتمد على عدة قصص أو روايات مستقلة، كل قصة تدور حول بطل واحد (إبراهيم، إسحاق، إسماعيل، يعقوب) وقد جاء المحرر التوراتي وقام بدمج تلك الروايات الثلاث بحيث جعل الأبطال الثلاثة سلسلة أب - ابن - حفيد.

تسمية صوغر:

ومثل تكرار رواية تسمية بئر سبع تتكرر أيضا رواية تسمية صوغر، حيث ورد أنه بعد أن أختلف رعاة أبرام ولوط على المرعى أن لوط قد اتخذ من شرقي البحر الميت مرعى له، وكانت آنذاك صوغر قائمة باسمها «فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب كأرض مصر. حين تجيء إلى صوغر.» تكوين١٣.

ولكن وبعد أن يقرر الرب تدمير سدوم وعمورة، (والتي يعتقد سيد قمني وغيره من الباحثين أن سدوم وعمورة هما عاد وثمود الموقعين الذين ورد ذكرهما في التراث الإسلامي)، ويهرب لوط وعائلته «هوذا المدينة قريبة للهرب إليها وهي صغيرة. أهرب إلى هناك. أليست هي صغيرة فتحيا نفسي. فقال له إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضا أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها. أسرع أهرب إلى هناك. لأني لا أستطيع أن أفعل شيئا حتى تجيء إلى هناك. لذلك دعي اسم المدينة صوغر»، وصوغر بالعبرية تعني صغيرة.

كما أن يعقوب الذي مات في مصر، وبعد تحنيطه، حمله يوسف مع وفد كبير من أبناء يعقوب، والمصريين ومضوا إلى بلاد كنعان لدفنه حسب وصية يعقوب، وهي مسافة بعيدة

جدا، وتقارب ١٠٠٠ كم، وعلى الرغم من هذه المسافة فإن الوفد لم يسلك طريق مستقيما مختصرا، بل توجه الموكب أولا إلى حيدر أطاد في شرقي الأردن، وهناك أقاموا مناحة لمدة سبعة أيام أعجب بها أبناء المنطقة (ولذلك سميت آبل مصريم) ومن ثم حملوه ودفنوه في حبرون في مغارة حقل المكيفلة، وليس هناك من تفسير لذهابهم إلى منطقة شرقي الأردن أولا ليقيموا هناك المناحة، ثم يحملونه إلى بلاد كنعان ليدفنوه هناك، ولكن على ما يبدو أن محرر السفر أراد أن يسوغ سبب تسمية المنطقة بـ آبل مصريم وأن يعيدوها إلى الآباء الأوائل لمزيد من الاستحواذ على جغرافيا المنطقة، أو أن المحرر جاهل بجغرافيا المنطقة، أو أنه أراد أن يكرر أو يوطد، أو يرسم طريق الموسويين عبر شرقي الأردن في مرحلة لاحقة، أو أن القصة هي جزء من رواية تراثية تعود إلى أحد المصادر التي اعتمد محررو التوراة عليها، وقاموا بمسرحتها في غير مكانها.

ومما تقدم ودون البحث عن المزيد من الأدلة نستنتج أن المكان في التوراة لا يمثل جغرافيا تاريخية، وبما أن الزمان كما أسلفنا سابقا هو ليس تاريخياً، لذلك فإن التأريخ التوراتي لمرحلة الآباء الأوائل هو لا تاريخي.

ونضيف كذلك بعض الأحداث التي يمكن اعتبارها لا تاريخية أيضا.

تسمية بنيامين:

من الطرائف التي أوردها المحرر التوراتي ولم يتنبه لها هو أن راحيل زوجة يعقوب (إسرائيل) لما ولدت ابنها الثاني وماتت في حالة الولادة قد سمته بن أوني (ابن حزني)، ولكن أباه سماه بنيامين (بن يامين = ابن يدي اليمنى)، وليس بن يعقوب أو بن إسرائيل وهي من إحدى طرائف التوراة الكثيرة، ثم كيف سمته وهي ميتة «وحدث حين تعسرت ولادتها أن القابلة قالت لها لا تخافي لأن هذا أيضا ابن لك. وكان عند خروج نفسها لأنها ماتت أنها دعت اسمه بن أوني» تكوين ٣٥: ١٨، ثم إن قبيلة بنيامين التي انضمت إلى تحالف القبائل العبرية أراد المحرر التوراتي أن يردّها إلى الأسباط الاثني عشر، وإلى الأب الأول لها وهو بنيامين، مع العلم أن قبيلة بنيامين (بنو يامينا) قد ورد ذكرها في سجلات مدينة ماري في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد والتي كانت تعني القبائل أو الجماعات (الخابيرو) التي تقيم جنوب (على يمين) مدينة ماري، وكان هناك أيضا بنو الشمأل وهي الجماعات أو القبائل (الخابيرو) التي كانت تقيم شمال مدينة ماري، والبعض يعيدون أصول بنياميناا إلى اليمن.

تسمية يعقوب بإسرائيل:

بعد أن ذهب يعقوب إلى حاران وتزوج هناك من ابنتي خاله وجاريتيهما، عاد هو وزوجاته الأربع وأحد عشر ابنا وابنة واحدة، إلى بلاد كنعان ثانية، وقبل دخوله إلى أرض كنعان، وبعد أن عبّر يعقوب عائلته من مخاضة يبوق، وكان الليل قد حلّ اعترض سبيل يعقوب الرب، ودخل معه في عراك بالأيدي استمرّ طوال الليل، وقبيل انكشاف الليل استطاع يعقوب حسم الصراع لصالحه، ولم يطلق يعقوب الرب حتى أخذ المباركة منه، وهذا هو النص كما أتى في سفر التكوين: «ثم قام في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة يبوق. أخذهم وأجازهم الوادي وأجاز ما كان له. فبقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه. فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني. فقال ما اسمك. فقال يعقوب. فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت» تكوين: ٣٢

كما نرى هناك تفككاً، وضبابية في النص، والجمل جاءت بصورة موزايكيية، غير مترابطة، فبينما استطاع الإله خلع حق يعقوب، فجأة نرى الإله يترجى يعقوب أن يطلقه، بدل أن يطلب يعقوب من الإله ذلك، والنص يطرح عدة أسئلة:

لماذا بقي يعقوب حتى حل الليل، ولم يعبر مخاضة يبوق بعد أن عبّر عائلته عبرها..؟

هل يعقل أن يتكافأ إنسان والرب في القوة الجسدية..؟

كيف للرب أن يتوسل من يعقوب أن يطلقه..؟

كيف للرب، وهو الكلي المعرفة ألا يعرف اسم يعقوب، ولماذا أراد أن يصارعه أصلا..؟

لماذا يخاف الرب النهار فهل هو جني أو شبح حتى يخاف ضوء النهار..؟

كيف عرف يعقوب أن الذي صارعه هو الرب، ولماذا لم يشك يعقوب بأن الذي صارعه ليس أكثر من قاطع طريق..؟

ويبدو أن الرب، في النص الذي انتحل منه المحرر نصه التوراتي، هو الذي انتصر على يعقوب، إلا أن المحرر أراد أن يحوّل النصر ليعقوب كي يدس من خلال ذلك تسويغا لتغير اسم يعقوب إلى اسم إسرائيل، والذي يعني بالعبرية صارع الإله كما فسر ذلك المحرر التوراتي والذي أراد من خلال ذلك أن يظهر أن يعقوب قد حصل على مباركة الرب، من خلال جهده، أي أن المباركة ليست منحة من الرب، بل هي حالة استحواذ بالقوة، أو على أقل تقدير

بالسعي، (الصراع بين السماء وبين الأرض)، بين الخالق والمخلوق، كما أراد المحرر أيضا أن يسوغ أو يعيد أو يؤسطر لتحريم اليهود لأكل عرق النسّا (لسبب غير معروف)، بعد أن خلع الرب وأذى عرق النسّا في حق (ورك) يعقوب، ويرى جورجي كنعان أن كلمة (إسرائيل) مشتقة من يسر الله، وليس يجاهد الله أي يصارعه، والبعض يعتقد أن أسر تعني العبد، وبذلك يصبح معنى اسم إسرائيل يعني عبد الله، ولي هنا أن افترض أن كلمة (إسرائيل) مشتقة، أو منحوتة من كلمة (إسراء إيل)، أو (مسرى إيل)، وما يسوغ هذا الافتراض هي القصة التي حدثت مع يعقوب الذي كان قد قرر الذهاب إلى حاران فارا من وجه عيسو «وصادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت. وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع في ذلك المكان. ورأى حلما وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء. وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهوذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق.. فاستيقظ يعقوب من نومه وقال.. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء.. ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل» تكوين، وهو المكان الذي - بعد أن عاد يعقوب من حاران - ظهر له الرب وأطلق على يعقوب اسم إسرائيل، ومن بلاد كنعان صعد النبي إيليا إلى السماء كما جاء سنرى لاحقا، ومنه أيضا صعد المسيح إلى السماء بعد صلبه، ومنه أخيرا صعد النبي محمد على ظهر البراق الذي حمله من مكة إلى بلاد كنعان، أي أن بلاد كنعان ككل تمثل في الديانات السماوية (باب السماء)، الذي يمكن الصعود من خلاله إلى السماء (إيل).

وبعد تلك الرواية التي جاءت في الإصحاح ٣٢ من سفر التكوين لتسويغ تسمية أو تكنية، أو تلقيب يعقوب بإسرائيل، ترد راوية أخرى في الإصحاح ٣٥ من سفر التكوين لمنح يعقوب لقب إسرائيل:

«وظهر الله ليعقوب أيضا حين جاء من فدان أرام وباركه. وقال له الله اسمك يعقوب. لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل فدعا اسمه إسرائيل... فنصب يعقوب عمودا في المكان الذي فيه تكلم معه عمودا من حجر.. ودعا يعقوب اسم المكان الذي فيه تكلم الله معه بيت إيل» تكوين: ٣٥.

ويبدو أن القصة الثانية تعود في أصلها إلى الرواية التي بطلها هو إسحاق، ولكن بعد أن تم دمج الروايات مع بعضها تكونت قصتان حول لقب إسرائيل، فغير المحرر اسم إسحاق الذي تحول إلى إسرائيل، وردها إلى يعقوب، وبذلك نتجت روايتان عن تسمية يعقوب بإسرائيل، مع أن التوراة أوردت جملة توحي أن يعقوب كان من بني إسرائيل «وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم

وأولادهم ونساءهم في العجلات التي أرسل فرعون لحمله» تكوين ٤٦، فلو كان إسرائيل هو يعقوب لجاءت الجملة: وحمل بنو إسرائيل أباهم، أو وحمل بنو يعقوب أباهم، وهذه الجملة تشير إلى أن يعقوب وأبناءه ينتمون إما إلى جد أكبر اسمه إسرائيل، أو إلى إقليم يدعى إسرائيل، وهنا يمكن لنا أن نستشهد بما جاء في سفر التكوين في معرض الحديث عما جرى مع يعقوب وأبنائه مع أهل مدينة شكيم، فبعد أن قام شكيم ابن حمور بمضاجعة دينة بنت يعقوب «وأتى بنو يعقوب من الحقل حين سمعوا. وغضب الرجال واغتاظوا جدا لأنه صنع قباحة في إسرائيل بمضاجعة ابنة يعقوب» تكوين ٢٤، وهذا يشير إلى أن إسرائيل هي اسم المنطقة التي تتبع لها مدينة شكيم.

كما يمكن وضع نقاط تساؤل وتعجب على تفسير التوراة لتسمية يعقوب، تقول القصة إنه حين حملت زوجة اسحق رفقة بنت بتوئيل بتوأمين، وُلد أولا البكر (عيسو) ووراءه مباشرة ولد التؤام الثاني وكان ممسكا بعقب التوأم الأول، فدعي لذلك التوأم الثاني بيعقوب، ولكن، وحسب علم التوليد لا يمكن أن يلد التوأم الثاني ممسكا بعقب الأول، لأن التوأم الثاني يحتاج إلى زمن طويل كي يخرج من الرحم يزيد على أقل تقدير عن نصف ساعة، لا سيما وأن يعقوب وعيسو هما توأمان غير متشابهين، لأن عيسو كان ذا لون أحمر، أي أنه لا يشبه يعقوب، والمفارقة أن كلمة عيسو بالعبرية تعني المشعر، وهذا يعني أنه لقب قد يطلق على الشخص في مرحلة ما بعد البلوغ، وليس اسما يطلق عليه منذ الولادة، وأعتقد أن اسم يعقوب (والذي يعني بالعبرية يمسك بالعقب أو يختلس) إما أنه جاء من فعل عقب الذي يعني وراء، لأن يعقوب وُلد وراء عيسو، أو أن يعقوب هو لقب له لأنه كان يعرج أو يخمع أو يعقب، أي بسبب عرجه فإنه يتأخر عن الآخرين، أو يمشي في أعقابهم، وقد ورد أن في سفر التكوين أن الرب ضرب يعقوب على وركه، أو على عرق النَّسَا، وهو أمر قد يؤدي بسبب الألم إلى عرج الشخص.

إن قصة عيسو ويعقوب ما هي إلا وجه آخر لقصة قابيل وهابيل، ولقصة، إسماعيل وإسحاق، فارص وزارح، أدونيا وسليمان، وجميعها تتناص مع أساطير بلاد الرافدين التي تتحدث عن الصراع بين البدوي والفلاح، وبين الصياد والمزارع الرعوي، وبين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وعلى رأس هذه الأساطير أسطورة إيميش اينتين، وأسطورة لاهار وأشنان، وأسطورة أنكمدو ودوموزي، والنصوص الزرادشتية المجوسية، والتي تقول إن الزمن حمل بـ أهورامزدا إله الخير أهورامزدا (هرمز)، وإله الشر أهريمان، وفي وقت الولادة استطاع أهرمان بما يملكه من خبث، وخديعة أن يخرج إلى الوجود قبل هرمز، وبما أن سلطان الشر

هو أقوى في الوجود من سلطان الخير، فقد قام الزمن ببعث النبي زارادشت ليقوم بتعزيز الخير عند البشر كي يقف في وجه إله الشر إهرمان، وأسطورة أوزريس المصرية التي تقول إن حب الناس لأوزريس الطيب أثار غيرة وحسد وحقد ست إله الشر، فما كان من ست إلا أن قتل أوزريس ومزق جسده إلى عدة أجزاء وزعها في أنحاء البلاد، وقد قام حورس ابن أوزريس بالانتقام من عمه سيت، وحسب ما أورده المؤرخ اليوناني بلوتارك فإن ست هرب من معركته مع حورس على حمار، وأصبح أبا لـ هيروسوليموس (يعتقد أنها أورشليم) ول يودايوس (اليهود)، وبذلك، وإذا اقتنعنا بصحة هذا الافتراض، فقد جعل المصريون اليهود أبناء للإله سيت رب الشر.

ويبدو أن هذه القصص التراثية العبرية تعود إلى مرحلة البداوة عندما كانت الجماعات العبرية البدوية تتصارع مع الجماعات الكنعانية المزارعة، وقد تم نقلها شفويا إلى أن تم تدوينها في التوراة في مرحلة السبي بعد أن تطور المجتمع العبري من المرحلة البدوية إلى المرحلة الحضرية ودونت كما هي على الرغم من تعارضها مع العقلية اليهودية، وهذا الصراع الاجتماعي القبلي نجد صداه في التوراة على لسان الرب مخاطبا رفقة زوجة إسحاق التي كانت حاملة بالتوأمين يعقوب وعيسو «فقال لها الرب في بطنك أمتان. ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب. وكبير يستعبد لصغير» تكوين ٢٥.

وعلى ما يبدو أن قصة إسحاق، مفصولة ومستقلة تماماً عن قصة يعقوب ولكن المحرر التوراتي زوّجهما بطريقة غير متقنة وجعلها قصة أب وابن، ولم يستطع على أقل تقدير أن يسوغ موقف الأم الأخلاقي، وميلها العاطفي تجاه يعقوب دون عيسو.

ويمكن إدراج موقف آخر في هذا السياق، وهو قبول إبراهيم باستبعاد هاجر وابنه البكر إسماعيل إلى برية مهجورة تحت ضغط زوجته سارة (ابنة خاله) ودون أي مسوغ أخلاقي، وبموافقة الرب الذي في الوقت نفسه يتبنى هاجر وابنها وينصرهما على موت محتم، ولكن المحرر التوراتي الذي استبعد إسماعيل نهائيا من التاريخ التوراتي، ينساه وينسى أنه ابن إبراهيم البكر، فقد جاء في سفر التكوين «وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم. فقال له يا إبراهيم. فقال ها أنذا. قال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك. فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحق ابنه وشقق حطبا لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله. وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد. فقال إبراهيم لغلاميه اجلسا أنتما مع الحمار. وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما. فأخذ

إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين. فذهبا كلاهما معا. وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي. فقال ها أنذا يا ابني. فقال هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة. فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني. فذهبا كلاهما معا فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتّب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم. فقال ها أنذا. فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا. لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه. فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع (يَهْوَه) يرأه. حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يرى. ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتي أقسمت يقول الرب. إ ني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر. ويرث نسلك باب أعدائه. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي. ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه. فقاموا وذهبوا معا إلى بئر سبع» تكوين ٢٢، فهل نسي المحرر التوراتي أن إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم، وهذا يدل، أو يشير إلى أن المصدر اليهوي هو الذي قام بإدخال اسم إسحاق على النص الإسرائيلي أو العربي ليتم تهويده، وهذا الخلط ربما نتج عن مزاوجة روايتين لنفس القصة، الأولى بطلها أبرام زوج هاجر وابنه الوحيد هو إسماعيل، والثانية بطلها إبراهيم زوج سارة وابنه الوحيد هو إسحاق، أما التفسير الثاني فربما أن هذه الحادثة قد جرت مع أبرام قبل أن يلد إسحق من سارة، ومن هنا كان ابن أبرام الوحيد هو إسماعيل وهو ما يعتقده المسلمون، فإسماعيل هو الذي كان وحيد إبراهيم لمدة أربع عشرة سنة على الأقل قبل أن يلد إسحاق، وبذلك فإن المقصود بوحيدك هو إسماعيل، وبالطبع إذا ما كان سيقدّم المرء ابنه قربانا للرب، فلا بد أن يكون ابنه البكر وليس غيره، ثم إن الرب كان قد وعد إبراهيم أن يكثر من نسله، من ابنه إسحق، وبذلك لا يمكن للرب أن يطلب من إبراهيم أن يقدم إسحق قربانا لأن ذلك يتعارض مع وعده، وكانت بعض الشعوب ومنها شعوب بلاد الرافدين وبلاد كنعان، تمارس هذه العادة لا سيما أثناء بناء البيوت والمنشآت العامة، حيث كانوا يضعون جثة الطفل الذي يقدمونه قربانا للرب في أساسات البناء، وقد احتفظ الكنعانيون بهذا العرف حتى وقت متأخر من تاريخهم، وقد أتى ذكر هذه العادة في سفر المزامير «وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان وأهرقوا دما زكيا دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كنعان» مزمور ١٠٦، وقد جاء عن

فيلون الجبيلي أن الكنعانيين كانوا يقدمون أعز أطفالهم كقرابين من أجل إبعاد الكوارث عنهم، كما ذكر أيضا عن المؤابيين، والآراميين، ممارستهم لهذا الطقس الديني، وقد ارتبطت عبادة الإله الفينيقي بعل همّون بعادة تقديم الأطفال قرابين له، وقد تحول هذا الطقس بشكل رمزي إلى إراقة أو سفح الدم البشري من خلال جرح الموهوب على المذبح كرمز على تقديمه قربانا للرب، ويبدو أن الختان ما هو سوى استبدال عن التضحية بالإنسان، وقد سنت الشريعة التوراتية الموسوية تقديم الأبكار من الذكور اليهود قربانا للرب (يَهْوَه)، ومن ثم تم فداؤهم بالمال في مرحلة لاحقة.

وهناك الكثير من القصص المركبة أو المحررة من خلال دمج أكثر من رواية لنفس القصة، أو لأكثر من قصة، فقد جاء أن أخوة يوسف قد باعوه بعد أن أسقطوه في البئر إلى تجار إسماعيليين، على الرغم من أن إسماعيل هو ابن لإبراهيم (أو مديان ابن إبراهيم) هو عم يعقوب مباشرة، وبذلك يكون أبناؤه أبناء عمه مباشرة فكيف لم يتم التعارف بين أبناء يعقوب وأبناء إسماعيل أو أبناء مديان؟، والقصة حسب ما جاءت في التوراة توحي أن الإسماعيليين كانوا معروفين على مستوى المنطقة على أنهم تجار، والأمر ينطبق على قوم لوط الذي حاول المحرر التوراتي أن يبين أن لوط كان نزيلا عندهم، بينما هو أحد أفراد هذا القوم ولكن، ولأنهم كانوا شاذين جنسيا، حاول المحرر إخراجه منهم وأدعى أنه نزيل عندهم، بينما الحقيقة (ضمن المفهوم القصصي للتوراة) على ما يبدو أن لوطاً هو رجل فاضل من قوم شاذين جنسيا، وهم موجودون أصلا، أو أننا، إذا ما اعتبرنا أن قوم سدوم وعمورة كانوا يفعلون الفاحشة بالغرباء، سنفترض أنهم فعلوا الفاحشة أيضا عندما جاء إليهم غريبا لأول مرة.

وفي معرض الحديث عن المواقف الأخلاقية التي تسوقها التوراة عن الآباء الأوائل، يمكن أن نورد الكثير من القصص والمواقف المخجلة، والمحرجة، وقد ساقها المحرر التوراتي تحت هيمنة فكرتين، الأولى: هي احتقار لأباء بعض الشعوب الذين كانوا على عداء مع الجماعات العبرية في المراحل السابقة لتدوين التوراة، أما الفكرة الثانية فهي حالة منقسمة بين محاولة لتقديس الآباء الأوائل من جهة، وبين رغبة المحرر في أن يعيد إلى الآباء الأوائل بعض الشذوذات اللاأخلاقية في تصرفاتهم لتكون مرجعية لتسويغ شذوذات اليهود التي اشتهروا بها على مر التاريخ، وأهم هذه المواقف المستنكرة هي:

إدعاء إبراهيم لشرطة الفرعون أن زوجته سارة هي أخته (العازبة) حين دخوله إلى مصر، حيث أخذها الفرعون لتكون جارية، وطريحة فراش له، دون أن يظهر المحرر التوراتي

كيف لم يكتشف الفرعون أن سارة كانت ثيباً، وليست عذراء، وكذلك قصة إبراهيم مع أبيمالك، وقد تملّص المحرر التوراتي من ذلك التصرف المشين بتسويغ أن هذا التصرف، وهذا الكذب غايته إنقاذ إبراهيم خوفا من أن يقتل الفرعون إبراهيم ليتخلص منه في حال عرف الفرعون أن سارة هي زوجة إبراهيم ليحصل عليها الفرعون (وكذلك الأمر بالنسبة لأبي مالك) بسبب جمالها على الرغم من أنها كانت مسنة، ومن ثم حاول المحرر أن يخلص إبراهيم من إحراج الكذبة بأن يدّعي المحرر على لسان النبي إبراهيم أن سارة هي أخت إبراهيم من أبيه، وتتكرر القصة مع إسحاق وزوجته رفقة، وفي القصص الثلاث، وبدل أن يعاقب الرب إبراهيم وإسحق على كذبهما، فإنه يعاقب فرعون، وأبا مالك اللذين لم يقوما بأي فعل أخلاقي مشين، بل قاما برد سارة ورفقة كل إلى زوجها ومعهما خيرات كثيرة، بحيث أصبح بعد ذلك إبراهيم، وإسحق أغنياء جدا.

وفي هذا السياق، وفي محاولة استقرائية معمقة سنجد ما يسوغها لاحقا، يمكن لنا أن نفترض أن إبرام كان يترأس عصابة من الجنود المرتزقة، حاله حال الكثير من الرجال العبرانيين المميزين لا سيما في مرحلة القضاة، ومرحلة المملكة المتحدة كما سنرى، وهو السبب في أن أحدا لم يجرؤ على الاعتداء على إبرام، أو محاولة الاعتداء عليه على الرغم من كثرة ممتلكاته، وهنا يمكن أن نستشهد بمقطع من سفر التكوين، فبعد أن قام ملوك من بلاد الرافدين بغزو قبائل شرقي الأردن «أتى من نجا وأخبر أبرام العبراني. وكان ساكنا عند بلوطات ممرا الأموري أخي أشكول وأخي عانر. وكانوا أصحاب عهد مع أبرام. فلما سمع أبرام أن أخاه سبي جرّ غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاث مئة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان» تكوين ١٤، وهذا المقطع يشير إلى أن إبرام كان يمتلك قوة عسكرية مشكلة من مئات من الجنود المتمرسين في فنون القتال، وكانوا منظمين في ثلاث كتائب يرأسها كل من عانر، وأشكول، وممرا، وأنه كان، أو ربما كان يأخذ أتاوات من المدن التي يبرم معها عهوداً تنص على عدم الاعتداء، أو الحماية، أو أنه كان يعمل تحت حمايتها، أو أنه كان يقوم بأعمال عسكرية مقابل أجر محدد، ومتعارف عليه، ولذا فبعد أن استرد أبرام الممتلكات من حملة ممالك بلاد الرافدين، وأعادها إلى ملك سدوم، قام ملك سدوم «فأعطاه عشرا من كل شيء. وقال ملك سدوم لأبرام أعطني النفوس وأما الأملاك فخذها لنفسك. فقال أبرام لملك سدوم رفعت يدي إلى الرب الإله العلي مالك السماء والأرض لا آخذن لا خيطا ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك. فلا تقول أنا أغنيت أبرام. ليس لي غير الذي أكله الغلمان. وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معي عانر وأشكول وممرا فهم يأخذون نصيبهم» تكوين ١٤، وإذا ما استبعدنا

هذا الافتراض، فعلينا أن نتقبل الافتراض الذي يقول إن إبرام كان شيخ قبيلة كبيرة كان يرأسها ويقودها في تنقلاتها، ولم يكن مجرد فرد فحسب.

وكذلك الأمر بالنسبة لإسحاق «وقال أبيمالك لإسحق اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا جدا. فمضى إسحق من هناك ونزل في وادي جرار وأقام هناك»، ولكن أبيمالك أضطر ثانية أن يعيد تحالفه مع إسحاق «وذهب إليه من جرار أبيمالك وأحزات من أصحابه وفيكول رئيس جيشه. فقال لهم إسحق ما بالكم أتيتم إلي وأنتم قد أبغضتموني وصرفتموني من عندكم. فقالوا إننا قد رأينا أن الرب كان معك. فقلنا ليكن حلف بيننا وبينك ونقطع معك عهدا أن لا تصنع بنا شرا. كما لم نمسّك وكما لم نصنع بك إلا خيرا وصرفناك بسلام» تكوين ٢٦.

أما بالنسبة لعيسو فقد أتى أن يعقوب بعد أن عاد من حاران، وقبل دخوله إلى بلاد كنعان، وخوفا من انتقام عيسو منه على ما فعله به، فبعث إليه رسلا، ولما عادوا قالوا ليعقوب «أتينا إلى أخيك إلى عيسو. وهو أيضا قادم للقائك وأربع مئة رجل معه» تكوين ٣٢.

أما المثال الثاني الذي سأقوده فينتمي إلى القصص التي أراد المحرر التوراتي أن يسيئ فيها للآباء الأوائل لبعض الشعوب التي ستصبح في حالة عداء مع اليهود، وعلى رأس هذه الشعوب العمونيون والموآبيون، الأعداء التقليديون للعبريين، والتي قام المحرر التوراتي بسوق قصة لوط مع ابنتيه، والتي تقول إنه بعد الانتقام الإلهي لسدوم وعمورة هرب لوط وابنتاه «وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه. لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة أبونا شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة. ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه. فنحيي من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضا. وقامت الصغيرة واضطجعت معه. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب. وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمي. وهو أبو بني عمون إلى اليوم.» تكوين ١٩، وما قلناه حول تسمية بنيامين أو بنو يامين، يمكن قوله حول بني عمون، والذي يجب أن يكون بن لوط وليس بن عمي، والطريف في القصة هنا هو أن موآب وعمون أخوان، وفي الوقت نفسه ابنا أختين، أي أنهما أولاد الخالة، كما أن أباهما هو أيضا جدهما من أمهما.

وأخيرا يمكن لنا أن نتسائل هنا من أين أتت بنات لوط بالخمرة..؟!

وهل كان لوط غافلا عند شربه الخمرة..؟!

وهل الخمرة التي شربها لوط استطاعت حقا أن تسلبه كامل مداركه، وكامل إرادته..؟

وهنا من الصعب الحصول على الإجابة، لأن المحرر التوراتي لم يقم بحبك هذه القصة الساذجة من أجل أن تكون مقنعة في بنائها الدرامي، فهذا ليس من اهتمامات المحرر التوراتي، بل قام بنسجها بعد احتكاك العبرانيين بالعمونيين والموآبين في مرحلة مملكة يهوذا، وتم تحريرها بعد احتكاكهما، أو صراعهما الثاني بعد عودة اليهود من السبي البابلي، من أجل إيجاد سند (أيديولوجي تاريخي) لتفكير عدواني من قبل العبرانيين، وإذا ما تأملنا قليلا يمكن لنا أن نستنتج أن قصة لوط بكاملها أدخلت أو نسجت بشكل ثانوي مع قصة إبراهيم دون أن يكون لها أي هدف سوى الوصول بهذه الرواية إلى الإساءة إلى العمونيين والموآبيين أعداء اليهود التقليديين، وهنا يمكن أن نستشهد بنص جاء في سفر نحميا، في سياق حديثه عن معاناة اليهود من العمونيين والموآبيين بعد عودتهم من السبي «في ذلك اليوم قُرئ في سفر موسى في آذان الشعب ووجد مكتوبا فيه أن عمونيا وموآبيا لا يدخل في جماعة الله إلى الأبد. لأنهم لم يلاقوا بني إسرائيل بالخبز والماء بل استأجروا عليهم بلعام لكي يلعنهم وحوّل إلهنا اللعنة إلى بركة.» وذهنية هذا النص هي التي أوحت إلى محرري سفر التكوين أن يدخلوا، أو يدبجوا، أو يهودوا أسطورة، أو قصة لوط مع ابنتيه، وهنا لي أن أدعي أيضا أن قصة نوح مع ابنيه لم تدون في التوراة إلا بعد هذا الزمن، وبعد أن اطلع المحررون على هذا النص، ولو كانت قصة نوح قد دونت قبل هذا النص لكان نحميا قد استشهد بها للحط من شأن العمونيين، والموآبيين، ولتعزيز كره اليهود لهم.

أما القصة الثانية التي تندرج في نفس المجموعة فهي قصة يهوذا مع كنته ثامار التي أتينا على ذكرها، والتي ولدت منه بالحرام بتوأمين الأول اسمه فارص، والثاني اسمه زارح، ويورد المحرر التوراتي قصة طريفة تسوغ اسميهما «وكان في ولادتها أن أحدهما أخرج يدا فأخذت القابلة وربطت على يده قرمزا قائلة هذا خرج أولا. ولكن حين رد يده إذا أخوه قد خرج. فقالت لماذا اقتحمت. عليك اقتحام. فدعي اسمه فارص. وبعد ذلك خرج أخوه الذي على يده القرمز. فدعي اسمه زارح» تكوين ٣٨، وزارح بالعبرية يعني (الذي خرج أو اشرق أولاً)، أما فارص فيعني (اقتحام أو ثغرة)، كما أن رآوبين ابن يعقوب كان قد نام مع سرية أبيه بلهة، وهي أم أخويه دان ونفتالي.

أما دينة ابنة يعقوب فقد كانت قد أقامت علاقة جنسية مع شكيم ابن حمور الحوي.

ويمكن أن نحشر في هذا الموضع أيضا كيف قام المحرر التوراتي برسم صورة شائنة ليعقوب (إسرائيل) رمزهم القومي والديني، فهو انتهازي، ماكر، غدار، غشاش، وهي الأخلاق التي أورثها لنسله ولأتباعه، فقد قام يعقوب بانتهاز جوع أخيه عيسو واستلب منه حقوق البكورية بصحن عدس، كما سرق منه حقوق المباركة، والأدهى من ذلك أن التوراتيين يعتبرون أن يعقوب قام بفعل أخلاقي لأنه أدرك أن عيسو لا يستحق البكورية، والمباركة، وليس أهلا ليكون أبا لشعب الله المختار لأنه لم يكن ليهتم بعنصريته القبلية العبرية، بل وإن التوراتيين ينظرون بازدراء إلى عيسو (بالتالي إلى الأدوميين) لأنه قام بهذا الفعل، على الرغم من أننا نستطيع دون أدنى جهد أن نرى أن عيسو صاحب أخلاق حميدة، حيث استطاع أن يسامح يعقوب على سرقته المباركة الأبوية التي كانت من حقه، وهذا ليس من المستبعد على رجال الدين التوراتيين من المسيحيين واليهود، فالرب (يَهْوَه) كان يقوم بعقاب البريء، ويكافئ المذنب، فبعد أن قام إبراهيم بالكذب على كل من ملك مصر، وملك الفلسطينيين، وأجر لهما زوجته مدعيا أنها أخته، قام الرب (يَهْوَه) بعقاب المصريين، والفلسطينيين، بدل أن يعاقب إبراهيم (الكذاب، والزنديق)، بل إنه كافأه، بحيث أصبح صاحب مال وجاه بعد أفعاله المشينة، والأمر نفسه ينطبق على قصة يعقوب مع عيسو، وكذلك قصته مع خاله لابان في حاران حيث قام لابان بخداع ابن أخته يعقوب بإدخال ليئة زوجة على يعقوب بدل راحيل حسب ما كانا قد اتفقا عليه، وفي المقابل أيضا قام يعقوب أيضا بخداع خاله وسلبه الكثير من أغنامه بالخديعة والغش والمكر، وهرب في ليلة دهماء إلى بلاد كنعان، وفي الطريق في جبل جلعاد شرقي الأردن لحق به خاله لابان ليسترجع الأصنام التي سرقتها ابنته راحيل زوجة يعقوب (دون علم يعقوب)، وهناك عقدا صلحا وعمل يعقوب وليمة على شرف الصلح دعا إليها اخوته، فمن هم اخوته؟، مع العلم أن عيسو هو أخوه الوحيد ولم يكن قد التقى به بعد عودته «وذبح يعقوب ذبيحة في الجبل ودعا أخوته ليأكلوا طعاما»، وبعد ذلك وخوفا من انتقام عيسو (الذي سرق منه البكورية) قام وقدم هدية له «مئتي عنز، وعشرين تيسا ومئتي نعجة وعشرين كبشا. ثلاثين ناقة مرضعة وأولادها أربعين بقرة وعشرة ثيران أتانا وعشرة حمير» تكوين ٣٢، على الرغم من أن قصة يعقوب مع خاله لم تأت على ذكر أنه كان من أملاكهما أي نوع من الحيوانات غير الأغنام، وموجزا لما سبق فقد قام محرر قصص التوراة باغتصاب الحق من أصحابه الشرعيين، ليمنحه إلى غير الشرعيين.

وأخيرا، وفي هذا سياق الحديث عن الأخلاق التوراتية، فقد قام يوسف باستغلال الشعب المصري لمصلحة الفرعون، من خلال إجبارهم على بيع ممتلكاتهم مقابل القمح، في

سنوات الجفاف، وهنا يمكن أن يتساءل المرء كيف تتعرض مصر إلى حالة من الجفاف، في الوقت الذي تعتمد فيه مصر على الزراعة المروية من نهر النيل، وليس على المياه المطرية التي قد تتقطع، ويحل الجفاف كما هو الأمر في سورية على سبيل المثال!.

وفي سياق الحديث عن سوء الجوهر الأخلاقي التوراتي، ففي الوقت الذي جاءت فيه التوراة على ذكر الكثير من الموبقات العبرانية، أظهرت أن الكنعانيين كانوا أصحاب أخلاق رفيعة، فهم الذين أحسنوا إلى غربة إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب من بعده، وجعلوهم يسكنون بين ظهرانيهم دون أن يمسوا كرامتهم، وتركوهم يرعون في أحسن مراعيهم، وأسكنوهم بين ظهرانيهم «هوذا أرضي قدامك، اسكن في ما حسن في عينيك»، وأعطوهم مدافن لأمواتهم ودون مقابل بعد أن قال إبراهيم لهم «أنا غريب ونزيل عندكم. أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي. فأجاب بنو حث (سكان مدينة الخليل) إبراهيم قائلين له. اسمعنا يا سيدي أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا ادفن ميتك. لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك. فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث»، «الحقل وهبتك إياه، والمغارة التي فيه لك وهبتها. لدى عيون بني شعبي وهبتك إياها. ادفن ميتك» تكوين ٢٣، وكثيرة هي المواقف التي تظهر حسن الوفادة، والكرم، والإخاء، والعطاء والمحبة الكنعانية، وموقف أبي مالك من إبراهيم، ومن ابنه إسحاق أيضا، وموقف أهل شكيم من يعقوب بعد فضيحة دينة، حيث قال لهم أهل شكيم «تعطوننا بناتكم، وتأخذون لكم بناتنا، لنصير شعبا واحدا.. الأرض واسعة الطرفين، اسكنوا وتملكوا لنصير شعبا واحدا»، وهو ما قاله أيضا لهم فرعون مصر «أرض مصر قدامك، فاسكن أباك وأخوتك في أفضل الأرض» تكوين ٤٧، وقد كافأهم العبرانيون بأن سرقوا من النساء المصريات ذهبهن، وكانت النساء المصريات قد وثقن بالنساء العبرانيات وأعاروهن ذهبهن، كما سيأتي لاحقا.

وفي الوقت الذي عامل الكنعانيون أصحاب الأرض، العبرانيين الغرباء بكل أخلاق تنم عن أصل طيب، كان العبرانيون يضمرون فيه الشر لهم والاستيلاء على أراضيهم حسب صك التمليك الإلهي والذي لم يمنحهم إياها لأنهم أصحاب أخلاق «ليس لأجل برك يعطيك الرب هذه الأرض الجيدة لتمتلكها، لأنك شعب صلب الرقبة» تكوين ٩، بل لأنه أختارهم بمحض إرادته من بين كل الشعوب دون أي مسوغ لهذا الاختيار، إلا إذا كان الرب أحبهم لأنه يشبههم من حيث أنهم بلا أخلاق، ولا مبادئ، ولأن العبرانيين يخافون على سوء أخلاقياتهم من التراجع فقد كانوا يرفضون - بعنصرية - أن يتزوجوا من الشعوب الأخرى، كي لا يمددوا، ويخففوا من سوء أخلاقياتهم؟؟

أسطورة الأرض الموعودة:

كل الشعوب بشكل عام وشعوب المنطقة بشكل خاص، بكل دياناتها السماوية والأرضية تلقت وعودا من آلهتها بأراض هي ليست لها، ففي مصر وعلى مسلة الكرنك التي أقامها تحتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م) جاء على لسان الإله: {إني أمنحك بقرار هذه الأرض بالطول والعرض، إني جئت وأعطيت الحق في سحق أراضي الغرب}، وقد جاء أيضا في قصيدة الخلق البابلية أن الإله مردوخ قد قسّم الأرض بين الشعوب، وأعطى لكل شعب نصيبه من الأرض، وكذلك عند الحثيين ورد في نشيد مرفوع للآلهة أرينا (الشمس): {أنت تسهرين على حفظ السماوات والأرض وتقيمين حدودا للبلاد}، أما في التوراة فقد جاء «حين قسّم العلي للأمم حين فرق بني آدم نصب تخوما لشعوب حسب عدد بني إسرائيل».

ولكن جميع هذه الوعود الإلهية لم تصل إلى درجة التعصب الأعمى للشعب المختار، وجواز القتل والمجازر للوصول إلى تحقيق الوعد كما هو عليه عند الشعب اليهودي الذي أعتبر الوعد الإلهي وثيقة تاريخية يجب الإقرار بها من قبل كل الشعوب والأمم بكل هيئاتها في كل مكان وعلى مر الزمان، ويمكن النظر إلى التوراة بمجملها على اعتبارها المنطلقات النظرية الإيديولوجية للاستيلاء على أرض كنعان، من سفر التكوين، وحتى سفر شارون الذي لم يتم الانتهاء من تدوينه حتى الآن.

«وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض. ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل الحيوانات» تكوين ٩، هكذا بدأ المحرر التوراتي بمنح المباركات للأباء الذين سيتشكل منهم لاحقا الآباء الأوائل للعبرانيين، ومن أجل أن تتحقق هذه المباركة، فقد أعطى نوحاً شريعة بسيطة تنص على عدم جواز قتل الإنسان للإنسان، كما وعده أيضا بالأمان، وأنه - أي الرب - لن يقوم ثانية، أو لن يحاول إفناء البشرية بالطوفان، وقد جعل الرب (يَهْوَه) قوس قزح علامة للميثاق بينه وبين الإنسان على الأرض، وبعد هذا الوعد، أو الميثاق، تتابع التوراة تسلسل شجرة سام تحديدا حتى وصلت إلى إبرام، حيث قام هو وزوجته ساراي وأبوه تارح، ولوط ابن هاران ابن تارح بالهجرة «من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض الكنعانيين. فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك» تكوين ١١، «وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك» تكوين ١٢: ١ بهذه العبارة، وبشكل مباشر، يخاطب الرب (يَهْوَه) إبرام، مقدما له تلميحا، أو إيحاء، عن الأرض التي سيمنحها له ولذريته إلى الأبد دون أن يسرد محرر سفر التكوين، كيف.. وأين تم التعارف بين الرب وإبرام؟!.

ولماذا استفرد إبرام دون سواه من البشر بهذا الوعد الذي بره به؟!.

والذي في مرحلة لاحقة من التاريخ التوراتي سيعتبر أحفاد إبراهيم من حفيده يعقوب دون سواهم شعبه المختار، والذين سيتوارثون صك التمليك بالأرض الموعودة، ولم يأت أي ذكر في التوراة على أن إبراهيم كان نبيا أو رسولا، الأمر الذي يسوغ علاقة الرب بإبراهيم.

ومنذ وصول أبرام (النبي إبراهيم) مهاجرا من مدينة أور في جنوب وادي الرافدين حيث يمر إلى حاران، ثم إلى أرض كنعان (يزمن لتلك الرحلة سنة ١٨٨٠ ق.م)، وقبل أن يتعرف على جغرافيا المكان، يدلي المحرر التوراتي بالصيغة الأولى لوعد الرب بمنح أبرام وذريته من بعده الأرض التي عليها يقيم أبرام دون تحديد واضح لجغرافيتها «واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم - نابلس - إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض. وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض» تكوين ١٢ : ٦، وهنا يتضح أن الأرض التي أعطى الرب صك تمليكها لإبرام ليست أرضا بكرا، بل هي أرض يقيم عليها أقوام آخرون، كما يتضح هنا أن تحرير هذا الوعد كتابيا تم في مرحلة من التاريخ لم يكن هناك كنعانيون في الأرض، وهي مرحلة ما بعد السبي البابلي، وبقي هذا الوعد تتناقله الألسن شفويا، أو أنه تم اختراعه في مرحلة السبي.

وفي مرحلة لاحقة يتلقى أبرام وعدا آخر يتحدد فيه شيء من جغرافيا الأرض الموعودة، والتي ستكون له ولذريته وإلى الأبد، وهي في مساحتها تساوي ما تستطيع عين المرء أن تراه «وقال الرب لأبرام.. ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا. لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» تكوين ١٣.

ويعود الرب ويذكّر أبرام بالوعد الذي تتسع جغرافيته كثيرا «وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها.. في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا. لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» تكوين١٥.

ولما بلغ أبرام من العمر ٩٩ سنة، جاءه ملاك الرب وقال له إن اسمه أصبح إبراهيم وتابع قوله «وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا. لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم» تكوين ١٧، وهنا ينفتح الوعد إلى عهد بين طرفين، والعهد هذا يكون بالختان الذي يجب أن يقوم به النبي إبراهيم وذريته من بعده، وقد قلّص الرب جغرافيا الأرض الموعودة على أرض كنعان فقط ولكنه عوّض عن ذلك بتأكيده على أنه عهد أبدي لإبراهيم ولنسله من بعده.

ولكن، مباشرة يعود الرب ويقتصر العهد على إسحاق فقط الذي لم يكن قد ولد بعد (دون ابن إبراهيم البكر إسماعيل) «ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده سارة في هذا الوقت في السنة القادمة» تكوين ١٧، والذي خاطبه قائلا «تغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت إبراهيم أبيك. وأكثر نسلك كنجوم السماء وأعطي نسلك جميع هذه البلاد وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض» تكوين ٢٦، ومن ثم يستفرد أو يستحضي هذا الوعد ليعقوب الذي كان قد أخذ المباركة من أبيه إسحاق بالخدعة كما كان قد أخذ أيضا حق البكورية من أخيه عيسو (العيص)، وقبل أن يغادر النبي يعقوب أرض كنعان في طريقه إلى حاران هاربا من وجه أخيه عيسو ينام ليلته الأولى في موقع بيت إيل الملاصقة لرام الله حاليا (يزمن لتلك الرحلة سنة ١٧١٨ ق.م) «الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك» تكوين ٢٨، وبعد أن يغيب يعقوب في حاران عقدين من الزمان، وفي نفس المكان بعد عودته ومعه عائلته يأتيه ملاك الرب أيضا «والأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك» تكوين ٣٥، وهذا آخر وعد يتلقاه الآباء الأوائل، وسينسى الرب (يَهْوَه) شعبه حتى مجيء المخلص النبي موسى حيث يعود ويتذكر الرب (يَهْوَه) وعده.

كما رأينا أن العهد الذي قطعه الرب مع إبراهيم كان معه ومع نسله دون تحديد في الوعود الأولى، وبعد مدة يحصره بابنه إسحاق دون ابنه إسماعيل البكر فقط لأنه - على الرغم من أحقيته بالاستفراد به - لا يحمل صفاء الدم العبري لأنه ابن جارية، كما هو الحال بالنسبة لإسحاق ابن إبراهيم من زوجته سارة العبرانية، ومرة أخرى يستفرد بالوعد والعهد يعقوب، ويستبعد منه من هو أولى به عيسو البكر، والذي كما أتى على توصيفه كان صيادا، وعقلية الصياد لا تتلاءم مع مفهوم الملكية العبرية اليهودية، لأن الصياد لا يميل إلى نمط الملكيات الخاصة، أما الراعي الذي بتدجينه الحيوانات عرف مفهوم الملكية، ومن هذه المعرفة أو على هامشها تأسس النظام القبلي العشائري الذي يقدّس الآباء، وبالتالي قيمهم وأعرافهم ويتخذ من الماضي مرجعية تاريخية، وبذلك فإن يعقوب هو المناسب للاستفراد بتوارث العهد لا سيما وأنه يتقن فن الخدعة، وسيتزوج من بنات قبيلته وبذلك سيكون أبناؤه ذوي دماء صافية، وهنا لنا أن نتساءل لماذا لم يتزوج أبناء وأحفاد إبراهيم من أهله في مدينة أور، لماذا كانت زوجة إسحاق، وزوجة يعقوب من حاران وليستا من أور الكلدانيين.

إن محرري سفر التكوين قاموا بعمليات غربلة مستمرة للآباء الأوائل منذ آدم، وحتى يعقوب، كي ينتهوا إلى تحديد شعب الله المختار، كما قاموا، وبشكل مواز، بعمليات قص

مقاطع من روايات مختلفة لقصص متعددة من أكثر من تراث كما كنا قد ذكرنا، ثم قاموا بإعادة لصق ما قصوه من تلك القصص، ومن أهم النصوص التي قاموا بالعمل عليها هو نص القبائل الإسرائيلية ورمزها، أو أبوها الأول هو إسرائيل، والعربية والتي يمثلها إسماعيل، ونص قبائل شرقي الأردن التي يمثلها عيسو، ونص القبائل العبرية التي يمثلها يعقوب، وغيرها من نصوص التراث الشفوي لشعوب المنطقة، وهذا ما جعل السرد الدرامي لسفر التكوين مفككا، ومتنافرا، ومكررا، نتيجة استلاب أكثر من رواية لأكثر من تراث، وقد قام محررو اليهودية التي تمثل فرعا من الديانة الحنيفية الإسرائيلية بطمس واغتيال أصلها كي يكون نصها، ورموزها الأسطورية هي الأصل، فاستبعدوا إسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم (الذي ما زال أبا للحنيفية العربية)، وتركوا الخشبة لإسحاق (المزارع - الراعي)، ومن ثم طمسوا نصيا عيسو (الصياد) بكر إسحاق، وتركوا خشبة التاريخ ليتمسرح عليه يعقوب (الراعي) وأبناؤه من بعده، وحتى يعقوب فقد غيّروا اسمه إلى إسرائيل، وكأنهم أرادوا حجب اسمه الذي يشير ذهنيا إلى أخيه عيسو وأبيه إسحق، فإسرائيل بداية جديدة، ولليهود فحسب تعود الديانة الحنيفية، وأتباعها فقط هم شعب الله المختار، ولهم فقط يعود حق امتلاك الأرض الموعودة.

ومن القصص التي وردت في التوراة بروايتين فيهما بعض الاختلاف، هي قصة أو أسطورة التكوين، وقصة الطوفان، حيث يرد في الرواية الأولى أن الرب أمر نوحاً أن يدخل معه في الفلك إضافة إلى عائلته «كل حي من كل ذي جسد اثنين.. تكون ذكرا وأنثى. من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن دبابات الأرض كأجناسها» تكوين ٦، أم في الإصحاح السابع «من جميع البهائم.. سبعة سبعة ذكرا وأنثى.. ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكرا وأنثى. ومن طيور السماء أيضا سبعة سبعة ذكرا وأنثى لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض» تكوين ٧.

ومن الأمثلة الواضحة على فشل المحرر التوراتي في دمج روايتين لنفس القصة، سنأخذ مطلع قصة يوسف للتدليل على ذلك، فقد جاء في سفر التكوين، أن أولاد يعقوب الذي كان ينزل في بالقرب من مدينة حبرون، كانوا يرعون بقطعان أغنامهم بالقرب من مدينة شكيم، فبعث يعقوب بابنه المحبب، والمدلل يوسف ليطمئن عليهم، حيث وجدهم بالقرب من مدينة دوثان، وهناك، وبسبب غيرتهم الشديدة منه، لأنه المحبب عند والدهم، فقد فكروا بالتخلص منه، وبعد أن أخذوا قميصه الملون، قاموا بإلقائه ببئر ماء فارغة «ثم جلسوا ليأكلوا طعاما. فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء

ويلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر. فقال يهوذا لإخوته ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه. تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا. فسمع له أخوته. واجتاز رجال مديانيون تجار. فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة. فأتوا بيوسف إلى مصر. ورجع رآوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر. فمزق ثيابه. ثم رجع إلى أخوته وقال الولد ليس موجودا. وأنا إلى أين أذهب.. وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط» تكوين ٣٧.

وهنا من الواضح تماماً ما تم من عمليات القص واللصق على الروايتين اللتين تم الاعتماد عليهما لسرد قصة التخلص من يوسف من قبل أخوته، وقد ميّزت بين الجمل التي أُخذت من كل رواية على حدة، حيث ميّزت واحدة بوضع خط تحت الرواية الأولى، وهي التي تتحدث عن أن أخوة يوسف بعد أن كانوا قد ألقوه في البئر الناضب ليموت فيه، مر مصادفة من هناك تجار إسماعيليون في طريقهم إلى مصر، فقرر أخوة يوسف أن يستفيدوا من أخيهم يوسف بدل أن يموت بلا فائدة، لا سيما بعد أن أخذتهم بعض الشفقة عليه بتأثير من رآوبين، فأخرجوه من البئر وباعوه إلى التجار الإسماعيليين، الذين أخذوه معهم إلى مصر، أما الرواية الثانية فهي التي ميزتها بالخط الغامق العريض، وهي تنص على أن أخوة يوسف بعد أن ألقوا بيوسف بالبئر الناضبة، مضوا بعيدا، ومصادفة مر من هناك تجار مديانيون، ويبدو أنهم سحبوا يوسف من البئر، ولما عبروا عاد رآوبين ليطمئن على حال أخيه يوسف في البئر، ولكنه لم يجده، ولأنه الوحيد الذي كان يشعر بالشفقة عليه ضرب على رأسه، أما يوسف فقد أخذه المديانيون معهم إلى مصر، وهناك باعوه إلى رئيس شرطة فرعون المسمى فوطيفار.

النواة التاريخية في أسطورة مدينة سدوم وعمورة:

كنت قد أشرت، في سياق حديثي عن الأسطورة التاريخية، عن وجود نواة تاريخية لكل أسطورة، وفي هذا السياق سآخذ من أسطورة خراب سدوم وعمورة مثالا أحاول من خلاله استقراء النواة التاريخية لتلك الأسطورة التي تقول إن لوط بعد أن اعتزل، أو تفرق عن إبرام مضى بممتلكاته من قطعان الأغنام «ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشرارا وخطاة لدى الرب جدا» تكوين ١٣، ولأنهم أشرار، ولأنهم كانوا يقومون بالفحشاء، والمنكر، فقد بعث الرب لهم بقوة غازية من ممالك شرقي الأردن، لكن إبرام استطاع أن يستعيد من سُبي منهم، ثم استطاع أن يعيد الممتلكات أيضا، ولكن قوم سدوم لم يتعظوا بل بقوا على ما هم عليه، ولذا فقد قرر الرب أن يقوم بنفسه بعقابهم، فنزل على الأرض وبرفقته

اثنان من الملائكة، وقبل أن يذهب الرب وملاكاه إلى مدينة سدوم ليدمروها، مروا بالقرب من خيمة إبراهيم الذي كان قد نصبها قرب مدينة حبرون، فركض إبراهيم ودعاهم إلى خيمته، وكان وقت حر الظهيرة، وأسعفهم بالماء ليشربوا، ويغتسلوا، وذبح على شرفهم عجلا وأقام وليمة، وتناولوا طعامهم تحت أشجار البلوط القريبة من الخيمة، وبعد ذلك قالوا لإبراهيم «أين سارة امرأتك. فقال ها هي في الخيمة. فقال إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن» تكوين ١٨، «ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم. وكان إبراهيم ماشيا معهم ليشيعهم. فقال الرب هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله... وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب» الذي أفشى لإبراهيم ما نوى عليه، فحاول إبراهيم أن يثنيه عن قراره بحجة أن هناك من الأشخاص الخيرين الذين لا ذنب لهم، بل قال له معاتبا «حاشا لك مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم. حاشا لك أديان كل الأرض لا يصنع عدلا» وهكذا استطاع إبراهيم أن (يأكل في رأس الرب حلاوة)، ولذا فقد، على ما يمكن استنتاجه، قرر الرب أن يعفوا عن لوط وعائلته دون باقي سكان المدينة، وفي هذا الوقت وصل الملاكان مساء إلى مدينة سدوم «وكان لوط جالسا في باب سدوم. فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض. وقال يا سيدي ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما. ثم تبكران وتذهبان في طريقكما. فقالا لا بل في الساحة نبيت. فألح عليهما جدا. فمالا إليه ودخلا بيته. فصنع لهما ضيافة وخبز فطيرا فأكلا» تكوين ١٩، وفي هذه الأثناء أحاط أهل مدينة سدوم ببيت لوط، وطلبوا منه الرجلين كي يفحشوا بهما، وهددوه بأنهم سيفحشون به أيضا إن لم يسلّم لهم الرجلين، ولما علم الرجلان (الملاكين) بذلك، أدخلا لوطاً إلى داخل المنزل، وأغلقا باب البيت، وطلبا من لوط أن يخرج من المدينة هو وعائلته لأنهما سيقومان بتدميرها على رؤوس أصحابها، كما طلب منهم أن لا ينظروا ورائهم، وكان حينها وقت الفجر، وبعد أن خرج لوط وابنتاه وزوجته، وابتعدا عن المدينة قليلا قام الرب بإمطار كبريتا ونارا على سدوم وعمورة، وقلب مدن المنطقة أسفلها إلى أعاليها، وحينها نظرت زوجة لوط وراءها فصارت عمود ملح.

هذه أسطورة سدوم وعمورة كما أتت في سفر التكوين، والتي يُعتقد أنها أصل قصة عاد وثمود في التراث الإسلامي، هنا يمكن لنا أن نضع عدة سيناريوهات محتملة للنواة التاريخية لهذه الأسطورة، والتي يمكن أن نبسطها بأحد الافتراضات الأكثر احتمالا، والتي تقول إن مجموعة من رجال الحرب كانوا في طريقهم إلى الغزو، وقد مروا بالقرب من مضارب (إبراهيم)، وكان على رأس هذا الجيش قائد (الرب) ويساعده رجلان (الملاكين)، وقد قام

(إبـراهيم)، توقيـا، أو فرْضـا، أو إتـاوة، بـأن ذبـح للرجـال عجـلا كـي يـأكلوا، ويبـدو أن رب الجنـود قـد رأى سـارة فاشـتهاها، أو ربمـا طلبهـا مـن إبـراهيم مباشـرة، مـع العلـم أن (سـارة) لم تكن قد أنجبت من (إبراهيم) لعيب فيه، وليس فيها، وبينما بعث برجاله بقيادة مساعديه إلى الغزو، بقي رب الجنود في الخباء مع (سارة)، ومن هذا اللقاء حملت (سارة)، وربمـا هـذا يفسـر لمـاذا قـال لإبـراهيم بأنـه بعـد مـدة مـن الزمـان سـوف «يكـون لسـارة امرأتـك ابـن»، ولم يقـل لـه (سيكون لك من سارة ابن)، وحقا كان ما وعد فقد ولدت سارة بعد عدة أشهر ابنها الوحيد (إسحق)، كما تكررت نفس الحادثة مع إسحاق، الذي لم ينجب من زوجته رفقة بعد عشرين سنة مـن زواجهمـا، حيـث حملت بعـد أن كـان إسـحاق قـد قـدم زوجتـه إلى أبيمالـك، كمـا أن يعقوب لم ينجب من زوجاته إلى بعد مدة طوية من زواجـه، وفي هـذا السـياق، وخـارج الموضـوع، فقد ورد الكثير من القصص التوراتية، واليهودية، وانتهاء بالمسيحية، التي تبين إصـابة اليهـود بحـالات مـن العقـم، أو إشـكاليات حـول موضـوع الـولادة، وشـرعية الحمـل والـولادة، وكـثيرا مـا كـان (الـرب؟) يتدخل في تدبير هـذه الحـالات، وربمـا أن الـرب بصفته مسؤولا عـن الخصـب فقـد كـان ينـام مـع الزوجـات العـاقرات، علـى اعتبـار أنـه زواج مقـدس، وقـد عـرف عـن بعـض الشعوب القديمة أن الزوجات العاقرات، أو اللواتي لا ينجبن يقـدمن أجسادهن في أعيـاد عقائـد البعث لأشخاص لا على التعيين، أو للرجال الكهنة، من أجل أن تدب الخصوبة فيهن، وغالبـا ما كان المواليد ذوي شخصيات مميزة، وكثيرا ما كانوا من الأنبياء تحديدا!

كان رب الجنود قد أفشى لإبراهيم ما يود فعله بمدينة سدوم وعمورة، وأمام كل هـذا العطاء، ومع بعض المديح، ومع استنهاض بعض القيم الأخلاقيـة، فقـد لبـى رئـيس العصـابة، أو رب الجنود رجاء (إبراهيم) بأن يعفو عن قريبه (لوط) عندما يغـزو برجالـه مدينـة سـدوم، ويبـدو أن الجنـود الـذين ذهبـوا لتـدمير سـدوم قـد نصبوا كمينـا حـول المدينـة، في الوقـت الـذي دخـل رجلان ليتجسسا على المدينـة مـن الـداخل، وقـد استضـافهما لـوط، ولمـا أدرك أهـل المدينـة ذلـك حاولوا القبض عليهما، ولكن الرجلين استطاعا أن يتحصنا في المنـزل حتـى الفجـر، حيـث بـدأ رجـال الغـزو بـالهجوم علـى المدينـة، وفي تلـك الأثنـاء، قـام الـرجلان عرفانـا، بـالعفو عـن لـوط وعائلة، وأخرجوهم من المدينة قبل أن يتم إحراقها.

هـذا، وربمـا أن تلـك المدينـة كانـت قـد تعرضـت إلى زلازل، أو ربمـا، وهـو الأكثـر احتمـالا، إلى بركـان، في زمـان سـحيق، فأدخلت ذهنية البركـان في سـرد تلك القصـة، ولـذا فقـد ورد أن تـدميرها قـد تم بوابـل مـن الكبريـت، والنـار، كمـا أن تلك الأسـطورة حاولـت أن تفسر، في الوقت نفسه، وجود التشكيلات الطبيعية لأعمـدة الملـح على شـواطئ البحـر الميت،

وهي التي تمثل نمطا من أنماط الأسطورة التفسيرية، والتي أتت من خلال قصة امرأة لوط التي تحولت إلى عمود من الملح لأنها نظرت خلفها.

وهذه الأسطورة يمكن أن نستبدل أسماء شخوصها، دون أن نمس جوهرها، كما يمكن أن نضعها في أي زمان، كما يمكن أن نضعها أيضا في أي مكان، ولكن شريطة أن نحذف منها تحول امرأة لوط إلى عمود من الملح، لأن هذه الجملة تعطي للمكان بعض الخصوصية الجغرافية.

ومن هذه الأسطورة تم تصنيع أسطورتين منها سنتعرف عليهما لاحقا، هما أسطورة الجاسوسين اللذين بعث بهما يشوع إلى مدينة أريحا، وأسطورة أخرى مسرحت في عصر القضاة، أو أن هذه الأسطورة، أي أسطورة سدوم وعمورة، ركبت من الأسطورتين سوية.

الرب في مرحلة الآباء الأولين:

بعد أن كانت التوراة قد قدمت الرب، على أنه كائنا شموليا، قادرا على عمل أي شيء في سياق عمليات الخلق والتكوين التي نفذها في ستة أيام، والتي في نهايتها «قال الله نعمل الإنسان على صورتنا» تكوين ١، وفجأة، وبعد أن صنع الإنسان على صورته، أصبح الرب شبيها بما صنع، وليس العكس، وأصبح محدودا كمحدودية الإنسان، بل إنه بدا في كثير من المواقع أكثر محدودية من الإنسان نفسه، وله صفات مورفولوجية وشخصية، وأخلاقية تشبه ما لدى الإنسان، أو حتى أدنى من ذلك، فالله بدا كاذبا حين طلب من آدم وحواء ألا يأكلا من ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، وهددهما بأنهما فيما لو فعلا ذلك فسوف يموتان، ولكن في الحقيقة، وبعد أن «رأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعَلما أنهما عريانان» تكوين ٣، وهكذا تفتحت عيون آدم وحواء، ولم يموتا كما قال لهما الرب، والجدير ملاحظته هنا هذا الخلط في هذا النص الذي ذكر أن المرأة قد رأت الشجرة، وأعجبها شكلها قبل أن تأكل منها، فكيف إذا تقول الرواية إن عيون آدم وحواء لم يتفتحا إلا بعد أن أكلا من الشجرة التي في وسط الجنة، وبذلك نستنتج أن الله كان قد كذب على آدم وحواء، بل وإنه أخفى الحقيقة، وهي التي تقول إن إحدى الأشجار في الجنة يؤدي أكل تمرها إلى أن الإنسان يصبح خالدا مثل الآلهة، وخوفا من ذلك فإن الرب قرر أن يطرد آدم وحواء من الجنة لأنهما سيصبحان إلهين «قال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة

أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد»، ويبدو الله محدودا في قدراته، فهم لم يعرف أن آدم وحواء قد أكلا من الشجرة المحرمة، فقد جاء أن الرب كان يتمشى مثل الإنسان في الجنة، فحاول آدم وحواء التخفي عنه لأنهما لم يصغيا لأوامره، ولأنهما أصبحا يخجلان من عورتيهما بعد أن تفتحت أعينهما، ولم يكن الرب يعرف أين كانا متخفيين، كما أن الرب، وبعد أن قرر طردهما من الجنة، عمل خياطا «وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما» كي يستر بها عورتي آدم وحواء.

وبعد أن طرد الرب حواء وآدم من الجنة بدا ذاتيا، وغير عادل حين قبل أضحية هابيل الراعي، ولم يقبل أضحية قايين، الذي قام بقتل أخيه من أجل ذلك، وهكذا فإن الرب هو من حرض على أول جريمة قتل في التاريخ الإنساني الديني.

كما أن محدودية الرب برزت في عدم معرفته، على الرغم من أنه من قام بخلق الإنسان، إلى أن الشر يشكل إحدى المواد الرئيسية في بنية الإنسان، كما أنه لم يعترف بمسؤوليته الأخلاقية عن سوء صناعته للإنسات الذي عاث فسادا في الأرض، فقرر أن يبيد البشرية من على وجه الأرض، بل أنه كظالم قرر أن يبيد الحياة كاملة، من خلال الطوفان، على الرغم من أن الإنسان، والإنسان فقط، هو وحده من أثم على وجه الأرض، ولكن الرب، وبعد أن فعل فعلته، وبعد أن قام نوح بإنقاذ الإنسان من الفناء التام، ندم الرب على ما كان قد نوى عليه، وقرر أن لا يعود ثانية إلى محاولته لإبادة الإنسان، معترفا بالجانب الشرير فيه، ولكن الرب، وتخوفا على منصبه، وموقعه القيادي، من بقاء البشر متحدين في وحدة إنسانية اجتماعية ثقافية لغوية واحدة، «وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض» تكوين ١١، وهكذا عمل الرب حسب السياسة الاستعمارية التي تقول (فرق تسد).

وبعد أن أوصل المحرر التوراتي شجرة العائلة حتى الآباء الأوائل لليهودية، أصبح الرب غامضا دون ملامح محددة له، ولم يكن يظهر على مسرح الأحداث إلا فيما ندر، وفقط من أجل التأكيد على ملكية الأرض، وأحيانا من أجل بعض الموضوعات الاجتماعية كالتبشير بمجيء مولود، ومرة أخرى سأناقش النص التي كنت قد تحدثت عنه في سياق حديثي عن أسطورة سدوم وعمورة في الفقرة السابقة «وظهر له - لإبراهيم - الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار. فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض. وقال يا سيد إن كنت قد وجدت

نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة. فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون. لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت.

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال أسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا. اعجني واصنعي خبز ملة. ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا رخصا وجيدا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله. ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم. وإذ كان هو واقف لديهم تحت الشجرة أكلوا.» تكوين ١٨.

والنص الأصلي الذي تم نقل هذا النص عنه، كان الرب يتمثل في شخصية رجل واحد، ثم جعل هذا الرجل ثلاثة، أو أن هذا الالتباس في هذه الرواية كان نتاج دمج نصين أحدهما أتى على أن الرب تمثل في رجل واحد، وآخر تمثل في ثلاثة رجال هم الرب، ومساعداه أو ملاكاه واللذان ذهبا لإبادة سدوم وعمورة، أما الرب فقد تأخر عنهما عند إبراهيم..؟

والرب في هذا التصور يماثل تماماً إنسانا عليه أن يمشي على رجليه كي ينتقل في المكان، كما أنه أسير الزمان، كما أنه خاضع إلى قدرة جسدية محدودة، فهو يعاني من التعب والارهاق، كما هو الإنسان، أثناء المشي على قدميه في ذهابه إلى تحقيق إرادته، ويشعر بالجوع الشديد، ويعلو جسده الغبار، كما تبرز محدوديته أكثر فأكثر من خلال قصة صراع الرب مع يعقوب عند مخاضة يبوق، حيث انكسر الرب، والذي لم يكن يعرف اسم يعقوب الذي صارعه وانتصر عليه، بل بدا الرب من خلال هذه الرواية كما لو أنه كان شيطانا، أو جنيا يخاف من ضوء النهار، حيث ترجى يعقوب قائلا «أطلقني لأنه قد طلع الفجر» تكوين ٣٢، وقد استغل يعقوب هذه النقطة، وحصل من الرب على المباركة.

وأخيرا لنا أن نتساءل عن الفارق بين رب الآباء الأوائل، وبين الإله إيل الكنعاني الذي وصف على أنه رب شمولي، لا يتجسد، ولا يتصل مع الإنسان إلا من خلال الأحلام، وهو الذي كان يكهن له ملكي صادق الذي بارك أبرام قائلا «مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض» تكوين ١٤.

العبرانيون:

لا أريد الخوض في بحث العبريين أو العبرانيين في نصوص الحضارات، ولكني هنا أريد أن أتحدث فحسب عن موقف الشعوب من العبريين وبالذات الفراعنة حسب ما جاء في التوراة، فقد جاء في قصة يوسف مع زوجة سيده بعد أن رفض أن يصغي لها لمّا راودته على نفسها،

فحاولت أن تفتري عليه، ونعتته بالعبراني، كإهانة إلى أصله «قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا» تكوين: ٣٩: ١٤، وقالت لزوجها «دخل إلي العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني» تكوين ٣٩: ١٧.

وورد أيضا تعبير عبراني على لسان يوسف بعد أن أُودع السجن وهو يخاطب زميليه السجينين من أجل أن يتوسطا له عند فرعون، «لأني قد سُرقت من أرض العبرانيين وهنا أيضا لم أفعل شيئا حتى وضعوني في السجن» تكوين ٤٠: ١٥.

وأيضا لما صنع يوسف مأدبة لأخوته، فقد أجلسهم على مائدة، وأجلس المصريين على مائدة أخرى «لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاما مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين» تكوين ٤٣: ٣٢.

نلاحظ أن التوراة تبين أن العبرانيين كانوا معروفين كجماعة أو كشعب أو كجنس أو كطبقة اجتماعية من قبل المصريين والذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم ذوو منزلة وضيعة، كما يتضح أنهم كانوا يقيمون في جغرافيا محددة ومعروفة لدى المصريين (أرض العبرانيين).

زمان، ومكان تحرير النص:

إن التوراة (الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس) وحسب ما جاء في سفر التثنية قام موسى بكتابتها، ولكن كل الأدلة تؤكد بشكل حاسم أن التوراة بدئ بكتابتها في السبي البابلي، بخلاف ما تدعيه التوراة، وما يدعيه اليهود، وهو الأمر الذي سيتم نقاشه في غير موضع، ولكن ما يهمنا هنا هو بعض الجمل التي جاءت في سفر التكوين، والتي تؤكد على أن سفر التكوين قد كتب في مراحل متأخرة، ففي سياق سرد السفر لقصة تقديم إبراهيم إسحق ذبيحة للرب «فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع (يَهْوَه) يرأه» تكوين ٢٢، وهذا يتعارض مع ما جاء في سفر الخروج «فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم. فقال الله لموسى أهيه الذي أهيه.. هذا اسمي إلى الأبد» «ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب. وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء. وأما باسمي (يَهْوَه) فلم أعرف عندهم» خروج ٦.

وهو يدل على أن هذا النص كتب بيد شخص كان على اطلاع بالإله (يَهْوَه)، أما الجملة الأهم فقد جاءت في الإصحاح ٣٦ من سفر التكوين «وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبلما مَلَكَ مَلِكٌ لبني إسرائيل»، وهذا يدل على أن زمن كتابة النص تعود إلى مرحلة المملكة الإسرائيلية، أو ما بعد المملكة الإسرائيلية.

ويمكن أن نضيف هنا إلى أن النص التوراتي، وبسبب كثرة محرريه، وعدم كفاءة البعض منهم، قد أتى مفككا، فقد جاء على سبيل المثال في سفر التكوين: ٤ «وكلم قايين هابيل أخاه وحدث أن كانا في الحقل»، وهي في شكلها المراد (وحدث أن كانا في الحقل فحدّث قايين أخاه هابيل).

النسب والتزمين التوراتي:

لقد تشكل التجمع البشري الأول، حول سرة الأم، أي أنه كان مبنيا على القرابة المتأتية من الأم، لأن الولد هو ابن أمه في الوقت الذي ليس هناك من يقين من هو أبوه، ومع الزمن، وبسبب عدة تطورات اجتماعية، ومعاشية، فقد استطاع الأب من الاستحواذ على مركزية التجمع البشري، وبذلك تحول المجتمع الأمومي (المضريركي) إلى المجتمع الأبوي (البطريركي)، وقد بقي في بعض المجتمعات بقايا من عادات، ومن أنظمة المجتمع الأمومي، وعلى الرغم من أن اليهودية بطريركية بامتياز، إلا أن بعض الأمومية (المطريركية) بقيت مندخلة في البطريركية بطريقة حويصلية، من خلال اعتبار اليهودي هو تحديدا من ولد من أم يهودية كنص تشريعي، ولكن تنفيذا فلم يكن كذلك فآباء اليهودية كان أغلبهم من أمهات غير يهوديات، كما سنرى ذلك لاحقا.

إن كل مجموعة من الأفراد، والذين غالبا ما تكون هناك رابطة ما تجمعهم، وعلى رأسها رابطة الدم، يأتلفون فيما بينهم، ويحاولون أن يتكوكبوا حول مركز يشكل مرجعا، وهوية، وعمودا فقريا لتلك الجماعة، وغالبا ما يكون هذا المركز هو شخص ما ساهم بتشكيل الجماعة، ويصبح هذا الشخص أبا رمزيا، روحيا أخلاقيا، ثقافيا، أثنيا، لتلك الجماعة، بغض النظر عن أثنيات تلك الجماعة، ومع الزمن يحوّل أعضاء الجماعة الأب الروحي إلى أب بيولوجي عرقي، ويذهب أعضاء الجماعة إلى أنهم منحدرين من دم واحد، ومن هذا الأب البذرة يتم اختلاق شجرة تشكل جذورها، وجذعها (الأب) أو الآباء الأوائل، أما جذوعها وفروعها، فتشكل الأسباط الذين غالبا ما يعودون إلى عروق متعددة إئتلفت فيما بينها لأسباب اجتماعية، أو سياسية أو اقتصادية، وتحاول تلك الجماعات التأكيد على انحدارها من أصل واحد كلما شعرت بخطر ما قد يهدد أمنها، وإتلافها، لا سيما إذا ما كان هذا الخطر يتأتى من جماعات عرقية أثنية، ومع الزمن تتحول هذه الشجرة الافتراضية التي انبثقت من بذرة واحدة، إلى حقيقة مطلقة يعتقد بها الأحفاد، وهذا الاعتقاد يتوطد في تراث الجماعة، ويصبح من المسلمات مهما كان هذا الاعتقاد يتعارض مع العقل، والمنطق، لا سيما وأن الاختلافات الشكلية المورفولوجية لأفراد تلك الجماعات

الأثنية، تبدأ بالتراجع، والخفوت لمصلحة التشابه بسبب التزاوج، والحياة المشتركة في بيئة واحدة، وخضوعهم لعادات ونظم صحية وطعامية واحدة، وطقوس وشعائر مشتركة، ومع الزمن يزداد التمازج، والاندماج، ويصبح التماثل والتشابه الشكلي أكثر وضوحا من الاختلاف، وحينها ترسم الجماعة صورة للأب المؤسس، تمثل الجانب الأكثر تشابها في الجماعة، ويتعزز هذا التشابه الشكلي بتشابه روحي أخلاقي ثقافي، من خلال التزام كل فرد، وبإرادته الحرة، أو بإرادة الجماعة بأخلاقيات وتصورات الأب الروحي المؤسس الذي يشكل مرجعا مقدسا له، حيث يؤكد من خلال ذلك الفرد على عمق ارتباطه بتلك الشجرة، ويتحول هذا الارتباط إلى عبادة الأب بطريقة ذهنية غير مدركة من قبل الفرد.

واختلاق هذه الشجرة العرقية، يترافق مع اختلاق شجرة ثقافية واحدة، تقوم نصوصها بتشكيل جذع واحد، وفروع، وغصون تعزز انتماءها من خلالها، حيث يتم اختلاق نصوص تؤكد فيها - ومن خلالها - تصورها عن أصلها المشترك المتحدر من بذرة واحدة.

وهذه حال إيلاف الجماعات العبرية، وحال توراتها التي دأبت، لا سيما في سفر التكوين على متابعة النسب، والحسب للجماعات العبرية، وتشكيل شجرة أعاد إليها المحرر التوراتي كل الجماعات العبرية، من الجذع عابر، أو إبراهيم، إلى (الآباء الآوائل) الأسباط الاثني عشر، إلى الغصون، والغصينات.

وكبداية، وكي يجذّر المحرر التوراتي هذه الشجرة في عمق التاريخ فقد قام بوضع مخطط مفصل لشجرة العائلة الإنسانية بخطوطها العريضة ابتداء بآدم، ومرورا بنوح (آدم الثاني)، واستمرار بإبراهيم الذي أسس التاريخ، وانتهاء بأبنائه الذين عليهم أن يعيدوا صناعة هذا التاريخ مستمدين من رحلته خارطتهم المكانية التي عليهم أن يحولوها إلى خارطة جغرافية تاريخية سياسية، وهكذا ومن خلال هذا الشجرة فقد تحول الآباء الأوائل إلى ساق تفرع عنها الأسباط، الذين تجذعوا، وتغصنوا، وتورقوا إلى مجموعات متعددة يستمدون شرعية وجودهم من النسغ التاريخي الذي يمدهم به الساق التاريخية للآباء الأوائل، ويؤكدون على انحدارهم من دماء صافية، كما يؤكدون على حقهم في المطالبة بإرث هؤلاء الآباء الأوائل في البلاد التي عاشوا فيها، وتعتبر التوراة في مجملها عبارة عن ادعاء (أيديولوجي) من أجل الاستيلاء على الأرض التي كانوا يحلمون بامتلاكها، وبينما قام محررو التوراة بسرد أسطورة التكوين بشكل شديد الإسهاب، والذي على الرغم من ذلك لم يجنبها من تفككها البنيوي النصي، فقد كان محررو التوراة شديدي الحرص، على صناعة شجرة قبلية دقيقة، وإن كان اليهود لم يأتوا بجديد في عملية التنسيب القبلي، الذي اهتمت به جميع شعوب بلاد الشرق الأدنى

القديم، ولا سيما منهم العرب، إلا أن اليهود هم فقط من حملوا هذه العملية التسيبية العنصرية، والشوفينية التي لا تمتلك أي بعد أخلاقي في نظرتها إلى باقي الشعوب، والأمم.

التزمين التوراتي لشجرة العائلة الإنسانية كما وردت في التوراة:

آدم	٠ - ٩٣٠	بعد هبوط آدم	
شيث	١٣٠ - ١٠٤٢	بعد هبوط آدم	
أنوش	٢٣٥ - ١١٤٠	بعد هبوط آدم	
قينان	٣٢٥ - ١٢٣٥	بعد هبوط آدم	
مهليئيل	٣٩٥ - ١٢٩٠	بعد هبوط آدم	
يارد	٤٦٠ - ١٤٢٢	بعد هبوط آدم	
أخنوخ	٦٢٢ - ٩٨٧	بعد هبوط آدم	
متوشالح	٦٨٧ - ١٦٥٦	بعد هبوط آدم	
لامك	٨٧٤ - ١٦٥١	بعد هبوط آدم	
نوح	١٠٥٦ - ٢٠٠٦	بعد هبوط آدم	٦٠٠ قبل الطوفان - ٣٥٠ بعد الطوفان
سام بن نوح	١٥٥٦ - ٢١٥٦	بعد هبوط آدم	١٠٠ق. ط-٥٠٢ب.ط
أرفكشاد بن سام	١٦٥٨ - ٢٠٩٦	بعد هبوط آدم	٢ ق. ط - ٤٤٠ب.ط
شالح بن أرفكشاد	١٦٩٣ - ٢١٢٢	بعد هبوط آدم	٣٧ - ٤٧٠ ب.ط
عابر بن شالح	١٧٢٣ - ٢١٨٧	بعد هبوط آدم	٦٧ - ٥٣١ ب.ط
فالج بن عابر	١٧٥٧ - ١٩٩٦	بعد هبوط آدم	١٠١ - ٣٤٠ ب.ط
رعو بن فالج	١٧٨٧ - ٢٠٢٦	بعد هبوط آدم	١٣١ - ٣٧٠ ب.ط
سروج بن رعو	١٨١٩ - ٢٠٤٩	بعد هبوط آدم	١٦٣ - ٢٩٣ ب.ط
ناحور بن سروج	١٨٤٩ - ١٩٩٧	بعد هبوط آدم	١٩٣ - ٣٤١ ب.ط
تارح بن ناحور	١٨٧٨ - ٢٠٨٣	بعد هبوط آدم	٢٢٢ - ٤٤٧ ب.ط
إبراهيم بن تارح	١٩٤٨ - ٢١٢٣	بعد هبوط آدم	(٢٩٢ - ٤٦٧ب.ط) (١٩٥٥ق‌م- ١٧٨٠ق‌م)

فهرست التاريخ التوراتي حسب التزمين التوراتي:

مولـــــــد إبـــــــراهيم	١٩٥٥ ق.م
هجرة إبراهيم من حاران إلى بلاد كنعان	١٨٨٠ ق.م
هجرة إبراهيم من بلاد كنعان إلى مصر	١٨٧٨ ق.م
غزوة ممالك بلاد الرافدين على بلاد كنعان وسبي لوط	١٨٧٥ ق.م
مولـــــــد إسماعيـــــــل	١٨٦٩ ق.م
تـــــدمير ســـــدوم وعمـــــورة	١٨٥٦ ق.م
مولـــــــد إســـــــحاق	١٨٥٥ ق.م
مولـــــــد يعقـــــــوب	١٧٩٥ ق.م
مـــــــوت إبـــــــراهيم	١٧٨٠ ق.م
هجـــــرة يعقـــــوب إلى حـــــاران	١٧١٨ ق.م
مولـــــــد يوســـــــف	١٧٠٤ ق.م
عـــودة يعقـــوب إلى بـــلاد كنعـــان	١٦٩٩ ق.م
وصـــــول يوســـــف إلى مـــــصر	١٦٨٧ ق.م
هجـــرة يعقـــوب وعائلتـــه إلى مـــصر	١٦٦٤ ق.م
مـــــــوت يعقـــــــوب	١٦٤٧ ق.م
مـــــــوت يوســـــــف	١٥٩٤ ق.م

وبالتدقيق في الكرونولوجيا التوراتية السابقة نجد أن طوفان نوح الذي حدث بعد هبوط آدم بنحو ١٦٥٦ سنة، وكان عمر نوح حينها ٦٠٠ سنة، وقد عاش نوح بعد الطوفان ٣٥٠ سنة والذي مات فيه جد نوح متوشالح، وقد ولد إبراهيم بعد الطوفان بـ ٢٩٢ سنة، وهذا يعني إن نوح أدرك إبراهيم وعاصره لمدة ٥٨ سنة، ومات موسى بعد ٥٤٥ سنة من ولادة إبراهيم أي بعد الطوفان بـ ٨٣٧ سنة، كما أن إبراهيم، حسب الكرونولوجيا التوراتية، عاصر كل أسلافه من نوح وحتى تارح، بل إن عابر وهو الجد السادس لإبراهيم مات بعد موت إبراهيم نفسه بـ ٦٦ سنة، ومات شالح بعد موت إبراهيم بثلاث سنوات، أما سام فقد مات بعد موت إبراهيم بـ ٣٥ سنة.

وبما أن الطوفان حصل بعد هبوط آدم بـ ١٦٥٦، وقيل ميلاد المسيح بـ ٢٢٤٧ سنة، فهذا يعني أن إبراهيم ولد سنة ١٩٤٨ بعد هبوط آدم، وبما أن إبراهيم ولد سنة ١٩٥٥ ق.م، فهذا يعني أن آدم قد هبط سنة ٣٩٠٣ ق.م.

ومن النقاط التي كشفت أن الكرونولوجيا التوراتية، هي كرونولوجيا تركيبية اختلاقية، على الرغم من الجهود المضنية التي قام بها محررو التوراة لترتيبها، ما جاء في سفر التكوين «عاش تارح سبعين سنة وولد أبرام وناحور وهاران.. وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة أبرام ابنه. فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك. وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين. ومات تارح في حاران» تكوين ١١، «فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران» تكوين ١٢، «وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له اسحق ابنه» تكوين ٢١، «وكان إسحق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة رفقة بنت بتوئيل الآرامي أخت لابان الآرامي من فدان أرام، وقد ولد له توأمين عيسو، ويعقوب «وكان إسحق ابن ستين سنة لما ولدتهما» تكوين ٢٥، «وهذه أيام سني حياة إبراهيم التي عاشها. مئة وخمس وسبعون سنة» تكوين ٢٥.

وحسب ما سبق، فقد كان تارح ابن سبعين سنة عندما ولد إبراهيم، وقد عاش إبراهيم ١٧٥ سنة، وإذا كان تارخ قد عاش ٢٠٥ من السنين، وهذا يعني أن إبراهيم مات بعد موت أبيه تارح بأربعين سنة فقط، وبما أن إبراهيم هاجر من حاران إلى بلاد كنعان وكان بعمر ٧٥ سنة، وقد مات إبراهيم في بلاد كنعان بعد هجرته من حاران بمئة عام، وهذا يعني بالتالي أن تارح مات بعد أن هاجر أبرام من حاران إلى بلاد كنعان بستين سنة، وكان عمر أبرام ٧٥ سنة عندما هاجر من حاران، أي أن ناحور مات عندما كان عمر إبراهيم ١٣٥ سنة، ولكن التوراة تقول إن ناحور مات قبل أن يهاجر إبرام من حاران، وهذا يعني أن ناحور مات بعمر ١٤٥ سنة، وليس ٢٠٥ سنوات.

الفصل الثاني

الخروج
حسب التأريخ التوراتي

تؤرخ الأسفار التوراتية الأربعة التالية لسفر التكوين (الخروج - اللاويين - العدد - التثنية) لرحلة خروج موسى مع أتباعه من مصر، حتى وصولهم إلى تخوم أرض كنعان، كما تتضمن هذه الأسفار الشريعة والشعائر الموسوية، والأنساب، وتعداد الخارجين، وكنت قد ذكرت في معرض إيجازي لما جاء في سفر التكوين أن أبناء يعقوب العبرانيين (والذين كان عددهم سبعين فردا)، وبعد موجة جفاف حلّت بالمنطقة، وبواسطة يوسف استوطنوا في مصر في أرض جاسان بالقرب من الدلتا شمال وادي النيل، وقد كانت في البداية لهم حظوة بسبب يوسف الذي كان يشغل منصب خازن الفرعون (ويعتقد أن دخولهم إلى مصر تزامن مع الاجتياح الهكسوسي لمصر).

ويوما بعد يوم بدأت تسوء أحوالهم، وبدأوا يتعرضون للاضطهاد من قبل المصريين بعد موت يوسف، حيث أجبروا على بناء مخازن مدينتي فيثوم ورعمسيس، كما أن الفرعون «قال.. هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا» خروج١، ولذلك، وخوفا من تكاثر الجماعات العبرية استصدر أمرا إلى مولدتي (قابلتي) الجماعات العبرية (بني إسرائيل) بقتل كل مولود ذكر عبراني مباشرة، ومن ثم عدّل هذا الفرمان إلى فرمان آخر يقضي برمي كل مولود ذكر يولد في مصر في النهر من الشعوب جميعا دون استثناء.

وفي ذروة هذا الاضطهاد أتت قصة المخلص موسى الذي ولدته أمه يوكابد من زوجها ابن أخيها عمرام (عمران)، «ولما رأته أنه حسنٌ خبأته ثلاثة أشهر. ولما لم يمكنها أن تخبئه» خروج ٢، قامت بصنع شبه مركب من ورق البردي ووضعت مولودها فيه ودفعت به في النهر بين عيدان القصب، وشاءت المصادفة أن تلتقطه ابنة الفرعون التي كانت مصادفة تستحم في النهر، فأشفقت عليه وكانت قد عرفت أنه عبراني، في تلك الأثناء كانت أخت الرضيع والتي

تسمى مريم تراقب ما يحدث، فذهبت إلى ابنة الفرعون واقترحت عليها أن تأتي للمولود بمرضعة عبرانية من جنسه، فوافقت ابنة الفرعون على ذلك، وهكذا عاد الرضيع إلى أمه ثانية، «ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء» خروج ٢، وكبر وترعرع موسى في البلاط الفرعوني.

وفي حادثة خلاف بين عبراني ومصري قام موسى خلسة بقتل المصري استنصارا للعبراني، ولما اكتُشِف أمره أهدر الفرعون دمه، فهرب موسى إلى مديان الواقعة عند خليج العقبة في أقصى صحراء سيناء، وهناك تزوج من صفورة ابنة كاهنها والذي يرِد له اسمان في التوراة هما راعوئيل، ويثرون، وعلى جبل حوريب (جبل الله - جبل الصواعق والرعود - جبل سيناء) نزل عليه الرب وعرّفه باسمه (أهيه الذي أهيه) ثم عدّله إلى (يَهْوَه)، وطلب من موسى العودة إلى مصر لينقذ بني إسرائيل من اضطهاد المصريين لهم، ويعود بهم إلى الأرض التي كان قد وعد آباءهم الأوائل بها، وقد منح الرب (يَهْوَه) لموسى بعض المعجزات (السحرية) كسلاح في يده، ولا سيما عصاه التي كان ينش بها الغنم، والتي أحالها (يَهْوَه) إلى عصا سحرية يمكن أن تصنع المعجزات، كما يمكن أن تتحول إلى أفعى، ويمكن أن تحوّل الماء إلى دم، ويمكن لها أيضا أن تشق البحر إلى نصفين، وأن تفجر ينابيع الماء من الصخور، ولكن موسى قال للرب معترضا: إني أغلف الشفتين وثقيل اللسان، فكيف لي أن أتحدث مع بني إسرائيل، ومع الفرعون أيضا؟!، فطلب منه أن يجعل من أخيه هارون فماً له.

وعاد موسى مع زوجته وابنيه جرشوم وأليعازر بعد أن سقط أو نُسي حكم إهدار دمه لأنه كان قد قتل رجلا مصريا، وبرفقته الرب (يَهْوَه)، وأخوه هارون الذي التحق بموسى في سيناء كي يرافقه في طريق عودته، ولأن موسى كان قد تغيب عن قومه لمدة أربعين سنة، فقد أصبح غريبا عنهم، ولكن هارون قام بتقديم موسى إلى شيوخ بني إسرائيل الذين التفوا حوله، فذهب موسى وهارون وطلبا من الفرعون إجازة لمدة ثلاثة أيام للعبرانيين لتقديم الأضاحي حسب كلام الرب في مكان بعيد عن المصريين، وكانت حجة موسى للفرعون (والذي أحيانا تسميه التوراة ملك مصر) هو أن قومه سيقومون بتقديم أضاحيهم من الأبقار، وهي من الحيوانات المقدسة عند المصريين، لذلك يجب أن يخرجوا بعيدا عنهم كي يذبحوها خوفا أو احتراما للمصريين وعاداتهم، ولكن الفرعون رفض الطلب ولم يعترف بإله إسرائيل، بل زاد من اضطهاد بني إسرائيل العبرانيين، لا سيما بعد أن قاموا بإضراب عن العمل بتحريض من موسى وهارون، وقد حمّل شيوخ إسرائيل مسؤولية هذه النتيجة لموسى وهارون حتى إنهم شككوا فيهما، ولكن موسى وهارون لم ييأسا من معاودة الطلب إلى

الفرعون، والذي ترافق مع إظهار المعجزات التي منحها الرب (يَهْوَه) لموسى، ولكن الفرعون لم يلب مطلبهما، وبذلك بدأت المصائب التي كان يقوم بها الرب (يَهْوَه) تنهال على المصريين، حيث أصبح ماؤهم دما، الأمر الذي اضطرهم إلى حفر آبار لشرب الماء، وسلّط (يَهْوَه) عليهم وعلى مزروعاتهم الضفادع، وقد وافق الفرعون على إطلاق بني إسرائيل إذا ما صلى موسى وهارون للرب (يَهْوَه) وكفّ أذى الضفادع عن مصر، ولكن وبعد أن تحقق له ما أراد نكث الفرعون بوعده، ثم أطلق (يَهْوَه) عليهم وعلى حيواناتهم البعوض، ومن ثم الذباب الذي انتشر في كل البقاع عدا أرض جاسان التي كان يقيم فيها العبرانيون، وحصلت أيضا القصة نفسها بأن طلب منهما أن يصليا ليرتفع الذباب، ولكن الفرعون عاد ونكث بوعده، فأطلق (يَهْوَه) على حيوانات المصريين الوباء دون حيوانات العبرانيين فماتت جميعها، ثم أطلق عليهم وعلى دوابهم الدمامل، ثم البَرَد والصواعق التي أبادت الأشجار والزرع والحيوانات التي كانت ترعى، واستثنت أرض جاسان أيضا، وعلى الرغم من ذلك بقي الفرعون غليظ القلب، ولكن، وبضغط من الشعب، وافق الفرعون على أن يطلق الرجال العبرانيين فقط للتعبد، الأمر الذي لم يوافق عليه موسى، فأطلق الرب (يَهْوَه) عليهم الجراد ثانية ليأكل ما أبقاه البَرَد، فاستسلم الفرعون لمطالب موسى وهارون، ولكنه عاد ونكث بوعده بعد أن كفّ (يَهْوَه) عنهم أذى الجراد استجابة لصلوات موسى وهارون، فأطلق الرب (يَهْوَه) عليهم الظلام الشديد لمدة ثلاثة أيام متواصلة باستثناء أرض جاسان أيضا، فوافق الفرعون أن يطلق بني إسرائيل ولكن دون حيواناتهم، فلم يوافق موسى على ذلك، فطرد الفرعون موسى من بلاطه، وطلب منه ألا يعود لمقابلته ثانية.

فوضع موسى ساعة الصفر وترتيباتها للهروب في منتصف الليلة التي تبعت طرد فرعون له، وطلب من الشعب أن يستعيروا من المصريين كل ما يمكن أن يعيروه لهم من أمتعة وخيرات ونفائس، ولا سيما صيغ النساء من الذهب والفضة حسب ما أخبره به (يَهْوَه) الذي قام في تلك الليلة بضرب كل بكر من الإنسان والحيوان في مصر، باستثناء العبرانيين الذين كانوا قد وضعوا دم أضاحي الفصح على مداخل بيوتهم كعلامة ليعرفها جنود الرب (يَهْوَه)، وكانت مصيبة عظيمة في مصر، فدعا الفرعون كلاً من موسى وهارون وأخبرهم بموافقته على مطالبهما بالذهاب للتعبد، وأن يأخذوا معهم حيواناتهم أيضا.

وبعد أن أخذ موسى معه عظام يوسف، بدأ بنو إسرائيل رحلة الخروج بعد ٤٣٠ سنة حسب التوراة الماسورية، وبعد ٢١٥ سنة حسب التوراة السبعونية من وصولهم إلى مصر «نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد»، وقد خرج معهم (لفيف كثير) من الشعوب.

بدأت رحلة الخروج من منطقة رعمسيس حيث كان بنو إسرائيل يقيمون، وكانت أول محطة لهم هي منطقة سكوت ولكن «الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا ويرجعوا إلى مصر فأدار الله الشعب في طريق برية بحر سوف»، ونزلوا في أثام، ثم رجعوا ونزلوا أمام فم الحيروث (البحيرات) بين مجدل والبحر أمام بعل صفون، وهناك أدركهم الفرعون مساء بجيشه الذي كان محمولا على عرباته السريعة، بعد أن اكتشف أنهم خدعوه وهربوا، فقام موسى وضرب البحر بعصاه فجَرت ريح شرقية جففت الماء، فعبر فيها قوم موسى، فتبعهم الفرعون بجيشه، وعند الفجر ضرب موسى بعصاه البحر فعاد الماء وراء موسى وقومه إلى سابق عهده وأغرق الفرعون وجيشه، بينما تابع بنو إسرائيل طريقهم على اليابسة.

وبعد معجزة العبور من البحر ارتحل موسى بقومه من بحر سوف إلى برية شور، وبذلك انتهى الخطر الفرعوني، ليبدأ الصراع بين موسى كممثل للرب (يَهْوَه)، وبين شعب بني إسرائيل الذي أخذ بالتذمر من الجوع والعطش على الرغم من المعجزة التي رأوها بأم أعينهم.

ثم ارتحلوا من برية شور إلى الموضع المسمى مارة، والذي أخذ اسمه من طعم مائه المر، حيث قام موسى بوضع أغصان شجرة هناك حوّلت الماء المر، إلى ماء ذي طعم حلو، ومن هناك انتقلوا إلى إيليم، ومن بعدها إلى برية سين، حيث هناك عاد الشعب إلى التذمر قائلين «ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع» خروج: ١٦، وقد تملص موسى من هذا التذمر قائلا «أما نحن فماذا. ليس علينا تذمركم بل على الرب» خروج ١٦، وقد أجاب الرب على هذا التذمر بأن قاد من البحر طيور السمان (السلوى) بكميات هائلة لتحط منهكة القوى، وما كان عليهم سوى التقاطها، وذبحها وطهيها في القدور، وفي صباح اليوم الذي يليه استيقظوا وإذا المن يغطي الأرض، وما كان عليهم سوى تجميعه وأكله بدل الخبز، وهذا العطاء سيستمر أينما رحلوا، وارتحلوا في سيناء.

ومن برية سين ارتحلوا إلى رفديم حيث حل بهم العطش، في مكان دُعي مسة ومريبة، حيث حصل خلاف بين الرب، وبين كل من موسى وهارون، بعد تذمر الشعب من العطش حيث صرخوا «أفي وسطنا الرب أم لا»، ولكن الرب أوجد الحل سريعا، فطلب من موسى أن يضرب بعصاه السحرية على صخور جبل حوريب (سيناء) فانفجر الماء منه، وأثناء إقامتهم العابرة في رفديم غزاهم العماليق، وقد تصدى لهم بنو إسرائيل بقيادة يشوع، بينما وقف موسى على التلة يراقب المعركة، وكان كلما رفع يديه غلب بنو إسرائيل، وإذا خفضهما غلب

العماليق، ولما كان يتعب كان هارون وشخص يدعى حُور يدعمان يدي موسى، وفي النهاية انتصر العبرانيون بقيادة القائد الميداني يشوع على العماليق.

وإلى رفديم جاء يثرون، بعد أن سمع بوصول موسى، ومعه ابنته صفورة زوجة موسى وابنا موسى جرشوم واليعازر (والذي - حسب ما سبق - كان موسى قد اصطحبهم معه إلى مصر!!، والذين من هذه اللحظة سيختفي ذكرهم من التوراة نهائيا؟)، وهناك قام موسى بتنظيم الشعب، ووضع عليهم رؤساء وقضاة حسب ما نصحه به يثرون قبل رحيله، حيث كانوا وعلى شرف يثرون، وبمشاركة شيوخ إسرائيل قد أُقيمت وليمة دعي الله عليها «جاء هارون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا طعاما مع حمي موسى أمام الله» خروج ١٨، ثم ارتحلوا إلى برية سيناء مقابل الجبل الذي وصلوه بعد خروجهم من مصر بثلاثة شهور، حيث عمل موسى عرّابا بين الرب (يَهْوَه) الذي كان يقيم على الجبل، والشعب الذي حط رحاله على سفح الجبل لاتفاق ينص على:

مقابل أن يعبد الشعب الرب (يَهْوَه)، ويخضعوا لشريعته وتعليماته وشروطه، فإن الرب (يَهْوَه) سيجعل الشعب أمة مقدسة من دون كل الشعوب، ويكونون مملكة كهنة لبني البشر جميعا، وبذلك يصبحون (شعب الله المختار) «تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لي كل الأرض. وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة» خروج ١٩، «وأتخذكم لي شعبا وأكون لكم إلها» خروج ٦، «لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب. بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم» تثنية ٧، «مباركا تكون فوق الشعوب» تثنية٧.

وكان وسيط الاتفاق وعرابه موسى، ووافق الطرفان على الشروط فقام موسى - بعد أن ذبحوا القرابين على شرف الاتفاق - برش الشعب بالدم على أنه دم العهد الذي قطعه الرب مع الشعب، بينما كان العهد بين العبرانيين والرب في زمن الآباء الأوائل هو الختان.

وبعد أن كان الرب يحرص أن لا يقترب أحد من جبل سيناء أثناء صعود موسى إليه لملاقاته، وكان يتذرع بأنه من الصعب على الإنسان احتمال رؤية الرب، نجده يدعوا موسى وهارون وابنيه ناداب وأبيهو وشيوخ إسرائيل السبعين حيث «رأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمدّ يده إلى أشراف بني إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا وشربوا» خروج ٢٤، ثم صعد موسى (وخادمه يشوع) ليقابل

الرب مباشرة، بينما بقي الشيوخ في أسفل الجبل بقيادة هارون وحُورُ (وحور الذي يوحي اسمه بأنه مصري والذي ظهر فجأة واختفى فجأة، ولم تعد أسفار الخروج تذكره).

وعلى الجبل لقّن الرب (يَهْوَه) موسى الشريعة التي ستنظم الحياة الدينية والدنيوية لقوم موسى، كما علّمه كيف يصنع تابوت العهد، ومسكنه، وخيمة الاجتماع والتي أسهب المحرر التوراتي كثيرا في شرح دقيق وتفصيلي لها، ولباس الكهانة التي حصرها بهارون وأبنائه (ناداب وأبيهو وألعازر وإيثمار) ونسلهم من بعدهم كحق وراثي أبدي، وطقوس تقديم الأضاحي، وتبخير خيمة الاجتماع وطقوس وشعائر العبادة، وبعد مدة أربعين يوما قضاها موسى مع الرب، أعطى الرب لموسى الوصايا العشر منحوتتين بيد (يَهْوَه) نفسه على لوحين من الحجارة.

وأثناء غياب موسى في الجبل وبعد تأخره عن النزول، قام أخوه هارون بجمع الذهب من الشعب «وصنعه عجلا مسبوكا. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» خروج٣٢، وقام الشعب بعبادته، وكان (يَهْوَه) قد حمي غضبه عندما علم ما فعله هارون والشعب من نقض للميثاق الذي أبرم بينه وبينهم، ولكن موسى - الذي ما زال بين يدي الرب (يَهْوَه) - تضرع لـ (يَهْوَه) واسترضاه، الأمر الذي حال دون أن ينفّذ الرب (يَهْوَه) ما كان قد عقد العزم عليه «وندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه» خروج، ولكن موسى عندما نزل ورأى العجل والشعب حوله يرقصون عراة، غضب، وكسر لوحي الشهادة، ثم قام بطحن عجل الذهب، ووضعه بالماء وسقى منه الشعب، ومن ثم أمر اللاويين الذين التفوا حوله بقتل رؤوس التمرد نحو ثلاثة آلاف من الرجال، وعادت إليه السيطرة ثانية، وصار (يَهْوَه) يجتمع مع موسى بحضور يشوع أمين سره وقائده العسكري في خيمة الاجتماع التي قام الشعب بصنعها حسب تعليمات الرب (يَهْوَه)، ونصبها موسى خارج المضارب.

وكآخر اجتماع لموسى مع الرب (يَهْوَه) على الجبل صعد موسى إلى الجبل ثانية لمدة أربعين يوما من أجل أن يأخذ من (يَهْوَه) باقي تعليمات الشريعة، مع تحريض موسى الشديد وتحذيره إلى الشعب من أن يقترب أحد من الجبل أثناء صعوده إليه، حيث هناك، استرضى موسى الرب الذي كان قد هدد بأنه لن يرحل مع الشعب، وأنه سيتركهم وشأنهم، قام الرب (يَهْوَه)، بعد أن استرضاه موسى، بكتابة وصاياه (شريعته) على لوحي الشهادة بعد أن قام موسى بنحتهما مسبقا، ولكن موسى أثناء بقائه في الجبل صار وجهه يلمع، وهذا ما أضطره إلى أن يضع على وجهه قناعا بعد نزوله من الجبل الذي بقي فيه لمدة أربعين يوما دون أن يأكل طعاما، ودون أن يشرب ماء، وبذلك بقي موسى يضع القناع على وجهه، ولم يكن يخلعه إلا عندما كان يجتمع مع الرب في خلوتهما في خيمة الاجتماع.

وبدأت الشعائر والطقوس الدينية تقام في خيمة الاجتماع (المعبد المتنقل) التي وُضع فيها تابوت العهد الذي وُضع فيه لوحا الوصايا، في بداية الشهر الأول من السنة الثانية للخروج، وقد أخطأ ابنا هارون (ناداب وأبيهو) في تنفيذهما طقوس العبادة فماتا احتراقا، وربما تم تصفيتهما بطريقة ما لأنهما «اقتربا أمام الرب»، واستطاع موسى أن يبقي أبيهم هارون وأخيهما (أليعازر وإيثمار) في خيمة الاجتماع حتى هدأت أنفسهم، والذين ربما قد اتهموا موسى بدمهما «وقال موسى لهارون وأليعازر وإيثمار ابنيه لا تكشفوا رؤوسكم ولا تشقوا ثيابكم لئلا تموتوا ويسخط على كل الجماعة. وأما أخوتكم كل بيت إسرائيل فيبكون على الحريق الذي أحرقه الرب. ومن باب خيمة الاجتماع لا تخرجوا لئلا تموتوا. لأن دهن مسحة الرب عليكم. ففعلوا حسب كلام موسى» لاويين: ١٠.

وفي مرحلة لاحقة في الشهر الثاني من السنة الثانية لخروجهم، وبعد أن أملى (يَهْوَه) الشريعة على موسى، وبعد أن تحددت الأنظمة والقوانين التي تحكم الحياة اليومية الاجتماعية والدينية للشعب، قام موسى بإجراء إحصاء عام لذكور كل سبط على حدة ممن هم فوق عشرين سنة، والقادرون على حمل السلاح من بني إسرائيل فقط من دون اللفيف الذي خرج معهم، ودون سبط اللاويين، ووضع رئيسا على كل سبط، وقد بلغ تعدادهم ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين، وقد خصص لكل سبط موقع معين لنصب مضاربه نسبة إلى خيمة الاجتماع، أما عدد اللاويين فتم تعداد ذكورهم ممن هم فوق شهر من العمر فكان تعدادهم اثنين وعشرين ألفا، ووزع عليهم أعمال السدانة وخدمة خيمة الاجتماع، وسنّ لهم الضرائب وطعام الأضاحي التي سيقوم الشعب بتقديمها لهم «وأما بنو لاوي فإني قد أعطيتهم كل عشر في إسرائيل ميراثا عوض خدمتهم التي يخدمونها خدمة خيمة الاجتماع»، وحصر الكهانة ببيت هارون منهم.

ومن ثم بدأوا بتنقلاتهم في السنة الثانية، والتي كانوا يتبعون فيها إشارة الرب (يَهْوَه)، فعندما تحل السحابة على خيمة الاجتماع يحطون رحالهم، ومتى ارتفعت يرحلون وكان مرشدهم حباب بن رعوئيل، فنزلوا في برية فاران على الحدود الجنوبية لبلاد كنعان قرب مدينة قادش، وفي الطريق تذمر الشعب كعادته فغضب الرب (يَهْوَه) وأشعل النار في طرف المحلة (الخيام أو المضارب) ولكن صلاة موسى هدأت من غضبه، فاستبدل الشعب تذمره بالشكوى والبكاء على ما حل به من ضنك وجوع واشتهاء للحم «فلما سمع موسى الشعبَ يبكون بعشائرهم كل واحد في باب خيمته وحمي غضبُ الرب (يَهْوَه) جدا ساء ذلك في عيني موسى»، وعاتب موسى الربَ «ألعلّي حبلت بجميع هذا الشعب أو لعلي ولدته حتى تقول لي

احمله في حضنك كما يحمل المربي الرضيع» عدد ١١، فطلب الرب (يَهْوَه) من موسى أن يختار سبعين شيخا من الشعب ليأخذ جزءاً من الروح التي على موسى ويضعها عليهم فيحملون معه ثقل الشعب، ومن ثم بدأ الرب (يَهْوَه) يبعث لهم في الصباح المن من السماء الذي كانوا يخبزونه بدل الطحين، وفي المساء السلوى من البحر (طائر السمان) بكميات هائلة، وقد قاموا بتقديد قسم منه، ولكن ولسبب غير واضح غضب الرب فمات الذين اشتهوا اللحم، وكان اللحم ما بين أسنانهم بعد، والذي ربما كان قد أصبح مسموما «فدعي اسم ذلك الموضع قبروت هتأوة لأنهم هناك قبروا القوم الذين اشتهوا»، ومن قبروت ارتحلوا إلى حضيروت.

وفي حضيروت سجن موسى أخته مريم لمدة سبعة أيام بعد أن تمردت على موسى، وطالبت أن يتكلم الرب (يَهْوَه) معها ومع هارون كما يتكلم مع موسى؟، وبدأت تنم هي وهارون على موسى، وعلى زواجه من امرأة كوشية (حبشية؟)، ولم تذكر التوراة متى تم هذا الزواج قبل أو بعد الخروج، وبعد أن أطلق موسى سراح أخته مريم ارتحلوا من حضيروت إلى برية فاران في قادش، ومن هناك بعث موسى رجلا من كل سبط من الأسباط الاثني عشر ليتجسسوا على أرض كنعان (الأرض الموعودة)، وكان منهم هوشع بن نون، والذي غير اسمه إلى يشوع عن سبط أفرايم بن يوسف، وكالب بن يفنة عن سبط يهوذا «فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل وانظروا إلى الجبل ما هي» عدد ١٣، ولما رجع الجواسيس الاثنا عشر من تجسسهم الذي استمر لمدة أربعين عاما، وصفوا الأرض التي تسيل لبنا وعسلا «العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل، والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن»، (ولم يتم هنا ذكر للفلستيين الذين سيشكلون عثرة حقيقية في طريقهم بعد دخولهم إلى أرض كنعان، على الرغم من أن المحرر التوراتي ذكر وجودهم أثناء مرحلة الآباء الأوائل في الوقت الذي لم يكن لهم أي وجود آنذاك.).

وقد أكد الجواسيس أن البلاد مليئة بالخيرات ولكنها مزدحمة بالسكان والمدن الحصينة ونصح عشرة منهم بعدم دخولها مباشرة، ولكن يشوع بن نون وكالب بن يفنة خالفا الجواسيس العشرة الرأي وأكدوا أنه من الممكن الدخول إلى بلاد كنعان، فأخذ الشعب يصرخون بتذمر حينا، ويبكون نادمين على اتباعهم لموسى والرب حينا آخر، حتى إنهم اقترحوا وضع قائد لهم ليعيدهم إلى مصر ثانية، فغضب الرب (يَهْوَه) وقرر أن يفني الشعب عن بكرة أبيه، إلا أن موسى وكالعادة استرضاه، ولكن الرب (يَهْوَه) وعد أن كل من تذمر ممن هم فوق عشرين سنة فإنه لن يدخل إلى الأرض الموعودة، وبذلك سيستمر ترحالهم أربعين سنة

(بعدد الأيام التي غاب بها الجواسيس أثناء جولتهم التجسسية في بلاد كنعان، وهو ما يدعى بسنوات التيه)، حتى يفنى الجيل الذي تذمر ممن هو فوق عشرين سنة باستثناء يشوع بن نون وكالب بن يفنة، كما أن الذين ذهبوا ليتجسسوا ماتوا (قتلوا؟؟) بالوباء عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون، لأنهم أحبطوا الشعب.

وقد حاول الشعب الصعود أو الدخول (تسللا) إلى بلاد كنعان فنزل عليهم العمالقة والكنعانيون وردّوهم، وقد أدت هاتان الحادثتان إلى تمرد شعبي واسع على استفراد عائلة هارون بأعمال الكهانة، والتي تدر عليهم الخيرات من خلال الجزية والأضاحي التي على باقي الشعب أن يقدموها لهم، إضافة إلى استفرادهم بالحكم، وقاد التمرد قورح بن يصهار بن قهات بن لاوي (والذي يُعتقد أنه قارون في التراث الإسلامي) وداثان وأبيرام ابنا أليآب وأون بن فالت من رآوبين، والتحق بهم مئتين وخمسين رجلا، وقد غضب الرب على قادة التمرد وشق الأرض عليهم فابتلعتهم هم وأهلهم ومضاربهم، أما تابعيهم الذين ذهبوا ليقدموا البخور عن خطيتهم، فقد خرجت عليهم النار وماتوا جميعا، فثار الشعب على هذه المجزرة، واتهموا موسى بدمهم وحاصروه في خيمة الاجتماع، فعاقبهم الرب (يَهْوَه) بالوباء الذي قضى على أربعة عشر ألفاً وسبع مئة من الشعب، ونزولا تحت ضغط الشعب، وكي يصبغ موسى شرعية لحكم اللاويين، فقد طلب من كل سبط أن يحضر عصا بحيث يضعها في خيمة الاجتماع، وعصا السبط التي تزهر يكون لهم الحكم، وكانت عصا اللاويين والتي وضعت باسم هارون هي التي أفرخت وأزهرت وحملت لوزا، وبذلك انتهى التمرد وبقيت أعمال السدانة للاويين، وبقيت أعمال الكهانة محصورة بهارون وعائلته.

وبعد هذا التمرد انتقلوا إلى قادش في برية صين، والتي من المعتقد أنهم أقاموا فيها المدة الأطول من الأربعين سنة التي قضوها في متاهة سيناء، وهناك ماتت مريم، وتعرض الشعب للعطش، ولكن موسى قام بضرب إحدى الصخور مرتين فانفجر منها الماء فشرب الشعب.

وفي قادش استرخوا لمدة طويلة من الزمان بعد أن تعبوا من حياة الترحال، وبقوا هناك قرابة ٣٨ سنة، حتى شارفت سنوات التيه الأربعين على الانتهاء، ودنا موعد دخولهم إلى الأرض الموعودة (أرض كنعان)، فبعث موسى من قادش رسلا إلى أدوم (أبناء عيسو)، والتي تقع شرقي قادش، ليسمحوا لهم بالمرور في تخمهم، ولكن الأدوميين لم يوافقوا، فقرر موسى الالتفاف على تخوم أدوم بدل الدخول منها، فانتقلوا جنوبا إلى جبل هور حيث - حسب ما قال الرب - صعد موسى ومعه هارون وابنه ألعازر إلى الجبل فخلع موسى ملابس هارون وأعطاها لألعازر الذي لبسها، ومات هارون على رأس الجبل في السنة الأربعين للخروج عن عمر مئة

وثلاث وعشرين سنة، وعاد موسى وألعازر الذي ورث الكهانة عن أبيه، وهناك أيضا غزاهم ملك عراد الكنعاني، وسبا منهم الكثير، ولكن قوم موسى سرعان ما ردوا للكنعانيين الصاع صاعين.

ومن جبل هور تابع بنو إسرائيل طريقهم جنوبا نحو خليج العقبة على تخوم الأدوميين الذين لم يسمحوا لبني موسى بالمرور في أراضيهم، ولما تذمر الشعب في الطريق بعث الله عليهم الأفاعي، فمات منهم الكثير حتى صلّى موسى، بعد أن اعتذر الشعب عن تذمرهم فارتفعت عنهم الأفاعي، ثم بدأوا طريقهم نحو شرقي الأردن فارتحلوا إلى أوبوت، ثم عيي عباريم مقابل موآب، ثم وادي زارد، ثم إلى نهر أرنون الذي يفصل بين الموآبيين والعموريين في شرقي الأردن، دون أن يعترضهم الموآبيون، ثم إلى بئر، ثم إلى متانة، ثم إلى نحلئيل، ثم إلى باموت، ثم إلى الجواء.

ومن هناك أرسل موسى إلى سيحون ملك الأموريين (العموريين) يستأذنه بالمرور، فلم يوافق، بل خرج ليحاربهم وانتصر بنو إسرائيل على الأموريين وسكنوا في قراهم من أرنون إلى يبوق إلى بني عمون (عمان حسب التمكين التوراتي) بما فيها حاضرتهم حشبون (حسبان حاليا)، وتابعوا صعودهم شمالا حتى إقليم باشان (الأموري أيضا) حيث انتصروا على ملكها عوج في واقعة أذرعي (مدينة درعا عاصمة إقليم حوران في جنوب سورية، أو مدينة إزرع القريبة منها)، وبذلك سيطر بنو إسرائيل على كامل الضفة الشرقية لنهر الأردن، ثم ارتحلوا إلى عربات موآب على الضفة الشرقية لنهر الأردن مقابل مدينة أريحا الواقعة في غربي نهر الأردن، ففزع بالاق بن صفور ملك الموآبيين (أبناء لوط)، وأرسل إلى النبي الآرامي بلعام الذي تلكأ في المجيء، ولكنه في النهاية أتى، ولم يبارك للموآبيين بل على العكس بارك لبني إسرائيل (كما أمره الرب؟)، وكان متعاطفا مع بني إسرائيل الذين أقاموا في شطيم وعبدوا إله الموآبيين (بعل فغور) وتزوجوا من الموآبيات، فغضب الرب وسلّط عليهم وباء أباد منهم أربعة وعشرين ألفا، ولم يتوقف الوباء حتى قَتَل الكاهن فينحاس بن ألعازر بن هارون رجلا موسويا كان قد تزوّج من امرأة مديانية «وكان اسم الرجل الإسرائيلي الذي قُتل مع المديانية زمري بن سالو رئيس بيت أب من الشمعونيين. واسم المرأة المديانية المقتولة كزبي بنت صور. هو رئيس قبائل بيت أب في مديان» عدد ٢٥، وهذا يشير إلى أن بعض القبائل العبرية ينتمي إلى المديانيين، وبعضها ينتمي إلى قوم موسى.

وبعد هذا الموت الجماعي قام موسى بإحصاء عام للرجال ما فوق عمر عشرين سنة وهم جميعا لم يدخلوا في إحصاء ما بعد الخروج، وكان كل الذين تم تعدادهم في الإحصاء الأول

قد ماتوا جميعا عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون، فبلغ العدد ست مئة ألف وألف وسبع مئة وثلاثون، عدا اللاويين الذي بلغ عدد ذكورهم من عمر شهر فما فوق ثلاثة وعشرين ألفا.

وحسب تعليمات الرب قام موسى ومسح يشوع بن نون خليفة له أمام الجميع، ومن ثم قام بتشكيل جيش عدده اثني عشر ألفا (ألف من كل سبط) ورأس عليهم فينحاس بن ألعازر، وتجندوا على المديانيين انتقاما (لسبب غير واضح) وأبادوهم عن بكرة أبيهم ولم يسلم حتى النبي بلعام بن بعور، وسبوا كل نسائهم وأطفالهم، ونهبوا كل ممتلكاتهم ودمروا وأحرقوا كل قراهم تماماً، ودون أن ينقص منهم أحد على الرغم من عددهم القليل بالمقارنة مع المديانيين الذين كان لديهم خمسة ملوك، ولما عاد الغزاة بغنائمهم، غضب عليهم موسى لأنهم لم يقتلوا الجميع وأبقوا على حياة النساء «إن هؤلاء كن لبني إسرائيل حسب كلام بلعام سبب خيانة للرب في أمر فغور فكان الوباء في جماعة الرب. والآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها. لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات» عدد ٣١، وبذلك تم قتل كل من تم سبيه عدا البنات العذراوات فقط، واللواتي بلغ عددهن اثنين وثلاثين ألفا، وبعد ذلك قام موسى بتوزيع الغنائم التي يعجز عنها الوصف لكثرة عددها وتعدادها، وكانت أكبر الحصص حسب الشريعة للاويين، أما حصة الأسد فكانت من نصيب الكاهن أليعازر بن هارون.

وبعد أن سيطر بنو إسرائيل على مساحات واسعة من شرقي الأردن، قام موسى بإعطاء سبط جاد وسبط رآوبين المنطقة من عروعير التي على وادي أرنون، ونصف جبل جلعاد ومدنه (جلعاد المنطقة الممتدة بين نهر الأردن وجنوب نهر اليرموك)، وأعطى بقية جلعاد وكل باشان (مملكة عوج) لنصف سبط منسي بن يوسف.

ثم بدأ موسى خطبة وداعه، والتي من خلالها أعاد على الشعب قراءة الشريعة التي لقنها الرب له، وتاريخ رحلتهم منذ وصولهم إلى جبل سيناء بعد خروجهم من مصر، وحتى وصولهم إلى تخوم كنعان، وعلى الرغم من أن الشعب الذي يوجه موسى خطابه إليهم، لم يخض معه ملحمة الخروج من مصر، وبداية ملحمة التيه في سيناء، لأن كلٌ من خرج من مصر، وكان عمره فوق العشرين من عمره قد مات في سيناء، وهذا يعني أن أكبر إنسان في بني إسرائيل في ذلك الزمان هو دون الستين من عمره، وأن كل من هم دون الأربعين من العمر ولدوا في سيناء بعد خروجهم من مصر، وهذا يعني أن الأحداث الكبرى التي حدثت لهم في سيناء حتى استقرارهم في قادش لا يتذكرها أحد، في الوقت الذي كان موسى يخاطب أتباعه من بني

إسـرائيل ويـذكرهم بمـا حـدث معهـم في سيناء، «ودعـا موسـى جميـع إسـرائيل وقـال لهـم. أنـتم شاهدتم ما فعل الرب أمام أعينكم في ارض مصر بفرعون وبجميع عبيده وبكـل أرضـه» تثنية ٢٩، والجدير ذكره أن هذه الأحداث عاد المحرر التوراتي ليرويها في سفر يشوع أيضا، ولكـن سـرد هـذه الأحداث جاء مفككـا في خطابه وفي رؤيته للأحداث، فمـرة كـان الـرب (يَهْوَه) يخاطب شعبه كشهود، ومرة يخاطبهم على أنهم أبناء الشهود الذين لم يعاصروا تلك الأحداث «وأرسلت موسى وهـرون وضربت مـصر حسب مـا فعلت في وسطها ثـم أخـرجتكم. فاخرجت آباءكم مـن مـصر ودخلتم البحـر وتبـع المصريون آباءكم بمركبـات وفرسان إلى بحـر سـوف. فصرخوا إلـى الـرب فجعـل ظلامـا بينكم وبـين المصريين وجلب عليهم البحـر فغطّاهم. ورأت أعينكم ما فعلت في مصر وأقمتم في القفر أياما كثيرة. ثم أتيت بكـم إلى أرض الأموريين الـساكنين في عـبر الأردن فحـاربوكم ودفعـتهم بيـدكم فملكـتم أرضـهم وأهلكـتهم مـن أمامكم.» يشوع ٢٤.

وقبـل أن ينتهـي سـفر التثنيـة (والـذي يعتبر مـن المصادر الأربعـة الأساسـية للتـوراة كمـا أسلفنا سابقا، وقد تميز سفر التثنية برشاقة لغته، وتماسك جمله، وإصحاحاته)، وقبل أن ينهي موسى خطبة الوداع، جاء في السفر أن موسى قام بكتابة التوراة (الأسفار الخمسة)، ووضعها في تابوت العهد، حيث تابع الرب حديثه لموسى «اصعد إلى جبل عباريم هـذا جبل نبو الـذي في أرض مـوآب الـذي قبالـة أريحا وانظـر أرض كنعـان الـتي أنـا أعطيهـا لـبني إسـرائيل ملكا. ومت في الجبل الذي تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك في جبل هـور وضم إلى قومه. لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية صين إذ لم تقدساني في وسط إسرائيل» تثنية ٣٢، كما جاء في نفس الإصحاح من سفر التثنية أن لاوي أو اللاويـين هـم مـن خاصـمهم الـرب عنـد مـاء مريبـة «ولـلاوي قـال. تميمـك وأوريمـك لرجلك الـصديق الـذي جربتـه في مـسه وخاصـمته عنـد مـاء مريبـة» تثنيـة: ٣٣، ولكـن التـوراة بكـل أسفارها لم تذكر شيئا عن تلك الخيانة التي وردت في سفر التثنية سوى ما جاء في سفر العدد «وقال الرب لموسى اصعد إلى جبل عباريم هـذا وانظـر الأرض الـتي أعطيت بني إسـرائيل. ومتى نظرتها تضم إلى قومك أنت أيضا كما ضُمّ هارون أخوك. لأنكما في برية صين عند مخاصمة الجماعة عصيتما قولي أن تقدساني بالماء أمام أعينهم. ذلك مـاء مريبـة قـادش في بريـة صـين» عـدد ٢٧، وفي المزمـور ١٠٦ «لم يـسمعوا لـصوت الـرب.. وأسـخطوه علـى مـاء مريبـة حتـى تـأذّى موسى بسببهم. لأنهم أمروا روحه حتى فرّط بشفتيه»، وهذا ربما يشير إلى أن موسـى كـان قد جدّف على الرب.

«وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبو إلى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان وجميع نفتالي وأرض أفرايم ومنسى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر.. فمات هناك موسى.. ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة» تثنية ٣٤.

وقد جاءت بعض الأحداث في سفر التثنية على خلاف ما أتى في الأسفار السابقة التي أرخت لمرحلة الخروج، وهي سفر الخروج، واللاويين، والعدد.

فقد ورد أثناء سرد الأحداث في سفر الخروج أن موسى عندما نزل من جبل سيناء وإذ بقومه يعبدون عجل الذهب فقام بطحنه ووضعه بالماء وسقى به الشعب تكفيرا عن خطيئتهم، ولكن في سفر التثنية نرى المحرر يغيّر قليلا في تلك الرواية بحيث يذكر أن موسى قام بطرح طحين العجل الذهبي في النهر المنحدر من الجبل.

كما أن الرواية التي تقول إن العمالقة والكنعانيين قاموا بطرد بني إسرائيل من الجبل عندما حاولوا التسلل إلى بلاد كنعان، والتي قام بنو إسرائيل برد الصاع صاعين لهم، يوردها محرر سفر التثنية بأن بني إسرائيل عادوا بعد الغزو والطرد من قبل (الأموريين بدل الكنعانيين والعمالقة) يبكون إلى الرب ويشتكون له ولكنه لم يصغ إليهم.

وجاء أيضا في سفر التثنية أن قوم موسى قاموا بالمرور مسالمين بأرض أدوم وأرض موآب وبني عمون على الرغم من أنه لم يرد كذلك أثناء سرد الأحداث.

وكذلك قصة النبي الآرامي بلعام بن بعور، والذي تنسبه التوراة مرة إلى آرام النهرين، ومرة على أنه من المديانيين، والذي - حسب ما جاء في سفر العدد - لم يقم بلعن بني إسرائيل كما طلب منه بالاق بن صفور ملك الموآبيين، بل على العكس قام بمدح بني إسرائيل، ولكن محرر سفر التثنية يتراجع عن ذلك ويؤكد أنه لعنهم «ولكن لم يشأ الرب إلهك أن يسمع لبلعام فحوّل.. اللعنة إلى بركة» تثنية ٢٣، وكذلك يورد حادثة تقول إن العماليق قاموا بغزو مؤخرة بني إسرائيل، وهذه الحادثة لم تذكر في أسفار الخروج الثلاثة الأولى (الخروج - العدد - اللاويين).

كما أتى أيضا في سفر العدد أن هارون مات على جبل هور «فصعد هارون الكاهن إلى جبل هور حسب قول الرب ومات هناك» العدد: ٣٣، أما محرر سفر التثنية فيقول إنه مات في موسير «وبنو إسرائيل ارتحلوا من آبار بني يعقان إلى موسير. هناك مات هارون» تثنية: ١٠.

«فصعد هارون الكاهن إلى جبل هور حسب قول الرب ومات هناك» العدد: ٣٣.

ومن النصوص التي أتت في سفر التثنية والتي تختلف عما جاء في أسفار أخرى:

«ستة أيام تأكل فطيرا»	«سبعة أيام تأكل فطيرا»
تثنية: ١٦	الخروج: ٢٣
«لا تموت الأبناء عن الآباء»	«مفتقد إثم الآباء في الأبناء»
تثنية: ١٠	الخروج ٣٤
«من السماء أسمعك صوته»	«لا يُقتل الآباء عن الأبناء، ولا يُقتل الأبناء عن الآباء. كل إنسان بخطيئته يُقتل»
تثنية: ٤	التثنية ٢٤
«أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، في الجيل الثالث والرابع من مبغضي»	«وهبط (يَهْوَه) على جبل سيناء إلى قمة الجبل»
الخروج ٢	الخروج: ١٩

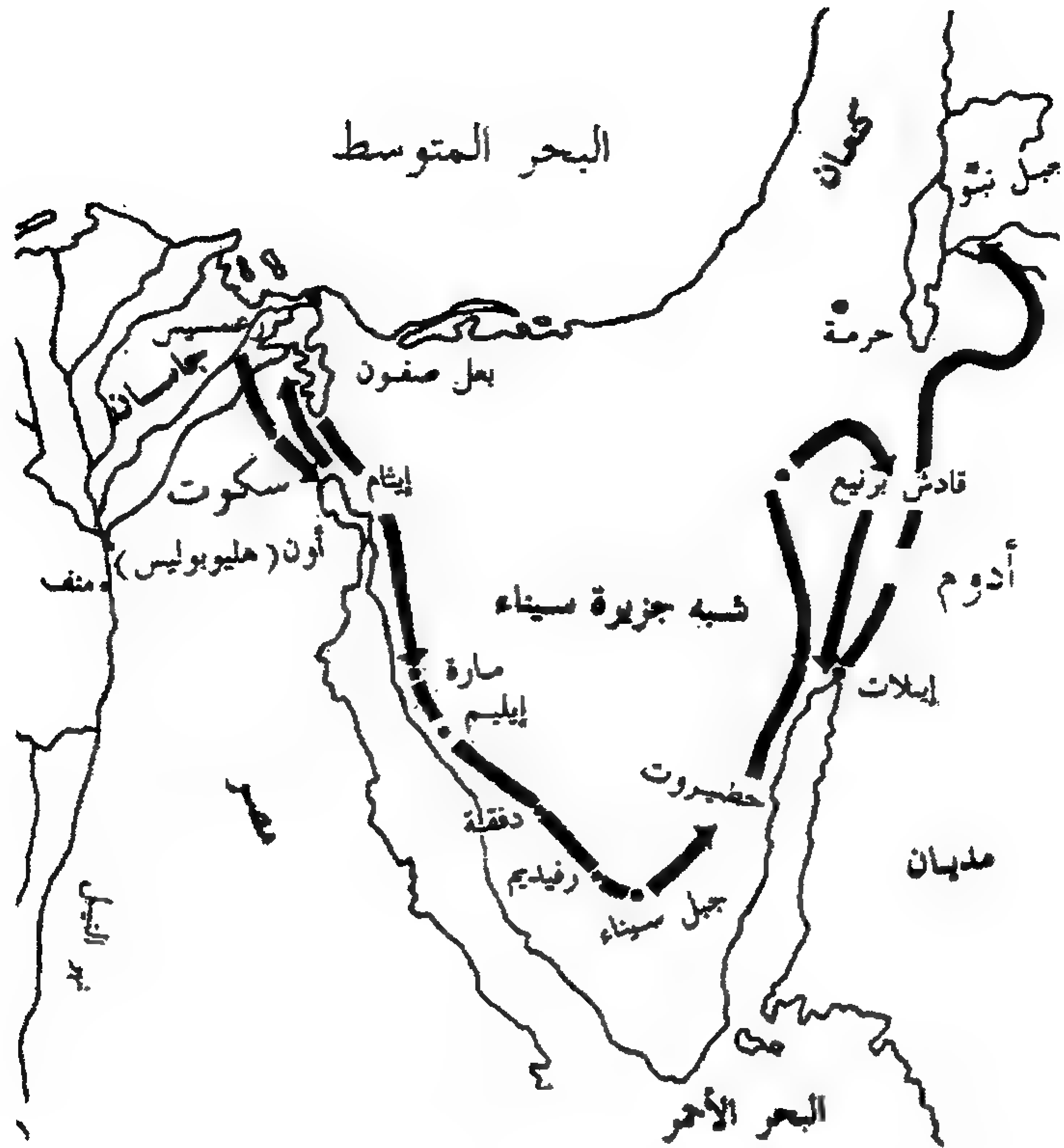
ومن المقولات المتباينة أيضا ما جاء في سفر اللاويين

«وأخذ ابنا هارون ناداب وأبيهو كل منهما مجمرته وجعلا فيهما نارا ووضعا عليها بخورا وقرّبا أمام الرب نارا غريبة لم يأمرهما بها. فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب»	«وكلم الرب موسى بعد موت ابني هارون عندما اقترابا أمام الرب وماتا»
لاويين ١٠	لاويين ١٦

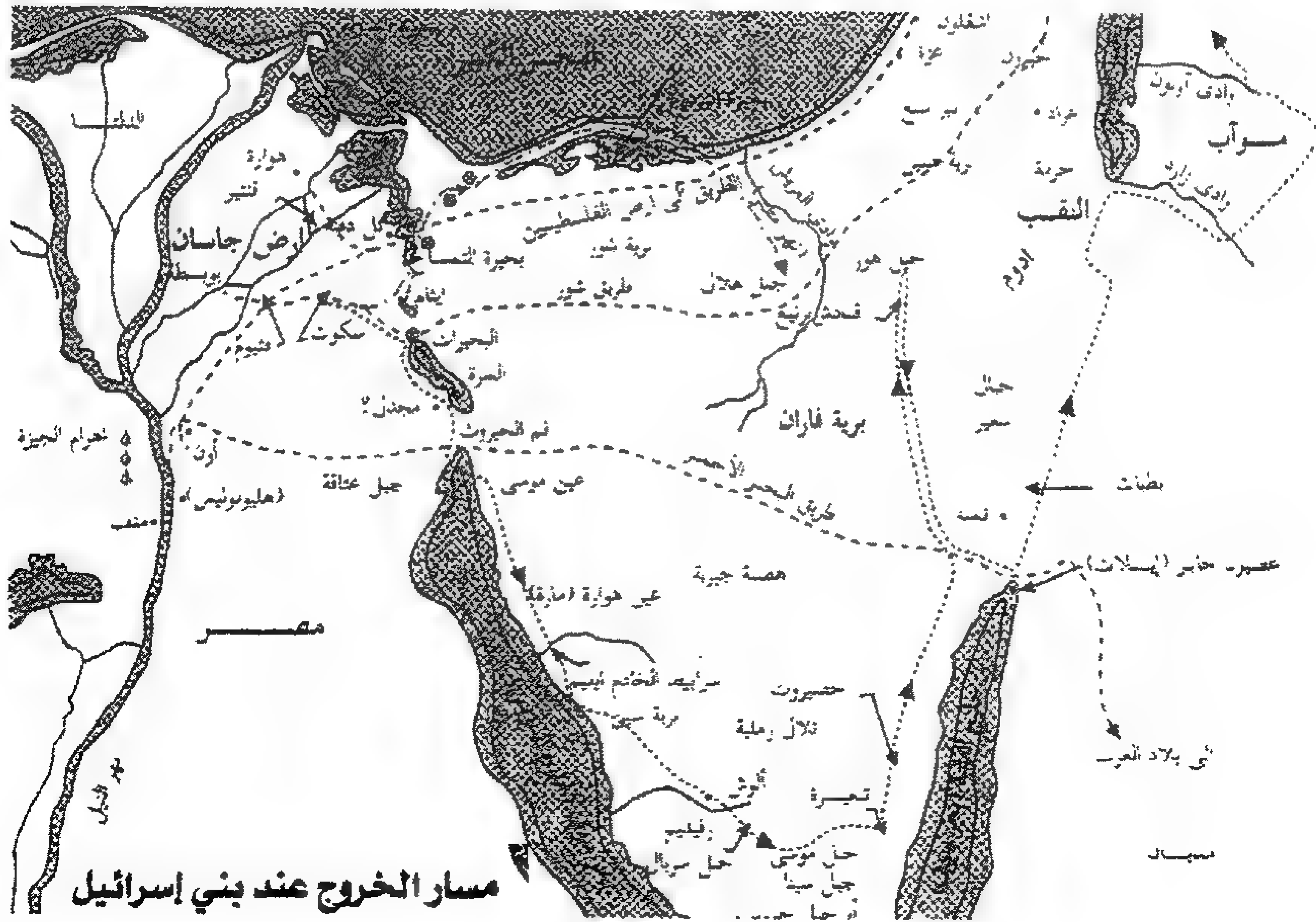
كما أتى تناقض في أسفار الخروج حول رؤية الرب مباشرة، ففي غير موضع كان الرب يؤكد أن ما من إنسان رأى الرب وعاش، «قال لا تقدر أن ترى وجهي. لأن الإنسان لا يراني ويعيش. وقال الرب هوذا عندي مكان. فتقف على الصخرة. ويكون متى اجتاز مجدي أني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز. ثم أرفع يدي فتنظر ورائي. أما وجهي فلا يرى» خروج ٣٣، أولا هل هناك علامات مميزة لوجه الرب بحيث لا يمكن أن يريه وجهه، بل اكتفى الرب بأن جعل موسى يرى قفا أو مؤخرة الرب، أم هل كان الرب يريد أن يحتفظ بهيبة أمام موسى، أم أن الرب يخشى من أن يفتضح سره، ولكن وفي غير موضع جاءت أسفار الخروج على ذكر أن موسى كان يتحدث مع الرب وجها لوجه، كما جاء أيضا أن شيوخ إسرائيل السبعين، ومعهم موسى وهارون، وابنيه ناداب وأبيهو، ويشوع قد رأوا الرب، بل وقد شاركوه وليمة أعدت من قبل الرب على شرفهم.

وكذلك الأمر بالنسبة لكاهن مديان الذي يرد له اسمان، مرة يثرون، ومرة راعوئيل، في نفس سفر الخروج، وأي شخص يقرأ هذا السفر يتضح له أن هذا السفر قام بتحريره كاتب قام بمزج، بل باقتطاع أجزاء من سفرين للخروج، تمثلان روايتين، إحداهما يهوية، وفيها يرد اسم كاهن مديان يثرون، ورواية إسرائيلية، ويرد فيها كاهن مديان باسم راعوئيل، وهو الذي أيضا أتى على ذكر أبناء موسى (جرشوم، وأليعازر)، ولم يتقن المحرر في مزج المصدرين اليهودي، والإسرائيلي، فبدت بعض المقاطع قد تم اقتطاعها من أحد المصدرين، ثم تم إلصاقها بطريقة فسيفسائية، شوهت التسلسل السردي، ولا سيما بالنسبة لمرحلة سيناء، عكس ما نجده من انسجام في سفر التثنية.

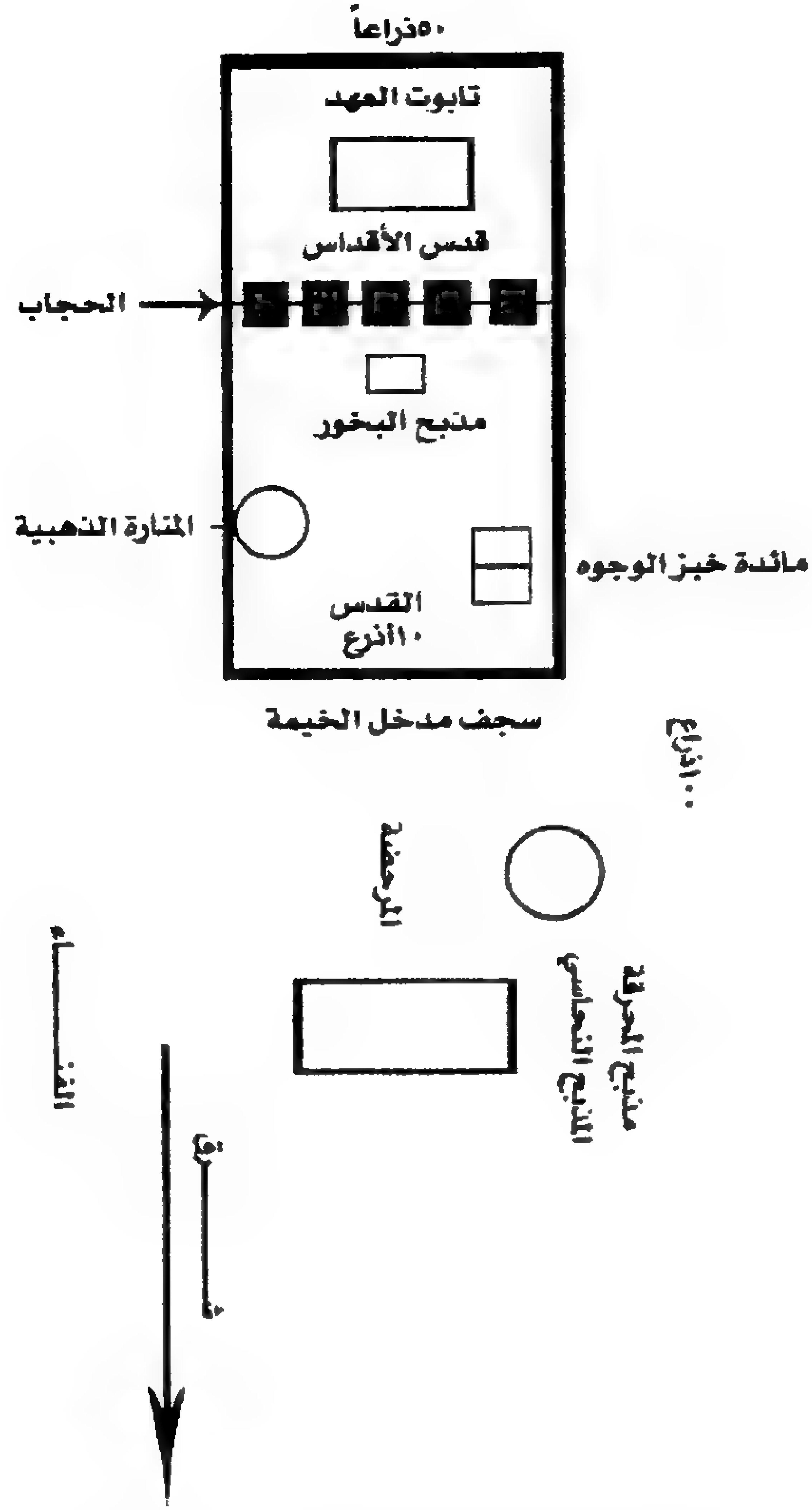
موقع سيناء



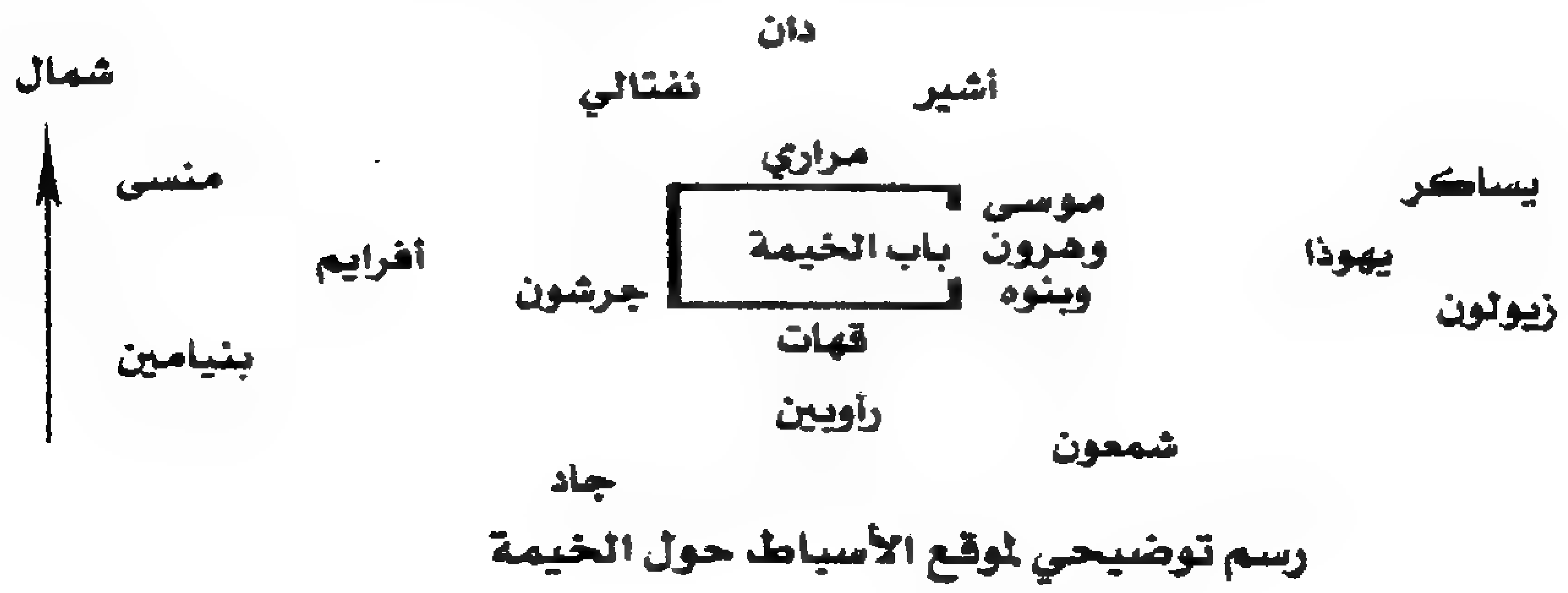
طريق الخروج ورحلات البرية لشعب إسرائيل



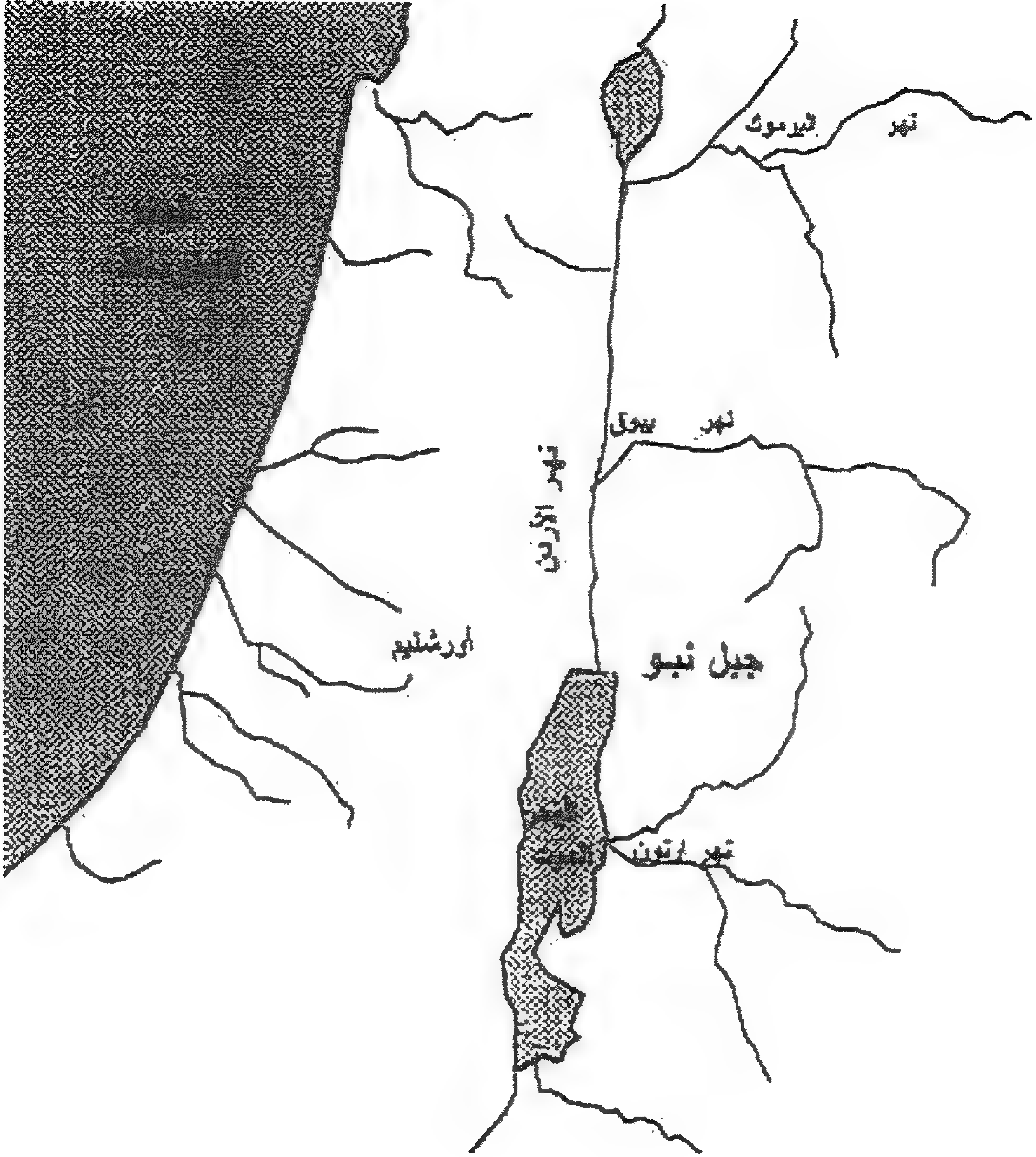
مسار الخروج عند بني إسرائيل



رسم تخطيطي لخيمة الشهادة وموقع تابوت العهد



رسم توضيحي لموقع الأسباط حول الخيمة



موقع جبل نبو

قراءة في النص التوراتي
لملحمة الخروج

لا أريد أن أتّبع الخطوات التي اتبعتها في نقاش سفر التكوين الذي يلخص تاريخ الآباء الأوائل، وما يحكم سفر التكوين يحكم الأسفار الأربعة التي تؤرخ لرحلة قوم موسى من مصر إلى شرقي الأردن، فهنا أيضا محاولة لاستحواذ المكان من خلال تأويل تسمية بعض الأماكن والمواقع الجغرافية، «فجاؤوا إلى مارّة. ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر. لذلك دعي اسمها مارة»، «ودعي اسم الموضع مسّة ومريبة من أجل مخاصمة بني إسرائيل ومن أجل تجربتهم للرب قائلين أفي وسطنا الرب أم لا»، «فدعي اسم ذلك المكان تبعيرة لأن نار الرب اشتعلت فيهم»، «فدعي اسم ذلك الموضع قبروت هتأوة لأنهم هناك قبروا القوم الذين اشتهوا»، «فدعي ذلك الموضع وادي أشكول بسبب العنقود الذي قطعه بنو إسرائيل من هناك»، وكذلك من حيث النسيج الداخلي الأسطوري للتأريخ، على الرغم من أن محوري الزمان والمكان ينضويان نسبيا تحت مفهوم التأريخ، الأمر الذي لم يكن كذلك في سفر التكوين، ولكن الأسطورة في ملحمة الخروج تأخذ أبعادها من خلال الأحداث الأسطورية الخارقة، والتضخيم الهائل للأرقام التي تأتي بها الأسفار الأربعة التي أرّخت لملحمة الخروج (الخروج - اللاويين - العدد - التثنية)، ومن خلال تزييف أو تحريف ما يمكن أن يكون حقيقة.

على الرغم من أن التوراة لم تتحدث على الإطلاق عن الوضع الخارجي والتحديات التي كانت تواجه المملكة المصرية، ولم تعط أي معلومات عن أحوال مصر، ولا حتى أسماء الفراعنة الذين عاصروا زمن الخروج، وهذا يشير إلى أن هذه الأسفار كتبت في مرحلة لم يعرف المحرر اسم فرعون الخروج، ولا زمن الخروج، وكما سنرى لاحقا أن هذه الأسفار تمت كتابتها في مرحلة السبي البابلي، وما بعدها، ولم تهتم أسفار الخروج سوى بالأحداث الخاصة بجماعة الخروج، وحتى إنها لم ترصد لنا بشكل واضح تجربتهم الحياتية بعد وصولهم إلى مصر بشكل واضح، والتغيرات الاجتماعية التي واكبت تحولهم من مجتمع بدوي أو شبه بدوي رعوي، إلى مجتمع زراعي أو شبه زراعي، وحسب

ما يمكن توقعه، فإن الجماعات العبرية لم يتخلوا عن نمطهم الرعوي بعد دخولهم إلى مصر، وربما زاوجوا بين النمطين الرعوي، والزراعي، فأبقوا على تربية الأغنام والمواشي الرعوية، والتي أضيفت إليها تربية الأبقار وهي من حيوانات المجتمع الزراعي لا البدوي.

وقد بيّن سفر التكوين أن عائلة يعقوب قد تم توطينهم في أرض جاسان في منطقة ما من الدلتا، والتي تتناسب إلى درجة ما مع الحالة الرعوية، وبعيدا عن المجتمع المصري الذي كان ينظر بازدراء إلى البدو رعاة الأغنام «ثم قال يوسف لأخوته ولبيت أبيه أصعد وأخبر الفرعون وأقول له إخوتي وبيت أبي في أرض كنعان جاؤوا إلي. والرجال رعاة غنم. فإنهم كانوا أهل مواش وقد جاؤوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم. فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك أهل مواش منذ صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعا. لكي تسكنوا في أرض جاسان. لأن كل راعي غنم رجس للمصريين» تكوين ٤٦، «فأسكن يوسف أباه وأخوته وأعطاهم ملكا في أرض مصر في أفضل الأرض في أرض رعمسيس كما أمر الفرعون» تكوين ٤٧، وهذا يعني أنه تم إسكانهم في منطقة خاصة بهم، بعيدا عن المصريين، ولكن سفر الخروج تناقض مع نفسه في استقلالية المكان الذي كان العبرانيون يقيمون فيه، فقد جاء:

إن أم موسى قد وضعت موسى في السفط الذي يجب أن يتوجه شمالا حسب المسالك المائية لدلتا النيل، وأن ابنة الفرعون كانت تستجم على ضفاف النهر، وهذا يعني أن مكان سكنى العبرانيين كان على ضفاف أحد روافد الدلتا والمتفق أنه على الجانب الشرقي من الدلتا، وأنه على مقربة، وإلى الجنوب من القصر الفرعوني.

وقد جاء أيضا في سفر الخروج في معرض حديثه عن الضربات التي سددها الرب (يَهْوَه) على أرض مصر قد استثنت أرض جاسان التي كانت مكان سكنى العبرانيين دون المصريين، وهذا يعني أن مكان سكناهم كانت خاصة بهم.

ولكن سفر الخروج نفسه جاء بما يناقض ذلك، فقد طلب الرب (يَهْوَه) قبل ليلة الخروج من مصر من العبرانيين رجالا ونساء أن يقترضوا كل ما يمكن أن يقرضه لهم جيرانهم المصريين، كما طلب منهم وضع دم على أبواب منازلهم كعلامة تميز منازل العبرانيين عن منازل المصرين، وهذا يعني أن العبرانيين كانوا يعيشون بأحياء موزايكية مع المصريين.

الخروج ما بين الهروب والطرد:

مع اعتبار أن الخروج حادثة تاريخية، فإن القراءة المتأنية لأسفار التوراة تُظهر أن محرري سفر الخروج قد أسبغوا عليه صفة متناقضة بين الخروج هروبا، وبين الخروج طردا، وهذا التناقض يمكن إعادته إلى عدة أسباب افتراضية:

- السبب الافتراضي الأول هي اعتماد محرري أسفار الخروج على روايتين مختلفتين، ومستقلتين الأولى كانت قد أوردت الخروج من خلال الطرد، والأخرى أوردت الخروج هروبا، أو أن هناك حادثتي خروج كانت إحداهما طردا، والثانية هروبا، وقد قام المحرر بدمجهما بطريقة ساذجة.

- السبب الافتراضي الثاني لتفسير تناقض رواية الخروج بين الطرد والهروب، هو قيام السلطة المصرية بطرد بعض الجماعات، وقامت جماعات أخرى بالهروب بمرافقة الجماعات المطرودة، أو أن المحرر التوراتي حاول أن يبقي القارئ تائها بين النقطتين فلا هو على يقين بأن الخروج تم طردا، وهو على ما يبدو ما لا تقبل به عقدة النقص اليهودية، ولا هو تم هروبا الأمر الذي يتعارض مع سير الأحداث، فزاوج المحرر بين المقولتين، بأن تم طردهم بعد حصول عدة أحداث بيئية قاسية، ربما جلبت المصائب على بلاد النيل، وهذه الأحداث ربما ربطها المصريون بطريقة دينية بوجود العبرانيين الذين لم يكونوا يحترمون الطقوس والمحرمات المصرية، الأمر الذي قاد إلى ثورة شعبية ضد هؤلاء المجتمعات الملصقة كثورة مضمرة على الحكم الفرعوني، أما تلك المجتمعات المضطهدة فقاموا بإحالتها إلى قوى إلهية تختص بهم كتعويض عن شعورهم بالدونية كطبقة خادمة في المجتمع المصري، واعتبروها معجزات إلهية عاقب فيها الربُّ المصريين الذين قاموا باضطهادهم، وعلى ما يبدو فقد تواكبت عدة ظروف خارجية وداخلية، وعلى رأسها الظروف الاقتصادية والسياسية السيئة، والتقلبات الطقسية الشديدة التي حدثت حسب الأجواء التي تم وصفها في سياق التبدل الشتوي الربيعي «فالكتان والشعير ضربا. لأن الشعير كان مسبلا والكتان مبزرا. وأما الحنطة والقطاني فلم تضرب لأنها كانت متأخرة» خروج ٩، «اليوم أنتم خارجون في شهر أبيب» خروج ١٣، وشهر أبيب هو شهر الربيع أو شهر القمح، وهذا يتماشى مع حصول التقلبات البيئية الصارخة التي تم وصفها في الضربات الاثنتي عشرة: أمطار، رعود، بروق، ضباب، صقيع، رياح رملية، تكاثر الحشرات والبرمائيات، كما يتماشى مع ذبح جماعات الخروج لخراف بعمر سنة، والمعروف أن الأغنام تتكاثر بين نهاية الشتاء وبداية الربيع، وفي هذه الأجواء البيئية الصاخبة والتي ترافقت مع نزول الأمطار

الرعدية التي أدت إلى حدوث فيضانات في النيل جعلته غير قابل للشرب، ونزول البَرَد والضباب والصقيع حينا آخر مما أدى إلى تفشي بعض الأمراض، والتي حدثت في مصر في تلك السنة، وقد جاء في سفر الخروج أنه بعد أن حلت إحدى عشرة ضربة موجعة بالمصريين «ثم قال الرب لموسى ضربة واحدة أيضا أجلب على فرعون وعلى مصر. بعد ذلك يطلقكم من هنا. وعندما يطلقكم يطردكم طردا من هنا بالتمام» خروج ١١، وما يشير إلى حادثة الطرد هو أن عجينهم كان فطيرا، الأمر الذي يوحي بأنهم لم يكونوا مهيئين، أو على دراية بموعد الخروج، فقد كانوا قد عجنوا طحينهم لخبزه في الصباح ولكن طردهم في منتصف الليل جعلهم يمضون بفطير عجينهم «وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر خبز ملة فطيرا إذ كان لم يختمر لأنهم طردوا من مصر ولم يقدروا أن يتأخروا. فلم يصنعوا لأنفسهم زادا» خروج: ١٢، كما جاء أيضا في المزمور ١٥٠ «فرحت مصر بخروجهم لأن رعبهم سقط عليهم».

أما ما يشير إلى أنهم خرجوا هروبا هو قيامهم بسرقة المصريين بالخدعة، في الوقت الذي كانوا قد هيؤوا أنفسهم للهروب، ولذا فقد لحق الجيش الفرعوني بجماعة الخروج، إلى أنهم لم يستطيعوا ذلك، على الرغم من أنهم كانوا عبارة عن عائلات، وهذا يعني وجود كهول وعجزة ونساء وأطفال، وعلى الرغم من أيضا الأعداد الهائلة من الماشية على تنوعها التي كانت معهم، وقد وصلوا إلى سيناء بعد حدوث معجزة عبور البحر، والتي لا يمكن تفسيرها تاريخيا، بل يمكن إحالتها شأنها شأن كل الخوارق إلى اللاهوت لتفسير كيف أن موسى بضربة من عصاه شق البحر إلى قسمين، بحيث وقف الماء على طرفين كلوحي زجاج، ولم يأت في التوراة تحديد للبحر الذي تم عبوره، كما جاء أيضا أن الشعب رأى جثث جيش فرعون على الشاطئ الأمر الذي لا يمكن قبوله ضمن القراءة التوراتية فهم كانوا متقدمين على الجيش الفرعوني، وستحتاج جثث الغرقى إلى الكثير من الوقت حتى تصل إلى الشاطئ من جهة، ومن جهة ثانية فإنهم منذ لحظة خروجهم سيتابعون هروبهم إلى الأمام ولن ينتظروا حتى يروا جثث جيش فرعون تتدفع إلى الشاطئ، كما أنهم لن ينتظروا حتى يعرفوا إن كان فرعون مصر قد غرق مع جيشه، ويمكن أن نضيف أن بني إسرائيل بُعيد خروجهم من الماء مباشرة بدؤوا يتذمرون وسيبقون على تذمرهم طوال رحلة الخروج، فلو كانوا قد رأوا معجزة الخروج ما تذمروا من موسى ولا شككوا بقيادته لهم، ولا ندموا على خروجهم «ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع» خروج: ١٦، كما يمكن أن نضيف أيضا أن سيناء كانت منطقة تابعة للسلطة المصرية وهذا لا يعني وصولهم إلى دار الأمان بدخولهم شبه جزيرة سيناء.

- والسبب الافتراضي الثالث ومع اعتبار أن حادثة الخروج هي حادثة تاريخية - فيمكن لنا أن نتوقع، أو نفترض حدوث اضطرابات كبرى ما قبل الخروج، أدت إلى فوضى عارمة سببها قيام تمرد كبير من قبل بعض الجماعات المصرية، شكلت سيناريو لحرب أهلية، وقد فرت بعض الجماعات من أتون تلك الحرب، مترافقة مع طرد، وهروب مجموعات مصرية، ويبدو أن العبرانيين قاموا بمناصرة الجماعات المتمردة والتي انكسرت، وخوفا من انتقام السلطة الفرعونية قررت الهروب مع الجماعات المنكسرة التي انسحبت نحو سيناء.

أي كان هناك طرد لبعض الجماعات، وهروب لجماعات أخرى، بمعنى قامت بعض الجماعات بالهروب مع الجماعات التي تم طردها من مصر، وهذا يفسر لحاق جنود الفرعون بجماعات الخروج، وهذا ما يفسر أيضا اللبس الذي أتى في التوراة في سرد حادثة الخروج ما بين الهروب والطرد، وعلى ما يبدو فإن الجماعات العبرية (بني إسرائيل) هي الجماعات التي هربت مع بعض الجماعات المصرية التي تم طردها - لأسباب صحية وسياسية حسب ما أورده بعض قدماء المؤرخين، ولم تكن الجماعات العبرية على علم مسبق بيوم الخروج، وهم أنفسهم الذين طُلب منهم أن لا يخرجوا من منازلهم في ليلة الخروج، وأن يضعوا علامات على أبواب بيوتهم، كي لا تستهدفهم الجماعات المتمردة، ولكن الجماعات العبرية قررت الهروب في تلك الفوضى، وهذه الفوضى تعكس، وتفسر تخبط الخارجين في طريق خروجهم، وأعتقد - حسب ما سآتي عليه لاحقا - أن الرب (يَهْوَه) كان قائدا، ومخلصا للجماعات المصرية وليس العبرية، ولكن في سيناء قام الرب (يَهْوَه) من خلال موسى بفرض قيادته، وأوامره، وعقيدته على الجماعات العبرية (التي كان يمثلها هارون).

موسى

جاءت قصة مولد موسى كـكل قصص مولد البطل الذي تحيط بولادته ونشأته ظروف خاصة وغامضة دائما، وغالبا ما تكون هناك نبوءة تتردد حول اقتراب زمن ولادة البطل الذي سيقوم بقتل الملك، وعلى الرغم من اتخاذ إجراءات للحؤول دون تحقيق النبوءة، إلا أن تدخّل قوى خارقة تؤدي إلى إنقاذ الطفل من موت محتم، والذي دائما يكون هناك شكوك في شرعية الطفل الاجتماعية، وغالبا ما يكون الطفل مجهول الأب، أو لقيطا، أو يتيما، وغالبا ما يعيش ويتربى في غير عائلته، وبيئته، ومجتمعه، وغالبا ما يكون هناك تناقض طبقي مادي، واجتماعي بين عائلة الطفل الأثنية، والعائلة التي يتربى بها الطفل، وكثيرا ما تكون عند أعداء عائلته وقومه، الذي يعود إليهم لينقذهم بعد أن يصبح رجلا، ودائما تكون تلك الفترة غامضة تصمت الروايات بشكل عام عن الحديث عنها، وغالبا ما يمر البطل بمرحلة أو رحلة عبور، يمر من خلالها البطل من مكان إلى مكان، وغالبا ما يكون عبورا مائيا، حيث يؤدي هذا العبور إلى تغيير جوهري في حياة وشخصية البطل، وهو ما نجده في أسطورة الملك الأكادي شاروكين، وأسطورة أوديب، وأسطورة ريموس ورومولس، وقصة السيد المسيح، وقد ورد في سفر القضاة عدة قصص تتناص مع قصة مولد البطل منها قصة (شمشون - جدعون - يائير الجلعادي) والتي سنأتي على ذكرها.

وبعد أن يعود البطل من غيابه يصبح قائدا لمجتمعه الأثني الذي غالبا ما يكون مضطهدا، فيقوم بتحريره ويصبح رمزه وبطله القومي، وقد جاءت قصة مولد موسى متشابهة إلى درجة التطابق في محورها العام مع أسطورة مولد الملك الأكادي سرجون الأول (٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م)، وأتت عناصر القصة عبارة عن رموز، ومجازات أسطورية، ولا سيما بالنسبة للسفط (الذي يمثل رحم الأم، وفلك نوح) والماء الذي يمثل الطوفان، وهو ما يتماشى مع اسم موسى (موشيه) الذي يعني بالعبرية المنقذ، أو المخلص، أو المنتشل حسب ما جاء في القصة، قبل أن يكون هناك لغة عبرية، أما بالمصري فيعني موشيه ابن أو طفل، وأكثر أسماء الفراعنة يدخل فيها الجذر موسى مثل أحمس = أح موسى أي ابن الإله أح، وكذلك الأمر بالنسبة لتحتمس، ورعمسيس = رع موسى، والذي يعني ابن الإله رع، أي أن موسى صفة تلحق

باسم الإله، بحيث يصبح ابن الإله، وراعيه، وممثله على الأرض، ولا يلحق بأسماء بشرية بشكل عام، أما برستيد فيذهب إلى أن اسم موسى يعني الطفل الوليد، والبعض يذهب إلى أن كلمة موسى مركبة من قسمين مو (الماء)، و سا (الابن)، وبالتالي فإن موسى يعني ابن الماء، وقد أطلقت على موسى اسمه ابنة الفرعون التي كانت قد التقطته أثناء استجمامها على ضفاف نهر النيل كما جاء في سفر الخروج، وهذا يعني أن مكان سكنى عائلة موسى كان على مقربة من القصر الفرعوني، وإلى الجنوب منه لأن مياه النيل تمضي من الجنوب إلى الشمال، وهذا يطرح أسئلة متعددة حول مكان سكنى العبرانيين في مصر، كما يطرح أسئلة متعددة عن عاصمة مصر في تلك الفترة، كما جاء أيضا أن ابنة الفرعون عرفت أن الطفل عبراني، فكيف تسنى لها ذلك؟، هل من خلال سحنته؟، وهل كان للعبرانيين سحنة خاصة تميزهم عن السحنة المصرية؟، أم أنها توقعت ذلك لمعرفتها بقرار الفرعون الذي ينص على رمي كل مولود عبراني في النهر؟!، أم عرفته لأن مكان استجمامها كان بالقرب من أحياء العبرانيين؟ وهل كان موسى مختونا، وقد عرفته من ذلك، مع العلم أن الكهنة المصريين كانوا يختتون كطقس، وشعيرة دينية، ولكن لم يكن يخضع الجميع لتلك الشعيرة.

وثمة نقطة يجدر ذكرها، وهي أن المصريين كانوا يقدسون السفينة، والمراكب النهرية لأنها وسيلة تنقّل البشر، والآلهة أيضا.

وإذا ما افترضنا وجود نواة تاريخية لهذه القصة، فيمكن أن نخمن أن طفلا ما ولد بطريقة غير شرعية، وقد تخلصت منه أمه بوضعه في سفط، أو صندوق خشبي، وإلقائه في النهر بعد ولادته لستر عارها، وقد تم التقاطه من النهر، وتم تبنيه من قبل إحدى الأسر الحاكمة، وتم استقدام مرضعة له، وربما كان لتلك المرضعة أولاد أصبحوا أخوة لهذا الطفل في الرضاعة، وغالبا، وبعد أن يتعرف اللقيط على قصة ولادته الحقيقية، ينتابه شعور مؤلم بأنه هو (نكرة) لا يعرف من هو أبوه، ومن هي أمه، وتدبيرا لهذا الشعور يبدأ اللقيط بصناعة شخصية مميزة، بحيث يصبح هو أبا لنفسه، بحيث يستطيع الافتخار بها، ومن هنا فالكثير من الشعوب تصف الأشخاص المميزين بأنهم (أولاد حرام).

ولنا أن نخمن، ونفترض الكثير من الأحداث من أجل مقاربة النواة التاريخية لأسطورة ولادة موسى التي قامت الألسنة بتطوير هذه النواة ونحتها عبر الزمان، وتدبيج الفرمان الفرعوني الذي يجعل من الطفل وليد علاقة شرعية.

وهكذا تشكلت تلك القصة ووصلت إلى التوراة التي توقفت عن ذكر أي شيء يتعلق بطفولة موسى ويفاعته وشبابه، مستغفلة حياته في البلاط الفرعوني، فانتقلت من قصة ولادته

ورضاعته إلى مرحلة الرجولة مباشرة من خلال قصة قتله لرجل مصري استنصارا، وعنصرة، لرجل عبراني - وفقط - لأنه كان من أبناء جلدته، الأمر الذي قاد الفرعون إلى إهدار دم موسى، ومن المستغرب أن يهدر الفرعون دم شخص كان بمثابة ابنا له، وتربى في قصره لأنه قتل رجلا مصريا من العوام، وهنا يمكن لنا أن نطرح عدة أسئلة:

كيف عرف موسى نفسه أنه عبراني؟، وكيف عرف من هي عائلته؟، ومتى مات أبوه، وأمه؟ وكيف تعرّف على شقيقته مريم وشقيقه هارون قبل هروبه إلى سيناء؟، وهل مريم وهارون أخوة موسى حقا؟

أولم تكن الأحكام التي تزامنت مع مولد موسى، هي نفس الأحكام التي تزامنت مع مولد هارون الذي يكبر موسى بثلاث سنوات فحسب، أم أن تلك الأحكام فرضت بعد ولادة هارون؟

ثم أن موسى بعد هروبه من مصر، ووصوله إلى سيناء، وبعد أن دافع عن بنات كاهن مديان ضد الرعاة واستسقى لغنمهن، ذهبن إلى أبيهن «فقلن رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة وإنه استسقى لنا أيضا وسقى الغنم» خروج ٢، فلنا أن نسأل:

كيف عرفت بنات يثرون أن موسى مصري؟، هل من لسانه الفرعوني؟، أم من لباسه وهيئته؟، أم من سحنته؟

ولماذا أبقت التوراة على الغموض في علاقة موسى بزوجته صفورة بنت كاهن مديان، وأولاد موسى الذين تم ذكرهم بطريقة عرضية ثم غابوا جميعا عن ساحة الأحداث، ولم تذكر التوراة بكل أسفارها أحدا يعود بنسبه إلى موسى على الرغم من أن موسى يعتبر أعظم شخص عرفه العبرانيون؟، بل إن التوراة لم تأت على ذكر أي شخص يدعى موسى (غير موسى بطل الخروج)، أي أن أحدا من بني إسرائيل لم يطلق على ابنه اسم موسى تيمنا باسم موسى، على عكس أولاد هارون، وأحفاده، واللاويين الذين ما زالوا يتكاثرون حتى يومنا هذا!

وقد أوردت التوراة جملة غامضة في سياق سردها لقصة عودة موسى إلى مصر «وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله. فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومسّت رجليه. فقالت إنك عريس دم لي. فانفك عنه. حينئذ قالت عريس دم من أجل الختان» خروج ٤، وقد أتى أن زوجة موسى وولديه قد عادوا معه إلى مصر، إلا أن السفر نفسه عاد وصرح أن موسى بعد خروجه مع قومه من عبودية مصر، وبعد أن سمع حميّه يثرون بوصوله إلى سيناء التحق بموسى، وكان برفقته زوجة موسى صفورة وولداه، وهذا الغموض الذي اكتنف

حياة موسى، إضافة إلى غموض الجملة السابقة جعل الباحث سيد القمني يتساءل: هل كانت زوجة موسى هي أمه..؟ وهذا السؤال، أو التساؤل يحيلنا ذهنيا إلى موسوية أوديب، وهي نقطة سنأتي على الحديث عنها لاحقا.

كما أن التوراة أتت على ذكر ثلاث زوجات لموسى دون أن تربط بين تلك الزوجات، فالمعروف أن زوجة موسى هي صفورة بنت كاهن مديان يثرون، ومرة أخرى يرد على أنها ابنة الكاهن رعوئيل، وهنا لنا أن نسأل هل يثرون هو رعوئيل نفسه، وأن رعوئيل هو صفة ليثرون كما يجزم جورجي كنعان؟، أم أنهما شخصان يعودان إلى روايتين تم دمجهما في سفر الخروج؟، أم أنهما شخصان عاصرا أحداث سيناء، وأن موسى الذي تزوج من ابنة يثرون، هو غير موسى الذي تزوج من ابنة رعوئيل، وأن هناك موسى ثالث كان متزوجا من امرأة كوشية «وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها. لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية»، وهناك موسى رابع قد تزوج من امرأة قينية، فقد جاء في سفر القضاة «وبنو القيني حمي موسى صعدوا من مدينة النخل مع بني يهوذا إلى برية يهوذا التي جنوبي عراد وسكنوا مع الشعب» قضاة ١، «وجابر القيني من قاين من بني حوباب حمي موسى»، مع العلم أن القينيين كانوا جزءا من إئتلاف سيناء، وهم من غير العبرانيين «ثم جاء شاؤل إلى مدينة العماليق وكمن في الوادي. وقال شاؤل للقينيين اذهبوا حيدوا انزلوا من وسط العمالقة لئلا أهلككم معهم وأنتم قد فعلتم معروفا مع جميع بني إسرائيل عند صعودهم من مصر» صموئيل الأول ١٥، وهنا يمكن لنا أن نظن أن كاهن مديان كان من القينيين.

لقد ذكرنا سابقا أن موسى وصل إلى سيناء، وهناك تزوّج من صفورة ابنة كاهن مديان، وقد عمل عند حميّه راعيا حيث كان يسرح بالأغنام في فضاءات سيناء الممتدة إلى ما لانهاية، وبين قمم جبالها المتصلة بالسماء، وعنفوان الطقس ببروقه التي تضيء عتمة الليل الدامس، ورعوده التي تهز أركان جبال سيناء، وفي هذا الطقس الرهيب اللاهوتي تعرّف موسى على الرب، الذي عرّف باسمه، إجابة على سؤال موسى «أهيه الذي أهيه» وهو يعني (أنا الذي يعني أنا)، أو أنا هو الذي هنا، أو سأكون الذي سأكون، أو أكون الذي أكون، أو سأكون الذي وعدت أن أكونه، ثم عدل في رواية أخرى إلى {(يَهْوَه)} والذي يعني يكون، وهي صيغة الغائب المضارع للفعل كان، وهو ما يذهب إليه سيد القمني {الإله - (يَهْوَه) - كان فعلا، ولم يكن اسما وليس له اسم، إنه فقط (هو)}، ويرى البعض أن اسم (يَهْوَه) مشتق من كلمة هوى الذي يعني سقط، لأنه يُسقط الأمطار من السماء إلى الأرض،

أما فلهاوزن فيرى أن اسم يهوى مشتق من كلمة هواء العربية على اعتباره إله العواصف والرعود، أما جورجي كنعان فيعتقد أن كلمة (يَهْوَه) أطلقها موسى على الرب، وهي كلمة لا معنى لها، وقد أراد من خلالها موسى أن يجعل من الاسم لغزا غامضا، يحار المرء أمامه، أما أحمد شلبي فيرى أن (يَهْوَه) هو ضمير الغائب من هو، وهكذا تكون صيغة المنادى منه (يا هو)، وهذا يعني أن كلمة (يَهْوَه) لا تمثل اسما، بل هي ضمير يعود إلى الرب الذي لا اسم له، أو أن اسمه يشكل سرا لا يمكن البوح به، وثمة نقطة من الجدير ذكرها هو أن المصريين لم يكونوا ينطقون باسم سيت إله الشر تعوذا منه، وأوزيريس إله الخير إكراما وإجلالا له (الإله الذي لا أسميه) (من لا أستبيح ذكر اسمه)، وحول طوطمية، أو سرية اسم الإله، يمكن أن نسوق مثالا من الديانات المصرية، فقد ورد في الميثولوجيا المصرية أن الإله رع على الرغم من شيخوخته، فقد استطاع البقاء سيدا على السماوات والأرض من خلال اسمه السري السحري الذي لا يعرفه أحد من الآلهة أو من البشر، وكانت الإلهة إيزيس المتمرسة في أعمال السحر قد صممت على معرفة اسم رع الحقيقي، والذي من خلاله يمكن لمن يمتلكه أن يسيطر على السماء والأرض، فقامت إيزيس بجبل أفعى من التراب، ومن لعاب الإله رع الذي يسيل منه، وبعثت بالأفعى للتعقب الإله رع (الشمس) في مسيرته اليومية من الشرق إلى الغرب، حيث استطاعت الأفعى أن تعضه، وتدخل سمها القاتل في جسده، وبسبب معاناة الإله رع من الألم دعا جميع الآلهة علهم يستطيعون تقديم يد العون له، ومعالجته من آلامه المبرحة، وهنا تطوعت إيزيس بأن تقوم بهذا الدور، ولكنها اشترطت عليه أن تعرف منه اسمه السري، فحاول التهرب من الإجابة بأن عدد عليها ألقابه المعروفة (خيبيرا وهو ما يطلق عليه وقت الصباح، ورع وهو لقبه في وقت الظهيرة، وتوم وهو لقبه عند المساء، ومن أسمائه أو ألقابه أيضا طيمو، وشو، وطفنوت، وسب)، ولكن إيزيس ردّت عليه بأن هذه ألقابه فحسب، وليس من بينها اسمه الحقيقي، وفي النهاية، وبعد أن فشل في مراوغتها، وبعد أن اشتد عليه الألم، لم يجد بدا من أن ينفّذ شرط إيزيس، فقام بإلقاء اسمه في قلبها دون أن يتلفظ به، وبذلك قامت بشفائه، وبالمقابل امتلكت قدراته أيضا، من خلال امتلاكها على اسمه السري.

وبذلك فإن طوطمية، وسرية، وسحرية الاسم تكمن في أن من يعرف الاسم المقدس للإله فإنه يستطيع أن يسيطر على المفصل، أو المعبر الذي يصل ما بين السماء، وما بين الأرض، ما بين عالم اللاهوت، وعالم الناسوت، وكمثال على هذه الطوطمية فإن بعض التنظيمات المخابراتية، أو التنظيمات السرية، أو العصابات، غالبا ما تشير إلى زعيمها بصفة،

أو رمز تعتبره اسما له، مثل الزعيم، أو المعلم، وربما تعطيه إلى جانب لقبه رقما تمييزاً عمن سبقه من الزعماء، أما اسمه الحقيقي فلا يعرفه سوى القليل القليل، وعلى رأسهم القيادة السياسية العليا على سبيل المثال.

أما بالنسبة للإله الذي اختار بني إسرائيل شعبا له، فليس له اسم، إنه (هو) فحسب، أو على وجه الدقة، لا يمكن التعرف على اسمه السحري، والسري، توقيرا، وتبجيلا، لأن اللغة (المحدودة) لا يمكن أن تشير، أو تحيط، أو تصف الإله الشمولي المطلق، فاسمه يشكل تابو، وقد جاء في سفر إشعيا «أنا هو. أنا الأول. وأنا الآخر»، ومن جهة أخرى فإن البسملة الإسلامية (بسم الله الرحمن الرحيم) قد تشير إلى أن اسم الله هو سر لا يمكن البوح به، وأن كلمة (الله) هي صيغة مشتقة من كلمة الإله، ولا تمثل اسما لرب الكون المطلق، لأن اسم الإله يعتبر طوطما (لغويا) يحرم على الإنسان التلفظ به، لأنه بذلك يدنس، ويستبيح قدسية الإله، ولكن في بعض المعتقدات، خاصة البدائية، فيمكن الاطلاع على الاسم السحري للإله، من قبل الكاهن الأعلى حصرا، والذي لا يمكن أن يتلفظ به إلا سرا في بعض الاحتفالات، أو المناسبات الدينية، ويتم توارث هذا الاسم بطريقة سرية بين الكاهن الأعلى، وولي عهده، وهنا لنا أن نفترض أن الاسم السري المقدس للإله العبري قد فُقد بعد موت مفاجئ للكاهن الأكبر، قبل أن يكون قد أَسرَّ به إلى ولي عهده، وبذلك لم يجد الكهنة اللاويون الذين جاؤوا بعد الكاهن المؤتمن على الاسم المقدس سوى أن يعتبروا اسم الإشارة (هو) اسما للإله، ومن ثم تحول (هو أو أهيه)، إلى «يَهْوَه» الذي يشير إلى شمولية وجوده، وديمومته، ومن ثم أصبح «يَهْوَه» اسما طوطميا أيضا، ولا يمكن لليهودي التلفظ به إلا في مناسبات معينة، أو أن الجماعات العبرية تعرفت على الرب بعد أن اصبح لقبه، أو ما يشير إليه «يَهْوَه»، وهكذا اعتبرته الجماعات العبرية اسما.

وسرية اسم الرب - إن صحت - يمكن أن تثير سؤالا، أو تساؤلا:

هل كان (يَهْوَه) ربا في ديانة سينائية سرية..؟

وهكذا، وبعد أن ألمّ موسى بماهية الرب، حاول أن يسأله عن ماهيته هو (أي ماهية موسى)، وعلاقته به فقال له «أنا جعلتك إلها لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيك» «.. أليس هارون أخاك.. هو يكون لك فما، وأنت تكون له إلها»، متبعا التقاليد والمفاهيم المصرية للفرعون الذي كان يدّعي الألوهية، ولكن موسى لم يستطع أن يكون مقنعا بإسباغ الصفات الإلهية على نفسه على الرغم من المعجزات التي كان يمتلكها ولا سيما عصاه السحرية، وتخلى عن هذه الصفة واكتفى بأن يكون نبيا، أما هارون فقد نزل من مرتبة النبي

الوصول إلى مرتبة الكاهن، وبذلك أصبح موسى وسيطا بين الرب (يَهْوَه)، والشعب الذي سيذهب كي يحرره من مضطهديه، حيث سيكون موسى قائدا لهم يأمر وينهي على أنه ممثل ووكيل الرب (يَهْوَه) على الأرض.

وبعدها عقد الرب (يَهْوَه) مع موسى صفقة يذهب بمقتضاها موسى إلى مصر لتحرير أبناء جلدته من العبرانيين المضطهدين من قبل الحكم الفرعوني، وبما أن موسى كان يعاني من مشكلة تعبيرية لغوية «فقال موسى للرب اسمع أيها السيد. لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان، فقال له الرب.. أليس هارون أخاك.. فتكلمه وتضع الكلمات في فمه.. وهو يكلم الشعب عنك. وهو يكون لك فما، وأنت تكون له إلها» خروج ٤، وهنا لنا أن نتساءل ما هو العيب التعبيري الذي كان موسى يعاني منه والذي حاول المحرر التوراتي أن لا يصرح بماهيته..؟

هل هو عيب لفظي (تأتأة مثلا)؟، أم عيب تعبيري؟، أم عيب لغوي؟

وهل هذا اللبس يمكن أن يجعلنا نستقرئ أن موسى لم يكن يعرف لغة الجماعات العبرية، على اعتبار أنه تربى في البلاط الفرعوني، ومن هناك انتقل إلى سيناء، ولم يكن له أي احتكاك مع العبرانيين، وبالتالي لم يكن يعرف لغتهم، وكانت شكوى موسى إلى الرب تشير إلى هذه المعضلة، إذ كيف لموسى أن يقود جماعة لا يعرف لغتها..؟

ولكن هذا الافتراض يتنافى مع حاجته إلى مترجم في حواره مع البلاط الفرعوني، إذ لا يقبل أن يكون موسى قد نسي اللغة الفرعونية، التي يفترض أنه قد تحدث بها منذ نعومة أظفاره حتى غدا رجلا، «فتكلم موسى أمام الرب قائلا هوذا بنو إسرائيل لم يسمعوا لي. فكيف يسمعني فرعون وأنا أغلف الشفتين»، «فقال الرب لموسى انظر. أنا جعلتك إلها لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيك. أنت تتكلم بكل ما آمرك. وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه» خروج ٧، وهنا لنا أن نعتقد، أو حتى نؤكد أن معاناة موسى لم تكن ناتجة عن عيب لفظي، أو عيب تعبيري، بل هي ناتجة عن جهل لغوي، لأن تلك المعاناة زالت بعد مدة من احتكاكه مع أبناء جلدته، ومع البلاط الفرعوني، وانطلق لسانه واستغنى عن حاجته إلى مترجم، الأمر الذي يقودنا إلى أن نستنتج، أو حتى أن نذهب إلى أن موسى لم يكن يعرف لغة الجماعات العبرية، كما لم يكن يعرف اللغة المصرية، لأن الجماعات العبرية لا بد أنها كانت تتقن اللغة المصرية بحكم وجودها لمدة طويلة في مصر، والتي يمكن لموسى لو كان يتقنها أن يتحدث بها مع أبناء جلدته من العبرانيين، وإذا ما تبنينا الافتراض الذي يقول إن

هارون عمل مترجما لموسى في حواره مع العبرانيين، ومع البلاط الفرعوني الذي لم يظهر في حواره معه ما يشير إلى أن موسى كان قد تربى في البلاط الفرعوني، ويمكن أن نضيف هنا أن النص التوراتي لم يشر إلى أن موسى كان يعاني من صعوبات تعبيرية في أثناء وجوده في سيناء إن كان في حواره مع عائلة حميه المدياني، وبالتالي مع المديانيين، أو في حواره مع الرب أيضا.

فما هي لغة موسى إذا..؟

مع العلم بأن كلمة موسى تمثل صفة، وليس اسما، وتعني المخلص، وتعني في المصرية الابن، والابن هو ابن الإله، كما هو أيضا ابن الشعب الذي سيقوم بتخليصه مما يعانيه، وقد ذهب هذا اللقب إلى الجماعات العبرية واصبح معناه المخلص، ثم تحول إلى اسم في العبرية.

وهل لنا أن نخمن، أو نستنتج أن موسى كان أكثر من شخصية تعاقبت متاحلة بعضها بعضاً، ودون أن تنتمي إلى أحد من تلك الشخصيات إلى بني إسرائيل، وقد وردت جملة في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر أخبار الأيام الأول تؤكد دون لبس ما ذهبت إليه «وأما موسى رجل الله فدعي بنوه مع سبط لاوي. ابنا موسى جرشوم (وهو يعني غريب) وأليعزر. بنو جرشوم شبوئيل الرأس. وكان ابن اليعاز رحبيا الرأس ولم يكن لأليعزر بنون آخرون. وأما بنو رحبيا فكانوا كثيرين جدا.»، وإذا ما تقبلنا هذا التخمين حينها يمكن لنا - بعد أن نعيد قراءتنا لشخصية موسى (المخلص) - تفكيكها حسب ما جاءت في التوراة إلى عدة شخصيات مدمجة في شخصية موسى:

- **موسى الأسطورة:** وهو الذي انتحل أسطورة ولادة الملك الأكادي سرجون الأول صارغون أو سرجون أو شاروكين الأول، وهذه الأسطورة الشعرية كانت قد دونت في العصر الآشوري في القرن السابع قبل الميلاد على لسان شاروكين {شاروكين الملك القوي ملك أكّاد هو أنا. كانت أمي كاهنة إله ولم أعرف أبي. سكن عمي في الجبال. مدينتي هي أوزوبرانو التي تقع على ضفة الفرات. أمي الكاهنة حملت بي وولدتني سرا ووضعتني في صندوق من القصب أغلقت بابه بالإسفلت ورمتني في النهر الذي حملني إلى أكي الساقي (الفلاح) الذي انتشلني. أكي البستاني جعلني ولده ورباني. أكي الساقي جعلني بستانه. عندما كنت بستانيا أحبتني عشتار. سدت وحكمت ذوي الرؤوس السوداء. خربت جبالا قوية بواسطة بلطات برونزية. صعدت الجبال العليا وعبرت الجبال السفلى. حاصرت بلاد البحر ثلاث مرات. فتحت يدي

دلمون...} ، وهكذا وبواسطة عشتار أدخل شاروكين للعمل في قصر ملك مدينة كيش (أو زبابا) حيث في النهاية استطاع أن يخرج من القصر متمردا على البلاط الملكي، وأن يحكم على مدينة أكاد القريبة من كيش، وأن يؤسس أول إمبراطورية في التاريخ شملت بلاد الرافدين والشام، وحكم قرابة ستين عاما (٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م).

وتم انتحال تلك الأسطورة مع إجراء بعض التعديلات، ولكن لم يتم تطويعها جيدا، مما أدى إلى تشكيل مفارقة بين المكان الذي تمسرحت فيه أسطورة الولادة، والمكان المفترض لسكنى العبرانيين.

أما الأب فقد تم افتراضه وإلصاقه في الأسطورة من شجرة العائلة العبرية ليتماشى مع ثقافة قبلية عشائرية يشكل فيها الأب مركزا، ولذا لم يكن للأب أي دور في أسطورة ولادة موسى، بل إنه أضعف الحضور الأسطوري لها، وهو في الوقت نفسه لم يجعلها تاريخية، أو واقعية، أو ممكنة الحدوث، وقد أعيد لأسطورة المخلص موسى عناصرها، من خلال إعادة إنتاجها في قصة المخلص عيسى.

ومن هنا يمكن القول أيضا أن هارون ومريم ليسا أخوين لموسى الأسطوري، وهو ما يمكن استقراؤه من خلال سفر الخروج الذي لم يعالج ولادة هارون في ظل الأحكام الفرعونية التي تقضي بقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل، والقصة دبجت ليتم إقناع الجماعات العبرية بالخضوع لموسى على اعتباره عبرانيا من جهة، وإقناع أتباع موسى من غير العبرانيين، ولا سيما من المصريين (اللفيف) على اعتبار أن موسى تربى في البلاط الفرعوني، وعاد إليهم ليحررهم من ربقة الاضطهاد الفرعوني، وهؤلاء (اللفيف) حاول المحرر التوراتي اليهودي أن يقلل من شأنهم لمصلحة الجماعات العبرية.

وفي خطاب هارون لموسى يقول «لا يحم غضب سيّدي»، وبعد أن مات ابنا هارون ناداب وأبيهو حرقا في خيمة الاجتماع «فصمت هارون، فدعا موسى ميشائيل وألصافان ابني عزيئيل عم هارون وقال لهما تقدما ارفعا أخويكما من قدام القدس إلى خارج المحلة» لاويين ١٠، كما أن هذا النص يشير إلى أن موسى ليس أخا لهارون، وكان هارون ومريم قد طلبا أن يكون نصيبهما من الرب مثل نصيب موسى، إلا أن الرب رفض ذلك وقال لهما «إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمه. وأما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي. فما إلى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز. وشبْهَ الرب يعاين. فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدي موسى فحمي غضب الرب عليهما ومضى» عدد ١٢، أما في القرآن الكريم فقد جاء في سورة البقرة:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ سورة البقرة الآية ٢٤٨.

وهارون، كما هو موسى ليس له علاقة دموية مع اللاويين، وربما أن اللاويين لا يمثلون قبيلة «ووهبت اللاويين هبة لهارون وبنيه من بين بني إسرائيل ليخدموا خدمة بني إسرائيل في خيمة الاجتماع وللتكفير عن بني إسرائيل لكي لا يكون في بني إسرائيل وبأ عند اقتراب بني إسرائيل إلى القدس» عدد ٨، «وأما موسى رجل الله فدعي بنوه مع سبط لاوي»، وبعد أن قام هارون بانقلاب ديني على موسى، وقف اللاويون مع موسى ضد الانقلابيين بقيادة هارون «وقف موسى في باب المحلة. وقال من للرب فإلي. فاجتمع إليه جميع بني لاوي. فقال لهم. هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى. ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل» خروج٣٢، وهذا النص يوحي بأن الشعب لم يكن لديه أي سلاح كي يقاوم به، أو كي يدافع به عن نفسه ضد اللاويين حملة السلاح الذين قتلوا في يوم واحد، وفي مجزرة جماعية أكثر من ثلاثة آلاف رجل، كما يجعلنا نعتقد أن السلاح كان فقط مع اللاويين، وهذا يعني أن اللاويين كانوا الجيش، أو الحرس الموسوي، أو ميليشيا موسوية، وهذا ما يفسر، أو يسوغ لماذا سنّت لهم الشريعة الموسوية نصيب الأسد من العطايا، وهم أيضا ليسوا من جماعة بني إسرائيل كما أعتقد.

- موسى العبراني السينائي الكاهن الذي كان قد ولد، وتربى، وعاش، وتزوج في سيناء من ابنة كاهنها يثرون (راعوئيل)، وهناك تعرف عليه الرب (يَهْوَه)، وطلب منه الذهاب من مديان إلى مصر، التي لم يكن قد زارها من قبل، مدّعيا أنه من بني إسرائيل، ولكنه رفض الذهاب معه، وبقي في سيناء، ولما عاد الرب وهارون ومعهما أتباعهما الذي كان قد قام موسى المصري بقيادة خروجهما من مصر، انضم إليهم موسى السينائي.

واسم موسى الحقيقي حسب ما أذهب إليه هو حور، والذي جاء أول ذكر له في سياق سرد التوراة لرحلة الخروج، في منطقة رفديم «وأتى عماليق وحارب إسرائيل في رفديم. فقال موسى ليشوع انتخب لنا رجالا واخرج حارب عماليق. وأما موسى وهارون وحور فصعدوا على رأس التلة. وكان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب وإذا خفض يديه أن عماليق يغلب. فلما صارت يدا موسى ثقيلتين أخذا حجرا ووضعاه تحته فجلس عليه. ودعم هارون وحور يديه

الواحد من هنا والآخر من هناك. فكانت يداه ثابتتين إلى غروب الشمس. فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف.. فبنى موسى مذبحا ودعا اسمه (يَهْوَه) نسي» خروج ١٧، أما الموقع الثاني «وقال الرب لموسى اصعد إليّ إلى الجبل وكن هناك. فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم. فقام موسى ويشوع خادمه. وصعد موسى إلى جبل الله. وأما الشيوخ فقال لهم اجلسوا لنا هنا حتى نرجع إليكم. وهوذا هارون وحور معكم. فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما.» خروج ٢٤، وهنا - أمام جبل سيناء - يختفي ذكر حور من التوراة نهائيا، حيث حسب ما أذهب إليه تحول إلى الرب الجديد الذي انتحل شخصية الرب (يَهْوَه)، حسب ما سوف أوضحه في بحث آخر، ومن الجدير ذكره أن حور تعني بالأكادية الابن أيضا.

- **موسى المصري أو الفرعوني**، وهو موسى الذي كان أحد الشخصيات القيادية العسكرية في بلاط أحد الفراعنة، وكان له زوجة كوشية، وقد أبعد عن البلاط بعد سقوط الفرعون الذي كان يتبناه في البلاط الفرعوني، وقد قام موسى المصري في مرحلة لاحقة بإعلان التمرد على السلطة المصرية في منطقة الدلتا، إلا أن السلطة استطاعت أن تنتصر عليه، وعلى أتباعه، وأن تطرده من مصر، إلى سيناء، وأثناء طرد موسى المصري مع أتباعه، فرت برفقتهم الجماعات العبرية التي كانت تعيش هناك، وكانت تعاني من اضطهاد السلطة الفرعونية لهم، وكانت الجماعات العبرية الهاربة بقيادة هارون، وقد تم سرد قصة موسى المصري من خلال سفر الخروج، ابتداء بعودة الرب إلى مصر مع هارون، وانتهاء بالانقلاب الديني أمام جبل سيناء.

- **موسى اليهوذي** وهو الذي انضم أيضا في سيناء مع أتباع موسى السينائي، وهو مثل موسى السينائي، كان قد ولد، وتربى، وعاش، وتزوج على ما يبدو من امرأة قينية، وربما قد اتخذ موسى اليهوذي من امرأة موسى المصري الكوشية زوجة ثانية له، بعد أن قام باغتيال زوجها، وقد تفرد سفر التثنية في سرد سيرة موسى اليهوذي، والتي بدأت أمام جبل سيناء بعد الانقلاب الديني الهاروني، وانتهت عند وصول إيلاف سيناء إلى جبل نبو على الضفة الشرقية لنهر الأردن.

إذا نقطة الفصل بين سفري الخروج، والتثنية كان أمام جبل سيناء حيث تم الانقلاب الديني، والسياسي، وتسلمت السلطة قيادة موسوية سينائية جديدة، وقيادة دينية سينائية برب جديد، بعد أن تم دحر القيادة والديانة العبرية البعلية، والقيادة والديانة المصرية، وبالذات تم قتل موسى المصري، وكسروا عصاه السحرية التي ستختفي من ساحة الأحداث، وهنا يمكن وضع عدة افتراضات، أو عدة سيناريوهات لمقتل موسى المصري:

١ - الافتراض الأول هو مقتل موسى المصري على يد رجال الانقلاب الذين كانوا قد صعدوا على سفح جبل سيناء، وقابلوا الرب المصري وجها لوجه، ولما نزلوا من سفح الجبل بقيادة هارون كممثل للجماعات العبرية التي خرجت من مصر، وحورُ (موسى السينائي) كممثل للجماعات العبرية السينائية التي انضمت إلى إيلاف الخروج بعد وصولهم إلى سيناء، وتركوا موسى المصري، ويشوع مع الرب المصري.

ولما تفرد هارون، وحور بالقيادة أعلن هارون وأتباعه الانقلاب على الرب المصري، ووكيله موسى المصري، واستطاع حورُ أن يهرب ويخبر الرب بالانقلاب، ولما نزل موسى المصري من على الجبل ومعه الشريعة المكتوبة بخط الرب المصري على لوحي الشهادة، والتي رُفضت من قبل بعض جماعات الخروج، قام المتمردون من أتباع هارون بقتل موسى المصري، وكسروا لوحي الشهادة، وقد استغل حور هذه الفوضى، وقام بقتل الرب المصري، وأخذ دوره، وعيّن موسى جديد من أتباعه، وقد نزلت القيادة السينائية الجديدة من الجبل وقاموا بقمع التمرد، وصعد حور (موسى السينائي) ليعين نفسه ربا جديدا.

٢ - الاحتمال، أو الافتراض الثاني هو أن موسى المصري، بعد أن نزل من الجبل، استطاع أن يسيطر على الانقلاب الهاروني، وأن يقتل رموز، وقيادات الجماعات العبرية التي كانت قد خرجت من مصر، ولما صعد ثانية إلى الرب المصري، قام هناك موسى السينائي (حور) بمساعدة يشوع بقتل موسى المصري، وقتل الرب المصري أيضا، وبينما بقي حور على الجبل كقائد خفي، عين موسى جديد من أتباعه (موسى يهوذي) الذي نزل من على الجبل واضعا حجابا على وجهه منتحلا شخصية موسى المصري، ليكون القائد السياسي الجديد لإيلاف سيناء، ومعه الشريعة الجديدة التي أعطاها إياها موسى السينائي، على اعتبار أنها من الرب السينائي (يَهْوَه).

٣ - أن حور عندما صعد إلى الجبل بعيد الانقلاب الهاروني قام بالتعاون مع يشوع باغتيال الرب المصري، وموسى المصري، وعيّن موسى جديد، الذي نزل من على الجبل، وقام بقمع التمرد العبري الهاروني، وبالتالي أصبحت القيادة السينائية، هي التي تقود إيلاف سيناء.

وبعيدا عن الافتراضات السابقة، وعودة إلى قصة موسى كما أتت في سفر الخروج، فبعد وصول موسى إلى مصر في نهاية فصل الصيف، حسب ما يمكن استقراؤه من التوراة، حيث كان بنو إسرائيل يقومون بجمع التبن، وبقايا القش من الحقول، وقد استطاع موسى بمساعدة أخيه، ويده اليمنى، ولسانه هارون أن يصبح ممثلاً لمن التف حوله من الجماعات المضطهدة، وأن يفتح باسمهم باب المفاوضات مع البلاط الفرعوني، ولأن موسى كان وكيلا

لـرب جنـود، ورب حـرب، فقـد كـان ذا عقليـة قياديـة عـسكرية، ولم يكـن يـتقن الأعمـال الدبلوماسية أثناء لقاءاته بالفرعون، كما لم يكن مقنعا كثيرا للجماعات التي مثلها أيضا، والذين كادوا أن ينفضّوا من حوله، أثناء مفاوضاته، وحتى بعد أن استطاع الخروج بهم من ربقة الحكم الفرعوني، وقد عالج هذه المشكلة بعد أن استشعر أن الأمور ربما تفلت من بين يديه، وربما من أقرب الناس إليه بطريقتين:

الأولى هي دبلوماسية من خلال إيجاد دستور أو شريعة شكّلت محور الدين الذي فرضه فرضا على أتباعه، والتي من شأنها تنظيم مجتمع شبه بدوي عضوي، يترأسه، ويشرف عليه جهاز كهنوتي، وإذا كان المجتمع العضوي، هو عبارة عن مجموعة من الأعضاء يرتبطون فيما بينهم بـروابط (عرقيـة - اقتـصادية، معاشـية)، مـشكلة جماعـة تـرتبط بـأرض معينـة لهـا جغرافيتها المحددة، فإن موسى جعل من (الأرض الموعودة) بديلا مؤقتا عن الأرض الوطنية، والذي يمكن تسميته (بالوطن الذهني).

وكما أن موسى الذي فرض نفسه عاهلا على الجميع، فرض أيضا من الطقوس والشعائر الدينية التي تحكم الجميع دون استثناء، والتي من شأنها أن تعزز الشعور بوحدة أتباعه، واتحادهم في إئتلاف واحد، كما تعزز من الترابط العضوي التعاقدي للجماعة، كما سن أيضا مجموعة قوانين من شأنها تنظيم جماعات الخروج وتشكيل مجلس أعيان يمثل الشعب، وأسباطه، ويتألف من سبعين عضوا، وقد ورد في التوراة أن من أشار على موسى للقيام بهذا التنظيم حمو موسى يثرون، ومرة أخرى ورد أن الرب هو الذي أمر موسى بالقيام بهذا التنظيم كما ورد أيضا وبطريقة مشابهة أن حباب ابن رعوئيل هو الذي قام بدور الدليل لإيلاف سيناء في ترحلاتهم في سيناء، وفي رواية أخرى جاء أن الرب كان هو دليلهم، حيث كان يقودهم في ترحلهم من خلال السحاب.

وعلى الرغم من هذا التنظيم فإن موسى لم يستطع أن يسيطر تماماً على أتباعه الذين قاموا بعدة انقلابات وتمردات حتى من قبل اللاويين أنفسهم وهم الأسرة الحاكمة، والذي في غير مرة اشترك فيها أخوه هارون وأخته مريم، الأمر الذي يشكك في كون موسى لاويا، ويبدو أن أحد الأسباب في فشل موسى الدبلوماسي كان نتيجة العيب التعبيري، أو اللغوي الذي كان يعاني منه، وكان له الأثر الأكبر في أن يكون قائدا عسكريا، لا دبلوماسيا يأخذ من اللغة مادة وقوة لسيطرته وسيادته.

أما الطريقة الثانية، فقد سلكها موسى بصفته وكيلا لرب الجنود، وقائدا عسكريا يعبر بالفعل، لا بالقول عن إرادته، وقد استطاع بيده الحديدية من إحكام سيطرته على جماعات

تحمل من التناقضات فيما بينها، أكثر مما تحمل من عوامل وهموم مشتركة، لا سيما بعد أن زال أهم عامل يجمعهم وهو الاضطهاد الفرعوني بعد خروجهم من مصر ووصولهم إلى سيناء، حيث بدأت تلك الجماعات غير المستقرة تشعر بالندم على اتباعها لموسى الذي قادها من مصر، التي مهما عانت فيها تلك الجماعات من اضطهاد، تبقى دون ما تعانيه في جحيم صحراء سيناء القاحلة.

وأمام هذه المعطيات لم يترك موسى وسيلة قمعية إبادية لم يقم بها لكل من تسول له نفسه أن يتمرد، أو حتى ينتقد موسى، من القتل الجماعي حرقا بالنار، أو قتلا بالسيف، أو موتا بالسم، فقد قام بقتل الجواسيس الذين كان قد بعث بهم موسى إلى أرض كنعان، وحرضوا الشعب على عدم الإذعان لموسى في الصعود إلى أرض كنعان لأنها حصينة عدا اثنين هما كالب بن يفنة ويشوع بن نون، على الرغم من أن موسى قد أخذ بكلامهم، ولم يصعد مباشرة إلى أرض كنعان، بل وأنه سلك طريق شرقي الأردن ليدخل من هناك بعد مضي أربعين سنة على خروجهم من مصر.

كما أن موسى، إضافة إلى قبضته الحديدية فقد حاول أن يمارس أنواعاً متعددة من التظليل من خلال معرفته بأعمال السحر التي كان يجيدها، والتي جعل منها خوارق دينية، وبنى عليها ادعاءات مثيولوجية ميتافيزيقة، لاسيما وأن أتباعه كانوا عبارة عن جماعة منهكة من الجوع، والقهر، والدونية، ومثل هذه الجماعات يمكن إيهامها بسهولة، كما من الممكن التحكم بها، وزرع مشاعر عظمة وعنصرية بدل مشاعر الدونية التي كانت تضيق بها ذرعا، كما استغل موسى أيضا معرفته بالتبدلات الطقسية في سيناء التي تجعل المرء يقف خاشعا أمام هيبة الطبيعة على سفح جبل سيناء الشاهق، ففي الوقت الذي يكتنف بعض جوانبه الضباب، تشع الشمس على بعض الأشجار، وفي الوقت الذي يعم صمت محير، تتساقط فجأة بعض الكتل الحجرية من شواهقها محدثة دويا يرجف القلب والذهن، ويتركهما دون الوعي الكافي، ويترك الذهن مطواعا لتقبل الإيحاءات، وفي الوقت الذي يكون فيه الطقس صافيا، فجأة تهجم الغيوم الركامية، فتتقاصف الرعود، وتتلاعج البروق، ومثل هذه الأجواء لم يكن أتباع موسى قد شهدوها في دلتا مصر، وربما استفاد موسى من تردد الأصداء البشرية، والتي ربما ترافقت مع أصوات الطبيعة، ومع أصوات أشخاص متفق معهم مما يوحي بأنه كان يتحدث مع الرب، حيث عمل عرابا على عقد اتفاق بين الرب والشعب، وفرض من خلاله شريعة استطاع بمقتضاها أن يشكل جماعة عضوية بعد أن منحهم مفهوماً وطنياً من خلال ربطهم بأرض معينة (الأرض الموعودة) لمزيد من تعضي

الجماعة، التي قلب مفاهيمها، ومشاعرها من أسفل الدونية، إلى أعلى الشوفينية، وقد عززت هذه الإجراءات في مرحلة لاحقة من التاريخ العبري بأن تم اختلاق جذر تاريخي مشترك لتلك الجماعات، كما جعلهم يلتفون حول رب واحد يقع على كاهله الدفاع عنهم، والحفاظ على حياتهم، وإطعامهم (المن والسلوى)، كما عليه أن يسكنهم في أجود أرض (أرض تسيل لبنا وعسلا).

وإضافة إلى ما سبق، فلم يوفر موسى قبضته الحديدية في ضرب كل من كان وراء المحاولات الانفصالية، أو كل ما يسيئ إلى الائتلاف الموسوي، وعلى الرغم من ذلك، لم تنقطع أعمال التمرد عليه، كما حصل في التمرد الكهنوتي الذي قام به الكهنة من سبط لاوي الذي يعود إليه موسى، والذي كان قد أغدق عليهم بالكثير من خيرات الضرائب (القرابين والطعام المقدس)، وقد قتل موسى قائدي التمرد وهما داثان وأبيرام وأحرق المتمردين كما كان قد أحرق في مرحلة سابقة ابني هارون (ناداب وأبيهو)، وإثر ذلك حصل تمرد جماعي، ويبدو أن الشعب قام بمحاصرة موسى وهارون في خيمة الاجتماع، ولكن في النهاية ولأسباب غير واضحة هدأت الأحوال، قد يكون بسبب خضوعهما لمطالب الشعب، كما أنه حصر أعمال السدانة في بيت لاوي فقط ببيت هارون، وبذلك فكل العطايا والضرائب العينية هي لهم، والباقي من اللاويين جعلهم حراسا شخصيين، ويبدو - حسب ما يمكن استقراؤه من سفر العدد - أن موسى تآمر مع أليعازر ابن هارون على هارون، وربما بالاشتراك مع يشوع بن نون، قاموا باغتياله واستولى أليعازر على مكانه «وكلم الرب موسى وهارون في جبل هور على تخم أدوم قائلا. يضم هارون إلى قومه لأنه لا يدخل الأرض التي أعطيت لبني إسرائيل لأنكم عصيتم قولي عند ماء مريبة. خذ هارون وألعازر ابنه واصعد بهما إلى جبل هور واخلع عن هارون ثيابه وألبس ابنه إياها. فيضم هارون ويموت هناك» عدد ٢٠، والجدير الانتباه إليه وجود التشابه اللفظي بين كلمتي هور وهارون.

كان هارون اليد اليمنى لموسى، ولسانه أيضا، قبل الخروج، بل يمكن القول أن موسى لم يكن سوى مرسال بين الرب المشرع، وبين هارون المنفذ الذي كانت بيده - لا بيد موسى - العصا السحرية التي كانت قد جلبت المصائب الاثنتي عشرة بالمصريين، وهي التي حولت الماء إلى دماء، وهي التي ملأت المنطقة بالضفادع والبعوض، ولكن بعد الوصول إلى سيناء، وبعد قيام هارون بالانقلاب على موسى أثناء صعود موسى إلى الجبل لتلقّي الشريعة بدأ موسى يعمل على سحب بعض الصلاحيات من هارون، ولم يبقِ له سوى أعمال الكهانة، لا سيما بعد أن أُضعف سيفه بالتخلص من ابنيه الكبيرين ناداب وأبيهو، وجعل من يشوع بن

نون القائد العسكري أيضا يده اليمنى - ويده الخفية أحيانا على ما يبدو - الأمر الذي زاد من قوة النظام العسكري في قيادة الشعب، وعلى الرغم من ذلك لم يستسلم الشعب تماماً لمشيئة اليد الحديدية.

إن هذا التذمر، والرفض، والتمردات والانقلابات التي كان أتباع موسى يقومون بها من شأنها أن تضيء لنا علاقة وإيمان والتفاف الشعب حول موسى وتفنّد بل وتأكد - فيما لو صحت مقولة التوراة في سياقها التاريخي - أن كل المعجزات التي ذكرت في أسفار الخروج هي مجرد كتابة أدبية حاول المحررون (الكتبة) أن يطوعوها في حظيرة التاريخ لأنها لو كانت تاريخية لآمن الشعب والتفوا حول قائدهم المعجزة، وبقوا أوفياء لـ (يَهْوَه) الذي كان يعمل كوزير تموين لهم، بحيث ما كان عليهم في كل يوم عندما يستيقظون صباحا سوى أن يجمعوا ما يبعث لهم (يَهْوَه) من المن دون أدنى جهد، أما في المساء فما كان عليهم سوى أن يجمعوا السلوى (طائر السمّان) فيطبخونه ويشبعون من اللحم، ولكن أفراد الشعب - الذين قاسوا الأمرين من اليد الحديدية لموسى الذي كان يبيد معارضيه دون أدنى رحمة باسم الانتقام الإلهي - قد أدركوا أنها خدعة لا تمر عليهم مهما كانوا ساذجين.

ولكن موسى على الرغم من ذلك استطاع أن يحافظ على بقائه على رأس القيادة لمدة أربعين عاما تنقلوا خلالها في عدة مواقع من صحراء سيناء، وجنوب فلسطين، وبلاد مديان، وشمال الحجاز، وفي النهاية قرر موسى أخيرا الصعود بجماعته نحو شرقي الأردن حيث استطاعوا أن يسيطروا عليها عسكريا وأن ينتصروا على الأموريين، والموآبيين، خلال مدة قصيرة لم تتجاوز السنة، وأخيرا حطوا برحالهم قبالة مدينة أريحا في عربات أرض الموآبيين، لأخذ قسط من الراحة، ولرص وتنظيم صفوفهم، واستشعار وضع بلاد كنعان قبل اتخاذ قرار عبور نهر الأردن لغزوها.

وما أن بدأ الشعب يشعر بالقليل من الاستقرار حتى أخذ بالانحراف عن عبادة (يَهْوَه) إلى عبادة إله المديانيين بعل فغور، ولم يستطع موسى أن يعيد هيمنته، وهيبته التي بدأت تُستلب منه من قبل القيادات العسكرية الأصغر سنا، وهنا سلك موسى طريقة جديدة لإعادتهم إلى حظيرة الدين - الذي كان قد فرضه فرضا على أتباعه - من خلال أمره للمقاتلين الأشداء الذين أخذوا يشكلون خطرا عليه بغزو المديانيين وإبادتهم عن بكرة أبيهم، على الرغم من أنهم أنسباء موسى، وهم الذين استضافوه عندما هرب من مصر، وإذا ما كنا قد وصفنا موسى بأنه دكتاتور عسكري حين كان يقوم بقمع حركات

التمرد في سيناء، دون أدنى رحمة، فهذا سيكون مقبولا، أمام ما قام به بعد أن نجح رجال الحرب بغزو مديان وسلبوا ما سلبوا، ودمروا ما دمروا عادوا دون أن تذكر التوراة الطريق الذي سلكه الجنود في ضرب منطقة مديان عندما كانوا ينزلون في عربات موآب، - عادوا - وقد أبقوا على حياة بعض النساء والأطفال كغنائم حرب، فغضب موسى كثيرا، وأمرهم بقتل المسبيين، ولكنه سمح لهم بالاحتفاظ بالعذراوات من البنات والنساء، ولكن هذه الحرب التي على ما يبدو أراد منها أن يعيد هيبته من خلالها، كانت وبالا عليه من خلال بروز أبطال هذه الحرب وعلى رأسهم يشوع بن نون، وأليعازر ابن هارون، وكان لا بد من نهاية لموسى «وقال الرب لموسى هوذا أيامك قد قربت لكي تموت. ادع يشوع وقفا في خيمة الاجتماع لكي أوصيه.. وأوصى يشوع بن نون وقال تشدّد وتشجّع لأنك أنت تدخل ببني إسرائيل الأرض التي أقسمت لهم عنها وأنا أكون معك» تثنية ٣١، ثم كلم الرب موسى قائلا «اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نبو الذي في أرض موآب الذي قبالة أريحا وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيها لبني إسرائيل ملكا. ومت في الجبل الذي تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك في جبل هور وضم إلى قومه. لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية صين إذ لم تقدساني في وسط إسرائيل» تثنية ٣٢، «وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل.. فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب. ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم» تثنية ٣٤.

هكذا بهذا الغموض مات موسى، ولكن قراءة متمعنة للنص، بكلماته، وصمته، يمكن أن نخمن أن موسى مات اغتيالا على يد يشوع بن نون، وبالتآمر مع أليعازر بن هارون «هوذا أيامك قد قربت لكي تموت.. مت في الجبل.. كما مات هارون أخوك في جبل هور.. لأنكما خنتماني.. فمات موسى حسب قول الرب»، وتعبير «مت.. كما مات هارون» يوشي بالكثير مما حاول النص إخفاءه، ويضمره في جملة تقول: سأقتلك على الجبل.. كما كنتَ قد قتلتَ هارون على الجبل أيضا، لقد تخلصتُ من هارون على يدك، وها أنا سأتخلص منك أيضا لأنكما خنتماني.

ولكن هنا لنا أن نتساءل عن هذه الخيانة التي لم يرد ذكرها في أسفار الخروج الأربعة..!

وأن نتساءل من هو الشخص الذي صعد مع موسى، وقام بدفنه، ودون أن يفشي بمكان مدفنه..!

موسى بين الرب والشعب:

إن قراءة متمعنة علمية، تفكيكية، لأسفار الخروج الأربعة في التوراة، تمكن القارئ من مقاربة وتشخيص الرب (يَهْوَه)، الذي حاول أن ينتحل شخصية الإله إيل - الذي ورد ذكره في سفر التكوين، شريطة أن يتمكن القارئ من التخلي عن أي ذهنية أنطلوجية، تلك القراءة تمكنه من استنتاج أن الرب (يَهْوَه) كان عبارة عن رجل يمتلك مجموعة من الخصائص والميزات النادرة في عصره، والتي أسبغ على نفسه من خلالها صفات فوق بشرية، إضافة إلى ترؤسه لمجموعة من الجنود الأشداء (رب الجنود).

و (يَهْوَه) - كشخص - ليس أول من ادعى الألوهية فقد سبقه في ذلك الكثير من ملوك بلاد الرافدين، وفراعنة بلاد النيل، بل وبنوا الهياكل كي يتعبد فيها الشعب لملكهم، فقد أله ملوك مدينة أوروك أنفسهم وعلى رأسهم الملك دوموزي (تموز) عشيق وزوج الإلهة عشتار، ومن بعده لوجال بندا، وابنه الملك جلجامش الذي حكم على مدينة أوروك في حدود سنة ٢٧٠٠ ق.م، وهو الذي قام ببناء أقدم سور في بلاد الرافدين تم اكتشافه حتى الآن، وكذلك الأمر بالنسبة للملك الأكادي شاروكين الأول (شارو - كين = الملك الحقيقي)، ونارام سين الذي أوصل الإمبراطورية الأكادية إلى قمة مجدها، واقصى اتساع لها (٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق.م)، ومن لم يؤله نفسه من الملوك، فعلى الأقل ادعى أنه مكلف من قبل الرب في إدارة شؤون البلاد، كما كان الملك أحيانا يتقمص شخصية الرب لا سيما في بعض الطقوس الدينية، فقد كان ملك مدينة أوروك شولجي يقوم بطقوس دينية (بمثية) متقمصا شخصية دموزي

شـــولجي، الراعـــي المخلـــص، انطلـــق بقاربـــه.
حـــط الرحـــال علـــى رصـــيف كـــويلاك
فأخذته روعة ناموس الملكية، ملكية سومر وأكاد
أتـى معـه بـثيران جبليـة ضـخمة تـساق بـالأذرع.
أتـــى معـــه بنعـــاج ومـــاعز تـــشد بالأيـــدي.
أتى بجداء مرقطة وجداء ملتحية تحمل إلى الصدور
إلى أنانـــا أتـــى بهـــا، في حـــرم إيانـــا المقـــدس.

ويتابع الشاعر قصيدته على لسان إنانا:

بعد أن أستحم من أجل السيد، من أجل الثور البري،

بعـــــــد أن أزيـــــــن أعطــــــــافي

بعـــــد أن أطلــــــي بــــــالعنبر ثغــــري،

بعـــــد أن أكحـــــل بالإثمــــد عـــــينيّ،

بعــــد أن يحتــــوي خـــصري براحتيــــه المليحـــتين،

بعــــد أن يـــضطجع الراعـــي دومــــوزي إلى جـــانبي،

بعـــــد أن يمـــــسد حـــضني بــــاللبن والقـــشدة،

بعـــــد أن يـــــضع يــــده علــــى فرجـــــي،

بعــــــد أن يــــــضمني إليــــــه في الفـــــراش،

عنــدها ســأعانق سـيدي وأرسـم لــه قــدرا طيبــا

وكان أبناء مدينة أوروك قد ألهوا ملكهم على اعتبار أنه أعاد لهم الفردوس المفقود.

وكذلك الأمر بالنسبة لفراعنة الدولة القديمة، والوسيطة، وحتى الحديثة، فقد جاء في نقش يعود إلى الفرعون ببيي، الذي حكم نحو سنة ٣٠٠٠ ق.م {أن ببيي هذا هو الله، أو ابن الله}، {ببيي هو ابن رع الذي يحبه، إذ ينطلق ويرفع نفسه إلى السماء. رع وَلد ببيي، رع حبل ببيبي، إذ ينطلق ويرفع نفسه إلى السماء، رع وَلد ببيي، إذ ينطلق ويرفع نفسه إلى السماء}، أما الفرعون أمنحوتب الثالث، فلكي يسبغ على نفسه الشرعية الملكية، ادعى أن رب الدولة آمون تمثل أو تجسد في والده الملك تحتمس الرابع، وقد نام آمون بجسد تحتمس الرابع مع زوجته غير الملكية المدعوة موت أم أويا، وبذلك أصبح أمنحوتب الثالث ابن تحتمس الرابع من زوجته غير الملكية، هو ابن الإله آمون، بل واعتبر أمنحوتب الثالث نفسه إلها على اعتبار أنه ابن الإله الأكبر آمون، كما فعل أيضا ابنه إخناتون من بعده الذي اعتبر نفسه ابن الإله أتون، وهو ممثله على الأرض، واعتبر أيضا نفسه إلها، وقد استمر الملوك بتأليه أنفسهم، ومن الجدير ذكره أن كليوباترا عندما أقامت علاقة جنسية مع يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق.م، وأنجبت منه ولدا سمته قيصرون، وقد ادعت على عادة الفراعنة القديمة أن الرب آمون رع قد تجسد لها بصورة يوليوس قيصر، ونام معها، ومن هذا الزواج المقدس (غير الشرعي) أنجبت ابنها قيصرون، كما أن يوليوس قيصر كان يتباهى بأنه ينحدر من دم إلهي (من فينوس)،

وقد أله نفسه، بل وشكل مجموعة من الكهنة لتنظيم شعائر عبادته، في معبد الرحمة القيصيرية، وهو الذي كان قدوة لبعض القياصرة الروم في تأليه أنفسهم، مثل كاليفولا، كما ادعى الكثير من الشخصيات الصوفية الإسلامية الإلوهية أيضا، واستمرت ادعاءات الإلوهية حتى يومنا هذا، فقد دعا ميرزا حسين علي الملقب بالبهاء والذي أسس الطائفة البهائية بأنه الإله أو الرب، أو أن الرب متقمص فيه، بعد أن كان قد ادعى أنه المسيح المنتظر.

وإن كانت صفة الإلوهية تسقط عن الملك بموته، فقد احتفظ الشعب بصفة الإلوهية على بعض الملوك مثل الإله دموزي (تموز)، والذي انتشرت عبادته في غير زمان، ومكان، باسمه الأصلي (دموزي أو تموز)، وبأسماء متعددة أخرى (بعل - حدد - هدد - أدونيس)، وكان آخر عهد للملوك الآلهة هو ملك اليهود الرب المسيح، والذي أخذت فيه المرأة العشيقة والزوجة، والأخت (عشتار)، دور أم الإله.

وفي بعض الحالات قد يتحول بطل في حضارة ما إلى إله في حضارة أخرى كما هو الحال بالنسبة للبطل الصوري هرقيل، الذي قام الكنعانيون ببناء عدة معابد له في مستعمراتهم على شواطئ المتوسط، والذي أصبح إلها له شهرته في بلاد الإغريق.

وكان اليونان ومن بعدهم الرومان من الشعوب متعددة الآلهة، قد جعلوا من ملوكهم ألهة، وكثير من القياصرة الرومان ادعوا الألوهية، وبنوا هياكل وأسسوا أجهزة كهنوية، بل إن الرومان لم يعبدوا ملوكهم، وأبطالهم وسادتهم، فحسب بل كان الشعب يعبد عوائلهم أيضا، وهو موضوع سنعود إليه لاحقا.

وعودة إلى الموضوع الرئيس، وإذا ما صح هذا الاستنتاج بأن (يَهْوَه) كان ربا مشخصا (ربا أو ملكا مصريا مخلوعا) في عهد موسى «الرب رجل الحرب. (يَهْوَه) اسمه» «من مثلك بين الآلهة يا رب» «الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة» «لأنه أي شعب عظيم له آلهة قريبة منه كالرب إلهنا في كل أدعيتنا إليه»، فهنا علينا فتح صرة مليئة بالأسئلة عن شخصية (يَهْوَه) وصفاتها، وتاريخيّتها، وعن علاقته ومكاشفته لموسى، وعن علاقة الرب بأتباعه، أو بشعبه، أو برعيته، وسوف أخوض في هذا في فصل لاحق، وفي ختام هذه الفقرة لنا أن نتساءل: بمن كان يحلف أو يقسم الرب وهو يَعِد شعبه المختار بأنه سيورثه أرض كنعان إرثا أبديا..؟:

«ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والحويين واليبوسيين التي حلف لآبائك أن يعطيك أرضا تفيض لبنا وعسلا أنك تصنع هذه الخدمة في هذا الشهر. سبعة أيام تأكل فطيرا وفي اليوم السابع عيد للرب» خروج١٣.

«ومتى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي حلف لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيك. إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها وآبار محفورة لم تحفرها وكروم وزيتون لم تغرسها» تثنية٦.

«وقد حلف رب الجنود قائلا إنه كما قصدت يصير وكما نويت يثبت أن أحطم أشور في أرضي وأدوسه على جبالي فيزول عنهم نيره ويزول عن كتفهم حمله» إشعيا ١٤.

«ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتي أقسمت يقول الرب. إ ني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر. ويرث نسلك باب أعدائه. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي. ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه. فقاموا وذهبوا معا إلى بئر سبع» تكوين ٢٢.

«وقال الرب لموسى هوذا أيامك قد قربت لكي تموت. ادع يشوع وقفا في خيمة الاجتماع لكي أوصيه.. وأوصى يشوع بن نون وقال تشدّد وتشجّع لأنك أنت تدخل ببني إسرائيل الأرض التي أقسمت لهم عنها وأنا أكون معك» تثنية ٣١.

«لا تقل في قلبك حين ينفيهم الرب إلهك من أمامك قائلا لأجل بري أدخلني الرب لأمتلك هذه الأرض. ولأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الرب من أمامك ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك ولكي يفي بالكلام الذي أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب. فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة» تثنية ٩.

«ادخلوا وتملكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطوها لهم ولنسلهم من بعدهم» تثنية١.

«وصعد موسى.. إلى جبل نبو.. قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان وجميع نفتالي وأرض أفرايم ومنسّى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر. وقال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر. فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب.. وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات.) تثنية ٣٤

. «وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبو إلى أرض الفسيحة الذي قبالة أريحا فأراه الرب الأرض من جلعاد إلى دان وجميع نفتالي وأرض أفرايم ومنسى وجميع أرض يهوذا إلى

البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر وقال له الرب هذه الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها قد أريتك إياها بعينيك ولكن إلى هنا لا تعبر» تثنية٣٤.

«يوم اخترت إسرائيل ورفعت يدي لنسل بيت يعقوب وعرفتهم نفسي في أرض مصر ورفعت لهم يدي قائلا أنا الرب إلهكم».

حسب سفر الخروج، فبعد وصول موسى إلى سيناء وزواجه من صفورة، وولادة ابنه جرشوم، تذكر الرب ميثاقه «وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات. فتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا. فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية. فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب. ونظر الله بني إسرائيل وعلم الله» خروج ٢، إذا من هو الرب الذي كان يعتني بالجماعات العبرية في مصر لمدة ٤٣٠ سنة، ومن هو الرب الذي كان قد خطط لولادة موسى، هل هو إيل (الله).

إذا، لم يكن الرب (يَهْوَه) مع شعبه المختار في مصر في مرحلة اضطهادهم، بل كان يقيم بعيدا عنهم في جبل سيناء، حيث هناك بعث بأحد أتباعه إلى موسى، وناداه، وطلب منه مقابلة الرب، ولما حضر موسى بين يدي الرب، قام الرب بتعريف نفسه على أنه رب المضطهدين في مصر، وطلب من موسى أن يذهب إلى مصر لتحريرهم من عبوديتهم، حيث سيذهب أيضا الرب معه «وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة. فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله وقال موسى موسى. فقال هاأنذا. فقال لا تقترب إلى هنا.. ثم قال أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب.. إني قد رأيت مذلة شعبي.. فالآن هلمّ فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر» خروج ٣.

وبذلك عُقد اتفاق بين الرب، وموسى ينص على ذهاب موسى إلى مصر، مؤيدا بإرادة الرب من أجل تحرير شعبه المضطهد، من العبرانيين الذي كانوا يعرفونه فيما سبق باسم إيل، ومن أتباع الرب بالخاصة، وقد فوجئ الرب بسؤال موسى عن اسم الرب الجديد الذي يجب أن يعلنه للجماعات التي سيذهب لتحريرها، فقال الرب لموسى، قل لهم أي لجماعاته في مصر (هو)، وبذلك فهم سيعرفون من (هو)، ولكن موسى المتردد بدأ يتذرع بأنه لا يعرف لغة من سيذهب إليهم، وقد وجد الرب الحل من خلال هارون، الذي على ما يبدو يعرف اللغة أو اللهجة السينائية التي يعرفها موسى، كما يعرف لغة العبرانيين، كما أنه بحكم حياته في مصر فهو يعرف أيضا اللغة المصرية، وعلى ذلك تم الاتفاق، ويبدو أنه في الطريق قد ازدادت مخاوف

موسى من تلك المغامرة فقرر التخلي عن هذه المهمة، ولكن الرب هدده بالموت، وربما أنه قرر قتله فعلا، لكن زوجة موسى تدخلت، وحالت دون ذلك «وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله. فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه. فقالت إنك عريس دم لي. فانفك عنه. حينئذ قالت عريس دم من أجل الختان» خروج ٤، وسنفترض أن موسى الذي قابله الله في سيناء قد ذهب مع الرب إلى مصر.

وفي مصر بدأ موسى، وبمساعدة هارون، وتحت إشراف الرب (يَهْوَه)، بالتحريض على تمرد الجماعات المضطهدة من أتباع الرب (يَهْوَه)، وأتباع هارون من بني إسرائيل في منطقة الدلتا، بعد أن دبج موسى وهارون قصة ولادة موسى، وبذلك انضم إلى التمرد جماعة بني إسرائيل، الذين وُعدوا من قبل الرب بأن يحررهم، وأن يعيدهم إلى البلاد التي كانوا قد قدموا منها إما تسللا كبدو رحل، أو كمقاتلين مع الجماعات الهكسوسية، أو سبيا على يد بعض الفراعنة، وفي أثناء ذلك كان موسى ينقل ما يستجد معه إلى الرب الذي كان يقيم في مكان سري «فرجع موسى إلى الرب وقال يا سيد لماذا أسأت إلى هذا الشعب. لماذا أرسلتني. فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب. وأنت لم تخلّص شعبك» خروج ٥، وكلمة رجع توضح ذلك.

واندلع الصراع في الدلتا فيما بين الفرعون الشرعي، والرب (الفرعون المخلوع) الذي كان مختبئا في مكان ما، وكان يتفاوض عنه موسى، في الوقت الذي كان يضغط فيه الرب على السلطة المصرية من خلال إثارة التمرد، والفوضى في مصر، وبعد أن فشل الرب (يَهْوَه) (الفرعون المخلوع) في مسعاه الحقيقي المتمثل في استرداد عرشه، فقد قاد أتباعه، منسحبا مدحورا خارج مصر، وكانت قد أدت تلك الفوضى والاضطرابات إلى هروب وفرار جماعي للمضطهدين في مصر، وكان أفضل مكان آمن، أو أكثر أمنا يمكن له أن يصل إليه الرب مع أتباعه هو سيناء، ولذلك - وحسب التوراة - تجنب الطريق إلى بلاد كنعان التي كانت محكومة من قبل حاميات مصرية هناك، أو كانت صاغرة للهيمنة الفرعونية، أو في متناول يدها، وبالتالي اختار الرب الوصول إلى سيناء خوفا من وقوعه بين فكي كماشة «وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم في طريق الفلسطينيين مع أنها قريبة. لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا ويرجعوا إلى مصر، فأدار الله الشعب في طريق برية بحر سوف» خروج ١٣، وفي النهاية توقفت المطاردة بحلول الظلام عند وصول إيلاف الخروج إلى الشاطئ وأصبحوا في حصار محكم، فقام ملاك الرب، وهم الجنود من أتباع الرب (يَهْوَه) الذين كانوا في المقدمة، بالانتقال إلى مؤخرة الركب، ليقف بين الركب، وبين الجيش

الفرعوني الذي حط برحاله دون أن يقوم بالهجوم عليهم خوفا من العتمة، وما أن بدأ النور بالانبلاج، حتى باشر الركب دخول المخاضات التي أمامهم مسترشدين بالعصي الذي كان الرب قد أمرهم باصطحابها مع كل فرد، ولما استيقظ الجيش من غفوته، كان الركب قد قطع شوطا في المستنقعات المائية، فحاولوا اللحاق بهم بمركباتهم التي غاصت في طين المخاضات، وبما أنهم كمشاة لا يمكن لهم الدخول بسبب عددهم القليل، فحسب سفر الخروج قام الجيش بلحاق الفارين بستمئة مركبة، وبذلك فالجنود لن يتجاوزوا الألف بكثير على اعتبار أن كل مركبة فيها جنديان، وهذا العدد لن يستطيع التغلب على جنود الرب، لاسترداد الفارين «فقال المصريون نهرب من إسرائيل. لأن الرب يقاتل المصريين عنهم» خروج ١٤، وهكذا انتهت الملاحقة، ولم يستطع جنود الفرعون استرجاع الجماعات العبرية التي فرت تحت حماية جنود الرب، وحينها.. وحينها فقط «رأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين. فخاف الشعبُ الربَّ وآمنوا بالرب وبعبده موسى» خروج ١٤، وكان الرب (يَهْوَه) دائما يكرر «أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر ليعطيكم أرض كنعان فيكون لكم إلها»، فربوبيته تبتدئ إذا بإخراج بني إسرائيل من مصر وليس له علاقة البتة برب الآباء الأوائل.

وفي سيناء بدأت الاضطرابات بين جماعات الخروج، وبدأ الرب، ووكيله موسى بمحاولة تنظيم ذلك الإيلاف من أتباع الرب الذين خرجوا مدحورين من مصر من الجنود، ومن الجماعات العبرية التي فرت من مصر، والجماعات السينائية التي انضمت إلى إيلاف الرب، ولفيف من المضطهدين من أثنيات متنوعة فر بعضهم من مصر، وانضم بعضهم إلى إئتلاف الرب في سيناء.

ولما وصلوا إلى جبل سيناء الذي اتخذ منه الرب مكانا لإقامته، وكان على موسى الصعود إليه ليقدم له تقاريره، ويأخذ منه الأوامر، ولكن أثناء غياب موسى في الجبل كانت الأمور تسير على ما لا يرام بين جماعات الخروج، لا سيما بعد أن دعا موسى قيادات جماعات الخروج ليقابلوا الرب على جبل سيناء، وبعد المقابلة بقي موسى ويشوع مع الرب، نزل الشيوخ بقيادة هارون ممثل الجماعات العبرية، وحور ممثل الجماعات السينائية قام هارون بالانقلاب الديني.

وقد وصل الخبر إلى الرب (يَهْوَه) الذي كان يعطي لموسى تعليمات بناء خيمة الاجتماع، وقد غضب الرب، وقال لموسى «الآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم فأصيرك شعبا عظيما»، إلا أن موسى هدأ من ثورة غضبه، ونزل على وجه السرعة، وبعد أن قام بكسر لوحي الشهادة، أو بعد أن قام المتمردون بكسر اللوحين، استطاع أن يسيطر على الانقلاب

بمساعدة اللاويين وتم قتل ثلاثة آلاف رجل من الذين قادوا التمرد، وهنا لنا أن نتساءل لماذا أراد المحرر التوراتي أن يكسر موسى لوحي الشهادة التي كان الرب قد كتبهما بخط يده، وتم استبدالهما بلوحين منحوتين إنسانيا، ولكن الرب قام بكتابة بخط يده..؟!

وفي تلك الأحداث الصاخبة غاب موسى الذي قاد عملية الخروج، وظهر موسى جديد مقنّع انتحل شخصية موسى الأول بطل ملحمة الخروج، وموسى المقنع هو الذي سيقوم بقيادة جماعات الخروج في تيه سيناء، أما الرب فقد تم اغتياله أيضا، وحسب رأي أحد الباحثين، فقد وضعت جثته في تابوت الرب، الذي تم صنعه في هذا الزمن لهذه الغاية، وقام شخص جديد (موسى السينائي) بانتحال شخصيته، وقام بتعيين موسى آخر (موسى اليهوذي) الذي انتحل شخصية موسى بطل ملحمة الخروج.

ولأن الرب الجديد أدرك أن وجوده بعيدا عن شعبه، ربما سيؤدي إلى انقلابات، وتمردات جديدة، فقد قرر أن يكون على مقربة من شعبه كي يستطيع إحكام السيطرة على إيلاف لم يأتلف، وبذلك فقد طلب الرب أن يصنع الشعب له خيمة الاجتماع، وأن يضعوا فيها تابوت عهد الرب «تصنعون الكروبين.. ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق مظللين بأجنحتهما على الغطاء.. وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة» خروج ٢٥، «حيث أجتمع بكم لأكلمك هناك، وأجتمع هناك ببني إسرائيل فيقدس بمجدي، وأقدس خيمة الاجتماع والمذبح. وهارون وبنوه أقدسهم لكي يكهنوا لي. وأسكن في وسط بني إسرائيل وأكون لهم إلها» خروج ٢٩، «وتصنع مذبحا لإيقاد البخور.. وتجعله قدام الحجاب الذي أمام تابوت الشهادة. قدام الغطاء الذي على الشهادة حيث أجتمع بك» خروج ٣٠.

وبعد الانتهاء من صنع خيمة الاجتماع (الخيمة الملكية) وأدواتها حسب طلب الرب (يَهْوَه)، تم نصبها في اليوم الأول من السنة الثانية للخروج خارج المضارب وعلى مسافة قريبة منها، الأمر الذي يسمح للرب وحرسه الشخصي من التحرك دون الخوف من اكتشاف الشعب لما يدور، وكلم موسى الرب «إن وجدت نعمة في عينيك أيها السيد فليسر السيد في وسطنا.. واغفر إثمنا وخطيتنا واتخذنا ملكا» ٣٤، «وأجعل مسكني في وسطكم ولا ترذلكم نفسي. وأسير بينكم وأكون لكم إلها وأنتم تكونون لي شعبا» لاويين ٢٦.

وكانت العلاقة بين موسى الجديد، والرب الجديد مشوبة بشيء من الحذر، «فلما دخل موسى إلى خيمة الاجتماع ليتكلم معه كان يسمع الصوت يكلمه من على الغطاء الذي على تابوت الشهادة من بين الكروبين» عدد ٧، وقد رفض الرب الجديد في البداية أن يتحدث مع

موسى الجديد بطريقة مباشرة «لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش»، ولكن بعد أن انسجمت العلاقة فيما بينهما، أصبح «يكلم الربُّ موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه. وإذا رجع موسى إلى المحلة كان خادمه يشوع بن نون الغلام لا يبرح من داخل الخيمة» خروج ٣٣، «وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج».

أما بحضور الآخرين، فقد كان الرب يتحدث مع موسى من وراء الحجاب الذي يغطي تابوت الرب، بحضور الآخرين الذين كانوا يأتون لتقديم، الضرائب، والعطايا، والأضاحي، والفطائر، للرب، ولحاشيته، أما ما يتبقى من ورائهم فكان لـ هارون وأبنائه «والباقي من التقدمة هو لـ هارون وبنيه».

وعلى ما يبدو فقد شعر هارون، واخته مريم بشيء من الغبن مع القيادة الجديدة التي حجمت من دور هارون القيادي، فأخذا يتذمران إلى موسى الجديد، وأخذا ينمان على موسى، وعلى امرأته الكوشية، ويطلبان أن يتحدث معهما الرب كما يتحدث مع موسى، وكي يتنصل موسى من مسؤوليته، فقد استدعاهما إلى خيمة الاجتماع، وقدم شكواهما إلى الرب، الذي رد عليهما قائلا «إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمه. وأما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي. فما إلى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز. وشِبْهَ الرب يعاين. فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدي موسى فحمي غضب الرب عليهما ومضى» عدد ١٢، ولننتبه إلى كلمة مضى، ولكن على ما يبدو فقد استطاع ابنا هارون اكتشاف شخصية الرب أثناء وجودهما داخل خيمة الاجتماع، فما كان من الرب سوى قتلهما حرقا «وكلم الرب موسى بعد موت ابني هارون عندما اقتربا أمام الرب وماتا وقال الرب لموسى كلم هارون أخاك أن لا يدخل كل وقت إلى القدس داخل الحجاب أمام الغطاء الذي على التابوت لئلا يموت. لأني في السحاب أتراءى على الغطاء» لاويين.

ولم يكن تمرد هارون هو المشكلة الوحيدة التي كانت تواجه قيادة موسى، بل حصلت عدة تذمرات، وصلت حد التمردات من قبل الشعب، ولكن موسى استطاع أن يحافظ على سيطرته على إئتلاف التيه، لا سيما وأن الرب كان يتابع مجريات الأحداث بشكل لصيق «وكان الشعب كأنهم يشتكون شرا في أذني الرب وسمع الرب فحمي غضبه» عدد ١١، ولذا لم يكن يغادر مقره في خيمة الاجتماع، لا سيما أثناء تنقلاتهم التي كانت تزداد البلبلة الشعبية حينها «وعند ارتحال التابوت كان موسى يقول قم يا رب فلتبدد أعداءك ويهرب مبغضوك من أمامك. وعند حلوله كان يقول ارجع يا رب إلى ربوات ألوف إسرائيل»، وهنا لنا أن نتساءل هل كان الرجال يحملون الرب في التابوت أثناء تنقلاتهم.

وعندما حاول بنو إسرائيل الدخول إلى بلاد كنعان بعد خروجهم من مصر قال لهم موسى «لا تصعدوا. لأن الرب ليس في وسطكم لئلا تنهزموا أمام أعدائكم.. لكنهم تجبروا وصعدوا إلى رأس الجبل. وأما تابوت عهد الرب وموسى فلم يبرحا وسط المحلة. فنزل العمالقة والكنعانيون الساكنون في ذلك الجبل وضربوهم وكسروهم إلى حرمة» عدد ١٤، وهذا يشير إلى أن الرب لم يكن برفقة الشعب حينها، فربما قد ذهب برحلة ما، لذا نصحهم موسى ألا يدخلوا حتى يعود الرب ويستشيره.

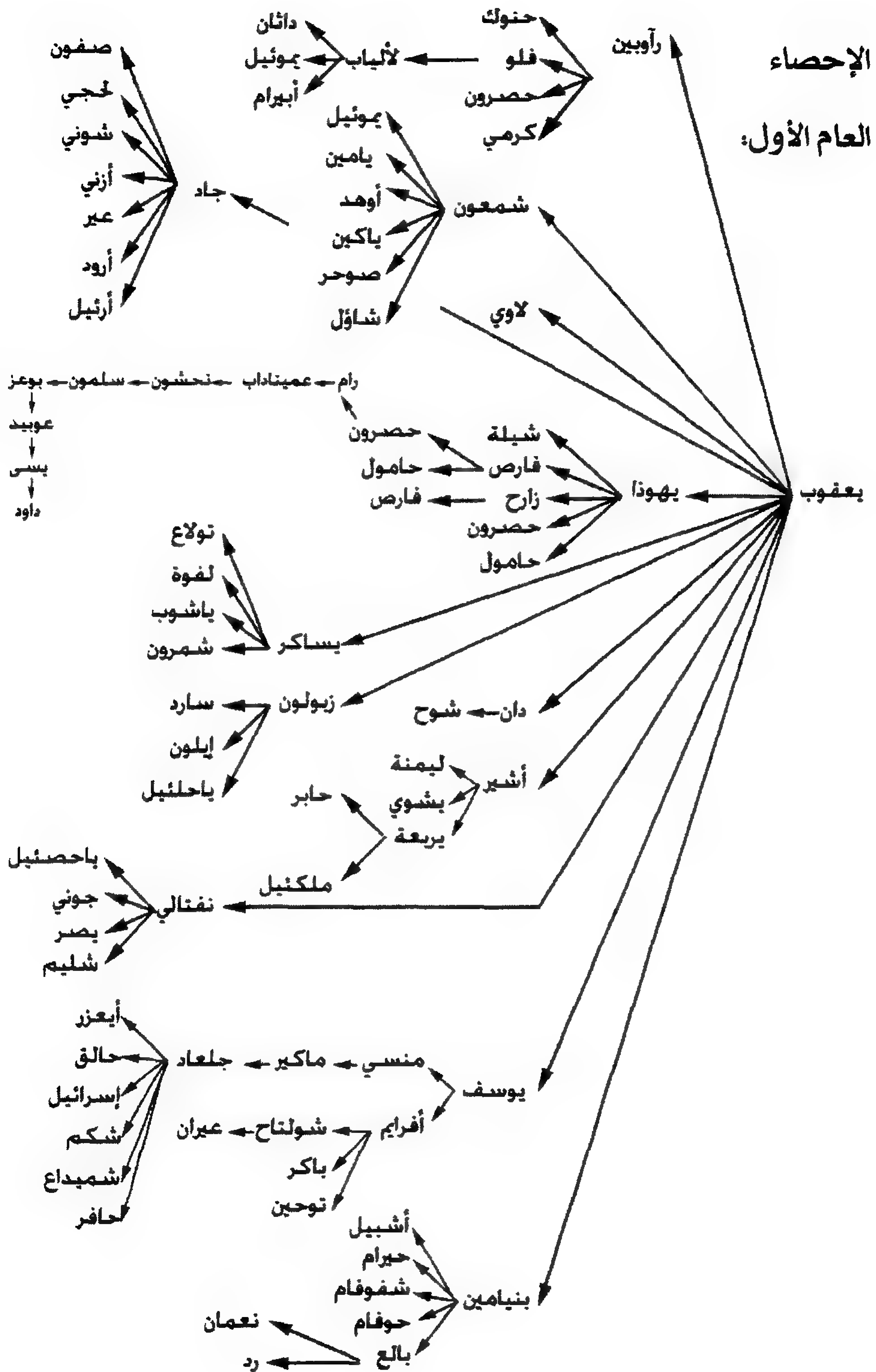
وبعد هذه الضربة، لم يعد يفكر التائهون بدخول بلاد كنعان، فحطوا برحالهم في برية شور برنيع لمدة ٣٨ عاما تقريبا، حيث تغيرت الأمور والأحوال، وقرروا أن يعيدوا محاولتهم في الدخول إلى بلاد كنعان عن طريق شرقي الأردن، وهنا بدأ دور الرب، وتابوت عهد الرب ممثل الرب وبطل الملحمة، وكذلك الأمر بالنسبة لخيمة الاجتماع بالاختفاء، أو بالشحوب من واجهة الأحداث، وعلى ما يبدو فقد مات الرب في قادش، وهناك تم دفنه.

وشحوب دور الرب يبرز بقوة بعد أن قرروا، الرحيل من قادش نحو شرقي الأردن، حيث تعرضوا في الطريق إلى منطقة تكثر فيها الأفاعي التي لدغت منهم الكثير، وقتلتهم، وقد قام موسى بصنع حية من نحاس (والتي تمثل الشيطان في الديانات القديمة)، وجعل الشعب يقدمون الصلوات لها، وقد استمرت عبادة الأفعى بطريقة هامشية في المجتمع العبري، حتى حطم صنمها النحاسي الملك حزقيا حسب ما جاء في سفر الملوك الثاني.

ولم يبرز دور الرب ثانية، وبطريقة غير قيادية إلا عندما وصل إيلاف سيناء إلى شرقي الأردن، حيث هناك ترك الشعب عبادة الرب وراحوا يتعبدون لرب المؤابيين بعل فغور، كما ورد ذكره أيضا، في القصة التي أوردتها التوراة في معرض حديثها عن قصة النبي بلعام المدياني الآرامي حيث كان يظهر له ملاك الله، والأمر الملفت للنظر في تلك القصة هو تغيّر ما في مفهوم الرب عما كان معهودا، فبينما كان الرب كثير الندم، وكثيرا ما كان يتراجع عما ينوي فعله، نجده حسب ما أتى على لسان النبي بلعام «ليس الله إنساناً فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم، هل يقول ولا يفعل. أو يقول ولا يفي»، والنبي بلعام حسب ما يعتقد كمال الصليبي، هو نفسه النبي لقمان الحكيم في التراث العربي، وهنا لي أن أشير على هامش هذا الفصل، أن البحث الأثري في سيناء، وشرقي الأردن، فشل في الوصول إلى أي نص، أو دلالات أثرية تشير إلى تاريخية متاهة بني إسرائيل، وكل ما وجد هو نص اكتشف في دير العلا في شرقي الأردن جاء فيه {هذه كلمات بلعام بن بعور ناظر الآلهة}.

الإحصاء

العام الأول:



في بداية السنة الثانية للخروج قام موسى بإجراء إحصاء عام للأسباط الاثني عشر، كما جاء في السفر تفصيل لشجرة عائلة سبطي رآوبين وشمعون، أما سبط اللاويين والذي يعود إليه موسى فقد أتى على تسلسله من لاوي حتى أبناء موسى، وقد كان تعداد الذكور للأسباط ما فوق عشرين سنة والقادرين على حمل السلاح أي المجندين أو الذين يمكن تجنيدهم في الحرب هو ٦٠٣٥٥٠ رجل، عدا سبط اللاويين، والغرباء الذين لم يأت الإحصاء العام على تعدادهم، والشيوخ المسنين، والمعاقين جسديا وعقليا، وهو رقم لا يمكن قبوله حتى لو قسّم على مئة، لأن هذا الرقم يستوجب أن يكون التعداد العام لجميع الأنفس لجماعة الخروج يتجاوز الثلاثة ملايين:

- **أولا**.. إن عدد الذكور هو أقل من عدد الإناث في كل المجتمعات بسبب تعرض الذكور لحوادث الموت بصورة أكبر بشكل عام، أما بشكل خاص فقد ورد أن فرعون مصر قبل خروج قوم موسى من مصر بوقت غير محدد قد استصدر قانونا بقتل كل المواليد الذكور فقط من العبرانيين، وقد أُنقذ موسى من هذا الأمر بإرادة إلهية، وبذلك فإن التعداد المماثل والمقابل لتعداد الإناث هو أعلى بكثير من تعداد الذكور، إي أن عدد الإناث ما فوق ٢٠ سنة والسليمات جسديا، واللواتي هن دون سن الشيخوخة، ودون حساب النساء اللاويات أيضا يزيد عن المليون على أقل تقدير.

- **ثانيا**.. إن موسى قبيل وفاته بقليل قام بتعداد ثانٍ بعد ٣٩ سنة من هذا التعداد بعد أن مات جميع من تم إدراجهم في التعداد الأول، فكان ٦٠١٧٣٠ رجل حرب، وهذا يعني أن هؤلاء ممن كان عمرهم دون عشرين سنة في التعداد الأول، ومن ولدوا في العشرين سنة الأولى بعد الخروج، وهذا يعني أن نصفهم كانوا موجودين أثناء التعداد الأول ولم يدخلوا فيه لأنهم كانوا دون العشرين من العمر، أي أن عدد الذكور دون العشرين سنة من العمر أثناء الإحصاء الأول كان يزيد عن ٣٠٨٦٥، وهم الذين تعرضوا إلى حوادث الموت المتعددة والتي على رأسها الحروب الصغيرة التي كانوا قد خاضوها، والغزوات التي تعرضوا لها، والأمراض والحرائق والتسممات الغذائية التي أتت على الكثير من أتباع موسى، إضافة إلى من ابتلعتهم الأرض (المقابر الجماعية)، وبذلك فإن عدد الإناث المقابل يزيد عن هذا الرقم مرة ونصف على أقل تقدير أي نحو ٤٥٠٠٠٠، وبذلك يكون عدد الذكور والإناث أثناء إجراء الإحصاء الأول والذين لم يدخلوا فيه لأنهم كانوا دون العشرين سنة من عمرهم هو ٧٥٠٠٠٠ تقريبا (وبالطبع دون تعداد سبط اللاويين).

- ثالثا.. بالنسبة للاويين فقد تم تعداد ذكورهم جميعا ممن هم فوق شهر من العمر وكان تعدادهم ٢٢٠٠٠ وإذا أضفنا على أقل تقدير ٢٨٠٠٠ من الإناث يكون تعداد اللاويين جميعا قرابة ٥٠٠٠٠ إنسان.

- رابعا.. علينا أن نضيف إلى هذه الأرقام كل الرجال الذين لا يستطيعون الخروج للحرب بسبب السن أو الإعاقة والذي سنقدره بربع عدد الرجال القادرين على الحرب، أي بمعنى أن هناك من بين خمسة رجال رجل واحد فقط لا يستطيع الخروج للحرب، وهذا يعني ما يزيد عن ١٥٠٠٠٠وإذا أضفنا فقط نفس العدد من النساء أي ١٥٠٠٠٠ يكون العدد الكلي ٣٠٠٠٠٠.

وبذلك يكون التعداد الكامل:

١ -	٦٠٣٥٥٠	عدد رجال الحرب
٢ -	١٠٠٠٠٠٠	عدد النساء فوق عشرين سنة المقابل لعدد رجال
٣ -	٧٥٠٠٠٠	عدد الذكور والإناث دون سن العشرين
٤ -	٥٠٠٠٠	عدد اللاويين ذكورا وإناثا
٥ -	٣٠٠٠٠٠	عدد الرجال المسنين والمعاقين وما يقابلهم من
	٢٧٠٣٥٥٠	المجموع

ونضيف أيضا عدد الأشخاص الذين لا ينتمون إلى الأسباط الاثني عشر والذين ورد ذكرهم كثيرا (وكان موسى قد تزوج من إحدى النساء الكوشيات، كما ورد أيضا أنه تزوج من امرأة قينية، والقينيين من الجماعات التي كانت مع إئتلاف الخروج وهم ليسوا من الجماعات العبرية) وقد جاء في سفر الخروج: ٤٠ «فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد. وصعد معهم لفيف كثير أيضا مع غنم وبقر مواش وافرة جدا.»، وجاء أيضا «وقال الرب لموسى وهارون هذه فريضة الفصح. كل ابن غريب لا يأكل منه، ولكن كل عبد رجل مبتاع بفضة تختنه ثم يأكل منه، النزيل والأجير لا يأكلان منه.. وإذا نزل عندك نزيل وصنع فصحا للرب فليختتن منه كل ذكر ثم يتقدم ليصنعه فيكون كمولود الأرض» خروج ١٢، وجاء أيضا «كل إنسان من بيت إسرائيل ومن الغرباء الذين ينزلون في وسطكم يصعد محرقة أو ذبيحة» لاويين ١٧، كما أن بعض الباحثين يرى أن جماعات كثيرة انضمت إلى قوم موسى في سيناء، ومن الممكن أن تكون هذه الجماعات المفترضة قد ساهمت بتشكيل ديانة قوم موسى، وبذلك فإن الرقم يدنو من ثلاثة ملايين.

فكيف يمكن خروج ثلاثة ملايين إنسان من مصر في يوم واحد، في الوقت الذي قد يعيقهم أشياء لا يمكن حصرها أبسطها حالات الولادة التي ستتكرر كل بضعة دقائق؟

كيف يمكن تقديم الطعام لثلاثة ملايين إنسان مع مواشيهم وقطعانهم في صحراء سيناء القاحلة؟

أين المكان الذي يتسع لإقامة مثل هذا الجمهور عند جبل سيناء، أو في عربات موآب، أو حتى في أرض فلسطين المحدودة؟

كيف استغرق هذا الجيش العرمرم - المكون من أكثر من ٦٠٠٠٠٠ جندي - كل هذا الزمن في غزو أرض كنعان كما سيأتي لاحقا، بل إنه انكسر أمام قرية صغيرة هي عاي، والتي لايزيد تعداد سكانها عن اثني عشر ألفا، أي أن عدد رجالها المحاربين يكون بين ألف إلى ألفي مقاتل، وهذا الرقم (٦٠٠٠٠٠ مقاتل) في ذلك الزمان المفترض يمكنه أن يسيطر على الشرق الأدنى القديم، بل وعلى العالم القديم بأسره؟

وهل فرعون مصر كان غبيا بحيث قرر ملاحقتهم بستمئة مركبة فحسب؟

وهل كان يكفي بوقين من أجل أن يجتمع القوم أمام خيمة الاجتماع حسب ما جاء في التوراة؟

وكيف كانوا يقومون بتنقلاتهم، وترحالهم كما لو كانوا قبيلة من قبائل البدو الرحل؟

بالطبع إن هذا الرقم والذي لم يقم المحرر التوراتي بتحليله، لا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال لعدة أسباب:

- **أولاً**.. إن مختصين بتقدير الإحصاءات وعلى رأسهم (مكفدي - وجونز) قدّروا عدد سكان مصر أيام (المملكة الجديدة) بثلاثة ملايين إنسان بما فيهم العبيد والذي يشكل العبريون جزءاً منهم، وعدد سكان فلسطين كان آنذاك مئتين وخمسين ألف إنسان، وهذا ينسف نهائيا هذا الرقم.

ثم كيف لهذا خروج أن لا يُحدث اضطرابا هائلا في العالم القديم ككل، على الرغم من أنه لم يأت أي ذكر لهذا الخروج العظيم في الوثائق التاريخية، في الوقت الذي كانت فيه السجلات الفرعونية تذكر كل شاردة وواردة لا سيما ما يتعلق بأمن وحدود المملكة.

- **ثانيا**.. إن هذا الرقم يعود إلى اثني عشر جدهم الأسباط الاثني عشر، وهذا يعني أن كل شخص قد بلغ له من الأحفاد مئتين وخمسين ألف إنسان، خلال ٤٣٠ سنة حسب المقولة التوراتية في سفر الخروج، على الرغم من أن هذا الزمن يتعارض مع تحليل شجرة العائلة الإسرائيلية، وأكثر المؤرخين يعتقدون أن قوم يعقوب أقاموا في مصر ٢١٥ سنة فقط، حسب

ما نصت عليه النسخة السبعونية، أما من حيث شجرة العائلة فقد وصل هؤلاء السبعين فردا (حسب ادعاء التوراة، على الرغم من أنهم منطقيا كانوا اثني عشر ولدا وبنتاً واحدة هي ليئة، مع ولد ليهوذا فقط هو شيلة)، ولم يكن أحد من أبناء يعقوب قد تزوج سوى يهوذا الذي ماتت زوجته أيضا، وحتى لو كانوا قد تزوجوا في بلاد كنعان، فإنهم لم يكونوا قد أنجبوا بعد أو أنهم أنجبوا القليل، وزوجاتهم لا تدخل في الإحصاء لأنهن ليس من صلب يعقوب «وكانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفسا» خروج ١، فهل يعقل أن ثلاثة عشر ذكرا، أو ما يزيد عن ذلك بقليل سيصلون إلى هذه الأعداد (ثلاثة ملايين) خلال ثلاثة أجيال فحسب، بل أن هؤلاء السبعين فردا أصبحوا خلال ثلاثة أجيال أكثر من المصريين أنفسهم حسب ما جاء في سفر الخروج «قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا» خروج ١.

أما ما ورد في سفر التكوين حول أسماء من دخلوا مع يعقوب فهو غير ممكن لأنهم لم يكونوا قد ولدوا بعد، وحسب سفر التكوين: ٤٦، فإن من دخل إلى مصر مع يعقوب من أبنائه هم:

رآوبين وأبناؤه	حنوك وفلو وحصون وكرمي
شمعون وأبناؤه	يموئيل ويامين وأوهد وياكين وصوحروشاؤل ابن
لاوي وأبناؤه	جرشون وقهات ومراري
يهوذا وأبناؤه	شيلة وفارص وزارح/ ابنا فارص: حصرون وحامول

أما ابنا يهوذا عير وأونان فكانا قد ماتا في بلاد كنعان

ويساكر وأبناؤه	تولاع وفوتويوب وشمرون
زوبولون وأبناؤه	سارد وإيلون وياحلئيل

وهؤلاء أبناء يعقوب من زوجته ليئة، إضافة إلى ابنتها دينة.

جاد وأبناؤه	صفيون وحجي وشوني وأصيون وعيري وأرودي وأرئيلي
أشير وأبناؤه	يمنة ويشوة ويشوي وبريعة واختهما سارح، وابنا بريعة: حابر وملكئيل

وهؤلاء أبناء يعقوب من زلفة جارية ليئة

يوسف وأبناؤه	منسّى وأفرايم، وهم لم يرحلوا مع يعقوب، لأنهم كانوا أصلا في مصر

بنيـــــامين وأبنـــــاؤه   بالع وباكر وأشبيل وجيرا ونعمان وإيجي ورُوش ومفيم وحفـــــــــــــــــــــــــــيم وأرد

وهمـــــا ابنـــــا يعقـــــوب مـــــن زوجتـــــه راحيـــــل

دان وابنـــه حاشـــيم

نفتـــــالي وابنـــــه ياحـــــصئيل وجـــــوني ويـــــصر وشـــــليم

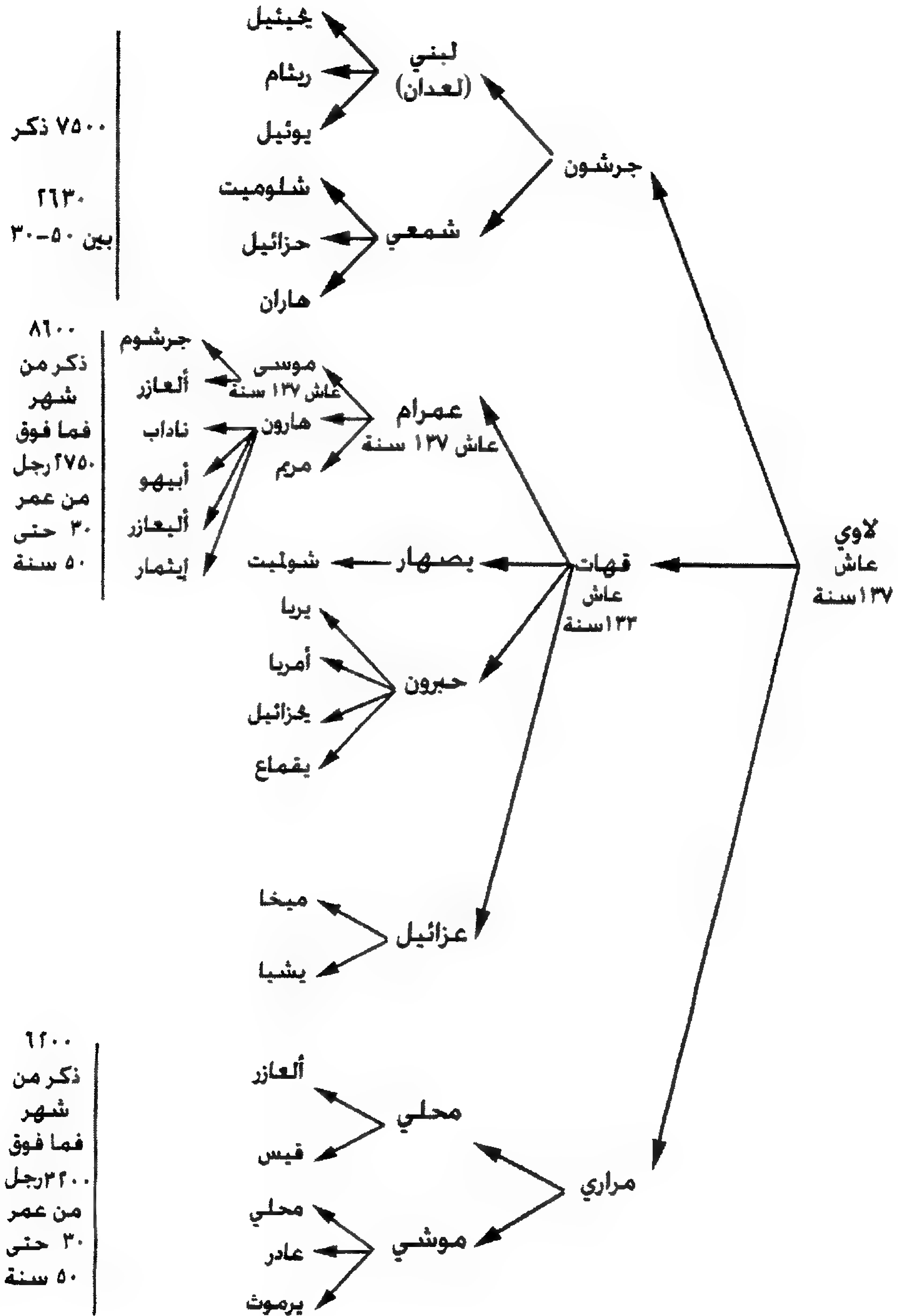
وهمـــــا ابنـــــا يعقـــــوب مـــــن بلهـــــة جاريـــــة راحيـــــل

إن عدد الخارجين الذي أتت عليه التوراة، والذي يقرب من ثلاثة ملايين لا يمكن قبوله على الإطلاق، لا سيما وأنهم كانوا كما جاء في التوراة مضطهدين وعبيداً في مصر، كما أن الفراعنة كانوا يقومون بقتل المواليد الذكور من العبرانيين، وبإرادة إلهية تم إنقاذ النبي موسى، إضافة إلى أنه جاء في التوراة أنه لم يكن للعبرانيات سوى قابلتين فقط، فهل لمجتمع يعد من السكان قرابة الثلاثة ملايين إنسان مولدتين فقط بالكاد منطقيا تكفيان لمجتمع يعد أقل من ألف، أو ألفي نسمة، ونضيف إلى ذلك أنه خلال أربعين عاما أثناء زمن الخروج قد نقص تعدادهم بسبب الظروف القاسية التي عاشوا بها والتي هي ليست أسوأ كثيرا من الظروف التي عاشوها في مصر، ونضيف أيضا أن أعلى نسبة في الزيادة السنوية يمكن أن يبلغها مجتمع وفي أحسن ظروفه لا تتجاوز التسعة بالمئة، وأعلى نسبة من الرجال المحاربين في مجتمع ما لا يتجاوز عشرة بالمئة من المجتمع في حال التعبئة العامة، وإذا كان هناك إجحاف شديد فقد تصل النسبة إلى عشرين بالمئة، وهذا ما يتماشى مع الأرقام التي استنتجناها.

- ثالثا.. وهي النقطة الأهم والتي قام المحرر بتفصيلها ليضع أرقامه التي أوردها في مهب الريح دون أن يدري، فقد جاء في سفر الخروج «وهذه أسماء بني لاوي بحسب مواليدهم. جرشون وقهات ومراري. وكانت سنو حياة لاوي مئة وسبعا وثلاثين سنة. ابنا جرشون لبني وشمعي بحسب عشائرهما. وبنو قهات عمرام ويصهار وحبرون وعزيئيل وكانت سنو حياة قهات مئة وثلاثاً وثلاثين سنة. وابنا مراري محلي وموشي هذه عشائر اللاويين بحسب مواليدهم. وأخذ عمرام (عمران) يوكابد عمته زوجة له. فولدت له هارون وموسى. وكانت سنو حياة عمرام مئة وسبعا وثلاثين سنة. وبنو يصهار قورح ونافج وذكري. وبنو عزائيل ميشائيل وألصافان وستري. وأخذ هارون أليشابع بنت عميناداب أخت نحشون زوجة له. فولدت له ناداب وأبيهو وألعازر وإيثمار. وبنو قورح أسير وألقانة وأبي أساف. هذه عشائر القورحيين» خروج: ٦.

وهذا يعني أن أحد وأهم سبط من الأسباط (سبط لاوي) لا يتجاوز مئتي إنسان على أكبر تقدير.

التعداد حسب الإحصاء



إن الخروج من مصر قد تم بعد ٤٣٠ سنة من دخولهم أرض مصر وكان عمر موسى حينها ٨٠ سنة، هذا يعني أن موسى ولد بعد ٣٥٠ سنة من دخول الآباء أرض مصر.

والآن لنجمع أعمار لاوي (الذي كان بعمر ٥٧ سنة حين قدم إلى مصر، وهذا يعني أنه عاش في مصر لمدة

١٣٧ - ٥٧=٨٠ سنة + عمر ابنه قهات (١٣٣ سنة) + عمر ابنه عمرام (١٣٧ سنة) + عمر موسى عند الخروج (٨٠ سنة) حسب ما أتى في سفر الخروج:

٨٠ + ١٣٣ + ١٣٧ +٨٠ =٤٣٠ سنة.

كما جاء في سفر التكوين «فقال لإبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم. فيذلونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة. وأما أنت فتمضي إلى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة. وفي الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا» تكوين ١٥.

وقد حاول المحرر من خلال هذه الأعمار أن يغطي فترة بقائهم في مصر وسنفترض (على الرغم من المآخذ الكثيرة على هذه الأرقام، فقد ورد أن أبناء لاوي الثلاثة كانوا قد ولدوا في بلاد كنعان ورحلوا إلى مصر مع جدهم يعقوب، كما أنه ليس من الممكن أن يكون كل واحد قد ولد ابنه عند موته، والمعروف أن متوسط عمر كل جيل هو أربعون سنة، وهذا يعني أنهم أقاموا في مصر دون هذا الرقم بكثير، وقد جاء في سفر الخروج أن عمرام بن قهات بن لاوي، قد تزوّج بعمته يوكابد، وهذا يعني أن يوكابد هي ابنة لاوي، وهذا يعني أيضا أنها عاصرت جدها يعقوب نفسه، كما عاصرت ابنها موسى أيضا، فكم عاشت يوكابد؟؟، وفي أي عمر أنجبت أبناءها مريم وهارون وموسى، أي أن موسى هو ابن يوكابد بنت لاوي بن يعقوب.

كما جاء في سفر التكوين أن يوسف قد شهد مولد أولاد أحفاده «وعاش يوسف مئة وعشر سنين. ورأى يوسف لأفرايم أولاد الجيل الثالث. وأولاد ماكير بن منسى أيضا ولدوا على ركبتي يوسف» تكوين ٥٠، وأولاد ماكير أنفسهم خرجوا مع موسى، وهذا يعني أن أولاد ماكير قد عاصروا كلاً من يوسف، وموسى، فما هي المدة إذا التي قضوها بعد موت يوسف، وبالأحرى كم سنة بقوا بعد دخول الأسباط مصر؟!

وسنفترض - أن هذه الأرقام مقبولة وممكنة، فسوف أقوم بمقاربة إحصائية حسب شجرة عائلة لاوي التي جاءت مفصلة من جهة، كما أن تعدادها كان واضحا.

تقول التوراة إن أبناء عمرام هم موسى ولديه ولدان أثناء التعداد ومع زوجته = ٤ أنفس.

+ هارون وزوجته ولديه أربعة أولاد أثناء التعداد، وإذا أضفنا أيضا فينحاس ابن أبيهو وزوجته = ٨ أنفس.

+ مريم بنت عمرام.

وهذا يعني أن تعداد أولاد وأحفاد عمرام ونسائهم جميعا أثناء التعداد = ١٣ إنساناً، وسنفترض أن لكل أخ من أخوة عمرام الثلاثة وهم يصهار وحبرون وعزائيل نفس العدد (على الرغم من أنه البكر) هذا يعني أن تعداد القهاتيين = ١٣ × ٤ = ٥٢، وسنفترض أن لأخوي قهات (جرشون ومراري) نفس العدد، على الرغم من أن لكل من جرشون ومراري ولدين فقط بينما لقهات أربعة أولاد، هذا يعني أن تعداد اللاويين أثناء إجراء الإحصاء العام هو ٥٢ × ٣ = ١٥٦ إنسان، وإذا أردنا أن نحصل على كل من خرج من نسل الأسباط الاثني عشر يكون ١٥٦ × ١٢ = ١٧٧٢ إنسان.

أما أولاد عمرام ما بين ٣٠ و٥٠ سنة: موسى كان عمره ٨٠ سنة، هارون ٨٣ سنة، وهما خارج التعداد، أولاد موسى دون عشر سنوات والجميع فهم أيضا خارج التعداد، أولاد هارون الأربعة اثنان فقط هما ما بين الثلاثين والخمسين من العمر، والذين بعد أن ماتا ورث أعمالهما الكهنوتية أخويهما أليعازر وإيثمار، وهذا يعني أن من أولاد عمرام ما بين ثلاثين وخمسين من العمر هما اثنان فقط، وهذا يعني أن عدد القهاتيين الذكور ما بين ٣٠ و ٥٠ سنة هو ٢× ٤ =٨، وهذا يعني أن العدد الكلي للاويين الذكور بين ٣٠ - ٥٠ سنة من العمر = ٨ × ٣ =٢٤.

أما إذا افترضنا أن اللاويين يخرجون للحرب، فيكون لعمرام أربعة فقط هم فوق العشرين من العمر هم موسى وهارون وابناه ناداب وأبيهو أما أليعازر وإيثمار فكانا دون العشرين من عمرهما، وكذلك بالنسبة لابني موسى، وبالتالي للقهاتيين ٤× ٤ = ١٦، وبالتالي للاويين هو ١٦ × ٣ = ٤٨ رجل فوق العشرين من العمر، وبالتالي يكون تعداد الرجال فوق عشرين سنة المتحدرين من الأسباط الأحد عشر يكون ٤٨ × ١١ = ٥٢٨ رجل حرب.

لنقارن الآن الأعداد التي بين يدينا وبين الأعداد الذي أتى بها المحرر:

- أولاً.. يقول الإحصاء العام الأول إن تعداد القهاتيين الذكور ما فوق شهر هو ٨٦٠٠ ذكر فإذا وضعنا مقابله نفس الرقم فقط من الإناث يكون الرقم الكلي ١٧٢٠٠ إنسان، بينما لدينا حسب ما ورد سابقا ٥٢ إنساناً فحسب، فما هو الرقم الذي ضربه المحرر التوراتي حتى حصل على ١٧٢٠٠ إنسان = ١٧٢٠٠ ÷ ٥٢ = ٣٣٧.

- ثانيا.. يقول الإحصاء العام إن عدد القهاتيين ما بين ٣٠ - ٥٠ سنة هو ٢٧٥٠ بينما هو لدينا ثمانية فحسب، أما جميع ذكور اللاويين ما بين ٣٠ و٥٠ سنة فهو ٨٥٨٠ بينما لدينا هو ٢٤ فقط.

- ثالثا.. إن التعداد الكامل للذكور لمن هم فوق ٢٠ سنة للأسباط الأحد عشر حسب ما جاء به المحرر هو ٦٠٣٥٥٠ رجل حرب بينما لدينا هو الرقم ٥٢٨ رجل حرب.

أما التعداد الكامل حسب المقاربة التي قمت بها من خلال الأرقام التي وردت في الإحصاء الأول هو ٢٧٠٣٥٥٠ تقريبا، بينما لدينا هو ١٧٧٢ إنسان.

ويذهب البعض إلى أن ٦٠٠ أليف التي جاءت في التوراة تعني ٦٠٠ قريب (أليف من ألفة)، وليس ٦٠٠ ألف، ولكن المحررين التوراتيين اعتقدوا، أو أرادوا أن يكون هذا الرقم ٦٠٠ ألف، وقد اعتمدوه، وقاموا بتوزيع هذا الرقم على الأسباط الاثني عشر، وهو قريب إلى الرقم الذي توصلت إليه تحليليا (٥٢٨ رجل).

لا نريد المزيد من التعليق حول هذه القضية، ولكن يمكن القول أن النسبة بين هذين الرقمين، هي نفس النسبة ما بين الأسطورة والحقيقة في التأريخ التوراتي.

أما في التعداد الثاني الذي أجري قبيل وفاة موسى على الضفة الشرقية من الأردن فقد جاء متقارباً من حيث العدد مع الإحصاء الأول الذي أجري بعيد الخروج من مصر، ففي الإحصاء الأول كان التعداد العام لرجال الحرب هو ٦٠٣٥٥٠ رجل حرب فوق العشرين من العمر، قابله في الإحصاء الثاني والذي أجري بعد أربعين سنة من الإحصاء الأول ٦٠١٧٣٠ رجل حرب فوق العشرين من العمر، أما إذا أتينا على مقارنة الإحصاءين لكل سبط نجد:

	إحصاء أول	إحصاء ثاني	الفارق
العدد الكلي	٦٠٣٥٥٠	٦٠١٧٣٠	١٨٢٠
رآوبين	٤٦٥٠٠	٤٣٧٣٠	- ٢٧٧٠
شمعون	٥٩٣٠٠	٢٢٢٠٠	- ٣٧١٠٠
جاد	٤٥٦٥٠	٤٠٥٠٠	- ٥١٥٠
يهوذا	٧٤٦٠٠	٧٦٥٠٠	+ ١٩٠٠
يساكر	٥٤٤٠٠	٦٤٣٠٠	+ ٩٩٠٠
زبولون	٥٧٤٠٠	٦٠٥٠٠	+ ٣١٠٠
دان	٦٢٧٠٠	٦٤٤٠٠	+ ١٧٠٠

	إحصاء أول	إحصاء ثاني	الفارق
أشير	٤١٥٠٠	٥٣٤٠٠	+ ١٩٠٠
نفتالي	٥٣٤٠٠	٤٥٤٠٠	- ٨٠٠٠
يوسف:			
منسي	٣٢٢٠٠	٥٢٧٠٠	+ ٢٠٥٠٠
أفرايم	٤٠٥٠٠	٣٢٥٠٠	- ٨٠٠٠
بنيامين	٣٥٤٠٠	٤٥٦٠٠	+ ١٠٢٠٠
المجموع	٦٠٢٥٥٠	٦٠١٧٣٠	- ١٨٢٠
لاوي	٢٢٠٠٠	٢٣٠٠٠	+ ١٠٠٠

ولم يعط المحرر أي سبب لهذا التغيير الكبير في تعداد سبطي شمعون وسبط منسي، وإذا كان المحرر - لو تنبه - يستطيع أن يبتكر إحدى القصص التي ينتقم فيها الرب من سبط شمعون بسبب أي خطأ، ويبيد قسماً كبيراً منهم بحيث يسوغ هذا النقص الكبير في تعدادهم بين الإحصائين، فكيف يمكنه تسويغ الزيادة الكبيرة بتعداد نصف سبط يوسف (سبط منسي) دون سواهم من بين باقي الأسباط.

وفي النهاية هنا لنا أن نلاحظ وجود أسماء إيلية في شجرة العائلة اللاوية (يحيئيل - يوئيل - حزائيل - ألعازر - أليعازر - يحزائيل - حزائيل) إضافة إلى وجود أسماء يهوية قبل أن يعرّف الرب نفسه باسمه (يَهْوَه)، بينما تخلوا هذه الأسماء اليهوية تماماً من باقي الأسباط (يوئيل = يهوئيل وهو اسم إيلي يهوي، أبيهو، يريا = يرياهو = يريهيا، أمريا = أمرياهو، يشيا = يوشيا أو يهوشيا أو يشياهو).

والجدير ذكره أن الرب (يَهْوَه) قال لموسى إنه يفشي باسمه لأول مرة، بينما كان الرب قد طلب من إبراهيم أن يذهب إلى أرض المريا، وهو اسم يهوي، كما أن إبراهيم قد سمى المكان بعينه الذي قرر أن يقدم ابنه إسحاق قربانا للإله في بلاد كنعان «يَهْوَه» يره) حسب ما جاء في سفر التكوين، وكان عيسو قد اتخذ يهوديت بنت بيري الحيثي، كما أن أحد أسماء الأسباط هو يهوذا، وجاء أيضا أن رئيس بني أفرايم بعيد الخروج كان أليشمع بن عميهود، وهذا يعني أن عميهود أطلق عليه هذا الاسم في زمن سابق لمعرفة موسى بالرب (يَهْوَه)، مع العلم أن كلمة يهود لم تعرف، ولم تصبح متداولة إلا في سياق القرن الثامن قبل الميلاد، وأيضا هو الأمر بالنسبة لاسم أم موسى يوكابد (يهوكابد)، ويوكابد هي بنت لاوي

مباشـرة، لأنهـا حسب مـا جـاء في سـفر الخـروج هـي عمـة زوجهـا عمـرام، وهـذا يعني أنهـا ابنـة لاوي، ولكـن غياب هـذه الأسماء اليهوية مـن بـاقي أسمـاء أبنـاء الأسباط المتجايلين مـع الأسماء اليهوية لسبط لاوي (عدا اسم يهوذا ابن يعقوب) يطرح علينا العديد من الأسئلة حول هذا السر.

الشريعة الموسوية التوراتية:

إن الشرائع تعبّر عن جوهر الشعوب، وهـي تمثل مجموعة من الأخلاق العامة للمجتمع يتم تبنيهـا مـن قبـل السلطة، أو مجموعـة أخـلاق فرديـة تتحـول إلى قـوانين يمكنهـا أن توقـع الأحكـام في مخترقيهـا، ومـن المؤكـد أن مـواد وبنـود الـشريعة تكـون مـستقاة وناتجـة عـن عادات، وأعراف، وتقاليد، وظروف، وأنماط، وأخـلاق المجتمع، وتشترك الظـروف السياسية والاجتماعيـة للشعوب في صياغتها، والـشرائع تـشير إلى الأمـراض المتفشية في المجتمـع، حيـث تقوم الـشريعة بـدور المعـالج لتلك الأمـراض الـتي تعيـق تطـور المجتمـع، وتحـد مـن تماسـكه في وحدة عضوية.

وأول شـريعة إصـلاحية تم اكتشافها في المنطقـة، والعـالم تعـود إلى ملـك مدينـة لاجـاش الـسومرية أوروإنمجينـا (٢٣٥١ - ٢٣٤٢ ق.م)، وهـو يُعـد أول مـصلح في التـاريخ حيـث أصـدر مجموعة من القوانين التي تحد مـن صـلاحيات الطبقـات العليـا الاقتـصادية والـسياسية والدينية وتحكمها بالطبقات الدنيا من عامة الشعب، وقد وقف قانون أورو إنمجينا ضد الكهنة الذين يستغلون البعد الروحي العميق للإنسان القديم، ولا سيما في الشرق فقـد قـام الكهنـة بابتـداع، وسن قوانين استغلوا فيها الشعب أبشع استغلال وهو تماماً ما ميز الشريعة الكهنوتية التوراتيـة كما سنرى، وقـد ناصـر قـانون أورو إنمجينـا الـشعب، ولا سيما الفقـراء منـهم، ضـد اسـتغلال الكهنة للشعب، ونضّم وخفّف من الضرائب والتقدمات الـتي كانت تقدم إلى المعابـد {تكلـم (أورو إنمجينا) فحـرر أبنـاء لاجـاش مـن الجـدب والـسرقة والجريمـة وحمـى الأرامـل والأيتـام مـن الأثقال وأعاد للآلهة ممتلكاتها وأحلّ (الحرية). حتى لا يظلـم القـوي اليتيم والأرملـة عقـد أورو إنمجينا هذا (الميثاق) مع (الإله) نينجرسو}.

وأول قـانون، وشـريعة، وسـجل عقـاري اكتـشف، كـان في عهـد الملـك أورنـامو (ملـك سـومر وأكـاد) (٢١١١ - ٢٠٩٤ ق.م) أحـد ملـوك سـلالة أور الثالثـة، والـذي حـاول إيجـاد حلـول قانونيـة للمـشكلات الاقتـصادية، والاجتماعيـة، وهـو الـذي كـان أساسـا وبدايـة لقـانون ملـك مدينة إسين العموري ليبيت عشتار (١٩٣٤ - ١٩٢٤ ق.م) المدون باللغـة الـسومرية، والـذي أتـى في سبع وثلاثين مادة، والـذي {حـرر أبنـاء وبنـات نيبـور وأبنـاء وبنـات أور وأبنـاء وبنـات إسين وأبنـاء

وبنات سومر وأكاد الذين وُضعت العبودية على عاتقهم} ، وشريعة إشنونا الذي سنها أو سجلها الملك دادوشا في محيط سنة ١٨٠٠ ق.م، والتي كتبت باللغة الأكادية، وشريعة الملك البابلي الشهيرة حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م)، والذي افتتحها بـ {.. أنا حمورابي الأمير الورع عابد الآلهة، (من أجل) العدل في البلاد جعلوني مرئيا ظاهرا لأمحق السيئ والمفسد، ولكي لا يؤذي القوي الضعيف، ولأشرق كشماش (إله الشمس) على ذوي الرؤوس السوداء، ولأنير البلاد. أنو وأنليل نادوا باسمي من أجل سعادة الناس} ، واختتمها بـ {هذه هي أحكام العدالة التي وضعها حمورابي الملك المقدس فأوجد تقاليد ثابتة للبلاد وقيادة جيدة. كي لا يظلم القوي الضعيف ولإيصال اليتيم والأرملة إلى حقهم في بابل المدينة التي رفع أنو وأنليل رأسها في إيزيجيلا المعبد الذي جذوره ثابتة كما السماء والأرض. لخلق قانون للبلاد ولتقرير مصير البلاد ولإحقاق الحق للمظلومين كتبت كلماتي القيّمة على مسلتي ونصبتها أمام تمثالي ملك العدالة}.

وهذه القوانين، ولا سيما شريعة حمورابي، كانت أهم المرجعيات التي اعتمدتها الشريعة التوراتية، والتي كانت غايتها الأهم توحيد جماعات متعددة من ذوي الأعراق والأثنيات المتعددة في بوتقة سياسية واحدة، وبينما كانت شريعة حمورابي (المدنية) تمثل مجتمعا طبقيا، فإن شريعة موسى (الدينية) تمثل مجتمعا عنصريا، وقد تطورت تلك الشريعة على مدى زمان طويل تعود إلى مراحل تاريخية متعاقبة، وقد عكست نمط العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في كل مرحلة من مراحل التطور العبراني، من المرحلة العبرانية الأولى في محيط منتصف الألف الثانية قبل الميلاد (مرحلة البداوة)، وحتى مرحلة الاستقرار الزراعي، وحتى المرحلة الكهنوتية لمرحلة السبي، وما بعد العودة من السبي البابلي، وقد بدئ بتدوين الشريعة في السبي البابلي لإيجاد رابط اجتماعي ديني يؤدي إلى تشكيل كتلة يهودية متماسكة تحول دون تحللهم واندماجهم مع الشعوب والأمم المتنوعة، وجاء في الشريعة «إذا باع إنسان بيت سكن في مدينة ذات سور فيكون فكاكه إلى تمام سنة بيعه» لاويين ٢٥، وهذا يعني أن هذه الفقرة لم تكتب، ولم تشرع في سيناء، ولم يتم تدوينها فحسب، بل سنها والعمل بها في مجتمع استيطاني يعيش في مدن، وقرى، ومستقرات.

وقد امتازت الشريعة التوراتية باهتمامها بالطقوس المادية التي تفتقد إلى البعد الروحي، وإلى القيم والأخلاق، بحيث يمكن لإي إنسان الاغتسال من أي خطيئة أخلاقية من خلال إرضاء الكهنة ببعض التقدمات، والقرابين، ولكن، وفي الوقت نفسه، فإن أي خروج، ومهما كان بسيطا عن تأدية أبسط أنواع الشعائر والطقوس اليهودية فإن مصير من يرتكب تلك الخطيئة فهو الموت، والأرقام، والأعياد التي من شأنها أن تجمع بين جماعات وعائلات يخشى

عليها من الذوبان في المجتمعات الأخرى، ومن هنا كان ولعها الشديد بالحديث عن الأرض الموعودة بمعناها المادي، دون أن تولي الشريعة اهتماماً واضحا بالمفاهيم الميتافيزقية الروحية لتلك الأرض بالخاصة، ولجميع القيم والمفاهيم التي تتداولها، والشريعة الموسوية، بل، والتوراة بمجملها، لم يكن لها من هم سوى إثبات الحق المثيولوجي، ومن ثم التاريخي بالأرض الموعودة، كما لم يكن من هم للرب القاسي، اللاأخلاقي، الذي يفتقد إلى الضمير، وبكل ما يملك من مقتدرات فوق البشرية سوى تمكين شعبه المختار من امتلاك الأرض التي وعدة بها، دون أن تقدم التوراة أي تفسير لانتخاب الرب (يَهْوَه) لشعب دون سواه ليكون شعبه المختار، كما لم تفسر لماذا اختار الرب (يَهْوَه) أرض كنعان دون سواها من أراضيه ليكون وطنا مقدسا، أبديا لهم، ولماذا لم يختر لهم أرض الجنة التي خرج منها جدهم الأول آدم التي تقع عند منابع الأنهار وطنا لهم، ومسكنا أبديا له.

ومن هنا فقد برزت في الشريعة التوراتية الموسوية الصفة العنصرية الشوفينية، التي سنت، على من وقعوا على عقدها، على عدم اختلاطهم بسواهم من الشعوب المدنسة، وألا يوقعوا أي اتفاق مع الشعوب التي سيحتكون بها، وألا يختلطوا، أو يندمجوا معهم «لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. ابنتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك، لأنه يرد ابنك من ورائي، فيعبد آلهة أخرى» تثنية ٧، وهناك الكثير من هذه التحذيرات خاصة في سفر التثنية، كما جاء أيضا من مثل هذه التحذيرات في سفر يشوع «لا تدخلوا إلى هؤلاء الشعوب، أولئك الباقين معكم، ولا تذكروا اسم آلهتهم ولا تحلفوا بها ولا تعبدوها ولا تسجدوا لها.. إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب، أولئك الباقين معكم، وصاهرتموهم ودخلتهم إليهم وهم إليكم، فاعلموا يقينا أن (يَهْوَه) إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم. فيكونوا لكم فخا وشركا وسوطا على جوانبكم وشوكا في عيونكم، حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التي أعطاكم إياها (يَهْوَه) إلهكم» يشوع ٢٣.

ومن هنا، وفي مقابل تحريم اختلاط شعب الله المختار مع الشعوب الأخرى، حرصت الشريعة على تشكيل مجتمع عضوي متماسك يشكل كتلة واحدة لا يمكن فصل الفرد عن الجماعة، ومن هنا فقد سنّت مجموعة من الشعائر والطقوس التي يمكن لها أن تقوم بهذا الدور، بل يمكن النظر إلى اليهودية ككل على أنها مجموعة شرائع، وشعائر طقوسية، وعلى رأسها كيفية تقديم الأضاحي والقرابين، وكيفية صناعة وبناء خيمة الاجتماع، وتابوت العهد، وغيرها من قيم وقوانين كهنوتية، وقد جعل منها الكهنة أساسا لدين، أو شكلوا منها البنية التحتية للدين اليهودي، وبالتالي فإن سقوطها يؤدي إلى سقوط الدين اليهودي لأن هيكله

الأساسي قائم على عَقد أو تشريع، أي على نظم وروابط لم يكن من شأنها أن تجعل من الأخلاق العامة الإنسانية قوانين تحكم الفرد والمجتمع في حال ضعف الوازع الأخلاقي عند البعض، وليس ذلك فحسب بل إنها لم تكن لتهتم بأن تكون الشخصيات المرجعية البطريركية شخصيات أخلاقية بحيث تشكل ما يمكن تسميته بالأسوة الحسنة، فجميع الأوامر والنواهي كان لها مسوغاتها المختلفة التي لم تكن الأخلاق الإنسانية أساسا لها، بل كان اهتمامها الأول، كما سبق وذكرنا، التأكيد على ممارسة الطقوس والشعائر، بدقة متناهية، وبعصابية متطرفة، بحيث إن ارتكاب أي خطأ بقصد أو دون قصد أثناء تأدية الطقوس، يستوجب القتل، كما حصل مع ابني هارون، بل وإن أكل الخبز الخمير، أو التجديف على الرب، وهو محرم حسب الشريعة، فإنه يستوجب القتل أيضا، بينما تتسامح الشريعة بالقيام بأبشع التصرفات اللاأخلاقية، التي يمكن التطهر منها بقربان يقدمه المرء إلى الكاهن الذي يسوي الأمر مع الرب (يَهْوَه) «يأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشا صحيحا من الغنم ذبيحة إثم الكاهن، فيكفر عنه الكاهن أمام الرب فيصفح عنه» لاويين: ٦، وقد حاول الأنبياء المتأخرون أن يزرعوا القيم الأخلاقية في الديانة اليهودية، كما حاولوا أن يبينوا ثانوية الطقوس والشعائر أمام أولوية الأخلاق، ولكن ذلك لم يكن له أن يؤثر كثيرا في دعم الأخلاق العامة في الديانة اليهودية على حساب الطقوسية الشعائرية، والتي من شأنها تنظيم جماعات بدوية، أو شبه بدوية، تعود إلى أثنيات متعددة لها عاداتها، وأنماطها الاجتماعية، ومعتقداتها المختلفة منها جماعات عبرية خرجت هاربة من مصر تدين بالحنيفية أو البعلية الكنعانية، ومنها جماعات مصرية خرجت مطرودة، أو مدحورة من مصر تدين بالأخناتونية، ومنها جماعات سينائية انضمت إلى ائتلاف الخروج تدين باليهوية، ولكن الشريعة، وبسبب تدوينها في مراحل لاحقة، فقد توجهت أيضا إلى مجتمعات حضرية زراعية مستقرة تقوم على الزراعة وعلى تربية المواشي، وعلى تربية الحمام، والذي يشكل أحد الحيوانات التي تقدم كقرابين للرب (يَهْوَه)، الذي لا يمكن أن يتم تربيته في بيئة بدوية متنقلة، الأمر الذي يشير إلى أن هذه الشريعة قد تطورت مع تطور المجتمع العبري.

ويعيد دارسو التوراة كتابة التوراة، وبالتالي الشريعة إلى أربعة مصادر هي المصدر الألوهيمي الذي يعتمد على مرجعية الإله إيل، والمصدر اليهوي الذي يتخذ من (يَهْوَه) إلها، والمصدر التثنوي، والمصدر الكهنوتي، وللتبسيط يمكن إرجاع الأحكام في الشريعة إلى مصدرين أو تيارين:

- التيار، أو المصدر، أو المشرع، الذي يمكن وصفه بالرحماني ويعود في أغلبه إلى المصدر الألوهيمي، الإسرائيلي، وقد أظهر هذا المصدر أن الإله عادل وشامل وكوني ورحيم وشفوق

على جميع الشعوب، ونظر بعطف ومحبة إلى الغرباء الذين يعيشون في المجتمع العبري، وساوى بينهم وبين العبريين من حيث الحقوق المدنية «ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه. لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر» خروج: ٢٢.

«ولا تضايق الغريب فإنكم عارفون نفس الغريب. لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر» خروج ٢٣.

«مثلكم يكون مثل الغريب أمام الرب. شريعة واحدة وحكم واحد يكون لكم وللغريب النازل عندكم» عدد: ١٥.

«وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمل زوايا حقلك في الحصاد. ولقاط حصيدك لا تلتقط. وكرمك لا تعلله ونثار كرمك لا تلتقط. للمسكين والغريب تتركه. أنا الرب إلهكم

لا تسرقوا ولا تكذبوا ولا تغدروا أحدكم بصاحبه. ولا تحلفوا باسمي للكذب فتدنس اسم إلهك. أنا الرب

لا تغضب قريبك ولا تسلب. لا تبت أجرة أجير عندك إلى الغد. لا تشتم الأصم وقدّام الأعمى لا تجعل معثرة. بل اخش إلهك. أنا الرب. لا ترتكبوا جورا في القضاء.. وإذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه. «وإذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه. كالوطني يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر. أنا الرب إلهكم. لا ترتكبوا جورا في القضاء لا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل. ميزان حق ووزنات حق وإيفة حق وهين حق تكون لكم. أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر. فتحفظون كل فرائضي وكل أحكامي وتعملونها. أنا الرب» لاويين ١٩، وقد تكررت مثل هذه الوصايا في كل أسفار موسى.

- أما التيار، أو المشرع الثاني (ويعود إلى المصدر اليهوي)، فقد تبنى الرب (يَهْوَه) الإله العنصري البدوي المتنقل، وهو الذي أسبغ العنصرية على الديانة اليهودية التي سبق الحديث عنها:

«اتخذكم لي شعبا، وأكون لكم إلها» خروج ٦.

«تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لي كل الأرض. وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة» خروج١٩.

«وواعدك الرب اليوم أن تكون له شعبا خاصا» تثنية ٢٦.

«يقيمك الرب اليوم لنفسه شعبا، وهو يكون لكم إلها» تثنية ٢٩.

«وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض» تثنية ١٤. «وأكون لكم إلها، وأنتم تكونون لي شعبا» لاويين ٢٦.

«أنا الرب الذي ميزكم من الشعوب» لاويين ٢٠.

«أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر ليكون لكم إلها. أنا الرب إلهكم» عدد ١٥.

كما صور هذا التيار، أو المشرع اليهوي، الرب على أنه رب الجنود والحرب المتعطش لشرب الدماء وأكل لحوم الشعوب، لا سيما تلك التي سيكون لها تماس مع القبائل العبرية، وبالأخص الكنعانيين، الأمر الذي يؤكد أن الشريعة قد حررت في مرحلة لاحقة لدخول القبائل العبرانية أرض كنعان، وانكسارهم الحضاري أمامهم، وهذا ما جعل هذا المشرع يصب جام حقده عليهم.

والرب (يَهْوَه)، رب الحرب، والجنود، والدم، والظلم، في هذا المصدر، لا هم له سوى مصلحة شعبه المختار فقط «خذوا باقة زوفا واغمسوها في الدم.. ومسوا العتبة العليا والقائمتين بالدم.. فإن الرب يجتاز ليضرب المصريين. فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب.. فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون.. إلى بكر الأسير في السجن وكل بكر بهيمة» خروج ١٢.

وهذا المصدر هو الذي شرع، وسن القوانين التي تعطي الحق لشعب الله المختار بإبادة وتدمير ممتلكات كل الشعوب، والأمم وبالأخص التي تقيم في بلاد كنعان وهي الأرض التي منحها الرب (يَهْوَه) لشعبه المختار:

«ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين فأبيدهم» خروج ٢٣.

«وكلم الرب موسى قائلا انتقم نقمة لبني إسرائيل من المديانيين» عدد ٣١.

«حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريما الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم» تثنية ٢٠.

«تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء. وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتحرقون سواريهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان.» تثنية ١٢.

«لا تقل في قلبك حين ينفيهم الرب إلهك من أمامك قائلا لأجل بري أدخلني الرب لأمتلك هذه الأرض. ولأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الرب من أمامك ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك ولكي يفي بالكلام الذي أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب. فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة» تثنية ٩.

«وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكا في أعينكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها فيكون أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم» عدد ٣٣.

«لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب.. من أجل إنهم لم يلاقوكم بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر.. لا تكره أدوميا لأنه أخوك. لا تكره مصريا لأنك كنت نزيلا في أرضه» تثنية ٢٣.

والرب، إضافة إلى غيرته وعنصريته الشديدة، وتحيزه لشعبه المختار، فقد كان أيضا شديد الغيرة على نفسه، فلم يكن يتسامح مع أي اعتداء عليه، إلى درجة أنه لم يكن متسامحا حتى مع الأطفال «وخرج ابن امرأة إسرائيلية وهو ابن رجل مصري في وسط بني إسرائيل، وتخاصم في المحلة ابن الإسرائيلية ورجل إسرائيلي. فجدف ابن الإسرائيلية على الاسم وسب. فأتوا به إلى موسى. وكان اسم أمه شلومية بنت دبري من سبط دان. فوضعوه في المحرس ليعلن لهم عن فم الرب. فكلم الرب موسى قائلا أخرج الذي سب إلى خارج المحلة فيضع جميع السامعين أيديهم على رأسه ويرجمه كل الجماعة. وكلم بني إسرائيل قائلا كل من سب إلهه تحمل خطيته. ومن جدف على اسم الرب فإنه يقتل. يرجمه كل الجماعة رجما. الغريب كالوطني عندما يجدف على الاسم يقتل» لاويين ٢٤، كما تم قتل رجل فقط لأنه قُبض عليه، وهو يحتطب يوم السبت المقدس.

وليس من السهولة دائما فرز هذه التشريعات بسهولة بين تياري التحرير، والذين قد يلتقيان في تيار متوسط (المصدر التثنوي).

- أما **المصدر الثالث فهو الكهنوتي**، وهو الجهاز الذي قام بكتابة، أو تدوين التوراة، ولذلك فقد حرص على وضع رجال الدين على رأس الهرم الاجتماعي، بحيث أن الكاهن اليهودي

كان أكثر أهمية من الأنبياء، وإلى هذا المصدر يعود وصف الشريعة التوراتية الموسوية بكونها شريعة، مادية، هضمية، قائمة على تقديم القرابين والأضاحي، وهي التي أسبغت على اليهودية الثقافة الهضمية البدائية، والتي أظهرت أن من أهم متع العبرانيين كان مصدرها حاستي الشم والذوق من خلال الشواء والمحارق، والطبخ وأكل اللحوم في المناسبات الطقوسية، والتي اختص بتقديمها، وحتى بطبخها، أو شوائها، وبالتالي الاستفادة منها، رجال الكهنوت، وقد جعلت تقديم هذه الأضاحي والقرابين حكرا على رجال الدين من أبناء هارون اللاوي ونسله من بعده، وهو ما يعود بالنفع عليهم، وقد فصّلت في مواعيد، وكيفية تقديمها طقوسيا، ومن أهم الحيوانات التي كانت تقدم على المذبح من الأبقار، والخراف، والماعز، والحمام، وحتى العصافير، كما أنها بيّنت أنواع الحيوانات المحرم أكلها، والتي تتماثل على ما هي عليه في الإسلام مع اختلاف بسيط هو تحريم أكل لحم الجمل والأرنب عند اليهود «كل ما شق ظلفا وقسمه ظلفين ويجتر من البهائم فإياه تأكلون إلا هذه فلا تأكلوها.. الجمل.. والأرنب.. والخنزير،.. هذا تأكلونه من جميع ما في المياه».

ومن المعروف أن الجماعات البدائية كانت تتخذ من حيوان ما شعارا لها، وفي بعض الحالات قد يكون الطوطم أحد أنواع النباتات، ومن النادر جدا أن يكون من الجمادات، وكان أفراد القبيلة، أو الجماعة تلتف حول هذا الحيوان الطوطم، ويعتبرونه رمزا مقدسا لهم، بل يعتبرون أنفسهم متحدرين وراثيا من هذا الطوطم أي أن هذا الحيوان الطوطم هو جدهم الأول، كما كانوا يعتقدون أن أكل الطوطم يؤدي إلى موت محتم، أو إلى إلحاق الشر بالشخص الذي اعتدى أو أكل من الطوطم، إلا في بعض الحالات الخاصة، وإذا ما عدنا إلى تحريم أكل هذه الحيوانات التي سبق ذكرها في اليهودية، وإذا ما حاولنا أن نفسر أن تحريم أكل لحم الأرنب جاء بأسباب تتعلق بالأرنب على اعتباره يحيض كالمرأة، ويصرخ عند ذبحه كالإنسان، وتحريم أكل لحم الخنزير على أنه حيوان قذر، فمن الصعب الوقوف على أسباب تحريم أكل لحم الجمل، إلا إذا فسرنا ذلك بأن اليهود كانوا يحتقرون الجمل، كتعبير عن احتقارهم للبدو من العرب (من أبناء إسماعيل)، حيث كان الجمل أحد أهم مصادر رزقهم.

كما صنفت الشريعة الكهنوتية الأضاحي إلى عدة أصناف، ومن أهمها القرابين الاسترضائية، والتكفيرية، وقرابين السلامة، والقرابين النذورية، والإسرارية وهي القرابين التي يشارك الإنسان في تناولها الرب، أو قد تقدّم للرب فحسب، بحيث يتم حرقها تماماً كي يتصاعد الدخان المشبع برائحة اللحم المشوي إلى السماء حيث هناك يشتمه الرب فتهدأ نفسه، ويركد فوران غضبه، كما كان قد حدث بعيد طوفان نوح.

وقد أوردت التوراة أن أول من قدم القرابين هما ابنا آدم: قايين الذي قدم قربانه النباتي كونه مزارعاً، وهابيل الراعي الذي قدم قربانه الحيواني، ولأن العبرانيين كانوا شعبا رعويا، فقد جعلوا الرب يتقبل قربانهم الحيواني، ويرفض قربان المزارع (الكنعاني) دون أي مسوغ أخلاقي، ولأن الكنعانيين المزارعين كانوا قد رفضوا العبرانيين الرعاة، فقد رمزوا إلى ذلك من خلال قتل المزارع للراعي، وهذا ما يسوغ غضب الرب الأبدي على المزارع (الكنعاني)، ويذهب بعض الباحثين إلى أن قبول الرب للقربان الحيواني هو رمز لانتصار النظام الأبوي الرعوي، على النظام الأمومي الزراعي، على الرغم من أن جميع أساطير الشرق التي تتحدث عن الصراع بين الراعي، والمزارع (أسطورة أنكمدو الفلاح ودوموزي الراعي، وأسطورة إيميش الراعي وأنتين المزارع) كان الرب ينحاز فيها إلى جانب المزارع، لأن كتبة هذه الأساطير كانوا من الحضارات الزراعية، على عكس الأسطورة التوراتية التي جعلوا فيها الرب ينحاز إلى الراعي، لأن العبرانين كانوا جماعات رعوية، ومن المنطق أن الراعي هو الذي يقوم بقتل المزارع، لأنه هو الذي يستطيع الهروب من المكان الذي لا يمثل له أي قيمة روحية، أما المزارع فلا يستطيع قتل الراعي، لأنه لا يستطيع الفرار لارتباطه العضوي، والوجداني بالأرض، على الرغم من أن الأساطير التي تتحدث عن الصراع بين الراعي والمزارع لم تنته بجريمة قتل، كما هو الأمر بالنسبة للأسطورة التوراتية، وفي الأسطورة التوراتية، كما هو في الحقيقة يقوم اليهودي (الصهيوني المتنقل) اليوم بقتل (المزارع) الكنعاني، وتقوم الصهيونية بقلب الحقائق بحيث جعلت من الفلسطيني (الكنعاني) إرهابياً وبذلك أحلت عليه لعنة الولايات المتحدة الأمريكية.

كما أن الشريعة التوراتية الكهنوتية التي فصّلت في شرح، وتوصيف كيفية بناء خيمة الاجتماع وتابوت العهد، أتت بتناقض صريح بين التشريع، وبين بناء تابوت العهد، فقد حرّم التشريع الموسوي على العبرانيين تحريما قاطعا في غير مكان من عمل أي شكل من أشكال التصاوير والرسوم والمنحوتات لأي شكل يشبه أي كائن حي، وقد اقتضت أهمية هذا الموضوع بالنسبة لـ (يَهْوَه) أن يتصدر تحريم التصاوير والمنحوتات الوصايا العشر والتي وردت في موقعين هما سفر الخروج ٢٠، وسفر التثنية ٥، وهذه الوصايا تعتبر جوهر التشريع الموسوي: «أنا الرب إلهك فلا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا. اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنيع جميع عملك. وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. أكرم أباك وأمك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تشته بيت قريبك ولا شيئا مما يملك».

كما جاء أيضا «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق ومما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض» خروج: ٢٠.

«فإنكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب في حوريب من وسط النار. لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى شبه بهيمة ما مما على الأرض شبه طير ما ذي جناح مما يطير في السماء شبه دبيب ما على الأرض شبه سمك ما مما في الماء من تحت الأرض» تثنية ٤.

وهذا تماماً يتعارض مع شكل تابوت العهد الذي يظلله طائراً كروب (براقين) على شكل ملاكين مجنحين «وتصنع كروبين من ذهب.. كروبا واحدا على الطرف من هنا. وكروبا آخر على الطرف من هناك.. ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق مظللين بأجنحتهما على الغطاء ووجهاهما كل واحد إلى الآخر» خروج: ٢٥.

وهذا حسب رأي البعض قد اقتبسته الجماعات العبرية أثناء وجودها في مصر، أما البعض فيعتقدون أن اليهود قد اقتبسوه في زمن السبي حين رأى اليهود أبهة المعابد البابلية والمنحوتات التي تزخر بها، فحاولوا تقليدها، وحسب البعض تم اقتباس المعبد والملائكة المجنحة من الكنعانيين، على الرغم من أن المعابد الكنعانية كانت ذات نمط عمراني وفني بسيط، ولم يكتشف أي شيء يدل على معرفة الكنعانيين بالملائكة التي كانت تصوّر على شكل بشري لها أجنحة طيور، وكي يسبغ اليهود صفة الشرعية على هذا النمط وضعه المحررون (الكتبة) في شريعة موسى والتي تشجب هذا العمل، ويعتقد فلهاوزن أن خيمة الاجتماع تم تخيلها من قبل الكهنة في مرحلة ما بعد السبي بعد أن كانوا قد اطلعوا على فخامة المعابد الرافدية.

وقد جاء في سفر عاموس قول الرب «هل قدّمتم لي ذبائح وتقدمات في البرية أربعين سنة يا بيت إسرائيل. بل حملتم خيمة ملكومكم وتمثال أصنامكم نجم إلهكم الذي صنعتم لنفوسكم. فأسبيكم إلى ما وراء دمشق» عاموس ٥، وهذا يجعلنا نتساءل هل كان قوم موسى يتعبدون لملكوم رب العمونيين؟، وهل خيمة الاجتماع هي تقليد ديني عموني، أخذه العبرانيون عنهم؟.

أما بالنسبة لتابوت العهد فيعتقد أنه انتحل من الديانة المصرية، فقد كان كهنة هليوبوليس يحملون في الاحتفالات الدينية أسفاطا صغيرة، وفي داخلها مواد مقدسة، وكانت مزينة بكروبين (براقين)، كما أن بعض القبائل البدوية، ومنهم قبيلة الرولا التي تنتشر في

البادية السورية، ما زالت حتى الآن - عندما تنتقل من مكان لآخر - تحمل على أحد الجمال سفطا يسمى مركبا، يمثل تابوت إسماعيل، ويعتقد أن هذه العادة البدوية تعود إلى أزمان غارقة في القدم، تعود إلى مرحلة تسبق تدوين التوراة، وقد انتقلت تلك العادة إلى قبيلة الرولا بالتواتر، ولكني أعتقد بأن تابوت العهد الذي أتى توصيفه بدقة متناهية في التوراة كان له غاية أخرى، وهي وضع (مومياء) الرب فيها كما سأوضح ذلك لاحقا، وتابوت العهد يشابه إلى درجة التطابق التوابيت التي كان يضع فيها المصريون مومياءات فراعنتهم، وكان الفرعون أثناء حياته يقوم بالإشراف على صناعة تابوته، وبناء مقبرته التي سيدفن فيها بعد الموت.

وإلى جانب كيفية بناء خيمة الاجتماع وتأثيثها، وكيفية صنع تابوت العهد، اهتمت الشريعة الكهنوتية أيضا بتفصيل لباس الكهنوت، وسدنة خيمة الاجتماع التي أنيطت باللاويين، والتي تتماثل مع الملابس التي كان يرتديها كهنة هليوبوليس في مصر،

كما ركّزت الشريعة التوراتية في جانبها الكهنوتي على سن القوانين، وتفصيل دفع الضرائب العينية الضرائب (الزكاة)، وهذه الضرائب تعود بالنفع على الجهاز الكهنوتي، وليس لمصلحة السلطة، وهذا ربما يشير إلى أن الشريعة في مرحلة من مراحل اليهود لم يكن لهم على أنفسهم سلطة سياسية، بل كانت السلطة دينية شعائرية فحسب، وهذا ما يتماشى مع مرحلة سقوط السلطة في مملكة يهوذا على يد الكلدان، أما إذا تبنينا أنها سنت هذه الشريعة في سيناء فإنها تفسر لنا من أين كان موسى وحرسه الخاص يعتاشون.

وأتت الشريعة أيضا على الأحكام التي تنظم العلاقات الاجتماعية، وقانون العين بالعين والسن بالسن، وحكم السرقة والقتل وأحكام الأعمال الزراعية والحصاد، والتي اكتسبوها من الكنعانيين والبابليين، وبينما كانت القوانين والأنظمة البدوية القبلية العشائرية تحث على قتل الآخرين، والاعتداء على ممتلكاتهم، كانت الشريعة الزراعية تحث على أن يتركوا بعض محاصيلهم للغرباء وهي من صفات الرحمة الغريبة في شريعة التوراة المنسوبة إلى النبي موسى، كما حرمت عليهم أن يأكلوا مما تنتجه الأشجار خلال السنوات الأربع الأولى من زراعتها.

ومن الموضوعات التي أتت الشريعة التوراتية على ذكرها في أكثر من موضع هي المحرمات الجنسية، ولا سيما في موضوع الزواج، وقد شكلت هذه الموضوعات، وسواها من الموضوعات الأخلاقية إشكاليات في الشريعة اليهودية، فبينما نظريا سنّ المشرع الكثير من الوصايا ذات الطابع الأخلاقي، فقد كان الرب (يَهْوَه)، والآباء الأوائل والتي تعتبر سلوكياتهم

سننا لأحفادهم، وأتباعهم، قد قاموا بخرقها، وقد جاء «عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجا لا تكشف عورتها» لاويين١٨.

«وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت هي عورته فذلك عار. يقطعان أما أعين بني شعبهما» لاويين ٢٠.

ونحن نعرف أنه جاء في سفر التكوين أن سارة هي أخت إبراهيم من أبيه فقط، فقد جاء في سفر التكوين على لسان إبراهيم لما عاتبه «أبي مالك» لأنه قال له عن زوجته سارة إنها أخته «وبالحقيقية هي أختي ابنة أبي. غير أنها ليست ابنة أمي. فصارت لي زوجة»، وأعتقد أن هذا القول أدخل من قبل أحد المحررين في مرحلة متأخرة أراد فيها أن ينزه إبراهيم من الكذب فأوقعه في خطيئة كبرى، ولم يأت في التوراة أن تارح أبو أبرام كان قد تزوج من امرأتين، كما لم يأت أن له ابنة اسمها سارة، كما لم يأت في غير هذا الموضع أن سارة هي أخت أبرام.

كما جاء أيضا في شريعة موسى «عورة أخت أبيك لا تكشف. إنها قريبة أبيك» لاويين ١٨، وقد أتى أيضا «وأخذ عمرامُ يوكابدَ عمته زوجةً له. فولدت له هارون وموسى» خروج٦، وأعتقد أيضا أنها كانت إدخالاً من قبل المحررين أكثر من أنها كانت مباحة لدي العبرانيين ثم حرمتها شريعة موسى.

كما أتت التوراة على ذكر الأنظمة والقوانين التي تحد من الممارسات الجنسية الشاذة، والتي لا بد أنها كانت منتشرة في المجتمع العبراني في مرحلته البدوية «لا تضاجع ذكرا مضاجعة امرأة.. ولا تجعل مع بهيمة فتتنجس بها ولا تقف امرأة أمام بهيمة لنزائها».

وهناك الكثير من السلوكيات التي قام بها الآباء الأوائل، والتي تتعارض مع ما سنته الشريعة، منها أن يعقوب تزوج من أختين (راحيل وليئة)، ، وعمرام تزوج من عمته، وسواها من القصص، كما أن رواية زنى أمنون باخته غير الشقيقة تظهر أنه لم يكن محرما عند العبرانيين في مرحلة (مملكة إسرائيل الموحدة) أن يتزوج الشاب من أخته غير الشقيقة، وهو ما كان إبراهيم قد فعله أيضا، وهذا ربما يشير إلى أن هذا التشريع سن بعد داود، وسليمان، ومن القصص التي تتعارض مع ما سنته الشريعة قيام يهوذا بالزنى من كنته، كما أن أبشالوم زنى بزوجات أبيه، رأوبين زنى بخالته زوجة أبيه.

ومن الأمور المهمة التي تناولتها الشريعة التوراتية أيضا النجاسة والطهارة، بل إن الشريعة اليهودية أولت الكثير من الاهتمام بشرح كيفية ممارسة طقوس التطهر الكهنوتي، وذلك يعود إلى أن اليهود كثيرا ما ينتهكون (التابو) بطريقة إرادية، بمعناه المادي، والروحي، والذي يتم التطهر منه من خلال القرابين، وفي الوقت نفسه فإن اليهودية

جعلت النجاسة تأتي لا من التلوث الخارجي، بل من بعض التطورات الطبيعية الفيزيولوجية، كما هو الأمر في الحيض عند المرأة التي حطّت الشريعة التوراتية من شأنها، بل واعتبرتها نجسة في أثناء الطمث، والنفاس، وفي حال إصابتها بالتهابات في أعضائها الجنسية، ومن الطريف ذكره أن المرأة حسب الشريعة التوراتية تكون نجسة لمدة سبعة أيام إذا ما ولدت ذكرا، على أن تقيم ثلاثة وثلاثين يوما في دم تطهيرها، أما إذا ما ولدت أنثى فتكون نجسة لمدة أسبوعين وتقيم بعدها ستة وستين يوما في دم تطهيرها، والمرأة عندما تكون نجسة فإن عليها أن تحتجب عن رؤية الرجال نهائيا كما هي أيام العدة في الإسلام، أي عليها أن تعتزل عالم الرجال وتعيش في خباء أو خيمة منعزلة، وهذه القوانين المفروضة على المرأة عرفت كما هي في التوراة عند الكثير من الشعوب البدائية، التي جعلت المرأة، تابعة للرجل، ليس لها شخصية مستقلة، وحتى أنها غير ملزمة بأداء الطقوس الشعائرية الدينية، وقد أسست التوراة لذلك منذ وجودها الأول، فقد جاء في سفر التكوين أن الرب قام بخلق آدم، ثم «قال الرب الإله ليس جيدا أن يكون آدم وحده. فأصنع له معينا نظيره» تكوين ٢، وهكذا فالمرأة لم تخلق إلا من أجل أن تطرد الملل، ومن أجل فقط ألا يشعر آدم بالوحدة، وبذلك فهي كائن ثانوي بالنسبة لآدم، وبالتالي فإن مصيرها مرتبط بمصير آدم التي خلقت من جزء صغير منه، بينما كان الرب قد خلق آدم ونفخ في أنفه الحياة.

وإضافة إلى أن ثانوية حواء تكوينيا بالنسبة للرجل، فهي أيضا التي تسببت في حادثة الطرد من الجنة، لأنها هي من سمعت لوساوس الشيطان وانتهكت ما حرم الرب عليها، وعلى آدم، ولذا فقد ارتبطت المرأة بالشيطان، كما ارتبطت باللعنة، وبالأفعى أيضا، لأنها هي التي جعلت آدم يرتكب الخطيئة الأصلية.

وفي الوقت الذي قامت به الشريعة التوراتية بالحط من شأن المرأة، فإنها رفعت من شأن الرجل، أما أعضاؤه التناسلية، وتحديدا القضيب فقد كان لها موقفان منه:

الأول هو أن القضيب رمز الرجولة، وبما أن (يَهْوَه) ربا ذكوريا، فإن للقضيب رمزا ربوبيا، ومن هنا فإن أي تشوه في الأعضاء التناسلية الذكرية (في القضيب، أو الخصي) فإن ذلك يفقد الرجل قدسيته، وتجعله شخصا مدنسا، ولذا يحرم عليه الدخول إلى هيكل الرب، كما أن توقيع العقد بين الرب (يَهْوَه) والفرد يتم من خلال سيلان الدم الطاهر من القضيب أثناء عملية الختان، وهناك من يعتقد أن النصب المخروطية التي قام الآباء الأوائل ببنائها من الحجارة في بلاد كنعان، في الأماكن التي ظهر لهم الرب فيها

كانت تمثل رموزا قضيبية، وكانوا يقومون بالتعبد لها، على اعتبار أنها تمثل الرب الفحل، وأصحاب هذا الافتراض يدعمون افتراضهم بادعائهم أن بعض اليهود يمسكون بقضيبهم عندما يقسمون، وهو أمر طريف، ولكن لا يمكن الإقرار بما أتى المؤولون به، على الرغم من أن تأويلهم هذا لا يخرج عن المنطق، والمتوقع عندما نأخذ بالحسبان أن اليهودية ديانة قبلية، والقبلية تعتبر القضيب رمزا رجوليا، وبطريركيا، وهو، أو عبره، أو من خلاله تتكاثر القبيلة.

أما الموقف التوراتي الثاني، فتأتى من كون القضيب أحد أبطال الخطيئة على اعتبار أنه هو الذي أغوى حواء وجعلها تقع في الخطيئة، والذي رمّز له على أنه الأفعى (الشيطان) التي وسوست لحواء، ولذا فلا بد من عقوبته التي تتمثل في الختان، وهو الطقس الذي يعيد الطهارة إلى الجسد الذي كان قد تلوث بالخطيئة الأصلية، والذي في الوقت نفسه يعتبر توقيع العقد بين الرب والفرد، وقد سنت الشريعة هذه الشعيرة في اليوم الثامن للولادة، أي في اليوم الأول من بداية الأسبوع الثاني للولادة، وهو يرتبط بأيام التكوين السبعة، وبداية الحياة في اليوم الثامن من بدء أيام التكوين.

والختان عملية دينية بدائية كانت منتشرة في سوريا (عرب - موأبيون - عمونيون - أدوميون)، وكذلك الأمر عند الكهنة المصريين، ولكن، وحسب التوراة، فإن الكنعانيين (وشعوب بلاد الرافدين) لم يكونوا يختتنون، ويرى هيرودوت أن الختان عادة صحية قديمة كانت منتشرة في مصر، وانتقلت من هناك إلى باقي مناطق الشرق الأدنى، وهناك افتراضات كثيرة لتفسير هذه العادة، وأنا أعتقد أن الختان، إضافة إلى كونه عادة صحية لها دور في التدخل بالحياة الجنسية، من خلال تعديل الاستثارة الجنسية الفيزيولوجية حيث يؤدي الختان إلى رفع عتبة الاستثارة الجنسية، وهذا يشكل الهدف الرئيسي للختان في وادي النيل وأفريقيا الحارة، ولا سيما عند النساء (لضبط رغبتها الجنسية، أو لقمعها) أي وظيفتها تخفيض الليبدو، أما في الشرق الأدنى القديم، فإني أعتقد أن أهم دور كانت تقوم به هو اعتبارها هوية سرية للتعارف بين أفراد جماعات معينة، فقد كانت الشعوب القبلية البدائية التي تتكاثر وتتباعد وتتناثر تجعل لها وسيلة تعارف من خلال علامة ما قد تكون وسما معينا لا سيما على الوجه والأماكن الظاهرة من الجسم، والبعض في أماكن مخفية وهذا يتبع حالة الأمن بالنسبة للقبيلة، وعلاقتها مع القبائل الأخرى، أو من خلال لبس أو وضع علامات غير ثابتة على الأجسام كالحلي، أو الأقراط، أو الأطواق أو الأساور، أو تصفيفة شعر، أو لبس زي معين، يعبر من خلاله المرء على هويته، أو على انتمائه إلى جماعة، أو فئة، أو معتقد ما،

وكانت بعض القبائل في أمريكا اللاتينية تقوم بخلع السنين العلويين للطفل الذكر حين وصوله إلى سن الشباب، الأمر الذي كان يشكل علامة تعارف كما كان يشكل تشابهاً في الوجه عند أبناء القبيلة، وهناك عدة وسائل رمزية كانت تعبر عن مجموعات معينة، ومنها التصورات الطوطمية، والتي تطورت عنها الشعارات، على العملات والرايات التي يلتف المجتمع حولها، والتي تعتبر رموزا مقدسة، وتقوم الجماعات بصنع الأساطير التي تحاول من خلالها تفسير تقديس هذه الرموز، وهناك الكثير من هذه المسالك التعارفية القديمة ما زالت مستمرة حتى الآن، وبأشكال متعددة، فكثيرا ما نرى مجموعات من الشباب الذين ينتمون إلى مجموعات ثقافية، أو اجتماعية معينة يلبسون زيا موحد، أو يقومون بقص شعورهم بطريقة متشابهة.

وعودة إلى الختان الذي يعتقد بعض الباحثين أنه عبارة عن عادة طقسية احتفالية حقوقية يخضع لها الشاب حين وصوله مرحلة البلوغ، ويرى البعض أنها استبدال لتقديم الأضاحي البشرية التي كانت سائدة لدى بعض الشعوب، ويرى البعض أنها عملية تكفير (عقاب) عن الخطيئة الأصلية، وعن الخطيئة الفردية التي يشعر بها الرجل بعد عملية الجماع.

ومن هنا فقد كان للختان عدة وظائف، وعلى ما أعتقد فإن الوظيفة الأهم لعملية الختان عند العبرانيين، هي وظيفة تعارفية سرية (كما لو أنها وسم سري)، فقد كان العبرانيون مكروهين، ومحتقرين، ومحل ازدراء من قبل الشعوب التي كان يعيشون بين ظهرانيهم، وهو ما لم تستطع أن تخفيه التوراة، في سياق سردها لقصة يوسف، لذا فقد كان العبرانيون يتعارفون فيما بينهم، وبطريقة سرية من خلال الختان، وقد تمسك العبرانيون واليهود من بعدهم بهذه الشعيرة، واعتبروها شعيرة دينية، وعرقية خاصة بهم ليتعارف بها أبناء العبريين ببعضهم، وليتعرف عليهم الرب أيضا، لا سيما وأن الكنعانيين لم يكونوا يختتنون، وبذلك فإن علامة الختان كانت تميزهم عن الكنعانيين (الغلف)، وقد أرجعت التوراة هذه الشعيرة إلى الآباء الأوائل.

وإلى جانب ذلك فقد قامت عادة الختان في اليهودية بوظائف متعددة، منها دورها الطوطمي، والتابوي، بحيث إنها تشكل طهارة وخلاصاً من فعل الإثم الأول (الخطيئة الأولى) الذي مارسه آدم في الجنة مع حواء التي أغوته كما أراد لها الشيطان ذلك، وحسب ما يمكن استقراؤه من التوراة، فقد مر العبرانيون بفترات أهملوا فيها هذه الشعيرة، ففي سيناء، وفي عصر موسى تحديدا لم يكن العبرانيون يختتنون، على الرغم من أن التوراة تعيد الشريعة إلى

موسى، وما يؤكد ذلك هو أن يشوع قام بختن جميع من كانوا معه بعيد دخوله إلى بلاد كنعان، وهذا يجعلنا نعتقد أن شعيرة الختان أضيفت إلى شريعة موسى في مرحلة لاحقة، لأنها لو سنت تلك الشعيرة في سيناء، فلا بد أن موسى سيأمر بختن أتباعه.

وقد رفضت المسيحية هذه الشعيرة لأنها شعيرة أثنية قبلية، وبما أن المسيحية ديانة عالمية فقد استبدلت هذه الشعيرة بالعمادة التي تقوم بدورين طهاري من الخطيئة الأولية (ختان مائي)، وبداية جديدة لحياة جديدة من أجل الدخول في ملكوت الله.

وإلى جانب الطهارة الطقوسية المثيولوجية الأبدية اليهودية التي تتم من خلال الختان، والطهارة الإثمية التي تتم من خلال تقديم الأضاحي التكفيرية، فإن الطهارة الجسدية من الدنس المادي تتم بالاغتسال بالماء الطاهر، ولكن بين هذا وذاك هناك الطهارة الطقوسية التي تتم من خلال الدم، والذي يمكن اعتبار الختان الجراحي نمطا من أنماط هذه الطهارة، وأول استخدام طقوسي للدم كان حين طلب الرب (يَهْوَه) من بني إسرائيل أن يصبغوا قوائم أبواب منازلهم بالدم كي يستطيع أن يتعرف عليها الرب أثناء قيامه بقتل بكور المصريين ليلة خروج بني إسرائيل من مصر، وقد جعل اليهود من هذه الحادثة طقسا سنويا، وفريضة أبدية، وقد طور التلمود شعيرة التطهر بالدم بحيث أصبح صنع الفطير الطقوسي اليهودي يتم من خلال وضع دم إنسان على الطحين، ومن ثم يتم خبزه فطيرا كي يتناوله الكهنة، أو بعض الكهنة في عيد الفصح، كما أن بعض الأضاحي يتم رش دمها على الكهنة من أجل أن يتطهروا «تذبح الكبش وتأخذ من دمه وتجعل على شحم آذان بنيه اليمنى وعلى أباهم أيدهم اليمنى وعلى أباهم أرجلهم اليمنى. وترش الدم على المذبح من كل ناحية. وتأخذ من الدم على المذبح من كل ناحية. وتأخذ من الدم الذي على المذبح ومن دهن المسحة وتنضح على هارون وثيابه وعلى بنيه وثياب بنيه معه» خروج ٢٩، وكان موسى قد قام برش الشعب بالدم دلالة على توقيع الاتفاق بين الرب (يَهْوَه) والشعب، ومن الطرق الأخرى للتطهر ما قام به موسى حين قام بسحق ذهب العجل الذي عبده بنو إسرائيل في سيناء أثناء صعود موسى إلى جبل سيناء لتلقي الشريعة من الرب (يَهْوَه)، وقام بمزجه بالماء وجعل الشعب يشرب منه، وفي رواية ثانية قام برشه على الشعب كي يتطهروا من خطيئتهم.

كما جاء في الشريعة أيضا أن رماد بعض القرابين التي تقدم على المحرقة يجمع ليتطهر به الكهنة، ومن الأمثلة على ذلك التطهر برماد البقرة الحمراء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، في السورة التي حملت اسمها، سورة البقرة، التي بيّنت أيضا العقلية والخطاب اليهودي الجدلي المراوغ الذي لا يمكن الوصول معه إلى نهاية

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ۝ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا ما هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ ما تُؤْمَرونَ۝ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا ما لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ۝ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا ما هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ۝ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ۝ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ ما كُنتُمْ تَكْتُمُونَ۝ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۝﴾ سورة البقرة الآيات ٦٦-٧٣.

والآية (حسب المفسرين) تحكي عن أن بني إسرائيل في عهد موسى وجدوا شخصا مقتولا، فطلب بنو إسرائيل من موسى أن يطلب من الله أن يبين لهم من هو قاتله، فطلب منهم ذبح هذه البقرة وقام بضرب القتيل بالبقرة المذبوحة فعاد إلى الحياة ونطق باسم قاتله ثم مات ثانية، ويقول التشريع الموسوي كما جاء في التوراة إنه إذا ما وُجد شخص مقتول في العراء، فعلى أقرب قرية له أن يأتوا ببقرة ويذبحونها بحيث يسيل دمها في النهر، ويقوم أهل القرية بغسل أيديهم بماء النهر ويقسمون أنهم لم يقوموا بقتل هذا الشخص فيتبرؤون من دمه.

أما ما يتعلق بهذه البقرة كهنوتيا، فهو مرتبط بمس الجثث، فحسب التوراة، تعتبر الجثث عند اليهود نجسة، وأي شخص يمس جثة يهودي ميت يصبح نجسا حتى يتطهر، ولا يتطهر اليهودي من نجاسة الجثة إلا برماد البقرة الصغيرة الحمراء المقدسة، والتي يتم الحصول على هذا الرماد المقدس من خلال حرق البقرة الحمراء المقدسة، والتي يجب أن تكون حمراء بشكل كامل، ووجود شعرة واحدة ذات لون آخر يفسد قدسيتها، كما يجب أن تكون صغيرة في العمر، ولم يكن قد وضع عليها نير، فبعد التأكد من أن البقرة مستوفية للشروط من حيث لونها، وعمرها، وصحتها، يتم ذبحها، ثم حرقها بشكل كامل، ثم يوضع على رمادها خشب أرز وزوفا وقرمز، ومن ثم يتم جمع رمادها وحفظه في مكان طاهر ليتطهر به «كل من مس ميتا ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر ينجس مسكن الرب. فتقطع تلك النفس من إسرائيل. لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة. نجاستها لم تزل فيها» عدد ١٩: ١٣.

ويتم التطهر بأن يأخذ رجل طاهر «من غبار حريق ذبيحة الخطية ويجعل عليها ماء حيّا - طاهرا أو نظيفا - في إناء. ويأخذ رجل طاهر زوفا ويغمسها في الماء.. ينضح الطاهر على النجس في اليوم الثالث واليوم السابع. ويطهره في اليوم السابع» عدد ١٩: ١٧.

«وأما الإنسان الذي يتنجس ولا يتطهر فتباد تلك النفس من بين الجماعة لأنه نجس مقدس الرب. ماء النجاسة لم يرش عليه. إنه نجس. فتكون لكم فريضة أبدية» عدد: ١٩: ٢٠.

وفي هذا السياق فقد اهتمت الشريعة التوراتية بوضع أسس لطرق العزل والحجر الصحي، لا سيما وأن العبرانيين كانوا قد أصيبوا، حسب ما يعتقد الكثيرون، بعدة أمراض معدية بعد خروجهم من مصر، أبادت منهم الكثير ولا سيما من صغار السن، الأمر الذي ساهم بتناقص عدد أفراد قوم موسى خلال أربعين سنة بدل الزيادة الطبيعية لكل مجتمع، ومن أهم الأمراض التي أصابتهم هو مرض الجذام، وهذا المرض كان يعتبره اليهود عقوبة إلهية لخطيئة ارتكبها الإنسان، ومن هنا فإن مريم أخت موسى عوقبت بالجذام لأنها كانت تنم على موسى، وبذلك فكان الجذامي محل كراهية من قبل المجتمع، ولذا يجب طرده، أو عزله عن المجتمع، وقد وضع له المشرع التوراتي أسساً للحجر والعزل الصحي، وسآتي لاحقا على ذكر النظريات التي تذهب إلى أن قوم موسى كانوا مرضى بالجذام، وقد هربوا، أو طردوا من المحجر بقيادة النبي موسى.

إن الشريعة الموسوية، وتحديدا الوصايا العشر منها، تعتبر حسب العقيدة اليهودية قوانين لتنظيم العلاقات فيما بين قوم موسى، ولا يخضع لها الأفراد من غير الشعب المختار (العين بالعين والسن بالسن، تحريم الربا والرشوة، قوانين الزنا والفواحش والشذوذ)، أما العلاقات التي تنظم علاقات قوم موسى مع غيرهم من الأمم والشعوب المختلفة من غير اليهود فجوهرها قائم على ما تمليه مصلحة اليهودي الشخصية، أو المصلحة العامة لأبناء جلدته، بغض النظر عن أي وازع أخلاقي، فلا تسرق، أمر ينهي اليهودي من سرقة يهودي آخر، في الوقت الذي تبيح القصص التوراتية سرقة الشعوب الأخرى، وخير مثال على ذلك أن الرب طلب من موسى أن يأمر جماعته سرقة المصريين قبل أن يخرجوا هروبا أو طردا من مصر، ولا تقتل، أمرا يعني تحديدا (لا تقتل يهوديا)، في الوقت الذي حرض (بل وأمر) فيه المشرع التوراتي على قتل أي إنسان من غير اليهود، وخير مثال على ذلك ما قام به موسى حين قتل مصريا استنصارا ليهودي آخر، ودون أي وازع أخلاقي، وكثيرة هي الأمثلة التي تظهر أن الأوامر والنواهي التوراتية تختص فحسب بشعب الله المختار «لا تقرض أخاك بربا.. للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا» تثنية ٢٣، «لا تغضب قريبك.. بالعدل تحكم لقريبك.. لا تَسْعَ في الوشاية

بين شعبك. لا تقف على دم قريبك.. لا تبغض أخاك في قلبك.. لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك» ، «لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا» تثنية ٢٣ ، «لا تغضب قريبك ولا تسلب.. بالعدل تحكم لقريبك.. لا تَسْعَ في الوشاية بين شعبك. لا تقف على دم قريبك. أنا الرب. لا تبغض أخاك في قلبك. إنذارا تنذر صاحبك ولا تحمل لأجله خطية. لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك بل تحب قريبك كنفسك» لاويين ١٩.

وجزء من الوصايا العشر التي تتشابه مع اللفائف (إعلان البراءة) التي كان يضعها المصريون القدامى مع الميت في قبره {لم أظلم أحدا ، لم أسرق، لم أطمع في شيء، لم أقتل إنسانا ، لم اعتد على أحد ، لم أكذب، لم أزن} ، وفي نص آخر {لقد جئت إليك أجلب الحقيقة ، وأطرد الخطيئة ، إنني لم أقارف الشر، ولم أعتد ، ولم أسرق، ولم أقتل غدرا ، ولم أمس القرابين، ولم أكذب، ولم أسلّ دموع أحد ، ولم أتدنس، ولم أذبح الحيوانات المقدسة ، ولم أتلف أرضا مزروعة ، ولم أقذف، ولم أترك الغضب يخرجني إلى غير الحق، ولم أزن، ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل، ولم أسئ الظن بالملك، ولا بأبي، ولم ألوث الماء، ولم أحمل سيدا على أن يسيئ إلى عبده، ولم أحلف كاذبا ، ولم أسد قناة ري على غيري، ولم أطفئ نارا يجب أن تشتعل، ولم يخطر على بالي أن استخف بالآلهة... إني طاهر.. طاهر} ، ونلاحظ هنا أن الميت ينفي أن يكون فَعَل أي شيء مما كان الإله قد نهى عنه ، ولأن اليهودية لم يكن لديها معتقد واضح حول العالم الآخر، فقد أتت الوصايا (الأوامر والنواهي)، على صيغة أمر ونهي يجب الالتزام بها في الحياة الدنيا ، كما أنها تعبر عن الذهنية القمعية الديكتاتورية في خطاب الديانة اليهودية.

أما الوصايا العشر البوذية فتقول {لا تقتل أحدا. لا تسرق، ولا تغتصب، لا تأخذ ما لم تعط. لا تكذب. لا تشرب خمرا ، ولا تتناول مسكرا. لا تزن، ولا تخالف العفة. لا تأكل طعاما نضج قبل أوانه. لا تتخذ طبيبا ، ولا تكلل رأسك بالزهر. لا ترقص، ولا تحضر مرقصا ، ولا حفل غناء. لا تقتن فراشا ، ولا أرائك فخمة ، ولا وسائد ، ولا حشايا وثيرة. لا تأخذ ذهبا أو فضة}.

وكما ذكرنا سابقا فإن هذه الشريعة هي نتاج مرحلة طويلة من التطور في العادات والتقاليد ، وأصبح هناك إجماع بأن لا شيء من شريعة النبي موسى التي تلقاها على جبل سيناء في التوراة غير الوصايا العشر، لكن لودز فيذهب في كتابه إسرائيل إلى أنه {إذا أمعنا النظر بدقة في العهد القديم نجد أن الوصايا العشر أدخلت في سفر الخروج وسفر التثنية في وقت متأخر حيث ظهرت في الكتابات اليهودية في القرن السابع قبل الميلاد} ، أما من يعتبر أن

الوصايا العشر هي نواة الشريعة الموسوية، وهي فقط التي تلقاها موسى على جبل سيناء، فهم يذهبون إلى أن الشريعة الموسوية قد اقتبسها اليهود بعد اطلاعهم على العادات والنظم والشرائع الكنعانية، ومن بعدها الشرائع الرافدية وبالذات شريعة حمورابي، والتي في أغلب بنودها تم نقلها حرفيا، وبعض بنودها تم تهويده، وبشكل عام يمكن القول أن المبادئ الرئيسية في كلا الشريعتين متطابقة تماماً، ومن أهم نقاط التشابه هي:

شريعة موسى	شريعة حمورابي
«إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً»	«إذا وقع رجل في دين، وأعطى زوجته أو ابنه أو ابنته بدلاً من الفضة، فعليهم أن يخدموا ثلاث سنوات في منزل من اشتراهم، أي سيدهم، ثم يستردون حريتهم في السنة الرابعة
خروج ٢: ٢١	مادة ١١٧.
«من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلاً»	«إذا ضرب ابن أباه تقطع يده»
خروج ١٥: ٢١	مادة ١٩٥.
«إذا تخاصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو بلكمة ولم يقتل بل سقط في الفراش، فإن قام وتمشى خارجاً على عكازه يكون الضارب بريئاً إلا أنه يعوض عطلته وينفق على شفائه»	«إذا ضرب رجل رجلاً آخر في شجار وجرحه، فعلى الضارب أن يحلف قائلاً: إنني لم أضربه عمداً، و يتكفل بنفقات الطبيب»
خروج ١٨: ٢١ و ١٩.	مادة ٢٠٦.
«إذا تخاصم رجال وصدموا امرأة حبلى فسقط ولدها ولم تحصل أذية، يغرم كما يضع عليه زوج المرأة ويدفع عن يد القضاة»	«إذا ضرب رجل امرأة و تسبب في إجهاضها، فعليه أن يدفع عشرة شواقل فضة تعويضاً لها»
خروج ٢٢: ٢١	مادة ٢٠٩.
«عيناً بعين، و سناً بسن،	«إذا فقأ رجل عين رجل، تفقأ عينه»
	مادة ١٩٦

شريعة موسى	شريعة حمورابي
و يداً بيد و رجلاً برجل»	و « إذا كسر عظمة لرجل حر، تكسر له عظمة»
خروج ٢٤: ٢١	مادة ١٩٧
	و «إذا كسر رجل سن رجل من نفس طبقته، تخلع له سن»
	مادة ٢٠٠.
«إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه، وأما صاحب الثور فيكون بريئاً. ولكن إذا كان ثوراً ناطحاً من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلاً أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضاً يقتل... إن نطح الثور عبداً أو أمة. يعطى سيده ثلاثين شاقل فضة، والثور يرجم»	«إذا نطح ثور أثناء سيره في الشارع رجلاً فقتله، فلا وجه لتقديم مطالبات من أى نوع. أما إذا كان الثور ناطحاً من قبل، وتبينت لصاحبه هذه الحقيقة، ومع ذلك لم يكسر قرونه أو يربطه، فإذا نطح هذا الثور رجلاً حراً فقتله، فعلى صاحب الثور أن يدفع ثلاثين شاقلاً من الفضة. أما إذا نطح عبداً فيعطى سيده عشرين شاقلاً من الفضة».
خروج ٢٨: ٢١ - ٣٢.	مادة ٢٥٢: ٢٥٠.

وقد جاء في دائرة المعارف الكتابية، والتي أتت على ذكر هذه التشابهات، قولها {و لا نستطيع الجزم بأن التوافقات التي عرضناها قد جاءت نتيجة مصادفة عشوائية، كما لا نستطيع القول بأنها منقولة مباشرة عن قوانين حمورابي، لأن شريعة موسى لها طابع خاص يحمل صبغة الثقافة الإسرائيلية، بالإضافة إلى وجود اختلافات واضحة عديدة.

و كما سبق أن ذكرنا، كانت بلاد الأموريين - لفترة طويلة - خاضعة لبابل، فلا شك أنه قد وصل إليها القانون البابلي. وعندما اتصل الإسرائيليون بالحضارة البابلية بعد دخولهم إلى أرض كنعان (وهي جزء من بلاد الأموريين القديمة)، كان من الطبيعي أن يستخدموا ما أفرزته تلك الحضارة، مما وجدوه فيها نافعاً لهم وهنا لا يستطيع أحد - تحت أي ظروف - أن يفترض وجود اقتباس مباشر، فهناك أجزاء بارزة في شريعة موسى، وبخاصة الوصايا العشر (خروج ٢٠) - لا سيما في إيجازها الواضح - لا نجد لها مثيلاً في قوانين حمورابي}.

تفسير المعجزات

لقد دأب الباحثون التوراتيون على تقديم ما استطاعوا من الحجج والبراهين التي يمكن أن تؤكد مصداقية المقولة التوراتية، وفي سياق ذلك حاولوا أن يجدوا تفسيرا علميا لما جاءت به التوراة، من خوارق، لا يقبل بها العقل الحديث، فعلى سبيل المثال فإن العالم كولن همفرس، يذهب إلى أن المصائب التي حلت في مصر، والتي تزامنت مع مرحلة الخروج كان سببها انفجار بركان هائل في جزيرة ثيرا في البحر الأبيض المتوسط في نهاية القرن السابع عشر قبل الميلاد، وهو أدى إلى تفتت الجزيرة، وتشكيل سحب من الغيوم البركانية، وأدى نزول مطر حامضي كبريتي، أثّر في الحياة النباتية لحوض البحر الأبيض المتوسط، كما ربط البعض هذا الحدث، مع مرحلة اجتياز البحر، من خلال حدوث مد مفاجئ تزامن مع لحظة مرور الجيش الفرعوني وهم يلاحقون بني إسرائيل الذين كانوا مروا عبر المخاضات المائية، ووصلوا إلى بر الأمان، وهناك الكثير من الافتراضات التي سآتي على ذكرها في بحث لاحق.

وأنا اعتقد أن تلك المصائب ما هي سوى ظواهر طبيعية كانت تمر بها بلاد النيل، في بعض السنوات العاصفة، والتي كان يفيض فيها النيل، وتتحول مياهه إلى لون ضارب للحمرة بسبب اختلاطها بالأتربة ذات اللون الأحمر، كما يترافق ذلك مع حدوث الأعاصير، والرياح المحملة بالغبار، والرمال، والتي كانت تقود أسراب من الجراد، والبعوض، والأوبئة التي كانت تحصد الكثير من الأرواح ولا سيما من الأطفال، وقد حفظ العبريين في ذاكرتهم هذه الأحداث التي كثيرا ما تتكرر في مصر، وأحالوها كعادتهم إلى الرب (يَهْوَه).

أما كيف حوّل موسى المياه المرة إلى ماء حلو في منطقة مارة، فيقولون إن في مارة ينابيع ذات مياه مرة المذاق بسبب احتوائها على كمية كبيرة من كبريتات الكالسيوم، وإضافة مادة حامض الإكساليك يؤدي إلى ترسب كبريتات الكالسيوم، وبذلك تخلّص المياه من طعمها المر، وقد كان بدو المنطقة يتخلصون من طعم المياه المر بوضع أغصان شجرة معروفة تسمى (الواح) يحوي نسغها على حامض الإكساليك، وقد قام موسى بخبرته بهذا العمل، وحول المياه ذات المذاق المر، إلى مياه حلوة مستساغة، ويمكن تقبل طعمها.

أما بالنسبة للمن ففي سيناء ينبت صنف من نبات الاثل، وهو يفرز في فصل الربيع سائلا حلوا، وحين يجف على النبات يصبح على شكل حبيبات بيضاء كروية الشكل، ويقوم البدو بلم هذه الكرات، وأكلها، وحتى بيعها في أسواق المدن.

أما بالنسبة للسلوى، فمن المعروف أن طيور السمان تتجمع في أفريقيا في فصل الربيع، وتبدأ هجرتها نحو أوربا، وعندما تصل إلى سيناء تكون منهكة القوى إلى درجة أن سكان سيناء في بعض السنين يتمكنون من التقاطها بأيديهم، أما كيف تسمم جماعة موسى بطائر السمان، فيذكرون أن طائر السمان في طريق رحلته يحط في السودان، وهناك يتغذى على حبوب نباتية سامة للإنسان، وهي التي أدت إلى موت من تناولها من جماعة الخروج.

أما كيف قام موسى بضرب الصخرة على جبل حوريب (جبل سيناء) فانفجر الماء منها، فيرون أن مياه الأمطار تتجمع عند سفوح الجبال تحت طبقة رقيقة من الرمل الهش، وإذا ما كسرت هذه الطبقة سال الماء منها.

أما بالنسبة لتفسير (العليقة التي تضيء ولا تحترق) فيذهب سيد القمني أن هناك خنفساء تدعى المانجروف تضيء في الليل (قنديل الحصادين)، فإذا تجمعت على الأشجار فإنها ستضيء ولا تحترق، وهناك تفسير آخر يسوقه سيد القمني، حيث يقول إن هناك شجرة تدعى في سيناء عليقة موسى وهي ترسل خيوطا زيتية تنعكس عليها إضاءة الشمس فتبدوا الشجرة متوهجة، وتكثر هذه الظاهرة في الطقس الرطب، كما أن هناك ظاهرة جوية تدعى هالات القديسين سببها وجود كهرباء استاتيكية في الجو تظهر في الأثير المحيط بالمرتفعات، والمناطق الرطبة، حيث تظهر هالات مضيئة حول الأجسام النافرة أو الناتئة فوق الأرض، وبذلك قد تبدو بعض الأشجار مضيئة، كما ساق مثالا آخر هو وجود بعض النباتات الفطرية والأشجار والتي تصاب ببعض أنواع البكتيريا فيؤدي التفاعل بين النبات والبكتيريا إلى انبعاث شحنات ضوئية منتظمة نابضة تجعل النبات كما لو أنه مضاء، ولا أعلم لماذا لم يذهب إلى أن تلك الشجرة كانت تبدو مضيئة ولا تحترق بسبب البروق، وكان هناك شجرة بعينها لها وضع جغرافي معين وكان البرق يظهرها تضيء ولا تحترق.

ويرى سيد القمني أن معجزات سيناء الانتقامية من بني إسرائيل إنما كانت عبارة عن ثورات بركانية أحرقت خيام قوم موسى كما جاء في التوراة، كما قادت هذه الثورات البركانية إلى حدوث هزات وزلازل أرضية وانهدامات أدت إلى ابتلاع بعض جماعات موسى على حين غرة، (ومنهم قورح = قارون الإسلامي)، ولكنه يقول {لكن المحبط تماماً هو تأكيدات الباحثين التوراتيين أن سيناء لم تكن يوما مسرحا لأي ظواهر بركانية من أي نوع، وكان ذلك التأكيد مدعاة لارتباك طويل عانيناه أثناء مشاق هذا العمل.. ولم يعد أمامنا بإزاء كل المعطيات، سوى الإصرار على أن جبلي موسى وكاثرين كانا بركانيين فعلا، ومن ثم كانت رحلتنا القاسية في ظروف أقسى، مع ظروف صحية أشد قسوة، إلى المكان، لكنها كانت كافية للقناعة أن الجبلين كانا إضافة لجبل الطور غربا جبالا بركانية بالفعل}.

الأرض الموعودة:

لقد رأينا في سفر التكوين أن الإله إيل كان يذكر الآباء الأوائل بالوعد بالأرض كلما انتقلوا أو ارتحلوا من مكان لآخر، وقد توقف عن التذكير بالوعد بعد أن انتقل يعقوب وأبناؤه من ضنك العيش في بلاد كنعان التي كانت تعاني كسواها من أقاليم الشرق العربي من القحط والجفاف إلى بحبوحته في مصر في ظل الجاه والعز الذي وصل إليه يوسف ابن يعقوب الذي كان يركب في المركبة التي تلي الفرعون مباشرة، ولكن وبعد موت النبي يوسف، وبتغيّر صروف الزمان، بدأت معاناة (شعب الله المختار) تزداد يوما إثر يوم «وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات. فتتهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا. فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية. فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب. ونظر الله بني إسرائيل وعلم الله» خروج ٢.

هكذا عاد التأريخ العبري للبروز ثانية بعد غياب قرابة أربعة قرون من الزمان، على يد الرب (يَهْوَه) الذي انتحل شخصية إله الآباء الأوائل «ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب. وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء. وأما باسمي (يَهْوَه) فلم أعرف عندهم» خروج ٦، وقد التزم الرب (يَهْوَه) بما كان الإله إيل قد وعد به الآباء الأوائل، فوضع سياسة أو خطة لتحرير الشعب المختار من مستعبديه في مصر، وبعد أن نجح الرب (يَهْوَه) بذلك من خلال اعتماده على وكيله موسى وتابع معه، ومع أتباعه الطريق الطويل عبر سيناء إلى الأرض التي وعد آباءهم بها، والتي في البداية لم يستطع أن يحفظ صيغة الوعد بحرفيته، ولا الأرض بحرفية حدودها الجغرافية، فكثيرا ما كان يكرر خطابه لهم عبارة «الأرض التي وعدكم الرب أن يعطيكم إياها»، والتي لا يعرف سوى أصحابها الأصليين المقيمين فيها:

«ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والحويين واليبوسيين التي حلف لآبائك أن يعطيك أرضا تفيض لبنا وعسلا أنك تصنع هذه الخدمة في هذا الشهر. سبعة أيام تأكل فطيرا وفي اليوم السابع عيد للرب» خروج١٣.

ومن ثم يحدد بعض ملامح جغرافيتها:

«إن ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين. فأبيدهم.. لا أطردهم أمامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية. قليلا قليلا أطردهم.. وأجعل تخومك من بحر سوف - البحر

الأحمر - إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر. فإني أدفع إلى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك» خروج ٢٣.

«وقلت لكم ترثون أنتم أرضهم وأنا أعطيكم إياها لترثوها أرضا تفيض لبنا وعسلا» لاويين ٢٠.

وبالطبع هذه الأرض ليست هي ملك بالمعنى الحرفي الدقيق للشعب المختار بل هي استملاك من الرب (يَهْوَه) لهم، أي بمعنى أن الأرض تبقى له (كأب)، ولكن لشعبه المختار (كأبناء) حق الاستفاع منها إلى الأبد دون أن يكون لهم حق بيعها، لأن سندات التمليك ستبقى بين يديه إلى الأبد «متى أتيتم إلى الأرض التي أنا أعطيكم.. والأرض لا تباع البتة. لأن لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندي» لاويين ٢٥.

ومن ثم وبعد أن يقترب الوعد من التحقق وتقترب الطريق من نهاياتها، يستذكر الرب (يَهْوَه)، ويتلو على قوم موسى حدود الأرض الموعودة - القابلة للزيادة ولكن من المؤكد ليس للنقصان - بدقة متناهية:

«إنكم داخلون إلى أرض كنعان. هذه الأرض التي تقع لكم نصيبا. أرض كنعان بتخومها. تكون لكم ناحية الجنوب من برية صين على جانب أدوم. ويكون لكم تخم الجنوب من طرف بحر الملح إلى الشرق ويدور لكم التخم من جنوب عقبة عقربيم ويعبر إلى صين وتكون مخارجه من جنوب قادش برنيع ويخرج إلى حصر أدار ويعبر إلى عصمون. ثم يدور التخم من عصمون إلى وادي مصر وتكون مخارجه عند البحر. وأما تخم الغرب فيكون البحر الكبير لكم تخما. هذا يكون لكم تخم الغرب. وهذا يكون لكم تخم الشمال. من البحر الكبير ترسمون لكم إلى جبل هور. ومن جبل هور ترسمون إلى مدخل حماة وتكون مخارج التخم إلى صدد. ثم يخرج التخم إلى زفرون وتكون مخارجه عند حصر عينان. هذا يكون لكم تخم الشمال. وترسمون لكم تخما إلى الشرق من حصر عينان إلى شفام. وينحدر التخم من شفام إلى ربلة شرقي عين. ثم ينحدر التخم ويمس جانب بحر كنارة إلى الشرق. ثم ينحدر التخم إلى الأردن وتكون مخارجه عند بحر الملح. هذه تكون لكم الأرض بتخومها حواليها» عدد ٣٤.

ولكن في بعض المراحل، وفي حالة انفعالية من الرب (يَهْوَه)، يوسّع جغرافيا الأرض الموعودة إلى أقصى حدودها لا سيما بعد أن تبدأ الجماعات العبرية (قوم موسى) بالتقاعس عن السعي في الدخول إلى أرض الكنعانيين لأنهم يخشون الحرب مع شعوب جبارة «الرب إلهنا كلمنا في حوريب - طور سيناء - قائلا. كفاكم قعوداً في هذا الجبل. تحولوا وارتحلوا وادخلوا

جبل الأموريين وكل ما يليه من العربة والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعاني ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات.. ادخلوا وتملكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطوها لهم ولنسلهم من بعدهم» تثنية١.

وسيذكّرهم أيضا ويمن عليهم بأنه لن يورثهم أرضا عذراء بل أرضا مدجنة ومروضة وبكل ما فيها من إنجازات إنسانية «ومتى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي حلف لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيك. إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها وآبار محفورة لم تحفرها وكروم وزيتون لم تغرسها» تثنية٦، وقد جاء أيضا «وأعطاهم أراضي الأمم. وتعب الشعب ورثوه. لكي يحفظوا فرائضه ويطيعوا شرائعه» مزمور ١٥٠.

ومن ثم سيؤكد الرب (يَهْوَه) لشعبه المختار أنهم قادرون إذا ما شاؤوا أن يزيدوا من جغرافيا الأرض الموعودة حسب ما يمليه الواقع، وعلى قدر اعتمادهم على قوتهم وشجاعتهم وتمسكهم بربهم (يَهْوَه) الذي لن يوفر جهدا في مدهم بأقصى ما لديه من طاقة وقوة غاشمة ليدحروا بها المدنيات التي سيواجهونها ما بين الفرات والنيل «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان. من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم» تثنية ١١.

وأخيرا وبعد أن كان الرب (يَهْوَه) يتحدث عن الأرض الموعودة التي تسيل لبنا وعسلا ويصفها لشعبه المختار، فإنه يسمح للنبي موسى بأن يراها بعينيه المجردتين التي بقي أربعين سنة وهو يحلم بالوصول إليها «وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلا. اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نبو الذي في أرض موآب الذي قبالة أريحا وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيها لبني إسرائيل ملكا» تثنية ٣٢.

«وصعد موسى.. إلى جبل نبو.. قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان وجميع نفتالي وأرض أفرايم ومنسّى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر. وقال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر. فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب.. وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات.) تثنية ٣٤.

وفي النهاية يؤكد الرب (يَهْوَه) لشعبه المختار أن هذه الأرض التي وعدهم بها هو الذي كان قد خصها لهم منذ أوجد الإنسان على وجه البسيطة «حين قسم العلي للأمم حين فرق بني آدم نصب تخوما لشعوب حسب عدد بني إسرائيل» تثنية ٣٢، وبذلك فإن أرض كنعان هي ملك

لبني إسرائيل منذ الأزل وإلى الأبد، ولم يكن التواجد الكنعاني فيها سوى وجود بالوكالة ريثما يأتي أصحابها الحقيقيون ليتسلموها مدجنة، مبنية، مستصلحة لينعموا بما يسيل فيها من سمن وعسل وأشجار مثمرة، وخيرات كثيرة.

زمن تحرير النصوص:

يقول نقاد الكتاب المقدس الحديثين إن الكتاب (التوراة) تمت كتابته على ثلاث مراحل:

الأولى في عصر الملك يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٩ قبل الميلاد).

والثانية في عصر عزرا في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

والثالث في نهاية القرن الأول وقد جاء في التلمود الأورشليمي (أن التوراة كانت سوف تعطى إلى عزرا لولا أن سبقه جيل موسى).

وهناك من يقول إن عزرا هو من قام بكتابة الأسفار حتى تاريخه ويعتقد سبينوزا أن سفر التثنية هو أول سفر تمت كتابته لأنه يشمل القوانين الدنيوية الضرورية لتنظيم حياة الشعب (بالتعاون مع سلطة فارس وأنظمة وقوانين فارس أثناء السبي) ودليله على ذلك هو مقدمة السفر «هذا هو الكلام الذي كلم به موسى جميع إسرائيل..» ومن بعد ذلك تم تأليف باقي الأسفار، ويُعتبر سفر التثنية - والذي أعاد ما جاء في الأسفار التي أرخت للخروج ولا سيما سفر العدد - أقرب إلى التاريخ منه إلى السرد الأسطوري لنفس المقولة التي وردت في سفر العدد.

بالطبع إذا كانت تلك المقولات عن زمن تحرير التوراة فيها شيء من الصحة، فيمكن القول أن الكتاب المقدس تم تحريره في مرحلة السبي، ولا يستبعد أن يكون الكتّاب والمحررون قد اعتمدوا على بعض الشفويات التي تم تناقلها وتضخيمها عبر أزمنة طويلة، وربما كان بعضها قد دوّن في مرحلة مملكة يهوذا، وربما يعود القليل منها إلى النبي موسى ولكن هي ليست أكثر من الوصايا العشر:

«أنا الرب إلهك فلا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا. اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنيع جميع عملك. وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك.. أكرم أباك وأمك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تشته بيت قريبك ولا شيئا مما يملك»، وربما بعض التشريعات الأخرى.

وهنا لنا أن نتساءل بأي لغة كتب الرب (يَهْوَه) لوحي الشريعة:

هل كتبها بالهيروغليفية، أم بالسينائية، أم بالكنعانية؟

لقد ظل هذا السؤال دون إجابة شافية، وحسب رأي أرنست رينان أن ما كتب في عهد موسى كان إما بالهيروغليفية التصويرية أو بالمقطعية المسمارية.

وقد ورد أن يشوع بعد عبوره نهر الأردن قام بكتابتها على الحجارة، وهذا يؤكد أنها لن تكون أكثر من كلمات صفحة على أكثر تقدير من حجم صفحات هذا الكتاب الذي بين يديك «حينئذ بنى يشوع مذبحا للرب.. في جبل عيبال.. مذبح حجارة صحيحة.. وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى» يشوع ٨، أما الباقي فقد كتب في السبي والشواهد على ذلك لا تعد ولا تحصى.

«وفي سعير سكن قبلا الحوريون فطردهم بنو عيسو وأبادوهم من قدامهم وسكنوا مكانهم كما فعل إسرائيل بأرض ميراثهم التي أعطاهم الرب» تثنية ٢ : ١٢، وهنا يتحدث المحرر من خلال ذاكرته الجمعية عما فعل إسرائيل سابقا بأرض كنعان.

«فاشتعل غضب الرب على تلك الأرض حتى جلب عليها كل اللعنات المكتوبة في هذا السفر. واستأصلهم الرب من أرضهم بغضب وسخط وغيظ عظيم وألقاهم إلى أرض أخرى كما في هذا اليوم.» تثنية ٢٩، وهذا النص يؤكد دون أدنى شك أن تحريره تم في السبي.

وجاء أيضا «وبنو عيسو طردوهم وأبادوهم من أمامهم وسكنوا مكانهم، كما صنع إسرائيل بأرض ميراثهم التي منحها (يَهْوَه) إياهم» التثنية ٢ - ١٢٠.

«وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل» تثنية ٣١.

«فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلا خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدا عليكم» تثنية ٣١.

وهذان النصان الأخيران يؤكدان أنهما كتبا بعد موت موسى على أقل تقدير، لا سيما وأن أسفار الخروج تتحدث عن موسى بصيغة الغائب، إلا القليل منها فتتحدث بصيغة الحاضر.

«فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم.. ولم يقم بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى» تثنية ٣٤، وهذا اليوم الذي يتحدث عنه النص هو بالطبع بعيد جدا عن موت موسى، وكما ذكرنا سابقا فإن كل نصوص التوراة كتبت في زمن السبي وما بعدها.

وجاء في معرض الحديث عن الجواسيس الذي بعث بهم موسى ليتجسسوا على أرض كنعان «فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل وانظروا إلى الجبل ما هي» عدد ١٣: ١٧، إن كاتب هذا السفر إما أنه لا يعرف أي شيء عن جغرافيا المنطقة، لأن على الجواسيس أن يمضوا شمالا نحو بلاد كنعان لا جنوبا نحو البحر الأحمر، أو أن كاتب هذا النص كان يعيش في بلاد كنعان (في زمن ما بعد العودة من السبي)، بحيث إن المنطقة التي ذهب إليها الجواسيس هي في منطقة الجنوب بالنسبة للكاتب أو الراوي الذي هو في بلاد كنعان ولم يتنبه أن عليه أن يتقمص شخصية الراوي وهو في جنوب بلاد كنعان، وهذا ما أدى إلى هذا اللبس.

كما جاء في أسفار الخروج ذكر أدوات مصنوعة من الحديد، في الوقت الذي لم يكن الحديد قد عُرف بعد، وكان من بين المعادن التي غنمها بنو إسرائيل من المديانيين «الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص»، كما جاء أيضا في التشريع التوراتي «إن ضربه بأداة حديد فمات فهو قاتل. إن القاتل يقتل» عدد ٣٥، وجاء في سفر التثنية ذكر الكثير من الأدوات المصنوعة من الحديد «هوذا سرير من حديد» «وأنتم قد أخذكم الرب وأخرجكم من كور الحديد من مصر لكي تكونوا له شعب ميراث كما في هذا اليوم» «فيجعل نير الحديد على عنقك حتى يهلكك» تثنية.

وسفر التثنية يمثل خطاب موسى الأخير لبني إسرائيل والذي فيه أوجز لهم قصة رحلتهم بعيد خروجهم من مصر وحتى وصولهم إلى أعتاب بلاد كنعان، وبذلك فهو يمثل تاريخ موسى اليهوذي بالتحديد، ويفترض أن هذا الشعب الذي يستمع لخطبة موسى جميعه هو بعمر دون ستين سنة (عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون) فكل من خرج من مصر وكان عمره أكثر من عشرين سنة قد مات، وبذلك فأكثر الحضور كان صغيرا، أو أنه لم يكن قد ولد بعد بينما كان موسى يذكرهم بتلك الأحداث، وقد غاب ذلك عن المحرر التوراتي في مرحلة السبي البابلي، والذي ورد فيه ما حصل لهم على أنها كانت تنبؤات تنبأ لهم بها موسى، في الوقت الذي كان الكاتب يكتب الأحداث من ذاكرته «فاشتعل غضب الرب على تلك الأرض حتى جلب عليها كل اللعنات المكتوبة في هذا السفر. واستأصلهم الرب من أرضهم بغضب وسخط وغيظ عظيم وألقاهم إلى أرض أخرى كما في هذا اليوم» تثنية ٢٩.

«ومتى أتت عليك كل هذه الأمور البركة واللعنة اللتان جعلتهما قدامك فإن رددت في قلبك بين جميع الأمم الذين طردك الرب إلهك إليهم ورجعت إلى الرب إلهك وسمعت لصوته حسب كل ما أنا أوصيك به اليوم أنت وبنوك بكل قلبك وبكل نفسك يرد الرب إلهك سبيك

ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بددك إليهم الرب إلهك. إن يكن قد بددك إلى أقصاء السموات فمن هناك يجمعك الرب إلهك ومن هناك يأخذك ويأتي بك الرب إلهك إلى الأرض التي امتلكها آباؤك فتمتلكها ويحسن إليك ويكثرك أكثر من آبائك.. ويجعل الرب إلهك كل هذه اللعنات على أعدائك وعلى مبغضيك الذين طردوك» تثنية ٣٠، وهذا النص الذي جاء في سفر التثنية والذي حاول محرر النص بعد السبي أن يدسه ويوحي بأنه نبوءة نزلت على موسى لما سيحل باليهود لاحقا ولكن فعل الماضي (طردوك) يكشف ما أراد محرر النص أن يخفيه.

كما أن المحرر نسي أن الكلام كان يتحدث به موسى قبل دخول الشعب أرض كنعان فجاء أثناء سرده للأحداث كيف أن أبناء عيسو قاموا بطرد الحوريين من بلاد سعير «كما فعل إسرائيل بأرض ميراثهم التي أعطاها الرب» تثنية٢ ، فكيف يمكن لموسى الذي لم يدخل بلاد كنعان بعد أن يقول هذا؟.

وفي النهاية يتضح من خلال الشريعة التي تحدثت عن القواعد الأخلاقية التي يجب اتباعها مع العبيد أنها كتبت أو أعيد كتابتها في مرحلة زمنية تاريخية يهودية كان هناك مجتمع طبقي فيه أسياد وعبيد ، فكثير من التعليمات حول كيفية التعامل مع العبيد ، والتفريق بين العبد العبري، وبين العبد غير العبري أي من الأمم الأخرى، وهذه التشريعات لا تنسجم تاريخيا إلا مع المجتمع اليهودي ما بعد السبي حسب ما تأكده الأسفار التي كتبت لتؤرخ لتلك المرحلة.

الفصل الثالث

عصر يشوع

استطاع النبي موسى بطل ملحمة الخروج، من خلال المعجزات والقدرات الخارقة التي منحها له الرب (يَهْوَه)، ومن خلال استحواذه على السلطتين الدينية، والسياسية، أن يصل بائتلافه من مصر نحو صحراء سيناء بعد معجزة الخروج، وبعد أن سبب للمصريين اثنتي عشرة نكبة، وفي سيناء استطاع أن يحصل من الرب (يَهْوَه) على مساعدات اقتصادية متعددة أهمها المساعدات التموينية ولا سيما المن والسلوى التي كان يزود بها (يَهْوَه) بشكل يومي شعب الخروج (قوم موسى)، كما حصل النبي موسى من الرب (يَهْوَه) على الشريعة التي شكلت قانونا أو دستورا نظمت الحياة الدينية، والدنيوية لجماعات الخروج، كما دعم (يَهْوَه) (رب الجنود) موسى وجماعته بقوى خفية عندما قرر النبي موسى التوغل شمالا عبر شرقي الأردن، كما استطاع أن يأخذ منه عدة أوامر عفو، من خلال مناوراته اللغوية ومعرفته العميقة بالطبيعة النفسية للرب (يَهْوَه)، عن التجاوزات التي كان شعب الخروج يقومون بها على السيادة اليهوية، ولكن في النهاية بدأ دور الرب (يَهْوَه) بالشحوب شيئا فشيئا.

وأخيرا أوصل النبي موسى الجماعات التي قادها إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن وهناك مات مورّثا يشوع بن نون القيادة العسكرية من جهة، والنبوءة من جهة أخرى، وبعد شحوب الرب (يَهْوَه) في قيادته لشعبه المختار، عاد هذا الدور بالبروز مرة ثانية، فقام أولا بحجز ماء نهر الأردن كي يمر شعبه المختار بقيادة يشوع بشكل آمن، ودون أن تبتل أقدامهم، وهو، وبصفته رئيس جند الرب قام بضرب الملوك، كما أنه أوقف لهم الشمس، أو سخر لهم الشمس، والقمر، والبرد، والزلازل في حربهم مع الشعوب الكنعانية، وعاد إلى موقع القائد الميداني المباشر، حيث كان يتحدث إلى يشوع مباشرة ولكن ليس بشكل مشخص كما كان الأمر مع موسى، بل بشكل مجرد إيحائي، بعد أن غادر الرب تابوت العهد وصعد إلى السماء، وقد دعم الرب (يَهْوَه) يشوع، وشد على يده، بعد أن طلب منه عبور الأردن إلى أرض كنعان قائلا: «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته.. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات.. وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم» يشوع ١.

ومن على الضفة الشرقية لنهر الأردن، بعث يشوع برجلين ليتجسسا على أرض كنعان، ولكن أمرهما انكشف عند امرأة زانية اسمها راحاب في مدينة أريحا على الضفة الغربية لنهر الأردن، والتي قامت بالتستر عليهما ومن ثم هرّبتهما بعد أن أطلعتهما على حقيقة المخاوف التي تغشى قلوب الشعوب في بلاد كنعان بعد سماعهم الحديث عن المعجزات والقدرات الخارقة للشعب العبري.

وبعد أن عاد الجاسوسان بأخبار الهلع الذي ينتاب قلوب الكنعانيين تقدم يشوع مع جماعته من شطيم على الضفة الشرقية لنهر الأردن مقابل أريحا، وما أن وضع حاملو تابوت العهد - الذين كانوا في مقدمة القوم - أرجلهم في ماء النهر حتى توقفت المياه الهائجة، وعَبَر الجميع على اليابسة، وبذلك ورث يشوع معجزة النبي موسى أيضا حين عبر البحر، وما أن وطأت الجماعات العبرية أرض كنعان حتى تحصنوا في جبل الجلجال المطل على أريحا على مقربة من الضفة الغربية لنهر الأردن، وهناك وكافتتاحية قام يشوع بن نون بختن جميع الذكور لأنهم كانوا قلفاء، وكان هدفهم الأول هو غزو مدينة أريحا التي أقفلت على نفسها أبوابها بعد سماع شعبها بدخول القبائل العبرية، وحسب تعليمات الرب جاءت القوات العبرية بقيادة يشوع ودارت خلال ستة أيام ست دورات حول سور مدينة أريحا الحصين بواقع دورة كل يوم، وفي اليوم السابع قاموا بالدوران سبع دورات متلاحقة بينما كان الكهنة يضربون بالأبواق، وبعد انتهاء الدورة السابعة هتف الشعب بصوت واحد فسقط سور المدينة في مكانه كما لو أن زلزالا عنيفا ضرب أركانه، وبذلك دخلوها ولم يتركوا من إنسان يخبر عما جرى إلا عائلة الزانية راحاب التي كانت قد أخذت وعدا من الجاسوسين بذلك بعد أن كانت قد أنقذتهما أثناء تجسسهما على بلاد الكنعانيين، كما أنهم لم يبقوا كائنا حيا من الأبقار والأغنام والحمير وباقي الحيوانات، وبعد أن أخذوا نفائسها من الذهب والفضة قاموا بإحراقها «وحلف يشوع في ذلك الوقت قائلا ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة أريحا. ببكره يؤسسها وبصغيره ينصب أبوابها» يشوع ٦.

وبعد هذا الانتصار الكبير الذي تحقق للقبائل العبرية بعث يشوع نحو ثلاثة آلاف مقاتل فقط نحو قرية عاي التي يسكنها اثنا عشر ألف إنسان، ولكن ما كان لهم في أريحا لم يكن لهم في عاي حيث هُزمت القوات العبرية أمام رجال عاي وتشتتوا في الوديان المحيطة، وعادوا يجرون أذيال الهزيمة إلى جبل الجلجال ثانية، وكان لهذه الهزيمة أثر نفسي كبير عليهم، وقد تم تصفية شخص يدعى عخنان بن كرمي بحجة أن الرب قام بعقابهم لأن عخنان بن كرمي قام بإخفاء القليل من الفضة والذهب أثناء نهب أريحا، ولكنهم عادوا ودمروا عاي بالخديعة، حيث وضع يشوع ثلاثين ألف مقاتل منتخب ليلا خلف مدينة عاي، ثم في الصباح تقدم يشوع بكل الشعب نحو عاي التي خرجت للقائهم، فتظاهر رجال يشوع بالهروب أمام

رجال عاي، الذين لحقوا برجال يشوع، فدخل رجال فرقة الكمين الثلاثين ألف المدينة وأحرقوها، فارتد رجال عاي لينقذوا المدينة، فارتد أيضا يشوع بجيشه وراءهم وأصبح رجال عاي بين فكي كماشة، وقام رجال يشوع بإبادة شعب عاي بشكل كامل وأسروا ملكها ثم صلبوه، وبعد هذا الانتصار بنى يشوع مذبحا من الحجارة على جبل عيبال، وكتب عليه نسخة من توراة النبي موسى (وعلينا هنا أن نتخيل حجم هذه التوراة التي تمت كتابتها على الحجارة؟).

وبعد أن سمع ملك مدينة جبعون (التي يقطنها الحويون) والقرى المحيطة بها جاؤوا إلى يشوع وتعاهدوا معه (بخدعة منهم حسب قول التوراة حيث ادعوا أن مدينتهم بعيدة)، وبسبب ذلك اتحدت خمس مدن كنعانية بقيادة أورشليم والذي كان يحكمها الملك أدوني صادق «فاجتمع ملوك الأموريين الخمسة ملك أورشليم (أدوني صادق) وملك حبرون (هومام) وملك يرموت (فرآم) وملك لخيش (يافيع) وملك عجلون (دبير» يشوع ١٠، وقرروا الانتقام من الجبعونيين لأنهم تعاهدوا مع أعداء البلاد، ولكن العبريين ناصروا حلفاءهم الجبعونيين، وتصدوا (مع جنود الرب) لتحالف المدن الكنعانية ودحروهم، وقد طلب يشوع من الرب قائلا «يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي أيلون. فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه»، وقد استجاب الرب (يَهْوَه) لطلب يشوع فتوقفت الشمس والقمر عن الدوران لمدة يوم كامل حتى يتسنى لهم إبادة الجيش الكنعاني، كما أن الرب (يَهْوَه) شاركهم في الحرب أيضا بأن رمى على الكنعانيين وهم هاربين بحجارة من بَرَد (في الصيف، وقت الحصاد) فاختبأ ملوكهم الخمسة في إحدى المغارات، فحاصرهم رجال يشوع وسدوا باب المغارة على الملوك بالحجارة، وبعد أن فرغوا من الحرب عادوا إلى المغارة، وأخرجوا الملوك الخمسة، ووطؤوا بأقدامهم على رقاب الملوك الخمسة، ثم قتلوهم وصلبوهم، وألقوا بجثثهم في المغارة وأغلقوها، ثم تابع يشوع إبادة مدنهم الواقعة في جنوب كنعان «فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها. لم يُبق شارداً بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل.. من قادش برنيع إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جبعون» يشوع ١٠.

وبعد سماع أخبار هذه الحروب اجتمع ملوك بلاد كنعان جميعا وشكلوا جيشا ونزلوا عند مياه ميروم (بحيرة الحولة) ففزاهم العبرانيون بغتة ودحروهم وشتتوا جنودهم خارج بلاد كنعان فعاد يشوع على مدنهم ولم يُبق منهم شاردا، وفي النهاية استولى على الجليل الأعلى حتى صيدا «فأخذ يشوع في ذلك الوقت وقرض العناقيين من الجبل من حبرون ومن دبير ومن عناب ومن جميع جبل يهوذا ومن كل جبل إسرائيل.. فلم يتبق عناقيون في أرض بني إسرائيل لكن بقوا في غزة وجت وأشدود.. وأخذ يشوع كل الأرض.. وأعطاها.. ملكا لإسرائيل حسب فرقهم وأسباطهم» يشوع١١، {والعناقيون حسب التوراتيين هم الفلستيون أنفسهم}.

وقام بعدها يشوع بن نون بتقسيم الأراضي (التي أبادوا شعبها تماماً) بالقرعة للتسعة أسباط والنصف الباقين من بني إسرائيل، ولكن حين بدأ المحرر بالحديث التفصيلي عن توزيع الأراضي على الأسباط، وإذ به يصرح أن الشعوب التي أكد على أن القبائل العبرية أبادتهم تماماً ما زالوا في مدنهم «وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم»، أما سبط أفرايم «فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر»، «ولم يقدر بنو منسي أن يملكوا هذه المدن فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض»، «قال بنو يوسف لا يكفينا الجبل. ولجميع الكنعانيين الساكنين في أرض الوادي مركبات حديد».

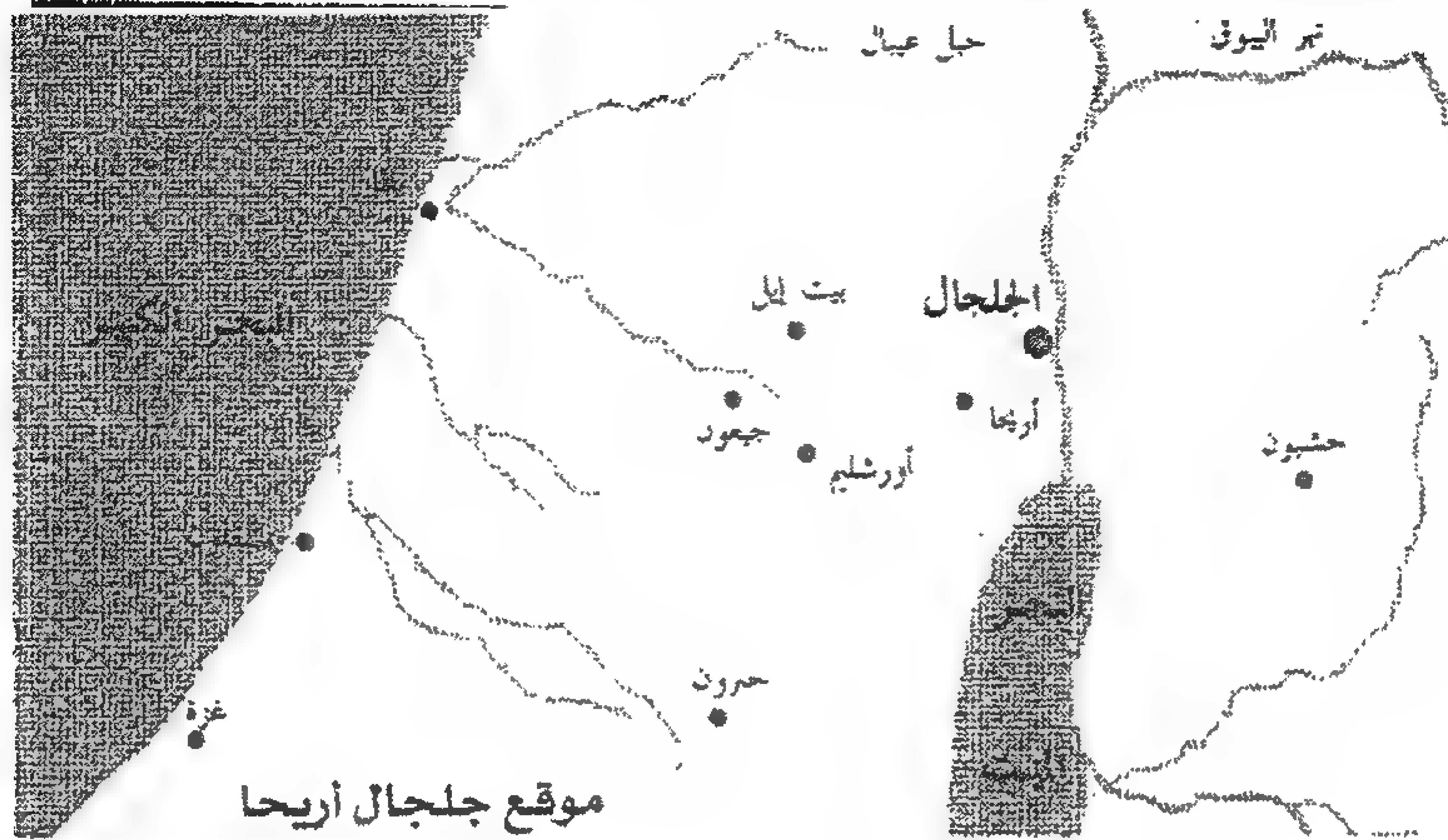
ويعود المحرر فيفاجئنا أكثر حين يعلن أن سبعة أسباط لم يدخلوا نهائيا إلى أرض خاصة بهم، وأن بلاد كنعان كاملة لم يتغير شيء من ديموغرافيتها، سوى أن القبائل العبرية استطاعت أن تنصب خيامها على بعض جبال وتلال جرداء مشاع في المنطقة الجنوبية والتي وزّعت كمراعٍ لسبطي أفرايم ويهوذا ونصف سبط منسي، وربما أن الكنعانيين لم يسمعوا بعد بوجود القبائل العبرية، وعلى أثر ذلك قام يشوع بإرسال ثلاثة أشخاص ليقوموا بجولة استكشافية في بلاد كنعان ليقسّمها يشوع نظريا بين الأسباط السبعة الباقية، وهذا ما تم، وقد كان نصيب سبط شمعون ضمن نصيب سبط يهوذا في الجنوب، أما اللاويون فقد وُزعوا ككهنة على كل الأسباط، وقد توزع بنو هارون منهم على أسباط يهوذا وشمعون وبنيامين في الجنوب.

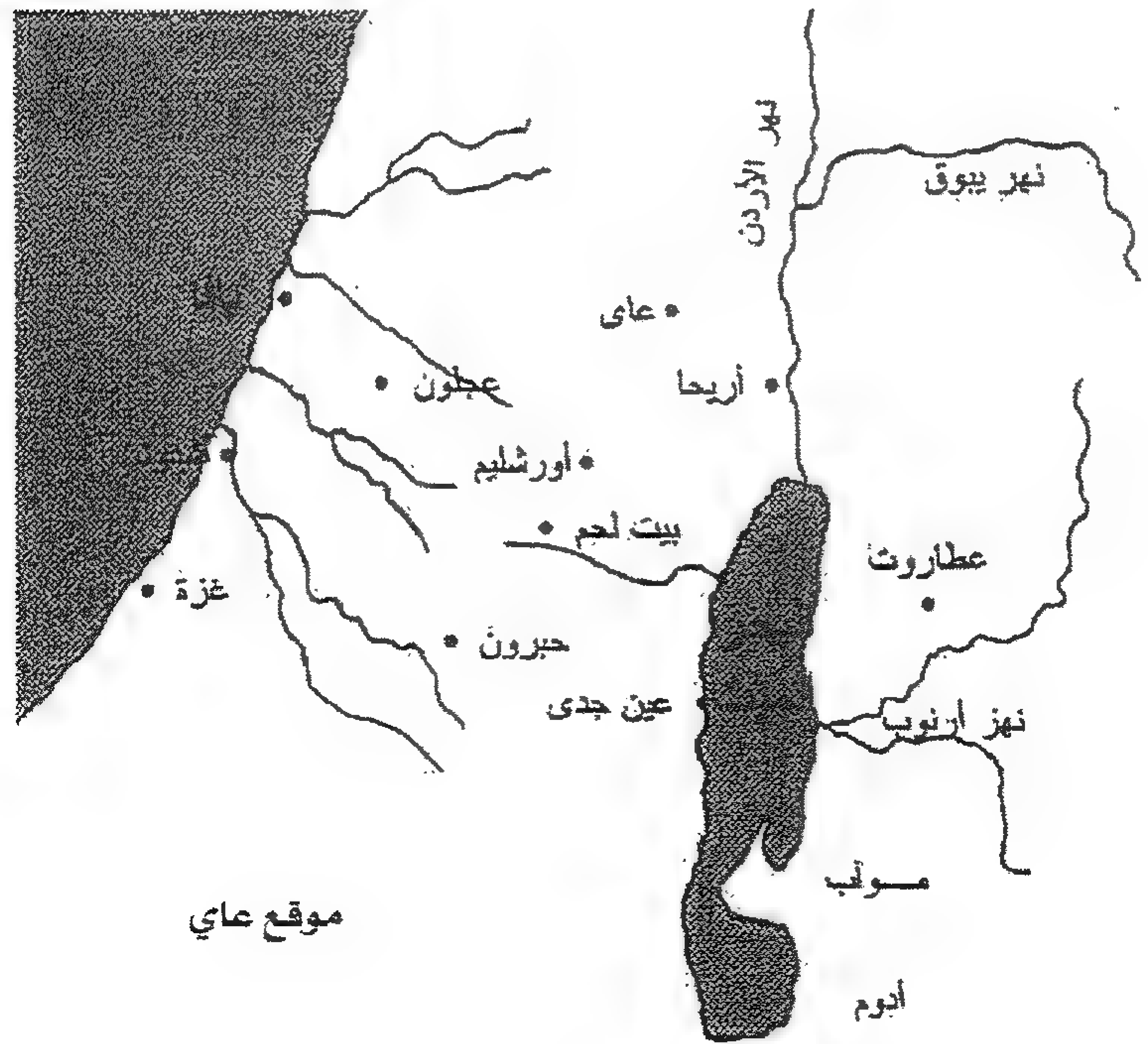
وفي تلك المرحلة قامت القبائل العبرية التي كانت قد استوطنت في شرقي الأردن (الرآوبينيون والجاديون ونصف سبط منسي) ببناء مذبح على نهر الأردن فثارت ثائرة الكهنة في غربي الأردن، وقد اتهمهم ألعازر الكاهن بالخيانة لأن هذا الفعل ما هو إلا تمرد وإعلان استقلال ديني عن القيادة الدينية في غربي الأردن والتي اتخذت من مدينة شيلوة أول مقر ديني لإسرائيل حيث أقيم المعبد ووضع فيه تابوت العهد، وقد علل عبرانيو شرقي الأردن ذلك بحجة واهية بأن هذا المذبح ليس إلا «شاهدا بيننا وبينكم وبين أجيالنا بعدنا لكي نخدم خدمة الرب أمامه بمحرقاتنا وذبائحنا وذبائح سلامتنا ولا يقول بنوكم غدا لبنينا ليس لكم قسم في الرب.. - فهو - لا للمحرقة ولا للذبيحة بل هو شاهد بيننا وبينكم» يشوع ٢٢.

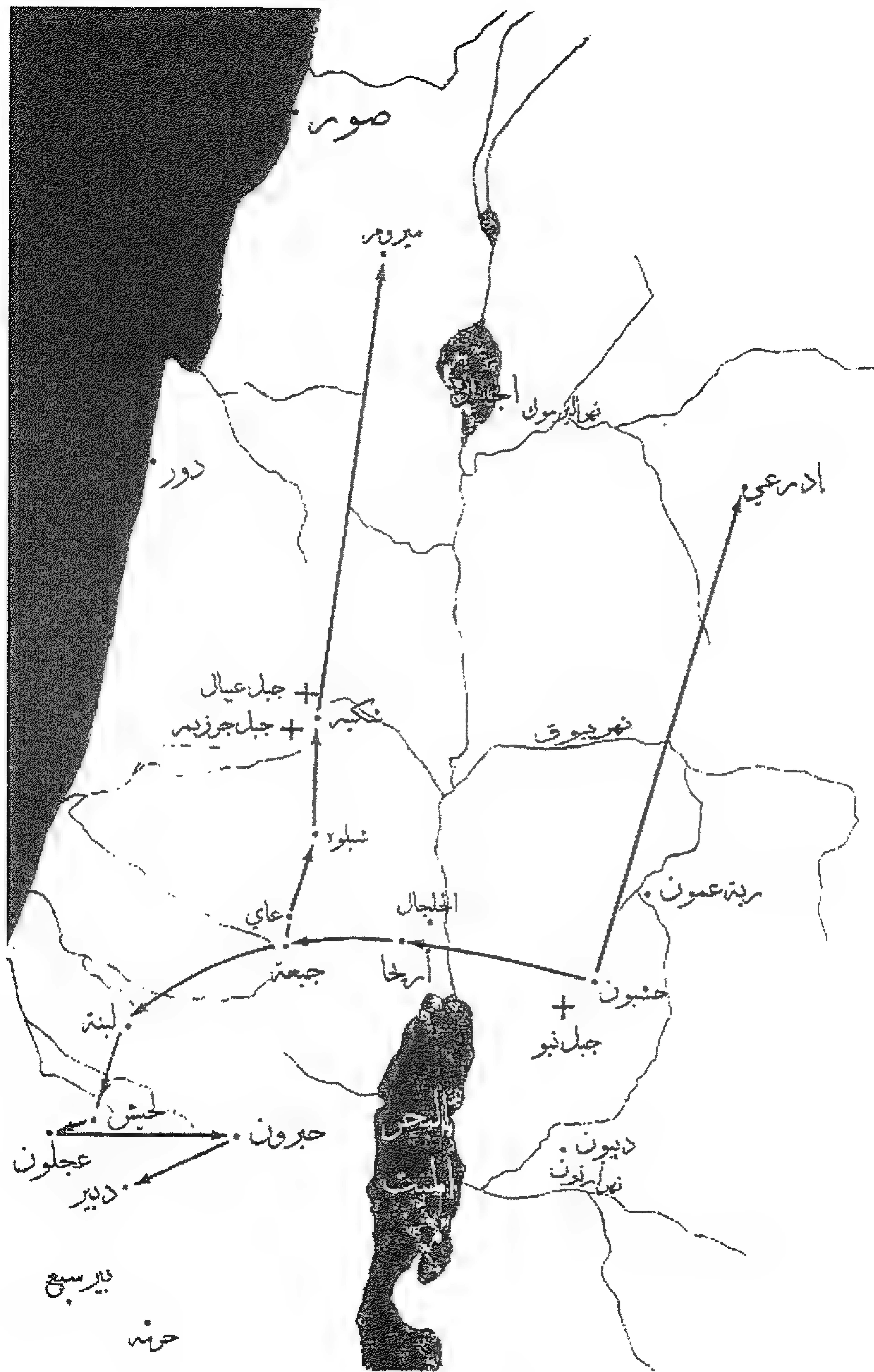
ومرت الأيام وتوزعت خيام القبائل العبرية على المراعي في بلاد كنعان وتقدمت الأيام بيشوع بن نون الذي كان يقيم في منطقة شكيم (نابلس) فجمع أعيان القبائل العبرية بعد أن بدأت شعوبهم بعبادة الإله الكنعاني بعل في المنطقة التي نصبوا خيامهم فيها، أو بنوا من اللبِّن غرفة أو غرفتين على محيط القرية الكنعانية، وخطب يشوع فيهم قائلا: «إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء

الشعوب أولئك الباقين معكم وصاهرتموهم ودخلتم إليهم وهم إليكم فاعلموا يقينا أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أثلك الشعوب من أمامكم فيكونوا لكم فخا وشركا وسوطا على جوانبكم وشوكا في أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التي أعطاكم إياها الرب إلهكم»، وتابع حديثه محتجا «أنتم شهود على أنفسكم أنكم اخترتم لأنفسكم الرب لتعبدوه. فقالوا نحن شهود. فالآن انزعوا الآلهة الغريبة التي في وسطكم وأميلوا قلوبكم إلى الرب إله إسرائيل».

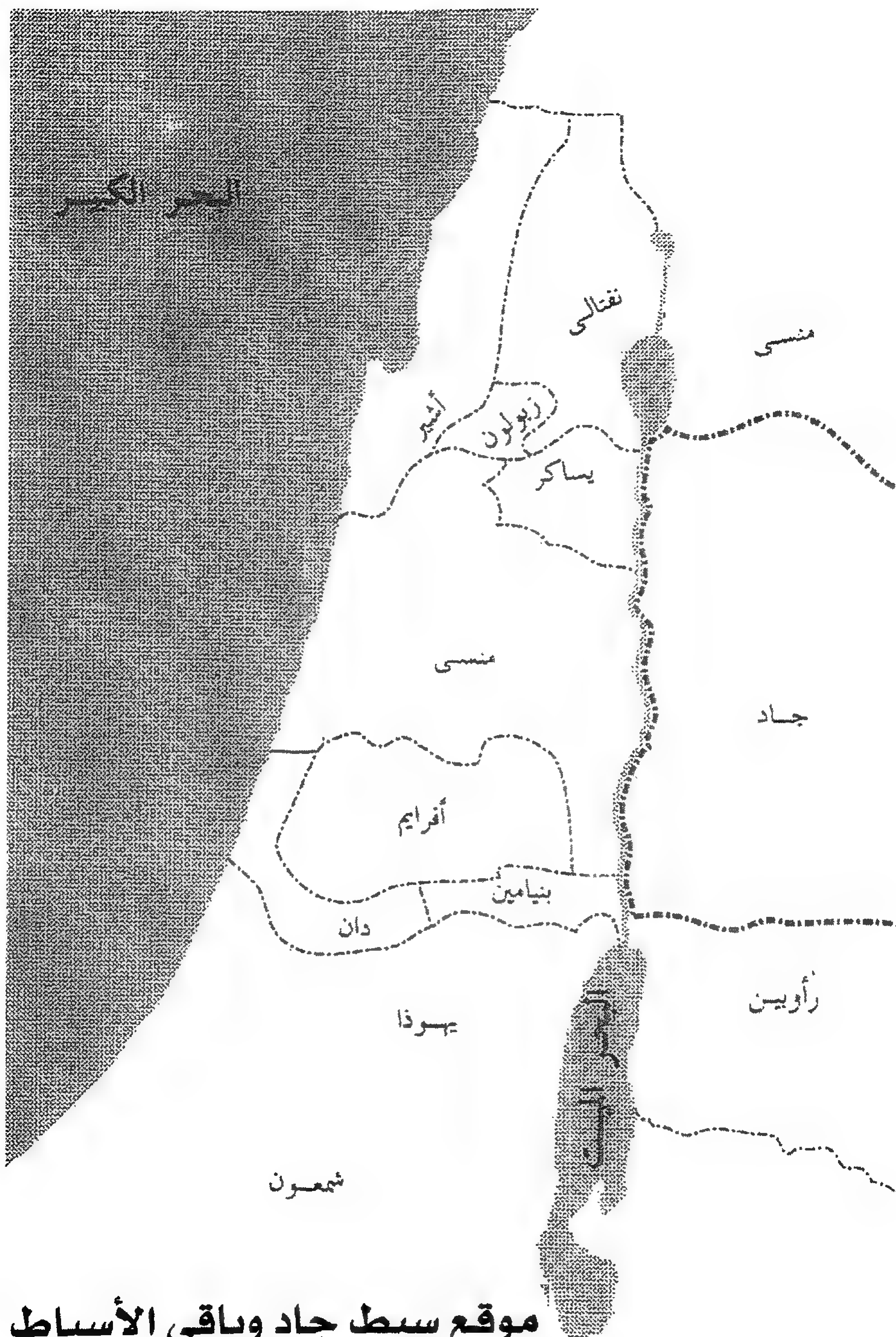
وبعد خطبة الوداع مات يشوع عن ١١٠ سنوات.



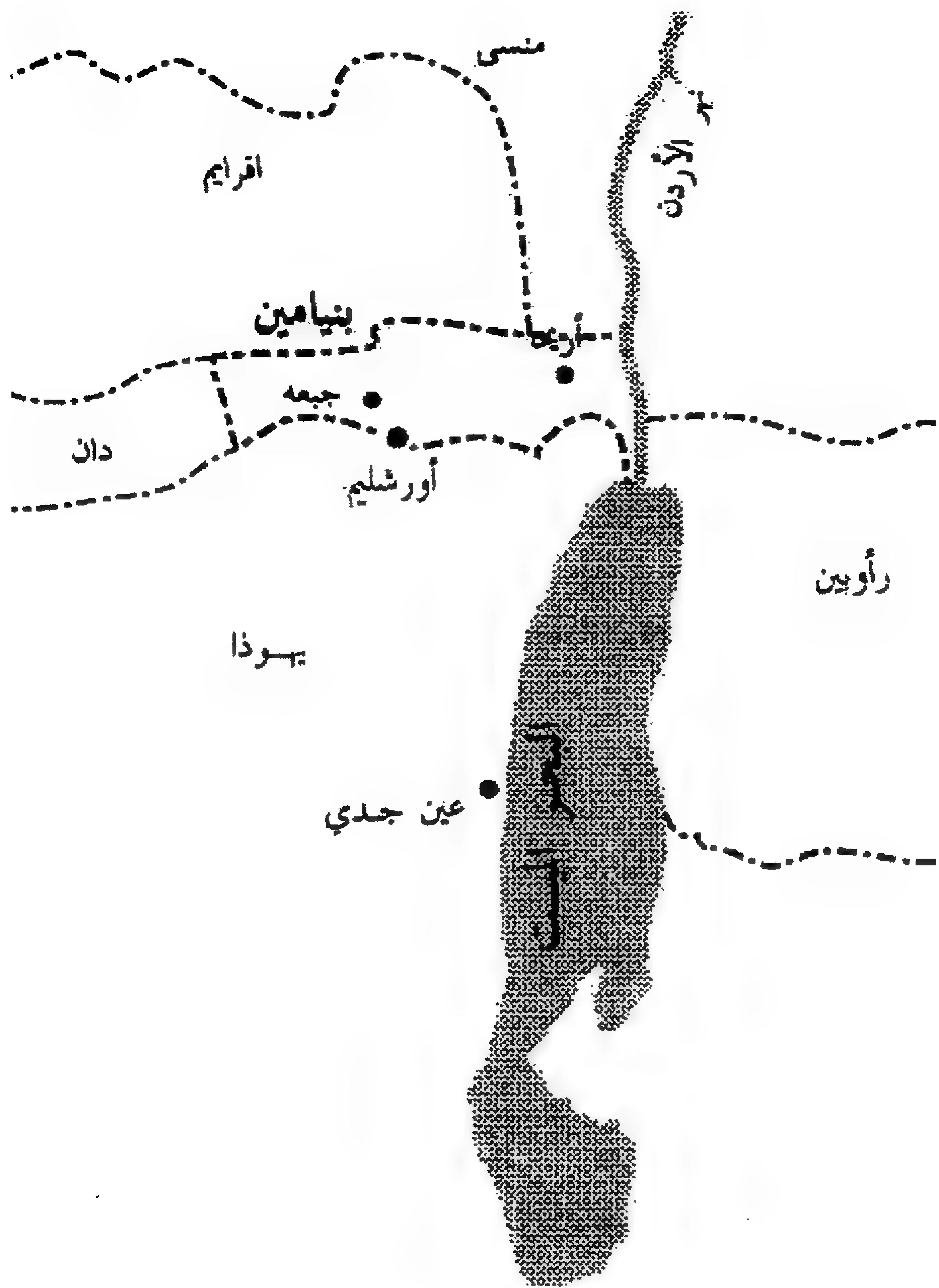



صور
ميروم
نهر اليرموك
دور
ادرعي
جبل عيبال
جبل جرزيم
نهر يبوق
شيلوه
ربة عمون
عاي
الجلجال
جبعة
أريحا
حشبون
لبنة
جبل نبو
لخيش
حبرون
عجلون
ديبون
نهر أرنون
دبير
بئر سبع
حرمة

غزو كنعان



موقع سبط جاد وباقي الأسباط


منسى
افرايم
الأردن
بنيامين
أريحا
جبعه
دان
أورشليم
رأوبين
يهـوذا
عين جـدي

أرض بنيامين

قراءة في النص التوراتي
لملحمة الدخول

إن سفر يشوع والذي يتطابق من حيث الصياغة والبنية النصية مع سفر التثنية بشكل خاص، لا يختلف البتة عن الأسفار السابقة من جميع أوجهه بشكل عام، فهو يعتمد على الأسطورة في تأريخ الحدث ولا سيما في بداية السفر، وقد أتت ملحمة الدخول كوجه آخر لملحمة الخروج، وهي أيضا تشكل الحالة الثالثة للعبور العبري من الحواجز المائية والتي يعقبها حالة ولادة جديدة وبداية جديدة في التاريخ التوراتي، كانت الأولى هي عبور يعقوب مخاضة يبوق بعد عودته من حاران حيث اكتسب اسم إسرائيل بعد اجتيازه المخاضة، والعبور الثاني هو عبور موسى البحر بمعجزة إلهية مع قومه من مصر وتحررهم من العبودية، والثالثة هي عبور يشوع مع جماعته لنهر الأردن من خلال معجزة إلهية إلى الأرض الموعودة (بلاد كنعان).

وبعد عبور يشوع كان أول عمل يقوم به هو ختن جماعته، ويمكن لنا أن نتساءل كيف أن القبائل العبرية في عهد موسى الذي نزلت عليه شريعة الرب (يَهْوَه)، والتي تأمرهم بالاختتان لم يكونوا قد اختتنوا في عهد موسى؟.

وبعد أن قام بختن جماعته تابع يشوع دخوله إلى بلاد كنعان من خلال أسطورة احتلال أريحا، والمدن الكنعانية لاحقا، ولكن شيئا فشيئا يتكشف ضباب الأسطورة في منتصف السفر تقريبا حيث يتبين أن كل ما أتى به المحرر من تهويل واجتياح وقتل وانتصارات مهولة في النصف الأول من السفر ما هو إلا مبالغات أراد منها المحرر استلاب وشلل واستسلام الحالة الذهنية للمخاطب، كما استغلت الجماعات العبرية التي كانت ترابط على الضفة الشرقية لنهر الأردن من الشائعات، والمبالغات التي كانت تتضخم على ألسنة أهل القرى في غربي الأردن والتي تتحدث عن القوى الخارقة التي تمتلكها القبائل العبرية، وهو ما أتى على لسان راحاب الزانية إلى الجاسوسين الذين بعث بهما يشوع إلى غربي الأردن أثناء مرابطته مع جماعته على الضفة الشرقية لنهر الأردن «إن رعبكم قد وقع علينا وأن جميع سكان الأرض ذابوا من أجلكم.. سمعنا فذابت قلوبنا

ولم يبق بعد روح في إنسان بسببكم.. ثم رجع الرجلان.. وقالا ليشوع إن الرب قد دفع بيدنا الأرض كلها وقد ذاب كل سكان الأرض بسببنا» يشوع ٢، وقد استطاع في النهاية يشوع حسب ما جاء في السفر أن ينشر جماعاته في الفراغات بين المدن دون أن يصطدم مع المدن الحصينة، ومع الأماكن ذات التوزع الديموغرافي العالي في منطقة الأودية، والسهول الخصبة، كما أنه تجنب أيضا الاصطدام مع المدن الساحلية، واكتفى باحتلال المناطق الجبلية قليلة السكان على ضفتي الأردن، وبعض المسافات البينية في الداخل.

وقد كشف هذا السفر بشكل واضح زيف الأعداد الضخمة التي كان قد أتى عليها الإحصاء الذي قام به موسى قبيل الدخول، بحيث إن القبائل العبرية التي عبرت نهر الأردن استطاعت أن تتحصن في البداية على جبل الجلجال (وهذا الرقم لا يمكن أن يكون قرابة الثلاثة ملايين)، بل حسب ما يمكن استقراؤه لم يكونوا سوى أعداد لا تزيد عن بضعة آلاف، بحيث لم يستطيعوا أن ينتصروا على قرية صغيرة مثل عاي الذي جاء في سفر يشوع أن عدد سكانها قرابة اثني عشر ألفا فحسب، وهذا يعني أن لديهم بين ألف وألفي مقاتل مع المبالغة، إذا أين ٦٠٠٠٠٠ مقاتل من بني إسرائيل..؟.

وما أن بدأت القبائل العبرية بالاستقرار في بلاد كنعان حتى بدأوا بالتخلي عن عباءة بدويتهم، والانضواء والاندخال في المجتمع الكنعاني بعاداته، ومعتقاداته، وهذا ما جعل يشوع في أواخر أيامه يخطب في أعيانهم معبرا عن مخاوفه من تكنعنهم تماماً.

وقد كان الخطاب التوراتي في سفر يشوع لا يختلف عن سابقه ولاحقه من حيث اعتبار أن العبريين هم مركز التاريخ، فقد أتى: «فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم» محاولا أن يقلب الحقيقة التي تقول إن بني يهوذا سكنوا عند أو مع اليبوسيين، وأيضا «فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض - مع العبرانيين -» التي تخضع أيضا لنفس النمط والعقلية الخطابية النرجسية الشوفينية.

ولكن القضية الأكثر أهمية والتي سأخوض بها في مرحلة لاحقة هي وجود تعابير تتحدث عن إسرائيل ويهوذا كمواقع جغرافية، ولكن سأضع الآن تحتها بعض الخطوط «فأخذ يشوع كل تلك الأرض، الجبل وكل الجنوب وكل أرض جوشن والسهل والعربة وجبل إسرائيل وسهله من الجبل الأقرع الصاعد إلى سعير إلى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون» يشوع١١.

«وجاء يشوع في ذلك الوقت وقرض العناقيين من الجبل من حبرون ومن دبير ومن عناب ومن جبل يهوذا ومن جبل إسرائيل» يشوع ١١.

وهذا النص يطرح لنا مفهوماً جغرافياً لجبل يهوذا وجبل إسرائيل الذين يشكلان في هذا النص مكانين جغرافيين معروفين، وسنأتي لاحقا على تأكيد هذه الحقيقة من خلال عدة شواهد.

أما بالنسبة لزمن تحرير النص فهناك الكثير من الشواهد التي تدل على أن السفر، والذي جاء فيه أكثر من رواية على تعداد الشعوب الكنعانية، تم تحريره في مرحلة لاحقة، منها:

«أحرق يشوع عاي وجعلها تلا أبديا إلى هذا اليوم» يشوع ٨.

«وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم» يشوع ١٥.

«وعبدت إسرائيل (يَهْوَه) كل أيام يشوع وكل أيام الشيوخ الذين طالت أيامهم بعد يشوع» يشوع ٢٤.

«فدعي اسم ذلك المكان الجلجال إلى هذا اليوم» يشوع ٥، وهذا النص يندرج أيضا في محاولة لاستحواذ المكان من خلال رد تسميات المواقع والقرى إلى حيثيات عبرانية، ويتكرر ذلك في كثير من المواقع.

وقد جاء في دائرة المعارف الكتابية أن العلماء المحدثين والنقاد يعتقدون {بأن السفر قد كتب في القرن السابع قبل الميلاد، بل وفى أثناء السبي البابلي. ويرى نوث أن سفر يشوع كُتب أساساً كمقدمة لتاريخ إسرائيل التثنوى (القضاة - الملوك الثاني) كما يعلل النقاد الاختلافات والتكرارات في سفر يشوع، بأنها دليل على تعدد المراجع والكتّاب، على مراحل متعاقبة من التاريخ، فجمع بين كتابات العديد من الكتّاب، مما أدى إلى وجود الكثير من المتناقضات فيه. ويرى ج. أ. سوجين أنه - أي السفر - نسخة منقحة في أثناء السبي، لتاريخ إسرائيل القديم، لإعطاء الأمل للشعب المسبي. فالتركيز على الأرض وعلى يشوع، إنما لحفز الشعب على تجديد العهد مع الله، وتوقع أن يقيم الرب لهم شخصاً آخر - مثل يشوع - في صورة ملك أو قائد، يريحهم}.

شخصية يشوع:

إن اسم موسى، ويشوع، ويسوع أسماء رمزية (صفات) لشخصيات تحمل أسماء غير معروفة، إلا أنها جميعا تحمل معنى الخلاص.

وقد جاء أول ذكر ليشوع سليل سبط أفرايم بن يوسف في سفر الخروج، بعد أن حط رحال إيلاف الخروج في رفديم بعد ثلاثة شهور تقريبا من خروجهم من مصر، حيث هناك تعرضوا لغزو العماليق، وقد استطاع العبرانيون بقيادة يشوع الميدانية أن يردوا الغزو على أعقابه، وهذا ما عزز من مكانة يشوع، وأصبح أمين سر موسى وحارسه الشخصي الذي كان يجتمع مع الرب على جبل سيناء، ومن بعدها في خيمة الاجتماع بحضور يشوع فحسب الذي كان أحيانا يقف كحارس أمام باب الخيمة كي لا يدخل أحد إليها، وهو الذي كان يعتمد موسى عليه في السيطرة على حركات التمرد الذي قام بها الشعب ضد قيادة موسى، والانقلابات الدينية ضد الرب (يَهْوَه)، ومن ثم يأتي ذكره على أنه أحد الجواسيس الاثني عشر الذي قام موسى بإرسالهم إلى بلاد كنعان، وهنا يذكر سفر الخروج أن اسم يشوع كان في الأصل هوشع، وقد غيره موسى إلى يشوع (يهوشوع)، ولأن يشوع وكالب بن يفنة هما اللذان عارضا باقي الجواسيس الذين أشاعوا الإحباط بين الشعب في الدخول إلى بلاد كنعان (الأرض الموعودة) بسبب حصانتها، لذا فقد قرر الرب أن لا يدخل إلى أرض كنعان أحد ممن هم فوق عشرين سنة من بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر، واستثنى من ذلك يشوع، وكالب فقط، ويبدو أن هذا الحدث قد تم في مرحلة مبكرة من خروجهم من مصر، وقبل وصولهم إلى جبل سيناء.

كما أن يشوع على ما يبدو هو الذي قام باغتيال هارون بأمر من موسى وبموافقة أليعازر ابن هارون، كما أنه قام باغتيال موسى نفسه، وقام بدفنه دون أن يفشي لأحد بمكان قبره، وتسلم القيادة المطلقة العسكرية، والسياسية، والدينية على الرغم من أنه لم يكن من اللاويين، والغريب أن يشوع تسلم القيادة دون أي مقاومة منهم، أو من سواهم، وبذلك خرج يشوع من كواليس الأحداث في مرحلة التيه إلى واجهتها في مرحلة اجتياح بلاد كنعان، حيث يشحب دور القيادات الدينية اللاوية.

لم تأت التوراة على ذكر خلفية شخصية يشوع الاجتماعية وهذا ما جعلها شخصية مبسطة، فهو لم يكن أكثر من عبد مأمور، وحارس شخصي لموسى، دون أن

يكون له أي فعالية شخصية، كما أن ذكره اختفى في مرحلة القضاة وما بعدها دون أن يترك من يذكِّر به، وهذا لا يعني أن يشوع شخصية أسطورية، بل حسب ما اعتقد أن يشوع يعود إلى نواة لشخصية تاريخية مستقلة تم إدخالها في ملحمتي التيه والدخول التوراتية، وهو كأكثر الشخصيات التوراتية مركب من أكثر من شخصية، وعلى الأقل فإن يشوع مركب من مزيج شخصيتين، شخصية هوشع اليهوية، وشخصية يشوع الإسرائيلية:

ف هوشع هو الشخصية التي تمسرحت في ملحمة التيه مع موسى اليهوذي، والتي لم يرد لها أي دور في ملحمة الخروج التي كان بطلها موسى المصري.

أما يشوع وحسب ما سآتي على ذكره لاحقا مستشهدا بالمعطيات الآثارية والنصية التاريخية، فيشكل الشخصية أو البطل القومي، الذي كان قد وحّد وقاد الجماعات العبرية الإسرائيلية (العابيرو) التي كانت قد دخلت إلى بلاد كنعان، وقامت باحتلال الكثير من المدن الكنعانية في منطقة السامرة ومحيطها في القرن الخامس أو الرابع عشر قبل الميلاد (في بداية مرحلة تل العمارنة في مصر)، وقد قام محررو التوراة بقص تلك الشخصية من إطارها الزماني وقاموا بإلصاقها في زمان غير زمانها مع إضفاء طابع أسطوري عليها، كي يعطوا للزمان في التاريخ التوراتي صفة فقارية تسلسلية تجعل من مرحلة الدخول مرحلة لاحقة لمرحلة تيه سيناء، وكي يربطوا بين شخصية هوشع التي ذكرت في سفر الخروج، مع يوشع بطل ملحمة الدخول، فقد قام محرر سفر الخروج بتغيير اسم هوشع، إلى اسم يشوع، وبذلك تم ربط مرحلة الخروج، مع مرحلة التيه في سيناء، مع مرحلة الدخول إلى بلاد كنعان، من خلال شخصية يشوع وهو الوحيد الذي عاصر المراحل الثلاث.

ولكن إذا تنبهنا إلى أن أسفار الخروج قد ذكرت أن أحدا ممن خرجوا من مصر وكان عمره فوق عشرين سنة، لم يدخل إلى بلاد كنعان، ندرك أن مرحلة الدخول حالة منفصلة تماماً عن مرحلة الخروج، ومرحلة التيه في سيناء، وأن الدخول تم بعد مرحلة طويلة من الخروج، وهي على الأقل كافية للقضاء على جيل كامل بحيث مات كل من خرج من مصر في مرحلة سيناء، ولا يمكن لنا أن نقتنع أن أكبر شخص ممن دخلوا إلى بلاد كنعان كان لا يتجاوز الستين سنة من عمره.

وبالتالي فإن شخصية يشوع لم يكن لها أي تزامن مع موسى أو هارون بطلي مرحلة الخروج وتيه سيناء، وهذا ما يفسر تسلمه لقيادة قوم موسى دون أي مقاومة من اللاويين أو

سواهم، والجدير ذكره أن اللاويين قد اختفى دورهم الفاعل في مرحلة الدخول، وقد ترافق ذلك أيضا مع غياب أو شحوب دور تابوت عهد الرب، كما اختفت خيمة الاجتماع في مرحلة القضاة التي تلي مرحلة يشوع.

وأخيرا فإن يشوع بطل ملحمة الدخول، وإن كان شخصية تاريخية فإني اعتقد أنه عاش في القرن الخامس عشر قبل الميلاد وكان قائدا لجماعات العبيرو التي كانت تقوم بغزو الممالك الكنعانية حسب ما جاء في رسائل تل العمارنة، وقد قام محررو التوراة اليهود بإزاحته زمانيا إلى القرن الثالث عشر ليكون قائد أسطورة الاجتياح العبري لقوم موسى وقد ألصقت به، أو أعيد له بعض الكوارث الطبيعية، وعلى رأسها الزلازل، والجفاف، والحروب العسكرية المتعددة التي تعرضت لها بلاد كنعان، ولا سيما تلك التي قامت بها القبائل العبرية في مرحلة رسائل تل العمارنة والمراحل اللاحقة، والتي سآتي على ذكرها، ومن الجدير ذكره أن يشوع هو القائد الوحيد الذي لم يحاول محررو التوراة تلطيخ سيرته بأي من الموبقات بشكل عام، إضافة إلى الملك اليهوذي يوشيا صاحب الحركة التصحيحية اليهودية.

الفصل الرابع

عصر القضاة

يبدأ سفر القضاة بالحديث عن تحالف بين سبطي يهوذا وشمعون حيث قام رجال السبطين بضرب مدينة بازق، وأمسكوا بملكها والذي يلقب بأدوني وقاموا بقطع أباهيم يديه ورجليه، وأخذوه إلى أورشليم، ثم يقول المحرر بعدها أن بني يهوذا حاربوا أورشليم وأحرقوها، ثم توجهوا إلى حبرون (الخليل)، ثم على دبير، ثم إلى المصفاة، ثم إلى غزة وأشقلون وعقرون بلاد العناقيين (الفلسطينيين).

وبعد هذا يعود المحرر - الذي كان قد ذكر أن أورشليم قد سيطر عليها سبطا يهوذا وشمعون - ليقول إن البنيامينيين حاولوا أن يستولوا على أورشليم ويطردوا سكانها اليبوسين منها فلم يقدروا على طردهم بعد أن استطاعوا أن يسيطروا عليها حسب ادعاءات محرر سفر القضاة، وكذلك الأمر بالنسبة للمنسيين والزيولونيين لم يستطيعوا طرد الكنعانيين، أما الدانيون فكانوا محاصرين على جبل دان الأجرد لأن الأموريين لم يسمحوا لهم بالنزول منه، أما بيت يوسف فكانوا تحت الجزية.

كان هذا موجزاً لحال القبائل العبرية بعيد موت يشوع، الذي خلفهم تائهين يبكون على حالهم وربما كانوا نادمين على دخولهم أرض كنعان، لأن الكنعانيين نهبوهم وباعوا الكثير منهم كعبيد، أما البعض منهم فقد تكنعنوا، فعبدوا بعل، وعشتار، وانخرطوا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية الكنعانية، ولم ينقذهم إلا بعض قضاتهم من هذه الحال الرديئة في بعض الأوقات، وظل العبريون يسكنون بين شعوب البلاد ويعبدون آلهتها.

وقد خضعوا لملك آرام النهرين لمدة ثماني سنوات خلصهم عثيئيل بن قناز من سبط يهوذا وهو القاضي الأول بعد موت يشوع.

وبعد أربعين سنة خضعوا لحكم المؤآبيين لمدة ثماني عشرة سنة وخلصهم القاضي إهود بن جيرا البنياميني الذي قام بقتل عجلون ملك موآب بالخدعة، وانتقموا من المؤآبيين.

ثم حكم لهم القاضي شمجر بن عناة، وهو اسم كنعاني، وربما كانت أمه كنعانية، أو أنه تكنعن، أو أنه كنعاني.

وبعد ثماني سنين خضعوا لحكم يابين ملك مدينة حاصور الكنعانية ولم تخلصهم إلا القاضية دبورة بعد عشرين سنة.

وبعد أربعين سنة خضعوا لحكم المديانيين (والذي جاء في سفر الخروج أن موسى في أخر حياته قد تم إبادتهم عن بكرة أبيهم) وتعرضوا لغزو متكرر من قبل العمالقة، وفي عهدهم عاش العبرانيون في الكهوف والمغاور لمدة سبع سنين، حيث حررهم النبي جدعون ابن يوآش الأبيعزري من منسّى والتي تحكي قصته أن ملاك الرب ظهر لجدعون وهو في البيدر، وبشره بأنه سوف يخلص بني إسرائيل من حكم المديانيين لهم، ومن أجل هذه البشارة فقد «دخل جدعون وعمل جدي معزى وإيفة دقيق فطيرا. أما اللحم فوضعه في قدر وخرج بها إليه إلى تحت البطمة وقدّمها. فقال له ملاك الله خذ اللحم والفطير وضعها على تلك الصخرة واسكب المرق. ففعل كذلك. فمد ملاك الرب طرف العكاز الذي بيده ومسّ اللحم والفطير فصعدت نار من الصخرة وأكلت اللحم والفطير» قضاة ٦، وقد ظهر له الملاك في المنام وطلب منه أن يهدم معبد البعل الذي قام أبوه ببنائه، وهذا ما فعله في الصباح فقرر أهل القرية قتل جدعون، فقال لهم أبوه: إذا ما كان البعل إلها فليدافع عن نفسه، وحينها دعا ابنه يربعل ومعناه (ليقاتله البعل)، وفي تلك الأثناء كان المديانون (الإسماعليون) ومن تحالف معهم قد استولوا على سهل يزرعيل، فقام النبي يربعل (جدعون) باستدعاء رجال قبائل أشير وزوبولون ونفتالي، ولأن الأعداد التي هبت للحرب كبيرة (اثنان وثلاثون ألفا) فقد طلب منهم جدعون أن يرجع كل من هو خائف، فبقي عشرة آلاف، وكان هذا الرقم كبيراً أيضاً، فطلب منهم يربعل أن يدخلوا في الماء، وقد استثنى منهم كل من شرب من الماء ولغاً، أو ركوعاً، وبذلك لم يبق منهم سوى ثلاثمئة، فقسمهم إلى ثلاث فرق، وفي الهزيع الأوسط من الليل قاموا بالهجوم على المديانيين الذين يعدون مئات الآلف من المقاتلين، وقد قتل منهم في هذه المعركة مئة وعشرون ألف مقاتل، وقد فر أميرا المديانيين غراب، وذئب، وملكاها زبح وصلمناع، وقد قبض رجال إفرايم على الأميرين وقتلوهما، وقد احتج الإفراميون لـ يربعل لأنه لم يشركهما في الحرب، وتابع يربعل ملاحقته لملكي المديانيين والذين لم يبق معهم سوى خمسة عشر ألف مقاتل، وأثناء الملاحقة لم تقدم كل من مدينة سكوت، وفنوئيل الخبز للجنود، وفي النهاية استطاع يربعل اللحاق بهم وأن يحقق انتصاره النهائي عليهم في قرقر، وأسر ملكي المديانيين زبح وصلمناع، وعاد بهما إلى مدينتي سكوت، وفينوئيل وانتقم من رجال المدينتين، ثم قام بقتل

ملكي المديانيين، وعلى أثر ذلك طلب بنو إسرائيل أن يترأس عليهم يربعل (جدعون)، فرفض ذلك وطلب منهم فقط أن يعطوه أقراط الذهب التي أخذوها من القتلى «لأنه كان لهم أقراط ذهب لأنهم إسمعليون.. وكان وزن أقراط الذهب التي طلب ألفا وسبع مئة شاقل ذهبا ما عدا الأهلة والحلق وأثواب الأرجوان التي على ملوك مديان وما عدا القلائد التي في أعناق جمالهم. فصنع جدعون منها أفودا وجعله في مدينته في عفرة وزنى كل إسرائيل وراءه هناك فكان ذلك لجدعون وبيته فخا» قضاة ٨، وبقي جدعون قاضيا ونبيا لمدة أربعين عاما، وقد تزوج الكثير من النساء، وكان له سبعون ولدا، كان منهم أبيمالك ابنه من سرية له كانت تقيم في مدينة شكيم، ولما مات جدعون عاد الشعب يعبدون البعل، وقام أبيمالك بدعم من أخوته من أمه فاستأجر «رجالا بطالين طائشين فسعوا وراءه»، وقام بقتل أخوته السبعين على حجر واحد، ولم يبق منهم سوى أخيه يوثام الصغير، وقام أهل شكيم بتصيبه ملكا، ولكن أهل شكيم تمردوا على أبيمالك وعصابته التي كانت تقوم بقطع الطرق خارج المدينة، لكن أبيمالك عاد إلى شكيم واستطاع أن يسيطر عليها ثانية، وأن يقتل رجالها ويهدمها ويعقم أرضها بالملح، ثم قام بالهجوم على مدينة تاباص حيث التجأ وتحصن شعبها في برج المدينة، وأثناء حصار أبيمالك لها قامت امرأة بإلقاء قطعة الرحى الحجرية على رأس أبيمالك، وحين أدرك أبيمالك أنه ميت قال لحامل سلاحه «اخترط سيفك واقتلني لئلا يقولوا عني قتلته امرأة»، وهكذا انتهى أبيمالك.

ثم قضى عليهم تولع بن فواة بن دودو من سبط يساكر لمدة ثلاث وعشرين سنة، وبعد موته خضعوا لحكم الفلسطينيين وبني عمون لمدة ثماني عشرة سنة.

وأتى بعده يائير الجلعادي وقضى عليهم لمدة اثنتين وعشرين سنة، وبعد موته خضعوا لحكم الشعوب في بلاد كنعان، وشرقي الأردن.

وقام يفتاح الجلعادي، وكان أخوته من أبيه جلعاد قد قاموا بطرده لأنه ابن امرأة زانية، وقد قام يفتاح بترؤس عصابة من رجال بطالين، وكان لما تسلط بنو عمون على منطقة جلعاد أن قام الجلعاديون بطلب النجدة من يفتاح وعصابته، فوافق على طلبهم مشترطا ترؤسه عليهم، وقد نذر للرب إذا انتصر على بني عمون - وهذا ما كان له - أن يقرّب له أول من يدخل عليه، وكانت ابنته الوحيدة هي أول من دخل عليه، فلما كاشف ابنته بالأمر، قالت له إني طوع أمرك، فقربها للرب حسب ما نذر، وهنا يبدو أن الجماعات العبرية في مرحلة القضاة لم يكونوا على دراية بعد بأن إبراهيم قد قدم إسحاق كبشا كخلاص من الخطيئة، وقد قام الرب باستبدال هذا الابن بكبش من الظأن منهيا عهدا ونمطا قربانيا،

كما أن الرب لم يقم بمنع يفتاح الجلعادي من أداء هذا الطقس، وأن يطلب منه استبداله بقربان حيواني.

وبعد أن انتصر يفتاح الجلعادي في حربه التحررية من بني عمون، اعترض رجال أفرايم على يفتاح لأنه لم يشركهم في تلك الحرب، وقامت حرب بين الجلعاديين والأفراميين انهزم فيها الأفراميون، وتشردوا نحو شرقي الأردن، ولكن الجلعاديين وقفوا لهم على معابر النهر، وكان كل شخص يريد أن يعبر النهر «يقولون له أأنت أفرايمي فإن قال لا كانوا يقولون له قل إذا شِبُّولَتْ فيقول سبولت ولم يتحفظ للفظ بحق. فكانوا يأخذونه ويذبحونه على مخاوض الأردن» لأنه أفرايمي، وهذا يعني أن العبرانيين كانوا يلهجون بلهجات المناطق التي يسكنون فيها، وقد قتل في تلك الحرب ٤٢٠٠٠ ألفا من الإفراميين، ومات يفتاح بعد ست سنوات.

وقضى بعده إبصان البيتلحمي لمدة سبع سنين.

وبعده قضى إيلون الزبولوني لمدة عشر سنين.

وقضى بعدها عبدون بن هليل الفرعوتي من أفرايم لمدة ثماني سنين.

وبعدها خضعوا لحكم الفلسطينيين لمدة أربعين سنة، وفي تلك المرحلة عاش شمشون بقصته الأسطورية المعروفة والتي تقول إنه كان هناك رجل من الدانيين اسمه منوح، ولم يكن له ذرية، وقد جاء ملاك الرب إلى زوجته وبشرها بأنها ستحمل وتلد ذكرا يكون نذيرا، وسوف يخلص بني إسرائيل من تسلط الفلسطينيين، وقد قدما له جدي معزى، وولد شمشون وكبر، وأعجب بفتاة فلسطينية من مدينة تمنة وطلب من أبيه أن يخطبها له، وقد وافق على ذلك أبوه على مضض، وأثناء زيارته لأهل خطيبته حاجى أنسباءه أحجية، وألزم نفسه بتقديم ثلاثين رداء إذا ما عرفوا حل الأحجية، وقد استطاعوا ذلك من خلال خطيبته التي كان قد أفشى لها سر الأحجية، فما كان من شمشون سوى أن ذهب إلى مدينة أشقلون وقتل ثلاثين رجلا، وأخذ أرديتهم وأعطاها لأنسبائه، ولما عاد شمشون لزيارة خطيبته اكتشف أن أبوها قد زوّجها بسواه، وطرح عليه أن يزوجه بأختها، فرفض شمشون هذا العرض وقام بإمساك ثلاث مئة ثعلب، وربط مشاعل بأذيالها وتركها في الحقول، لتحرق حقول الفلسطينيين، فصعد الفلسطينيون وطالبوا بنو إسرائيل أن يسلموهم شمشون، وهذا ما كان لهم بعد موافقة شمشون، حيث قام بني إسرائيل بتقييد شمشون، وبموافقته، وسلموه للفلسطينيين، ولما أصبح بين أيديهم قام بفك وثاقه وأمسك بلحي حمار وقتل به ألف فلسطيني ثم رماه «ودعا ذلك المكان رمت لحي»، وأثناء ذلك شعر بعطش فما كان منه سوى أن كسر عظم اللحي وشرب

منه الماء «لذلك دعا اسمه عين هقوري التي في لحي إلى هذا اليوم»، ثم صاحب شمشون امرأة زانية من مدينة غزة، وأثناء وجوده عندها أحاط به الفلسطينيون وأغلقوا باب المدينة، فقام في منتصف الليل فكسر باب المدينة، وأخذ عوراضه وصعد بها إلى أعلى الجبل، ثم أغرم بامرأة من وادي سورق اسمها دليلة، وقد طلب الفلسطينيون منها أن تتملقه وتعرف منه سر قوته الخارقة، مقابل الكثير من الأموال، وبعد عدة محاولات أفشى لها عن سر قوته التي تكمن في شعره الطويل الذي إذا ما قص فإنه يخسر كل طاقته، وقوته الخارقة، فهدهدت له حتى نام، وقامت بقص شعره، وحينها هجم عليه الفلسطينيون وقبضوا عليه، وقاموا بسمل عينيه، واقتادوه إلى غزة وهو مقيد وجعلوه يطحن في السجن، وبعد مدة عاد شعره ليطول، وفي احتفالات الفلسطينيين بعيد الإله داجون طلب الشعب شمشون ليقوم لهم بعرض قوته، وفي المعبد قام شمشون بإمساك عمودي المعبد الرئيسيين، وقال «لتمت نفسي مع الفلسطينيين» وقام بهدمهما وبذلك سقط المعبد وقتل معه آلاف الفلسطينيين، ومات بعد أن كان قد قضى لإسرائيل لمدة عشرين سنة.

وبعد قصة شمشون يفاجئنا سفر القضاة «وفي تلك الأيام كان سبط الدانيين يطلب له مُلكا للسكنى لأنه إلى ذلك اليوم لم يقع له نصيب في وسط أسباط إسرائيل» وكانوا حتى ذلك الوقت يتنقلون بخيامهم في الجنوب وأخيرا قرروا الذهاب إلى الشمال نحو قضاء صيدا «فارتحل من هناك من عشيرة الدانيين من صرعة ومن أشتاول ست مئة رجل مسلحين بعدة الحرب» قضاة ١٨، وفي الطريق دخلوا إلى بيت رجل يدعى ميخا في جبل أفرايم حيث أخذوا بالقوة، من معبد بعل الذي بناه في بيته، تمثال البعل «ووضعوا لأنفسهم تمثال ميخا المنحوت الذي عمله كل الأيام التي كان فيها ببيت الله في شيلوة» قضاة ١٨، كما أخذوا معهم الكاهن يهوناثان ابن جرشوم بن منسي من اللاويين (الذي كان يكهن لبعل)، وتابعوا طريقهم شمالا وأتوا إلى قرية صغيرة آمنة ومسالمة على مسافة من صيدون ودمروها «ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذي ولد لإسرائيل.. وأقام بنو دان لأنفسهم التمثال المنحوت وكان يهوناثان ابن جرشوم بن منسى هو وبنوه كهنة لسبط الدانيين إلى يوم سبي الأرض» قضاة ١٨.

ثم يأتي المحرر على قصة رجل لاوي في جبل أفرايم كانت له سرية من بيت لحم، فزنت بأحد الرجال، ويبدو أن أمرها افتضح، فهربت إلى بيت أبيها، فذهب سيدها وردّها، وفي طريق عودتهما «وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر جدا قال الغلام لسيده تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيده لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا نعبر إلى جبعة» قضاة ١٩، وفي جبعة القرية البنيامينية لم يُدخلهما أحد إلى بيته، إلا

رجل مغترب فيها من جبل أفرايم، وجاء رجال بنيامين من عائلة بني بليعال في الليل وطلبوا الرجل الضيف ليفحشوا به، فترجاهم المضيف أن يأخذوا ابنتيه العازبتين (وهنا يذكرنا المحرر بقصة قوم لوط تماماً)، فلم يقبل رجال بليعال بذلك العرض، فقدم لهما المضيف ابنته العذراء، وسرية الرجل الضيف، فرفضوا أيضا العرض الأكثر سخاء، ولكن الرجل أخرج لهم سريته «وتعللوا بها الليل كله إلى الصباح وعند طلوع الفجر أطلقوها. فجاءت المرأة عند إقبال الصباح وسقطت عند باب بيت الرجل حيث سيدها هناك» قضاة: ١٩، وماتت على الباب، وفي الصباح وجد الرجل جثتها، فقطّعها إلى اثنتي عشرة قطعة، وبعث بقطعة لكل سبط من الأسباط الاثني عشر «فأرسل أسباط إسرائيل رجالا إلى جميع أسباط بنيامين قائلين ما هذا الشر الذي صار فيكم. فالآن سلموا القوم بني بليعال الذين في جبعة لكي نقتلهم وننزع الشر من إسرائيل. فلم يرد رجال بنيامين أن يسمعوا لصوت أخوتهم بني إسرائيل» قضاة ٢٠، فاجتمع ٢٦٠٠٠ رجل حرب من سبط بنيامين في مدينة جبعة، واجتمع ٤٠٠٠٠٠ رجل من رجال إسرائيل في قرية بيت إيل، حيث كان هناك تابوت العهد وفينحاس بن ألعازر بن هارون واقف أمامه (وهذا يعني أن هذه القصة تعود إلى زمن يشوع، أو بعيد موته مباشرة)، وانكسر بنو إسرائيل في اليوم الأول من الحرب، وسقط منهم ٢٢٠٠٠ رجل، وفي اليوم الثاني أيضا سقط منهم ١٨٠٠٠ رجل، وفي اليوم الثالث فعلوا بجبعة كما كانوا تماماً قد فعلوا بعاي في زمن يشوع، وقتل بنو إسرائيل من بني بنيامين ٢٥٠٠٠ رجل وقاموا بتدمير مدنهم وقتلوا نساءهم وأطفالهم، ولم يبق من بني بنيامين سوى ست مئة رجل كانوا قد هربوا، وأنقذوا أرواحهم من عمليات التطهير القبلي.

ولما استفاق بنو إسرائيل من شهوة الدم اكتشفوا أنهم قاموا بتصفية سبط كامل من أسباطهم، فبكوا وناحوا، وبدأوا بالبحث عن إحياء سبط بنيامين من خلال إحياء الهاربين، فقاموا بالهجوم على بني إسرائيل في يابيش جلعاد في شرقي الأردن، وقتلوا كل من فيها، ولم يعفوا سوى على أربع مئة من العذراوات، وأعطوهن كزوجات لمن تبقى من سبط بنيامين، ثم قام المئتان الباقون من سبط بنيامين، واختطفوا مئتي عذراء من شيلوة أثناء خروجهن للاحتفال بعيد البعل السنوي وتزوجوهن، وكان ورد في سفر يشوع، وسفر صموئيل أيضا أن شيلوة كانت العاصمة الدينة للعبرانيين حيث كان يقيم تابوت العهد وليس في بيت إيل كما جاء في سفر القضاة، وشيلوة تقع شمالي بيت إيل على الطريق بين نابلس والقدس، على بعد ٢٢كم من نابلس.

وهنا ينتهي سفر القضاة، ثم يتبعه سفر راعوث الذي سيمهد لمجيء داود، حيث تقول القصة إنه بسبب الجوع الذي حل في المنطقة تغرب رجل اسمه أليمالك وزوجته نعمي وابناه محلون وكليون من قرية إفراتة في قضاء بيت لحم وذهب مع عائلته إلى بلاد موآب، وهناك مات الرجل،

وتزوج ابنا نعمي محلون وكليون من فتاتين موآبيتين اسمهما عرفة وراعوث، وبعد عشر سنوات مات محلون وكليون أيضا فبقيت نعمى وكنتاها عرفة وراعوث، فرجعت نعمى وكنتها راعوث إلى أفراتة، وهناك تزوج رجل من أقرباء أليمالك من راعوث الموآبية لإحياء قريبه فولدت منه عوبيد، والذي انتهى السفر الصغير بنسبه الذي يقول إن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عميناداب بن رام بن حصرون بن فارص، وبالطبع إن فارص بن يهوذا (من كنته ثومار بالحرام) بن يعقوب، وعوبيد هذا ولد يسى، ويسى ولد داود، وهذا يعني أن جد داود العاشر هو يهوذا بن يعقوب (إسرائيل)، وهذا يعني أن الفترة الزمنية بين يعقوب، وداود تتراوح بين ثلاث مئة، وأربع مئة سنة فحسب، بينما يؤرخ التوراتيون لحياة يعقوب (١٧٩٥ - ١٦٤٧ ق.م، أو سنة ١٦٣٩)، أما داود فيؤرخ لحياته (١٠٣٤ - ٩٦٥ ق.م)، وهذا يعني أن بينهما من الزمان قرابة سبع مئة سنة.

أما سفر صموئيل الأول، فيبدأ بقصة صاحب السفر التي تقول إن رجلا كانت له زوجتان إحداهما عاقر وقد نذرت إن هي ولدت ستهب ابنها للكهانة، وهذا ما حصل، فقدّمت ابنها صموئيل (السموأل) ليتربى في شيلوة حيث يقيم تابوت العهد في أحد الخيام (وهي المركز الديني والإداري حتى هذا العهد منذ وضع فيها يشوع تابوت العهد)، وكان متسلطا على الكهانة آنذاك ابنا الكاهن الأكبر عالي وهما حفني وفينحاس اللذان كانا يتسلطان على القرابين وعلى النساء أيضا كأجر لخدماتهما الكهنوتية، وكان الرب آنذاك محتجباً عن النزول والحديث مع الكهنة، وهناك تربى صموئيل (السموأل) (والذي يزمن له ١١٠٠ - ١٠٥٠ ق.م)، ولما كبر صموئيل، وأصبح رجلا، نزلت عليه كلمة الرب وأُعلن نبيا «أو رائيا كما كان يقال له في تلك الأيام» واتخذ من المصفاة مقرا له.

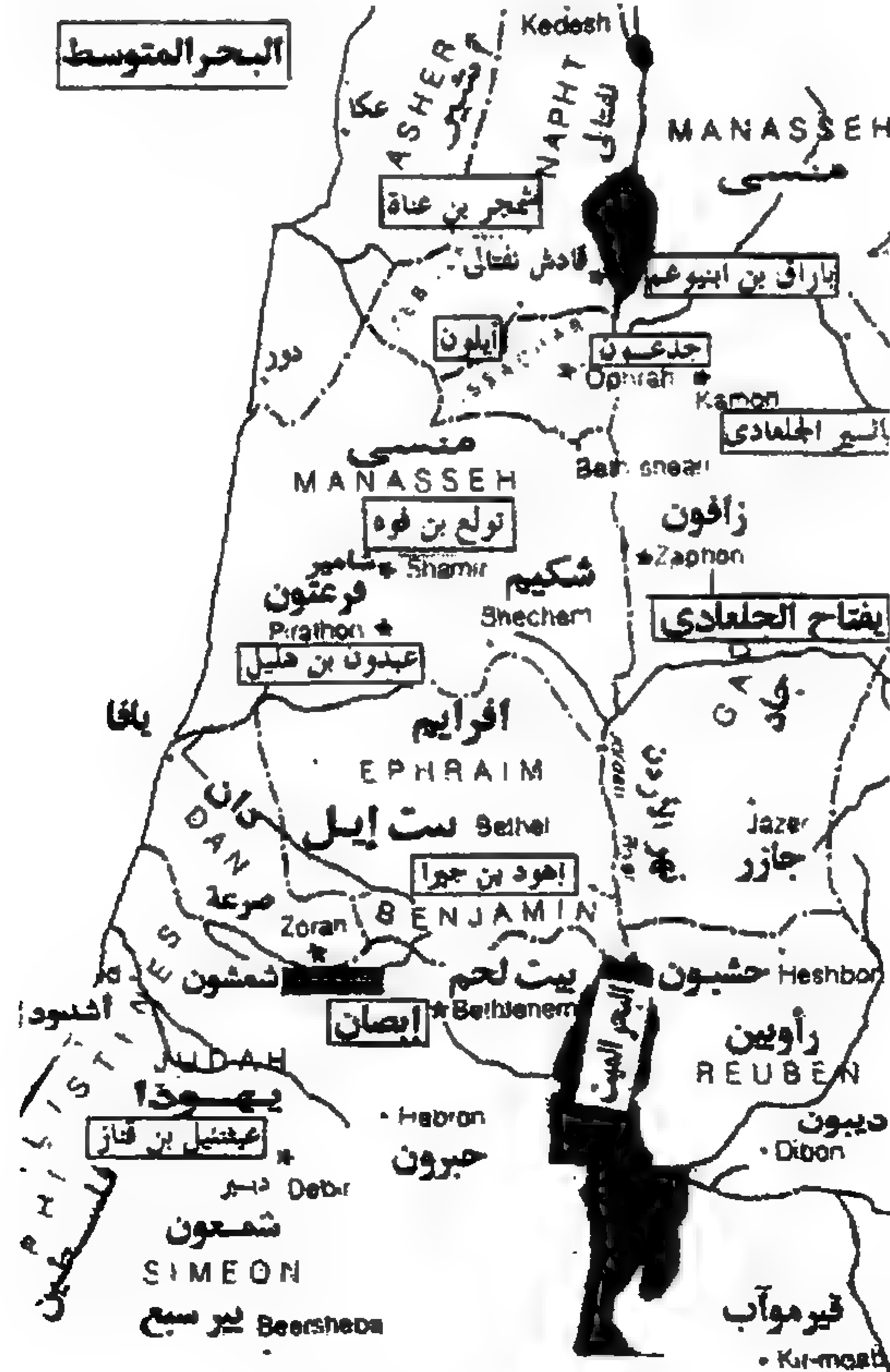
وفي تلك الأثناء حاول العبريون التخلص من حكم الفلسطينيين، ولكن الفلسطينيين دحروهم وقتلوا حفني وفينحاس، ومات على أثر ذلك الكاهن عالي بعد أن قضى للعبريين مدة أربعين سنة، وأخذ الفلسطينيون من بني إسرائيل تابوت الرب الذي أحل المصائب على الفلسطينيين، وأينما حل تابوت العهد بين مدن الفلسطينيين الخمس كان الناس يصابون بالبواسير، فقرروا إعادته إلى العبريين بعد سبعة أشهر، والذين وضعوه في قرية يعاريم لمدة عشرين سنة، وكان العبريون يتذمرون من حكم الفلسطينيين، وكان صموئيل «يسكن في الرامة ويقضي لهم في بيت إيل والجلجال والمصفاة»، وقد طلب من بني إسرائيل العودة إلى (يَهْوَه)، وهذا ما أدى إلى تحررهم من ربقة الفلسطينيين، وكانوا آنذاك على وفاق مع الأموريين، ولما شاخ صموئيل عيّن ابنيه يوئيل وأبيا قاضيين في بئر سبع، ولكنهما لم يكونا مستقيمين في حكمهم، بل كانا مرتشيين وفاسدين في حكمهما، فجاء الأعيان إلى صموئيل وطالبوه أن

يقيم عليهم ملكاً أسوة بباقي الشعوب، وقد حاول صموئيل أن يثني الشعب «فكلم صموئيل الشعب الذين طالبوا منه ملكا بجميع كلام الرب وقال هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم. يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه. ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه. ويأخذ بناتكم عطّارات وطباخات وخبّازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويعشّر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله. ويعشّر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً. فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجب لكم الرب في ذلك اليوم. فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك. فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا»، وبذلك لم يجد صموئيل بدا من أن يلبي مطلب أنصار الملكية، فقام صموئيل بمسح شاؤل (طالوت) من سبط بنيامين ملكا عليهم لأنه كان الأطول والأجمل في العبريين جميعا، وقد اختاره من أصغر القبائل العبرية، ومن أصغر عائلات تلك القبيلة، كما كان ذا شخصية ضعيفة، قليل المعرفة والخبرة، فهو لم يكن سوى راعي أبقار، والطريف أن بقي يعمل كراعي أبقار لمدة من الزمن حتى بعد أن تم تنصيبه ملكا على بني إسرائيل، ويبدو أن انتقاء صموئيل لـ شاؤل الضعيف كان انتقاء مدروسا، كي تبقى لصموئيل اليد الطولى، وكان العمونيون متسلطين على يابيش جلعاد (والذي أتى سابقا أن بني إسرائيل كانوا قد قضوا عليهم تماماً، ولم يبق منهم سوى أربع مئة عذراء أعطوهن كزوجات لبنيامين) فحررهم شاؤل في أول حرب يخوضها، بعد أن قام العمونيون بمحاصرة يابيش جلعاد في شرقي الأردن فهب عبرانيو غربي الأردن لنجدة عبرانيي شرقي الأردن بقيادة ملكهم الجديد، وانتصر فيها شاؤل وهذا ما عزز موقعه أمام معارضيه، وبعدها وعلى جبل الجلجال ذهب الشعب وملكوا عليهم شاؤل.

ولمزيد من الإحاطة بحيثيات تلك المرحلة الفاصلة ما بين نظام القضاة، وما بين تنصيب أول ملك على (بني إسرائيل) سأورد نصا طويلا من سفر صموئيل الأول: ١١:

«وصعد ناحاش العموني ونزل على يابيش جلعاد. فقال جميع أهل يابيش لناحاش اقطع لنا عهدا فنستعبد لك. فقال لهم ناحاش العموني بهذا اقطع لكم. بتقوير كل عين يمنى لكم وجعل ذلك عارا على جميع إسرائيل. فقال له شيوخ يابيش اتركنا سبعة ايام فنرسل رسلا الى جميع تخوم إسرائيل. فإن لم يوجد من يخلّصنا نخرج إليك. فجاء الرسل إلى جبعة شاؤل وتكلموا بهذا الكلام في آذان الشعب فرفع كل الشعب أصواتهم وبكوا. وإذا بـ شاؤل آت

وراء البقر من الحقل. فقال شاؤل ما بال الشعب يبكون. فقصّوا عليه كلام أهل يابيش. فحلّ روح الله على شاؤل عندما سمع هذا الكلام وحمي غضبه جدا. فأخذ فدان بقر وقطّعه وأرسل إلى كل تخوم إسرائيل بيد الرسل قائلا من لا يخرج وراء شاؤل ووراء صموئيل فهكذا يفعل ببقره. فوقع رعب الرب على الشعب فخرجوا كرجل واحد. وعدّهم في بازق فكان بنو إسرائيل ثلاث مئة ألف ورجال يهوذا ثلاثين ألفا. وقالوا للرسل الذين جاؤوا هكذا تقولون لأهل يابيش جلعاد. غدا عندما تحمى الشمس يكون لكم خلاص. فأتى الرسل وأخبروا أهل يابيش ففرحوا. وقال أهل يابيش غدا نخرج إليكم فتفعلون بنا حسب كل ما يحسن في أعينكم. وكان في الغد أن شاؤل جعل الشعب ثلاث فرق ودخلوا في وسط المحلّة عند سحر الصبح وضربوا العمونيين حتى حمي النهار. والذين بقوا تشتتوا حتى لم يبق منهم اثنان معا. وقال الشعب لصموئيل من هم الذين يقولون هل شاؤل يملك علينا. ائتوا بالرجال فنقتلهم. فقال شاؤل لا يقتل أحد في هذا اليوم لأنه في هذا اليوم صنع الرب خلاصا في اسرائيل» صموئيل۱ : ۱۱.



موقع مواطن القضاء

حروب يفتاح

راموت جلعاد

يابيش جلعاد

المصفاة

نهر يبوق

عمون

أفرايم

نهر الأردن

مينيت

نهر يفتاح في مصفاة جلعاد

البحر الميت

قراءة في النص التوراتي
لمرحلة القضاة

كان سفر يشوع في إصحاحاته الأولى قد سرد أسطورة الدخول، والتي تقول إن القبائل العبرية قامت بإبادة الكنعانيين ومحو اسمهم من بلادهم، ولم يبق من يشاطر بني إسرائيل في بلاد كنعان سوى الفلسطينيين (العناقيين) الذين تمترسوا في مدنهم الأربع على القسم الجنوبي من شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ثم بدأ محرر الإصحاحات التالية من سفر يشوع يفاجئنا بأن كل ما ورد في البداية لم يكن فيه شيء من الصحة، وأن كل ما قام به بنو إسرائيل في أرض كنعان هو أنهم استطاعوا الدخول إليها، والاستيطان في جيوب قليلة وصغيرة منتشرة هنا، وهناك، أو كمنازل متفرقة على أطراف بعض المدن الكنعانية.

أما سفر القضاة فقد أظهر بشكل أوضح أن القبائل العبرية (بني إسرائيل) بعد موت يشوع كانت تعاني من حالة مزرية ليست أفضل مما كانت عليه في متاهة صحراء سيناء، بل أصبح بنو إسرائيل أكثر تشتتا من ذي قبل، فلم يكن لهم أي تواجد مركزي في بلاد كنعان، بل كانوا مشتتين، يتنقلون مع أغنامهم على أطراف المدن الكنعانية، وقد استطاع بعضهم أن يبني بعض التجمعات شبه القروية على هوامش المدن الكنعانية، وبعضهم استوطن على محيط القرى والمدن الكنعانية، وهم الذين شيئا فشيئا أخذوا يتكنعنون، فمارسوا بعض الأعمال الزراعية، كما أنهم اندخلوا في الديانة البعلية الكنعانية «فسكن إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم» قضاة ٣، ولكن دون أن يتخلوا عن عبادتهم القبلية العشائرية القبلية وهي التي كانت السبب الرئيس في الحروب البينية العبرية.

وبعد أن تمزقت القبائل العبرية على تلال وجبال بلاد كنعان الجرداء، قامت شعوب المنطقة باستعباد بعضهم، كما قاموا ببيع البعض عبيداً، لأنهم - حسب ما جاء في سفر القضاة - لم يلتزموا بتعاليم الرب، وفعلوا الشر في عينيه وعبدوا البعليم وعشتاروت، وساروا وراء آلهة أخرى، وسجدوا لها وأغاضوا الرب (يَهْوَه) «فحمي غضب الرب على إسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين وباعهم بيد أعدائهم حولهم ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام أعدائهم» قضاة ٢،

كما انتشرت فيما بينهم العلاقات الجنسية والاجتماعية الشاذة، بما فيها الدسائس، والفتن، وتشكيل عصابات مرتزقة كانت تقوم بأعمال الغزو والنهب، والتي كانت تأتلف حول أحد الرجال ثم تفترق بعد موت زعيمها الذي سمي في التوراة باسم القاضي، كما أنهم عانوا إضافة إلى تسلط الشعوب عليهم من الحروب العشائرية القبلية البينية التي زادت في تشتتهم، وقتل الآلاف منهم، ولم تساعد هذه الظروف على إفراز شخصية قيادية كموسى أو كيشوع ليوحدهم في بوتقة واحدة، وظلوا متفرقين، مستعبدين لشعوب الأرض.

وبذلك كشف سفر القضاة أن ديموغرافيا المنطقة بقيت على ما كانت عليه، وأن مدينة على غاية من الأهمية هي أورشليم بقيت كنعانية صرفة، ولم يسكن فيها ولا حتى عبري واحد، بعد أن جاء في سفر يشوع «وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى يومنا هذا» يشوع ١٥: ٦٣، أما في سفر القضاة فجاء ما يناقض هذا الكلام «وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم» القضاة ١: ٢١، ومن ثم يتضح أن أورشليم لم تسقط أبدا، وبقيت كنعانية، وهذا ما يسوغ الخطأ الذي ارتكبوه بأن ادعوا مرة أن الذين سكنوا في أورشليم بنو يهوذا، وفي نص آخر بنو بنيامين، ولكن الحقيقة أنهم لا هؤلاء، ولا هؤلاء، بل بقيت كنعانية بشكل كامل ولم يستطع أحد من القبائل العبرية الدخول إليها حيث تتكشف حقيقة الموقف من خلال سرد سفر القضاة قصة المرأة (السريّة) التي زنت عند سيدها وهربت إلى بيت أبيها، فذهب سيدها واستردها وفي طريق عودتهم «وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر جدا قال الغلام لسيده تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيده لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا نعبر إلى جبعة»، ومن ثم يتكشف أنه حتى عصر القضاة لم تستطع القبائل العبرية الدخول إلى أي مدينة، بل بقوا يسكنون في خيامهم على أرض المراعي في الجبال الجرداء والبوادي، وأن بعضهم كانوا يعيشون تحت الجزية، وبعضهم كانوا محاصرين في الجبال الجرداء لا يستطيعون النزول منها، وتتكشف الحقيقة أكثر ويتضح أن بعض الشعوب لم يتسن لها أن تسمع بعد بوجود العبريين في بلاد كنعان، بل ويفاجئنا سفر القضاة بأن الدانيين حتى زمان متأخر كانوا ما زالوا يعيشون تحت خيامهم يتنقلون بها حسب ما كانت الظروف تسمح لهم، وأن تعداد رجالهم لا يزيد عن ستة مئة رجل على الرغم من أنه جاء في التعداد الأول الذي أجراه موسى قبل ثلاثة قرون بعيد خروجهم من مصر كان ٦٢٧٠٠ رجل حرب، وفي التعداد الثاني الذي أجري بعد أربعين سنة من الإحصاء الأول، وقبيل دخولهم إلى

بلاد كنعان كان ٦٤٤٠٠، وبعد أكثر من مئتي سنة ليسوا أكثر من ٦٠٠ رجل، وهم الذين صعدوا شمالا نحو الجليل الأعلى وغزوا قرية صغيرة وآمنة وسكنوا بها وأسموها دان وهي كما مر معنا سابقا موجودة بنفس الاسم منذ زمن الآباء الأوائل، ومن جهة آرى، فقد جاء في سفر التثنية أن الدانيين كانوا يسكنون في جبل باشان (حوران) «دان شبل أسد يثب من باشان.» تثنية: ٣٣.

كما يرد أيضا أن تعداد بني إسرائيل في هذا الزمان هو أربع مئة ألف رجل من بني إسرائيل، عدا النيامينيين الذين كان تعدادهم ستة وعشرين ألفا، وهم الذين يرد ذكرهم وكأنهم أخوة لإسرائيل لا أبناء له، وكان تعدادهم في إحصاء موسى الأول ٣٥٤٠٠، وتعدادهم في إحصاء موسى الثاني ٤٥٦٠٠ رجل، وبعد أن تمت إبادتهم في الحرب القبلية الإسرائيلية البينية لم يبق منهم سوى ست مئة رجل، ويبدو أن المحرر اليهوي أراد أن ينهي سبط بنيامين الذي ارتبط تاريخه مع تاريخ بني يهوذا فدس تلك القصة، والجدير ذكره أن إحدى القصص التاريخية تذكر أن الشخصية الشهيرة أليسار بنت ملك صور، عندما قررت الرحيل، إثر خلافات عائلية، من صور إلى شمال أفريقية نزلت في جزيرة قبرص، وأثناء احتفال النساء بعيد البعل، قامت أليسار باختطاف ثمانين عذراء كن يتعبدن لأفروديت (عشتار)، وزوجتهن إلى رجالها الذين كانوا معها على متن المركب، وهو يتناص مع قصة بنيامين.

أما بالنسبة لديانة الجماعات العبرية اليهوية فكانوا قد تركوها وعبدوا آلهة الشعوب التي يعيشون على أرضها، وشحب وجود الرب (يَهْوَه)، لمصلحة الآلهة الكنعانية، ثم لمصلحة الكهنوت اليهوي بالدرجة الثانية، ولم يكن دور الرب (يَهْوَه) يتعدى دور كومبارس هامشي، يتبدى على مسرح الأحداث بشكل هامشي، وكان يتجلى من خلال ملاك، أو بالايحاء، أما مدنيا فكانوا يخضعون مدنيا لحكم الكنعانيين، ولكنهم قبليا كانوا في بعض الأوقات يخضعون لحكم قاض عبراني، ولم يكن للقاضي سيادة محددة، أو مكان محدد، بل كان عرفيا يسمى بالقاضي إذا ما استطاع أن يفرض وجوده على قبيلته وعلى بعض القبائل المحيطة، والقاضي لا يعني أنه يمثل سلطة تشريعية كما يتبادر للذهن، بل يمثل أيضا سلطة تنفيذية محصورة بالمجتمع القبلي، فيكفي أن يكون لدى أي رجل عصابة من قطاع الطرق ليكون قاضيا، وهذا يعني إمكانية وجود أكثر من قاض في نفس الزمن، أو غياب أي قاض في أكثر المراحل، والتي كانوا يخضعون فيها لحكم الشعوب الكنعانية الذين تناوبوا في التسلط عليهم، والقاضي حسب التوراة كان الشخصية العبرانية المميزة في تلك المرحلة ليس أكثر، ولم يكن قاضيا بالمعنى الحرفي للكلمة، فشمشون لم يقض لهم، كذلك يفتاح،

فالقضاة بشكل عام لم يكونوا سوى رؤساء عصابات يقومون على قطع الطرق والغزو والقتل وتقاضي لإتاوات، وهو ما كان عليه الأمر أيضا بالنسبة لداود قبل أن يصبح ملكا توراتيا على إسرائيل.

وقد أتت التوراة على ذكر اثني عشر قاضياً يمثلون الأسباط الاثني عشر، وكلما جاء قاض وحررهم من هيمنة أحد الشعوب عليهم، عادوا وخضعوا إلى حكم شعب آخر، وقد أورد سفر القضاة هذه القضية بشيء من الغموض إذ كيف للموآبيين على سبيل المثال أن يتسلطوا على القبائل التي تعيش في مناطق تابعة للأموريين، ومناطق أخرى تابعة لليبوسيين أو للفينيقيين، ويبدو أن المحرر الذي لم يكن يشأ أن يُعرب عن أن القبائل العبرية لم يكن لها أي سيادة على مناطق جغرافية محددة فجعل الأحداث مبهمة دون توضيح، ولكن ما يمكن تفهمه واستقراؤه من خلال سفر القضاة هو أن بعض هذه القبائل كان لها سيادة على بعض المناطق الخالية من الكنعانيين على جبل يهوذا في الجنوب الغربي للبحر الميت، ولم يكن لهذه المناطق وحدة جغرافية تامة بل كانت عبارة عن جزر منفصلة بالمدن الكنعانية مثل يبوس (أورشليم)، أما الباقون فكانوا يسكنون الخيام ويتنقلون على الأرض المشاع بين المدن الكنعانية على سفوح الجبال وفي الداخل وكانوا خاضعين لحكم الشعوب أو للمدن التي كانوا ينصبون خيامهم على مسارحها.

وقد جاء أن كوشان رشعتايم ملك آرام النهرين قد تسلط عليهم، ويبدو أن أرام النهرين هذه تختلف عن أرام النهرين التاريخية التي تشكل المنطقة الشمالية من بلاد ما بين النهرين، وآرام النهرين المديانية ليست أكثر من فرع من المديانيين البدو، وهو أيضا ما يفسر اللبس الذي أحاط بشخصية النبي بلعام الذي أوردته التوراة على أنه من آرام النهرين، ومرة على أنه مدياني، كما يمكن أن نفسر أن تلك القصص لم يكن لها أي مصداقية تاريخية، أو أنها كانت عبارة عن مزيج من قصص تمسرحت في أكثر من منطقة جغرافية، وفي أزمان مختلفة، وقد قام المحرر التوراتي بتجميعها، ومن ثم حاول أن يربطها بجغرافية قسرية هي بلاد كنعان، كما أجبرها على أن تأخذ زمنا (كرنولوجيا) معينا.

وسفر القضاة الذي يرد في التوراة حُرر بطريقة أبعد ما يمكن عن كتابة التاريخ، فقد جاء على شكل قصص وحكايات يمكن وصفها بالشعبية المطعمة بالخرافات التشويقية، أهمها قصة جدعون (يربعل) وابنه أبيمالك، وقصة يفتاح الجلعادي، وقصة شمشون، وجميع هذه الحكايات تشكل حالات تناص من قريب أو بعيد مع قصة البطل المخلص، ولا سيما بالنسبة لأسطورة ولادة المخلص، فأبيمالك كان ابن سرية، ويفتاح الجلعادي كان ابن زانية،

وشمشون كان ابن امرأة عاقر، وكذلك الأمر بالنسبة لصموئيل، وقد قام المحرر بجمع تلك الحكايات، وسردها بطريقة فسيفسائية مفككة، لم يراع فيها الترتيب الزمني الكرونولوجي الفقاري، وهذا ما أدى إلى حصول عدة تداخلات وانزياحات زمانية.

أما زمن تحرير سفر القضاة، وسفري صموئيل وراعوث والذين يشكلان صلة وصل بين مرحلة القضاة ومرحلة المملكة المتحدة، فهو كالأسفار السابقة كان في مرحلة متأخرة تعود إلى زمن السبي فقد جاء «ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذي ولد لإسرائيل.. وأقام بنو دان لأنفسهم التمثال المنحوت وكان يهوناثان ابن جرشوم بن منسى هو وبنوه كهنة لسبط الدانيين إلى يوم سبي الأرض» قضاة ١٨.

«في تلك الأيام حين لم يكن ملك في إسرائيل» قضاة ١٨.

«وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم» القضاة ١: ٢١.

«لأن النبي اليوم كان يدعى سابقا الرائي» صموئيل الأول ٩.

وهناك الكثير من مثل هذه الشواهد، كما أن بُعد الكاتب والمحرر عن الزمن الذي يؤرخ له جعله يقع في الكثير من التداخلات الزمانية.

الفصل الخامس

عصر المملكة الموحدة

بعد أن ثبت فشل نظام القضاة في الحفاظ على الوحدة الأثنية للقبائل العبرية، وبعد استشعارهم بحاجتهم إلى أن يكون لهم ما لسواهم من شخصية تاريخية تكون مبعث اعتزاز لهم، وتحت ضغط الشعب وشيوخ العشائر العبرية، سلّم صموئيل (السموأل) علَم القضاة كآخر قاضٍ على القبائل العبرية إلى شاؤل البنياميني (طالوت) كأول ملك، ولكن صموئيل، وعلى اعتباره نبيا أو كاهنا أبقى بيده السلطة الدينية وبمعنى آخر السلطة التشريعية، كما أنه باختياره لملك ضعيف، ومن عائلة وضيعة، الأمر الذي يساهم في جعل الملك تابعا ومدينا لوجوده لـ صموئيل الذي سيبقى له نفوذ تنفيذي، وبذلك أصبح للقبائل مرجعان ديني للقاضي صموئيل، وسياسي عسكري للملك شاؤل الذي كان من أبناء الجنوب المتزمتين بعبريتهم، وهو من عامة الشعب من قرية جبعة البدوية الفقيرة، ومن عائلة فقيرة ما زالت تقيم في الخيام، وقد اتخذ من جبعة المدينة التي تبعد ٥ كم عن أورشليم عاصمة له، وقد التف حوله بعض الرجال من قبيلته بنيامين، وبعض الرجال من العشائر العبرية الأخرى ولا سيما من العشائر الجنوبية اليهوذية «وأخذ شاؤل الملك على إسرائيل وحارب جميع أعدائه حواليه موآب وبني عمون وأدوم وملوك صوبة والفلستيين وحيثما توجه غلب، وفعل ببأس وضرب عماليق وأنقذ إسرائيل من يد ناهبيه» صموئيل الأول: ١٤ : ٤٧ - ٤٨.

وكانت العقبة الحقيقية أمام العبرانيين هم الفلسطينيين الذين كانوا متسلطين على بلاد كنعان، وكانت لهم اليد الطولى، وإذا ما استطاعت القبائل العبرية أن تؤسس صيغة تفاهم مع باقي الشعوب، فهذا لم يكن لها مع الفلسطينيين الذين كانوا يعتمدون على أسلحتهم الحديدية التي لم تكن معروفة بعد في بلاد كنعان، والتي حرموا باقي الشعوب منها «لم يوجد صانع في كل أرض إسرائيل. لأن الفلسطينيين قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفا أو رمحا. بل كان ينزل كل إسرائيل إلى الفلسطينيين لكي يحدّد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله» صموئيل الأول ١٣.

وفي تلك الظروف حصل خلاف عميق بين صموئيل الممثل للسلطة التشريعية، وشاؤل الممثل للسلطة التنفيذية بعد أن كان صموئيل قد طلب من شاؤل قائلا: «فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلا وامرأة. طفلا ورضيعا. بقرا وغنما. جملا وحمارا. فاستحضر شاؤل الشعب وعده في طلايم مئتي ألف راجل وعشرة آلاف رجل من يهوذا» صموئيل الأول ١٥: ٢، لكن شاؤل، الذي نجح في غزوته، لم يقم بإبادة كل ما قاله صموئيل، بل استحيى أجاج ملك العماليق، كما استحيى الحيوانات أيضا لأن السلطة التنفيذية ترى المصالح المادية أكثر من المصالح الروحية الدينية، كما أنه، وبعد أن تعزز وجوده، حاول التمرد على هيمنة صموئيل، وصار يقدم القرابين بنفسه متخليا عن الكهنة الذين يحتكرون هذه الشعيرة، وهذا ما جعل صموئيل يبدأ العمل سرا على تصفية شاؤل، «وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا ندمت على أني قد جعلت شاؤل ملكا لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي» صموئيل الأول ١٥، وحاول شاؤل خوفا من قوة السلطة الدينية التي ما زال صموئيل يمتلكها أن يسترضي صموئيل بقتله لأجاج ملك عماليق، ولكن صموئيل رفض هذا التملق، وقام سرا بمسح داود بن يسى (البت لحمي) ملكا، وكان داود بن يسّى من قبيلة يهوذا المنافسة لهيمنة قبيلة بنيامين، والقبيلة الأكثر تزمتا من بين القبائل العبرية بسبب عزلتها الجغرافية في الجنوب عن شعوب المنطقة.

وبذلك مُسح داود ملكا عرفيا على اتحاد قبائل العبريين بمباركة من القيادة الدينية، وكان داود حسب وصف التوراة له شابا أشقر البشرة مع حلاوة في العينين وحسن المنظر ويحسن ضرب العود، وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح أيضا.

وفي ذلك الوقت أحلّ الرب روحاً شريرة على الملك شاؤل (طالوت) وتم استدعاء داود ليعالجه ويروّح عن نفسه بضربه على العود، وبذلك تم التعارف بين داود والملك شاؤل، وبعد ذلك يورد المحرر قصة ثانية للتعارف بين داود والملك شاؤل، فخلال حرب بين الفلستيين واتحاد القبائل العبرية تقابل الجيشان، وقبل بداية المعركة تقدم شخص جبار من الفلستيين اسمه جليات (جالوت)، وطلب أن ينازله أحد المقاتلين من اتحاد القبائل العبرية، بحيث يكون الذي يُغلب في المواجهة يصبح جيشه وشعبه عبيدا لشعب المنتصر، وقد أعلن شاؤل أن من يتحدى جليات فإنه سيجعله رجلا غنيا، كما أنه سيقوم بتزويجه بابنته الكبرى، ولم يجرؤ أن يتقدم أحد من القبائل العبرية لمواجهة جليات الفلستي، وبعد أربعين يوما من العرض اليومي تقدم داود لمنازلته، واستطاع أن ينتصر على جليات بضربة بسيطة بمقلاعه، وقام داود بقتل جليات بسيفه الذي أخذه منه، فاضطرب الفلستيون، وهذا ما شجع العبرانيين بالهجوم على الفلسطينيين

والانتصار عليهم، ولما جاء داود إلى شاؤل سأله «ابن من أنت يا غلام. فقال داود ابن عبدك يسى البيتلحمي»، ونسي المحرر أن داود هو الذي يريح شاؤل من الروح الشريرة التي تحل عليه، وكبداية قام شاؤل بتعيين داود قائدا لفرقة عسكرية.

وبسبب مخاوف شاؤل من داود سليل قبيلة يهوذا، والمدعوم من قبل الفلستيين (حسب ما أتى في التوراة والتي أظهرته أنه كان حليفا للفلستيين دون أن توضح سبب هذا الدعم) والذي بدا نجمه يصعد، حاول أن يوقع بينه وبين الفلستيين فيقتلوه، فقدم شاؤل ابنته ميكال زوجة لداود مقابل مئة غلفه من الفلستيين، ولكن داود وبكل بساطة قدّم مئتي غلفة من غلف الفلستيين بدل المئة، كما أنه أيضا وبعد أن كان قد انتصر في معركة أخرى على الفلستيين زاد من خطر قوته على شاؤل، وحصل خلاف بين داود وشاؤل، فطلب شاؤل من ابنه يوناثان ومن عبيده أن يقتلوا داود، مما اضطر داود إلى الهروب بمساعدة صديقه الحميم يونثان ابن شاؤل والذي كان على علاقة لا سيما مع داود الذي عبر عنها داود بقوله «كنت حلوا لي جدا. محبتك لي أعجب من محبة النساء» صموئيل الثاني ١، وقد التجأ داود إلى عدو شاؤل الأول القاضي صموئيل، ومن ثم احتمى بالملك لخيش ملك مدينة جت الفلستية، وهناك لم يطمئن بعد أن عرف أهل مدينة جت أن داود هو قاتل جليات فادعى داود الجنون وهرب، واختبأ في إحدى المغارات، حيث هناك انضم إليه رجال أقاربه من قبيلة يهوذا، كم انضم إليه قطاع الطرق والمديونون وما شابه ذلك، وشكل عصابة كان تعدادها في البداية قرابة أربع مئة رجل، وبعد أن أودع داود أمه وأباه عند أخواله الموآبيين، دخل إلى جبل يهوذا واحتمى بوعره وأعلن التمرد على الملك شاؤل، وشكّل عصابة من ستة مئة رجل لمع نجمها، وقد انتصر الكهنة لداود تحت قيادة صموئيل فقام شاؤل بقتلهم ولم يسلم منهم سوى الكاهن أبياثار الذي انضم إلى داود الذي كان نجمه يزداد صعودا ولمعانا لا سيما بعد أن ضرب الفلستيين في قعيلة وحرر سكانها منهم.

وكان داود يعتاش آنذاك على الغزو والسلب والنهب، وقطع الطرق، وأخذ الإتاوات من القرى التي تهيمن عليها عصابته، ولم يستطع شاؤل أن ينهي تمرد داود على الرغم من إصراره على ملاحقته، لأن داود وعصابته كانوا يجيدون الاختباء في الكهوف والمغاور التي خبروها، وقد سنحت فرصتان لـ داود للنيل من شاؤل ولكنه لم يفعل، وقد تزوّج داود من امرأة اسمها أبيحايل من الكرمل كان زوجها غنيا جدا ومات، وربما قام داود بقتله لأنه كان قد رفض أن يدفع له الإتاوة التي فرضها عليه داود، كما أنه تزوج أيضا من امرأة ثانية اسمها أخينوعم من يزرعئيل، أما زوجته ميكال ابنة شاؤل والتي بقيت عند أبوها فقد أعطاها أبوها زوجة لسواه.

وفي النهاية وبسبب إصرار شاؤل على النيل من داود، اضطر الأخير إلى اللجوء ثانية إلى لخيش ملك جت المدينة الفلستية، حيث لا يستطيع أن ينال منه شاؤل وقد أسكن الملك لخيش داود وعصابته في منطقة صقلغ (قرب غزة)، حيث من هناك تابع داود تحت حماية الفلستيين الغزو والسلب والنهب، ولما تقررت الحرب بين الفلستيين واتحاد القبائل العبرية، خرج داود ومعه عصابته المشكّلة من الست مئة رجل، ولكن الفلستيين رفضوا أن يشترك داود وعصابته معهم خشية الغدر بهم من قبله، فطلبوا منه العودة إلى جت وهناك وجد داود العمالقة قد استغلوا فرصة غياب رجال جت وغزوا قرى الجنوب بما فيها مضارب عصابته وسبوا كل شيء، فلحق بهم داود وأخذهم على حين غرة واسترجع كل نسائهم وممتلكاتهم، مع المزيد من الغنائم والتي قام بتوزيع جزء منها على العبريين ليكسب المزيد من المؤيدين والمريدين.

أما الحرب التي كانت تدور رحاها بين الفلستيين واتحاد القبائل العبرية فقد انتصر فيها الفلستيون وقتلوا شاؤل وأولاده الثلاثة، بعد أن ملك لمدة لا تزيد عن سنتين أو ثلاث سنوات فقط كانت مليئة بالأحداث، «كان شاؤل ابن سنة في ملكه وملك سنتين على إسرائيل» صموئيل الأول ١٣، فصعد داود إلى حبرون (الخليل) حاضرة منطقة يهوذا (في جنوب فلسطين)، وهناك نصّبوه ملكا عليهم وكان عمره حينها ثلاثين سنة، وبالمقابل في منطقة إسرائيل (في شمال فلسطين) فقد كان الشعب قد نصبوا ابن شاؤل إشيوشث «ملكا على جلعاد وعلى الآشوريين وعلى يزرعئيل وعلى أفرايم وعلى بنيامين وعلى كل إسرائيل» صموئيل الثاني، ويبدو أن إشبوشث على الرغم من أنه من أبناء الجنوب، قد وجد في منطقة الشمال التي ينتشر فيها بعض العشائر البنيامينية، وعشائر أفرايم (وكما نعلم أن بنيامين هو الأخ الشقيق ليوسف أبو أفرايم) مناصرين له.

وكانت هناك حرب طويلة بين بيت شاؤل ومن ناصرهم، وبيت داود ومن ناصرهم، وكان داود يزداد قوة على عكس إشيوشث، لا سيما بعد أن انضم إلى داود أبنير، قائد جيش شاؤل سابقا وقائد جيش إشيوشث لاحقا، إثر خلاف بين اشبوشث وأبنير، وقد تم قتله على يد يوآب القائد العسكري عند داود كتصفية حسابات، فقد كان أبنير قد قتل عسائيل أخو يوآب، كما أنه كان منافسا شرسا له، وبعد سنتين من انقسام بني إسرائيل تم قتل إشيوشث بيد أتباعه، وبذلك وانتهى الأمر إلى داود الذي أصبح ملكا على المملكة المتحدة، وكانت حاضرتها حبرون (الخليل)، وعرف داود كيف يثبت أركان حكمه من خلال المؤامرات، فكان يقوم بالتحريض على قتل أعدائه ثم كان يقوم بقتل القتلة، وبقي منذ إعلانه ملكا في حبرون لمدة سبع سنين ونصف، وقد حاول الاستيلاء على أورشليم دون أن يستطيع ذلك،

ولكنه في النهاية استطاع أن يسيطر على حصن صهيون اليبوسي المهجور وهو يشكل الجزء الجنوبي من مدينة أورشليم، وقد استولى عليه بعد أن قام بمحاصرة أورشليم، وبعد أن تسلل بعض الرجال بقيادة يوآب عبر القناة المائية والتي كان اليبوسيون قد حفروها والتي تصل ما بين نبع جيحون الذي يقع خارج الأسوار، والبئر الذي يقع داخل المدينة، والذي من خلاله يحصل سكان مدينة على الماء منه أثناء الحصار، وعبر تلك القناة تسرب يوآب إلى داخل المدينة وقام بفتح أبوابها أمام قوات داود الذين دخلوا المدينة وسيطروا على حصن صهيون واحتموا به، وبنى عليه داود بضع مبان وأسماها مدينة داود (جبل المكبر أو جبل الزيتون) كتمهيد للاستيلاء على أورشليم التي ما زالت كنعانية صرفة حتى هذا الزمان، وبذلك أصبحت العاصمة الجديدة لداود هي حصن صهيون، حيث قام بترميمه وتوسعية بالتعاون مع حيرام ملك صور، كما قام بإسكان عائلته فيها، وقد كان لداود عدة زوجات بما فيها ميكال بنت شاؤل التي أخذها عنوة من بيت زوجها، فقد ورد أنه عندما كان في حبرون كان له ست زوجات، وكان له الكثير من الأبناء أيضا.

واستطاع في بداية حكمه أن يطرد الفلستيين من وادي الرفائيين الذين كانوا قد انتشروا فيه لا بدافع الهجوم بل طمعا في داود الذي كان نزيلا عندهم، وكان آنذاك لدى داود ثلاثين ألفا من المحاربين.

وبعدها قام بنقل تابوت الرب من قرية بعلة في جبل يهوذا إلى حصن صهيون بالرقص والغناء على طريقة الكنعانيين أصحاب الديانة البعلية، وبذلك جعل من مدينة داود عاصمة سياسية ودينية، وكان زمان النبي ناثان والذي كان على اتصال مع الرب، والذي نصح داود ببناء بيت لتابوت العهد الذي ما زال يسكن في الخيام إلى الآن، ولكنه عاد النبي ناثان في اليوم التالي وتراجع عن اقتراحه بحجة أن الرب (يَهْوَه) يريد أن يبقى في الخيمة، وقال له أن ابنا له سوف يقوم ببناء بيت الرب (يَهْوَه)، والجدير ذكره هو أن الرب (يَهْوَه) في هذه المرحلة كان يزداد شحوبا، وأصبح أقرب ما يمكن لقائد خفي، وضعيف في آن واحد، وكان يتصل في الأوقات المفصلية من التاريخ العبري مع بعض الأشخاص من خلال وسيط، وهو ما يمكن تبينه أثناء تعيين شاؤل، ومن بعهده داود ملوكا على بني إسرائيل «وقال صموئيل لشاؤل. أياي أرسل الرب لمسحك ملكا على شعبه إسرائيل. والآن فاسمع كلام الرب. هكذا يقول رب الجنود. إني افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر. فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلا وامرأة. طفلا ورضيعا. بقرا وغنما. جملا وحمارا.. وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا ندمت على أني قد جعلت

شاؤل ملكا لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي» صموئيل ١٥ ، «فقال الرب لصموئيل.. تعال أرسلك إلى يسّى البيتلحمي لأني قد رأيت لي في بنيه ملكا» صموئيل ١٦.

وكانت أركان حكم داود ترتكز على يوآب ابن صروية قائدا للجيش، ويهوشافاط بن أخيلود على السجلات، وصادوق بن أخيطوب وأخي مالك بن أبياثار كاهنين، وبناياهو بن يهوياداع على الجلادين والسعاة، وبنو داود كانوا كهنة على الرغم من أنهم ليسوا من اللاويين، وبذلك حصر في يديه الحديدية السلطة الدينية الكهنوتية التشريعية، والسلطة السياسية التنفيذية، واستطاع أن ينجح في ذلك من خلال قيامه بعدة أعمال إدارية تنظيمية.

ومن ثم - بعد استقرار الحكم - بدأ بحروبه التوسعية، وابتدأها بالفلستيين الذين انحصرت سلطتهم على مدنهم الساحلية، ثم الموآبيين الذين أصبحوا «عبيدا لداود يقدمون هدايا»، وضرب هدد عزر ملك صوبة الذي كان في حرب في بلاد الرافدين لاسترداد ما ضاع منه، وهذه المملكة لم يرد لها ذكر في التاريخ ولم تجد الأبحاث الأركولوجية أي أثر يدل على مكان تواجدها، كما أخضع مملكة دمشق له بعد أن هبت لنصرة مملكة صوبة، وبذلك أصبح شعبها مع كل الآراميين بممالكهم العديدة عبيدا لداود يقدمون له الهدايا، وقدّم ملك حماة أيضا الطاعة لداود، ووضع داود محافظين في أدوم، وحين مات ناحاش ملك العمونيين وتولى بعده الحكم ابنه حانون أرسل الملك داود معزين، فقام حانون بالاستهزاء برسل داود وحلق لهم لحاهم وقص ثيابهم عند سوءاتهم، فلما سمع داود بذلك بعث رسلا قبل وصول المعزين إلى مدينة داود، وطلب منهم أن يقيموا في أريحا بينما تنبت لحاهم (ونحن نعرف أن أريحا كانت مدمرة نهائيا حسب ما جاء في التوراة من قبل يشوع، ولم يتم بناؤها إلا بعد زمان طويل من هذا التاريخ) وبذلك حصل خلاف وتوتر في العلاقات بين المملكتين، قام على أثره بنو عمون، بالتحالف مع الآراميين بقيادة هدد بن عزر ملك آرام دمشق، ونشبت الحرب وعاد داود منتصرا على التحالف الآرامي العموني، وأقام في أورشليم، كما أنه قام بحرب بعد سنة على العمونيين ودمرها وأخذ تاج ملكهم وأصبح على رأسه (وتقول الأبحاث الأركولوجية إن ربة عمون وهي عمّان الحالية كانت في الزمن المفترض لداود عبارة عن قرية صغيرة غير مسورة).

وكان داود صاحب نساء، وقد أعجب بزوجة أحد قادته العسكريين هو أوريا الحثي، ونام معها سرا وحملت منه سفاحا، وقد استدعى داود أوريا من معسكره في شرقي الأردن أثناء حربهم مع بني عمون، كي يجعله ينام مع زوجته بَثْشَبَعَ، وبذلك يغطي داود فعلته بعد أن تبين له أن بَثْشَبَعَ قد حملت منه سفاحا، ولما وصل أوريا الحثي أعطاه داود بعض الهدايا وطلب منه أن يذهب إلى بيته لينام مع زوجته، ولكن أوريا على ما يبدو كان قد نمَّ إليه ما كان قد

حصل، فرفض الذهاب إلى البيت، ونام على باب بيت داود، ولما علم داود بذلك، أعطى لأوريا الحثي رسالة مغلقة كي يوصلها إلى قائد جيشه يوآب يطلب داود منه أن يدفع بأوريا الحثي إلى واجهة الحرب أثناء حصار جيش داود للعمونيين على أن ينسحب الجند من ورائه ليُقتل بيد العدو، وهذا ما حصل فأخذ داود زوجة أوريا (بَثْشَبَع) إلى بيته وولدت له ابنا حراما، وقد مات وهو ما زال وليدا، فعادت وحملت أمه وولدت له سليمان، وأعتقد أن ابنه الذي ولد له بالحرام هو سليمان نفسه (في النص الأصلي للقصة) ولكن المحرر التوراتي ربما انه لم يشأ أن يكون ملك ملوكهم ومرجعهم التاريخي ابن حرام فلفق موت ابن الحرام، ومن ثم قال إن أمه حملت بالحلال مباشرة أثناء العزاء وولدت سليمان، وقد وردت جملة فيها شيء من الغموض «وعزى داود بَثْشَبَعَ امرأته ودخل إليها واضطجع معها فولدت ابنا فدعا اسمه سليمان وأرسل بيد ناثان النبي ودعا اسمه يديديّا من أجل الرب» صموئيل الثاني: ١٢.

وفي تلك الأثناء قام أمنون بن داود باغتصاب أخته غير الشقيقة (أخته من أبيه) واسمها ثامار، فقام أخوه أبشالوم وهو شقيق ثامار ابن أمها وأبيها بقتل أخيه أمنون، وهرب من البيت وأقام تحت حماية تلماي بن عميهود ملك مملكة جاشور الآرامية، ومن ثم بعد ثلاث سنين سمح له داود بالعودة إلى أورشليم، ولكن داود رفض أن يراه إلا بعد مرور سنتين من عودته، وبدأ أبشالوم يستعيد هيبته وقوته وبدأ بالعمل خفية للانقلاب على أبيه، وجعل من نفسه قاضيا ومناصرا للمظلومين والمتشكّين وبذلك «استرق قلوب رجال إسرائيل»، «وفي نهاية أربعين سنة قال أبشالوم للملك دعني فأذهب وأوفي نذري الذي نذرته للرب في حبرون. لأن عبدك نذر نذرا عند سكناي في جشور في أرام قائلا إن أرجعني الرب إلى أورشليم فإني أعبد الرب. فقال له الملك اذهب بسلام» صموئيل الثاني ١٥، ورحل أبشالوم إلى حبرون (الخليل) العاصمة الدينية للعبريين، ومن هناك أعلن أبشالوم نفسه ملكا على العبريين الذين بايعوه، وخوفا من وقوع داود في الأسر، فقد هرب إلى شرقي الأردن ومعه حرسه الشخصي، كما كان معه فرقة عسكرية، أو عصابة من مدينة جت الفلسطينية بقيادة أتاي المنفي من جت ومعه ٦٠٠ رجل، وهو نفس العدد الذي كان مع داود عندما كان تحت لواء الجتين أثناء تمرد داود على الملك شاؤل، وقد يكون هناك اتفاق بينهما (في النص الأصلي) حاول محررو التوراة تجاهله.

وهنا، وفجأة، تضعنا التوراة أمام مملكة ليست أكثر من مجموعات قبلية متصارعة، تعمها الدسائس والانقلابات والخلافات على المشيخة، وفجأة تكشف لنا ملكا (داود) آخر غير الذي عهدناه، فبعد أن أعلن أبشالوم نفسه ملكا «فقال داود لجميع عبيده الذين معه في اورشليم قوموا بنا نهرب لأنه ليس لنا نجاة من وجه ابشالوم. أسرعوا للذهاب لئلا يبادر

ويدركنا وينزل بنا الشر ويضرب المدينة بحد السيف.. وخرج الملك وكل الشعب في أثره ووقفوا عند البيت الأبعد.. وكانت جميع الأرض تبكي بصوت عظيم وجميع الشعب يعبرون وعبر الملك في وادي قدرون وعبر جميع الشعب نحو طريق البرية.. وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون كان يصعد باكيا ورأسه مغطى ويمشي حافيا وجميع الشعب الذين معه غطوا كل واحد رأسه وكانوا يصعدون وهم يبكون.» صموئيل الثاني: ١٥.

وانتقل الملك الجديد أبشالوم بن داود إلى أورشليم برفقة مستشاره أخيتوفل وانضم إليه حوشاي الأركي كمستشار آخر وكان يعمل كجاسوس لحساب داود بالتعاون مع الكاهنين صادوق وابنه أخيمعص وأبياثار وابنه يوناثان النبي، وبعد أن قام الملك الجديد أبشالوم بمضاجعة سراري أبيه على مرأى من الناس، قاد جيشه لملاحقة أبيه عبر الأردن وكان أخيمعص ويوناثان قد أخبرا داود الذي قام بالتدابير المناسبة، ودارت هناك معركة انتصر فيها الملك المخلوع داود على الملك الجديد أبشالوم ابن داود الذي قُتل في المعركة مع الكثير من العبرانيين، (والذي حزن له داود كثيرا)، وجاء رجال بني يهوذا لاستقبال داود وعبّروه نهر الأردن «وإذا بجميع رجال إسرائيل جاؤوا إلى الملك وقالوا للملك لماذا سرقك أخوتنا رجال يهوذا وعبروا الأردن بالملك وبيته وكل رجال داود معه. فأجاب كل رجال يهوذا رجال إسرائيل لأن الملك قريب إلي ولماذا تغتاظ من هذا الأمر. هل أكلنا شيئا من الملك أو وهبنا هبة. فأجاب رجال إسرائيل رجال يهوذا وقالوا. لي عشرة أسهم في الملك وأنا أحق منك بداود.. وكان كلام رجال يهوذا أقسى من كلام رجال إسرائيل» صموئيل الثاني ١٩، وبقيادة شبع بن بكري رجع كل رجال إسرائيل من وراء الملك داود، وقد أعلن شبع بن بكري نفسه ملكا على منطقة إسرائيل (السامرة ومحيطها).

وعاد داود إلى بيته في مدينة داود على جبل صهيون ملكا على مملكة تفتقد إلى الاستقرار السياسي، ولكن يوآب قائد جيش داود حاصر شبع بن بكري ومن معه، ولما فقد المتمردون (الإسرائيليون) الأمل في الخلاص قاموا بقطع رأس شبع ورموه إلى يوآب معلنين خضوعهم لحكم داود وبذلك انتهى التمرد سريعا، وبعد ذلك أُرهق داود وجيشه في سنوات كان فيها قحط وجفاف بالحروب مع الفلستيين الذين كانوا يستعملون المعدات والأسلحة الحديدية، بينما كانت بلاد كنعان بشكل عام ما زالت تستخدم المعدات النحاسية والبرونزية، وقد ورد «ثم كانت أيضا حرب في جوب مع الفلسطينيين. فألحانات بن يعري أرجيم البيتلحمي قتل جليات الجتي» صموئيل الثاني: ٢١: ١٩، وهو الشخص نفسه الذي جاء فيما سبق أن داود قد قام بقتله في عهد الملك شاؤل.

وفي تلك المرحلة قام داود بإجراء تعداد عام «فكان إسرائيل ثماني مئة ألف رجل ذي بأس مستل السيف ورجال يهوذا خمس مئة ألف رجل» حسب ما جاء في سفر صموئيل الثاني، أما حسب ما جاء في سفر أخبار الأيام الأول ٢١: ٥ «فكان كل إسرائيل ألف ألف ومئة ألف رجل مستلي السيف ويهوذا أربع مئة وسبعين ألف رجل مستلي السيف. أما لاوي وبنيامين فلم يعدهم معهم لأن كلام الملك كان مكروها لدى يوآب» (وكان في بداية عهد سليمان قد تم عد اللاويين من ابن ثلاثين فما فوق من الرجال فكان ٣٨٠٠٠، وكان عدد الأجانب الرجال ١٥٣٦٠ فقط)، وبعد أن انتهت أعمال الإحصاء العام أن أصاب منطقة إسرائيل مرض أودى بحياة ٧٧٠٠٠ من رجال بني إسرائيل فقط، وكف عن بني يهوذا.

وتقدم السن بداود وصار طريح فراشه، إثر إصابته بداء الرعاش العقلي، وكانوا ينيمون إلى جانبه فتاة صغيرة كي تدفئه، ولما أصبح داود غير قادر على قيادة المملكة، بدأت البلبلات تنتشر في المملكة، وقد قام أدونيا ابن داود بتعيين نفسه ملكا على المملكة، إلا أن داود تحت ضغط زوجته الحثية، ورجالات البلاط قام بتصيب ابنه سليمان ملكا شرعيا، وقد بايعه أدونيا بعد صراع عابر على السلطة، ومات داود عن عمر سبعين سنة، وعن ملك امتد أربعين سنة منها سبع سنين ونصف في حبرون، والباقي في أورشليم، ودفن في مدينة داود (حصن صهيون).

وما كان من الملك سليمان الذي ورث مملكة غنية مترامية الأطراف يعمها الخير والسلام - ومنذ البداية - أن تخلص من الرموز القيادية التي كانت في عهد أبيه، والذي كان يشعر بخطر قادم منهم، ولم يسلم منه أخوه الأكبر أدونيا الذي يطالب بالحكم، والذي بأمر من سليمان قام بنياهو بن يهوياداع (اليد اليمنى لسليمان) بقتله، وكذلك فعل أيضا بيوآب الذي قام بقتله في خيمة الرب بجانب المذبح، كما أنه قام بطرد أبياثار الكاهن، وقتل أيضا في مرحلة لاحقة شمعي بن جيرا البنياميني (وجيرا البنياميني هذا كان القاضي الثاني على القبائل العبرية حسب ترتيبه في سفر القضاة).

وبعد أن قتل سليمان من قتل، وطرد من طرد، تثبت بيده الحكم المطلق بعد أن قام بأعمال إدارية، وتنظيمية، وعسكرية ناجحة، وبعد أن أدخل المركبات العسكرية في عتاد جيشه، وكان مساعداه بنياهو بن يهوياداع الذي عينه رئيسا للجيش، وصادوق الذي عينه كاهنا أكبر، وبعدها بدأ سليمان بأعمال البناء العمرانية، والنشاطات السياسية، والدبلوماسية التي كانت إحدى مميزاته مع الممالك البعيدة منها والقريبة، فصاهر فرعون مصر وكان مهر ابنة الفرعون على أبيها الذي قام بحرب على مدينة جازر الكنعانية التي تبعد قرابة سبعة عشر

كيلو متر عن أورشليم، وتبعد ١٥ كم عن مدينة يافا إلى الشمال الشرقي منها، وأخذها وقدمها مهرا من أجل ابنته إلى الملك سليمان الذي قام بالبدء ببناء بيته، وبيت للرب (يَهْوَه) في أورشليم وقلعة أيضا، وسور لأورشليم وحاصور ومجدو وجازر بعد أن عقد اتفاقية مع حيرام ملك صور بحيث يقوم معلمون من صور بالإشراف على بناء قصر الملك وبيت الرب «طوله ستون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وسمكه ثلاثون ذراعا والرواق قدام هيكل البيت طوله عشرون ذراعا حسب عرض البيت وعرضه عشرة أذرع قدام البيت»، وهذا يعني أن مساحته تساوي ٣٠٠ متر مربع تقريبا، أما الكميات الأسطورية في بناء بيت الرب فكانت من الذهب قرابة ثلاثة آلاف طن، ومن الفضة قرابة ستة وثلاثين ألف طن، أما النحاس والحديد فهو أكثر من أن يحصر، والبيت لا تزيد مساحته على ٣٠٠ متر مربع؟ أما عدد من شاركوا في بنائه فيزيد على نصف مليون إنسان، وقد تكفل ملك صور بهذه الأعمال العمرانية مقابل أن يقدم الملك سليمان مواد غذائية سنوية، وعشرين قرية في الجليل لحيرام ملك صور «أعطى حينئذ الملك سليمانُ حيرامَ عشرين مدينة في أرض الجليل» الملوك الأول ٩، وقد عكس محرر سفر أخبار الأيام الثاني مقولة محرر سفر الملوك الأول ٨ «بنى سليمان المدن التي أعطاها حورامُ لسليمانَ وأسكن فيها بني إسرائيل»، على أن تكون اليد العاملة من عبيد داود من «جميع الشعب الباقين من الأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين الذين ليسوا من بني إسرائيل أبناؤهم الذين بقوا بعدهم في الأرض الذين لم يقدر بنو إسرائيل أن يحرموهم جعل عليهم سليمان تسخير عبيد إلى هذا اليوم» الملوك الأول ٩، حيث عمل سبعون ألف رجل حمال، وثمانون ألف نحات، أي مئة وخمسون ألف عامل، وكان عليهم ثلاثة آلاف وست مئة وكيل وهم جميعا من غير العبريين، عدا الحرفيين والمهندسين الذي قدموا من صور بالاتفاق مع ملكها حيرام، وعدا ثلاثين ألف عامل بعث بهم داود إلى جبال لبنان لقطع الأخشاب ولا سيما الأرز منها، وقد احتاج بناء بيت الرب إلى سبع سنين من العمل المتواصل، أما القصر فاحتاج إلى ثلاثة عشر سنة، وقد تم توصيفهما في التوراة بإسهاب شديد من حيث مقاييسهما، وزخارفهما، ومقتنياتهما وأطنان الذهب والنحاس والعاج والأحجار الكريمة وخشب الصندل التي تم بها تزيين المباني، لأنه - حسب قول التوراة - لم يكن لأحد من قبل ولا من بعد أن يبني مثل ذلك.

وبعد ذلك قام سليمان بنقل تابوت الرب من مدينة داود (على جبل صهيون) الذي كان ما يزال يسكن في خيمة الاجتماع قرابة خمس مئة سنة، وأسكنه في هيكل الرب و «لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بني إسرائيل» الملوك الأول ٧، وأقام احتفالا كبيرا وذبح للرب ٢٢٠٠٠ بقرة، ١٢٠٠٠٠ من الغنم

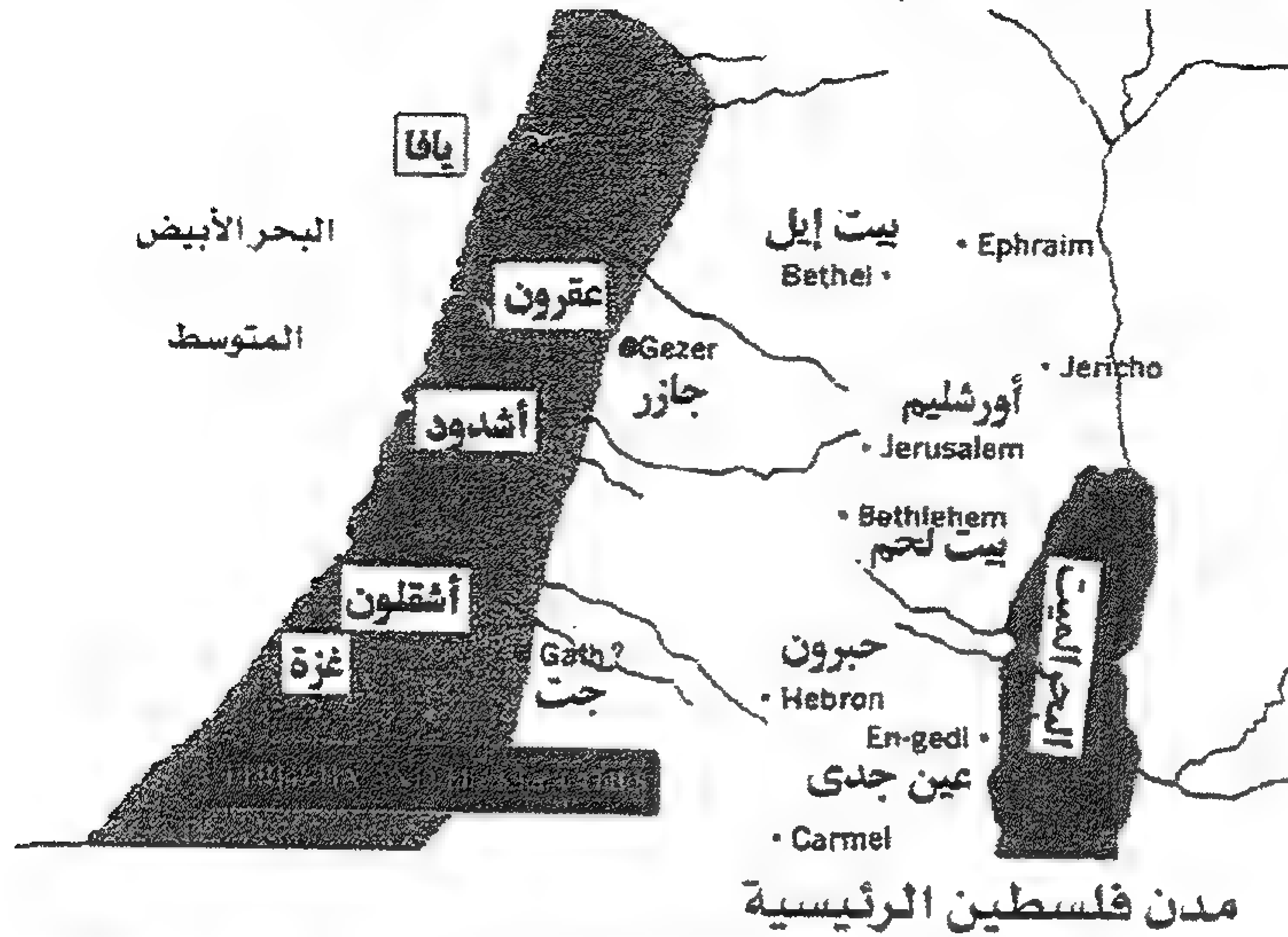
«وفي اليوم الثامن صرف الشعب فباركوا الملك وذهبوا إلى خيمهم فرحين وطيبي القلوب» الملوك الأول: ٨.

كما أنه قام ببناء مدينة بعلة وتدمر، كما أنه بنى سفنا في خليج إيلات (العقبة) وكان يقودها رجال من صور، وقد كانت تلك المراكب تقوم برحلات تجارية إلى بلاد أوفير والتي اختلف الباحثون في تحديدها (الهند، الجزيرة العربية، مدغشقر، الصومال)، وكانت سلطة سليمان المباشرة في ذلك الزمان تشمل جانبي الأردن (الضفة الغربية والشرقية حتى سهل حوران)، «وكان سليمان متسلطا على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر. كانوا يقدمون الهدايا» الملوك الأول ٤: ٢١، «وكان وزن الذهب الذي جاء سليمان في سنة واحدة ست مئة وستا وستين وزنة ذهب فضلا عن الذي جاء به التجار والمستبضعون. وكل ملوك العرب وولاة الأرض كانوا يأتون بذهب وفضة إلى سليمان» أخبار الأيام الثاني ٩: ١٣ - ١٤، كما أن بلقيس (ملكة سبأ) قامت بزيارته بعدما سمعت بحكمته وأبهة مملكته وأتت معها بكثير من الهدايا بحيث «جعل الملك الفضة في أورشليم مثل الحجارة وجعل الأرز كالجميز الذي في السهل في الكثرة.. وكان له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري» وجميعهن غير عبريات (حثيات - موآبيات - عمونيات - كنعانيات - فينيقيات - فلسطينيات - مصريات - أدوميات) وهن اللواتي أملن قلبه في شيخوخته إلى آلهتهن «فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين.. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رجس بني عمون» الملوك الأول:١١.

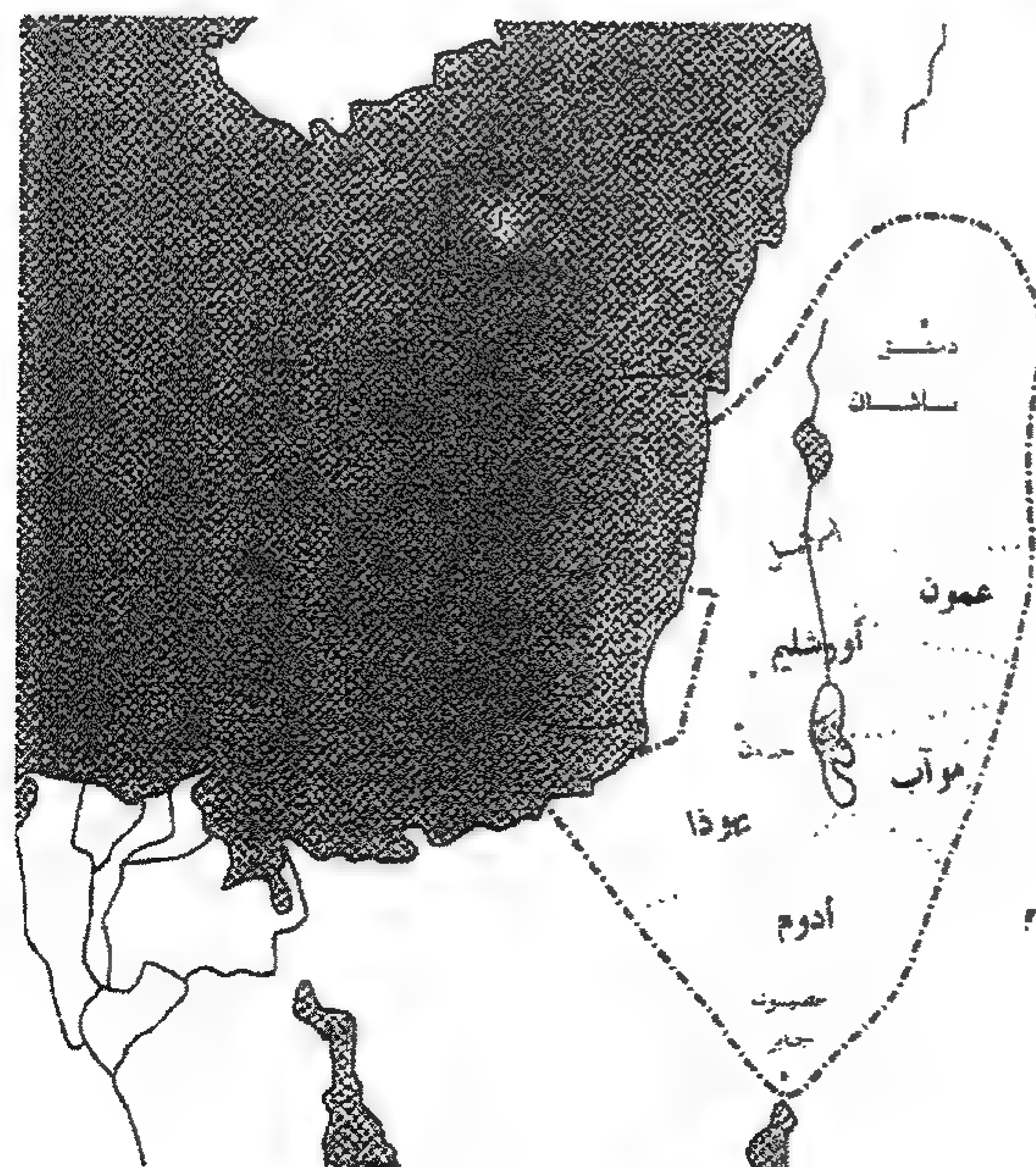
وكان لسليمان صلح مع جميع الممالك المحيطة به عدا مملكتي آرام دمشق وكان ملكها رزون بن أليداع آنذاك، ومملكة أدوم وكان ملكها هدد الأدومي، كما كان من أعدائه يربعام بن ناباط من أفرايم والذي كان يعمل ضد سليمان وربما قد حاول أن ينفصل بمملكة إسرائيل عن مملكة يهوذا، وأباح دمه سليمان فهرب والتجأ إلى ملك مصر.

وبعد حكم امتد أربعين سنة مات الملك سليمان ودفن في مدينة داود على جبل صهيون، وملك ابنه رحبعام (يزمن له ٩٢٨ - ٩١١ ق.م) الذي كانت تنقصه حكمة أبيه، ولما ذهب رحبعام إلى شكيم من أجل أن يبايعه بنو إسرائيل هناك، خطب بهم قائلا بعد أن اشتكى له الشعب من القسوة في حكم أبيه سليمان «إن خنصري أغلظ من متني أبي. والآن أبي حمّلكم نيرا ثقيلا وأنا أزيد على نيركم. أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب» الملوك الأول ١٢، ولكن الشعب لم يسمعوا له وأعلنوا يربعام الذي عاد من مصر بعد أن سمع بموت سليمان ملكا على بني إسرائيل «وذهب إسرائيل إلى خيامهم. أما بنو إسرائيل الساكنون في مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام» الملوك الأول ١٢.

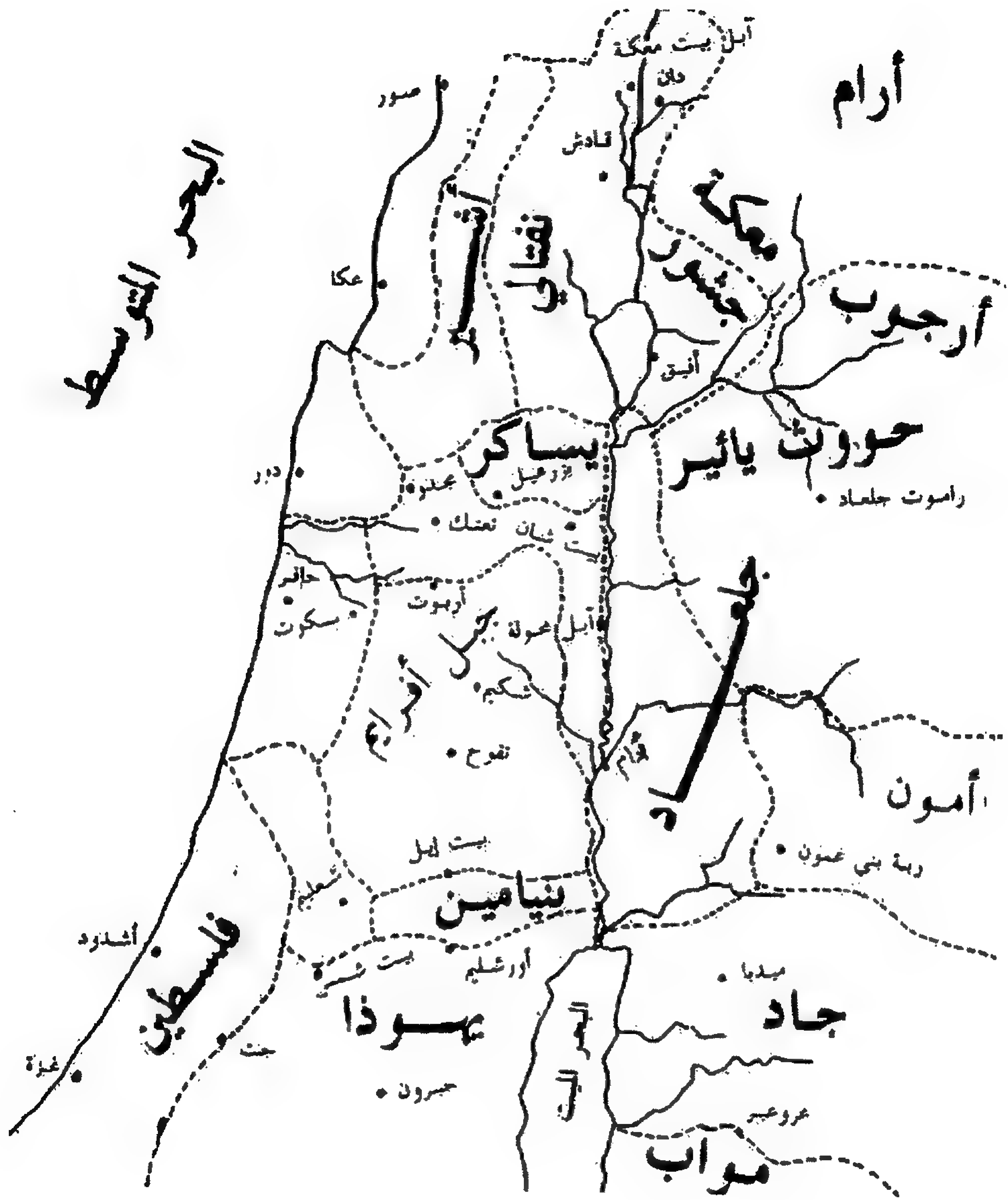
وبذلك انقسمت المملكة المتحدة إلى مملكة يهوذا تحت حكم رحبعام ابن داود وتضم سبطي يهوذا وبنيامين وعاصمتها أورشليم وضمت إليها المنطقة الجنوبية الفقيرة والرعوية، ومملكة إسرائيل الشمالية ذات الأرض الزراعية الأكثر خصوبة من المنطقة الجنوبية بقيادة يربعام ابن ناباط من قبيلة أفرايم (٩٢٨ - ٩٠٧ ق.م) وتضم الأسباط جميعا عدا سبطي يهوذا وبنيامين وكانت عاصمتها شكيم.



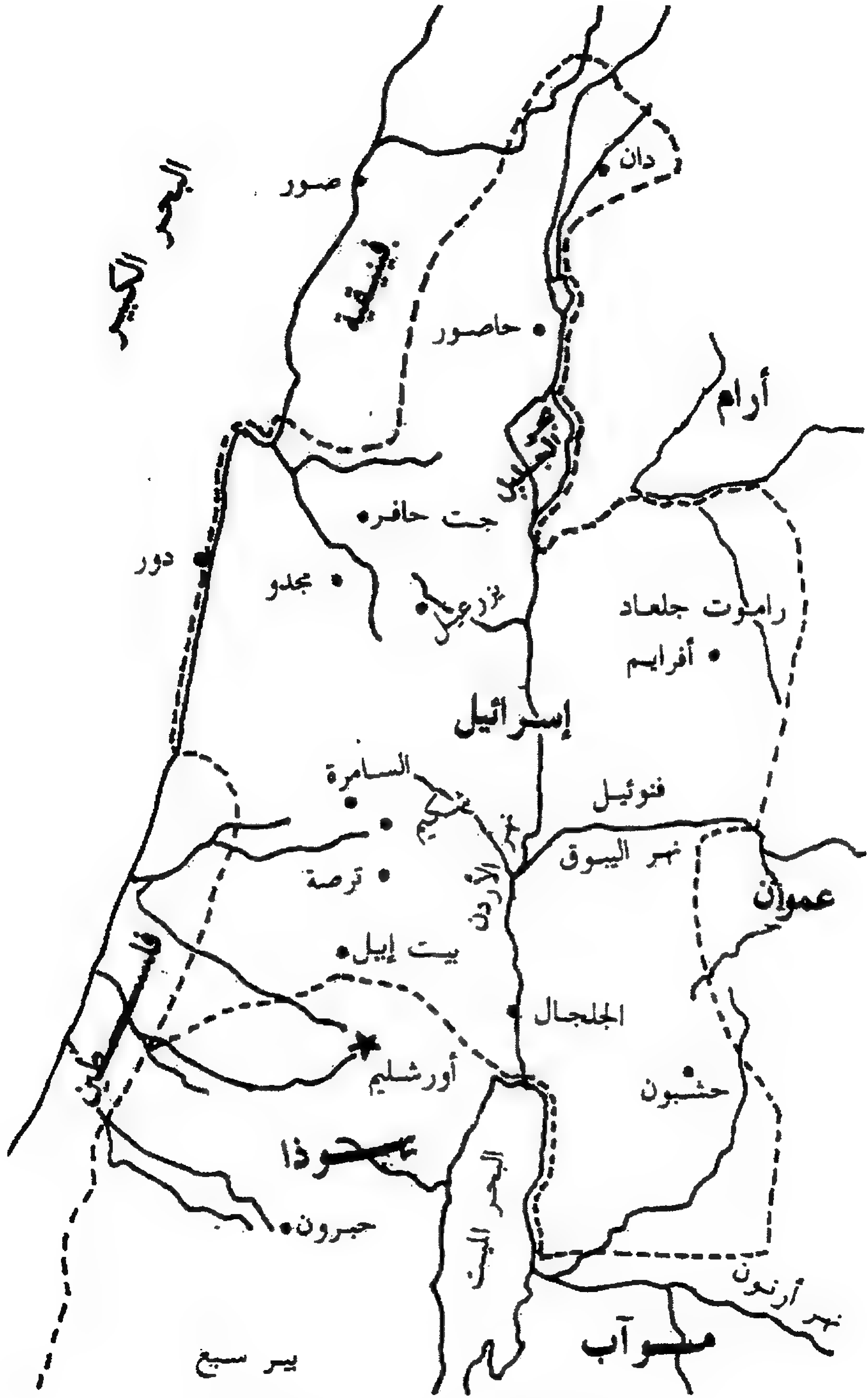
مدن فلسطين الرئيسية



مملكة داود



مملكة سليمان وأقسامها



مملكتا يهوذا وإسرائيل بعد الانقسام

قراءة في النص التوراتي
لمرحلة المملكة المتحدة

كانت القبائل العبرية البدوية تخضع إلى نظام قبلي عشائري إرثي يمثل الأنا الجماعية لها، لا سيما وأنها كانت واقعة تحت تهديد القوى الفلستية والتي وإن كانت تميل إلى النمط الدفاعي أكثر منه إلى النمط الهجومي، إلا أنها في مرحلة القضاة قامت بأعمال توسعية وصلت إلى أنها قامت بغزو شيلوه وهي القبلة الدينية للقبائل العبرية وأول عاصمة عبرانية، أما القوى الأخرى التي كانت تنافس وتهدد الجماعات العبرية فكانت القبائل البدوية العمونية والموآبية والأدومية في شرقي الأردن والتي كانت قد تناوبت على الهيمنة على قبائل بلاد كنعان، أو أنها اقتسمت الهيمنة عليها، أما بالنسبة للكنعانيين الذين كان جهازهم السياسي الإداري يقوم على نظام (المدينة - الدولة) فلم يستطيعوا الصمود عسكريا وسياسيا، وعلى ما يبدو فإن العلاقة الكنعانية العبرية انتهت إلى اتفاق ضمني بعدم الاعتداء وتجنب الصدام والخضوع للأعراف والتقاليد التي تنضّم العلاقات ما بين الحضر والبدو.

ولكن القبائل العبرية، التي كانت تمر تطوريا ما بين الحالة البدوية والحالة الحضرية، مضت قدما في محاولة تجميع قواها المتفرقة، وفي النهاية استطاعت أن تقوم أو أن تغامر في أن تنصّب رمزا سياسيا لها هو شاؤل كملك عليها، وتنهي نظام القضاة الضعيف، وقد كان صموئيل وهو آخر قاض على إسرائيل من قبيلة أفرايم وكان سفر القضاة قد ذكر أن هذا السبط كان قد أبيد تقريبا على يد القاضي يفتاح الجلعادي الذي قتل من رجالهم في يوم واحد ٤٢ ألفا، وإذا ما عدنا إلى الإحصاءات لم يتبق منهم سوى القليل، ومثّل صموئيل همزة وصل بين عصر القضاة وعصر الملوك، وهو الذي نصّب شاؤل من قبيلة بنيامين أول ملك على إسرائيل حسب مطلب العبرانيين تقليدا لباقي الشعوب حيث كانوا لعدم تطورهم الحضاري آنذاك عاجزين عن تأسيس تقاليد تنبع من ذاتهم، ومن تطورهم السياسي التاريخي، وكان شاؤل ملكا على مجموعة من القبائل تتحد في نظام شبه فيدرالي، وقد اعتمد شاؤل على أبناء قبيلته بنيامين التي كانت منتشرة بين الشمال والجنوب، مع تركيز لها في الجنوب، ومن ثم استقرت، أو تركز وجودها في منطقة السامرة وما يحيط بها، وكان لها مشاركة

كبيرة في تشكيل مملكة السامرة، وعلى الرغم من أن باقي القبائل كانت تدين للملك، إلا أن شاؤل لم يستطع أن يؤسس مملكة حقيقية لأن العقلية العبرية لم تكن مهيأة تماماً لتفهم مثل هذا النظام، لا سيما وأنه لم يحكم سوى (ثلاث سنوات فقط) (١٠٠٧ - ١٠٠٤ ق.م) لأنه لم يستطع أن يحتوي السلطة الدينية بقيادة صموئيل، والتي بدل أن تكون جزءا من البنية التحتية لسلطة الملك كانت أعلى من سلطته فأزالته سريعا، إلا أنه مهد الطريق لداود (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق.م) ليكون ملكا على مملكة أكثر قربا لمفهومها السياسي العسكري، وكان داود قد بدأ طريقه نحو السلطة من خلال ترؤسه لعصابة نهب، وسلب، متخذا من الكهوف والمغاور، (ولا سيما مغارة عدلام، ثم مغارة حبرون) مقرا ومنطلقا له، وقد بدأ داود بالقيام بسلب ونهب أبناء قومه من القبائل العبرية، ومن المنطق أنه بدأ يسلب وينهب أبناء عشيرته (يهوذا)، ثم بعد أن اشتد عوده وسع نشاطه على باقي القبائل، وبعد ذلك وسعها أيضا إلى باقي الشعوب، وبذلك تحول من رئيس عصابة وقاطع طريق إلى بطل (قومي) التفت حوله القبائل العبرية التي كانت تعاني من التمزق، والتشرذم، لا سيما بوجود تحدي فلسطيني، وقد استطاع داود أن يعلن نفسه ملكا في حبرون (الخليل)، ثم استطاع أن يستولي ويستقر على حصن صهيون جنوب القدس، حيث كان قد استطاع أن يمركز نفسه كعقيد قوم على القبائل العبرية آنذاك، والذي وسّع ووطّد حدود مملكته، ولكنه، على ما يبدو، لم يستطع أن يسيطر ديموغرافيا وعسكريا على كامل مدينة أورشليم التي تفصل ما بين قبائل الجنوب وقبائل الشمال العبرية وبقي محصورا بالأبنية المهجورة أصلا في حصن صهيون اليبوسي التي احتلها وقام بترميمها، وهي الأبنية القريبة أو الملاصقة لمدينة أورشليم الكنعانية والتي أسماها مدينة أو حصن داود، وما يؤكد ذلك أن العاصمة الدينية كانت في عهده هي مدينة حبرون، والتي منها أعلن ابنه أبشالوم تمرده على سلطة أبيه.

وبعد موت داود الذي كان مشغولا بحروبه استطاع سليمان (٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م) أول ملك تسلّم المُلك بالوراثة، أن يكون ملكا بمفهوم الملكية (حسب الرواية التوراتية) لأنه كان على دراية أكثر بالشؤون السياسية والدبلوماسية، وفي الوقت نفسه لم تكن تنقصه الحنكة العسكرية، حيث قام بحركة تأسيسية تخلص فيها من كل رموز حكم أبيه لا سيما الذين كانوا قد بايعوا أخاه أدونيا ملكا، كما أنه دعم أو تحالف مع السلطة الدينية الكهنوتية على أساس المصلحة المشتركة، ومنذ بداية حكمه مارس القبضة الحديدية بعد أن أمسك بزمام الأمور في يده باعتماده على حرس خاص من الرجال المرتزقة من غير القبائل العبرية، وقد بالغ المحرر كثيرا في توصيف مملكة سليمان من حيث الذهب والنفائس التي كانت تأتي إليه من

الممالك القريبة والبعيدة كهدايا، ومن الأعمال التجارية التي تعاون فيها مع تجار صور، كما بالغ في توصيف محتويات الأبنية والمعابد التي بناها، وتعداد الذبائح والقرابين التي كان يقدمها في الاحتفالات والأعياد، وخضوع الملوك له ومساحة مملكته، وبينما أظهر محرر التوراة مملكة سليمان أغنى مملكة في زمانها، نجد أن الهيكل من حيث مقاييسه كان معبدا شديد التواضع، فمساحته نحو ٣٠٠ متر مربع، وقد بالغ المحرر في عدد من قاموا ببنائه، والمواد المهولة التي دخلت في بنائه، والزمن الذي احتاجه سبع سنوات، بل إن القصر احتاج بناؤه إلى ثلاثة عشر سنة، وهذه الأعداد الضخمة من العمال، والمواد، كفيلة ببناء إمبراطورية في صحراء، وعلى الرغم من الغنى الفاحش الذي كانت تنعم به مملكة إسرائيل التوراتية، فقد اضطر سليمان أن يسدد تكاليف البناء المتواضع مجموعة من القرى في الجليل تنازل بها إلى ملك صور حيرام، وقد أظهر المحرر أنها كانت قرى فقيرة أو شديدة الفقر، فهل كانت خزينة المملكة فارغة، في الوقت الذي كان المحرر يتحدث عن الذهب والأحجار الكريمة التي هي أكثر من حجارة البناء في أورشليم، وفي قول آخر جاء «فكان حيرام يعطي سليمان خشب أرز وخشب سرو حسب كل مسرته. وأعطى سليمان حيرام عشرين ألف كر حنطة طعاما لبيته، وعشرين كر زيت رض، هكذا كان سليمان يعطي حيرام سنة فسنة.. وكان صلح بين حيرام وسليمان وقطعا كلاهما عهدا» ملوك أول ٥، هل هذه جزية سنوية كان يدفعها سليمان لحيرام.

تحرير نص المملكة الموحدة:

أورد محررو التوراة عصر الآباء عصرا بسيطا ساذجا يصارع فيه البشر الآلهة بل وينتصرون عليهم، أما عصر الخروج فكان عصر الخوارق والمعجزات والتهويلات، أما عهد المملكة فهو عهد المبالغات والبناء والقصور والمعادن والأحجار الكريمة والفن والغناء والرقص، وكان لدى المحرر التوراتي لعهد المملكة المتحدة هوسا بالمبالغة بالأرقام «وكان طعام سليمان لليوم الواحد ثلاثين كر سميد، وستين كر دقيق، وعشرة ثيران مسمنة وعشرين ثورا من المراعي، ومئة خروف، ما عدا الأيائل والظباء واليحامير والإوز المسمن»، أما الوليمة التي أقامها يوم إسكان تابوت الرب في بيت الرب فكانت ٢٢ ألف من البقر، ١٢٠ ألف من الغنم = فلو اعتبرنا أن البقرة تزن ٣٠٠ كغ فقط = ٢٢٠٠٠ × ٣٠٠ = ٦٦٠٠٠٠٠، والخروف يزن ٤٠ كغ فقط = ١٢٠٠٠٠ × ٤٠ = ٤٨٠٠٠٠٠ كغ، وهذا يعني أن الوزن الكلي = ٦٦٠٠طن + ٤٨٠٠ طن = ١١٤٠٠ طن، أما كميات المعادن النفيسة، والأحجار الكريمة، والأخشاب النادرة التي زيّنت المعبد والقصر فكانت أكبر حجما من حجم المعبد والقصر.

أما ما هو مشترك في النصوص التوراتية فهو تعدد المحررين الذين أفسدوا تماسكه، وبزمن التحرير الذي كان في مرحلة السبي البابلي، والذي يمكن استقراؤه من خلال الدعوى التي دسها المحرر التوراتي على لسان سليمان أثناء صلاته إلى الرب في احتفالاته بإسكان تابوت العهد في بيت الرب «إذا أخطؤوا إليك. لأنه ليس إنسان لا يخطئ. وغضبت عليهم ودفعتهم أمام العدو بعيدة أو قريبة. فإذا ردوا إلى قلوبهم في الأرض التي يسبون إليها ورجعوا وتضرعوا إليك في أرض سبيهم قائلين قد أخطأنا وعوّجنا وأذنبنا ورجعوا إليك من كل قلوبهم ومن كل أنفسهم في أرض أعدائهم الذين سبوهم وصلوا إليك نحو أرضهم التي أعطيت لآبائهم نحو المدينة التي اخترت والبيت الذي بنيت لاسمك فاسمع في السماء مكان سكناك صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم. واغفر لشعبك ما أخطؤوا به إليك وجميع ذنوبهم التي أذنبوا بها إليك وأعطهم رحمة أمام الذين سبوهم فيرحموهم» الملوك الأول ٨.

كما يمكن أن نتخذ من أوصاف الأعمال الفنية التي دخلت في الأبنية الدينية والملكية السليمانية، والتي تتماشى مع وصف الأعمال الفنية التي كانت سائدة في مرحلة السبي البابلي، فقد جاء في سفر الملوك الأول «وعمل البحر مسبوكا. عشرة أذرع من شفته إلى شفته وكان مدورا مستديرا. ارتفاعه خمسة أذرع وخيط ثلاثون ذراعا يحيط به بدائرة.. وكان قائما على اثني عشر ثورا ثلاثة متوجهة إلى الشمال وثلاثة متوجهة إلى الغرب وثلاثة متوجهة إلى الجنوب وثلاثة متوجهة إلى الشرق. والبحر عليها من فوق وجميع أعجازها إلى الداخل» ملوك أول ٧. وهذا الحوض، أو هذا النمط هو نمط فني من بلاد الرافدين، وتحديدا من الأعمال الفنية الدينية الآشورية، وهو يتشابه مع الذوق الفني الذي كان النبي حزقيال، والذي عاش في محيط مرحلة السبي البابلي قد أتى على ذكره أثناء وصفه للثور المجنح «نظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال. سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار. ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها. لها شبه إنسان. ولكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة. وأرجلها أرجل قائمة وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول. وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة. ووجوهها وأجنحتها لجوانبها الأربعة. وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه. لم تدر عند سيرها. كل واحد يسير إلى جهة وجهه.. هذا منظر شبه مجد الرب» حزقيال ١، وهذان النصان يشيران إلى أنهما حررا في زمن واحد، وهو زمن ما بعد السبي.

أما تعدد المحررين، فسفر صموئيل كتب بيد أكثر من كاتب كغيره من الأسفار، وبالطبع حرر أيضا كسابقه ولاحقه في مرحلة السبي، ولم يقم المحررون بتنسيق جيد بين

الكتابات، ويبدو أن الكاتب الذي قام بكتابة الإصحاحات الستة عشر الأولى من السفر يختلف تماماً عمن كتب باقي الإصحاحات والتي يبدو أنها كتبت أيضا بأكثر من يد فقد ورد أن الملك شاؤل قد أصيب بمرض نفسي قد يكون الاكتئاب، أو النفاس وقد استدعي داود ليعالجه ويروح عن نفسه بضربه على العود وتم التعارف بين داود وشاؤل. وبعد ذلك يورد سفر صموئيل الأول (قصة شعبية كأكثر قصص التوراة) تقول القصة إنه كانت حرب بين الفلستيين واتحاد القبائل العبرية وتقابل الجيشان، وتقدم شخص جبار من الفلستيين اسمه جليات، وطلب أن ينازله أحد المقاتلين من اتحاد القبائل العبرية ويكون الذي يُغلب أنه وجيشه وشعبه يصبحون عبيدا لشعب المنتصر، ولم يجرؤ أن يتقدم أحد لمنازلته، وبعد أربعين يوما من العرض اليومي تقدم داود لمنازلته، واستطاع أن ينتصر عليه بضربة بسيطة بمقلاعه، وقام بسيفه (أي بسيف جليات نفسه) وقتله، ولما جاء داود إلى شاؤل سأله «ابن من أنت يا غلام. فقال داود ابن عبدك يسى البيتلحمي» ونسي المحرر أن داود هو الذي يريح شاؤل من الروح الشريرة التي تحل عليه، كما أن المحرر ربما كان محررا ثالثا يذكر «ثم كانت أيضا حرب في جوب مع الفلسطينيين. فألحانات بن يعري أرجيم البيتلحمي قتل جليات الجتي» صموئيل الثاني: ٢١: ١٩.

وأيضا ورد «وكانت حرب مع الفلسطينيين فقتل ألحانان بن ياعور لحمي أخا جليات الجتي» أخبار الأيام الأول ١٩.

كما أنه جاء أن شاؤل قد حكم كملك لمدة سنتين فقط في الوقت الذي كان قد ذكر فيه نفس المحرر أن شاؤل مسح كأول ملك على إسرائيل وهو شاب وأنه قتل وهو ما زال ملكا وهو كهل ولديه الكثير من الأولاد، وقد مات معه ثلاثة من أولاده كمقاتلين أشداء في نفس المعركة التي مات فيها شاؤل.

وقصة موت شاؤل والتي تقول إنه في حربه مع الفلستيين كان قد أصيب بجرح قاتل فطلب من حامل سلاحه أن يُجْهز عليه، لكن حامل سلاحه رفض ذلك فما كان من شاؤل إلا أن أخذ سيفه وسقط عليه وقتل نفسه كي لا يقال أنه قتل بيد الفلستيين الغلف، ولما رأى حامل سلاحه أن شاؤل قد مات قام هو أيضا بالسقوط على سيفه ومات أيضا، وهذه القصة تذكرنا بموت أبيمالك الذي كان قاضيا على العبرانيين في مرحلة القضاة، وقد أصبح ملكا عليهم لمدة ثلاث سنوات فقط حيث قتل في حرب عبرية بينية بعد أن ألقت عليه امرأة حجراً، فأصابته إصابة قاتلة فطلب من حامل سلاحه أن يقتله كي لا يقال أن امرأة قتلته.

أما قصة موت شاؤل فترد من خلال رواية أخرى في مطلع سفر صموئيل الثاني حيث يبدأ السفر بالحديث عن فتى عماليقي يأتي إلى داود ليخبره بموت شاؤل، ولما سأله كيف علم ذلك فقال له إنه كان هناك مصادفة وقد رأى شاؤل مصابا، فطلب منه أن يقتله، فقام العماليقي بقتله، وما كان من داود إلا أن قتل الفتى العماليقي.

أما سفر الملوك الأول فيمكن اكتشاف أكثر من يد قامت بتحرير النص، فمحرر الإصحاحات العشرة الأولى كان يميل إلى تمجيد الملك سليمان، وأعماله، أما محرر الحادي عشر، وما بعد فكان ميالا إلى الإساءة إلى شخصية الملك سليمان وابنه رحبعام.

ويبدو أن المحرر اعتمد على مجموعة من الروايات المختلفة ولكل رواية حدثيتها، وقد فشل المحرر في أن يزاوج وينسق بينها شأن كل القصص التي كانت ترد بنمطين وروايتين مختلفتين للحادثة نفسها.

وقد ورد في أخبار الأيام الأول: ٢١ «ودفع داود لأرنان عن المكان ذهبا وزنه ست مئة شاقل».

أما في صموئيل الثاني: ٢٤ «فاشترى داود البيدر والبقر بخمسين شاقلا من الفضة».

وأيضا جاء في أخبار الأيام الأول: ٩ «وكان لسليمان أربعة آلاف مذود خيل».

أما في سفر الملوك الأول: ٥ «وكان لسليمان أربعون ألف مذود خيل».

وكل التأريخ التوراتي يمكن اعتباره بشكل مجمل عملية تضخيمية مشابهة لتضخيم الأربعة آلاف مذود (العدد المضخّم أصلا ربما عن رقم أربع مئة مذود، أو حتى أربعون مذوداً) إلى أربعين ألف مذود.

ويمكن لنا أن ندرج هنا قضية أخرى توضح أن هناك لبساً في شريعة موسى فحين عشق أمنون ابن داود أخته غير الشقيقة من أبيه داود واسمها ثامار، فراودها على نفسها فرفضت قائلة «يا أخي لا تذلني لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل. لا تعمل هذه القباحة. أما أنا فأين أذهب بعاري وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل. والآن كلم الملك لأنه لا يمنعني منك. فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها» صموئيل الثاني: ١٣، وهذا يدل على تحليل أو تشريع زواج الأخ غير الشقيق من أخته، كما كان الأمر أيضا بالنسبة لإبراهيم وأخته سارة، وقد جاء في شريعة موسى تحريم زواج الرجل من ابنة أبيه أو ابنة أمه، وهذا يدل على أن هذا التحريم قد أدخل في مرحلة لاحقة لهذا التاريخ وغالبا ما أدخل بعد اطلاع المحررين التوراتيين على شرائع وادي الرافدين أثناء السبي البابلي.

أما بالنسبة للإحصاءات التي تمت في مرحلة المملكة:

قام شاؤل بإجراء تعداد أثناء حكمه أتى فيه أن عدد رجال بني إسرائيل هم ٢٠٠٠٠٠ رجل، و١٠٠٠٠ رجل من بني يهوذا.

أما الإحصاء الذي قام به داود فكان كالتالي: ٨٠٠٠٠٠ رجل من بني إسرائيل، و٥٠٠ ألف من بني يهوذا.

أما نفس التعداد كما جاء في سفر الملوك الأول فكان كالتالي: ١١٠٠٠٠٠ رجل من بني إسرائيل، و٤٠٠٠٠٠ من بني يهوذا عدا قبيلتي بنيامين وبني لاوي اللتين لم تدخلا في الإحصاء حسب رواية سفر أخبار الأيام الأول، كما جاء أن رحبعام بعد انقسام المملكة مباشرة «جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين مئة وثمانين ألف مختار محارب ليحاربوا بيت إسرائيل ويردوا المملكة إلى رحبعام» الملوك الأول ١٢، وبذلك نجد اختلافات كبيرة في الإحصاءات، وحسب ما يمكن توقعه واستقراؤه إن كان في الرواية التوراتية شيئا من التاريخ فإن التعداد لا يتعدى الجذر التربيعي لهذه الأرقام، لا سيما وأن العبريين الذين تم تعدادهم كان أغلبهم يعيشون في الخيام حتى ذلك العهد ولم يتمكنوا من الاستقرار في منازل حضرية بعد:

فبعد أن تم الاحتفال بإسكان تابوت العهد في هيكل الرب في عهد الملك سليمان «وفي اليوم الثامن صرف الشعب فباركوا الملك وذهبوا إلى خيمهم فرحين وطيبي القلوب» الملوك الأول: ٨.

وجاء أيضا في سياق مبايعة يربعام الذي عاد من مصر بعد أن سمع بموت سليمان ملكا على بني إسرائيل «وذهب إسرائيل إلى خيامهم. أما بنو إسرائيل الساكنون في مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام» الملوك الأول ١٢.

وجاء أيضا على لسان النبي ناثان في زمن داود «كان كلام الله إلى ناثان قائلا اذهب وقل لداود عبدي هكذا قال الرب. أنت لا تبني لي بيتا للسكنى. لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت إسرائيل إلى هذا اليوم بل سرت من خيمة إلى خيمة ومن مسكن إلى مسكن في كل ما سرت مع جميع إسرائيل» أخبار الأيام الأول ١٧.

ويمكن أن نضيف أن حدود دولة إسرائيل الشمالية لم تكن تضم الجليل الأعلى الذي كان تحت حكم ملك صور وبالتالي فإن أسباط أشير ونفتالي وزوبولون ودان الذين حسب التوراة ينتشرون في الجليل الأعلى هم تحت سيادة ملك صور، وقد جاء أن الملك حورام ملك

مدينة صور أرسل لسليمان الصائغ (حيرام أبي) ابن امرأة من بنات دان وأبوه رجل صوري (وفي الملوك الأول جاء أنه ابن امرأة أرملة من سبط نفتالي وأبوه رجل صوري)، وهذا يشير إلى أن الدانيين قد تفاعلوا وتعايشوا وتزاوجوا مع الفينيقيين، وهناك أيضا بعض الأسباط الأخرى لا يرد لها أي ذكر، ومن خلال القراءة المتأنية نستنتج أن المملكة الموحدة إن كانت قد تشكلت فلم يكن لها أي سيطرة جغرافية إلا على بعض المستوطنات على الجبال الجرداء جنوب أورشليم هذا حسب المقولة التوراتية.

كما يمكن أن نؤكد على أن قبيلة بني يهوذا ليست من قبائل بني إسرائيل، وأن إسرائيل ما هي إلا منطقة جغرافية انتمى إليها وتعرّف بها ساكنوها وليس العكس، وأن هذه المنطقة معروفة بهذا الاسم في زمن سابق لدخول القبائل العبرية من قوم موسى إلى بلاد كنعان، وأن القبائل التي عرفت في التوراة أنها من بني إسرائيل وأنها دخلت مع يشوع، هي كانت موجودة أصلا ومنذ زمن قديم في بلاد كنعان وقد انضمت إليها بعض القبائل العبرية في مرحلة يشوع، وسنعود إلى هذا البحث في مرحلة لاحقة، ما أريده هنا فقط أن أضع خطوطاً تحت كلمات تبين أن بني يهوذا هم جماعة عبرية كما هم بنو إسرائيل وأيضا بنيامين، وفقط مما جاء في تاريخ المملكة المتحدة «أنا مسحتك ملكا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاؤل وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا» صموئيل الثاني: ١٢.

وعندما انتصر رجال داود الملك المخلوع على جيش أبشالوم ابن داود الملك الجديد في المعركة التي دارت شرقي الأردن جاء رجال بني يهوذا لاستقباله وعبّروه نهر الأردن «وإذا بجميع رجال إسرائيل جاؤوا إلى الملك وقالوا للملك لماذا سرقك أخوتنا رجال يهوذا وعبروا الأردن بالملك وبيته وكل رجال داود معه. فأجاب كل رجال يهوذا رجال إسرائيل لأن الملك قريب إلي ولماذا تغتاظ من هذا الأمر. هل أكلنا شيئا من الملك أو وهبنا هبة. فأجاب رجال إسرائيل رجال يهوذا وقالوا. لي عشرة أسهم في الملك وأنا أحق منك بداود.. وكان كلام رجال يهوذا أقسى من كلام رجال إسرائيل» صموئيل الثاني: ١٩.

وفي عهد الملك سليمان «سكن يهوذا وإسرائيل آمنين كل واحد تحت كرمته وتحت تينته من دان إلى بئر سبع كل أيام سليمان» الملوك الأول: ٤.

«أما بنو إسرائيل الساكنون في مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام» الملوك الأول ١٢.

شخصية داود (المحبوب) التوراتية:

يبدو أن شخصية داود التي وردت في التوراة هي صفة تعني المحبوب، وفي سفر حزقيال ذكر داود على أنه هو المسيح المخلص، وهذه الشخصية كما جاءت في التوراة هي شخصية ادعائية انتحالية تركيبية غرائبية بعيدة عن الواقعية، كما أنها لا تتماشى مع المعطيات والسياق التاريخي، فقد صورت التوراة داود على أنه رجل حساس، عطوف، متسامح، وذو مشاعر رقيقة بحيث كان يبكي كما تبكي النساء، كما أنه متعدد المواهب فهو شاعر، وموسيقي، ومغنٍ، كتب وعزف وغنى مزاميره الرقيقة بحيث كان يشفي المرضى كما لو كان أورفيوس، والجدير ذكره أن سفر المزامير التوراتي تظهر أن كاتبها رجل عانى ظلم الحياة، رجل ضاقت به الأرض، فلم يجد سوى باب الرب كي يدخل منه ليجد عزاءه، والرب في المزامير لا يبدو واضح المعالم، بحيث يمكن أن نرى فيه (الرب المسيح)، كما يمكن أن نرى فيه (الرب الإله)، وبمعنى ما فأنا أرى أن المزامير تشكل طبقة أولى عفوية في التصور المسيحاني الخلاصي، «إلهي إلهي لماذا تركتني.. أحصي كل عظامي. وهم ينظرون ويتفرسون فيَّ. يقسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون» مزمور ٢٢، «قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك» ١١٠، وهي جميعا تتماشى مع التصور، ومع الخطاب المسيحاني، وبشكل عام فإنه من غير المنطقي أن يعتقد أي إنسان أن داود (رئيس العصابة، قاتل الرجال، سافح النساء) هو صاحب سفر المزامير الذي جاء فيه «ارحمني يا رب انظر مذلتي.. لأنه لا ينسى المسكين إلى الأبد رجاء البائسين لا يخيب إلى الدهر» ٩، «يا رب لماذا تقف بعيدا. لماذا تختفي في أزمنة الضيق» ١٠، «إلى متى يا رب تنساني كل النسيان. إلى متى تحجب وجهك عني. إلى متى أجعل هموما في نفسي وحزنا في قلبي كل يوم. إلى متى يرتفع عدوي علي. انظر واستجب لي يا رب إلهي» ١٣، «التفت إلي وارحمني لأني وحْد ومسكين أنا. أفرج ضيقات قلبي. من شدائدي أخرجني. انظر إلى ذلي وتعبي واغفر جميع خطاياي» ٢٥، «ألم يعلم فاعلي الإثم الذين يأكلون شعبي كما يأكلون الخبز والرب لم يدعوا.. ليت من صهيون خلاص إسرائيل. عند رد الرب سبي شعبه يهتف يعقوب ويفرح إسرائيل» ١٤، وهذا يشير إلى أن هذا المزمور كتب في مرحلة السبي.

أما من حيث الصفات الشكلية فقد ألبسته التوراة صفات رجل غير شرقي فهو أشقر مع حلاوة في العينين (ملونتين)، وقد جاء نص مفكك في سفر صموئيل الثاني ٥ يقول «وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض. فكلموا داود قائلين لا تدخل إلى هنا

ما لم تنزع العميان والعرج. أي لا يدخل داود إلى هنا. وأخذ داود حصن صهيون. هي مدينة داود. وقال داود في ذلك اليوم إن الذي يضرب اليبوسيين ويبلغ إلى القناة والعرج والعمي المبغضين من نفس داود لذلك يقولون لا يدخل البيت أعمى أو أعرج»، وقد ترجم هذا النص في كتاب الحياة على الشكل التالي «فقالوا لداود لن تستطيع اقتحام المدينة، لأنه حتى في وسع العميان والعرج أن يصدوك عنها» فهل يعني هذا كما يمكن أن يفهم من النص أن داود كان أعورا أو أعرجا، أم على العكس كان يكره العميان واعرج كما يمكن أن يفهم من هذا النص المفكك أيضا.

كما أن الأسفار التاريخية في التوراة صوّرت داود كشجاع لم يتورع أن يتحدى بمقلاعه جالوت العملاق المتغطرس المدرع، وقد استطاع داود بمقلاعه أن يهزمه وأن يقطع رأسه أيضا، وأن يحقق نصرا نفسيا عاطفيا على الفلستيين وهو ما زال فتى، كما أنه أصبح محاربا وقائدا عسكريا ودبلوماسيا فذا استطاع أن يؤسس إمبراطورية عبرية امتدت من الفرات إلى النيل، ويعتبر داود حسب التوراة الشخصية الثانية في التاريخ اليهودي بعد موسى، فهو مرجع، وبطل قومي.

وفي الوقت نفسه، ومن جانب آخر - حاولت التوراة أن تجعل من داود (وسليمان أيضا) من خلال سيرته أحط وأخس القادة العبرانيين ولم يتركوا موبقة لم يلصقوها به، فصوروه على أنه شخصية أنانية بلا أخلاق، نفعية بلا مبادئ، رئيس عصابة مرتزقة كانت تقوم على السطو والسلب والنهب والقتل، وعلى دفع الإتاوات، وقد تحالف مع أعداء شعبه (الفلسطينيين) ضد شعبه دون سبب أخلاقي، وهو غدار بحيث أوصى ابنه سليمان بعد أن عينه ملكا على إسرائيل من بعده، بقتل قائد جيشه وصانع أمجاد إسرائيل يوآب بن صرويه الذي أخلص له طوال فترة حكمه، كما أوصاه أيضا بقتل شمعي بن جيرا الذي كان قد عفا عنه في أواخر أيامه، كما زنى بامرأة أوريا الحثي أحد قادة جيشه المخلصين أيضا، ثم تآمر على قتله، بطريقة مفضوحة، وحمله رسالة موته، كما أنه لم يتورع في قتل أزواج بعض النساء من أجل المال، ومن أجل نزواته الجنسية، وانغماسه في عالم النساء، وقد تغلبت فيه الشهوة على الأخلاق والحكمة والضمير، بحيث استطاع الشيطان أن يغويه «ووقف الشيطان ضد إسرائيل، وأغوى داود ليحصي إسرائيل» أخبار الأيام الأول ٢١.

كما أن المحرر التوراتي حاول أن يوحي للقارئ أن داود كان على علاقة جنسية شاذة مع ابن شاؤل يونثان، فقد رثا داود يوناثان عندما قُتل بقوله «كنت حلوا لي جدا. محبتك لي أعجب من محبة النساء» صموئيل الثاني ١، أو على العكس قام المحرر التوراتي بحذف أو

إسقاط ما يؤكد على هذه العلاقة، وكان داود قد رثا شاؤل وابنه يونثان ودونت تلك المرثاة في سفر ياشر الذي تم إسقاطه، وليس من المستبعد أن يكون هذا السفر قد حذف من الكتاب المقدس لأنه يظهر بجلاء هذه العلاقة الجنسية الشاذة.

وعلى ما يبدو فقد تم تركيب شخصية داود في بدايتها من قصتين، أو من روايتين شعبيتين إحداهما تتحد عن داود المحبوب النحيل، البسيط الذي استطاع ان يقتل بطل الأبطال جليات الضخم المدرع بحجر صغير من مقلاعه البدوي وحرر قومه وتزوّج من ابنة الملك، أما الرواية، أو القصة الأخرى التي دخلت في تركيب قصة داود التوراتية، فتتحدث عن داود الشاعر المغني الذي تسلل إلى السلطة عن طريق أدواته الموسيقية التي كان يعالج بها الملك الذي أقام علاقات مع عائلة الملك، وفي النهاية استطاع أن يستفرد بالعرش.

وعلى الرغم من أن محرري التوراة قد استبعدوا حق البكورية، والملكية من كل رجل ليس ذا دم عبراني صاف منذ إبراهيم حتى القضاة ومنهم إسماعيل بكر إبراهيم، وعيسو بكر إسحاق، حاولوا أن يظهروا ويؤكدوا دون مسوغ أن داود وسليمان من بعده من أصل زنا، وذوي دماء خليطة حتى قاموا بدس سفر راعوث في مرحلة لاحقة للتأكيد على ذلك، كما أعادوا نسبه إلى سلالة اشتهرت بالأعمال الجنسية المشينة، فهو من أحفاد يهوذا من كنته ثومار (زوجة عير ابن يهوذا، وزوجة ابنه الثاني أونان)، وقد حملت ثومار من يهوذا سفاحا وولدت له توأمين هما فارص، وزارح، ومن ابن الزنا فارص انحدر داود، أما جدته فكانت راعوث المؤآبية التي زنت مع بوعز قريب زوجها الذي كان قد مات، ومن ثم تزوّجها، أي أن في عروقه يجري دم أجنبي، كما يعتقد بعض اليهود أنه ابن زنا، اعتمادا على ما جاء في المزامير، قوله «بالخطية حبلت بي أمي» مزمور ٥١، ويعتقد بعض رجال الدين اليهود أن داود ولد من حبل دون دنس، وبمعنى آخر هو شكل من أشكال المسحاء، حتى أن بعض الباحثين ذهبوا إلى أن داود وسليمان هما شخصيتان آشوريتان ولا علاقة لهما ببني إسرائيل، ولذا لم يأل المحررون جهدا في الإساءة إليهما، وإشهار ودس الكثير من القصص الجنسية المشينة، ويعتقد بعض اليهود، كما كنت قد ذكرت سابقا، أن داود كان على علاقة جنسية شاذة مع يونثان ابن شاؤل متخذين حجة لهم جملة جاءت في سفر صموئيل الثاني ١ «كنت حلوا لي جدا. محبتك لي أعجب من محبة النساء».

وهذه الشخصية الغرائبية اللاواقعية، والتي تتعارض مع السياق التاريخي لها جعلت البعض يذهبون إلى أنها شخصية منتحلة، فأحمد عثمان يذهب إلى أن الملك داود هو شخصية منتحلة من شخصية الفرعون تحتمس الثالث.

شخصية تحتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م) والملك داود:

حسب التقاليد الفرعونية يرتبط ميراث العرش بالابنة الكبرى للفرعون، ويكون لأبنائها لاحقا الحق في المطالبة بالعرش دون أبناء الفرعون من الزوجات الأخريات، وفي حال عدم وجود أبناء ذكور للفرعون من الوريثة الشرعية، يكون وريث العرش هو من يتزوج الابنة الكبرى للفرعون من الوريثة الشرعية، ويكون في الوقت نفسه لأبناء الوريثة الشرعية أيضا الحق في المطالبة بالحكم، ولذا كان أبناء الفراعنة من الزوجات غير الملكيات يتزوجون أخواتهم الملكيات (غير الشقيقات) كي يبقى الحكم لهم، ومن أجل ذلك فقد قام أمنحوتب الأول (١٥٤٦ - ١٥٢٥ ق.م) الذي لم يكن له وريث شرعي، بتزويج ابنته من زوجته الملكية إلى قائده العسكري تحتمس، الذي - بعد موت أمنحوتب الأول - أصبح فرعونا (١٥٢٥ - ١٤٩٥ ق.م)، والذي بدوره قام بتزويج ابنه من الزوجة غير الوريثة، بابنته (حتشبسوت) من زوجته الملكية والتي لم تنجب له ذكورا، وبذلك أصبح ابنه من زوجته غير الملكية فرعونا باسم تحتمس الثاني (١٤٩٥ - ١٤٩٠ ق.م)، والذي لم ينجب من زوجته (أخته غير الشقيقة) حتشبسوت ولدا ذكرا، بل أنجب منها بنتا، وقد رفضت حتشبسوت أن تزوج ابنتها الملكية من ابن زوجها تحتمس الثاني من زوجته غير الملكية (أي رفضت أن تزوج ابنتها الملكية من أخيها غير الشقيق وغير الملكي)، ولعدم وجود وريث شرعي للحكم بعد موت تحتمس الثاني فقد قام الكهنة بتنصيب ابنه هذا - من الزوجة غير الملكية - الذي كان عمره خمس سنوات والذي لُقّب بتحتمس الثالث، وكانت حتشبسوت زوجة أبيه وصية عليه (١٤٩٠ - ١٤٦٩ ق.م)، وملكة إلى جانبه، والذي تولى الحكم بعد موتها، وقد بدأ تحتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م) حملاته العسكرية في بلاد كنعان بمعركة مجدو الشهيرة بين القوات الفرعونية وقوات التحالف السوري بقيادة مملكة قادش، وقد استطاع من خلال عنصر المفاجأة أن يجبر قوات التحالف التحصن في مدينة مجدو في الوقت الذي استطاع فيها ملك قادش من التملص من أن يُحاصَر في مدينة مجدو، وبعد سبعة شهور من الحصار تم إعلان اتفاق بين الطرفين فرض فيها تحتمس الثالث شروطه، وعاد الملوك إلى بلدانهم، لكن مملكة قادش التي لم توقع على اتفاق مجدو عادت تحرض الممالك السورية على التمرد على سلطة الفرعون، فقام تحتمس الثالث بعد سبع سنوات بحملة على سورية وقد أخضع فيها الممالك المتمردة وعلى رأسها مملكة قادش، ووصل حتى نهر الفرات ووضع هناك نصباً تذكارياً، وكان أول من استطاع أن يمد حكمه من النيل وحتى الفرات.

أما بالنسبة لدواد فقصته تشبه إلى درجة كبيرة قصة تحتمس الثالث، من حيث ولادته والذي ينسب إلى جدته بالتبني نعمى والتي كان لها ولدان ماتا بعد زواجهما من امرأتين موآبيتين، إحداهما كانت راعوث والتي تزوجها بوعز أحد أقرباء زوجها المتوفى ليحي نسله، فولدت راعوث من بوعز ولدا ذكرا سُمي عوبيد، والذي أنجب يسى، والذي بدوره أنجب داود، والذي تم مسحه ملكا من قبل النبي الكاهن صموئيل وهو ما زال فتى صغيرا، كما أنه كان صهرا للملك شاؤل، ولكنه لم يتبوأ الحكم إلا بعد مدة زمنية من مسحه ملكا، كما كان الأمر بالنسبة لتحتمس الثالث.

كما أن معركة مجدو التي سبق ذكرها تتشابه بل تتطابق في خطوطها العريضة مع معركة داود ضد ربة عمون، كما أن المحرر التوراتي جعله ينتصر على تحالفات الممالك السورية ويخضعها لسلطته ويجبرها على دفع الجزية من الفرات إلى النيل، كما كان الأمر بالنسبة لتحتمس الثالث.

شخصية سليمان التوراتية:

إن شخصية سليمان من حيث دعائيتها وتركيبيتها لا تختلف عن شخصية داود، وهي صفة مشتقة من السلام الذي اتصف به عهده كما أتى في التوراة، وهي وإن لم تكن تتماشى مع سياقها التاريخي، إلا أنها شخصية قدمت بطريقة أكثر واقعية ومنطقية من شخصية داود، ولكنها أبقت على شيء من التناقضية عندما نسبت إليه أسفار الأمثال، ونشيد الأناشيد، والجامعة، وهي أسفار تمثل تصورات متناقضة، فسفر الجامعة يتبنى تصورا عدميا، تشاؤميا، سوداويا «قلت في قلبي الله يدين الصديق والشرير. لأن لكل أمر ولكل عمل وقتا هناك. قلت في قلبي من جهة أمور البشر إن الله يمتحنهم ليريهم أنه كما البهيمة هكذا هم. لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل. يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما. من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل إلى الأرض. فرأيت أنه لاشيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه. لأنه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده.» جامعة ٣، وفي موقع آخر يتبنى تصورا وجوديا «إن الكلب الحي خير من الأسد الميت. لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون. أما الموتى فلا يعلمون شيئا وليس لهم أجر بعد لأن ذكرهم نسي. ومحبتهم وبغضهم وحسدهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد إلى الأبد في كل عمل تحت الشمس.

«اذهب كل خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب طيب.. لتكن ثيابك في كل حين بيضاء ولا يعوز رأسك الدهن. التذ عيشا مع المرأة التي أحببتها كل أيام حياة باطلك التي أعطاك إياها تحت الشمس كل أيام باطلك لأن ذلك نصيبك في الحياة وفي تعبك الذي تتعبه تحت الشمس. كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها» جامعة ٩.

أما سفر نشيد الأناشيد فيتبنى تصورا وجوديا يفيض بالعذوبة والأمل والمحبة والعطاء، «ليتك كأخ لي الراضع ثدي أميس فأجدك في الخارج وأقبلك ولا يخزونني، وأقودك وأدخل بك بيت أمي وهي تعلمني فأسقيك من الخمر الممزوجة من سلاف رماني. شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني» نشيد الأناشيد ٨، أما سفر الأمثال فيتعارض جزئيا مع سفر نشيد الأناشيد من كونه ينظر بعنصرية، وبقبلية مترمتة في علاقة الرجل بالمرأة «شفتا المرأة الأجنبية تقطران عسلا وحنكها أنعم من الزيت.. أبعد طريقك عنها ولا تقرب إلى باب بيتها. لئلا تعطي زهرك لآخرين وسنينك للقاسي. لئلا تشبع الأجانب من قوتك وتكون أتعابك في بيت غريب» أمثال ٥.

ولد سليمان ابنا للملك داود من زوجته التي اشتهرت فضيحته الجنسية معها، وتربى في بلاط ملكي تربية دبلوماسية، ومنذ تسلمه السلطة عرف كيف يمسك بخيوط الحكم كاملة بين يديه بعد أن كان قد تخلص من رجال البلاط الذين كان لهم نفوذ إبان حكم داود، وقد سوّقته التوراة على أنه رجل حكيم، ودبلوماسي محنك، وحاكم عادل، وعلى الرغم من أنه من قام ببناء بيت الرب (الهيكل)، فقد سجد لكل آلهة الأمم التي صاهرها، وقد بالغت التوراة كثيرا في تضخيم شخصية سليمان، من حيث نشاطاته العمرانية، والإدارية، وكتاباته الأدبية (أمثاله وحكمه وأناشيده)، وأعماله الدبلوماسية الدولية، ونشاطاته التجارية البرية والبحرية، وقوة جيشه، وحدود مملكته (قنطرة الشرق الأوسط) التي ورثها عن داود، والتي تمتد من نهر الفرات شمالاً إلى وادي العريش في الجنوب الغربي، وكان البحر المتوسط يحدها من الغرب، والصحراء العربية في الشرق، كما كانت تمتد جنوباً إلى الطرف الشمالي من خليج العقبة، وقد كان لشخصيته الدبلوماسية أثرا مهم بحيث بوأته لأن يكون أشهر رجل في زمانه، وبمقدار ما كانت تأتيه الأموال، كان أيضا سخيا في صرفها، في أعمال البناء، ومن خلال الهدايا والذبائح، والاحتفالات، كما يمكن أن نتبين ترابطا مهما بين شخصية سليمان النصية، وبين شخصية هيرود الكبير التاريخية (٣٧ - ٤ ق.م)، بحيث يمكن تبين عدة نقاط تشابه وتطابق بين الشخصيتين.

ولكن التوراة ذهبت بعيدا حين جعلت إحدى زوجات سليمان بنت فرعون مصر، وهناك الكثير مما يدحض هذه المقولة ولكن أهمها هو أن أحد أعدائه اللدودين هو يربعام من قبيلة أفرايم الذي فر منه بعد محاولة انفصالية فاشلة إلى مصر التي كانت تحت حكم شيشنق (٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م)، فلو كان شيشنق نسيبه لما آوى ألد أعداء صهره، كما أن الفرعون لا يمكن أن يزوّج ابنته لملك صغير والذي هو من العابيرو الذين كانوا يعملون كعبيد في مصر من جهة، ومن جهة ثانية أن العابيرو كانوا شعبا محتقرا من قبل الشعب المصري، وكان المصريون ينعتونهم بالكلاب، وهذا ما أكدت عليه التوراة في سفر الخروج لا سيما في قصة يوسف مع زوجة سيده رئيس الشرطة (زليخة)، كما أنه من المعروف عن الفراعنة أنهم يترفعون على كل الشعوب ولا يعطون نساءهم لغير المصريين فكيف بالعابيرو، لا سيما وأن الفراعنة كانوا يعتبرون أن بنات الفرعون هن من طبيعة إلهية لأنهن سيلدن الفراعنة والذين هم ممثلو الإله على الأرض، ولم يحصل أن تزوجت بنت لأي فرعون من غير المصريين، وقد جاء في الحوليات أن أمنحوتب الثالث قد طلب أميرة من بابل هي ابنة كاد شمان إنليل لتكون له زوجة، فبعث بها الأمير كاد شمان إنليل، وطلب من أمنحوتب الثالث أن يرسل له أميرة مصرية فرفض أمنحوتب الثالث طلبه بحجة أن هذا مناف للأعراف والتقاليد المصرية، وحسب رواية هيرودوت طلب قمبيز وهو في قمة مجده من الفرعون ابنته ومصر في قمة انحطاطها، فما كان من الفرعون إلا أن اختار إحدى فتيات القصر وأرسلها إلى قمبيز على أنها ابنته، ولما اكتشف قمبيز ذلك اتخذها حجة لغزوه مصر، ولكن البعض ولا سيما التوراتيين يرون أن زواج سليمان من ابنة الفرعون ممكن، لأن الفراعنة الذين عاصروا سليمان كانوا من الشناشقة الليبيين، ولم يكونوا فراعنة مصريين، وليس من المستبعد أن يكون شيشنق قد أعطى إحدى بناته، أو أهدى إحدى جواريه زوجة لسليمان، لا سيما وأن التوراة جاءت على أن هدد الأدومي ملك أدوم المعاصر لسليمان تزوج من جنويث وهي أخت زوجة الفرعون تحفنيس.

وقصة زواج سليمان من ابنة الفرعون التي أراد محررو التوراة أن يعلوا من شخصية سليمان، فقد قاموا أيضا - ودون قصد - بتقزيم إمبراطورية سليمان التي أتى ذكرها في التوراة على أنها تمتد من الفرات إلى النيل، بحيث بدت صغيرة إلى درجة أن سليمان لم يكن له سيادة على قرية صغيرة على بعد ١٧ كم من عاصمة ملكه هي قرية جازر الكنعانية، والتي قام الفرعون صهر سليمان باحتلالها، وقدمها لسليمان كمهر لابنته، وقد أكد البحث الآثاري أن المدينة (جازر) كانت قد دمرت في نفس الزمن المفترض لسليمان، وكل القصة حسب رأي البعض حررت من أجل تسويغ قيام فرعون مصر باحتلال مدينة جازر الصغيرة

وضمها إلى مملكة سليمان، الأمر الذي يكشف المبالغة في تصوير قوة مملكة سليمان من جهة، ومن جهة ثانية المبالغة في حدودها، حيث أن سليمان لم يستطع أن يخضع مدينة صغيرة تبعد عن أورشليم عاصمة سليمان قرابة ١٧ كم، ويعتقد البعض أن الملك سليمان كان تحت حماية الهيمنة الفرعونية، وربما كانت مملكة سليمان تدفع الجزية لمصر أو ربما كانت بتحالف مع مصر المتقهقرة، ولم يقدر سليمان أن يسيطر على جازر فقام الفرعون باحتلالها ثم ضمها إلى مملكة سليمان لتوسيع نفوذها بحيث تمتلك مساحة وقوة كافية يمكن لها أن تقف (كبواب على باب مصر) في وجه القوة الآشورية المتصاعدة، وبذلك عرقلة تقدم القوات الآشورية في حال غزوها لمصر، أو أن تدمير جازر قام به شيشنق (٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م) ملك مصر الليبي أثناء حملته على بلاد كنعان والتي هَزم فيها عدة ممالك كنعانية، ومنها مدينة أورشليم الكنعانية حسب ما جاء في التوراة على عهد رحبعام بن سليمان (٩٢٨ - ٩١١ ق.م) وسلب كل نفائس مملكة سليمان المزعومة، وقد افترض البعض أن الفرعون الذي صاهر سليمان (٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م) هو سيامون آخر فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين الذي تولى الحكم في مصر سنة ٩٢٤ قبل الميلاد، مستبعدين أن يكون هو الفرعون شيشنق (٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م) لأنه كان من أعداء سليمان فقد ناصر عدو سليمان الأول يربعام، كما أنه قام بحملة على يهوذا في عهد رحبعام.

وتصف التوراة سليمان - والذي يعتبر عند اليهود أنه صاحب الزمن الذهبي لهم، وفخرهم، وباني أمجادهم ويصفونه برجل حكيم، وأحكم بني عصره، وقد اشتهر بهذه الخصلة حتى أن الملوك من كل جهات الأرض كانوا يأتون إليه ليسمعوا منه، ولكن التوراة لم تذكر منهم سوى بلقيس ملكة سبأ التي لم تأت أي وثيقة أو شاهد تاريخي على ذكرها، وبجرة قلم قام المحرر بادعائه أن سليمان قام ببناء عدة مدن أهمها بعلة وتدمر.

وقد بالغ محررو التوراة في عدد زوجات سليمان التي بلغت ١٠٠٠ زوجة منها سبع مئة شرعية، وثلاث مئة من السراري، وهن اللواتي أفسدن ارتباطه بـ (يَهْوَه)، بحيث أن نساءه أملن قلبه فعبد عشتار التي كانت معبودة صيدا، وملكوم معبود العمونيين.

ومات سليمان (٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م) - بعد أربعين سنة من الحكم - بعد أن تربع على أكبر إمبراطورية في عصره حسب وصف التوراة - أو على الأقل هو الذي وضع درة التاج على مملكة العبرانيين، وعلى الرغم من توصيفه واشتهاره بالحكمة، إلا أنه لم يكن حكيما عندما لم يقم بتأسيس أو تربية أبنائه ليكونوا محنكين ليرثوا مملكته ويحافظوا عليها، الأمر الذي أدى إلى انقسامها بإعلان استقلال مملكة إسرائيل عن مملكة يهوذا والتي كانت تحت

احتلال مملكة يهوذا أكثر من مفهوم اتحادها معها، وما أن سنحت لها الفرصة حتى تحررت وأعلنت استقلالها، وبذلك فإن النجاح السياسي الذي حققه كل من الملوك الآباء (داود - سليمان) من خلال توحيد القبائل العبرية في وحدة سياسية واحدة، قد ذهب أدراج الرياح بعد موت الملك سليمان لأنهما لم يستطيعا تحقيق الوحدة الروحية بين القبائل العشر العبرية الشمالية (الإسرائيلية)، والقبيلة الجنوبية (قبيلة يهوذا)، الأمر الذي قاد إلى انقسام المملكة.

وشخصية سليمان التركيبية الانتحالية المرفوضة بل والمستحيلة في سياقها التاريخي تتناص في كثير من جوانبها مع شخصيتين تاريخيتين هما أمنحوتب الثالث (١٤١٢ - ١٣٨٧ ق.م) حسب ما ذهب إليه أحمد عثمان، والملك هيرودوس الأكبر ملك اليهودية في العصر الروماني (٣٧ - ٤ ق.م).

الفرعون أمنحوتب الثالث (١٤١٢ - ١٣٨٧ ق.م) والملك سليمان التوراتي:

ورث أمنحوتب الثالث عن أبيه تحتمس الرابع (١٤٢٥ - ١٤١٢ ق.م) مملكة تمتد من الفرات إلى النيل، وكانت عاصمتها أخت آتون بعد أن كانت طيبة، وكان أمنحوتب الثالث ذا شرعية مشكوك فيها، فهو أولا من أم أجنبية غير ملكية (ميتانية)، وكذلك بالنسبة لزوجته تي السورية أيضا والتي أعلنها، أو اعتبرها زوجة ملكية، والتي تميزت بشخصيتها الذكية، وقد كانت إحدى الشخصيات المهمة جدا في التاريخ الفرعوني، على الرغم من أنه كان أعلن - حسب التقليد الفرعوني - أن زوجته وأخته الملكية سيت آمون ملكة شرعية، لكن زوجته الفعلية كانت تي، وهي التي في النهاية فرضها على الجميع وذهبت سيت آمون في الظل واختفت عن الساحة، وكانت تي قد حملت وولدت ابنا ذكرا اختفى ذكره عن الساحة.

وبسبب الاستقرار السياسي التاريخي الذي تميزت به فترة حكم أمنحوتب الثالث فإنه لم يقم بأي حرب خلال مدة حكمه التي امتدت قرابة أربعين سنة، وقد تزوج أمنحوتب الثالث من أميرات الممالك التي تدين له بالولاء، فقد تزوج من أميرة ميتان (تاتوحيبا أوجيلو هيبا) ابنة الملك الميتاني (شورتانا أو توشراتا)، وتزوّج من بابل ابنة الأمير كاد شمان إنليل، وكان قصره يعج بالغواني والسراري الذي كان يستقدمهن من ممالك الشرق القديم، كما كان الأمر بالنسبة لبيوت القادة والأغنياء وهذا ما أدخل الثقافة والحضارة السورية إلى مصر، وقد جاء في رسالة بعث بها أمنحوتب الثالث إلى ميلكيلي والي جازر يطلب منه أربعين فتاة جميلة {وسأتخذ من هذه الهدية مقياسا لحسن ذوقك وخبرتك}، كما أقام أمنحوتب الثالث علاقات صداقة مع الممالك البعيدة والقريبة وتبادل معهم الهدايا، كما أنه قام بسبب الرخاء المالي،

وبحب أمنحوتب الثالث للترف والملذات بأعمال بناء المعابد، والقصور، والتحصينات، والتي استخدم فيها خشب الأرز من بلاد الفينيقيين وطعمها بالذهب، والعاج، والأحجار الكريمة، لا سيما وأن مصر في بداية حقبة تل العمارنة، كانت في أغنى مرحلة من مراحلها، فقد كانت تسيطر على تجارة العالم، وكانت الأموال تتدفق عليها من مصادر متعددة، وكانت لها هيمنة حضارية عسكرية، وكانت مصر محجا للشعوب على تنوعها، وهم الذين أتوا بثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وفنونهم ولغاتهم مما أدى إلى تنوع وغنى وبذخ وتلون في الحياة العامة، وقد وقف المحافظون ضد هذا التيار الذي بدأت الشخصية المصرية الفرعونية البيروقراطية المحافظة المتعصبة بالتفكك، وبدأت سماتها تذوب، وبدت مصر كما لو أنها ستصبح مستعمرة آسيوية بعد توغل الوجود السوري في القصر الملكي، لا سيما بعد أن ضعفت شخصية أمنحوتب الثالث بعد أن أصيب في آخر أيامه بمرض عقلي بحيث أصبح أكثر رعونة وشذوذا، حتى أنه تزوج بابنته، وكان يلبس لباسا نسائيا، وقد مات على أثر هذا المرض، وقد ورّث ابنه أمنحوتب الرابع (إخناتون) مملكة عصفت بها الصراعات الداخلية، وعلى ما يبدو أن إخناتون، الذي كان قد تربى في قصر يسيطر عليه وعلى قراراته جهاز كهنوتي ثقيل، قد حاول بعد توليه الحكم، وبتأثير من زوجته السورية نفرتيتي، ومن أمه وأخواله السوريين (الميتانيين)، أن يتحرر من هيمنة هذا الجهاز من خلال القيام بثورة دينية توحيدية.

وبالمقابل نجد أن سليمان وهو ابن داود من زوجته الحثية التي كان قد زنى بها، والتي استطاعت أن تجعل ابنها الوريث الملكي، في الوقت الذي كان يجب أن يكون الوريث الملكي هو أحد أبنائه من زوجته الملكية ميكال بنت شاؤل، وبالتالي فإن سليمان مشكوك في شرعيته، لا سيما وأن دمه غير صافٍ، وقد ورث سليمان عن أبيه داود مملكة تمتد من الفرات إلى النيل، وعاصمتها أورشليم بعد أن كانت حبرون، وكان يسودها الأمن والاستقرار وهذا ما أتاح له الاهتمام بأعمال بناء المعابد، والقصر الملكي، والتحصينات الدفاعية، والتي استخدم في تزيينها خشب الأرز الفينيقي، وطعمها بأوزان الذهب، والعاج والأحجار الكريمة، كما كان مشغولا بالنساء الأجنبيات من الممالك التي كانت تدين بالولاء للملك سليمان والتي بلغ عددهن الألف، كما كان مشغولا بالتجارة، وكنز الذهب وتبادل الهدايا مع ملوك البلاد البعيدة والقريبة، وبمشكلاته المحلية، وكان زمنه زمن سلام فلم يقم بأي حرب خلال حكمه الذي امتد أربعين سنة، وحسب التوراة فقد صنع دولة قوية لها نفوذها وهيبتها في العالم القديم، ومات بعد أن ورّث لابنه رحبعام مملكة عصفت بها الصراعات السياسية، والدينية والتي انتهت إلى انقسام المملكة.

ولكن، وبينما ما زالت النصوص تتحدث عن أعمال الفرعون تحتمس الثالث، والفرعون أمنحوتب الثالث، كما أن آثار أعمال البناء التي قاما بها ما زالت قائمة حتى هذا اليوم، وما زالت أسماء الممالك التي قهرها تحتمس شاهدة على جدران معبد الكرنك، لم يستطع البحث الأركولوجي - على الرغم من إصراره - أن يجد كلمة واحدة يرد فيها ذكر للملك داود أو الملك سليمان، كما لم يجد حجرا أو أثرا مهما قل شأنه ينسب إلى الملك داود أو الملك سليمان.

الملك هيرودوس الكبير (٣٧ - ٤ ق.م)

في سنة ٦٣ ق.م خضعت فلسطين ذات الأغلبية اليهودية للحكم الروماني، وفي سنة ٤٧ عين إمبراطور روما يوليوس قيصر اليهودي الأدومي هيرودوس ابن انتباتر واليا على الجليل، وقد اشتهر بقيادته للولاية، ولما استطاع الفرثيون اجتياح سورية هرب هيرودوس إلى روما بعد أن أودع عائلته في قلعة ماسادا (مسعدة) غربي البحر الميت، وفي روما تم تعيينه مباشرة ملكا نظريا على ولاية يهودا التي سقطت بيد الفرثيين، وبقي هناك لمدة سنتين، حتى بدأ الفرثيون بالانحدار أمام الرومان، فعاد هيرودوس من روما سنة ٣٨ ق.م مدعوما بفرقتين رومانيتين، وحاصر مدينة أورشليم التي كان يحكمها ألكسندر يناي الذي كان مواليا للفرثيين، وقد سقطت أورشليم بعد خمسة أشهر من الحصار وقام هيرودوس بإعدام ألكسندر يناي، (أما ابنه هوركانوس الذي كان أسيرا في بابل والذي تم العفو عنه، وسمح له هيرودوس سنة ٣٦ ق.م بالعودة، إلا أنه أعدمه سنة ٣٠ ق.م)، وبذلك أصبح هيرودوس ملكا فعليا على ولاية يهودا.

كان هيرودوس أدومياً متهوداً من أم نبطية، وقد اتصف بشخصيته المميزة بحزمها، وحنكتها، ودهائها في إدارة الأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية، وبذلك فقد استطاع سريعا أن يوسع مملكته حتى شملت كامل فلسطين، معتمدا على جيش منظم ومدرب بشكل عالي، ومشكل من مزيج من اليهود والجنود المرتزقة، وعلى قادة عسكرية وسياسية أغلبهم من غير اليهود لا سيما من الإغريق والأدوميين، وعلى شبكة من الجواسيس، وعلى تقسيمات إدارية ناجحة، وقد ساد عهده ثراء في ولاية يهودا، كما اهتم بالأعمال العمرانية شديدة الفخامة في عصرها، وأهم ما قام ببنائه هو هيكل أورشليم بشكل لم يكن له مثيل من قبل، ومن بعد، وقد اعتمد في بنائه على خبرات المهندسين من مدينة صور، وحائط المبكى والذي يشكل جزءا من السور الذي كان يحيط بمبنى الهيكل ما زال شاهدا حتى الآن، وهذا البناء الذي كانت تصب في خزينته ضرائب الحجاج، وهدايا وعطايا وتبرعات أثرياء

اليهود حيثما كانوا، والشخصيات التاريخية من غير اليهود وكان أهمهم قيصر روما (أغسطس)، والملك الفارسي أرتازكسيس، وإضافة إلى بناء الهيكل الشهير قام ببناء عدة مبانٍ عمرانية منها البلاط الملكي، والمسارح والحمامات العامة، والملاعب الرياضية ذات النمط الروماني، كما أنه اهتم ببناء الحصون والقلاع الدفاعية، وقام بترميم بعض المدن، واستحداث مدناً جديدة، كما أنه ساهم ببناء عدة معابد غير يهودية خارج حدود مملكته، متمشيا من سياسته المتسامحة مع جميع الديانات في الوقت الذي كان يكره العقلية اليهودية المتزمتة، ولذا فقد حاول أن يؤمم الديانة اليهودية، وهذا ما جعل رجال الدين اليهودي المتزمتين يضمرون له كراهية عميقة لا سيما وأنه قام في بداية حكمه بالانتقام من الصدوقيين، وهمشّ دورهم في المجتمع الديني اليهودي، كما أنه قام أيضا بتحجيم دور السنهدرين في قيادة المجتمع.

وأهم ما ميز شخصية هيرودوس هو يده الحديدية حيث كان يبطش دون رحمة بأعدائه السياسيين، والدينيين، والتي لم يسلم منه أقرب الناس إليه، ففي بداية حكمه قام بشنق الكثير من الكهنة الحشمونيين (أهل زوجته، وأنسباؤه) وأنصارهم، كما أنه قام بقتل زوجته مريم الحشمونية أم أولاده وابناه منها ألكسندر وأرسطوبولس، وأخيها، وابنه أنتيباتر، كما فتح جبهة حربية مع أخواله الأنباط.

لقد استطاع هيرودوس أن يجعل من نفسه شخصية مشهورة جدا في عصره، ومحط إعجاب البعيد والقريب، وكانت سيرته على كل لسان، وقد تحول إعجاب ملكة مصر كليوباترة إلى غيرة شديدة منه، ولكن كل هذا المجد كانت تعكره المشكلات والدسائس وكثرة الفضائح السياسية والجنسية العائلية المتشابكة بسبب تعدد زوجاته وأنسبائه وأبنائه، ويبدو أنه في سنواته الأخيرة أصيب بمرض عقلي حولته إلى شخص شديد النزق، والرعونة، وتعكر المزاج، بحيث أصبح أقرب إلى الجنون، وقام في أواخر أيامه بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة الذين تبقوا له، فعيّن ابنه أرخيلاوس ملكا في أورشليم، وابنه أنتيباس واليا على الجليل وابنه فيلبس الثاني على الجولان ومحيطها، أما ابنه فليبس الأول من زوجته مريم بنت سمعان الحشموني فقد حرمه من الإرث لأنه كان ابن المرأة الخائنة، وقد قال عنه أعداؤه إنه تسلل إلى العرش كالثعلب، وحكم كالنمر، ومات كالكلاب.

أما بالنسبة أرخيلاوس الذي أصبح واليا لا ملكا على اليهودية والسامرة والأدومية بعد موت أبيه هيرودوس والذي كان قد ورث عنه صفة البطش والقسوة، فقد قام بقتل ثلاثة آلاف يهودي في الهيكل في عيد الفصح، وبسبب ذلك قامت ثورة شعبية ضده أدت في النهاية إلى

عزله من منصبه بأمر من روما، أما شقيقه أنتباس الذي عيّن واليا على الجليل فقد ورث عن أبيه الطموح، والخديعة، وتعطشه لسفك الدماء، كما اشتهر بكثرة علاقاته الجنسية، والذي قام باعتقال معارضه يوحنا المعمدان ومن ثم قام بجز عنقه.

هيرودوس وسليمان:

هناك الكثير من النقاط المشتركة بين شخصيتي سليمان، وهيرودوس، بل هناك تطابق في الخطوط العريضة لكلا الشخصيتين:

هيرودوس كان من أب يهودي، وكان أخواله من الأنباط، أما سليمان فكان أخواله من الحثين، أي كلاهما كان يسيل في دمهما دم غير يهودي.

هيرودوس تربى في كنف عائلة سياسية، فأبوه أنتباتر كان سياسيا وكان له نفوذ كبير في البلاط الروماني، وبدعم منه تسلم هيرودوس السلطة، ومن ثم أصبح ملكا على أورشليم، كذلك سليمان الذي تربى في البلاط الملكي، وبدعم من أبيه تربع على عرش أورشليم.

وإذا كان هيرودوس قد تزوج ابنة سمعان الحشموني الذي كان على رأس السلطة في مقاطعة اليهودية قبل حكم هيرودوس، فإن سليمان قد تزوج من ابنة فرعون مصر.

هيرودوس كان واسع الشهرة على مستوى العالم، وكان من معجبيه الكثيرين، وأهم معجبيه كانت الملكة كليوباترا إلى درجة أنها كانت تغار منه، كذلك الأمر بالنسبة لسليمان فكان أشهر شخصية في زمانه، وكان من أهم معجبيه هي الملكة بلقيس.

وكلاهما كانا متسامحين مع ممارسة الطقوس الدينية على اختلاف معتقداتها، بل ودعما بناء المعابد غير اليهودية.

وكلاهما قاما بأعمال عمرانية واسعة داخل وخارج فلسطين، وكان أهمها بناء الهيكل، وإذا كان هيرودوس رمز الهيكل الأول، وقام ببناء الهيكل التاريخي بخبرات من مدينة صور بشكل لم يكن له مثيل، كذلك الأمر بالنسبة لسليمان فهو رمز الهيكل الأول الذي قام ببنائه بخبرات من مدينة صور، ولم يقم أحد من قبله، ولا من بعده ببناء مثيل له.

وكلاهما أتصفا بالحنكة، والحكمة، وحسن التدبير، والدبلوماسية، والدهاء، وكلاهما قاما بتصفية رموز العهد القديم، وكل من حاول معارضتهما في الحكم حتى من أقاربهما، فهيرودوس قام بتصفية زوجته مريم الحشمونية وثلاثة من أولاده، أما سليمان فقام بتصفية أخيه أدونيا.

وكلاهما اعتمدا في السيطرة على مقاليد الحكم على يدهما الحديديتين، وعلى عناصر غير يهودية، وجنّدا في جيشهما جنودا مرتزقة من غير اليهود.

وكلاهما لم يقوما طوال فترة حكمهما المتساويتين تقريبا بأي حرب مع محيطهما الجغرافي، وبعد موتهما انقسمت مملكتهما.

هيرودوس وداود:

لا يوجد الكثير من العناصر المشتركة بين شخصيتي داود، وهيرودوس الكبير، كما أننا لا نستطيع أن نرجع كل النقاط المتشابهة إلى التناص، ولكن يمكن الافتراض أن بعض هذه العناصر قد أُخذت من شخصية هيرودوس التاريخية، ونصّصت في شخصية داود، وأهم هذه النقاط المتشابهة هي:

داود كان أخواله الموآبيين، وهيرود أخواله الأنباط (الأدوميين)، أي كلاهما تجري في عروقهما دماء غير يهودية، وكلاهما قام بشن حرب على أخواله.

وضع هيرود عائلته في قلعة مسعدة بالقرب من أخواله، وفر إلى روما أعداء أبناء دينه أثناء الحكم الفرثي، وداود وضع عائلته عند أخواله الموآبين وفر من وجه شاؤل إلى أعداء شعبه الفلسطينيين.

عيّن هيرود ملكا عرفيا على اليهودية، وبعد مدة أصبح ملكا فعليا، وعين داود ملكا عرفيا على بني إسرائيل، وبعد مدة أصبح فعليا.

حاصر هيرود أورشليم، وبعد مدة سقطت وأصبح ملكا عليها، كما كان الأمر بالنسبة لداود أيضا.

قام هيرودوس بتصفية أركان الحكم السابق، وكذلك فعل داود.

قام هيرودوس بقتل هوركانوس ابن ألكسندر يناي بعد أن كان قد عفا عنه، كما أن داود أوصى بقتل شمعي بن جيرا بعد أن كان قد عفا عنه.

كان لدى هيرودوس العديد من الزوجات، وأهمهن مريم ابنة سمعان الحشموني ابنة أحد أهم حكام اليهود السابقين، وقد حرم ابنها من الإرث الملكي، وكذلك الأمر بالنسبة لداود الذي كان له العديد من الزوجات أهمهن ميكال بنت الملك السابق شاؤل، وقد حرم ابنها من الإرث الملكي.

وفي كلا عائلتيهما اشتهرا بالفضائح الجنسية.

قام هيرودوس بقتل ثلاثة من أبنائه، أما داود فقتل ابنا واحدا هو أبشالوم.

قام هيرودوس قبل موته وكان يعاني مرضاً عقلياً ذهنياً، بتنصيب ابنه أرخيلاوس ملكا، كما قام داود قبيل موته وكان يعاني أيضا مرضاً عقلياً ذهنياً بتنصيب ابنه سليمان ملكا.

وبعد هذه المقدمة يمكن تبين وجود الكثير من نقاط التشابه والتماثل بين عصري المملكة المتحدة النصية (الهيكل الأول) التي يؤرَخ لها (١٠٠٤ - ٩٢٨ ق.م)، وبين عصر المملكة اليهودية التاريخية تحت الحكم الروماني (٦٣ ق.م - ٧٠م) (الهيكل الثاني)، ويبدو أن محرري التوراة قاموا بإعادة تحرير أسفار التوراة ككل، وعلى الأخص الأسفار التي أرخت لمرحلة المملكة المتحدة تحت تأثير الأحداث التاريخية لمرحلة المملكة اليهودية الرومانية، إي أن الهيكل الأول يمثل حالة تناص مع الهيكل الثاني، وفي سياق هذا التطوير قام الكتبة بتفكيك عناصر شخصية هيرودوس الكبير وأبنائه، وأعادوا تركيب بعض العناصر في شخصية داود التي يؤرخ لها (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق.م)، والكثير منها في شخصية سليمان التي يؤرخ لها (٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م) لا سيما منها العناصر التي يمكن وصفها بالمشينة، وما هذه الإساءة سوى إساءة مضمرة لشخصية هيرودوس نفسه، ولأبنائه من بعده لا سيما منهم أرخيلاوس، وشقيقه أنتباس، من قبل رجال الدين اليهود من الكهنة والكتبة من الفريسيين، والأسنيين الذين كانوا يضمرون كرها شديدا لـ هيرودوس ولأولاده من بعده لأنهم كانوا قد استبعدوا، وهمشوا رجال الدين اليهودي من قيادة المجتمع، كما قاموا بتصفية الكثير من الرموز اليهودية، وكانوا يكرهون الجبة اليهودية المتزمتة، كما حاولوا أن يفتتوا العنصرية اليهودية الشوفينية من خلال تأميم الدين اليهودي، وهذا تماماً ما يفسر لغز إساءة اليهود إلى شخصيتي داود وسليمان، والتي أعادها الباحثون إلى عدة أسباب هي أقل إقناعا مما ذهبت إليه أنا، والفصل في هذا الافتراض يمكن توضيحه واستكشافه بعد أن يتم ترجمة كامل وثائق وملفوفات البحر الميت الشهيرة، بحيث يتبين إذا ما كان هناك فارق في شخصيتي داود وسليمان التوراتيين في النصوص أو النسخ التي تم تحريرها قبل سنة ٣٧ ق.م، وهي سنة اعتلاء هيرودوس عرش أورشليم، وشخصيتهما في النسخ التوراتية التي تم تحريرها ما بعد سنة ٣٧ ق.م، كما يمكن أيضا الاستئناس بما جاء في الترجمة السبعونية والتي، من المؤكد أنها خضعت إلى أعمال التحرير في مراحل متعددة، بالتوازي، والتراضي مع إعادة تحرير النص الماسوري، وتبقى مخطوطات البحر الميت هي الوثائق التي يمكن أن تثبت، أو تنفي صحة ما ذهبت إليه، إذا ما ثبت صحة تزمين تدوينها.

وفي النهاية يمكن القول أن شخصيتي داود وسليمان هما شخصيتان قصصيتان أدبيتان مركبتان أو متناحلتان أو متناصتان مع العديد من الشخصيات التاريخية، أهمها شخصيات تحتمس الثالث، وأمنحوتب الثالث، وهيرودوس الكبير، أما النواة التاريخية لتلك الشخصيتين، إن كان لهما وجود تاريخي حقا، فلا يتعدى كونهما شيخين لقبيلة يهوذا، حيث استطاع شيخ قبيلة يهوذا الذي لقب بداود أن يتبوأ منصب شيخ شيوخ القبائل العبرية، وقد ورّث من بعده هذا المنصب لابنه الذي لقب بسليمان، وهذا يمكن أن يتماشى مع المعطيات التاريخية لنهاية الألف الثانية، وبداية الألف الأولى لما قبل الميلاد.

وإذا ما أردنا أن نجعل من مرحلة المملكة المتحدة التوراتية مرحلة توراتية كرونولوجية فيجب أن نقرأ بدقة مرحلة القضاة، ومرحلة انقسام المملكة، ومن ثم نضع تصورا عاما للمرحلة التي بينهما، ثم ومع قراءة مرحلة المملكة المتحدة التوراتية فنسقط منها كل ما يذهب بعيدا عن التصور الافتراضي (الأورام)، وحينها يمكن أن نصل إلى مقاربة تاريخية لمرحلة المملكة المتحدة.

المملكة المنقسمة

مملكة إسرائيل

وبعد أن انقسمت المملكة المتحدة، التي حكمها ثلاثة ملوك هم شاؤل، ثم داود ثم سليمان، إلى مملكتين مملكة إسرائيل في الشمال (السامرة) والتي تضم عشرة أسباط، ومملكة يهوذا في الجنوب (والتي تضم سبطين فقط هم يهوذا وبعض قبائل سبط بنيامين)، قام:

يربعام الأول ملك مملكة إسرائيل (٩٢٨ - ٩٠٧ ق.م) من قبيلة أفرايم ببناء مدينة شكيم (نابلس) وجعلها عاصمة له، وبنى أيضا فنوئيل وراء نهر الأردن واتخذها عاصمة، ثم نقلها إلى مدينة ترصة، وللفكاك من التبعية الدينية لأورشليم قام بصنع عجلين من الذهب (وهو رمز بعل الإله الكنعاني) وضع أحدهما في منطقة الجليل في دان، والآخر في منطقة السامرة في مدينة بيت إيل، وبذلك أوجد بديلا لحجيج الإسرائيليين إلى أورشليم، بحيث أصبحوا يحجون إلى معابد في إسرائيل، كما أنه تخلص أيضا من العبادة اليهوية حسب النمط اليهوذي، وعادت القبائل الإسرائيلية إلى عبادة (يَهْوَه) حسب النمط الكنعاني وهي الديانة التي كان يدين بها آباؤهم، وقد كان يربعام في صراع دائم مع مملكة يهوذا ومات بعد ٢٢سنة من الحكم ووليه ابنه:

ناداب لمدة سنتين (٩٠٧ - ٩٠٦ ق.م) حيث انقلب عليه: بعشا بن أخيا (٩٠٦ - ٨٨٣ ق.م) من قبيلة يسخار، واستلب الحكم من قبيلة أفرايم، وقام بإبادة بيت يربعام تماماً، وفي عهده أيضا استمرت الحرب مع يهوذا دون توقف على الرغم من تغير الملوك، وقد قام بعشا بالاستيلاء على بعض مناطق يهوذا وبدأ ببناء مدينة الرامة في المنطقة التابعة ليهوذا ليسكن بها، ويبدو أنه أراد أن يجعلها عاصمة لمملكة إسرائيل، مما أضطر ملك يهوذا آنذاك آسا (٩٠٨ - ٨٦٧ ق.م) أن يستنجد بملك الآراميين في دمشق (بن هدد بن طبريمون بن حزيون) ودفع له آسا كل ما لديه من نفائس

فأنجده بن هدد وقام بضرب المنطقة الشمالية من إسرائيل فأجبرهم على العودة إلى مواقعهم السابقة، وبذلك دخلت مملكة آرام دمشق كطرف في الصراع القبلي الدائر في بلاد كنعان، فتوقف آسا عن بناء الرامة وسكن في ترصة، وقد حكم إسرائيل لمدة ٢٤ سنة وعندما مات وليه ابنه:

أيلة (٨٨٣ - ٨٨٢ ق.م) لمدة سنتين في ترصة حيث قام: زمري (٨٨٢ - ٨٨٢ ق.م) بقتله والاستيلاء على الحكم، وقام كعادة كل الانقلابات بإبادة بيت بعشا وكل رموز حكمه، وبعد سبعة أيام من حكمه «وكان الشعب نازلا على جبثون التي للفلسطينين» والذي رفض أن يكون زمري ملكا عليه فقام - الشعب - ونصّب:

عُمري رئيس الجيش (٨٨٢ - ٨٧١ ق.م) ملكا عليهم ليؤسس السلالة الثالثة، والذي قام بمحاصرة ترصة مما اضطر زمري إلى الانتحار، ولكن لم يكن هناك إجماع شعبي على عمري، وقد انقسمت مملكة إسرائيل إلى جماعتين الأولى تبعت تبني بن جينة، والأخرى تبعت عمري والذي عاد ووحّد الجماعتين بعد موت (قتل؟) تبني، وعلى الرغم من أن المحرر لم يحدد مدة الحرب الأهلية التي نشبت في مملكة إسرائيل بين عمري وتبني، ولكن من خلال استقراء الأحداث يمكن أن نخمن أن هذا الانقسام في الولاء استمر لمدة ثلاث إلى أربع سنوات استطاع أن ينهي عمري الصراع لمصلحته، والذي قام ببناء مدينة شامر (السامرة) وجعلها مقر حكمه الذي امتد لاثنتي عشرة سنة، منها ست سنوات في ترصة وست سنوات في السامرة، وقد جعل من إسرائيل مملكة لها شأنها، وعلى ما يبدو أن عمري كان أول من جعل من إسرائيل قوة لها هيبتها العسكرية في محيطها التاريخي، وليس داود وسليمان كما أتى عليه محررو التوراة اليهوذيين بحيث إن النصوص الآشورية ذكرت مملكة إسرائيل باسم مملكة عمري واستمرت بهذا الاسم حتى بعد موته، ولكنها في نهاية حكمه خضعت لمملكة آرام في دمشق، وأصبحت تدفع لها الجزية، واستلم الحكم بعد أن مات عمري ابنه:

آخاب (٨٧١ - ٨٥١ ق.م) ولمدة ٢٢ سنة، وكان من عبدة البعل «وفي أيامه بنى حيئيل البيتئيلي أريحا»، وفي زمانه عاش النبي إيليا (إلياس - الخضر) من سكان جلعاد في شرقي الأردن (محافظة السلط الأردنية)، وقد طالب إيليا بالعدالة الاجتماعية، وقاوم كنعنة الديانة اليهوية في المملكة الشمالية، والذي فر عن عين آخاب بسبب خلافه الديني معه واختبأ على الطرف الشرقي لنهر الأردن وكانت الغربان تعيله وتأتي له بالخبز واللحم، ثم فر إلى صيدون وكانت هناك أرملة تعيله ولم يكن ينقص من مؤونتها شيئاً، ولما مات ابنها رد إليه الحياة، وقد حصل صراع بين أنبياء بعل وأنبياء (يَهْوَه) بقيادة إيليا وكانت سنوات عجاف، وقد أنتصر إيليا وحينها نزل المطر، وهذا ما أثار غضب أزابيل الكنعانية (ابنة ملك صيدون أثبعل) زوجة الملك آخاب والتي كانت تدين

بالبعلية، فقامت بقتل جميع أنبياء (يَهْوَه)، إلا أن عوبيديا قائد جيش آخاب خبأ منهم مئة نبي، وقد انتقم إيليا وأمر الشعب بقتل أنبياء بعل جميعا (٤٥٠ نبي) على الكرمل عند نهر قيشون، وخوفا من انتقام إزابيل هرب إلى سيناء وهناك خاطبه الرب قائلا «..وقد أبقيت في إسرائيل سبعة آلاف كل الرُكَبِ التي لم تجثُ للبعل وكل فم لم يقبله» الملوك الأول ١٩، ولما قام الآراميون بقيادة بنهدد بمحاصرة السامرة، وقرر آخاب الاستسلام جاءت نبوءة إيليا (بواسطة نبي أرسله إيليا إلى آخاب) بأن إسرائيل ستنتصر «وعدّ.. كل الشعب كل بني إسرائيل سبعة آلاف»، فقام ملك إسرائيل وضرب أرام دمشق بحيث لم تعد قادرة على غزو إسرائيل إلا بعد سنة، وقد هُزمت مملكة آرام دمشق ثانية «فضرب بنو إسرائيل من الآراميين مئة ألف راجل في يوم واحد وهرب الباقون إلى أفيق إلى المدينة وسقط السور على السبعة والعشرين ألفاً الباقين»، واستسلم بنهدد وانتهت الحرب بالاتفاق بين بنهدد وآخاب كالتالي «وقال له - بنهدد لآخاب - إني أرد المدن التي أخذها أبي من أبيك وتجعل لنفسك أسواقا في دمشق كما جعل أبي في السامرة. فقال وأنا أطلقك بهذا العهد»، ومرت ثلاث سنوات دون حرب بينية (وفي هذه الفترة قامت حرب قرقرة بين تحالف الممالك السورية والملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) سنة ٨٥٣ ق.م، والتي شارك فيها آخاب تحت قيادة بن هدد ملك دمشق، ولكن التوراة لم تأت على ذكر تلك المعركة)، ومن ثم حصل اتفاق بين يهوذا وإسرائيل بعد أن زوّج آخاب ابنته عتاليا من زوجته إيزابيل الكنعانية من يهورام ابن يهوشافاط ملك يهوذا، واتفقا أن يحاربا أرام دمشق من أجل الاستيلاء على راموت جلعاد في شرقي الأردن التي كان الإسرائيليون يدّعون أنها لهم، ولأن آخاب كان على اتفاق مع بنهدد فقد قرر دخول الحرب متخفيا، وانكسر الجيشان وقُتل آخاب بعد ٢٢ سنة من الحكم، ووليه ابنه:

أخزيا (٨٥١ - ٨٥٠ ق.م)، وكانت موآب التي كان يحكمها آنذاك ميشع قد عصيت عن دفع الجزية لمملكة إسرائيل بسبب ضعفها، وقد سقط أخزيا بشكل عرضي من علّيته (غرفة فوق الطابق الأرضي) ومات بعد سنتين من حكمه، ولأن أخزيا لم يكن لديه أولاد ذكور فقد وليه أخوه:

يهورام ابن آخاب (٨٥٠ - ٨٤٠ ق.م) والذي في زمانه عاش النبي أليشع الذي حلّت عليه روح إيليا الذي صعد إلى السماء، وقرر يهورام تأديب ميشع ملك موآب الذي كان يدفع بجزية سنوية لملك إسرائيل مئة ألف من الكباش ومثلها من الخراف، وقد عصي ميشع عن دفع الجزية بعد موت آخاب، وقد شارك يهورام في حملته التأديبية كل من يهوشافاط ملك يهوذا (٨٦٧ - ٨٤٧ ق.م)، وملك أدوم أيضا، وكان قد أمر الجيش الذي يعود إلى ثلاث ممالك «فتضربون كل مدينة محصنة وكل مدينة مختارة وتقطعون كل شجرة طيبة وتطمون جميع

عيون الماء وتفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة» الملوك الثاني ٣: ١٩، وانتهت الحملة العسكرية بالفشل، وعاد الملوك الثلاثة دون غاياتهم، وبعد مدة قام بنهدد ملك أرام دمشق باجتياح المنطقة وحاصر السامرة، وكان هناك جوع إلى درجة أن أهل السامرة قاموا بأكل أبنائهم، ولكن بمعجزة إلهية انتهى الحصار، وعلى ما يبدو أن دمشق هُددت أو تعرضت لغزو خارجي ومن أجل ذلك تم استدعاء الجيش على جناح السرعة فتركوا تموينهم وراءهم، ومرت الأيام ومات بنهدد ملك آرام دمشق، وتولى بعده حزائيل الذي ربما كان قد قتل بنهدد المريض، وفي أولى معارك حزائيل انتصر في راموت جلعاد في شرقي الأردن على اتحاد جيشي إسرائيل بقيادة يورام بن آخاب، ويهوذا بقيادة أخزيا بن يهورام بن يهوشافاط (٨٤٠ - ٨٤٠ ق.م) وجرح في المعركة يورام بن آخاب (وكان يسكن في يزرعيل) فقام قائد الجيش:

ياهو بن يهوشافاط بن نمشي (٨٤٠ - ٨١٤ ق.م) بانقلاب، وقتل ملك إسرائيل يهورام بن آخاب (٨٥٠ - ٨٤٠ ق.م) وملك يهوذا أخزيا (٨٤٠ - ٨٤٠ ق.م) الذي كان بزيارة يهورام الجريح، كما قام بقتل كل أبناء آخاب الذكور السبعين وكل أصدقائه وكهنته وقادة جيشه، وأخوة أخزيا ملك يهوذا الاثنين والأربعين، كما أنه أنهى عبادة البعل من إسرائيل وقتل كل أنبيائه بخدعة بعد أن جمعهم بحجة إكرامهم، وهدم كل معابد البعل، وأبقى على عبادة العجل في كل من دان وبيت إيل، وفي زمانه قام حزائيل ملك آرام دمشق بتأديب مملكة إسرائيل في كل تخومهم، وقد استنجد ياهو ملك إسرائيل بملك الآشوريين شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) سنة ٨٤١ ق.م، والذي لم يستطع أن يخضع دمشق وعاد من حيث أتى ليترك لحزائيل حرية التصرف مع مملكة إسرائيل لتدفع له الجزية الثقيلة هي ومملكة يهوذا أيضا، وبعد أن مات ياهو الذي تولى الحكم لمدة ٢٨ سنة، تولى الحكم ابنه:

يهوآحاز (٨١٤ - ٨٠٠ ق.م) وكانت المنطقة آنذاك خاضعة لحزائيل ملك آرام دمشق، ولابنه بنهدد (الثاني؟) من بعده، «وأقام بنو إسرائيل في خيامهم كأمس وما قبله» الملوك الثاني ١٣: ٥، و «لم يبق ليهوآحاز شعبا إلا خمسين فارسا وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل لأن ملك أرام أفناهم ووضعهم كالتراب للدوس» الملوك الثاني ١٣، وبعد أن مات ولي من بعده ابنه:

يهوآش (٨٠٠ - ٧٩٣ ق.م) الذي لم يكفه حكم الآراميين بل عانى أيضا من غزوات الموآبيين، وفي نهاية حكمه استرد الأرض من بنهدد بن حزائيل ملك آرام دمشق بعد أن قام الملك الآشوري حداد نيراري الثالث (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م) بغزو مدينة دمشق وقام بإضعافها وتحجيم دورها كقوة مهيمنة في المنطقة، كما أنه قام بعد حرب مع يهوذا بهدم سور أورشليم وسلب كل نفائسها والتي كانت تحت حكم الملك أمصيا (٧٩٨ - ٧٦٩ ق.م)، وقد استفاد يهوآش

من ذلك ووسع مملكته بعد الضعف الذي حل بكل من آرام دمشق، ويهوذا، وبعد أن مات يهوآش في السامرة ولي من بعده ابنه:

يربعام الثاني (٧٩٣ - ٧٥٣ ق.م) الذي أعاد الاعتبار إلى مملكة إسرائيل، وأخضع لهيمنته كلاً من مملكتي الآراميين حماة ودمشق، وفي أيامه عاش النبي عاموس وهو من مملكة يهوذا، والذي كان تنبأ بنهاية مملكة إسرائيل، وفي تلك المرحلة أيضا ظهر النبي يونان، ومات يربعام الثاني بعد ٤١ سنة من الحكم، وفي عهده (وعهد عزيا ملك يهوذا) ضرب زلزال بسيط المنطقة حسب ما جاء في سفر عاموس، وسفر زكريا، وولي من بعده ابنه:

زكريا (٧٥٣ - ٧٥٢ ق.م) لمدة ستة أشهر حيث قام:

شلوم بن يابيش (٧٥٢ - ٧٥٢ ق.م) بقتله وتولى الحكم لمدة شهر فقط حيث قتله:

منحيم بن جادي (٧٥٢ - ٧٤٢ ق.م) وتولى الحكم، والذي في عهده اجتاح البلاد ملك آشور فول، والذي لا يرد له ذكر في الحوليات الرافدية، ويعتقد بعض الباحثين أنه شلمنصر الرابع (٧٨١ - ٧٤٤ ق.م؟)، والبعض الآخر يعتقد أنه تغلات فلاصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) وهو، حسب مقارنة التزمينين التوراتي، والرافدي الأقرب إلى المنطق، وقد أجبر الملك فول منحيم بن جادي على دفع الجزية مقدارها ألف وزنة من الفضة، ومات منحيم بعد عشر سنوات من الحكم وتولى من بعده ابنه:

فقحيا (٧٤٢ - ٧٤٠ ق.م) الذي قام:

فقح بن رمليا (٧٤٠ - ٧٣٢ ق.م) بقتله وتولى الحكم، وتحالف مع ملك دمشق رزين ضد يهوذا التي رفضت التحالف معهما ضد الآشوريين، فاستنجد آحاز ملك يهوذا (٧٣٣ - ٧١٥ ق.م) تغلات فلاصر ملك آشور (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) الذي اجتاح المنطقة وأخذ عيون وآبل بيت معكة ويانوح قادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى آشور وأسكن بدلا عنهم شعوبا أخرى، ولم يبق من مملكة إسرائيل سوى مدينة السامرة التي نجت بسبب مكانها الحصين، وبعد عشرين سنة من حكم فقح قام:

هوشع بن أيلة (٧٣٢ - ٧٢١ ق.م) وكان حليفا للآشوريين بقتل فقح وتولى الحكم، وفي زمانه اجتاح المنطقة ملك آشور شلمنصر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م)، ودفّع إسرائيل الجزية، ولما تمرد هوشع وعصي عن دفع الجزية لآشور وحاول التحالف مع ملك مصر سوا صعد إليه شلمانصر الخامس، ووضع هوشع في السجن وسبى المنطقة بعد أن حاصرها لمدة ثلاث سنوات وأسكنهم في حلح وخابور ومدن مادي، وسجن هوشع (٧٣٢ - ٧٢١ ق.م) بعد أن كان تولى الحكم لمدة تسع سنوات، وأسكن في البلاد أناساً من بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم.

الأساسي قائم على عَقد أو تشريع، أي على نظم وروابط لم يكن من شأنها أن تجعل من الأخلاق العامة الإنسانية قوانين تحكم الفرد والمجتمع في حال ضعف الوازع الأخلاقي عند البعض، وليس ذلك فحسب بل إنها لم تكن لتهتم بأن تكون الشخصيات المرجعية البطريركية شخصيات أخلاقية بحيث تشكل ما يمكن تسميته بالأسوة الحسنة، فجميع الأوامر والنواهي كان لها مسوغاتها المختلفة التي لم تكن الأخلاق الإنسانية أساسا لها، بل كان اهتمامها الأول، كما سبق وذكرنا، التأكيد على ممارسة الطقوس والشعائر، بدقة متناهية، وبعصابية متطرفة، بحيث إن ارتكاب أي خطأ بقصد أو دون قصد أثناء تأدية الطقوس، يستوجب القتل، كما حصل مع ابني هارون، بل وإن أكل الخبز الخمير، أو التجديف على الرب، وهو محرم حسب الشريعة، فإنه يستوجب القتل أيضا، بينما تتسامح الشريعة بالقيام بأبشع التصرفات اللاأخلاقية، التي يمكن التطهر منها بقربان يقدمه المرء إلى الكاهن الذي يسوي الأمر مع الرب (يَهْوَه) «يأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشا صحيحا من الغنم ذبيحة إثم الكاهن، فيكفر عنه الكاهن أمام الرب فيصفح عنه» لاويين: ٦، وقد حاول الأنبياء المتأخرون أن يزرعوا القيم الأخلاقية في الديانة اليهودية، كما حاولوا أن يبينوا ثانوية الطقوس والشعائر أمام أولوية الأخلاق، ولكن ذلك لم يكن له أن يؤثر كثيرا في دعم الأخلاق العامة في الديانة اليهودية على حساب الطقوسية الشعائرية، والتي من شأنها تنظيم جماعات بدوية، أو شبه بدوية، تعود إلى أثنيات متعددة لها عاداتها، وأنماطها الاجتماعية، ومعتقداتها المختلفة منها جماعات عبرية خرجت هاربة من مصر تدين بالحنيفية أو البعلية الكنعانية، ومنها جماعات مصرية خرجت مطرودة، أو مدحورة من مصر تدين بالأخناتونية، ومنها جماعات سينائية انضمت إلى ائتلاف الخروج تدين باليهوية، ولكن الشريعة، وبسبب تدوينها في مراحل لاحقة، فقد توجهت أيضا إلى مجتمعات حضرية زراعية مستقرة تقوم على الزراعة وعلى تربية المواشي، وعلى تربية الحمام، والذي يشكل أحد الحيوانات التي تقدم كقرابين للرب (يَهْوَه)، الذي لا يمكن أن يتم تربيته في بيئة بدوية متنقلة، الأمر الذي يشير إلى أن هذه الشريعة قد تطورت مع تطور المجتمع العبري.

ويعيد دارسو التوراة كتابة التوراة، وبالتالي الشريعة إلى أربعة مصادر هي المصدر الألوهيمي الذي يعتمد على مرجعية الإله إيل، والمصدر اليهوي الذي يتخذ من (يَهْوَه) إلها، والمصدر التثنوي، والمصدر الكهنوتي، وللتبسيط يمكن إرجاع الأحكام في الشريعة إلى مصدرين أو تيارين:

- التيار، أو المصدر، أو المشرع، الذي يمكن وصفه بالرحماني ويعود في أغلبه إلى المصدر الألوهيمي، الإسرائيلي، وقد أظهر هذا المصدر أن الإله عادل وشامل وكوني ورحيم وشفوق

مملكة يهوذا

أما تاريخ مملكة يهوذا (والتي تضم سبطي يهوذا وبعض عشائر بنيامين) فقد بدأت بعد موت الملك سليمان (٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م) سنة ٩٢٨ ق.م، وانقسام المملكة، حيث تولى الحكم:

رحبعام ابن سليمان (٩٢٨ - ٩١١ ق.م)، واسم أمه نعمة العمونية، والذي بقي على حرب مع إسرائيل أثناء حكم يربعام (٩٢٨ - ٩٠٧ ق.م) وحافظ على العبادة البعلية التي كان أبوه سليمان يدين بها، وبعد خمس سنوات من حكمه قام شيشنق الأول ملك مصر (٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م) بتأديب مملكة يهوذا وأخذ كل الممتلكات الخيالية التي كانت في بيت الرب وبيت الملك في أورشليم، ومات رحبعام بعد ١٧ سنة من توليه الحكم وولي من بعده ابنه:

أبيام (٩١١ - ٩٠٨ ق.م) «ملك أبيام على يهوذا. ملك ثلاث سنين في أورشليم. واسم أمه معكة ابنة أبشالوم» الملوك الأول ١٥: ٢ (وفي سفر أخبار الأيام الثاني يرد أن اسم أمه ميخايا بنت أوريئيل)، وبعد أن عقد أبيام تحالفا مع آرام دمشق شن حربا بجيش قوامه ثماني مئة ألف رجل مختار على يهوذا التي تصدت له بجيش قوامه أربع مئة ألف رجل مختار، وانتصر فيها أبيا ملك يهوذا وقتل خمس مئة ألف رجل من بني إسرائيل، وأخذ منهم مدن وقرى بيت إيل ويشانة وعفرون، ومات بعد ثلاث سنين من حكمه دون أمل في تغيير العلاقات بين المملكتين الشقيقتين، وولي عنه ابنه (أو أخوه حسب ما جاء في سفر أخبار الأيام الأول):

آسا (٩٠٨ - ٨٦٧ ق.م) على يهوذا. ملك إحدى وأربعين سنة في أورشليم، «واسم أمه معكة ابنة أبشالوم» الملوك الأول ١٥: ١٠، وقد قام بإزالة أصنام بعل التي نصبها أبوه في أورشليم فقط، كما أنه قام ببناء تحصينات لمدنه خلال السنوات الأولى من حكمه، ولما أتاه الكوشيون (وهم سكان جنوب وادي النيل) من الجنوب بمليون مقاتل استطاع جيشه أن ينتصر عليهم، وأن يردهم من حيث أتوا، وقد غنم جيش يهوذا منهم الكثير، كما قام جيش يهوذا أيضا أثناء الحرب بسبي مدن الجنوب حول جرار بعد انتصاره على الكوشيين، وفي السنة السادسة والثلاثين لحكم آسا قام بالاستنجاد بدمشق لمناصرته ضد إسرائيل التي كانت تحت حكم بعشا (٩٠٦ - ٨٨٣ ق.م)، والذي كان قد حاصر يهوذا وبنى مدينة الرامة، ولكن بنهدد بن طبريمون بن حزيون ملك آرام دمشق الذي قام بغزو المنطقة الشمالية من

إسرائيل أجبر بعشا على أن يترك الرامة ويعود إلى ترصة، وحكم آسا ٤١ سنة، وولي بعد موته ابنه:

يهوشافاط (٨٦٧ - ٨٤٧ ق.م) الذي كان يأتمر على جيش مؤلف من مليون ومئة وستين ألفا من رجال الحرب، والذي كان على وفاق مع إسرائيل وقد صاهر ملكها آخاب، حيث زوّج ابنه يهورام من ابنة آخاب، وتعاون معه في الحرب ضد الآراميين لاسترجاع راموت جلعاد التي كانت تخضع لحكم الآراميين الدمشقيين، وقد كُسر اتحاد جيشي إسرائيل ويهوذا في المعركة حسب ما تنبأ لهم النبي ميخا بن يملة، ولكن لم يأخذا بكلامه ونبوءته التي تحققت، وقد جرح في المعركة ملك إسرائيل آخاب ومات في ذات المساء حسب ما جاء في سفر أخبار الأيام الثاني، وعاد يهوشافاط إلى أورشليم سالما، ولما اجتمع الموآبيون والعمونيون والآدوميون ليحاربوا يهوذا، أنقذ الرب يهوذا بأن حدثت حرب بين ممالك شرقي الأردن الثلاث المتحالفة، وما كان دور جيش يهوذا سوى الاستيلاء على الغنائم التي تركوها وراءهم، كما أن يهوشافاط تولى بالوكالة عرش أدوم حتى وضعوا على أنفسهم ملكا، وفي عهده بقي أبناء المرتفعات يعبدون البعل، وبعد أن مات ولي من بعده ابنه:

يهورام (٨٤٧ - ٨٤٠ ق.م) والذي قام بقتل أخوته وبعض رؤساء إسرائيل، وقد بقي على وفاق مع إسرائيل، بعد أن تزوّج بعتاليا بنت آخاب ملك إسرائيل، الذي تحالف معه، وقاما بشن حرب على موآب التي كانت قد تمردت على حكم إسرائيل أيام حكم يهورام بن آخاب (٨٥٠ - ٨٤٠ ق.م)، كما تمردت أدوم على يهوذا أيضا بسبب الضعف الشديد ليهوذا، ووضعوا على أنفسهم ملكا منهم، وقد فشل يهورام ملك يهوذا في أن يخضع أدوم ثانية، وقد ورد في أخبار الأيام الثاني ٢١: ٦١ «وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضا ولم يبق له من ابن إلا يهوآحاز أصغر بنيه»، ولكن ومباشرة في نفس سفر أخبار الأيام الثاني ٢٢: ١ «وملّك سكان أورشليم أخزيا ابنه الأصغر عوضا عنه لأن جميع الأولين قتلهم الغزاة الذين جاؤوا مع العرب إلى المحلة» {وهذه الأحداث لم يذكرها محرر سفر الملوك الثاني، بل أتى بها محرر سفر أخبار الأيام}، ومات يهورام بن يهوشافاط بعد ثماني سنين من الحكم بعد أن عانى من مرض في أمعائه حسب ما كان قد تنبأ له النبي إيليا، وولي من بعده ابنه الذي لم يبق له سواه:

أخزيا ابن عثليا ابنة آخاب (٨٤٠ - ٨٤٠ ق.م)، والذي كان أيضا قد تزوّج من أخواله (الإسرائيليين)، وقد تشارك مع (خاله ونسيبه) يهورام بن آخاب ملك إسرائيل في الحرب ضد

حزائيل ملك آرام في راموت جلعاد، وانكسر التحالف في الحرب وجُرح على أثرها ملك إسرائيل يهورام في الرامة فنقلوه إلى يزرعئيل للاستشفاء وذهب معه أخزيا، وهناك قام ياهو بالانقلاب على يهورام بن آخاب وقتله، وقتل أيضا أحزيا و٤٢ من {أبناء} أخوته بعد سنة واحدة فقط من حكمه، ولما سمعت أمه:

عثليا بنت عمري (الإسرائيلية) (٨٤٠ - ٨٣٥ ق.م) بخبر موت ابنها الوحيد قتلت كل من له علاقة بالحكم، ونصّبت نفسها ملكة على يهوذا، ولكن أخت أخزيا غير الشقيقة يهوشبع بنت يهورام، وكانت زوجة للكاهن يهوياداع خبأت يوآش ابن أخزيا وكان عمره سنة واحدة فقط، وقد قام زوجها الكاهن يهوياداع بانقلاب على عثليا، وقتلها بعد حكم دام ست سنوات ونصّب:

يوآش ابن أخزيا ملكا على يهوذا (٨٣٥ - ٧٩٨ ق.م)، وكان عمره سبع سنين، وقد قام الكاهن يهوياداع بثورة ضد العبادة البعلية، وقام بترميم بيت الرب الذي كان ملك مصر شيشنق قد قام بهدمه بعد أن قام بسلب ممتلكاته النفيسة، ويبدو أن الكاهن هو الذي كان يحكم كوصي على الملك يوآش، ولما مات الكاهن يهوياداع دفن في مقبرة الملوك (والذي كان له زوجتان)، قام الملك يوآش باسترجاع العبادة البعلية، كما أنه أمر برجم الكاهن الجديد زكريا ابن يهويداع - والذي يبدو أنه ابن يهوداع من زوجة أخرى غير يهوشبع - الذي اعترض على أفعال الملك يوآش «ولم يذكر يوآش الملك المعروفَ الذي عمله يهويداع أبوه معه بل قتل ابنه» أخبار الأيام الثاني، وهذا النص يشكك بالقصة التي يبدو أن الكاهن يهوياداع لفقها من خلال ادعائه أن الولد يوآش هو ابن أخزيا، وإنما هو ابن يهوياداع نفسه من زوجته يهوشبع بنت الملك يهورام، وبذلك حاول من خلال ادعائه هذا أن يجعل سلالة داود متصلة بعد أن أباد العرب السلالة الملكية أولا، ثم تابعت قتلهم بشكل نهائي عثليا بنت عمري الإسرائيلية، وفي النهاية قام حزائيل ملك آرام دمشق باجتياح المنطقة، ولكنه عفا عن أورشليم مقابل كل نفائسها، وبعدها أصيب يوآش بأمراض كثيرة، وبعد أربعين سنة من الحكم قام زاباد ابن شمعة العمونية، ويهوزاباد ابن شمريت الموآبية بقتله، ومما يدعم المقولة السابقة (أن يوآش هو ابن الكاهن وليس من الأسرة الملكية) أن الشعب لم يدفنوه بمقبرة الملوك، ونصبوا ابنه:

أمصيا (٧٩٨ - ٧٦٩ ق.م) حاكما، والذي قام بقتل القتلة، كما انه حارب عبادة البعل، إلا أنه لم يستطع السيطرة عليها في المرتفعات، وقام بإحصاء عام للرجال فوق عشرين سنة لبني يهوذا وبنيامين فكان تعدادهم ثلاث مئة ألف رجل، وقد قام أمصيا باستئجار مئة

ألف جبار بأس «جيش غزاة مرتزق من قبيلة أفرايم» من أجل حربه مع الأدوميين ولكن الكهنة اليهوذيين رفضوا أن يخرجوا في القتال معهم، فردّهم أمصيبا بعد أن أعطاهم أجورهم، وقد اعتبر جيش بني أفرايم المرتزق هذا إهانة لهم، ولما خرج أمصيبا بجيشه وضرب الأدوميين، وأثناء غياب الجيش قام الرجال المستأجرون من أفرايم وهاجموا يهوذا وقتلوا الكثير من شعبها، وبعد عودة أمصيبا منتصرا في حربه مع الأدوميين طلب من ملك إسرائيل يهوآش (٨٠٠ - ٧٩٣ ق.م) أن يتواجها للحرب، وتقابلا في بيت شمس، فانهزم أمصيبا في عقر داره وأُسر من قبل يهوآش، وقام يهوآش بهدم سور أورشليم وأخذ كل نفائسها وعاد إلى مقره في السامرة بعد أن أطلق سراح أمصيبا، وبعد ٢٩ سنة من الحكم انقلب الشعب على أمصيبا فهرب إلى مدينة لخيش، وهناك قتلوه، وعادوا بجثته ودفنوها في أورشليم، وولّوا من بعده ابنه:

عزريا أو عزيا - الذي امتد حكمه مع حكم ابنه يوثام بين سنتي (٧٦٩ - ٧٣٣ ق.م) - وتولى عزريا الحكم وهو في سن ستة عشر سنة، وفي أيامه كانت هناك حرب بين اليهوذيين من جهة، والفلستيين والعرب الساكنين في جور بعل والمعويّين، وقد قام عزريا الذي حقق الكثير من الازدهار والقوة في مملكة يهوذا، ببناء تحصينات دفاعية في أورشليم، وأنشأ ميناء تجاري على البحر الأحمر، الأمر الذي نشط الحركة التجارية في يهوذا، وكان جيشه مؤلفاً من ثلاث مئة وسبعة آلاف وخمس مئة، أجبر بني عمون من خلاله على دفع الجزية، كما انتصر على الفلسطينيين والقبائل البدوية العربية المجاورة لهم، وقد أصيب عزريا بالبرص (الجذام)، وحين اشتد عليه المرض حكّم الشعب ابنه يوثام إلى أن مات عزريا، وملك من بعده ابنه:

يوثام الذي قام بعدة أعمال بناء، كما أنه أخضع العمونيين للجزية، وفي أيامه غزا البلاد رصين ملك آرام، وفقح ملك إسرائيل (٧٤٠ - ٧٣٢ ق.م)، ومات بعد ١٦ سنة من الحكم، وتولى الحكم من بعده ابنه:

آحاز (٧٣٣ - ٧١٥ ق.م) الذي ترك عبادة (يَهْوَه) وتبع آلهة متعددة، وذبح لآلهة دمشق، وفي زمانه تحالف رصين ملك آرام دمشق، وفقح ملك إسرائيل ضد أورشليم وهي ما يطلق عليها بالحرب الأفرامية الآرامية، وحاصروها ولكنهم لم يستطيعوا دخولها بعد أن قدم الملك آحاز ابنه الصغير قربانا للإله مالكوم إله العمونيين، ولكن الآراميين الدمشقيين استرجعوا أيلة (خليج إيلات أو العقبة) وسكنوا فيها، وقد استنجد آحاز بملك آشور تغلات فلاصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) وقدم له النفائس، الذي أنجده واجتاح دمشق وقتل

رصين، كما قام باجتياح غزة والجليل وجلعاد، وتقديرا لذلك، ومشاركة لاحتفالات النصر «سار الملك آحاز للقاء تغلات فلاصر ملك آشور إلى دمشق. ورأى المذبح الذي في دمشق. وأرسل الملك آحاز إلى أوريا الكاهن شبه المذبح وشكله حسب كل صناعته. فبنى أوريا الكاهن مذبحا حسب كل ما أرسل الملك آحاز من دمشق كذلك عمل أوريا الكاهن ريثما جاء الملك آحاز من دمشق» الملوك الثاني ١٦، (أما في سفر أخبار الأيام الثاني فقد جاء أن الآراميين قاموا باجتياح المنطقة وسبوا الكثير منهم، كما جاء أن فقح ملك إسرائيل (٧٤٠ - ٧٣٢ ق.م) قام باجتياح يهوذا وقتل منهم الكثير، وقد بلغ من قتل منهم في يوم واحد فقط مئة وعشرون ألفا، وسبا من النساء والأطفال مئتي ألف، مع غنائم وافرة ولكن النبي عوديد اعترض على السبي وقام بإلباسهم، وأركبهم على الحمير وأوصلهم إلى أريحا وتركهم هناك، وأيضا اقتحم الأدوميون المنطقة وسبوها، وتبعهم الفلستيون الذين أخذوا كل قرى سفوح جبل يهوذا، ولما استنجد ملك يهوذا آحاز بملك آشور تغلت فلاصر الثالث جاء إليه وبدل أن ينجده قام بمضايقته، وهذا يختلف تماماً عما ورد في سفر الملوك الثاني، كما أنه عبد آلهة دمشق، وفي تلك المرحلة عاش النبي إشعيا الذي دعا اليهود إلى العودة لعبادة (يَهْوَه)، كما حذر آحاز من التحالف مع آشور، ولكنه لم يجد أذنا تصغي إليه، وبعد حكم دام ١٦ سنة مات ودفن في أورشليم، ولكن ليس في قبور الملوك، وولي من بعده ابنه:

حزقيا (٧١٥ - ٦٩٨ ق.م) الذي قام بحركة تصحيحية دينية واسعة جدا تحت تأثير دعوات النبي إشعيا، ومن ثم «أرسل حزقيا إلى جميع إسرائيل ويهوذا وكتب أيضا رسائل إلى أفرايم ومنسى أن يأتوا إلى بيت الرب في أورشليم ليعملوا فصحا للرب إله إسرائيل» أخبار الأيام الثاني ٣٠، وبعد أن استقر له الحكم وأمسك بزمام الأمور ضرب الفلستيين، ولكن التحالفات التي قامت بها الممالك المجاورة مع مصر، جعل الآشوريين ينظرون بغضب إلى ممالك بلاد كنعان، وهذا الأمر جعل الآشوريين يقومون بعدة حملات تأديبية إلى المنطقة، وكان من بين تلك الممالك التي غزوها السامرة التي تم تدميرها نهائيا على يد قائد القوات سرجون الثاني بعد حصار استمر لمدة ثلاث سنوات، وسبى شعبها، واستبدلهم بشعوب أخرى، وقد استطاعت يهوذا أن تدفع عن نفسها الكارثة بدفع جزية كبيرة إلى الآشوريين، ولكن حزقيا عاد وتمرد على ملك آشور سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) بعد أن تحالف مع ملك مصر، على الرغم من أن إشعيا قد حذره من نتائج هذا التحالف، فبعث ملك آشور من يقول له «والآن على من اتكلت حتى عصيت علي. فالآن هوذا قد اتكلت

على عكاز هذه القصبة المرضوضة على مصر التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتها. هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه.» الملوك الثاني ١٨: ٢١، فقام سنحاريب باجتياح المنطقة كاملة، ولكن الكتيبة التي كان قد بعث سنحاريب لاحتلال أورشليم بقيادة ربشاقي لم تستطع دخول أورشليم بسبب التحصينات التي عملها حزقيا، والذي كان قد قام أيضا بفتح قناة تحت الأرض ما بين نبع جيحون الذي كان يقع خارج السور، وما بين مدينة داود، وفي تلك الأثناء وصلت القوات الكوشية بقيادة ترهاقة لمناصرة ممالك فلسطين المتحالفة مع مصر، فتجمعت القوات الآشورية بقيادة سنحاريب وردّت القوات الكوشية القادمة من مصر خائبة، وفي طريق عودته نحو أورشليم بعث برسالة إلى حزقيا يطلب منه الاستسلام فورا، لكن حزقيا رفض ذلك حسب مشورة النبي إشعيا بن آموص الذي رفع صلاته إلى الرب مستجدا به «أرسل الرب ملاكا فأباد كل جبار بأس ورئيس وقائد في محلة ملك آشور» أخبار الأيام الثاني ٣٢: ٢٠ «فخرج ملاك الرب وضرب من جيش أشور مئة وخمسة وثمانين ألفا» إشعيا ٣٧، ويذهب الجميع إلى أن قوات أشور أصيبت حينها بداء الطاعون، وانسحبت قوات سنحاريب فجأة، بعد أن اكتفت باعتذار حزقيا عن تحالفه مع مصر، وبتقديم جزية كبيرة للآشوريين، ويذهب أكثر الباحثين إلى أن هذا الانسحاب أتى بعد وصول رسالة من آشور تخبر بحدوث اضطرابات كبيرة حصلت في المملكة، وعلى رأسها تمرد مدينة بابل، التي عاد إليها سنحاريب وأخضعها ثانية لأشور، في سنة ٦٨١ ق.م قام ابنا سنحاريب (أدر ملك وشر آصر) بحركة انقلابية وقتلا أباهما، ولكن ابنه الثالث أسرحادون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) أحبط محاولة الانقلاب، وتولى الحكم، وقد استطاع أخواه أن ينجوا بروحيهما وأن يهربا إلى جبال أرمينيا، وقد استطاع أسرحدون حسب نبوءة إشعيا أن يوصل المملكة الآشورية إلى قمة مجدها واتساعها بعد أن قام باحتلال مصر وأخضعها لحكمه سنة ٦٧١ق.م.

أما بالنسبة لحزقيا فقد بدأت أزمات مرض مزمن كان قد ألم به تزداد شدة، وأثناء ذلك بعث برودخ بلادان بن بلادان ملك بابل، التي بدأ نجمها بالصعود، برسالة وهدية إلى حزقيا، وربما عقد تحالفا سريا معه ضد الآشوريين أعداء بابل وأورشليم، ولكن الأيام لم تطل بحزقيا حيث مات تحت وطأة المرض، وولي من بعده ابنه:

منسى (٦٩٨ - ٦٤٢ ق.م) وكان عمره اثنتي عشرة سنة، والذي أعاد جميع العبادات الوثنية الكنعانية إلى أورشليم، وقد استرجع طقس تقديم الأولاد الذكور قرابين، وقد قدم ابنه قربانا، وشن حملة ضد عبادة (يَهْوَه)، وسفك دماء شعبه، وقد كان النبي إشعيا أحد

ضحاياه حيث قام بنشره إلى قسمين بمنشار الخشب، وفي هذا السفر يرد ذكر أورشليم كمنطقة مستقلة عن يهوذا في أكثر من مكان «ولكن منسى أضل يهوذا وسكان أورشليم.. قال الرب إله إسرائيل هاأنذا جالب شرا على أورشليم ويهوذا.. وجعلت يهوذا وسكان أورشليم.. أصغوا يا جميع يهوذا وسكان أورشليم.. اسمعوا يا يهوذا وسكان أورشليم.. أضل يهوذا وسكان أورشليم»، ويبدو أن المناطق في جبال يهوذا أخذت استقلالية عن أورشليم حسب أنظمة حكم الآشوريين، كما أن النصوص التي تؤرخ لتلك المرحلة تعطي انطباعا أن سكان أورشليم ليسوا من بني يهوذا؟، وقد اجتاحت قوات بابل المنطقة بعد أن كانت قد قضت على الإمبراطورية الآشورية، وقد أسر البابليون الجدد منسى وقيدوه بسلاسل من نحاس واقتادوه إلى بابل ليقوم مع ملوك البلدان التي قهرها ملك بابل أسرحادون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) بالمشاركة ببناء قصره إرضاء لجنون العظمة الذي أصيب به، وبعد أن تضرع منسى هناك إلى أسرحادون قام بإرجاعه إلى ملكه ثانية، حيث قام بحركة دينية تصحيحية استرجع فيها العبادة اليهوية إلى أورشليم، وبعد حكم طويل دام ٥٥ سنة مات، وولي من بعده ابنه:

آمون (٦٤٢ - ٦٣٩ ق.م) الذي حكم لمدة سنتين، حيث قُتل من قبل عبيده، وولي من بعده ابنه:

يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٩ ق.م) وكان عمره ثماني سنين وقد قام (الكهنة الذين كانوا يديرون الحكم، وبدعم من النبي نعوم (ناحوم)، والنبي صفنيا بحركة تصحيحية اجتماعية دينية واسعة النطاق وصلت إلى المرتفعات التي بقيت حتى هذا التاريخ تدين بالوثنية وقاموا (باسم الملك) بترميم بيت الرب المهدم، وكانت مملكة يهوذا قد استغلت ضعف وانحطاط القوة الآشورية، وأصبحت تشعر بمزيد من الحرية في اتخاذ قراراتها، ويبدو أن مملكة يهوذا قد نشطت فيها الحركة الاقتصادية، بحيث استطاعت أن تقوم ببعض الأعمال العمرانية، ومنها ترميم بيت الرب، حيث وجد البناؤون بين ركام بيت الرب سفر موسى «وأرسل الملك فجمعوا إليه كل شيوخ يهوذا وأورشليم وصعد إلى بيت الرب وجمع رجال يهوذا وكل سكان أورشليم معه والكهنة والأنبياء وكل الشعب من الصغير إلى الكبير وقرأ في آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذي وجد في بيت الرب» الملوك الثاني ٢٣، ويعتقد الجميع أن سفر الشريعة هذا يشكل طبقة أولى في سفر التثنية، وقد تنبأت خلدة النبية «وهي ساكنة في أورشليم في القسم الثاني» بأن اللعنات التي أتت في سفر الشريعة ستحل على المملكة في هذا الزمان، والغريب أن يوشيا كان قد استشار

النبية خلدة، ولم يستشر النبي إرميا الذي عاصر الحركة التصحيحية ليوشيا، وقد ورد أنه قام بتدمير تماثيل الشمس الذي كان يتعبد لها بعض الجماعات، وهم على ما يبدو جزء من جماعات الخروج من أتباع إخناتون والتي بقيت تدين بدين إخناتون حتى بعد اندحاره في مصر، «وفي أيامه صعد فرعون نخو ملك مصر على ملك آشور إلى نهر الفرات. فصعد الملك يوشيا للقائه فقتله في مجدو حين رآه» الملوك الثاني ٢٣ : ٢٩، بعد حكم دام ٣١ سنة، «ولم يكن قبله ملك قد رجع إلى الرب بكل قلبه وكل نفسه وكل قوته حسب كل شريعة موسى وبعده لم يقم مثله» الملوك الثاني ٢٣، وقد رثاه النبي إرميا صاحب المراثي المشهور، والذي ظهر في السنة الثالثة عشرة للملك يوشيا وسانده في إصلاحاته، وولي من بعده ابنه:

يهوآحاز (٦٠٩ - ٦٠٨ ق.م) الذي أسره الفرعون نخو (٦٠٩ - ٥٨٣ ق.م) والذي كان في طريق عودته، بعد أن ذهب بجيشه لنجدة الآشوريين الذين حوصروا في حران من قبل البابليين الجدد، ولكن نخو انكسر أمامهم قرب حاران، وفي طريق عودته إلى مصر احتل أورشليم بعد ثلاثة أشهر من حكم يهو آحاز وأخذه معه نخو أسيرا إلى مصر ومات هناك، ووضع بدلا عنه ابنه:

يهوياقيم (ألياقيم) (٦٠٨ - ٥٩٨ ق.م) الذي دفع الجزية للفرعون نخو حتى اجتاح المنطقة نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م)، ولكن بعد ثلاث سنوات تمرد يهوياقيم على نبوخذ ناصر فقام الكلدانيون والآراميون الموآبيون والعمونيون باجتياح المنطقة (بحسب أمر من نبوخذ ناصر على ما يبدو)، وبعد حكم دام أحد عشر عاما مات، وولي من بعده الحكم ابنه:

يهوياكين (٥٩٨ - ٥٩٧ ق.م) ذو الثمان سنوات لمدة ثلاثة أشهر حيث عاد نبوخذ ناصر فقام بتدمير المنطقة، وسبى الكثير من الشعب بما فيهم يهوياكين (٥٩٨ - ٥٩٧ ق.م)، و «سبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبي وجميع الصناع والأقيان وأم الملك ونساء الملك وخصيانه، وجميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال» و «لم يبق أحد إلا مساكين شعب الرب»، وكان من بين من سبى النبي حزقيال (ذو الكفل) وولي من بعد يهوياكين الحكم عمه:

صدقيا (٥٩٧ - ٥٨٦ ق.م) (وقد ورد في سفر أخبار الأيام الثاني أنه أخوه، وهو ابن يوشيا) الذي على الرغم من تبعيته لبابل، وعلى الرغم من قوة تأثير إرميا الذي كان يتزعم

الحزب الحليف لبابل، والذي كان له مد شعبي واسع أيضا، إلا أن الملك صدقيا في النهاية خضع لتأثير الحزب الموالي لمصر، وفي النهاية وبعد صراعات سياسية خطابية واسعة في يهوذا بين الحزبين الذي أحدهما كان مواليا لمصر، والآخر مواليا لبابل، تنكر صدقيا لمعاهدته مع بابل وتمرد عليها - في الوقت الذي بدأت فيه مصر بقيادة بسماتيك زحفها نحو بلاد الشام (أو حوافرا خلف نخو حسب ما جاء عند أحمد سوسة) - فرجع جيش نبوخذ ناصر إلى أورشليم وحاصرها لمدة سنتين، ثم دخل المدينة بعد أن هرب الملك صدقيا مع قادة جيشه، وقد لحقوا به وألقوا القبض عليه بالقرب من مدينة أريحا، وحملوه إلى ربلة في أرض حماة حيث يعسكر نبوخذ ناصر، وقاموا بقتل أبنائه على مرأى من عينيه ثم سملوهما، وأخذوه إلى بابل مع الشعب بعد حكم دام إحدى عشرة سنة، وبعد ذلك قام الشعب بالتمرد على البابليين فعاد نبوزردان قائد جيش نبوخذ ناصر، وقام بتدمير أورشليم وأحرقها، وأسر الكثير من الأعيان والذين تم قتلهم بين يدي الملك نبوخذ ناصر في حماة، ولم يبق في يهوذا سوى الكرّامين والفلاحين، ووكّل عليهم:

جدليا بن أخيقام «كل اليهود الذين في موآب وبين بني عمون وفي أدوم والذين في كل الأراضي سمعوا أن ملك بابل قد جعل بقية ليهوذا وقد أقام عليهم جدليا بن أخيقام بن شافان فرجع كل اليهود من كل المواضع التي طوحوا إليها وأتوا إلى أرض يهوذا إلى جدليا إلى المصفاة وجمعوا خمرا وتينا كثيرا»، وقد التحق به النبي إرميا بعد أن حرره البابليون من سجنه في أورشليم، وقد قام:

إسماعيل بن نثنيا من النسل الملكي بقتل جدليا «وفي الشهر السابع جاء إسماعيل بن نثنيا بن أليشمع من النسل الملكي وعشرة رجال معه وضربوا جدليا فمات وأيضا اليهود والكلدانيين الذين معه في المصفاة» الملوك الثاني ٢٥، وانسحب ومن معه إلى بيت عمون (عمان)، وخوفا من انتقام الكلدانيين هرب الشعب بقيادة قاريح الموالي لجدليا إلى الدلتا الشرقية في مصر ومعهم النبي إرميا على الرغم من معارضته لذلك. {وقد وجد ختم في لجيش مكتوب عليه جداليا بن احيكام}.

وانتهى بذلك الجميع إلى السبي، أو الهروب إلى مصر إلا النذر اليسير، فأسباط إسرائيل العشر أسكنوا في أماكن متعددة، وضاعوا في التاريخ، أما سبطا يهوذا وبنيامين فهما فقط اللذان سيتابع تاريخهم في السبي.

الجليل
الناصرة
نهر الأردن
السامرة
السامرة
يافا
بيت ايل
أورشليم
حشبون
حبرون
عين جدي
وادي أرنون
ماسادا
بئر سبع

اليهودية

أنبياء
إسرائيل ويهوذا

أن النبوة عند اليهود تختلف في جوهرها مع التصور الإسلامي، فالنبي في المرحلة العبرانية كان يدعى بالرائي، أو الناظر، ثم أصبح يدعى بالنبي في المرحلة اليهودية، والنبي هو الشخص الذي يمكنه، بما لديه من إمكانات استشعارية، وبمعرفته بتجارب التاريخ في الماضي، وبإدراكه العميق للحاضر، أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث في المستقبل، وهو غالبا ما يدّعي أن تنبؤه هذا آت من اتصاله مع السماء بطريقة أو أخرى، فقد تأتيه النبوات من خلال الأحلام، أو من خلال الرؤيا، أو من خلال ملاك إلهي، أو أنها تأتيه مباشرة من الرب، وقد يأتي زمن يتكاثر فيها الأنبياء، وربما يمر زمان يضن بأنبيائه، وأحيانا قد يصبح للأنبياء دور مهم، وأحينا قد يشحبون إلى درجة الاختفاء، ولا يشترط عند اليهود أن يكون النبي من الكهنة اللاويين كما هو الأمر بالنسبة (للتكهن)، ولا يشترط أن يكون يهوديا كما كان الأمر بالنسبة للنبي بلعام.

وفي كثير من المجتمعات، والتصورات الدينية يتداخل مفهوم العرافة، والتنجيم مع النبوة، كما كان الأنبياء ليس في اليهودية فحسب، بل في الكثير من الديانات، والمعتقدات يتقاضون أجورا مقابل نبواتهم، وقد تكاثر ذكر الأنبياء التوراتيين في عصر المملكة المنقسمة لا سيما في سياق الضربات الموجعة التي تلقتها مملكة يهوذا والتي كان أغلب الأنبياء من المنتمين إليها، والتي أصلا استمر وجودها إلى مرحلة متأخرة بعد سقوط مملكة إسرائيل.

أول الأنبياء الذي يرد ذكرهم في مرحلة الانقسام هم عزريا بن عوديد، وحنانيا الرائي وهما قد عاصرا كلاً من الملك الإسرائيلي بعشا (٩٠٦ - ٨٨٣ ق.م)، والملك اليهوذي آسا (٩٠٨ - ٨٦٧ ق.م)، ولم تأت التوراة على ذكر دور مهم لهما، وكان حنانيا قد قرّع الملك آسا لأنه تحالف مع ملك دمشق ولم يتكل على الرب (يَهْوَه)، وهو ما أدى إلى دخوله السجن بأمر من الملك آسا، وجاء من بعده ابنه النبي ياهو الذي قرع أيضا ملك يهوذا يهوشافاط (٨٦٧ - ٨٤٧ ق.م) لتحالفه مع ملك إسرائيل الضال آخاب، كما أنه تنبأ بموت ملك إسرائيل بعشا لأنه ترك طريق الرب (يَهْوَه).

ثم يأتي دور النبي إيليا الجعادي الذي بدأ ظهوره في عهد ملك إسرائيل بعشا، وملك أورشليم يهوشافاط، وقد أتيت على ذكر قصته الشعبية، وأهم الأدوار التي قام بها إيليا هو وقوفه ضد كنعنة ديانة المملكة الشمالية في عهد الملك آخاب بن عمري (٨٧١ - ٨٥١ ق.م) التي كانت وراءها إيزابيل زوجة الملك آخاب الكنعانية ابنة ملك صور، وقد جاء بعده تلميذه النبي أليشع والذي حلّت عليه روح إيليا الذي صعد إلى السماء، وقد زامن يهورام ابن آخاب (٨٥٠ - ٨٤٠ ق.م)، ويعتقد المسيحيون أن إيليا سيعود ثانية إلى الأرض كتهيئة، من أجل قدوم يوم الرب.

يونان (ذو النون):

وهو صاحب القصة المشهورة، وأول نبي يرد له سفر مستقل في التوراة، وقد عاش النبي يونان بين نهاية القرن التاسع وبداية القرن الثامن قبل الميلاد، ويعتقد أنه من أبناء مملكة إسرائيل، وقد عاصر كلاً من يهو آحاز، ويهوآش، ويربعام الثاني (٧٩٣ - ٧٥٣ ق.م)، كما تزامن مع النبي عاموس.

وسفر يونان حسب ما يعتقد الباحثون تعود كتابته إلى مرحلة السبي، وحجتهم في ذلك وجود كلمات آرامية في السفر، وهذه الكلمات تشير إلى أن السفر وهو خامس سفر من أسفار الأنبياء الصغار الاثني عشر تم تدوينه في المرحلة الفارسية، ويعتقد علماء التوراة أن هذا السفر كتب في القرن الرابع ق.م تحديدا، كما يشير أصحاب هذا الرأي إلى أن مفهوم الرب (يَهْوَه) في سفر يونان يتماشى مع مفاهيم مرحلة الأنبياء المتأخرين الذين حاولوا تعميم الرب (يَهْوَه) على الشعوب، بعد أن تخلى الرب (يَهْوَه) في مرحلة السبي عن بعض عنصريته، وانحيازه المطلق إلى شعبه المختار، كما أن سفر يونان أظهر تفوق صفات الرحمة والشفقة والصبر على الغضب والانتقام عند الرب (يَهْوَه) ولجميع الشعوب، حتى أن الرب (يَهْوَه) يمكن له أن يتراجع عن قراراته إذا ما تراجع الشعب عن غيه، وكان الرب قد طلب من يونان أن يذهب إلى نينوى لينذرهم بهلاك المدينة لأنها أصبحت شريرة حسب ما أوصاه الرب، وقد تهرب النبي يونان من تنفيذ تلك المهمة، وركب على متن سفينة في البحر المتوسط، حيث هبت عاصفة على المركب كتحذير للنبي يونان، وقد كشف يونان للملاحين عن سبب هذا الغضب الإلهي، فألقوا به في البحر حيث قام الحوت بابتلاعه (على الرغم من أن البحر المتوسط لا تعيش فيه الحيتان)، لكن الرب بعد أن أبلغ رسالته إلى يونان، أنقذه ثانية، فذهب يونان ليبلغ رسالته في نينوى، ولكن الرب تراجع عن قراره بإهلاك نينوى بعد توبة شعبها، الأمر الذي جعل النبي يونان

يعاتب الرب لأنه أحرجه وكذّب نبوءته أمام شعب نينوى، وقد ذهب فرويد إلى أن قصة النبي يونان في رحلته البحرية من بلاد كنعان إلى نينوى ما هي سوى رحلة في عالم اللاشعور لدى الإنسان.

ويونان حسب اعتقادي يشكل مقولة، تم حبك قصة حولها، ولكن هذا لا ينفي وجود نواة تاريخية للنبي يونان.

النبي أيوب:

لا يوجد أي شيء في التوراة يشير إلى الفترة التي عاش بها النبي أيوب، ويعتقد بعض التوراتيين أن النبي أيوب عاش في زمن الآباء الأوائل واعتقادهم هذا يعود إلى تشابه نمط الحوار الإلهي المباشر مع البشر ما بين أسفار الآباء الأوائل وسفر أيوب، ويعيده البعض إلى زمن الخروج، والبعض يعيده إلى عصر ملك يهوذا يهوياكين، ولذا جئت على ذكره مع أنبياء مرحلة الانقسام على الرغم من أن السفر لا علاقة له بالتاريخ اليهودي.

وقصة أيوب تعود إلى نمط القص الشعبي التربوي، وهي تعالج عدة موضوعات، أهمها موضوع الثواب والعقاب، والعدالة الإلهية التي قد تأتي بعد تجربة إلهية مريرة، كما أنها تعتبر شاهدا على العلاقة ما بين الرحمن والشيطان، وأهم موضوع حاولت قصة أيوب معالجته هو الصبر، بل إن سفر أيوب ليس أكثر من مقولة (الصبر مفتاح الفرج) وقد أدرجت هذه الحكمة من خلال قصة أيوب، والنبي أيوب - وبغض النظر عن تاريخيته وحسب أصحاب الرأي - ليس نبيا يهوديا، وسفره لا يعود إلى التراث اليهودي، بل إلى التراث الثقافي، والتصور الديني العربي الآرامي البحت، ويعتقد البعض أن أيوب نبي آرامي كان يعيش في منطقة عوص أو العيص أي أرض عيسو أو أدوم جنوب البحر الميت، وقد قام اليهود بتهويد سفره كما هو الأمر مع سفر النبي يونان أيضا، وهناك من يعتقد أن أيوب عاش في منطقة ما بالقرب من دمشق، والبعض يعتقد أنه عاش في البادية السورية، والجدير ذكره هو أن أيوب كما جاء في سفره كان يمتلك ثلاثة آلاف جمل، والجمال حسب الشريعة التوراتية من الحيوانات المحرم أكلها، ولكن إذا ما تنبهنا إلى عناصر الطبيعة التي ورد ذكرها في السفر (الثلج - البرد - الصقيع - الجليد وعول الصخور - النسور التي تسكن الصخر - القصب - صفصاف - السواقي - السمك - العقبان - البقر - الأردن - الكنعانيين - مخاض الأيائل - النعامة - الجمل) فإننا يمكن لنا أن نعتقد أن أيوب، فيما لو كان شخصا تاريخيا، أو من كتب سفره، فقد كان يعيش في منطقة الحيّد شبه الزراعي الذي يفصل بين منطقة جبيلة، وبين بادية، ويمر من تلك

المنطقة أو بالقرب منها نهر ينزل من الجبل، وإذا ما أخذنا بالحسبان ذكر نهر الأردن، وذكر الكنعانيين، وعلى افتراض أن هذه المفردات لم يُدخلها محررو التوراة، فيمكن أن أفترض أن أيوب عاش بالقرب من دمشق، إلى الشرق أو الجنوب من الغوطة، أو في منطقة ما من أطراف سهل حوران قبل التقائه مع البادية الأردنية.

وقصة النبي أيوب من أشهر القصص الأدبية والشعبية الوعظية في الشرق الأدنى القديم، كما أن سفره من الأسفار الأدبية المتميزة بتماسكها، وبذائقتها الفنية والجمالية العالية، ويعود ذلك حسب اعتقادي إلى كونه سفرا لا علاقة له بالتأريخ، والعقيدة اليهودية بالخاصة، لذا فلم تعبث به أقلام المحررين التوراتيين كثيرا.

وحكمة أيوب قد عولجت في كل حضارات الشرق القديم، وقد تم اكتشاف عدة وثائق كان محورها المعاناة الأيوبية، وهذه النويات هي التي تطورت مع الزمان وانتهت بتدوينها في سفر أيوب التوراتي بشكل أكثر نضجا من أسلافها من القصص، والمحاورات، والأشعار التي تتساءل عن الحكمة في الوجود، وعن الحكمة في معاناة الإنسان، منها الوثيقة السومرية التي سميت (أيوب الأول) والتي جاء فيها {يا إلهي ... حتى متى تهملني وتتركني دون حمايتك؟}.

وهناك أيضا نشيد بابلي بعنوان (أشكر رب الحكمة) والتي تصب في نفس الموضوع، وتعود هذه القصيدة إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد:

أريد أن أثني على سيد الحكمة. ولكن إلهي تخلى عني..

كنت أختال كإله وألامس الجدران..

وكنت أئن في كل يوم كحمامة، وتسيل دموعي ثخينة لتحرق خدي.

ومع ذلك فإن الصلاة، بالنسبة إلي، كانت حكمة، والتضحية كانت قانونا.

كنت أظن أنني أضع نفسي في خدمة الله.

ولكن الأقدار الإلهية، في أعماق الهوى، ترى من يستطيع فهمها؟

من إذن، غير مردوخ، هو سيد يوم البعث؟

يا أنتم الذين كان قد خلقكم من التراب..

تغنوا بأمجاد مردوخ.

ومن مصر هناك سفر يعود إلى مرحلة المملكة القديمة أو الوسيطة بعنوان (حوار حول الانتحار) يتحدث عن رجل مصري قرر الانتحار، وقد قدم شكواه إلى الرب بطريقة تشبه إلى

درجة ما جوهر المعاناة الأيوبية، أما أهم وأقرب نص إلى السفر التوراتي فهو المسمى (حوار حول البؤس الإنساني)، وهذا الحوار يقوم بين رجل المعاناة وصديقه.

لم يكن الشيطان صاحب حضور في المعتقد اليهودي ما قبل السبي، لأن مفهوم الرحمن والشيطان كثنائية لم يكن متبلورا في اليهودية، ولأن اليهودية في الوقت نفسه، لم تكن متبلورة أيضا كدين توحيدي، وهذا ما جعل الرحمن والشيطان لا يمثلان على أنهما ثنائيتان متناقضتان متصارعتان، ولذا فلم يستطع هذا التصور أن يفرز الشيطان من الرب، بل ظل الشيطان جزءا مرتبطا بالذات الإلهية اليهوية، لا لأن الرب (يَهْوَه) رب وحيد لا يحتمل التثنية، بل لأنه رب بدائي لم يستطع أن يخرج الشيطان منه، ويلفظه من جوفه، ويتركه ليعيش ابنا عاقا أو جزءا عاقا، بحيث يبقى الرب يراقب الشيطان ويتابع سلوكياته، ويكافح أفكاره، ولا يتركه رمشة عين، كي لا يعيث فسادا في نفوس عالم الناسوت، ومن هنا فقد بدا الرب (يَهْوَه) في التصور التوراتي التقليدي كما لو أنه في جانب من جوانبه شيطانا مدمرا، لا سيما عندما يتم وصفه برب الجنود، وكذلك الأمر حين يحرض الرب (يَهْوَه) شعبه المختار على السيطرة على الأرض الموعودة.

أما تصور الرحمن والشيطان في سفر أيوب فقد بدا أكثر وضوحا، وهذا ما جعل من سفر أيوب كما لو أنه رقعة ليست على انسجام كامل مع التصور اليهودي التوراتي العام، وعلى الرغم من أن سفر أيوب جعل من الشيطان كائنا مستقلا عن الذات الإلهية، إلا أنه لم يقم بتحديد شخصية الشيطان (عزازيل) بشكل واضح وجلي، ولم يجعل من الرحمن والشيطان نقيضين، يتصارعان، أو حتى يتنافسان على السيطرة على عالم الناسوت، فحسب ما جاء في السفر فإن الشيطان كان أحد أبناء الرب، وقد ظهر الرب، والشيطان كما لو أنهما ألهان، أو أن الشيطان بالنسبة للرب (يَهْوَه) كان شريكا، أو مستشارا أو تابعا أو حتى صديقا، أو بينهما حالة من التآخي مع هامش بسيط من الاختلاف الذي لا يفسد للود قضية، فهما متفاهمان ومتفهمان لبعضهما ولاختلاف وجهتي نظرهما، فبينما كان الشيطان ميالا للشك، كان الرب (يَهْوَه) أكثر ثقة وطمأنينة من الشيطان، ولكن دون أن يكون على ثقة كاملة بمعرفته لأخلاقيات، وضمير الإنسان، وهذا الاختلاف (الودي) في وجهتي النظر بين الرب والشيطان هو الذي سيصنع مصير الإنسان، ومعاناته، وتمزقه بين شد وجذب كل من طرفي العلاقة، وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم من أن التجربة ستظهر بهتان الادعاء الشيطاني، فإن الرب (يَهْوَه) لم يعلن توبته عن أن يصيخ السمع ثانية إلى ما يقوله، أو يوسوس به الشيطان له، بل أظهر هذا السفر كما لو أن المصير

الإنساني شأن ثانوي في عالم اللاهوت الذي لم يكن على الأخلاقية، والحكمة المطلوبة أو المتوقعة في التعامل مع عالم الناسوت.

«وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب «يَهْوَه». فقال الرب «يَهْوَه» للشيطان من أين جئت. فأجاب الشيطان وقال من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها. فقال الرب «يَهْوَه» للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيوب. لأنه ليس مثله في الأرض. رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر. وإلى الآن هو متمسك بكماله وقد هيجتني عليه بلا سبب. فأجاب الشيطانُ الربَ «يَهْوَه» وقال. جِلْدٌ بجلدٍ وكل ما للإنسان يعطيه لأجل نفسه. ولكن أبسط الآن يدك ومسّ عظمه ولحمه فإنه في وجهك يجدف عليك. فقال الربُ «يَهْوَه» للشيطان ها هو في يدك ولكن احفظ نفسه.» أيوب.

وهكذا، في قصة أيوب، نجد أن الرحمن والشيطان يتفقان من باب التحدي على تجربة النبي أيوب لاكتشاف عمق إيمانه بالرب، بعد أن ادعى الشيطان أن أخلاقيات أيوب الطيبة، وحمده، وشكره المستمر للرب، ليس بسبب عمق إيمانه، بل لأن الرب أغدق على أيوب الكثير من العطايا، وبذلك فقد اتفق الرب (يَهْوَه)، والشيطان على تجربة أيوب وبدأ الشيطان، وبموافقة الرب، يسدد الضربات المتوالية على أيوب، وعلى الرغم من ذلك، فإن أيوب أجاب زوجته التي استغربت عمق إيمانه «الخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل»، وبعد التجربة المريرة تبين للرب وللشيطان مدى عمق إيمانه، بل إن أيوب، من جانبه، اكتشف من خلال هذه التجربة أن الرب يريد من الإنسان خنوعا، وخضوعا تفرضهما حالة التفوق التي يملكها الرب بالمقارنة بالضعف الإنساني، وبذلك على الإنسان التعبد للرب خوفا لا احتراما على وجه التحديد، «لأنه ليس هو إنسانا مثلي فأجاوبه فنأتي جميعا إلى المحاكمة»، وحين أدرك أيوب هذه المحصلة استطاع أن يمر من التجربة بنجاح، وهكذا، فقد ظهر أيوب أكثر حكمة، وأكثر أخلاقية، وثباتا، واتحادا مع ذاته من الرب (يَهْوَه) نفسه، ولذلك فقد انتصر أيوب على الرب وعلى الشيطان في النهاية، على الرغم من أنه دخل صراعا غير متكافئ بين إله يمكن أن يساوره الشك والتشكك، ويمكن أن يعبث الشيطان في مبادئه ويقينه، وبين إنسان ضعيف لا حول ولا قوة بيده، وحسب ما قال يعقوب مخاطبا الرب بصيغة عاتبة على اختبار الرب له «يداك كونتاني وصنعتاني كلي جميعا. أفتبتلعني.. ألم تصبّني كاللبن وخثرتني كالجبن. كسوتني جلدا ولحما فنسجتني بعظام وعصب».

أما القضية الثانية والرئيسية التي حاول أن يعالجها سفر أيوب، فهو مفهوم الثواب والعقاب، والذي حسب التصور التوراتي يعتبر من أعمال الحياة، ويقع داخل العالم الفيزيائي، ولم يأت في

التوراة ما يشير من قريب أو من بعيد على أن اليهود كانوا يعتقدون بالماورائيات، أو العوالم الروحية الميتافيزيقية، ولا وجود للحساب والعقاب خارج التاريخ، أي في عالم اللاهوت، فالثواب ويتمثل في طول العمر على الأرض، والغنى، والصحة، والسعادة، أما العقاب فيتمثل بالموت، والفقر، والمرض، والحزن، ومن هذا التصور فقد جعل اليهود الجحيم يقع في وادي هنوم جنوب غرب أورشليم، أما الجنة الأولية، أو جنة بداية التاريخ (جنة عدن) التي كان يعيش فيها آدم الأول فتقع على الأرض، إلى الغرب من آشور عند منابع الأنهار الأربعة، وليست جنة خارج الزمكان كما هي لدى الشعوب بشكل عام، أما الجنة التي سيعيش فيها اليهود في نهاية التاريخ فتقع في البلاد المقدسة (جنة نهاية التاريخ في بلاد كنعان)، أي أنها جنة زمكانية وعلى الرغم من أن اليهود الذين كانوا قد سبوا إلى بابل، رجعوا إلى الأرض المقدسة، وعادوا إلى حظيرة التاريخ، إلا أن التحديات التي تعرض لها تاريخهم في العهد اليوناني، ومن بعده الروماني، أعادت هواجسهم، ومخاوفهم التاريخية إلى ما كانت عليه في مرحلة ما قبل السبي، وعادوا يلهجون بأفكار الخلاص ثانية، وقد حصل تطور مفاهيمي على معتقد العقاب والثواب، ومفهوم آخر التاريخ، ويوم الرب، ومجيء المسيح اليهودي المنتظر، وهذا كان نتاج التجربة التاريخية المريرة التي مر بها اليهود من جهة، ومن جهة ثانية كانت نتاج احتكاك اليهود بالمعتقدات التي كانت سائدة في بلاد الرافدين، ومن بعدها احتكاكهم بالفلسفات الإغريقية، والتي أفرزت المذاهب الدينية وعلى رأسها (الفريسية، والصدوقية)، وبدأت تتبلور التصورات الآخروية لا سيما في سياق الثورة الميكابية، وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت تلك المفاهيم والتصورات يكتنفها الغموض، ومن الجدير ذكره، ومن المستغرب أيضا أن الديانة اليهودية أخذت الكثير من التصورات الدينية المصرية، إلا أنها لم تأخذ عنها العقائد الأخروية، ولكن يمكن هنا لنا أن نربط ما بين غياب العقيدة الميتافيزيقة للعالم الآخر في اليهودية، وما بين غيابها في المعتقدات السومرية، والتي يذهب الكثير من الباحثين إلى أن هناك وجود صلة قرابة بين العبرانيين والسومريين.

وموضوع التصورات الرؤيوية الأخروية في اليهودية سيكون لنا عودة عليها في بحث آخر، ولكن كخاتمة في هذا المقام، يمكن أن نذكر أن اليهودية، أفرزت تصورا عدميا وجوديا بسبب غياب عقيدة العالم الآخر الميتافيزقية، وهو ما يمكن قراءته بوضوح في سفر الجامعة، وفي أكثر من مكان في سفر أيوب:

«قلت في قلبي الله يدين الصديق والشرير. لأن لكل أمر ولكل عمل وقتا هناك. قلت في قلبي من جهة أمور البشر إن الله يمتحنهم ليريهم أنه كما البهيمة هكذا هم. لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل. يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان

كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما. من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل إلى الأرض. فرأيت أنه لاشيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه. لأنه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده.» جامعة ٣.

أما في سفر أيوب «ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قال قد حبل برجل. ليكن ذلك اليوم ظلاما. لا يعتن به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار. ليملكه الظلام وظل الموت. ليحل عليه سحاب. لترعبه كاسفات النهار. أما ذلك الليل فليمسكه الدجى ولا يفرح بين أيام السنة ولا يدخلن في عدد الشهور. هوذا ذلك الليل ليكن عاقرا لا يسمع فيه هتاف. ليعلنه لاعنو اليوم المستعدون لإيقاظ التنين لتظلم نجوم عشائه. لينتظر النور ولا يكن ولا ير هدب الصبح. لأنه لم يغلق أبواب بطن أمي ولم يستر الشقاوة عن عيني. لِمَ لَمْ أمت من الرحم. عندما خرجت من البطن لم لم أسلم الروح. لماذا أعانتني الركب ولِمَ الثدي حتى أرضع. لأني قد كنت مضطجعا ساكنا. حينئذ كنت نمت مستريحا مع ملوك ومشيري الأرض الذين بنوا أهراما لأنفسهم...» أيوب ٣.

«الهاوية بيتا لي وفي الظلام مهدت فراشي وقلت للقبر أنت أبي وللدود أنت أمي وأختي فأين إذا آمالي. من يعاينها. تهبط إلى مغاليق الهاوية إذ ترتاح معا في التراب» أيوب ١٧.

«لماذا تحيا الأشرار ويشيخون نعم ويتجبرون قوة. نسلهم قائم أمامهم معهم وذريتهم في أعينهم. بيوتهم آمنة من الخوف وليس عليهم عصا الله.. يقضون أيامهم بالخير في لحظة يهبطون إلى الهاوية.. من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه» أيوب ٢٢.

«لأن للشجرة رجاء. إن قطعت تخلف أيضا ولا تعدم خراعيبها. ولو قدم في الأرض أصلها ومات في التراب جذعها. فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعا كالغرس. أما الرجل فيموت ويبلى. الإنسان يسلم الروح فأين هو. قد تنفد المياه من البحرة والنهر ينشف ويجف والإنسان يضجع ولا يقوم.» أيوب.

عاموس:

عاش النبي عاموس - صاحب السفر الثالث من أسفار الأنبياء الصغار الاثني عشر - في قرية تقوع جنوب بيت لحم في مملكة يهوذا ، وكان عاموس راعيا للغنم ككثير من الأنبياء الأوائل، بدأ عمله النبوي في السنوات الأخيرة لحكم ملك إسرائيل يربعام الثاني (٧٩٣ - ٧٥٣ ق.م)، وعاصر ملك أورشليم عزيا ، وكان قد اتخذ من مدينة بيت إيل مقرا لتلاوة نبوءاته على العامة ، لكن كاهن بيت إيل اشتكى عليه ليربعام لأنه كان يتنبأ عليه بأنه سيموت بالسيف فطرده يربعام الثاني - من حيث أتى - إلى يهوذا.

تنبأ عاموس بدمار كل ممالك بلاد كنعان وشرقي الأردن بسبب آثامها الدينية والاجتماعية، وبالأخص دمار مملكة إسرائيل على يد الرب (يَهْوَه) كانتقام من بني إسرائيل الذين لم يحافظوا على عهدهم معه، وأخذوا يتعبدون للرب بعل وسواه «هل قدّمتم لي ذبائح وتقدمات في البرية أربعين سنة يا بيت إسرائيل. بل حملتم خيمة ملكومكم وتمثال أصنامكم نجم إلهكم الذي صنعتم لنفوسكم. فأسبيكم إلى ما وراء دمشق» عاموس ٥، «ويل للمستريحين في صهيون والمطمئنين في جبل السامرة نقباء أول الأمم.» عاموس ٦، وتنبأ بعودة المسبيين من إسرائيل «وأرد سبي شعبي إسرائيل فيبنون مدنا خربة ويسكنون ويغرسون كروما ويشربون خمرها ويصنعون جنات ويأكلون اثمارها. وأغرسهم في أرضهم ولن يقلعوا بعد من أرضهم التي أعطيتهم» عاموس ٩.

وقد حاول عاموس، كما هو الأمر أيضا بالنسبة لإشعيا التأكيد على أهمية القيم الأخلاقية والروحية، وتفضيلها على التمسك بالشعائر، والطقوس المادية، كما كان يؤكد على أن الرب يريد العدل لا الأضاحي التي تقدم على شرفه، ومن هنا فقد دعا عاموس إلى إحلال العدل بين الناس، وأبدى غضبه من الأغنياء الذين يظلمون الفقراء، وانتقد الأغنياء الذين يقدمون الأضاحي للرب بينما هم يظلمون الفقراء، وتحدث عن يوم الرب والذي تبلور في مرحلة لاحقة بواسطة الأنبياء المتأخرين الذين عاصروا مرحلة السبي البابلي، كما أنه بدأ يتحدث عن الرب (يَهْوَه) وعن مسؤوليته الأخلاقية الإنسانية الشاملة لكل الأمم والشعوب، وغير المحصورة فقط في شعبه المختار الذي ميزه بأنه أكثر صرامة معه، وهذا التوجه سيتعزز أكثر في أسفار الأنبياء اللاحقين، ومن هنا فقد اعتبره البعض أول أنبياء اليهود الموحدين.

والجدير ذكره أن النمط النصي لسفر عاموس يتشابه إلى درجة ما مع النمط النصي لسفر التثنية، وهذا ربما يشير إلى أن النص تم تحريره على يد كاتب أو كتّاب (محررين) سفر التثنية، والذي أتينا على أنه تم تحريره بعد سقوط أورشليم على يد البابليين.

النبي هوشع

وهو النبي الوحيد الذى عاش فى مملكة إسرائيل، وقد عاصر يربعام بن يوآش ملك إسرائيل، وعزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا، كما عاصر النبي عاموس اليهوذي، وهو مثل عاموس عمل كنذير لبني إسرائيل بعد تخليهم عن الرب (يَهْوَه)، وتبنيهم الديانة الكنعانية البعلية، وجاء حديثه عن علاقة الرب (يَهْوَه) ببني إسرائيل كما لو أنه الرب بعل بعلاقته مع عشيقته عشتار.

وقد تنبأ بسقوط مملكة إسرائيل على يد المصريين مرة، وعلى يد المصريين والآشوريين مرة أخرى، لأنها خانت الرب (يَهْوَه) (مشبها إياها بالزانية) وانحدرت بأخلاقها، وعبدت آلهة سوى الرب (يَهْوَه)، وتمثلا للعلاقة الزوجية بين الرب (يَهْوَه)، ومملكة إسرائيل تزوّج هوشع بامرأة زانية، على الرغم من أنه لم يكن مسموحا للأنبياء والكهنة من الزواج بامرأة زانية، «امرأة زانية أو مدنسة لا يأخذوا، ولا يأخذوا امرأة مطلقة من زوجها، لأنه مقدس لإلهه» لاويين ٢١، وكان قد اشترى زوجته (الجارية) بنقوده، وأحبها كمحبة الرب لبني إسرائيل (بحيث تمثّل هوشع الرب، وتمثّلت زوجته الزانية بني إسرائيل)، ولم يدخل عليها مباشرة، ممثلا ذلك بمرحلة ستمر يتخلى فيها الرب (يَهْوَه) (الزوج) عن بني إسرائيل (الزوجة الزانية التي حنثت بعهدها مع زوجها الرب (يَهْوَه) وتعبدت لآلهة الكنعانيين)، ومن ثم دخل عليها وتزوج بها، وهذا يمثل اعتراف الرب ثانية بزوجته إسرائيل بعد أن يهجرها لمدة من الزمن تعلن خلالها توبتها، وسيكون ذلك في يوم الرب الذي دعاه يوم يزرعيل، وبذلك يعتبر هوشع من الأنبياء الأوائل الذين تحدثوا عن يوم الرب «ويجمع بنو يهوذا وبنو إسرائيل معا ويجعلون لأنفسهم رأسا واحدا ويصعدون من الأرض لأن يوم يزرعيل عظيم» هوشع، «يسرعون كعصفور من مصر وكحمامة من أرض أشور فأسكنهم في بيوتهم يقول الرب» هوشع ١١.

وسفر هوشع هو أول أسفار الأنبياء الصغار الاثني عشر، وقد تم تدوينه، وتحريره في زمن السبي، ويمكن تلمّح شخصيتين أو طبقتين لهوشع، هوشع الأول وهو الذي تعود إليه النبوءات بدمار مملكة إسرائيل والتي كان قد عاصر هوشع سقوطها على يد الآشوريين، والنبي هوشع الثاني الذي عاش في زمن السبي، وهو الذي أدخل نبوءاته عن سقوط مملكة يهوذا، وعودة بني إسرائيل، وبني يهوذا في يوم الرب.

يوئيل:

وجاءت نبوءاته - حسب الباحثين التوراتيين - على هامش السبي الآشوري لمملكة إسرائيل، ومن سفره ذي الإصحاحات الثلاثة فقط لا يمكن استقراء المرحلة التاريخية التي عاش فيها، وإن كان بعض التوراتيين يعتقدون أنه عاش في القرن التاسع قبل الميلاد في عهد الملك يوآش، والبعض يعتقدون أنه عاش في نهاية القرن السابع قبل الميلاد في عهد الملك يوشيا.

وسفر يوئيل تم تحريره بعد العودة من السبي كما يذهب إليه الكثيرون، وتحديدا بعد أن قام نحميا ببناء سور أورشليم، وقد تحدثت إصحاحاته الثلاثة عن يوم الرب «اضربوا بالبوق

في صهيون صوّتوا في جبل قدسي. ليرتعد جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب. يوم ظلام يوم غيم وضباب مثل الفجر ممتدا على الجبال» يوئيل ٢ ، «عندما أرد سبي يهوذا وأورشليم أجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط وأحاكمهم هناك» يوئيل ٣. وهو نفس يوم يزراعيل الذي ورد في سفر هوشع.

إشعيا بن آموص:

يعتبر النبي إشعيا ، والنبي إرميا من أشهر الأنبياء اليهود على الإطلاق، والنبي إشعيا (نبي إسرائيل العالمي) ينتمي إلى الأسرة الملكية اليهوذية فهو ابن عم الملك عزيا ، عاش في يهوذا بين أواخر القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد وكان من مراتدي وواعظي ومستشاري القصر الملكي بل والشعب بأسره، وقد عاصر من ملوك يهوذا كل من عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ، كما عاصر الاضطرابات الكبرى في مملكة إسرائيل التي انتهت بالسبي الآشوري، وعاصر حصار أورشليم على يد سنحاريب، وأتت نبوءاته التي امتدت قرابة أربعين سنة من خلال سفره المميز بخياله الواسع، وتعابيره القوية المتماسكه، والذي تم تقسيمه إلى ثلاث طبقات: إشعيا الأول وهو النبي إشعيا التاريخي، أما إشعيا الثاني والثالث، والذين سأشير لهما ، في بعض الأحيان، اختصارا بإشعيا الثاني، فهم من محرري التوراة في مرحلة السبي، وما بعد العودة من السبي، وإشعيا الثاني يحتوي في بطنه عدداً غير محدد من الكتاب، حسب رأي الكثير من الباحثين، وهم الذين عاشوا على مسافة طويلة من الزمن ابتداء بالسبي، وانتهاء بعصر سمعان الحشموني، أي ما بين سنة ٥٥٠ ق.م، وسنة ٦٤ ق.م، ولذلك فقد أدى ذلك إلى التباس ومغالطات تاريخية في النبوءات بين إشعيا الأول، وإشعيا الثاني، فإشعيا الأول كان يتنبأ عن المستقبل، أما إشعيا الثاني، فقد تحدث عن الماضي الذي حدث كما لو أنهم تنبؤوا به (إشعيا الثاني، والثالث، ..) باسم إشعيا الأول، ففي الإصحاح الثالث عشر يتحدث إشعيا الثاني أو إشعيا السبي عن نبوءته، أو أمانيه بسقوط بابل، وعودة المسبيين في يوم الرب إلى أورشليم «ولولوا لأن يوم الرب قريب قادم كخراب من القادر على كل شيء» إشعيا ١٣، أما في الإصحاح ٤٥ فتحدث إشعيا على اعتبار أن كورش هو المسيح «هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق.. أنا قد أنهضته بالنصر وكل طرقه أسّل. هو يبني مدينتي ويطلق سبي لا بثمن ولا بهدية قال رب الجنود»، أما الإصحاح ٤٤ فقد تحدث إشعيا الثالث عن الأيام الأولى لعودة المسبيين إلى أورشليم، وبناء الهيكل «أما أعلمتك منذ القديم وأخبرتك. فأنتم شهودي. هل

يوجد غيري. ولا صخرة. لا أعلم بها.. اذكر هذه يا يعقوب. يا إسرائيل فإنك أنت عبدي.. قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك. ارجع إليّ لأني فديتك. ترنمي أيتها السموات لأن الرب قد فعل. اهتفي يا أسافل الأرض أشيدي أيتها الجبال ترنما الوعر وكل شجرة فيه لأن الرب قد فدى يعقوب وفي إسرائيل تمجد»

لقد قام النبي إشعيا بدور تاريخي بارز على المستوى الروحي والسياسي للشعب والسلطة في مملكة يهوذا وتحزب لمصلحة مملكة يهوذا في صراعها التاريخي ولا سيما مع مملكة إسرائيل، وممالك بلاد الرافدين، وقد كان ذا رؤية نافذة في معرفة الحراكية التاريخية، وهذا يعود إضافة إلى مكوناته الشخصية اللامعة، إلى التربة العائلية السياسية التي نشأ فيها فهو سليل العائلة المالكة التي لها خبرتها وتجربتها التاريخية، ومن خلال إلمامه بالأحداث التاريخية للماضي، والحاضر، فقد وضع نبوءاته التاريخية الكبرى لمنطقة الشرق الأدنى القديم، كما أنه كان أول من جاء على ذكر عمانوئيل (المخلص) والذي ستلده العذراء، وقد اعتبرت الكنيسة ذلك نبوءة مبكرة عن مجيء السيد المسيح، كما تنبأ بسقوط مملكتي دمشق وإسرائيل، وكان يرى أن أشور ستقوم بتأديب مملكة يهوذا حسب إرادة الرب (يَهْوَه) كعقوبة لها على تخليها عنه، كما أنه جعل من الشعوب والأمم كومبارس في يد الرب (يَهْوَه) لتنفيذ إرادته في صناعة التاريخ المقدس لشعبه المختار، وأن الرب أوجد الآشوريين (قضيب غضب الرب) والبابليين فقط من أجل أن يعاقب من خلالهم شعبه المختار لأنه انحرف عن الطرق الذي رسمه الرب لشعبه المختار، كما صور إشعيا الرب (يَهْوَه) كملك له الحق في تأديب الشعوب والأمم والأفراد على أخطائهم وتمردهم عليه، وقد تنبأ بدمار موآب، وكوش، ومصر، وأدوم، وبلاد العرب، وبابل التي لم تكن قد نهضت بعد، وتلك النبوءة من المؤكد أنها تعود إلى إشعيا الثاني، والأهم نبوءته عن دمار يهوذا، وسبي شعبها الذين سيعودون بعد سبعين سنة على يد المسيح، ويعتقد العلماء أن إشعيا (الثاني أو الثالث) هو أول من أدخل عقيدة المسيح المخلص، بل يمكن اعتبار النبي إشعيا صلة الوصل بين اليهودية والمسيحية، أو هو الذي باض بيضة المسيحية تحت اليهودية.

ومن مواقف النبي إشعيا التي تظهر عمق رؤيته التاريخية، هو ما فعله عندما تمرد ملك مملكة إسرائيل هوشع على أشور، وتحالف مع مصر، وكان موقف النبي إشعيا هو أن تتجنب يهوذا الدخول في أي تحالف سياسي مع مصر، فقد قام النبي إشعيا بالمشي حافيا وعاريا تماماً أمام الملأ لمدة ثلاث سنوات قائلا أن أشور سوف تغزو مصر وتعريها تماماً كما

هو يمشي عاريا، ولأن يهوذا دون سواها من الممالك السورية لم تتحالف مع مصر فلم تقم مملكة أشور التي هزمت كل الأحلاف السورية التي تمردت على آشور بشن الحرب عليها وتدميرها، ولكن في التمرد السوري الثاني، كانت يهوذا قد قامت بالتحالف مع مصر ضد رغبة إشعيا، وقد اجتاحت قوات سنحاريب المنطقة وسبت من اليهودية فقط ٢٠٠١٥٠ إنسان، إلا أن أورشليم استطاعت دون سواها أن تقف وراء أسوارها الحصينة دون أن تسقط، لا سيما وأنها كانت تحصل على الماء من خلال القناة المحفورة التي تمر من تحت الأرض من نبع جيحون إلى مدينة أورشليم، وقد وقف النبي إشعيا مع الشعب المحاصر ورفع من معنوياته من خلال صلواته إلى الرب (يَهْوَه)، وقد تنبأ بأن القوات الآشورية لن تستطيع دخول أورشليم، ويبدو أن سنحاريب لأسباب متعددة، منها كان قدوم قوات من مصر التي كانت تحت حكم الأسرة الكوشية (ترهاقة) لنصرة حليفتها أورشليم، ومنها أيضا وجود بلابل داخلية في العاصمة الآشورية، وقد اشترك انتشار مرض الطاعون بين الجنود إلى جانب تلك الأسباب، بقبول سنحاريب فك الحصار عن أورشليم، مقابل أن يعتذر حزقيا لسنحاريب عن تحالفه مع مصر، وأن يقدم له جزية كبيرة، وأن يعترف بسيادة آشور على أورشليم، وقد تنبأ إشعيا بسقوط أشور «وقد حلف رب الجنود قائلا إنه كما قصدت يصير وكما نويت يثبت أن أحطم أشور في أرضي وأدوسه على جبالي فيزول عنهم نيره ويزول عن كتفهم حمله» إشعيا ١٤.

أما النبوءات الأخرى فكانت قد أدخلت على أيدي المحررين في مرحلة لاحقة، «إلى فعل الرب لا ينظرون وعمل يديه لا يرون. لذلك سُبي شعبي لعدم المعرفة» إشعيا ٥، «مدن قدسك صارت برية. صهيون صارت برية أورشليم موحشة. بيت قدسنا وجمالنا حيث سبّحك آباؤنا قد صار حريق نار وكل مشتهياتنا صارت خرابا» إشعيا ٦٤.

وقد أسهب إشعيا الثاني في حديثه عن يوم الرب، وعن المسيح وسيط يوم الرب، فإذا ما كان الرب قد قرر أن يعاقب يهوذا على تمردها على ميثاقها معه، فإنه تعهد أيضا بأنه سيقوم برد شعبه المسبي، بل وإنه سيقيم أمواته أيضا من قبورهم، ويعود بهم، ويطيل أعمارهم، بعد أن يقيم عهدا جديدا معه وسيستمر إلى الأبد، وسيجعل من صهيون سرة وقبلة للعالم حيث ستأتي إليها الشعوب كي تقدم طاعتها.

وكل هذا سيكون على يد المسيح القادم ملك السلام الكامل، والذي أسهب في تفصيل صفاته، وقد اعتبر إشعيا الثاني أن الشعب الإسرائيلي هو مسيح الشعوب والأمم جميعا، وعليه تحمّل آلام الرسالة التي حمّلها له الرب دون سائر الشعوب، وبذلك فقد ساهم

بتعميم الرب (يَهْوَه) على العالمين، وهذا ما انطوى على إمكانية التبشير بالدين اليهودي، وفتح باب التهود للأمم، «وأبناء الغريب الذين يقترنون بالرب ليخدموه وليحبوا اسم الرب ليكونوا له عبيدا كل الذين يحفظون السبت لئلا ينجسوه ويتمسكون بعهدي آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرحهم في بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب.» إشعيا ٥٦.

«ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من أشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر. ويرفع راية للأمم ويجمع منفيي إسرائيل ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض» إشعيا٩.

«ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه الأمم. وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب. فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب في ما بعد» إشعيا ٢/ ٢، ٣، ٤ - ميخا ٤، قد أدخل محررو التوراة هذه النبوءة، وبنفس النص تماماً (حرفيا) واحدة على لسان إشعيا وآخر على لسان ميخا.

«ويكون في يوم يريحك الرب من تعبك ومن انزعاجك ومن العبودية القاسية التي استعبدت بها أنك تنطق بهذا الهجو على ملك بابل وتقول. كيف باد الظالم بادت المغطرسة» إشعيا ١٤.

«سقطت سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسّرها إلى الأرض» ٢١.

«القائل عن كورش راعيَّ فكل مسرتي يتمّم ويقول عن أورشليم ستبنى وللهيكل ستؤسس» إشعيا ٤٤.

«انزلي واجلسي على التراب أيتها العذراء ابنة بابل اجلسي على الأرض بلا كرسي يا ابنة الكلدانيين لأنك لا تعودين تدعين ناعمة ومترفهة.. اجلسي صامتة وادخلي في الظلام يا ابنة الكلدانيين لأنك لا تعودين تدعين سيدة الممالك

غضبتُ على شعبي على شعبي دنست ميراثي ودفعتهم إلى يدك. لم تصنعي لهم رحمة. على الشيخ ثقّلت نيرك» إشعيا.

«هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق.. أنا قد أنهضته بالنصر وكل طرقه أسّل. هو يبني مدينتي ويطلق سبي لا بثمن ولا بهدية قال رب الجنود» ٤٥.

وقد أعتبر التوراتيون أن كورش هو مسيح وسيط مؤقت، أما المسيح اليهودي فهو المسيح المطلق (عبد الرب) الذي سيقوم بالخلاص الأبدي لشعب إسرائيل، وهذه النبوءات تؤكد بما لا يترك مكانا للشك أنها كتبت في مرحلة ما بعد السبي بيد ما اصطلح عليه بإشعيا الثاني والذي عاش مجازيا ما بين السبي وما قبل الميلاد بقليل، أما بالنسبة لإشعيا الأول فلم يعرف متى وكيف مات، غير أنه جاء في المشنا أن الملك منسى (٦٩٨ - ٦٤٢ ق.م) وهو الذي كنعن ديانة يهوذا، واضطهد رموز عبادة (يَهْوَه)، وكان من بين ضحاياه النبي إشعيا والذي قام بالتخلص منه - حسب ما جاء في المشنا - بنشره إلى قسمين بمنشار الخشب، ويظن جورجي كنعان أن إشعيا كان من بين الذين تم سبيهم، وقد عمل كجاسوس لكورش (ابن أستير حسب رأي جورجي كنعان) في بابل، قبيل زحفه على بابل {ولذلك كان إشعيا يرى في كورش مخلصا، اختاره الرب كي يخلص اليهود، واعتز به اعظم اعتزاز، ورأى فيه المسيح المنتظر.. وقد عمل إشعيا على إقناع المسبيين، بخطة التعاون مع كورش، وخيانة بابل، كخطوة أولى باتجاه العودة} حسب ما ذهب إليه جورجي كنعان.

وإضافة إلى الدور التاريخي للنبي إشعيا، فقد قدم اسهامات متعددة إلى العقيدة اليهودية، أهمها محاولته زرع القيم الأخلاقية في الديانة اليهودية، إلى جانب النبي عاموس، فكلاهما نادا، ومثّلا، وحرّضا بقوة على اتباع القيم الأخلاقية في التعامل مع الآخرين، كما ركزا على الإيمان الداخلي الروحي على حساب الطقوس والشعائر الدينية الشكلانية المادية، وكذلك الأمر بالنسبة للنبي حزقيال أيضا.

ولكن إشعيا قدّم إسهاما فذا، وعقيديا إلى اليهودية، فإضافة إلى تشكيله النواة الأولى للمسيحية، فهو الذي عمق مفهوم الإله الشمولي الأوحد، وهو يذكرنا تماماً بصفات الرب الذي قاد عملية التكوين والخلق، في بداية سفر التكوين «أنا الأول وأنا الآخر، ولا إله غيري - أنا الرب صانع كل شيء، ناشر السموات، وحدي باسط الأرض - أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي - أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها - التفتوا إلي واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس آخر - السماء كرسيّ والأرض موطئ قدمي» إشعيا، ولكن وعلى الرغم من هذه الصفات التوحيدية الشمولية للرب، فقد كان هناك الكثير من الفقرات التي تقلص الرب ثانية، وتعيده إلى عنصريته، ويبدو أن التناقض في

صفات الرب يعود إلى وجود أكثر من محرر أو أكثر من إشعيا، ولكن إشعيا الذي بشر بالملكوت العالمي، ساهم في تحرر اليهودية من قبليتها الضيقة، ووسع حدوها بما يكفل استيعابها من قبل كل الأمم، وبذلك حاول أن يجعل منها ديانة عالمية، إلى أن هذا الدور أضعفه إشعيا آخر جعل من اليهود كهنة العالم «أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة» إشعيا ٤٢، كما جعل من أورشليم، بل من كل (أرضه المقدسة) عاصمة العالم «قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك. لأنه هاهي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم. أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى. فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك» إشعيا ٦٠، وكل الشعوب الذين يقترنون بالرب «آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرحهم في بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلوات يدعى لكل الشعوب» إشعيا ٥٦، ولكن الأمم التي ستعصى على الشعب المقدس فإنها ستلقى عقابها «لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد وخرابا تخرب الأمم» إشعيا ٦٠، وهناك إشعيا آخر حاول أن يساوي تماماً بين الأمم، مع تحفظه على دور ومكانة الشعب المختار، ومن هنا فإن إشعيا حاول أن يؤسس لمشروع قومي يهودي عالمي، ولنا أن نذهب إلى ارتباط هذا التصور ببروز، أو بمجيء الاسكندر المقدوني الذي كان يحمل مثل هذا التصور، ولكن تصور الاسكندر المقدوني ذو بعد فلسفي، أما البعد عند إشعيا فديني، وإذا ما تبنيا هذا الافتراض، فيمكن أن نستنتج أن إشعيا الثالث الذي قدّم هذا التصور قد جاء بعد وصول الاسكندر المقدوني إلى منطقة الشرق الأدنى القديم.

ميخا بن يملة:

صاحب السفر السادس من أسفار الأنبياء الصغار، وجاءت نبوءاته في أيام يوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا، وكان معاصرا للنبي أشعيا، ولأنه كان ابن الريف موطن الفقر والاستغلال من قبل أبناء المدينة، فقد عالج موضوعات اجتماعية وأخلاقية، وانتقد الظلم الاجتماعي، ولا سيما ظلم الأغنياء للفقراء، وهو مثل إشعيا قام بخلع نعليه، وملابسه ومشى حافيا عاريا كما ولدته أمه، وهو يولول، وينوح في شوارع أورشليم التي كان يعتبرها منبع الآثام والخطايا، والشر، ولذا فقد تنبأ لها بالدمار «اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوّجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون بالدماء

وأورشليم بالظلم، رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلمون بالأجرة وأنبياؤها يعرفون بالفضة وهم يتوكلون على الرب قائلين أليس الرب في وسطنا. لا يأتي علينا شر. لذلك بسببكم تفلح صهيون كحقل وتصير أورشليم خربا وجبل الرب شوامخ وعر» ميخا ٣، ويبدو أن هذه النبوءة تم تحريرها فيما بعد السبي، وعلى وجه التخمين ما بين سقوط بابل، وعودة المسبيين إلى أورشليم في العصر الفارسي، كما تم تحرير نبوءة على لسان ميخا بمجيء المسيح من بيت لحم (المدينة التي ولد فيها داود) وهو الذي سيعيد مجد إسرائيل بعد أن يتهدم، «أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل. لذلك يسلّمهم إلى حينما تكون قد ولدت والدة ثم ترجع بقية أخوته إلى بني إسرائيل. ويقف ويرعى بقدرة الرب بعظمة اسم الرب إلهه ويثبتون. لأنه الآن يتعظم إلى أقاصي الأرض. ويكون هذا سلاما» ميخا ٥، وقد اعتبرت الكنيسة هذه الآيات نبوءة بمجيء المسيح، كما تحدث ميخا كإشعيا عن آخر الأيام.

ناحوم الألقوشي:

النبي ناحوم هو صاحب السفر السابع من أسفار الأنبياء الصغار، وهناك بعض الخلافات في تحديد المرحلة التاريخية والمكان الذي عاش فيه النبي ناحوم، فالبعض يعتقد أن النبي ناحوم من أبناء مملكة إسرائيل وعاصر سقوطها على يدي الأشوريين، ومن هناك انتقل إلى مملكة يهوذا، والبعض يعتقد أنه عاصر سقوط نينوى الذي يشكل سفره نبوءة عن دمارها على يد الرب، محرك التاريخ، المنتقم من أعدائه «إله غيور ومنتقم. الرب منتقم وذو سخط. الرب منتقم من مبغضيه» ناحوم ١ ولذا كان لا بد من دمار نينوى، وهلاك الآشوريين الذين وقفوا ضد الرب باعتدائهم على مملكة شعبه المختار، والتي وصف سقوطها كما لو كان شاهدا على ذلك.

ويذهب البعض ومنهم د أحمد سوسة أن ناحوم نبي من أنبياء إسرائيل الذين سبوا إلى شمال العراق، وهناك عاش ومات، ويذهب إلى أن قبره موجود في قرية القوش التابعة لمدينة الموصل، وهو يتماشى مع نبوءته حول المخلص التي تشير أنها كتبت في مرحلة السبي البابلي «هوذا على الجبال قدما مبشر مناد بالسلام عيّدي يا يهوذا أعيادك أوفِ نذورك فإنه لا يعود يعبر فيك أيضا المهلك» ناحوم ١.

صفنيا:

صفنيا، إرميا، وناحوم (حسب رأي البعض)، ثلاثة أنبياء تعاصروا، وعاصروا ملك يهوذا الشهير يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٩ ق.م) وقدموا له الدعم القوي في حركته التصحيحية الاجتماعية الدينية واسعة النطاق التي قام بها في أورشليم وأثرت في كل مدن يهوذا، كما أن تأثيرها النابذ وصل جزئيا إلى منطقة السامرة، كما عاصر الأنبياء الثلاثة تحولات تاريخية كبرى في الشرق الأدنى، فقد كانت آشور في طور التبدد والتلاشي، وبدأت مصر تستعيد دورها الذي لم تصله بسبب المد البابلي الذي تصاعد على يد الكلدانيين بتحالفهم مع الميديين الإيرانيين، ويعتقد أن هؤلاء الأنبياء الثلاثة ولا سيما صفنيا، وناحوم هم من قاموا بجمع وكتابة أو تدوين سفر الشريعة الذي وجد بين خرائب الهيكل أثناء ترميمه في عهد الملك يوشيا.

أما بالنسبة للنبي صفنيا سليل الملك حزقيا فقد عاش في أورشليم، وتنبأ في أيام يوشيا الملك، وعاصر كلاً من ناحوم وإرميا، وسفره يأتي في الترتيب التاسع من أسفار الأنبياء الصغار، تنبأ بدمار ممالك كنعان، وشرقي الأردن، ونينوى، ومملكة يهوذا في يوم الرب لأن الشعب أخطأ إلى الرب (يَهْوَه)، كما تنبأ بعودة شعب الله المختار من السبي دون سواهم من الشعوب التي ستهلك، ليمتلك اليهود ممالكهم جميعا «ترنمي يا ابنة صهيون اهتف يا إسرائيل افرحي وابتهجي بكل قلبك يا ابنة أورشليم. قد نزع الرب الأقضية عليك أزال عدوّك. مَلِكُ إسرائيل الرب في وسطك» صفنيا ٣، وعلى ما يمكن استقراؤه فإن سفره حرر في أزمان لاحقة، وهذا ليس حال النبي صفنيا، بل جميع الأنبياء، وعلى ما يبدو فقد كانت أقوال، ونبوءات الأنبياء تنتقل شفاها، إلى أن تم تدوينها، وبالتالي تحريرها في زمن لاحق، وبذلك أدخل المحررون على تلك الأسفار أفكارهم، ورؤاهم ومعارفهم التاريخية الجديدة.

إرميا بن حلقيا البنياميني:

ولد النبي الشهير إرميا أحد أنبياء إسرائيل العظام في منتصف القرن السابع قبل الميلاد بين ٦٥٠ - ٦٤٠ ق.م، في قرية عناثوث، وهو من نسل الكاهن أبيثار، كان من عائلة مرموقة ذات جاه ومال وثقافة رفيعة، عاصر يوشيا ومن بعده يهو آحاز ويهوياقيم ويهوياكين (كنياهو) وصدقيا (وقد عاصرته النبية خلدة)، كما أنه كان فاعلا، وشاهدا ومرآة للوضع الاجتماعي والسياسي للمرحلة التي سبقت السبي البابلي، ومرحلة السبي البابلي، وبقي قرابة ثلاثين سنة يتلو نبوءاته ولا سيما منها السياسية التي جرّت له الكثير من الأعداء الذين تآمروا عليه.

تحدث النبي إرميا عن نفسه على أنه نبي ورسول لكل الشعوب، وليس خاص ببني إسرائيل، بل إن الرب ومن قبل أن يولد إرميا كان قد كرسه الرب لتلك الرسالة، التي نجح إلى درجة كبيرة في إيصال العقيدة الدينة إلى مصاف التوحيد الحقيقي، وكان قد تشارك معه كل من صفنيا وميخا في الحركة الدينية التصحيحة التي قام بها يوشيا الذي حارب كل الديانات الوثنية، وفي تدوين سفر الشريعة، كما أنه شجب الظلم والفساد الاجتماعي، وطور ووسع حدود الرب (يَهْوَه) نحو العالمية، وقد تدخل في سياسة يهوذا الأمر الذي جعل له الكثير من الأعداء، لا سيما وأنه دخل في صراع مع الأنبياء الصغار الشعبيين، وعلى الرغم من أنه سليل الكهنة فإنه وقف ضد الطقوس الكهنوتية المفرغة من معناها، وقد ترأس الحزب الذي كان يدعوا للتحالف مع بابل ضد الحزب الذي كان يدعو للتحالف مع مصر ضد بابل.

لقد عاش إرميا ردحا طويلا من الزمن كان عارما بالأحداث التاريخية الكبرى التي ربط مصيره الشخصي بها، ففي عهد يوشيا، وكانت سنوات إرميا الذهبية، وقف إلى جانب إصلاحاته الدينية، كما أنه ساهم في نشر مبادئ سفر الشريعة الذي وجد في خرائب الهيكل، وبعد موت الملك يوشيا بدأت أحوال إرميا تسوء، فقد هددت حياته في عهد الملك يهوآحاز ولكن قصر عهده حال دون ذلك، أما في عهد الملك يهوياقيم الذي أشاع عبادة الأوثان، وبدأت تظهر تناقضات سياسية عميقة في يهوذا، ولا سيما في سياستها الخارجية حيث بدأت الانقسامات تظهر في ولاء يهوذا بين مصر وبابل، فقد ترأس إرميا الحزب الذي كان يرى بحس تاريخي أن على يهوذا أن تعلن ولاءها لبابل، ومن أجل ذلك وضع إرميا على عنقه نيرا حقيقيا وسار في شوارع أورشليم لمدة سنتين كإعلان عن خضوعه لبابل، والذي كان يرى فيها سوط الرب (يَهْوَه) على اليهود، كما بعث أنيارا إلى ملوك أدوم وموآب وبني عمون وصور وصيدا ورسالة من الرب تقول «قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدي.. ويكون أن الأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذ ناصر ملك بابل والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوبأ يقول الرب حتى أفنيها بيده.. والأمة التي تدخل عنقها تحت نير ملك بابل وتخدمه أجعلها تستقر في أرضها يقول الرب وتملها وتسكن بها» إرميا ٢٧، كما بعث نفس الرسالة إلى صدقيا أيضا، والذي في السنة الرابعة من حكمه قام النبي حننيا بن عزوز الجبعوني بكسر النير عن عنق إرميا، وقال «هكذا قال الرب. هكذا أكسر نير نبوخذ ناصر ملك بابل في سنتين من الزمان»، فقال له إرميا «هذه السنة تموت لأنك

وقام بعدها يشوع بن نون بتقسيم الأراضي (التي أبادوا شعبها تماماً) بالقرعة للتسعة أسباط والنصف الباقين من بني إسرائيل، ولكن حين بدأ المحرر بالحديث التفصيلي عن توزيع الأراضي على الأسباط، وإذ به يصرح أن الشعوب التي أكد على أن القبائل العبرية أبادتهم تماماً ما زالوا في مدنهم «وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم»، أما سبط أفرايم «فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر»، «ولم يقدر بنو منسي أن يملكوا هذه المدن فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض»، «قال بنو يوسف لا يكفينا الجبل. ولجميع الكنعانيين الساكنين في أرض الوادي مركبات حديد».

ويعود المحرر فيفاجئنا أكثر حين يعلن أن سبعة أسباط لم يدخلوا نهائيا إلى أرض خاصة بهم، وأن بلاد كنعان كاملة لم يتغير شيء من ديموغرافيتها، سوى أن القبائل العبرية استطاعت أن تنصب خيامها على بعض جبال وتلال جرداء مشاع في المنطقة الجنوبية والتي وزّعت كمراعٍ لسبطي أفرايم ويهوذا ونصف سبط منسي، وربما أن الكنعانيين لم يسمعوا بعد بوجود القبائل العبرية، وعلى أثر ذلك قام يشوع بإرسال ثلاثة أشخاص ليقوموا بجولة استكشافية في بلاد كنعان ليقسّمها يشوع نظريا بين الأسباط السبعة الباقية، وهذا ما تم، وقد كان نصيب سبط شمعون ضمن نصيب سبط يهوذا في الجنوب، أما اللاويون فقد وُزعوا ككهنة على كل الأسباط، وقد توزع بنو هارون منهم على أسباط يهوذا وشمعون وبنيامين في الجنوب.

وفي تلك المرحلة قامت القبائل العبرية التي كانت قد استوطنت في شرقي الأردن (الرآوبينيون والجاديون ونصف سبط منسي) ببناء مذبح على نهر الأردن فثارت ثائرة الكهنة في غربي الأردن، وقد اتهمهم ألعازر الكاهن بالخيانة لأن هذا الفعل ما هو إلا تمرد وإعلان استقلال ديني عن القيادة الدينية في غربي الأردن والتي اتخذت من مدينة شيلوة أول مقر ديني لإسرائيل حيث أقيم المعبد ووضع فيه تابوت العهد، وقد علل عبرانيو شرقي الأردن ذلك بحجة واهية بأن هذا المذبح ليس إلا «شاهدا بيننا وبينكم وبين أجيالنا بعدنا لكي نخدم خدمة الرب أمامه بمحرقاتنا وذبائحنا وذبائح سلامتنا ولا يقول بنوكم غدا لبنينا ليس لكم قسم في الرب.. - فهو - لا للمحرقة ولا للذبيحة بل هو شاهد بيننا وبينكم» يشوع ٢٢.

ومرت الأيام وتوزعت خيام القبائل العبرية على المراعي في بلاد كنعان وتقدمت الأيام بيشوع بن نون الذي كان يقيم في منطقة شكيم (نابلس) فجمع أعيان القبائل العبرية بعد أن بدأت شعوبهم بعبادة الإله الكنعاني بعل في المتطقة التي نصبوا خيامهم فيها، أو بنوا من اللبِّن غرفة أو غرفتين على محيط القرية الكنعانية، وخطب يشوع فيهم قائلا: «إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء

بابل، وكان الشعب والحزب الموالي لمصر، وأعداء إرميا الشخصيين قد طالبوا صدقيا بقتل إرميا، ولكن صدقيا قال لهم أنا لا أحكم عليه خذوه، فأخذوه وقاموا برميه في بئر وحلٍ ليموت جوعا، لكن الملك أخرجه من البئر وأعاده إلى السجن، ومرة أخرى استدعاه صدقيا ليقول له نبوءاته سرا، فطلب إرميا منه الأمان على روحه، فأعطاه الملك، فقال له إرميا استسلم لملك بابل ذلك خير من أن يقوم باقتحامها بالقوة، ويقتل الجميع بالسيف ويدمرها، فأعاده الملك الذي لم يعد يقدر أن يتحكم بزمام الأمور التي كانت بيد الحزب الموالي لمصر إلى السجن.

وفي تلك الأثناء استطاع جيش نبوخذ ناصر أن ينتصر في حملته واجتاح أورشليم وحرر إرميا، وكان إرميا أثناء الحرب قد وجه خطابا لصدقيا يحثه على الاستسلام، ولكن وبعد أن دمرت أورشليم، وأخذ حريته واحترامه من قبل الملك نبوخذ ناصر في اختيار مكان إقامته، ودعاه إلى الذهاب إلى بابل مكرما في ضيافة البابليين، وقد اعتذر إرميا عن هذا العرض البابلي، واختار البقاء مع جدليا الذي وضعه البابليون واليا لمن تبقى في يهوذا، والذي اتخذ من المصفاة مقرا له، وإلى هناك جاء إسماعيل ابن نثنيا ومعه أتباعه وقتلوا جدليا ومن معه من اليهود ومن الكلدانيين، وفي النهاية تم إجبار إرميا - على ما يبدو - على مرافقة الذين قاموا بالهروب إلى مصر خوفا من انتقام الكلدانيين لهم حيث أقاموا في مجدل وفي تحفنحيس وفي نوف وفي فتروس، ومن هناك كان يبعث إرميا برسائله إلى بابل يشد على أيدي المسبيين ويزرع فيهم الرجاء في العودة، وهناك مات.

ويعتقد البعض أن اليهود قد رجموه حتى الموت في تحفنحيس، والبعض يعتقدون أن نبوخذ ناصر استحضره مع تلميذه باروخ من مصر إلى بابل وفيها مات.

ومن تلك النبذة التاريخية، ومن خلال قراءة متمعنة لسفر إرميا يمكن لنا أن نستقرئ عدة عناصر في شخصية إرميا الفنية، على رأسها الشخصية التشاؤمية السوداوية، الحاقدة، والتي لا تخلو من فصامية اضطهادية، مع القليل من المازوخية برزت من خلال معاناته النفسية التي حالت دون زواجه، لقد أحب وتبنى أمته وشعبه إلى درجة أنه لم يكل للحظة من جلده بسوط خطابه التقريعي الهجائي التأديبي، وهذا ما كان يستشعره بالألم والتمزق بين قلبه المحب، وعقله التربوي التأديبي الوظيفي من جهة، ويثير الحقد لديه على الشعب الذي تبناه من جهة أخرى، وهي إحدى صفاته الشخصية أيضا، فهو لم يتنبأ فقط بهلاكهم، بل وإنه تمناها لهم، «فيا رب الجنود مختبر الصديق ناظر الكلى والقلب دعني أرى نقمتك منهم لأني لك كشفت دعواي» إرميا ٢٠، وقد أسهب في الحديث عن الغضب الإلهي، وعن انتقامه الأعمى

«ها غضبي وغيظي ينسكبان على هذا الموضع على الناس وعلى البهائم وعلى شجر الحقل وعلى ثمر الأرض فيتقدان ولا ينطفئان» إرميا ٧، وكان قد اشترى إبريقا من الفخار وكسره أمام الشعب «هكذا أكسر هذا الشعب وهذه المدينة كما يكسر وعاء الفخار بحيث لا يمكن جبره بعد» إرميا ١٩.

وبسبب هذا الخطاب الهجائي التقريعي كان إرميا أينما حل يصنع أعداءه بشخصيته المتشائمة السوداوية، ولم يسلم حتى الأنبياء الذي زامنوه من لسانه السليط، «هكذا قال الرب الجنود لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبؤون لكم. فإنهم يجعلونكم باطلا. يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب.. لم أرسل الأنبياء بل هم جروا. لم أتكلم معهم بل هم تنبؤوا» إرميا ٢٣، وهو لم يكتف بتلاوة خطابه التقريعي الصارم في الهيكل، وحتى في بيت الملك، بل كان يقف على أبواب أورشليم ويتلوا خطاباته المطولة التقريعية، ونبوءاته السوداء للداخل والخارج منها، وبسبب ذلك كان الكثير من أبناء شعبه يكرهونه، ويهددونه بالقتل حتى من أبناء بلدته عناثوث، وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم من أنه سجن على يد فشحور كاهن وناظر بيت الرب، إلا أن إرميا لم يغير من مواقفه، وبقي ثابتا عليها دون أن ترهبه الأخطار المحتملة، إلى درجة أنه - عندما كان يطلب منه البعض أن يصلي للرب علّه يفك كربة الشعب - كان يتلوا عليهم وعيد الرب «هكذا قال رب الجنود. من أجل أنكم لم تسمعوا لكلامي هأنذا أرسل فآخذ كل عشائر الشمال يقول الرب وإلى نبوخذ ناصر عبدي ملك بابل وآتي بهم على هذه الأرض وعلى كل سكانها وعلى كل هذه الشعوب حواليها فأحرمهم وأجعلهم دهشا وصفيرا وخربا أبدية» إرميا ٢٥، وكان إرميا قد جعل من إسرائيل زوجة زانية للرب، الذي قرر عقابها، ولذا تم سبيها، وعلى الرغم من ذلك لم تتعظ زوجته الثانية يهوذا (أخت إسرائيل) بل زنت هي الأخرى «إذ زنت العاصية إسرائيل فطلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها لم تخف الخائنة يهوذا أختها بل مضت وزنت هي أيضا» إرميا ٣، «ارفعي عينيك إلى الهضاب وانظري أين لم تضاجعي.» إرميا ٣.

ولكنه وعلى الرغم من سوداويته التشائمية فلم يكن مقترا أيضا بنبوءات الخلاص التي ستأتي بعد العقوبات التي قُررت وانتهى أمرها، فالرب سيغفر لزوجته الخائنة كل آثامها، وسيعيدها عذراء مرة أخرى، ويعترف بها كزوجة أبدية، وهي التي ستلد المخلص الذي سيعيد شعب الله المختار بعد عقوبة ستستمر لمدة سبعين عاما «ها أيام تأتي يقول الرب ولا يقال حي هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض مصر، بل حي هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض الشمال ومن جميع الأراضي التي طردهم إليها. فأرجعهم إلى أرضهم التي

أعطيت آباءهم إياها» إرميا ١٦ ، «ها أيام تأتي يقول الرب وأقيم لـ داود غصن برٍّ فيملك ملك وينجح ويجري حقا وعدلا في الأرض. في أيامه يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمنا وهذا هو اسمع الذي يدعونه به الرب برُّنا» إرميا ٢٣.

أما شخصيته السوداوية ذات المزاج الانقباضي فقد أظهرت إرميا أشبه بغراب ينبئ بالخراب، دون أمل في تغير ما قد قدر حتى مع التوبة، ولقد برزت سوداويته في أجلى مظهر لها في تمنيه لو كان قد مات قبل مولده «ملعون اليوم الذي وُلدت فيه. اليوم الذي ولدتني فيه أمي لا يكن مباركا. ملعون الإنسان الذي بشر أبي قائلا قد وُلِد لك ابن مفرّحا إياه فرحا. وليكن ذلك الإنسان كالمدن التي قلبها الرب ولم يندم فيسمع صياحا في الصباح وجلبة في وقت الظهيرة ن لأنه لم يقتلني من الرحم فكانت لي أمي قبري ورحمها حبلى إلى الأبد» إرميا ٢٠ ، وهذا النص منتحل من جملة جاءت على لسان أحد المومياءات المصرية تقول فيها {الويل.. الويل لي لأني وُجدت في هذه الدنيا ، لِم لَم تكن رحم أمي لي قبرا..}.

أما بالنسبة لزمن تحرير سفر إرميا فقد حرر أيضا كسواه من أسفار التوراة من قبل محرر يهوذي (إرميا الثاني) قام بإدخال تعديلات على سفر إرميا بحيث جعل المسيح من نسل داود اليهوذي، بينما كان إرميا الأول (الحقيقي) قد تنبأ أن المسيح سيكون من سبط أفرايم الإسرائيلي «وفي ذلك الزمان أنبت لداود غصن البر فيجري عدلا وبرا في الأرض. في تلك الأيام يخلص يهوذا وتسكن أورشليم آمنة وهذا ما تتسمى به الرب برنا» إرميا ٣٣.

وإرميا الثاني هو الذي تنبأ بالدمار لباقي ممالك الشرق القديم التي تأتي بعد الإصحاح السادس والأربعين، وهو الذي عاش في السبي في بابل، وأطلق نبوءاته أثناء حصار بابل ومن ثم سقوطها بيد الفرس، وهو الذي طلب من اليهود الخروج من بابل أثناء الحصار، ولكن السقوط السريع لبابل حال دون ذلك، وإرميا الثاني هو من أشاع الصفات العالمية للرب (يَهْوَه)، وربما كان محرر إرميا الثاني هو نفسه محرر إشعيا الثاني.

ويعتقد بعض التوراتيين أن باروخ مدون نبوءات إرميا قد تدخل في صياغة سفر إرميا أثناء تدوينه للسفر، ومن الجدير الإشارة إلى وجود أختلاف في سفر إرميا بين التوراة التقليدية، والترجمة السبعينية في المعنى والمبنى والذي يشمل الحجم والترتيب، وبينما يعتقد التوراتيون أن هذا الاختلاف مرده إلى المترجمين الذين حاولوا اختصاره، فإن الاحتمال الأرجح هو تعرض السفر - والأسفار التوراتية ككل - إلى أعمال تحريرية استمرت حتى سقوط الهيكل الثاني.

كما جاء في التوراة سفر صغير يعود إلى إرميا الثاني يضم خمس إصحاحات باسم مراثي إرميا تتحدث عن سقوط أورشليم على يد البابليين.

حبقوق:

لا يوجد في التوراة أي معلومات عن حبقوق (نبي الإيمان) صاحب أحد أسفار الأنبياء الصغار في التوراة، كما أن سفره أيضا لا يعطي أي معلومات تاريخية عنه، ويعتقد بعض الباحثين التوراتيين أنه عاش في المرحلة التي تلت سقوط مملكة إسرائيل على يد الآشوريين، والبعض يعتقدون أن عاش بعد قرن من هذا الزمان أي في نهاية القرن السابع قبل الميلاد، والبعض يعتقد أنه كان من معاصري النبي إرميا، وجاء في كتاب (حياة الأنبياء) أن النبي حبقوق عاش في مرحلة السبي البابلي.

وقد اقتصر سفره المقتبس من نصوص توراتية أخرى على خطابه وتساؤلاته وشكواه للرب عن حقيقة العدالة الإلهية الشاملة، كما كان الأمر مع سفر أيوب، كما جاء فيه نبوءات عن قيام الكلدانيين من أجل أن ينتقم الرب من خلالهم من الشعوب الضالة.

قراءة في النص التوراتي
لمرحلة المملكة المنقسمة

بينما كانت الأسطورة، والقصص التراثية، والحكايات الشعبية، تشكل المادة الأساسية في البناء النصي للتأريخ التوراتي في مرحلة ما قبل انقسام المملكة المتحدة، نجد أن تاريخ مرحلة انقسام المملكة المتحدة قد تم تحريرها بطريقة أقرب إلى التاريخ منها إلى الأسطورة والتي احتفظت بمواقعها من خلال قصص بعض الأنبياء مثل إيليا، وأليشع، وإشعيا بن آموص، فقد جاء في قصة النبي أليشع الذي كانت حلت عليه روح إيليا «ثم صعد من هناك - من أريحا - إلى بيت إيل. وفيما هو صاعد في الطريق إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له اصعد يا أقرع. فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب. فخرجت دبتان من الوعر وافترستا منهم اثنين وأربعين ولدا».

أما المادة النصية بشكل عام لأخبار المملكتين فكانت تقريبا مادة تاريخية تزامنية، باستثناء عدد وأرقام رجال وقتلى الحرب، المبالغ فيها والتي هي في الواقع ليست أكثر من الجذر التربيعي للرقم الذي جاءت به الأسفار التي أرخت لمرحلة المملكتين، فقد جاء أن ملك يهوذا يهوشافاط (٨٦٧ - ٨٤٧ ق.م) كان يأتمر على جيش مؤلف من ١١٦٠٠٠٠من رجال الحرب، وهذا يعني أن عدد سكان يهوذا (وهي المنطقة المحيطة بأورشليم) سبعة ملايين على أقل تقدير، كما أن هذه الأسفار - وكل أسفار التوراة بشكل عام - أسرفت وبتلذذ في الحديث عن أعمال القتل والتدمير، ولم تأت بمثل هذه الصفة أي من الأساطير، ولا الوثائق التاريخية على ذكر هذه الأعمال كما أتت به التوراة.

كما أن تلك الأسفار أتى فيها الكثير من أخطاء التزامن بين تاريخي مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل (السامرة)، وهذه الأخطاء أدت أيضا إلى خلل أو انزياح في التطابق بين الزمان التاريخي للتوراة والزمان التاريخي لبلاد الرافدين ووادي النيل، حيث أتى الزمان التوراتي ممطوطا أكثر من اللازم، وعلى الرغم من محاولاتي المضنية في اكتشاف التزامن بين تواريخ ملوك مملكة يهوذا وملوك مملكة إسرائيل (السامرة)، وملوك بلاد الرافدين فلم أخرج بمحاولة المقاربة بين التواريخ سوى بصداع شديد، وبعدة نظريات تتناقض مع بعضها،

وإن كانت بعض المقاربات قد اقتربت من التشخيص المنطقي، أو على الأقل تجاوزت أي حالة تناقضية في التزامن التاريخي، وقد استغرقت مني هذه المقاربة وقتا طويلا كان متزامنا مع صداع شديد، ولا أريد أن أعدي القراء بالصداع الذي أصبت به فيما لو قدمت شرحا للطريقة التي قاربت فيها ثبت الأزمان للمملكتين التوراتيين، وتزامنهما مع ثبت التاريخ العام لبلاد الرافدين والشام ومصر، فلو أخذنا بأن سليمان (بعد إجراء تقاطعات التأريخ التوراتي مع الأحداث المسجلة في نصوص بلاد الرافدين ووادي النيل، سنصل إلى أن نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) قد عاش في مرحلة لاحقة لما هو معروف تاريخيا، وإن حاول المرء رص الزمان العبري فسيحصل على عدة انزياحات.

وعلى الرغم من أن الأسفار التي تتحدث عن تاريخ مرحلة الانقسام تميل إلى أن تكون نصوصا ذات بنية تاريخية، ولكنها تبقى بحاجة إلى عدة مقاربات وتشاخيص لقراءتها بشكل تاريخي بسبب عدم احترام المحرر التوراتي إلى قواعد الكتابة التاريخية من جهة، ووجود أكثر من رواية تاريخية لنفس الحدث، ولا سيما بالنسبة للزمان التاريخي، وأيضا بالنسبة للمكان، وتاريخية وواقعية الأحداث، ويعود ذلك إلى بُعد المحرر التاريخي زمانيا عن الزمن الذي يؤرخ له، وعدم معرفته الجيدة بجغرافيا الأحداث بشكل جيد، وميله إلى كتابة الأحداث بطريقة ذاتية لا موضوعية تخدم أهدافه ومراماته، لا سيما تلك التي تجعل من التاريخ العبري اليهودي، وشعب الله المختار مركز التاريخ، بل وحاول أن يظهر أن تاريخ الأمم والشعوب الذي قام الرب (يَهْوَه) بكتابة سيناريو الأحداث، ما هو سوى كومبارس ليس له أي وظيفة سوى كونه خلفية في سيناريو تاريخ شعب الله المختار.

وعلى الباحث في التأريخ التوراتي كي يصل إلى مقاربات تاريخية، أن يضع عدة احتمالات وافتراضات غايتها تدجين الذاتية في الموضوعية، وتطويع الأسطورة والقصص الشعبية في حظيرة التاريخ، من خلال اكتشافه للنوى التاريخية فيها، لا سيما وأن التاريخ لم يترك لنا المزيد من الوثائق والمدونات والنصوص التي تضيء ما أتى به محررو التوراة، ومن هنا وبعد أن قمت بكتابة مقدمة طويلة لطرح مجموعة من المقاربات اعتمدت فيها على نقاط استناد متعددة أخذتها من التوراة دون أن أستشهد أو أدخل نصوص حضارات المنطقة، أو نتائج البحث الأركولوجي للمنطقة، والذي أخرته لجعله النقاط التي سأضعها على حروف الاستقراء وكلمات ما بين السطور والهوامش في التوراة، وهنا يمكن أن نذكر على سبيل المثال أن المحرر التوراتي اليهوذي حاول أن يسيئ ما استطاع إلى تاريخ مملكة السامرة، وحاول أن يصغر من شأنها، ولذا لم يأت

على ذكر اشتراك مملكة السامرة في معركة قرقرة التاريخية الشهيرة لأن ذلك من شأنه الإعلاء من تاريخها.

كما يمكن أن نستشهد بمثال آخر لقصة تعود إلى الملك ياهو بن يهوشافاط بن نمشي (٨٤٠ - ٨١٤ ق.م) الذي عندما قام بالانقلاب على يهورام (٨٥٠ - ٨٤٠ ق.م) ملك إسرائيل الجريح أثناء زيارة أخزيا ملك يهوذا له (٨٤٠ - ٨٤٠ ق.م)، وقام ياهو بقتل آخاب وأبنائه السبعين وأخزيا وأخوته الاثني والأربعين، وقام بحركة تصحيحية ضد عبادة الإله الكنعاني بعل وهدم معابده وقتل كل كهنته وأنبيائه، وقد قامت أم أخزيا عثليا بنت عمري (الإسرائيلية) (٨٤٠ - ٨٣٥ ق.م) بقتل باقي الأسرة الحاكمة ونصبت نفسها ملكة على يهوذا، ولكن أخت أخزيا استطاعت أن تخبئ ابن أخزيا يوآش والذي نُصّب ملكا بعد أن استطاع الكاهن يهوياداع من الانقلاب على عثليا ليعود الحكم إلى السلالة الداودية الحاكمة.

وهذه الرواية هي إعادة تحرير أو تزاوج أو انتحال أو تناص من قصة وردت في سفر القضاة تتحدث عن النبي جدعون ابن يوآش الأبيعزري الذي أصبح اسمه أو لقب بـ يربعل بعد أن قام بحركة تصحيحية ضد عبادة البعل وقام بهدم معبده، وبقي قاضيا ونبيا لمدة أربعين عاما حتى مات، واستلم بعده ابنه من سريته أبيمالك الذي قام بقتل أخوته السبعين على حجر واحد ولم يبق منهم سوى يوثام الصغير، وقصة موت أبيمالك تتقاطع مع قصة موت شاؤل كما أسلفنا.

ومن التناقضات التي ساهمت في صعوبة الوصول إلى مقاربة وتشخيص مرحلة الانقسام التي أتت في أربعة أسفار رئيسية هي سفري الملوك الأول والثاني، وسفري أخبار الأيام الأول والثاني:

جاء في أخبار الأيام الثاني: ١٦ = في السنة السادسة والثلاثين للملك آسا صعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وبنى الرامة.

أما في سفر الملوك الأول: ١٦ فقد جاء = وفي السنة السادسة والعشرين لآسا ملك يهوذا ملك أيلة بن بعشا على إسرائيل.

وهذا يعني تداخلاً في الحكم بين الأب، والابن، وهو ما أدى إلى تشويش الزمان، والتزامن بين التأريخ التوراتي للمملكتين.

كما جاء في سفر الملوك الثاني: ٨، وفي سفر أخبار الأيام الثاني: ٢١ = «وكان يهورام ابن اثنين وثلاثين سنة حين ملك، وملك ثماني سنين في أورشليم». وهذا يعني أنه مات عن عمر ٤٠ سنة، وبعد موته استلم الحكم ابنه أخزيا.

وقد جاء في أخبار الأيام الثاني: ٢٢ = «كان أخزيا (ابن يهورام) ابن اثنين وأربعين سنة حين ملك، وملك سنة واحدة في أورشليم.» وهذا يعني أن الابن أكبر من أبيه بسنتين.

أما في أخبار الملوك الثاني: ٨ «كان أخزيا ابن اثنتين وعشرين سنة حين ملك وملك سنة واحدة في أورشليم»

وفي سفر أخبار الأيام الثاني: فيقول عن ميلاد حيرام وهو الخبير في الصياغة والمعمار أيضا والذي كان قد بعث به ملك صور حورام إلى ملك إسرائيل سليمان من أجل بناء الهيكل والقصور الملكية في أورشليم «حورام أبي ابن امرأة من بنات دان وأبوه رجل صوري»

أما في سفر الملوك الأول: ٧ فقد جاء أنه «ابن امرأة أرملة من سبط نفتالي وأبوه رجل صوري»

وفي سفر الملوك الثاني: ١٥: ٣٠ - ٣٣ «وفتن هوشع بن أيلة على فقح بن رمليا وضربه فقتله وملك عوضا عنه في السنة العشرين ليوثام بن عزيا.. في السنة الثانية لفقح بن رمليا ملك إسرائيل ملَك يوثام بن عزيا ملك يهوذا.. وملك ست عشرة سنة في أورشليم»، وهذا تناقض في نفس السفر بل وفي نفس الإصحاح حيث يقول إن هوشع أصبح ملكا عندما كان يوثام ملكا منذ عشرين سنة، ثم يقول المحرر إن يوثام لم يملك سوى ست عشرة سنة فقط.

وهذه التناقضات هي التي جعلت الوصول صعباً إلى ثبت لملوك مملكتي إسرائيل، ويهوذا كما أسلفت، والذي يرد في نهاية هذا الفصل.

الانقسام وأسبابه:

بعد أن كان محرر التوراة قد جعل من المملكة المتحدة أكبر إمبراطورية في العالم القديم، وجعل ملكها سليمان (ومن قبله داود) ملك ملوك زمانه، أتت أسفار المملكة المنقسمة لتظهر وتكشف أن النسيج الذي تم بناء المملكة منه كان نسيجا عنكبوتيا واهيا، وكشفت أن المملكة المتحدة، إن كان لها وجود، لم تكن أكثر من مشيخة قبلية تكتلت بسبب تعرضها لأخطار خارجية ومحلية ولا سيما من قبل الفلستيين، وما أن تفكك هذا الصراع، وبموت الشيوخ الموحدين، وبعدم وجود انسجام حقيقي بين منطقة إسرائيل (السامرة)، وبني يهوذا، تفكك اتحاد القبائل العبرية، وعادت القبائل إلى ما كانت عليه، ويمكن أن نضيف إلى ما سبق عدة أسباب أخرى أهمها:

- أولا.. إن تعبير إسرائيل تمثل أو تشير أو تدل على منطقة جغرافية أكثر مما تدل أو تشير إلى شعب ذي أصول عرقية، وهذا لا ينفي وجود أغلبية إثنية عرقية عبرية أفرايمية اتخذت من اسم

إسرائيل انتماء لها، بحيث إن اللقب أصبح ذا معنيين جغرافي وأثني في الوقت نفسه، بينما تعبير يهوذا فهو - على ما يبدو - يعود إلى حالة أثنية أعطت تعريفها للجغرافيا (الجبال المحيطة بمدينة أورشليم)، أي أن تعبير يهوذا يمثل قبيلة لها أصولها وانتماءاتها ووحدتها بغض النظر عن الجغرافيا، والتي وفي الوقت نفسه وبسبب انضمام أو انضواء بعض الجماعات من قبيلة بنيامين الصغيرة ومجموعات صغيرة من شعوب متعددة تحت جناحها، تحولت إلى تعبير له دلالة جغرافية.

- ثانيا.. إن الإسرائيليين كمجموعة أثنية كانوا يدينون بدين المنطقة التي ينتمون إليها، وهي الديانة الإيلية الحنيفية أو البعلية الكنعانية، وهي تعتبر الدين القومي لهم، بينما كان اليهوذيون يدينون باليهوية أو اليهودية التي تعتبر دينهم القومي، على الرغم من أنهم كانوا شعبيا أكثر ميلا لاعتناق الديانات والمعتقدات الكنعانية.

- ثالثا.. إن العقلية الإسرائيلية شبه البدوية والتي تميل للنمط الزراعي - المدني أكثر من ميلها للنمط البدوي القبلي العشائري، وهي عقلية تمتلك بعض المقومات الحضارية التي جعلت منهم شعبا أكثر انفتاحا على الآخرين، وأكثر تفاعلا معهم، وهي القبائل التي كان لها تواجد أكثر قدما في بلاد كنعان من قبائل الجنوب، والتي كانت بسبب عزلتها الجغرافية ذات عقلية قبلية مغلقة على أفكارها ودينها ودمها، وهي عقلية شوفينية عنصرية نرجسية أنانية تقوم على احتقار والحط من شأن الآخرين، وهذا ما عزز الفارق في التجربة الحضارية بين إسرائيل ويهوذا، والذي كان من شأنه أن يساهم دون امتزاجهما أو اتحادهما، على الرغم من أن يهوذا التي كانت دائما تؤكد في خطابها مع إسرائيل على وجود الأصل العبري المشترك لكليهما، وبالتالي فإن ما يجمع بين منطقة إسرائيل ومنطقة يهوذا لا يتعدى كونهما يضمان جماعات عبرية على أرض متجاورة، فلا تاريخ واحد يجمعهما، ولا دين واحد أو عقيدة ينظمهما، ولا مجتمع حضاري واحد يضمهما، ولا رؤية حضارية أو طموحات أو أحلام واحدة تجمعهما، ولا نمط اقتصادي واحد يعتاشان من خلاله، فبينما كانت منطقة الشمال تعتمد في عيشها على أعمال الزراعة المتنوعة، وأيضا على بعض الأعمال التجارية نظرا لمرور أكثر من طريق تجاري دولي ضمنها، كانت منطقة الجنوب تعتمد في عيشها على رعي الماشية في بيئة فقيرة، ولذا كان الجنوبيون يعانون شظف العيش فيما لو تمت مقارنتهم مع سكان منطقة الشمال، أي جبال إسرائيل.

ولمجموعة هذه الأسباب لم يدم اتحاد القبائل العبرية الإسرائيلية مع قبيلة يهوذا وبعض عشائر البنيامينيين الذي تمثل في التوراة من خلال المملكة الموحدة، لأن القبائل العبرية

الإسرائيلية التي وافقت في البداية على الاتحاد تحت هيمنة المفهوم العاطفي العرقي العبري، والذي تقاطع مع وجود خطر خارجي مشترك تمثّل في الشعب الفيلستي خاصة، وفي الشعوب الأخرى عامة، ولكن، ومع انخفاض حدة هذا الصراع المحلي، ومع شعور الإسرائيليين بغبن العلاقة مع اليهوذيين (اليهود)، حاول الإسرائيليون الفكاك من هذه التبعية في عصر الملك سليمان (وسنأتي لا حقا على تأكيد أن سليمان إن كان له وجود تاريخي فليس أكثر من شيخ قبيلة استطاع أن يهيمن على باقي الجماعات والقبائل العبرية) ولكن وبقوة السلاح عادوا إلى الخنوع وأصبح الاتحاد بالنسبة لهم - للإسرائيليين - احتلالا عسكريا، يجبرهم على دفع الجزية والضرائب الثقيلة، إضافة إلى أعمال السخرة التي كان يفرضها عليهم الملك سليمان.

وكانت أولى محاولات الاستقلال عن بني يهوذا هي التي قام بها شبع بن بكري، ولكن القوة العسكرية لسليمان حالت دون ذلك، وتم قطع رأس شبع بن بكري، كما قام يربعام بنفس المحاولة، ولكن خوفه من أن يلقى نفس مصير شبع بن بكري هرب إلى مصر، حتى سنحت له الفرصة بالعودة وإعلان الاستقلال بعد موت الملك سليمان، وهذا يؤكد على أن إسرائيل (أو الجماعات العبرية الشمالية) كانت خاضعة لهيمنة عسكرية من قبل بني يهوذا، وهو فحوى الخطاب الذي تلاه رحبعام بن سليمان على بني إسرائيل بعد موت الملك سليمان «إن خنصري أغلظ من متني أبي. والآن أبي حمّلكم نيرا ثقيلا وأنا أزيد على نيركم. أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب» الملوك الأول ١٢، وعلى الرغم من أن القبائل العبرية الشمالية وافقت على مبايعة رحبعام ملكا عليهم، على شريطة تخفيف الضرائب وأعمال السخرة، ولكن رعونة رحبعام ابن سليمان (٩٢٨ - ٩١١ ق.م) ونقص حنكته وتجربته لم تستطع أن تعيد الأمور إلى ما كانت عليه، وبذلك أعلنت مملكة إسرائيل استقلالها العسكري والسياسي والديني عن مملكة بني يهوذا والعودة إلى الحالة الطبيعية التي كانت عليه من قبل، وستبقى المملكتان بحالة صراع ضروس طوال تواجدهما عدا مرحلة قصيرة جدا مرت بهما إبان حكم آخاب ابن عمري (٨٧١ - ٨٥١ ق.م) ملك إسرائيل وابنه يورام (٨٥٠ - ٨٤٠ ق.م)، ويهوشافاط (٨٦٧ - ٨٤٧ ق.م) ملك يهوذا وابنه يهورام (٨٤٧ - ٨٤٠ ق.م) لا سيما بعد زواجهما من بنات آخاب، ولكن الصراع عاد ثانية بعد الانقلاب الذي قام به الكهنة على ملكة يهوذا عثليا بنت آخاب (الإسرائيلية) (٨٤٠ - ٨٣٥ ق.م).

ومن قراءة شمولية لتلك المرحلة نستطيع أن نستنتج أن المملكتين اللتين تحدثت عنهما التوراة (مملكة إسرائيل، ومملكة يهوذا)، ليستا أكثر من مشيخات لجماعات بدوية قبلية، وكانت أكثر هذه القبائل ما زالت تعتاش على الترحال، والتنقل من موضع لآخر حسب

ما تمليه عليها الظروف البيئية من جهة، وأصحاب الأرض من جهة أخرى، والصراعات بين القبائل من جهة ثالثة، فحين حصل صراع على السلطة في منطقة إسرائيل (السامرة)، وحين «ملك زمري على إسرائيل سبعة أيام في ترصة، وكان الشعب نازلا على جبثون التي للفلسطينين» الملوك الأول ١٦، وقد بقيت القبائل العبرية على حالتها البدوية، لمدة متأخرة، وبقي البعض منهم كذلك حتى السبي البابلي، ولم يستطيعوا أن يشكلوا أمة بالمعنى المعروف، بل كانوا على خلافات قبلية، بعضها كان ذا بعد جغرافي ما بين الشمال والجنوب، وبعض هذه الخلافات كان يدور حول المراعي، وبعضها، بل وأهمها كان يدور حول السيادة، كما كانوا يعتاشون أحيانا على بعض الأعمال الطفيلية الوضيعة، فقد قامت تلك الجماعات باستغلال الحروب التي كانت تقوم رحاها بين قبائل شرقي الأردن، حيث قاموا بسلب ساحة المعركة كأي ضبع رمام «فأتى يهوشافاط وشعبه لنهب أموالهم فوجدوا بينهم أموالا وجثثا وأمتعة ثمينة بكثرة فأخذوها لأنفسهم حتى لم يقدروا أن يحملوها وكانوا ثلاثة أيام ينهبون الغنيمة لأنها كانت كثيرة» أخبار الأيام الثاني ٢٠، وهذا لا يمكن أن تقوم به جماعات أو ممالك لها سيادة، وهيبة سياسية.

وإضافة إلى قوى التنافر بين قبائل (مملكتي) يهوذا وإسرائيل، فإنهما أيضا كانتا على المستوى الخارجي محكومتين بشكل عام بعدة قوى، وقد تعاملت معها المملكتان بين دفع الجزية حينا، وبين التحالف والدفاع المشترك حينا آخر، وبين الخضوع والإذعان أكثر الأحيان، وأهم هذه القوى هي:

١ - القوى المحلية: وأهمها الكنعانية والتي أغفلت التوراة دورها، ولكن يمكن أن نستنتج من خلال الخطاب التوراتي أن الكيان الكنعاني استمر في تواجده حتى بعد زوال مملكة يهوذا، وأن مدينة أورشليم على سبيل المثال بقيت كنعانية يبوسية من البداية وحتى انتهاء مملكة يهوذا، ولم تخضع لسيادتهم إلا في قسمها اليهوذي على جبل صهيون، أما المدينة الرئيسية فبقيت كنعانية، وما يوضح ذلك الجملة الصريحة والتي تتحدث عن النبية خلدة، والتي تنبأت أن اللعنات التي جاء ذكرها في سفر موسى ستحل في هذا الزمان «وهي ساكنة في أورشليم في القسم الثاني» أخبار الأيام الأول ٣٤، أما في سفر حزقيال فقد جاء «يا ابن آدم عرّف أورشليم برجاساتها وقل. هكذا قال السيد الرب لأورشليم. مخرجك ومولدك من أرض كنعان. أبوك أموري وأمك حثية»، وقد جاء سابقا «وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى يومنا هذا»، أما في سفر القضاة فجاء «وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، فسكن اليبوسيون

مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم» القضاة ١: ٢١، وفي مكان آخر في قصة الرجل اللاوي الذي كان يقيم في جبل أفرايم التي أتينا على ذكرها تذكر التوراة أنه لم يكن من إنسان واحد من العبريين في أورشليم (يبوس) «فقال له سيده لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا نعبر إلى جبعة» قضاة ١٩، وهذا يؤكد أن أورشليم بقيت كنعانية صرفة حتى أثناء المملكة المتحدة واستمرت حتى السبي البابلي، ويبدو أن بعض أصحاب البيوت الكنعانيين قد عادوا للسكن بها مباشرة بعد سقوط بابل بيد الفرس الأخمينيين، وكان الأمر لا يتعدى كون قبيلة يهوذا قد استوطنت في جبل صهيون (الزيتون أو المكبر) المهجور بعد أن قاموا بترميم حصنه وأبنيته الكنعانية واتخذوه مقرا لقيادتهم في القرن الثامن قبل الميلاد، وما الوضع الحالي بالنسبة لمدينة القدس (القدس الغربية والقدس الشرقية) إلا صدى لما كانت عليه مدينة أورشليم في تلك المرحلة.

كما يمكن أن نضيف إلى ذلك أن جبل يهوذا كان تحت هيمنة أورشليم، ولكنه لم يكن يشكل كتلة متماسكة ومتصلة لا شعبيا ولا إثنيا، وهو ما نلمحه من خلال أسفار الأنبياء المتأخرين ما قبل وأثناء السبي والتي دائما تتحدث عن المنطقة بصيغة (يهوذا وسكان أورشليم).

«فإنه هوذا السيد رب الجنود ينزع من أورشليم ومن يهوذا السند والركن كل سند خبز وكل سند ماء» أشعيا ٣.

«لأن أورشليم عثرت ويهوذا سقطت لأن لسانهما وأفعالهما ضد الرب» إشعيا.

وجاء في زكريا أنه رأى أربعة قرون «فقال - ملاك الرب - هذه هي القرون التي بددت بها يهوذا وإسرائيل وأورشليم» زكريا ١.

«في ذلك اليوم أجعل أمراء يهوذا كمصباح نار بين الحطب وكمشعل نار بين الحزم فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمين وعن اليسار فتثبت أورشليم أيضا في مكانها بأورشليم. ويخلص الرب خيام يهوذا أولا لكيلا يتعاظم افتخار بيت داود وافتخار سكان أورشليم على يهوذا» زكريا ١٢، وهذه الجملة تدل أن سكان أورشليم كان أكثريتهم من غير اليهوذيين، وأنهم كانوا يترفعون على بني يهوذا.

أما بالنسبة للفلستيين فبعد عدة حروب مع القبائل العبرية في مرتفعات جبل إسرائيل ويهوذا، وهي التي ساهمت في توحيد القبائل العبرية، انتهوا إلى حالة من عدم الاعتداء مترافقا مع كنعنة الشعب الفيلستي، أما قوى شرقي الأردن المتمثلة بالموآبيين والعمونيين والأدوميين، والقبائل العربية فكانت قوى ضعيفة وإن كانت قد استطاعت في عهد القضاة أن تفرض سيطرتها على القبائل العبرية كما جاء في التوراة، إلا أنها عادت وخضعت للمملكتين

العبريتين في أكثر الأحيان مع مراحل من التحرر من سيطرتهما، وفي أحيان أخرى خضعت المملكتان العبريتان لسيطرة ممالك شرقي الأردن لا سيما في المرحلة الأخيرة لمملكة يهوذا، كما استطاعت القبائل العربية، التي كانت تنتشر في جنوب بلاد كنعان، بالتعاون مع الفلستيين أن تجتاح مملكة يهوذا في عهد يهورام بن يهوشافاط (٨٤٧ - ٨٤٠ ق.م)، وأن تسبي كل ممتلكاتها، وأن تقتل أسرتها الحاكمة التي لم ينج منها سوى ابن الملك يهورام واسمه أخزيا، والذي تولى منصب الملك بعد موت أبيه، ولكن بشكل عام بقيت هذه القوى، جميعا بما فيها المملكتين العبريتين، ضعيفة ومحلية إلى درجة أنها لم تستطع أن تفرض إحداها سيادة حقيقية على القبائل، والشعوب الأخرى.

بالطبع فإن اتحاد القبائل العبرية أيضا لم يكن مستمرا بل كان في حالة دراماتيكية، وكانت بعض القبائل للملكة الشمالية تخرج عن اتحاداتها، وتعلن استقلالها وقد ورد في التوراة الكثير من النصوص ما يؤكد ذلك:

«وأرسل حزقيا إلى جميع إسرائيل ويهوذا وكتب أيضا رسائل إلى أفرايم ومنسى أن يأتوا إلى بيت الرب في أورشليم ليعملوا فصحا للرب إله إسرائيل» أخبار الأيام الثاني ٣٠، وهذا النص يستبعد من التحالف العبري قبيلة أفرايم، ومنسى في زمن الملك حزقيا (٧١٥ - ٦٩٨ ق.م).

«وأطرحكم من أمامي كما طرحت كل أخوتكم كل نسل أفرايم» إرميا.

وجاء في سفر هوشع الذي عاش أيام عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا وفي أيام يربعام الثاني بن يوآش ملك إسرائيل (٧٩٣ - ٧٥٣ ق.م) وهو نبي جاء إلى أفرايم «لا يسكنون في أرض الرب بل يرجع أفرايم إلى مصر ويأكلون النجس في أشور» هوشع ٩.

«وقد أحاط بي أفرايم بالكذب وبيت إسرائيل بالمكر ولم يزل يهوذا شاردا عن الله وعن القدوس الأمين» هوشع ١١.

«أفرايم راعي الريح وتابع الريح الشرقية كل يوم يكثر الكذب والاغتصاب ويقطعون مع أشور عهدا والزيت إلى مصر يجلب» هوشع ١٢.

«ويكون بيت يعقوب نارا وبيت يوسف لهيبا وبيت عيسو قشا فيشعلونهم ويأكلونهم.. ويرث أهل الجنوب جبل عيسو وأهلُ السهل الفلسطينيين ويرثون بلاد أفرايم وبلاد السامرة ويرث بنيامين جلعاد. وسبي هذا الجيش من بني إسرائيل يرثون الذين هم من الكنعانيين إلى صرفة. وسبي أورشليم الذين في صفارد يرثون مدن الجنوب» عوبيديا.

كما أتى أن ملك يهوذا أمصيا (٧٩٨ - ٧٦٩ ق.م) كان قد استأجر جيشا مرتزقا مكوناً من مئة ألف مقاتل من قبيلة أفرايم من أجل حربه مع الآدوميين.

٢ - القوة الآرامية: وهي من القوى التي يمكن أيضا إدراجها مع القوى المحلية، على الرغم من أنها كانت تعتبر من القوى الإقليمية أو أنها وسيطة بين القوتين، ولذلك وبشكل عام فقد استطاعت في أغلب المراحل أن تشكل سيطرة وسيادة على بلاد كنعان، وتمثلت بحروب واجتياحات أحيانا، وأحيانا أخرى باتفاقات وتحالفات مع مملكة ضد الأخرى (إسرائيل ويهوذا)، وكان لآرام دمشق دور مهم في صناعة الأحداث للمملكتين، ويمكن في كثير من المراحل التاريخية اعتبار مملكة آرام دمشق هي مملكة ثالثة للمنطقة، ولذلك يمكن اعتبارها أنها قوة محلية أو بينية أو خلالية.

٣ - القوة المصرية والتي انتهى دورها سريعا بُعيد عهد سليمان الذي يبدو أنه كان حليفا أو تابعا أو بوابا للملكة المصرية التي كانت قد بدأت بمرحلة انحسارها الحضاري والسياسي والعسكري، وكان آخر أثر أو ذكر لها جاء بعد أن قام شيشنق الأول (٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م) ملك مصر الليبي باجتياح مملكة يهوذا في عهد رحبعام (٩٢٨ - ٩١١ ق.م) وسلب كل نفائس مملكة سليمان، واستثنى إسرائيل التي ربما قد دفعت له الجزية، أو ربما كانت على وفاق مع مصر لا سيما وأن ملكها يربعام كان لاجئا في مصر قبل عودته ليملك على مملكة إسرائيل، وربما كانت حملة شيشنق على مملكة يهوذا هي حملة لنجدة يربعام ملك إسرائيل.

وبعد ذلك وبسبب ضعف القوة المصرية الشديد أمام تنامي القوة الآشورية ومن ثم البابلية أصبحت (خشبة مرضوضة)، وبذلك لم تستطع أن تنقذ مملكة يهوذا، التي تحولت إلى حليفة لمصر، من اجتياح القوة الآشورية أثناء حكم سنحاريب، وإن كانت القوة المصرية قد اشتد ساعدها وحاولت استعادة دورها في بداية الصعود البابلي، وقد خرجت القوات المصرية أثناء حكم نخو (٦٠٩ - ٥٨٣ ق.م) باتجاه البلاد السورية واجتاحت بطريقها مملكة يهوذا، ولكن القوة البابلية المتصاعدة كانت قد حسمت الموقف لمصلحتها لا سيما في عهد نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) ولم يستطع ملوك مصر أن يستردوا هيبة مصر في سورية.

أما بالنسبة للكوشيين - وهم على ما يبدو شعب مزيج من المصريين والأفارقة وكانوا يسكنون في جنوب وادي النيل - والذي تحدثت عنهم التوراة كما لو أنهم كانوا يقيمون في سيناء على حدود بلاد كنعان الجنوبية، والذين قاموا بالهجوم على مملكة يهوذا في عهد الملك آسا (٩٠٨ - ٨٦٧ ق.م)، فيعتقد البعض أن الكوشيين هم المصريون أنفسهم، والبعض الآخر يفترض أنهم المصريون في عهد حكم العائلة الكوشية (ترهاقة) التي حكمت مصر، ولكن الرأي الأكثر منطقيا هو أن الكوشيين هم فرقة جنود مرتزقة كانت تعمل لمصلحة المصريين، وقد تم توظيفها في سيناء لحماية الحدود الشمالية

الغربية لمصر، والبعض يعتقد أن هؤلاء الكوشيين هم نفس الكوشيين الآريين الذين هاجموا الآشوريين في عهد الملك سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) أثناء حصاره لمملكة يهوذا خلال عهد ملكها حزقيا (٧١٥ - ٦٩٨ ق.م)، أما زياد منى الذي كان قد نقل جغرافيا التوراة من بلاد كنعان إلى الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية فيذهب إلى أن الكوشيين - هم العرب الجنوبيون.

٤ - **القوة الرافدية:** إن ضعف القوة الرافدية بل وغيابها عن مسرح الأحداث في بداية القرن الأول قبل الميلاد، سمحت للكيانات الصغيرة في المنطقة أن تنعم بشيء من الاستقلالية، وأن تعطي الفرصة لتشكيل كيانات محلية، وأن تنمو وتكبر مثل مملكة بيت عمري أو السامرة (مملكة إسرائيل)، وأيضا القوة الآرامية التي كانت تمثلها مملكة دمشق، التي قويت وكانت لها اليد الطولى في المنطقة.

وقد عادت القوة الرافدية على يد الآشوريين للنهوض بدورها الحضاري والتي أنهت مملكة بيت عمري (إسرائيل) سنة ٧٢١ ق.م قبل الميلاد على يد الملك الآشوري سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، وتابعت هيمنتها على مملكة يهوذا، وتابع البابليون الذين أخذوا اللواء من الآشوريين، والذين قاموا بعدة حملات واجتياحات إلى المنطقة، وقبل غياب شمسهم قاموا بتدمير وسبي مملكة يهوذا على يد الملك نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م).

وهنا علي أن أشير إلى أنني تحدثت عن مملكة يهوذا كما لو أن المقولة التوراتية فيها الكثير من الصحة، إلا أن الحوليات والمنطق الاستقرائي للأحداث تبين أنه لم يكن هناك مملكة حقيقية باسم يهوذا، والأمر لا يتعدى وجود قبيلة يهوذا التي كانت متمردة على مملكة بيت عمري (إسرائيل أو السامرة) في جبال يهوذا، والتي كان يحكمها شيخ (ملك)، وكانت على خلاف مستمر مع مملكة إسرائيل، ولكن تلك القبيلة نهضت بدور في المنطقة بعد ضعف مملكة بيت عمري، ومن ثم سقوطها سنة ٧٢١ ق.م، حيث ملئت قبيلة يهوذا الفراغ الذي تركته مملكة بيت عمري، ووسعت دائرة نفوذها على جبال يهوذا مقابل بقائها مدينة بالولاء (كمنطقة حدودية) لآشور.

إن حملات سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) التي كانت قد أنهت مملكة السامرة، والمدن الواقعة في سهل الشفلح (الهضاب المنخفضة) وهي جرار ولخيش وبيت شمس، سمحت لأورشليم أن توسع حدودها نحو المدن الغربية التي استلب الآشوريون دورها، ونحو الجنوب حتى بئر السبع بما فيها مدينة حبرون (الخليل)، وتشكيل مملكة يهوذا التاريخية، والتي وصلت إلى قمة مجدها وازدهارها في عهد الملك حزقيا (٧١٥ - ٦٩٨ ق.م) وقد شهدت في تلك الفترة

حالة ازدهار عمراني، ومن المعتقد أو شبه المؤكد أن (هيكل سليمان) قد بُني في هذه الفترة، ولكن مملكة يهوذا التي سرعان ما لبت نداء مصر لها وتورطت بالعصيان على البابليين الأمر الذي قادها إلى نهايتها كما كان الأمر بالنسبة للسامرة.

مقاربة لثبت ملوك إسرائيل ويهوذا كما أتت به التوراة:

المملكة المتحدة

شاؤل	١٠٠٧-١٠٠٤ق.م		
داود	١٠٠٤-٩٦٥ ق.م		
سليمان	٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م		
ملوك السامرة		**ملوك يهوذا**	
يربعام	٩٢٨ - ٩٠٧ ق.م	رحبعام	٩٢٨ - ٩١١ ق.م
		أبيام	٩١١ - ٩٠٨ ق.م
		آسا	٩٠٨ - ٨٦٧ ق.م
ناداب	٩٠٧ - ٩٠٦ ق.م		
بعشا	٩٠٦ - ٨٨٣ ق.م		
إيلة	٨٨٣ - ٨٨٢ ق.م		
زمري	٨٨٢ - ٨٨٢ ق.م		
عمري	٨٨٢ - ٨٧١ ق.م		
آخاب	٨٧١ - ٨٥١ ق.م		
		يهو شافاط	٨٦٧ - ٨٤٧ ق.م
أحزيا	٨٥١ - ٨٥٠ ق.م		
يورام	٨٥٠ - ٨٤٠ ق.م		
يهورام	٨٤٧ - ٨٤٠ ق.م		
		أخزيا	٨٤٠ - ٨٤٠ ق.م
		عثليا بنت آخاب	٨٤٠ - ٨٣٥ ق.م

ياهو	٨٤٠ - ٨١٤ ق.م		
يوآش	٨٣٥ - ٧٩٨ ق.م		
يهو آحاز	٨١٤ - ٨٠٠ ق.م		
يهوآش	٨٠٠ - ٧٩٣ ق.م		
أمصيبا	٧٩٨ - ٧٦٩ ق.م		
يربعام	٧٩٣ - ٧٥٣ ق.م		
		عزريا + يوثام	٧٦٩ - ٧٣٣ ق.م
زكريا	٧٥٣ - ٧٥٢ ق.م		
شالوم	٧٥٢ - ٧٥٢ ق.م		
منحيم	٧٥٢ - ٧٤٢ ق.م		
فقحيا	٧٤٢ - ٧٤٠ ق.م		
فقح	٧٤٠ - ٧٣٢ ق.م		
آحاز	٧٣٣ - ٧١٥ ق.م		
هوشع	٧٣٢ - ٧٢١ ق.م		
حزقيا	٧١٥ - ٦٩٨ ق.م		
		منسى	٦٩٨ - ٦٤٢ ق.م
		آمون	٦٤٢ - ٦٣٩ ق.م
		يوشيا	٦٣٩ - ٦٠٩ ق.م
		يهو آحاز	٦٠٩ - ٦٠٨ ق.م
		يهوياقيم	٦٠٨ - ٥٩٨ ق.م
		يهوياكين	٥٩٨ - ٥٩٧ ق.م
		صدقيا	٥٩٧ - ٥٨٦ ق.م

التوافق بين مملكتي الشمال والجنوب في التواريخ المحددة (حسب ما جاء في دائرة المعارف الكتابية)

مملكة إسرائيل	ق.م	مملكة يهوذا
يربعام يملك علي إسرائيل	٩٣٣	رحبعام يملك علي يهوذا
	٩٢٩	غزو شيشنق ليهوذا
السنة السابعة عشرة ليربعام الأول	٩١٥	موت رحبعام، وملك أبيا عوضاً عن أبيه
السنة العشرون ليربعام الأول	٩١٣	موت أبيا - وملك آسا
موت يربعام الأول وارتقاء ابنه ناداب العرش	٩١١	السنة الثانية لآسا
بعشا يؤسس أسرة حاكمة جديدة	٩١٠	السنة الثالثة لآسا
	٨٩٨	الحرب مع زارح الكوشي، ظهور عزريا النبي
بعشا يبدأ في بناء الرامة	٨٩٦	الحرب مع بعشا في السنة السابعة عشرة لآسا - حناني الرائي
إيلة يخلف بعشا	٨٨٧	السنة السادسة والعشرون لآسا
زمري يحكم فترة قصيرة بعد مقتل أيلة، وانقسام الشعب بين عمري وتبني	٨٨٦	السنة السابعة والعشرون لآسا
عمري يبني السامرة وينتصر علي مقاوميه	٨٨١	السنة الحادية والثلاثون لآسا
أخآب يخلف أباه عمري بعد موته	٨٧٥	السنة الثامنة والثلاثون لآسا
	٨٧٤	يهوشافاط يشارك آسا الحكم في السنة التاسعة والثلاثين لآسا
السنة الرابعة لأخآب	٨٧٢	موت آسا وانفراد يهوشافاط بالحكم

مملكة إسرائيل	ق.م	مملكة يهوذا
ظهور إيليا التشبي نحو	٨٧٠	
حروب مع آرام	٨٦٧ - ٨٥٧	
اشتراك أخزيا في الحكم مع آخاب	٨٥٥	اشتراك يهورام في الحكم مع يهوشافاط ابيه
معركة قرقرة، دفع الجزية لأشور	٨٥٤	يهوشافاط يساعد آخاب ضد آرام
موت أخآب وإصابة أخزيا، يهورام يخلف أخزيا	٨٥٤	السنة الثامن عشر ليهوشافاط، الثانية ليهورام
السنة الخامسة ليهورام ملك إسرائيل	٨٥٠	موت يهوشافاط وانفراد يهورام بالحكم
السنة الحادية عشر ليهورام ملك إسرائيل أخزيا يملك مع يهورام أبيه، ياهو يقتل يهورام	٨٤٣	ياهو يقتل أخزيا
ياهو يقضي علي بيت عمري ويستولي على العرش	٨٤٣	عثليا تغتصب العرش بعد موت أخزيا
ياهو يدفع الجزية لأشور	٨٤٢	
السنة السابعة لياهو	٨٣٧	الإطاحة بعثليا - ملك يوآش في السابعة من عمره
يهو آحاز يشارك أباه ياهو العجوز في الحكم	٨٢٠	السنة الثالثة والعشرون ليوآش
موت ياهو	٨١٦	
يهوآش يشارك أباه يهوآحاز في الملك	٨٠٦	السنة السابعة والثلاثون ليوآش ملك يهوذا
موت يهو آحاز ملك إسرائيل	٨٠٤	أمصيا شريك في الحكم
	٨٠٣	موت يوآش ملك يهوذا

مملكة يهوذا	ق.م	مملكة إسرائيل
هزيمة نكراء لأمصيا على يد يهوآش ملك إسرائيل	٧٩٠	موت يهوآش ملك إسرائيل، ويخلفه يربعام الثاني
اختيار الشعب لعزيا ملكاً	٧٨٧	السنة الرابعة ليربعام الثاني
موت امصيا	٧٧٥	يونان النبي
عزيا يحرر يهوذا من الخضوع لإسرائيل	٧٦٤	
	٧٥٢	عاموس النبي
إصابة عزيا بالبرص حدوث الزلزلة العظيمة	٧٥٠	فترة الاضطراب السياسي: فقح يغتصب العرش في جلعاد وهوشع النبي
يوثام يشارك أباه عزيا في الحكم	٧٤٩	زكريا يخلف أباه يربعام الثاني ويملك ستة شهور
السنة التاسعة والثلاثون لعزيا	٧٤٨	منحيم يقتل شلوم ويملك عوضاً عنه
آحاز يشارك أباه يوثام في الحكم	٧٤١	منحيم يدفع الجزية لأشور
السنة الخمسون لعزيا	٧٣٨	فقحيا يخلف أباه منحيم بعد موته
السنة الثانية والخمسون لعزيا	٧٣٦	فقح يملك بعد مقتل فقحيا
موت عزيا رؤيا إشعياء وانفراد يوثام بالملك فترة قصيرة	٧٣٥	السنة الثانية لفقح على كل إسرائيل
موت يوثام - انفراد آحاز بالملك	٧٣٤	غزو فقح ورصين ليهوذا
السنة العشرون لبداية اشتراك يوثام في الملك	٧٣٠	موت فقح
السنة الثانية عشرة لآحاز بما في ذلك سنوات المشاركة	٧٢٩	تغلات فلاصر يقيم هوشع ملكاً
حزقيا يرتقي العرش	٧٢٦	

مملكة إسرائيل	ق.م	مملكة يهوذا
بداية حصار السامرة، السنة السابعة للملك هوشع	٧٢٣	السنة الرابعة للملك حزقيا
سقوط السامرة ونهاية مملكة إسرائيل	٧٢١	السنة السادسة لحزقيا

فترة الآشوريين ويهوذا بعد سقوط السامرة (حسب دائرة المعارف الكتابية)

٧٢٧ ق.م	شلمنأسر الرابع يخلف تغلات فلاصر الثالث
٧٢٦ ق.م	بداية حكم حزقيا
٧٢٤ ق.م	تمرد هوشع ملك إسرائيل، وبداية حصار السامرة
٧٢٢ ق.م	سرجون يتولي عرش أشور.
٧٢١ ق.م	سقوط السامرة - نهاية المملكة الشمالية.
٧٢٠ ق.م	سرجون يغزو فلسطين، ويأخذ أشدود.
٧١٥ ق.م	سباكو أو سوا يتولي عرش مصر.
نحو ٧١٣ق.م	سنحاريب يغزو فلسطين لأول مرة.
٧١٢ ق.م	مرض حزقيا.
٧١١ ق.م	سفارة مردوخ بلادان إلي حزقيا.
٧٠٥ ق.م	موت سرجون - سنحاريب يخلفه في الحكم.
٧٠١ ق.م	حملة سنحاريب على مصر - وحصاره أورشليم الذي انتهي بتدمير جيشه.
٦٩٧ ق.م	موت حزقيا وارتقاء منسي العرش.
نحو ٦٨٠ق.م	موت إشعياء النبي.
٦٨١ ق.م	اغتيال سنحاريب.
نحو ٦٧٢ ق.م	توطين الغرباء في السامرة.
٦٧٠ ق.م	آسرحدون يغزو مصر.

٦٦٨ ق.م	أشور بانيبال يخلف آسرحدون في الحكم.
نحو ٦٥٠ ق.م	منسي يحمل إلى بابل.
٦٤٢ ق.م	موت منسي.
٦٤٠ ق.م	اغتيال آمون - بداية الاضطراب.
٦٣٩ ق.م	إعلان يوشيا ملكاً وهو في الثامنة من عمره.
٦٣٢ ق.م	بلوغ يوشيا سن الرشد - بداية صالحة.
نحو ٦٣٠ ق.م	غزو السكيثيين لغرب أسيا.
٦٢٨ ق.م	إصلاحات يوشيا في السنة الثانية عشرة لملكه.
٦٢٧ ق.م	إرميا يبدأ خدمته.
٦٢٦ ق.م	موت أشور بانيبال، ونهضة بابل.
٦٢٦ ق.م	نبوبولاسار يتولي الحكم بعد موت أشور بانيبال
٦٢١ ق.م	يوشيا يطهر الهيكل - العثور على سفر الشريعة.
٦١٠ ق.م	بداية حكم فرعون نخو.
٦٠٩ ق.م	موت يوشيا بعد حكم ٣١ سنة.
٦٠٨ ق.م	فرعون نخو يهوياقيم ملكاً علي يهوذا.
٦٠٧ ق.م	سقوط نينوي.
٦٠٧ ق.م	معركة كركميش وهزيمة نخو.

الباب الثاني

تحرير النص والتأريخ التوراتي

الفصل الأول

التهويد والنص التوراتي

سنفترض أن التأريخ التوراتي في هيكله النصي، قد تمسرح على خشبة الواقع، منذ الآباء الأوائل الذين لم يكن لديهم ثقافة، وتراث خاص بهم، لأنهم لم يكونوا سوى عائلة صغيرة تتنقل في الشرق الأدنى القديم، وكان أول استقرار لهم في مصر تحت رعاية النبي يوسف حيث، وحسب التوراة، كانوا محتقرين من قبل الشعب المصري وغيرهم من الشعوب، فقد كانوا مجتمعا بدويا، بدائيا، ذا ثقافة هضمية، ولذا تم عزلهم في منطقة جاسان بالقرب من دلتا النيل في مصر كطبقة من العبيد، ولم ينخرطوا في السياقات العامة للحضارة التي كانت سائدة آنذاك، ولم يأخذوا، أو يستفيدوا من العلوم الحضارية، والثقافة المصرية الكثير، لا سيما وأن الحضارة المصرية كانت ذات نمط هرمي، أي بمعنى أن العلم والفكر الفرعوني بشكل عام لم يكن يسمح بالاطلاع عليه من قبل العامة، بل كانت بعض أنواع العلوم حكرا على الطبقة الكهنوتية الدينية الفرعونية، ومنها على سبيل المثال علوم التحنيط، والآداب والطقوس الدينية، ولا سيما ما يتعلق منها بتلقين الموتى وتعليمات عبورهم في البرزخ ما بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى وتحنيطهم ودفنهم، ولذا فإن العبرانيين عند خروجهم من مصر بقيادة موسى لم يحملوا معهم سوى بعض الأناشيد الدينية التي كانت تتلى في معابد الإله آتون (الشمس)، لا سيما وأن الديانة الأتونية كانت الديانة المصرية الوحيدة التي اطلعت عليها، واعتنقتها الجاليات الأجنبية في مصر ومنهم الجماعات العبرية، أما في سيناء فقد اطلع العبرانيون، وتأثروا، واعتنقوا شرائع القبائل العربية السينائية وفكرهم الديني التفريدي القبلي، ولما وصلوا إلى بلاد كنعان، وهي إحدى أهم المحطات الحضارية المهمة جدا ذات الثقافات المتعددة الأفقية المشاعية، لا سيما وأن بلاد كنعان كانت متسامحة في قبول جاليات من شعوب متعددة، كما جاء ذكر ذلك في التوراة، منهم القينيون، والقنزيون، والحثيون، والحويون، والفرزيون، والرفائيون، والأموريون، والجرشانيون، والفلسطينون وسواهم من الجاليات المتعددة، وهذه الجاليات كانت قد قدمت من أماكن

متفرقة من العالم القديم ومعها تراثها الثقافي والديني، أي أن بلاد كنعان كانت تنتشر فيها جميع المفاهيم الحضارية في العالم القديم، وعلى الرغم من أن الجماعات العبرية كانت من أكثر الجماعات المغلقة على نفسها إلا أنها أفادت كثيرا من المفاهيم المدنية والدينية الكنعانية التي دجنت همجية وصلافة وخشونة بداوتهم، وقد استفاد العبرانيون الذين كانوا قد قدموا من مصر (قوم موسى) من تجربة القبائل العبرية الإسرائيلية التي كانت متواجدة شمال بلاد كنعان قبل قدوم قوم موسى الذين استوطنوا في جنوب بلاد كنعان وسموا فيما بعد باليهود بعد فشل اتحادهم مع الإسرائيليين (سكان المنطقة الشمالية من الضفة الغربية لنهر الأردن) الذين كانوا قد قطعوا شوطا متقدما على القبائل الجنوبية في التطور الحضاري.

ولكن التحدي الحضاري الحقيقي الذي واجهته الجماعات العبرية، والتي أصبحت تعرف بالجماعات اليهودية كان أثناء السبي في بابل، حيث هناك وبشكل مفاجئ وجد اليهود أنفسهم في عاصمة الحضارات العالمية، وبعد امتصاص الصدمة الأولى - وبسبب الخزي النفسي التي كانوا يعانوا منه - بدءوا ثانية بمحاولة الوقوف بأناهم القبلية العنصرية المنهارة، وبدؤوا يبحثون عن مميزات تخصهم، لا سيما وأنهم كانوا متجمعين في منطقة صغيرة نسبيا لا تتعدى حدود المنطقة المركزية من الإمبراطورية البابلية، فادعوا أنهم من نسل النبي إبراهيم والذي كان أقدس شخصية معروفة في العالم القديم، وفي بحثهم عن منح أنفسهم دور حضاري أخذ الأحبار اليهود في السبي تراثهم اليهودي، والتراث الإسرائيلي، وتراث الشعوب في بابل عاصمة الدنيا السياسية والحضارية والثقافية والأدبية في تلك الفترة من الزمان، وأدخلوه إلى المطبخ التوراتي، كمواد أولية وقاموا بطهيه، ثم قدموه على أنه أدب خاص بهم.

لقد أصبح من البديهي القول أن التوراة تم تدوينها بيد الطبقة الكهنوتية اليهودية في مرحلة السبي البابلي، واستمرت أعمال التحرير حتى سقوط الهيكل الثاني على يد روما سنة ٧٠ للميلاد، وكل ما كان لدى المحررين المسببين في بابل كنقطة بداية هي بعض التشريعات، وعلى رأسها الوصايا العشر التي ربما أنها دوّنت بالحرف السينائي في عهد النبي موسى، والتي كان يشوع قد دونها على الحجارة بعد دخوله إلى بلاد كنعان، وضاعت هذه المدونات، لكنها بقيت ألسنة الكهنة ورجال الدين تدوّنها على ألسنة الشعب، وتضيف إليها بعض التشريعات حسب ما تمليه الحاجات الاجتماعية خلال مسار التاريخ العبري، ويبدو أن سفر الشريعة الذي وُجد في الهيكل في زمن الملك يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٩ ق.م)، والذي تمت قراءته في خطبة شعبية مما يوحي أن حجمه لا يزيد عن ثلاث أو أربع صفحات من مثل صفحات هذا الكتاب، وهذا السفر شكّل الطبقة الأولى التي تم عليها بناء الطبقات اللاحقة في التشكيل الهرمي للتوراة، والكثير

من المؤرخين التوراتيين يعتقدون أن الكهنة الصدوقيين هم الذين قاموا بكتابة هذا السفر ودسوه بين خرائب الهيكل، كي يبدو وكأنه مكتوب منذ زمن قديم، وعلى افتراض أن اليهود كان لديهم بعض المدونات في مرحلة المملكة المنقسمة، مثل سفر الشريعة الذي ورد ذكره فيمكن أن نعتقد أن هذا المدون قد ضاع، أو أتلف في سياق الحملات التدميرية التي قام بها البابليون، والتي أنهوها سنة ٥٨٦ بتدمير أورشليم نهائيا، وسبي شعبها إلى بابل، وليس من المستبعد أن يكون المحررون قد قاموا بتدوين هذا السفر من على ألسن المسبيين.

وإضافة إلى تلك الوثيقة الخطية (سفر الشريعة) والذي يعتبره الباحثون التوراتيون أنه يشكل الطبقة الأولى في سفر التثنية، كان لدى يهود السبي مجموعة من القصص التراثية التي تناقلتها الألسن من جيل إلى جيل، فأضيف وحذف منها الكثير حسب علاقة الراوي وغاياته من تلك القصص، ولأن التحرير الكتابي للمنقولات أو المقولات الشفوية يكون دائما بحالة تباعدية - تبعا للزمان - مع الحقيقة ومع التاريخ فقد أتت التوراة كذلك، فقصص سفر التكوين هي أبعد ما يمكن عن الحالة المنطقية التاريخية، ولكن شيئا.. فشيئا اقتربت الكتابة التوراتية من المنطق التاريخي حتى أصبحت شديدة القرب منه في الأسفار التي تتحدث عن تاريخ مملكتي إسرائيل وبني يهوذا وهما المرحلتان اللتان سبقتا تحرير التوراة

وكان اليهود بعد السبي قد وجدوا أنفسهم مهانين ومنهزمين أمام التاريخ، وهذا ما جعلهم يستشعرون بالنقص والدونية، وهذا الحنين الذي يجعل الإنسان يشعر بالأسى على ما عاناه اليهود بسبب نمطهم الشخصي، والجماعي، - الإجتماعي والتاريخي على حد سواء:

على أنهار بابل هناك جلسنا.
بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون.
على الصفصاف في وسطها علّقنا أعوادنا.
لأنه هناك سألَنا الذين سبونا كلام ترنيمة
ومعذِّبونا سألونا فرحا قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون
كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة.
إن نسيتك يا أورشليم تنسى يميني.
ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك
إن لم أفضّل أورشليم على أعظم فرحي.

(مزمور١٣٧).

وفي هذا المزمور لنا أن نضع خطا تحت جملة (هناك جلسنا)، والتي تشير إلى أن هذا المزمور كتب في مرحلة ما من مراحل ما بعد العودة من السبي.

وهذا الوضع التاريخي شكل لدى اليهود في بابل حالة عصابية بدأت - من خلال رفضها لحالة الهزيمة - تدبّج كحالة تعويضية نفسية، ماضيا عريقا، وتصوّر أن لهم من الأمجاد ما لم يكن لأي أمة أو شعب أو جماعة على وجه الأرض، وبدأ رجال اللاهوت، وهم ضمير هذه الحالة المنهزمة بعد شعورهم بتدهور التاريخ الجمعي، بتحرير كتاب التوراة لجعله مرجعية وقبلة للمسببين (أو عاصمة) للم شملهم حول مملكة مؤسسة من بناء لغوي، كي يوقفوا الشعور بالضياع والتشتت الذي قد يودي بتلك الجماعات إلى مقبرة النسيان، فقاموا في البداية بتدوين وتثبيت الأصول والتصورات التراثية اليهودية، وإيجاد انسجام بين أكثر من رواية لنفس القصة، فقد كان لكل قبيلة صيغتها السردية التراثية الخاصة ضمن تراث يهودي عام، ولها بطلها القومي الخاص بها (وهو ما نجده بشكل شديد الوضوح في تأريخ مرحلة القضاة)، وقد تم جمع تلك الشخصيات، في الشخصية ذات الحضور الأقوى، وحسب العلاقة الأثنية للشخصية التراثية مع المحرر التوراتي، فموسى على سبيل المثال نجد ضمنه، أو في بطنه أكثر من شخصية ربما كان لتلك الشخصية أسماء مختلفة، ولكن موسى استطاع أن يبتلع تلك الشخصيات ضمنه، ويمكن القول أن إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسرائيل، وموسى، وهارون، ويشوع، ومن بعدهم داود، وغيرها من الشخصيات التوراتية شخصيات تمثل أبطالا قوميين، لأكثر من جماعة قبلية عبرية، تم تركيبها دراميا على أيدي محرري التوراة في مرحلة السبي لتوحيد التراث القبلي العبري، وبذلك توحيد الجماعات العبرية في دم وتراث وحاضر، وبالتالي مصير ومستقبل واحد.

لقد تم جمع مرويات التوراة من على ألسن لا حصر لها، وكان أهم مصدرين اعتمدت عليهما الرواية التوراتية هما التراث الإسرائيلي، والتراث اليهودي، وهذان التراثان كانا قد تشكلا في أزمان سابقة بتأثير تراث حضارات الشرق الأدنى بشكل عام، كما أن المحررين أخذوا أيضا تراث هذه الشعوب مباشرة في بابل عاصمة الحضارة والثقافة العالمية آنذاك، وقد قامت مجموعة كبيرة من رجال الدين بإعادة تحرير مجموعة الروايات المتعددة، ثم تولت مجموعة ذات خبرة إحلال المزيد من الانسجام والترابط، ثم أحيلت إلى مجموعة أكثر تخصصا وهكذا إلى أن خرجت بشكل نهائي بأقلام مجموعة من المحررين أكثر احترافا، ولكن وبسبب تعدد المحررين، وتنوع منطلقاتهم وأهدافهم فقد تركوا الكثير من الثغرات والعيوب المختلفة عندما تم تحرير الكتاب بشكله النهائي، لا سيما وأن المحرر التوراتي قد

أخذ عن ألسنة الشعوب المتنوعة في بلاد السبي قصصا تعود إلى حضارات ولغات مختلفة كانت تزخر بها مدينة بابل، ولديها أسماء مختلفة وتواريخ مختلفة وأماكن مختلفة أيضا، وهذا ما زاد في صعوبة تحرير المواد النصية لإدراجها بشكل منطقي ضمن النسيج السردي للرواية التوراتية (عمليات التهويد النصية).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن مصادر التوراة الأساسية تعود إلى ثلاث مجموعات أسطورية مميزة، لكل أسطورة أب أسطوري، وكل أسطورة منتشرة في مكان خاص بها في بلاد كنعان:

الأولى بطلها هو إبراهيم وكانت منتشرة في محيط مدينة حبرون، والثانية بطلها إسحاق وكانت منتشرة في منطقة بئر سبع، والثالثة بطلها يعقوب وكانت منتشرة في منطقة بيت إيل، وأدى اندماج القبائل التي كانت تعيش في هذه المناطق إلى اندماج الأساطير الثلاث في أسطورة واحدة، بحيث تم توحيد أبطال الأساطير في سلسلة واحدة هم الأب والابن والحفيد، ويمكن وضع العديد من الافتراضات حول عدد وأسماء أبطال الروايات المتعددة التي تم الاعتماد عليها في كتابة قصص الآباء الأوائل، ويمكن أن نفترض أن المحررين اعتمدوا على ثلاث روايات أو مصادر تراثية، كانت رموز المصدر الأول هي: إبرام - إسحاق - إسرائيل.

أما رموز المصدر الثاني فكانوا: إبراهيم - إسحاق - يعقوب.

إضافة إلى مصدر ثالث، هو المصدر العربي ورموزه هم إبرام - إسماعيل.

كما يمكن أن نفترض وجود عدد كبير من المصادر والروايات، وكل رواية تختلف عن باقي الروايات من حيث المظهر والأسماء، والزمكان، ولا تختلف من حيث الجوهر الثقافي.

وبعد أن قام الكتبة من رجال الدين اليهود بجمع المرويات التراثية المتعددة قاموا بتركيزها بما يتواءم وروح المرحلة، كما وأضافوا، وأقحموا الكثير من الكتابات والتصورات والعناصر الثقافية لشعوب الشرق الأدنى الذين احتكوا معهم وتعرفوا على تراثهم الشفوي والتدويني، في بابل العاصمة الثقافية والسياسية العالمية آنذاك، أما ما بعد السبي فقد احتكوا مع ثقافات الشعوب الإغريقية، والرومانية، وكانوا في كل مرة يتم فيها إدخال عناصر ونصوص وتصورات ثقافية جديدة يحتاجون إلى إعادة تركيز وتهويد تلك العناصر والنصوص بما يتوائم مع المعتقد الديني اليهودي، والصيرورة التاريخية لتلك الجماعات، وقد استمرت هذه المرحلة حتى القرن الأول الميلادي.

ولكي يُقنع رجالُ الدين وقادات اليهود المسبيين بالانضواء في تلك المملكة اللغوية فقد أعلنوا مكافأة لهم في المستقبل عودتهم ثانية إلى تاريخهم - فردوسهم المفقود - حيث هناك

سيشكلون مملكة اللغة على الأرض لا في اللغة فحسب، وبمعنى آخر فقد كانت فكرة الخلاص والعودة بقيادة المسيح المنتظر والتي أخذوها عن زرادشتية فارس، وعن بعلية الشرق الأدنى القديم هي عبارة عن حلم، أو هذيان جمعي أتى بعد حالة ارتجاج الوعي اليهودي الذي حدث على إثر الضربة القاصمة التي سددها البابليون إلى اليهوذيين (اليهود).

وقد بدأ رجال الكهنة اليهود في بابل يدونون تراثهم الشفوي، وتراث الشعوب المتنوعة في بابل بعد تهويدها، وبما أن الروايات الشفوية هي متعددة ومتنوعة فقد حاول محررو التوراة أن يوجدوا الانسجام الكافي بينها، فأخذوها من على الألسن بحالتها السردية المفككة ذات النمط التراثي القصصي، وحاولوا إخضاعها للأنظمة والقواعد التاريخية (تأريخها)، ولا سيما من حيث الفضاءات الزمانية والمكانية (الزمكانية) للتاريخ، وهذه القضية يمكن تشبيهها بمحاولة كاتب لديه مجموعة كبيرة من القصص القصيرة تعود لأكثر من كاتب، وفي أكثر من زمكان يريد أن يجعل منها الكاتب رواية، ولكي يحقق أكبر نجاح في عمله التحريري هذا فعليه أولا أن يضع أو أن يؤسس عمودا فقريا لروايته، ومن ثم سيأخذ كل قصة على حدة فيعيد تشكيلها ونحتها وطليها بما يتلاءم لتأخذ مكانا وظيفيا ومتناسقا ومترابطا مع جسد الرواية، وهو عمل شديد الصعوبة، ويحتاج إلى جهد مضنٍ لأن المواد الأولية تحمل مكونات فكرية، وأخلاقية مختلفة، ولها أيضا وظائف وأهداف مختلفة، وكل قصة لها مفهومها الزماني والمكاني الخاص بها، وعلى الراوي أن يوجد لمجموع القصص فضاء موحدا يخضع لنفس محوري الزمان والمكان، ولنفس المقولة الأخلاقية التي يريد الكاتب إيصالها للمتلقي، وبذلك على الراوي أن يقوم بعمليات قص، وإضافة وتمطيط، وتقليص، وترقيع، وأدوات ربط، وخيوط وصل للقصص بحيث يشكل حالة انسجام كاف فيما بين القصص لتشكيل جسد الرواية.

والراوي التوراتي لم يألُ جهدا في العمل التحريري، ولكنه وبسبب الكم الهائل من النصوص، والروايات، وبسبب تسرعه فقد ترك الكثير من العيوب التي لم تخف على العين، وأكثر ما أساء إلى هذا الجهد المضني هو قيام المحرر في إعلان عمله التحريري على الملأ بحيث خرج من ملكيته وأصبح ملك القارئ الذي لن يقبل بإعادة تحرير الرواية التوراتية ثانية لأنها رواية مقدسة ولا يجوز العبث بها، وبسبب تسرع رئيس التحرير عزرا الكاتب، والكهنة من بعده (يعتبر عزرا بطل العودة إلى الفردوس المفقود، والذي سنأتي على ذكره في مرحلة السبي) في إعلان التوراة المقدسة فقد ثبّت العيوب بما فيها من أخطاء وتناقضات زمكانية وخلل في البنية التحتية للنص التوراتي والنسيج الداخلي للرواية التوراتية، فبقيت بعض الرقع

واضحة للعيان، ولم يتم صبغها جيدا بما يتوائم والموضع الذي قامت بشغله، كما أن الكثير من الخيوط التي ساهمت في صناعة النسيج التوراتي كانت ذات نمط مغاير لطبيعة النسيج التوراتي، وبما أنه تم تصديرها وعلى غلافها الخارجي {توراة (يَهْوَه).. بقلم موسى والأنبياء} فكان من الاستحالة إعادة تحريرها بشكل واسع، وبذلك تدارك الأخطاء الهائلة وعدم الانسجام والترابط التي نتجت عن السرعة في التحرير والنشر.

إن أدب وتراث الشعوب هو سلسلة متواصلة من التطور، بحيث كانت كل حضارة تأخذ تراث الحضارات المغلوبة وتدخله إلى أتونها فتعيد صهره ثم تعيد سبكه بما يتلاءم والجانب الديني والروحي والأخلاقي لديها، وإن أغلب الحضارات التي تم دحرها عسكريا وسياسيا بعد أن كانت قد وصلت إلى مرحلة متقدمة من النضج الحضاري، تركت أثرا حضاريا ثقافيا كبيرا في الحضارة التي انتصرت عسكريا، وخير مثال على ذلك هو الكيان الآرامي، والحضارة الآرامية، فمن المعروف أنه في الوقت الذي تم فيه تهديم آخر كيان أرامي في سوريا، بدأ انتشار واجتياح الثقافة الآرامية ليس في الشرق الأدنى فحسب، بل وفي كل العالم القديم، وعلى أيدي الحضارات التي انتصرت عسكريا، كما أن اليهودية العقيدية والثقافية لم تتبلور إلا بعد الهزيمة السياسية العسكرية التاريخية لليهود.

إن اليهود في سبيهم البابلي، والذين كانوا يعانون من عسر تطور حضاري أدى إلى تمزق في مفهوم الأنا اليهودية المقهورة سياسيا، حاولوا في بابل النهوض والتعويض عن ذلك بتشكيل مملكة ثقافية تقوم بدورين: الأول هو إعادة الاعتبار للأنا اليهودية المنهارة عسكريا، والثاني إبقاء اليهود المسبيين يجتمعون تحت مظلة ثقافية دينية واحدة، ودستور يمثل عاصمة روحية تكوكبوا حولها ككتلة واحدة على الرغم من مأزقهم التاريخي، بانتظار أن يقدم لهم التاريخ الفرصة المواتية التي لن يبخلوا في استدراجها لإعادة تشكيلهم السياسي، وبذلك تكون البنية الثقافية والانتمائية مبنية ومؤسسة مسبقا ولا تحتاج إلى زمن لتشكيلها سوى اجتماع الشعب في بوتقة جغرافية واحدة فحسب، وبالأحرى إن الثقافة اليهودية شكلت دولة منفى كاملة ينقصها فحسب البعد الجغرافي، وهذا البعد مهما طال الزمان - وبسبب التغيرات الديناميكية للتاريخ - سيأتيه فرصة موائمة ليمتلك أيضا، وبذلك يكتمل تشكيل الكيان بكل مقوماته.

كما سبق وذكرنا، لم يكن لدى اليهود عندما استقدموا إلى بابل كسبايا سوى بعض القصص، والحكايات، والخرافات، والأساطير التي كانت متداولة بين أمم وشعوب ذلك الزمان، والتي ربما كان بعضها تحكيها الجدات للأحفاد كي يناموا، إضافة إلى

مجموعة من القوانين القبلية (شريعة موسى)، وأضافوا إليها كل آداب الشعوب التي كانت متواجدة في بابل عاصمة العالم القديم آنذاك، والتي قد انتقلت إلى بلاد كنعان في زمن سابق للسبي، ووجدت هناك الزمن الكافي لكي تتكنعن تماماً، ولما تم سبي اليهود وجدوا هناك فارقاً بين النصين الأصلي الرافدي، والنص المتكنعن فقاموا هناك بإعادة تحريرهما بما يتلاءم مع العقلية اليهودية الاجتماعية والأخلاقية والنفسية والتاريخية، وبما يتلاءم مع الطموحات، والأماني اليهودية وتطلعها إلى المستقبل، وقد أدخل رجال الدين اليهود هذا المزيج من المواد الأدبية الثقافية الأولية إلى المطبخ الكهنوتي، وقاموا بتهويدها، وقد واجهوا عدة صعوبات أدت إلى فشل التهويد الأدبي في أكثر من محور.

تهويد البعد أو التصور أو المعتقد الديني في تراث الشعوب:

إن تهويد التصور الديني، في مرحلة السبي، كان تهويدا للنص الديني، ويعتبر التهويد النصي نمطاً إحلالياً يقوم على طرد أصحاب النص الأصليين من النص، وإحلال العقلية والفكر اليهودي مكانها، وكانت أهم النصوص التي قام محررو التوراة بتهويدها هي الأساطير والخرافات والقصص الرافدية، وبما أن التصور الديني الرافدي يقوم على مبدأ تعدد الآلهة، لذا فكان على محرري التوراة، كي يهودوا تلك النصوص، أن يقوموا بتجميع وظائف وشخصيات الآلهة المتعددة، والتي تحمل طيفا واسعا من الأنماط تماثل أي مجتمع بشري، والتي تتشكل من مجموعة من الآلهة المتعارضة، والمتعادية كما هو الحال مثلا بين إله الموت وإله الحياة، وأن يدمجوها في إله وحيد هو (يَهْوَه)، والمحرر التوراتي لم ينجح كثيرا في تهويد البعد الديني، كما لم ينجح كثيرا في كل عمليات التهويد المتعددة، ويمكن أن نأخذ مثالاً على هذه النقطة هي قصة النبي نوح التي أخذها محررو التوراة من أساطير بلاد الرافدين التي كانت تدين إلى أكثر من إله، وبذلك فتهويدها سيحتاج إلى إعادة تشكيل وصياغة لإدراجها ضمن مفهوم الوحدانية اليهوية، وحتى نعرف الجهد الذي قام به محررو التوراة علينا أن نقرأ أسطورة الطوفان في ملحمة (هو الذي رأى كل شيء)، والمشهورة باسم ملحمة جلجامش، وقصة النبي نوح في سفر التكوين.

تقول أسطورة الطوفان البابلية في ملحمة جلجامش - وبشكل مبسط ومختصر - إن البشر قد عصوا أو تمردوا على التعليمات الإلهية، وعملوا الشر والفساد على الأرض، ولذا فقد قرر المجلس الأعلى للآلهة حسب إرادة الإله (أنليل) أن يبيد الإنسان من على وجه الأرض، من خلال طوفان يغرق الجميع، ويغسل الأرض من شرور الإنسان، ولكن أحد الآلهة الحكماء

(إيا)، والذي كان يرفض هذا الحل الإلهي، أفشى السر إلى أحد الرجال الصالحين المدعو (أوتانافشتيم) الذي قام بصنع فلك حسب تعليمات الإله إيا، ولما حانت ساعة الصفر، وبدأ الطوفان يغمر الأرض، صعد أوتانافشتيم ومن معه من البشر والحيوانات إلى الفلك، ولما تم القضاء على الحياة على الأرض ندم مجموع الآلهة على ما فعلوه، وبدؤوا يعاتبون بعض الآلهة الذين تبنوا هذا القرار، ولم يكونوا على علم بما فعله الإله الحكيم إيا حين أفشى السر إلى أحد الأشخاص من بني الإنسان، وبعد أن بدأ الماء بالانحسار حط الفلك على أحد الجبال، وحينها قام أوتانافشتيم بتقديم قرابين شكر للآلهة الذين ما إن تنسموا رائحة الشواء حتى دبت الفرحة في أساريرهم وقلوبهم لبقاء بعض البشر على الأرض، وأثنوا على ما قام به الإله الحكيم إيا.

هذه بشكل موجز أسطورة الطوفان الرافدية، وهذه الأسطورة حتى يتم إدراجها ضمن النسيج التوراتي، أي حتى يتم تهويدها، فعلى المحرر أن يقوم بتوحيد الآلهة ضمن إله وحيد هو (يَهْوَه)، وعلى الرغم من هذا العمل المضني للمحرر التوراتي في تهويد هذه الأسطورة ضمن المذهب التوحيدي التوراتي، فقد تحولت صراعات وخلافات الآلهة في الأسطورة البابلية إلى حالة تناقضية ضمن الذات الإلهية للرب (يَهْوَه)، وبذلك فإن العين البسيطة ستكتشف أن (يَهْوَه) في قصة النبي نوح هو مجموعة من الآلهة توحدوا أو اندمجوا بشكل غير كاف، وهو الأمر الذي انعكس على الوحدة الداخلية للذات الإلهية اليهوية، فحسب قصة الطوفان التوراتية، فإن (يَهْوَه) قرر إبادة البشر بشكل نهائي بسبب كثرة شرورهم، ومفاسدهم والتي منها أن «أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم.

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه» تكوين.

وهنا يمكن لنا أن نتساءل كيف للرب (يَهْوَه) أن يعاقب البشر، في الوقت الذي قام أبناؤه (أبناء الله) بالخطيئة، وزنوا ببنات الناس، فكان الأجدر بأن يعاقب أبناءه على فعلتهم، أو على الأقل أبناءه وبنات الناس..؟، بل إن الرب يذهب إلى أبعد من ذلك، حين شمل عقابه كل أشكال الحياة، مع أن الإنسان فقط هو الذي قام بالخطيئة على الأرض، وعلى الرغم من ذلك نرى الرب (يَهْوَه) يقوم هو نفسه بعمل متناقض مع إرادته من خلال محاولته إنقاذ نوح البار بأن

كشف له سر ما سيقوم به وهو إحداث طوفان على الأرض لإبادة الحياة عليها، وبعد أن تم إنقاذ نوح، ندم، وتأسف الرب على ما كان قد صمم عليه، وهذه حالة متناقضة مع الذات الإلهية الشمولية اللانهائية: «فقال امحو عن وجه الأرض الإنسان.. مع بهائم ودبابات وطيور السماء،.. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.. فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت.. اصنع لنفسك فلكا.. وكان الطوفان.. فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء. خمسة عشر ذراعا في الارتفاع تعاظمت المياه. فتغطت الجبال. فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض.. ثم ذكر الله نوحا.. فهدأت المياه.. واستقر الفلك.. على جبال آرارات.. وبنى نوحا مذبحا للرب.. وأصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان لأن تصوّرَ قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت. مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال.» تكوين ٦ - ٧ - ٨، ومن المعروف أن الذراع التوراتي يساوي خمسة وأربعين سنتيمتراً، وهذا يعني أن عمق المياه التي أغرقت الأرض تعادل سبعة أمتار تقريبا، فهل لمثل هذه المياه أن تطم التلال، والجبال.

كما يمكن لنا أيضا أن ندرج مثالا آخر لتهويد نصوص تراثية لشعوب الشرق القديم هي الأساطير المتعددة التي تتحدث عن الصراع بين الصياد والراعي أو الراعي والفلاح والتي تم تحريرها (تهويدها) وإدراجها ضمن الرواية التوراتية في موقعين هما قصة قابيل وهابيل، وقصة عيسو ويعقوب، وقد ناصر محررو التوراة الراعي هابيل، والذي يرمز إلى الشعب العبري في مرحلته الرعوية، حيث تقبّل منه الرب قربانه، بينما لم يتقبل قربان المزارع قابيل القاتل الذي يرمز إلى الشعب الكنعاني المزارع، بينما ناصر المحرر التوراتي الراعي يعقوب على حساب الصياد عيسو، وقد ورث اليهود حقد العبرانيين على الشعوب الزراعية، وحطوا من شأن المنتج الزراعي، وأظهروا نقمتهم على الكنعانيين من خلال قصة نوح ولعنته لكنعان المزارع، على الرغم من أن المخطئ كان نوح نفسه الذي كان قد سكر وتعرى، وحام لم يتقصد أن يرى عورة أبيه، ولكن الغريب أن كنعان، وليس حام هو الذي حلّت عليه اللعنة دون أبناء حام الآخرين، ويبدو هذه القصة ليست سوى تسويغ العبرانيين، واليهود من بعدهم للاعتداء على الكنعانيين لأنهم ملعونون من الآباء الأوائل، والذي حسب التصور اليهودي على الرب أن يحقق لعناتهم، ومباركاتهم، وهذه المشاعر نتجت كردة فعل عن نظرة الأمم الدونية إلى الرعاة البدو والذين منهم العبرانيون، الذين كردة فعل على ذلك اعتبروا أنفسهم شعب الله المختار، وما لعنة كنعان سوى إعادة إنتاج للعنة آدم الذي أكل من الشجرة المحرمة، الأمر الذي

كشف له بصيرته، ولأنه بذلك رأى عورته فقد حلت عليه اللعنة، وطُرد من الجنة، أما في قصة الطوفان فإن نوح هو الذي قام بالمحرم من خلال شربه الخمر وتعريه في الخيمة، وقد شاءت المصادفة أن يراه ابنه حام، فحلت على ابنه كنعان اللعنة لأنه كشف المستور، أو رأى المحرم (العورة)، فآدم طرد من الجنة تحديدا لأنه رأى عورته، وكنعان لعن لأن أباه حام رأى عورة أبيه نوح، ولكن هذا التفسير الذي لا يسوغ اللعنة، جعل بعض التلموديين يعتقدون أن حام قد فعل الفاحشة بأبيه نوح وهو ثمل، وهذا هو السبب في لعنته، ولكن التوراة حاولت أن لا تصرح بهذا الفعل القبيح، والجدير ذكره أن التصور اليهودي يذهب إلى أن الإثم والخطيئة يورثها الآباء للأبناء كما جاء في سفر الخروج «أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، في الجيل الثالث والرابع من مبغضي» الخروج ٢، وفي الوقت نفسه فإن القداسة، والمباركة أيضا تورث من الآباء إلى الأبناء، فلأن سام ويافث سترا عورة نوح فقد ورث أحفادهما بركتهما النوحية، أما الحاميون، وعلى وجه التحديد، الكنعانيين فقد ورثوا هذه الخطيئة التي يجب أن يدفعوا ثمنها إلى الأبد، وكذلك الأمر بالنسبة للموآبيين والعمونيين أبناء الخطيئة (زواج المحارم)، ولذلك فالموآبيون والعمونيون فاسقون لأنهم أمهما كانتا فاسقتين.

كما أن عمليات التهويد شملت بعض التصورات والآداب السومرية، وكان الباحث الشهير كرايمر قد أكد على وجود تشابه كبير بين الآداب السومرية، وبين النصوص التوراتية، وكذلك الأمر بالنسبة لألبرايت الذي يذهب إلى {أن القصص العبرية المتعلقة بالخليقة والطوفان والجنة إما أن تكون مأخوذة من السومريين مباشرة أو مأخوذة عن طريق الأكاديين والعموريين ويتضح ذلك من التشابه الكبير والمدهش بين قصص التوراة ومدونات شعوب بلاد الرافدين}، وعلى ما أعتقد أن جزءا من التراث اليهودي كان تراثا من مصدر سومري، والسبب يعود، حسب اعتقادي، إلى أن بعض الجماعات السومرية قد دخلت في تشكيل القطيع العبري متعدد الأعراق، بل وإن العرق السومري - الأكادي كان من العروق الأساسية التي دخلت في التشكيل العبراني، إلى جانب العرق العموري.

ومن الأساطير التوراتية ذات المصدر السومري - البابلي، أسطورة الخليقة والتي تقوم على تصور تنص على أن المادة كانت قبل الإله، أو أن المادة أو الطاقة هي جزء من الإله، أي أن المادة والفكر هما وجهان لعملة واحدة (الفكر والمادة مندمجان)، أما التصور التوراتي فيذهب إلى أن الإله الأزلي هو الذي أوجد المادة (الفكر قبل المادة) والتي أضافوا إليها، ومن الأساطير التي قام اليهود بتهويدها أسطورة أنكيدو في ملحمة جلجامش التي أخذ منها المحرر التوراتي روح الأسطورة وأدخله في قصة السقوط من الجنة من خلال إغواء حواء لآدم لأكل ما حرمه

الله عليهما، وفي قصة شمشون الجبار والتي أرادت أن تقول إن المرأة التي تشكل رمزا للمعرفة هي فقط التي تستطيع أن تدجن وتضعف القوى الغريزية الفطرية للرجل، كما هودوا أسطورة دموزي الراعي وأنكميدو الفلاح والصراع بينهما، وهي التي تحدثت عن الصراع بين الفلاح والصياد، أو بين الفلاح والراعي، وصاغوا منها الخلاف بين عيسو ويعقوب، وبالطبع الأمثلة على تهويد آداب العالم القديم لا حصر لها، كما أن المحرر التوراتي قام بتهويد كامل لبعض الشخصيات الحضارية، أو تهويد جزئي للشخصيات، مثل تهويد قصة ولادة سرجون الأول (٢٣٨١ - ٢٣١٦ ق.م) وإلصاقها في قصة موسى، ومثل تهويد الملامح العامة لتاريخ الفرعون تحتمس الثالث، والفرعون أمنحوتب الثالث وألصقوها، أو نسجوا منها أجزاء من شخصيتي داود وسليمان والتي جئت على ذكرهما، وكذلك تهويد بعض الأنبياء مثل دانيال، وأيوب.

ويذهب الباحث فينكلر أبعد من ذلك، فهو يعتقد أن قصة الآباء الأوائل هي إعادة صياغة لروح الديانة الرافدية، فإبراهيم هو نفسه إله القمر الذي كان يعبد في مدينة أور، ولذا فقد قام المحرر التوراتي بمسرحة ولادته وخروجه من مدينة أور، وهو أيضا إله الجهات الأربع الذي تمثّل في قرية أربع (حبرون)، وهو أيضا إله الأيام السبعة والذي تمثّل في بئر سبع، أما يعقوب فهو ابن إله القمر في بيت إيل، وقد تزوج يعقوب بأربع نساء تمثل الفصول أو المقامات الأربع للقمر، ومنهن ولد ليعقوب اثني عشر ولدا هم شهور السنة وولد لليئة سبعة أبناء، ست ذكور وبنت فالذكور يمثلون أيام الأسبوع، والبنت وهي الأخيرة تمثل نهاية الأسبوع، وأبناء ليئة ٢٧ وهو عدد أيام الشهر البابلي الناقص، وأبناء زلفة ١٤، وأبناء بنيامين عشرة وأبناء بلهة خمسة = ٢٩ وهو عدد أيام الشهر القمري الكامل، وأبناء يعقوب الاثنان وسبعون ولدوا لخمسة نساء (تحسب زوجة يوسف عند الإحصاء لأنها أم لسبطين) مثل عدد أيام السنة (٧٢ × ٥ = ٣٦٠)، وبكوا على يعقوب سبعة أيام كما كان البابليون يبكون على الإله سن (القمر) سبعة أيام، أما يوسف فهو إله الشمس فقد هاجر إلى مصر أرض إله الشمس، وتزوج من ابنة كاهن الشمس، وليوسف ابنان يمثلان فصلي الصيف والخريف، أما بالنسبة لموسى فقد بكى عليه أتباعه ثلاثين يوما بعد موته، كما كان أبناء الرافدين يبكون على تموز ٣٠ يوماً، وقد تاه موسى في سيناء لمدة أربعين سنة، وكان جلجامش قد جال أربعين سنة أيضا في الصحراء ليجد الحياة لصديقه أنكيدوا، والأمثلة على ذلك كثيرة وتحتاج إلى الغوص في الخرافة وعلم التنجيم البابلي الذي يعتمد على الأرقام الفلكية لكشف المحاكاة بين التوراة وعلم التنجيم البابلي، وفي هذا السياق يقول يتسن نقلا عن يرمياس {إن كل روايات العهد القديم ليست سوى نسخ مختلفة ومتغيرة لأساطير الملحمة البابلية، وإن كل أبطال

التاريخ العبري القديم لم يوجدوا ولم يخلقوا، بل هم نتاج الميثولوجيا وهم أبطالها بأساليب مختلفة، حيث تختلف هذه عن تلك على أساس السبط والمكان}.

أما بالنسبة للتراث المصري، فقد ذَكرتُ الكثير من القصص والشخصيات التوراتية التي تم تهويدها في غير مكان، أذكر منها قصة وردت في الأدب المصري يعود تدوينها إلى سنة ١٥٥٠ ق.م، تحاكي بشكل ما أسطورة عبور البحر التوراتية، وهي تروي قصة تعود إلى الفرعون سنفيرو الذي عانى في أحد المرات من حالة اكتئاب لم ينفع معها علاج، ولكن الكاهن المصري، في محاولة منه لعلاج الفرعون، طلب من الفرعون أن يخرج برحلة بحرية، ودعا عشرين فتاة من الفيداوات اللواتي يجدن الغناء أن يرافقن الفرعون في رحلته، وأثناء تجديفهن وقع مشبك إحداهن في الماء فحزنت لذلك، فطلب الفرعون من الكاهن أن يجد حلا لذلك، فوقف الكاهن وتلفظ ببعض الكلمات ذات التأثير السحري فانشق الماء إلى نصفين، وبذلك تم التقاط المشبك، ثم عاد الكاهن وتلفظ ببعض الكلمات فعادت المياه إلى ما كانت عليه.

تهويد المكان:

إن الأساطير، والقصص الدينية بشكل عام، تعتمد على فضاء مثيولوجي زمكاني مطلق تُمَسْرح عليه سردها الدرامي، ولا تعتمد على جغرافيا محددة في بناء الفضاء المكاني للسرد الدرامي، على عكس ما قام به محررو التوراة، الذين وظفوا النص الديني كوثيقة من أجل إثبات ادعاءاتهم التاريخية، ولذا فقد مسرحوا الأساطير التي قاموا بتهويدها على مكان جغرافي محدد، كي يثبتوا ادعاءاتهم بحقهم التاريخي في بلاد كنعان، وهنا أيضا اصطدم محررو التوراة بعدة إشكاليات لم يتغلبوا عليها بشكل جيد، فقاموا بتركيب قصص مزيفة وساذجة، وأدخلوها في الفضاء المثيولوجي للأساطير المهودة التي قاموا بإعادة إنتاجها بما يتلاءم مع تأريخها (جعلها واقعا)، ولكن المحرر التوراتي لم يستطع أن يقوم بتمويهها، وصياغتها بحبكة جديرة بالإقناع بأصالتها ومصداقيتها وواقعيتها، لتسويغ تسمية مواقع جغرافية هي موجودة أصلا بتسميتها، لإثبات أنهم قاموا بالدخول على جغرافيا بكر، وبذلك حاولوا أن يطمسوا التاريخ الحقيقي، وأن يلغوا أصحابه الحقيقيين ذوي الهوية الوطنية، وحاولوا تصويرهم كما لو أنهم كانوا جاليات متعددة، عابرة، وعارضة على المكان، مثل الحثيين، والحويين، والفلستيين، أما الكنعانيون فقد فتتوا وحدتهم الوطنية من خلال نسبتهم إلى مدنهم، وبذلك تحولوا إلى جماعات صغيرة متفرقة تسكن مدن صغيرة، مثل اليبوسيين، والجبعونيين، وبذلك لا يوجد إنسان وطني في بلاد كنعان عند دخول الجماعات العبرية إليها

لتأسيس أو تحقيق الوعد الإلهي، وهذا ينفي عن العبرانيين صفة الاغتصاب، أو الاحتلال، وأن كل ما قاموا به في مرحلة يشوع هو إبادة، أو طرد مجموعة من جاليات ليس لها حق المواطنة في البلاد التي كان قد أخذت تسمياتها، وبالتالي تاريخها، من على ألسنة الآباء الأوائل، ومن المؤكد أن الجاليات العابرة لا تستطيع أن تشكل تاريخا للمنطقة، وبذلك لا يوجد تاريخ لبلاد كنعان قبل دخول العبريين إليها بقيادة يشوع والذي انتهى بتشكيل المملكة معلنة بدء التاريخ، أما ما قبل ذلك فلا يعدو ما يمكن وصفه بمرحلة باهتة يمكن تسميتها بمرحلة ما قبل التاريخ والتي يمكن إيجازها بسطر في كتاب التاريخ.

وكنا قد ذكرنا الأخطاء، والارتباكات التوراتية في تهويد المواقع الكنعانية لا سيما في سفر التكوين الذي أرخ لمرحلة الآباء الأوائل الذين شكلوا المرجع العاطفي اليهودي، كما كان عليه الأمر في تهويد بيت إيل، وبئر سبع، وصوغر، وسواها، وقد استدعت الأخطاء المكانية التوراتية إلى استبعاد بلاد كنعان كفضاء للتأريخ اليهودي من قبل بعض الباحثين، الذين تبنوا افتراضات تعيد المكان الذي تمسرحت عليه الأحداث التوراتية إلى شبه الجزيرة العربية.

تهويد الزمان:

وكما هو الحال بالنسبة للمكان، أيضا كان الأمر بالنسبة للزمان، فبينما الزمان الأسطوري هو زمان ميثيولوجي له ساعته الخاصة به، أراد اليهود أن يحولوه إلى زمان تاريخي، ولكن تهويد الزمان كان الأكثر فشلا بالنسبة للتوراة بحيث جعلوا بعض الأشخاص يعيشون قرابة الألف عام لتغطية مراحل تاريخية مجهولة، كما أنهم أعادوا وجود آدم على الأرض إلى سبعة، أو ستة آلاف عام قبل التاريخ الحالي ليس أكثر، كما أنهم جعلوا إبراهيم، ونوحاً يتعاصران لمدة ٥٨ عاما.

تهويد القوانين والشرائع:

وهو من الأعمال السهلة التي لم يواجه فيها المحرر التوراتي الكثير من العناء، فالشرائع بشكل عام كنصوص ليس فيها تماسك كبير بين فقراتها، ويمكن إضافة وحذف أي بند في الشرائع بما يتلاءم مع الأعراف والتقاليد اليهودية التي انفرزت في سياق تجربتهم التاريخية، فكان من السهل عليهم مثلا تهويد شريعة حمورابي إلى شريعة موسى مع بعض التعديلات التي توائم العقيدة اليهودية.

تهويد الأناشيد والأشعار والحِكم والمراثي:

كذلك كان من الأشياء السهلة التي لم يجهد المحرر التوراتي في تهويدها هي الأشعار الدينية للحضارات المختلفة، لا سيما وأن هذه الأشعار مختصة بكل إله على حدة، وبذلك فإن تهويدها لا يحتاج إلا إلى تبديل اسم الإله، وتغيير بسيط بين اختصاص الإله المعين، وعمومية الرب (يَهْوَه)، وبذلك هودوا المزامير والأمثال والأناشيد ولا سيما تلك التي كانت تتلى في معابد بعل وعشتار (نشيد الأناشيد) دون جهد يذكر، وكانت أكثر الأناشيد التي هودوها تعود إلى الأدب الديني الفينيقي الأوغاريتي، ومن الأناشيد التي كانت تتلى في المعابد المصرية للإله أتون الذي عبده الفرعون أمنحوتب الرابع (إخناتون)، والتي كانوا قد اطلعوا عليها أثناء وجودهم في مصر، وكان من أسهل عمليات التهويد التي قاموا بها بسبب التشابه بين الديانتين الإخناتونية واليهوية التفريديتيين، أما بالنسبة لسفر أيوب فما كان منهم سوى قراءته تحريريا ليس أكثر.

تهويد اللغة:

في البداية لنا أن نفترض أن الآباء الأوائل الذين جاء ذكرهم في التوراة كانوا يتحدثون اللغة الآرامية، لا سيما وأن إبراهيم كان قد خرج من أور الكلدانيين وهي الإمارة التي كانت قد استقلت عن الحكم البابلي، وكانت هذه الإمارة عبارة عن مزيج من بقايا السومريين والأكاديين سكان المدينة الأصليين، وبعض العموريين، وأخيرا من الآراميين الذي كانوا آخر من استوطن في هذه المدينة، ولأن، كما هو معروف، الثقافة الآرامية لها جاذبية خاصة، وهي التي لها إمكانات على أن تنتشر مباشرة في أي منطقة تصل إليها، فلنا أن نفترض أن لغة الآباء الأوائل كانت هي اللغة الآرامية، وقد حافظ الآباء الأوائل على هذه اللغة، والثقافة الآرامية حتى دخلوا في عصر يوسف إلى مصر، وهناك، ربما أنهم تخلوا عنها جزئيا لأنهم كانوا أقلية صغيرة دون سبعين شخصا، إلا إذا افترضنا أنهم كانوا أكثر من ذلك بكثير، ومن المؤكد أنهم لن يستطيعوا أن يحافظوا على كامل مكوناتها لمدة خمسة قرون تقريبا، على الرغم من عزلتهم النسبية في منطقة جاسان، وهنا يمكن أن نعتقد أن القبائل العبرانية التي دخلت بثقافتها الآرامية، تأثرت بدرجة أو بأخرى بالثقافة واللغة المصرية، ومن المعتقد أنهم كانوا يتعاملون في محيطهم باللغة والثقافة المصرية، أما فيما بينهم فكانوا يتعاملون بثقافتهم الآرامية، كما لنا أن نفترض أن الرب (يَهْوَه) قد تحدث معهم بالمصرية، أو بالسينائية، وكتب وصاياه العشر بالهيروغليفية، أو بالسينائية، ولكن بعد دخولهم إلى بلاد كنعان، ومع مرور

الأيام، فقد تكنعنوا جزئيا، لا سيما وأن الثقافتين الكنعانية، والآرامية ذات مصدر واحد، وبما أن الحرف الكنعاني كان أكثر تطورا من الحرف الآرامي، فمن المعتقد أن يشوع قد كتب شريعة موسى، بالحرف الكنعاني على النصب الحجري الذي أقاموه بعد دخوله أرض كنعان كما ذكرت التوراة، وعاد العبرانيون شأنهم شأن شعوب المنطقة في سياق الألف الأولى قبل الميلاد لاعتناق الثقافة واللغة الآرامية الجديدة، ومن ثم اللغة العبرية (اللغة المقدسة) كتفرع أو اشتقاق من اللغة الآرامية، وكانت اللغة الآرامية قد انقسمت إلى عدة لهجات:

اللهجة الغربية وهي تمثل آرامية التوراة والإنجيل والترجوم ولهجات حماة وتدمر والأنباط.

أما الشرقية فتمثل لغة منطقة الرافدين والمندائية والسريانية ولهجة الحضر، أما الكتابة الآرامية فقد اشتقت من الأبجدية الكنعانية، حالها حال كل الأبجديات في العالم، كما انتشر استعمال الحروف الهجائية الآرامية والتي كتبت بها بعض الأسفار التوراتية، والتي حورت قليلا بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد وكتبت بالحرف الآرامي المربع الذي دعي بالحرف العبري المربع، ومن المتوقع أن الصيغ الأولى في التوراة كتبت بهذا الحرف، وكانت أولى المخطوطات التي يمكن أن تنسب إلى العبرية هي المسكوكات النقدية التي اكتشفت في فلسطين، والتي تعود إلى ما بين عامي ١٣٥ قبل الميلاد، و١٣٥ بعد الميلاد، والتي ترافقت مع مسكوكات يهودية كتب عليها بالآرامية وبالذات في العهد الميكابي، ويعتبر أقدم مخطوط كتب بالعبرية هو سفر أشعيا الذي أكتشف شمال البحر الميت، وكان اليهود قد حصروا الكتابة برجال الدين الذين كانوا يدوّنون فيها أسرارهم، ومراسلاتهم، ونصوصهم الدينية.

تهويد الأسماء:

وهو من الإشكاليات المهمة التي اعترضت المحررين، لا سيما وأن أكثر الأسماء هي في الأصل ألقاب ذات مدلولات مرتبطة مع دلالاتها، وهي تشكل جزءاً من المبنى والمعنى في النص، ولا يمكن الفصل بينهما، وبذلك فللوصول إلى المعنى الكامل في الأسطورة يجب أن يتم تهويد مبنى ومعنى الأسماء، وهو الأمر الذي سيصطدم بالفارق بين لغة النص، وبين اللغة العبرية، فمثلاً، إن اسم إسرائيل لو حاولنا تعريبه يعني: عبد الله (أسير إيل = عبد الإله إيل، أي عبد الله كما يعتقد أحمد سوسة، أو ييسر الله كما يعتقد جورجي كنعان، أما أنا فأعتقد أنه يعني إسراء إيل، وبعيدا عن كل هذه الافتراضات فقد أخذ محررو التوراة هذا

الاسم بدلالته المتعلقة باللغة التي أخذت منه، ولم يعرف المحررون كيف يقومون بتهويد هذا الاسم بالطريقة الصحيحة، وساقوا له معنى غير واضح، ولا يدخل بشكل أصلي ضمن نسيج اللغة (العبرية)، بحيث أصبح معناه (الذي جاهد مع الله والناس)، وتم اختراع قصة صراع يعقوب مع الرب ومن خلالها سوغت تلقيب يعقوب بـ إسرائيل، كما تم سوق رواية ثانية كانت أكثر فشلا من الرواية الأولى في تسويغ إطلاق هذا اللقب، وبدت بعض القصص ملصقة أو مرقعة بشكل واضح وجلي، ولأن القيادات اليهودية أرادت أن تعيد اليهود إلى شخصيات لها قدسيتها لدى الشعوب جميعا، ومعروفة عن ظهر قلب، وهذا ما جعل المهوِّدين مضطرين إلى أن يحافظوا على الأسماء كما هي، ولم يستطيعوا تهويدها، وبذلك فإن إسماعيل (إسمع - إيل) وغيره من الأسماء والتي تتضمن اسم الإله الذي كان فيه الأشخاص الحقيقيون يحملون ضمن اسمائهم اسم إلههم فلم يستطيعوا تهويده وبقي لذلك إسماعيل كما هو ولم يتهود إلى اسمع (يَهْوَه) أو يهواسمع مثلا، وهذا يشابه عملية تهويد بابل الذي جعلوه يشتق من كلمة بلبل، بينما هو مشتق من كلمتي (باب) و (إيل)، وكذلك الأمر بالنسبة لاسم موسى الذي يعتقد أنه اسم مصري، ويحمل معنى، أو دلالة خلاصية، كما هو الأمر أيضا مع يشوع، وقد دخلت هذه الأسماء في اللغة العبرية دون أن يتم تهويدها بشكل مقنع، وقد ناقشت دلالات بعض أسماء الرموز التوراتية في فصول سابقة.

لقد تحدث الكثير من النقاد أن أكثر شخصيات التوراة ما هي إلا أشباح قام باختلاقها خيال أو إبداع حر، أما أنا فأرى أن تلك الشخصيات مهما كانت خيالية فلا بد من وجود نواة، أو نوية تاريخية لتلك الشخصيات الرمزية، وأن هذه الأشباح هي ظلال لشخصيات حقيقية ذات أجساد من لحم ودم، فداود (المحبوب أو الحبيب) ليس مجرد شخصية خيالية أو خرافية، بل هو، حسب اعتقادي، شخصية واقعية تمت أسطرتها، وزخرفتها، وإلباسها بعض ألبسة شخصيات أخرى، كما هو الأمر أيضا بالنسبة لسليمان (رجل السلام)، وشخصية يشوع (المخلص) والتي أعتقد أنها شخصية حقيقية، عاشت في زمن سابق لتسويقها أو تزمينها التوراتي (وربما كان يشوع أحد قادة الجماعات العبرية التي أقلقت الوجود الكنعاني في مرحلة تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، وقد تمت استعارتها، من زمان آخر، أي أن المحرر التوراتي قام بإزاحتها زمانيا، وهودها في النسيج الداخلي لأسطورة الدخول العبراني، وقام بمنحها صفات وأعمال هي ليست لها، وأهم هذه الأعمال هي تدمير مدينة أريحا المفاجئ على يدي الزلزال (كما يعتقد علماء الآثار)، وكذلك أعمال الجفاف الميسيني (نسبة إلى مدينة مسينيا اليونانية)، كما تم إدخال بعض التعديلات عليها بما يتلاءم والموضع الزمني الذي يجب أن تشغلها في الرواية الجديدة.

كما أن المحرر التوراتي كان يقوم بإدراج شخصيات ضمن شخصيات أخرى، وإلى هذا النهج يعود تغير أسماء الأشخاص والأماكن (ذوو الأصول الحضارية الأخرى) وإعطائهم أسماء جديدة ذات معنى تعود إلى اللغة المحرر بها، وأهم مثال على هذا هو تحول اسم يعقوب إلى إسرائيل، على الرغم من أنهما شخصيتان مختلفتان وتعودان إلى مصدرين ثقافيين مختلفين، وقد أوردنا سابقا كيف أن المحرر أتى براويتين مختلفتين لتغير اسم يعقوب إلى إسرائيل، والأمثلة على ذلك كثيرة سنأتي على بعضها:

«وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم في العجلات التي أرسل فرعون لحمله» تكوين.

وهذه الجملة تشير إلى أن يعقوب هو شخص ينتمي إلى بني إسرائيل، وأن إسرائيل ليس هو يعقوب.

وقد ورد على لسان يعقوب في سفر التكوين ٤٩: ٥ «شمعون ولاوي أخوان... أُقسِّمهما في يعقوب وأُفرّقهما في إسرائيل»، ونحن نعرف أن نصيب سبط اللاويين كان موزعا على الأسباط جميعا، أما نصيب سبط شمعون فكان ضمن نصيب يهوذا حين تم تقسيم بلاد كنعان بين الأسباط ضمن اتفاقية (يَهْوَه - موسى)، كما أنهما - حسب سفر التكوين - أشقاء من أبناء ليئة.

وجاء أيضا من حديث (يَهْوَه) لموسى في صحراء سيناء «حيث أجتمع بكم لأكلمك هناك. وأجتمع هناك ببني إسرائيل فيقدس بمجدي.. وأسكن في وسط بني إسرائيل وأكون لهم إلها» خروج ٢٩: ٤٣، وجاء على لسان النبي الآرامي بلعام الذي استأجره الموآبيون ليتنبأ لهم في حربهم أو صراعهم مع القبائل العبرية «من آرام أتى بي بالاق ملك موآب من جبال المشرق. تعال العن لي يعقوب وهلمّ اشتم إسرائيل. كيف ألعن من لم يلعنه الله وكيف أشتم من لم يشتمه الرب.. من أحصى تراب يعقوب وربع إسرائيل بعدد»، ويتابع حديثه «إنه ليس عيافة على يعقوب ولا عرافة على إسرائيل. في الوقت يقال عن يعقوب وعن إسرائيل ما فعل الله.»، ويتابع «ما أحسن خيامك يا يعقوب. مساكنك يا إسرائيل» عدد ٢٤.

ويتحدث موسى عن اللاويين قائلا «يعلّمون يعقوب أحكامك وإسرائيل ناموسك»، ويتابع حديثه في نفس الإصحاح «فطرد من قدامك العدو وقال أَهلِكْ. فيسكن إسرائيل آمنا وحده. تكون عين يعقوب إلى أرض حنطة وخمر وسماؤه تقطر ندى» تثنية ٣٣.

وحين نقل داود تابوت العهد من بيت عوبيد أدوم إلى خيمته في حصن داود فترنم قائلا: «اطلبوا الرب وعزه.. يا ذرية إسرائيل عَبْدِهِ وبني يعقوب مختاريه.. اذكروا إلى الأبد عهده.. وقد أقامه ليعقوب فريضة ولإسرائيل عهدا أبديا» أخبار الأيام الأول ١٦.

وقد جاء في المزمور ١٥٠ «يا ذرية إبراهيم عبده يا بني يعقوب مختاريه. هو الرب إلهنا في كل الأرض أحكامه. ذكر إلى الدهر عهده كلاما أوصى به إلى ألف دور الذي عاهد به إبراهيم وقسَمه لإسحق فثبته ليعقوب فريضة ولإسرائيل عهدا أبديا قائلا لك أعطي أرض كنعان حَبْلَ ميراثكم إذ كانوا عددا يحصى قليلين وغرباء فيها. ذهبوا من أمة إلى أمة من مملكة إلى شعب آخر. فلم يدع إنسانا يظلمهم.. فجاء إسرائيل إلى مصر ويعقوب تغرب في أرض حام.. أرسل موسى عبده وهرون الذي اختاره».

وقد جاء أيضا في أسفار الأنبياء المتأخرين، وعلى الأخص في سفر إشعيا «أرسل الرب قولا في يعقوب فوقع في إسرائيل فيعرف الشعبُ كلُه أفرايم وسكانُ السامرة القائلون بكبرياء وبعظمة قلب».

«ويكون في ذلك اليوم أن بقية إسرائيل والناجين من بيت يعقوب لا يعودون يتوكلون أيضا على ضاربهم بل يتوكلون على الرب».

«لأن الرب سيرحم يعقوب ويختار أيضا إسرائيل ويريحهم في أرضهم فتقترن بهم الغرباء وينضمون إلى بيت يعقوب ويمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيدا وإماء ويسبون الذين سبوهم ويتسلطون على ظالميهم».

«وأما أنت يا إسرائيل عبدي. يا يعقوب الذي أخترته نسل إبراهيم خليلي».

«والآن اسمع يا يعقوب عبدي وإسرائيل الذي اخترته.. لا تخف يا عبدي يعقوب ويا يشورون الذي اخترته».

«لأجل يعقوب عبدي وإسرائيل مختاري دعوتك باسمك. لقبتك وأنت لست تعرفني».

«اسمعوا لي يا بيت يعقوب وكل بقية إسرائيل».

«والآن قال الرب جابلي من البطن عبدا له لإرجاع يعقوب إليه فينضم إليه إسرائيل فأتمجد في عيني الرب وإلهي يصير قوتي. فقال قليل أن تكون لي عبدا لإقامة أسباط يعقوب ورد محفوظي إسرائيل».

«أخرج من يعقوب نسلا ومن يهوذا وارثا لجبالي فيرثها مختاري وتسكن عبيدي هناك. فيكون شارون مرعى غنم ووادي عخور مربض بقر لشعبي الذين طلبوني» إشعيا.

«يوم اخترت إسرائيل ورفعت يدي لنسل بيت يعقوب وعرفتهم نفسي في أرض مصر ورفعت لهم يدي قائلا أنا الرب إلهكم».

«هرب يعقوب إلى صحراء أرام وخدم إسرائيل لأجل امرأة ولأجل امرأة رعى» هوشع.

«ثم صارت كلمة الرب إلى إرميا قائلة أما ترى ما تكلم به هذا الشعب قائلا إن العشيرتين اللتين اختارهما الرب قد رفضهما. فقد احتقروا شعبي حتى لا يكونوا بعد أمة أمامهم. هكذا قال الرب إن كنت لم أجعل عهدي مع النهار والليل فرائض السموات والأرض. فإني أرفض نسل يعقوب وداود عبدي فلا آخذ من نسله حكاما لنسل إبراهيم وإسحق ويعقوب لأني أرد سبيهم وأرحمهم» إرميا.

«وكان يهوذا وإسرائيل كثيرين كالرمل الذي على البحر في الكثرة.. سكن يهوذا وإسرائيل آمنين» ملوك أول ٤

«فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم» ملوك أول ١٢

«في تلك الأيام يذهب بيت يهوذا مع بيت إسرائيل ويأتيا معا» أشعيا ٦٥

«ها أيام تأتي.. وأقيم لداود غصنا.. يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمنا» إرميا ٢٣

«أما زكريا فقد بح صوته وهو ينادي الشتات: يا بيت يهوذا ويا بيت إسرائيل» زكريا ٨

«عند خروج إسرائيل من مصر، وبيت يعقوب من شعب أعجم. كان يهوذا في مقدسه وإسرائيل في محل سلطانه» مزامير ١١٤.

«في المستقبل يتأصل يعقوب. يزهر ويفرع إسرائيل» إشعيا ٢٧.

«لا تخف يا عبدي يعقوب ويا يشورون الذي اخترته» إشعيا.

وقد جاء في سفر حزقيال «وكان إلي كلام الرب قائلا. يا ابن آدم كانت امرأتان ابنتا أم واحدة. زنتا بمصر. في صباهما زنتا.. واسمهما أهولة الكبيرة وأهوليبة أختها وكانتا لي وولدتا بنين وبنات. واسمهما السامرة أهولة وأورشليم أهوليبة» حزقيال ٢٣.

ومن هذه الأمثلة الكثيرة جدا التي أوردتها، وهي وإن تورد اسمي يعقوب، وإسرائيل بالتبادل فيما بينهما كصيغ أدبية شعرية، فإنها تضمر داخلها أن يعقوب كان يمثل الجماعة الأهم ضمن الإيلاف الإسرائيلي الذي يضم جماعات عبرانية كثيرة، واليعاقبة هم الذين عادوا وتكوثروا على أنفسهم وشكلوا مملكة يهوذا، ثم أطلق عليهم في مرحلة لاحقة يهود.

كما يمكن أن نستقرئ أن الرب الذي يعبده بنو إسرائيل ككل، قد اختار واصطفى منهم أبناء يعقوب ليكونوا أكثر قربا منه، وهو ما يتلاءم والنسق العام والجمل التي تأتي على ذكر إسرائيل ويعقوب.

وقد جاء في سفر التكوين أن يعقوب تزوج من امرأتين أختين هما ليئة وراحيل وجاريتهما بلهة جارية راحيل، وزلفة جارية ليئة وكان أبناؤه كالتالي:

ليئة ولدت له	رآوبين - شمعون - لاوي - يهوذا ثم بعد مرحلة ولدت له أيضاً يساكر وزوبولون
بلهة (خادمة راحيل) ولدت	دان - نفتالي
زلفة (خادمة راحيل) ولدت	جاد - آشير
ليئة ولدت له	جاد - أشير
راحيل ولدت له	يوسف - بنيامين

وقد جاء في سفر الخروج تفصيل بسيط لشجرة عائلة بني رآوبين، وشمعون، وبني لاوي، فقط، مع تفصيل لبني لاوي، ولم يأت على ذكر شجرة العائلة لباقي الأسباط.

وقد اعتبرت التوراة أن ابني يوسف يمثلان، أو يعتبران سبطين هما سبط منسّى، وسبط أفرايم الذي كان نصيبه في جبل إسرائيل، أما سبط منسّى فقد انقسم إلى قسمين هما سبط الجلعاديين وكان نصيبهم في شرقي الأردن (في منطقة جلعاد)، وسبط الماكيرين وكان نصيبهم في جبل يهوذا، كما أن نصيب شمعون كان ضمن نصيب يهوذا.

وجاء في سفر التكوين في خطبة وداع يعقوب لبنيه:

«ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام. اجتمعوا واسمعوا يا بني يعقوب. وأصغوا إلى إسرائيل أبوكم.

رآوبين أنت بكري قوتي وأول قدرتي فضل الرفعة وفضل العز. فائرا كالماء لا تتفضل. لأنك صعدت على مضجع أبيك. حينئذ دنسته. على فراشي صعد.

شمعون ولاوي أخوان. آلات ظلم سيوفهما. في مجلسهما لا تدخل نفسي. بمجمعهما لا تتحد كرامتي. لأنهما في غضبهما قتلا إنسانا وفي رضاهما عرقبا ثورا. ملعون غضبهما فإنه شديد وسخطهما فإنه قاس. أقسمهما في يعقوب وأفرقهما في إسرائيل.

يهوذا إياك يحمد أخوتك. يدك على قفا أعدائك. يسجد لك بنو أبيك. يهوذا جرو أسد. من فريسة صعدت يا ابني. جثا وربض كأسد وكلبوة. من ينهضه. لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب. رابطا بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن أتانه غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه. مسود العينين من الخمر ومبيض الأسنان من اللبن.

زوبولون عند ساحل البحر يسكن وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون.

يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر. فرأى المحل أنه حسن والأرض أنها نزهة. فأحنى كتفه للحمل وصار للجزية عبدا.

دان يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل. يكون دان حية على الطريق أفعوانا على السبيل يلسع عقبي الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء. لخلاصك انتظرت يا رب.

جاد يزحمه جيش. ولكنه يزحم مؤخره.

أشير خبزه سمين وهو يعطي لذات ملوك.

نفتالي أيلة مسيبة يعطي أقوالا حسنة.

يوسف غصن شجرة مثمرة غصن شجرة مثمرة على عين. أغصان قد ارتفعت فوق حائط. فمررته ورمته واضطهدته أرباب السهام. ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه. من يدي عزيز يعقوب من هناك من الراعي صخر إسرائيل من إله أبيك الذي يعينك ومن القادر على كل شيء الذي يباركك تأتي بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت. بركات الثديين والرحم. بركات أبيك فاقت على بركات أبويّ. إلى منية الآكام الدهرية تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير أخوته.

بنيامين ذئب يفترس. في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهبا.» تكوين ٥٠.

وهذا الخطاب الذي تدخّل المحرر كثيرا في تنسيقه، وتحريره من أكثر من مصدر، وكل مصدر حمّل هذا الوداع على محامبل خطابية تختلف عن محامبل المصادر الأخرى لنفس النص الأصلي، وفي النهاية أخرجه المحرر بشكل مفكك بحيث أن الخطاب أتى حينا بصيغة المخاطب لرآوبين ويهوذا والباقي تحدث عنهم بصيغة الغائب، أما الفعل فكان بصيغة المضارع حينا والماضي حينا والحاضر حينا آخر، وبصيغة المخاطب حينا والغائب حينا.

أما في آخر سفر التثنية فقد جاء على لسان موسى في أواخر أيامه بعد أن أوصل جماعته إلى نهر الأردن «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته فقال. جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم.

فأحب الشعب.

جميع قديسيه في يدك وهم جالسون عند قدميك يتقبلون من أقوالك.

بناموس أوصانا موسى ميراثا لجماعة يعقوب.

وكان يشورون ملكا حين اجتمع رؤساء الشعب أسباط إسرائيل معا.

ليحيى رآوبين ولا يمت ولا يكن رجاله قليلين.

وهذه عن يهوذا. قال اسمع يا رب صوت يهوذا وَأْتِ به إلى قومه. بيديه يقاتل لنفسه فكن عونا على أضداده.

وللاوي قال. تميمك وأوريمك لرجلك الصديق الذي جربته في مسه وخاصمته عند ماء مريبة. الذي قال عن أبيه وأمه لم أرهما وبأخوته لم يعترف وأولاده لم يعرف بل حفظوا كلامك وصانوا عهدك. يعلمون يعقوب أحكامك وإسرائيل ناموسك. يضعون بخورا في أنفك ومحرقات على مذبحك. بارك يا رب قوته وارتض بعمل يديه. احطم متون مقاوميه ومبغضيه حتى لا يقوموا.

ولبنيامين قال. حبيب الرب يسكن لديه آمنا. يستره طول النهار وبين منكبيه يسكن.

وليوسف قال. مباركة من الرب أرضه بنفائس السماء بالندى وباللجة الرابضة تحت ونفائس مغلات الشمس ونفائس منبتات الأقمار. ومن مفاخر الجبال القديمة ومن نفائس الإكام الأبدية ومن نفائس الأرض وملئها ورضى الساكن في العليقة. فلتأت على رأس يوسف وعلى نذير قمة أخوته. هما ربوات أفرايم وألوف منسى.

ولزوبولون قال. افرح يا زوبولون بخروجك

وأنت يا يساكر بخيامك. إلى الجبل يدعوان القبائل. هناك يذبحان ذبائح البر لأنهما يرتضعان من فيض البحار وذخائر مطمورة في الرمل.

ولجاد قال. مبارك الذي وسع جاد. كلبوة سكن وافترس الذراع مع قمة الرأس. ورأى الأول لنفسه لأنه هناك قسم من الشارع محفوظا فأتى رأسا للشعب يعمل حق الرب وأحكامه مع إسرائيل.

ولدان قال. دان شبل أسد يثب من باشان.

ولنفتالي قال. يا نفتالي اشبع رضى وامتلئ بركة من الرب واملك الغرب والجنوب.

ولأشير قال. مبارك من البنين أشير. ليكن مقبولا من أخوته ويغمس في الزيت رجله. حديد ونحاس مزاليجك وكأيامك راحتك.

ليس مثل الله يا يشورون. يركب السماء في معونتك والغمام في عظمته. الإله القديم ملجأ الأذرع الأبدية من تحت. فطرد من قدامك العدو وقال أهلك. فيسكن إسرائيل آمنا وحده. تكون عين يعقوب إلى أرض حنطة وخمر وسماؤه تقطر ندى. طوباك يا إسرائيل. من مثلك يا شعبا منصورا بالرب ترس عونك وسيف عظمتك. فيتذلل لك أعداؤك وأنت تطأ مرتفعاتهم» تثنية ٣٣.

«وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبو إلى أرض الفسيحة الذي قبالة أريحا فأراه الرب الأرض من جلعاد إلى دان وجميع نفتالي وأرض أفرايم ومنسى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر وقال له الرب هذه الأرض

التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها قد أريتك أياها بعينيك ولكن إلى هنا لا تعبر» تثنية ٣٤.

لنُعِد قراءة هذا النص الذي تدخل فيه المحرر كثيرا محاولا إخفاء مجموعة من المقولات:

إن هذا النص المفكك يظهر أنه حين قدم موسى مع جماعته واجتمع وبرفقته وجهاء جماعته ببني إسرائيل المتواجدين سابقا في بلاد كنعان وكان يحكمهم الملك يشورون (وكان حديثه موجها إلى الملك يشورون بحضور رعيته بني إسرائيل) لكي يتقبلوا وجود جماعة موسى العبرية، والذين هم جزء من بني إسرائيل المتواجدين أصلا في بلاد كنعان، وحدَّثهم موسى عن رحلته مع جماعته أبناء يعقوب «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم - الجماعة العبرية الموسوية - من سعير.

فأحبَّ الشعبَ {بني إسرائيل}

وتابع موسى حديثه مخاطبا بني إسرائيل وملكهم يشورون، {وهاهو} بجميع قديسيه في يدك {الكاف تعود إلى الملك يشورون} وهم جالسون عند قدمكِ يتقبلون من أقوالكَ.

فرد عليهم: بناموس أوصانا موسى ميراثا لجماعة يعقوب {وهنا يتضح أن جماعة موسى هم أبناء يعقوب والذي هو أصلا من منطقة إسرائيل أو أنه أحد أحفاد إسرائيل، أو أحد أسباط إسرائيل}

وأتت الجملة التي تليها بشكل يوضح ما أتينا عليه:

وكان يشورون ملكا حين اجتمع رؤساء الشعب أسباط إسرائيل معا {بعد أن انضم إليهم القادم من البعيد سبط يعقوب}

فبارك الجميع قدوم بني يعقوب، ورحبوا بهم ودعوهم للدخول من شرقي الأردن إلى بلاد كنعان، ولكنهم أعطوهم أرضا أقل خصبا منهم، وبالذات أرض الجنوب (وهم الذين كانوا تحت سيادة سبط يهوذا بن يعقوب)، وهذا يتقاطع مع ما جاء في المزامير «عند خروج إسرائيل من مصر، وبيت يعقوب من شعب أعجم. كان يهوذا في مقدسه وإسرائيل في محل سلطانه» مزامير ١١٤.

وقد جاء في دائرة المعارف الكتابية {يشورون: وهو اسم شعري لإسرائيل، والأرجح أنه مشتق من أصل عبري معناه مستقيم، وإن كان كثيرون من المفسرين يرون أنه اسم التدليل لإسرائيل، وفي الترجمة السبعينية، تترجم هذه الكلمة ليس على أنها اسم علم، بل باعتبارها صفة بمعنى المحبوب أو الحبيب.

ويقول الرب: فسمن يشورون ورفس. سمنت وغلظت واكتسيت شحماً، فرفض الإله الذي عمله، وغبي عن صخرة خلاصة (تثنية ٣٢: ١٥) وهو توبيخ لإسرائيل لابتعادهم عن الرب وفشلهم في إتمام مقاصد الله من جهتهم، ويقول الرب على لسان إشعياء النبي: «والآن اسمع يا يعقوب عبدي وإسرائيل الذي اخترته.. لا تخف ياعبدي يعقوب ويا يشورون الذي اخترته» إشعيا ٤٤: ٢، وهكذا يجمع بين هذا الاسم والاختيار. ويذكر موسى الشعب بأن الرب (كان في يشورون ملكاً).}.

وما يؤكد على أن بعض القبائل العبرية كانت منتشرة في المنطقة قبيل قدوم قوم موسى إلى المنطقة القصة التي أتت في سفر العدد والتي تقول إن رجلا من قوم موسى قد تزوّج من امرأة مديانية، فقتلهما فينحاس بن أليعازر بن هارون لأنه ممنوع على الإسرائيليين الزواج من غير الإسرائيليات «وكان اسم الرجل الإسرائيلي الذي قُتل مع المديانية زمري بن سالو رئيس بيت أب من الشمعونيين. واسم المرأة المديانية المقتولة كزبي بنت صور. هو رئيس قبائل بيت أب في مديان» عدد ٢٥، وهذا يدل على أن بعض الجماعات من سبط آب كانت جزءا من جماعة موسى، وجماعات أخرى كانت منتشرة في مديان، وكانت جزءا من المديانيين، وقد أعاد المحرر سبط آب إلى سبط شمعون من أجل أن يؤكد أن الأسباط هم فقط الاثني عشر الذي أتى على ذكرهم، والأسباط مجموعة كبيرة من القبائل والبطون والأفخاذ، ولكن المحرر التوراتي قام بعدة عمليات دمج وتفريق حتى يصل العدد إلى اثني عشر وهو الرقم المقدس عند اليهود وسواهم من شعوب الشرق الأدنى، كما هو الرقم سبعة والرقم أربعين والرقم سبعين أيضا.

وإذا ما عدنا إلى سفر التكوين حيث نقرأ في خطبة وداع يعقوب لأبنائه، ونبوءته عما سيجري لهم، وأيضا في سفر التثنية في خطبة وداع موسى ومباركته للأسباط، وكلا الخطابين يتحدثان عن مواقع جغرافية ثابتة ومعروفة تماماً بأسمائها المتراكبة أو المتطابقة مع أسماء الأسباط، على الرغم من أنه حسب ما أتت به التوراة أنه بعد هاتين الخطبتين دخل يشوع إلى بلاد كنعان، ومن ثم تم توزيع المنطقة بالقرعة، ومما أتينا عليه يدل على أن موسى يتحدث عن أماكن جغرافية موجودة وقد أراها (يَهْوَه) لموسى بأم عينه من على جبل نبو، وكذلك الأمر بالنسبة ليعقوب، على الرغم من أن التوراة تقول إنه بعد دخول العبريين أرض كنعان تم توزيع الأراضي بالقرعة فيما بينهم.

ومن المواقع التي ورد ذكرها أيضا قبل الدخول العبري لقوم موسى هي منطقة دان في سفر التكوين، حيث أتى أنه بعد أن سمع إبراهيم أن منطقة سدوم وعمورة حيث يسكن لوط

ابن أخ إبراهيم قد تعرضت للغزو من قبل جيوش شمال سورية (عيلام وجوييم وشنعار والاسار) وأن لوط قد أُسر مع كل ممتلكاته، قام إبراهيم مع عبيده بملاحقة الغزاة بمنطقة دان شمال بلاد كنعان وباغتهم ليلا وحرر لوطا منهم «فلما سمع أبرام أن أخاه - لوط - سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاث مئة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان» تكوين ١٤: ١٤، ولكن محرر سفر القضاة قال إن أبناء دان في عهد القضاة صعدوا ليمتلكوا مكانا للسكنى فاحتلوا قرية لايش «ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذي ولد لإسرائيل» قضاة ١٨.

أما بالنسبة لجلعاد فقد جاء أن يعقوب عندما قرر الهروب من عند خاله لابان في بلاد آرام النهرين «فهرب هو وكل ما كان له وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد فأُخبر لابان في اليوم الثالث بأن يعقوب قد هرب. فأخذ أخوته معه وسعى وراءه مسيرة سبعة أيام. فأدركه في جبل جلعاد» تكوين ٣١، وكانت أرض جلعاد من نصيب الجلعاديين من سبط منسى.

تهويد الإنسان

في هذه الفقرة سأحاول، إضافة إلى البحث في تشريع التهويد في النص التوراتي، أن أوجز تاريخ التهويد لا في التاريخ القديم فحسب، بل وعلى مر التاريخ.

إن اليهود أصلا ينحدرون من عدة قبائل عبرية، والقبائل العبرية ليست قبائل عرقية بالمعنى العميق للكلمة، بل هي قبائل اجتماعية تضم مجموعات بشرية متعددة غالبيتها ممن كانوا مرفوضين اجتماعيا لأسباب متعددة، وهم الذين دخلوا إلى مصر في حدود القرن السابع عشر أو الثامن عشر قبل الميلاد، وخرجوا منها بقيادة النبي موسى بعد قرابة أربعة قرون بعد أن أضيف إليهم الهاربون والمضطهدون والعبيد والخارجون عن القانون الفرعوني، والذين يعودون إلى أمم وعروق وأثنيات متعددة، وكان النبي موسى على سبيل المثال قد تزوج من امرأة حبشية، وهذا يشير إلى أن قوم موسى يضم إضافة إلى الجماعات العبرية، مجموعات من شعوب متعددة، وقد تم ذكر وجودهم في التوراة باسم (اللفيف)، وحتى لو اعتبرنا أن قوم موسى هم جماعة قبلية عرقية، فقد انضم أو تهود الكثير من الناس على مر التاريخ، وفي غير مكان، وقد أتى الحديث عن عمليات التهويد في التوراة، وفي تاريخ الأمم أيضا.

لقد حاول الكهنة، ومن بعدهم المنظمات اليهودية وعلى رأسها الصهيونية المعاصرة، إظهار، وادعاء أن اليهود جماعة عرقية تنتسب إلى أب واحد، وأن الدين اليهودي هو دين عرقي مختص فقط بالقبائل العبرية، على الرغم من وجود ما ينفي هذه المقولة في التوراة والتاريخ

والتي تؤكد أن الكثير من القبائل، والجماعات والأفراد قد تهودت، وقد كان الكثير من أنبياء اليهود، لا سيما المتأخرين منهم، كانوا دعاة دين إنساني شامل ويمثله الله، وقد جاء في سفر التثنية «لا يدخل عموني أو موآبي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد، من أجل أنهم لم يلاقوك بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر.. لا تكره أدوميا لأنه أخوك. لا تكره مصريا لأنك كنت نزيلا في أرضه. الأولاد الذين يولدون لهم في الجيل الثالث يدخلون منهم في جماعة الرب» تثنية ٢٣، «وإذا نزل عندك نزيل وصنع فصحا للرب فليختن منه كل ذكر ثم يتقدم ليصنعه فيكون كمولود الأرض. شريعة واحدة تكون لمولود الأرض وللنزيل في وسطكم» خروج ١٢، وهذا يعني إمكانية التهود، أي دخول الناس اليهودية من غير اليهود، كما أن في التوراة الكثير من المقاطع التي تظهر دخول الكثير من الناس في الدين اليهودي «وأبناء الغريب الذين يقترنون بـ (يَهْوَه) ليخدموه وليحبوا اسم (يَهْوَه) ليكونوا له عبيدا. كل الذين يحفظون السبت لئلا ينجسوه ويتمسكون بعهدي آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرحهم بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب. يقول السيد الرب جامع منفيي إسرائيل أجمع بعد إليه إلى مجموعيه» إشعيا ٥٦، «ويحضر كل أخوتكم من كل الأمم تقدمة لـ (يَهْوَه) على خيل وبمركبات وبهوادج وبغال وهجن إلى جبل قدسي أورشليم قال الرب كما يحضر بنو إسرائيل تقدمة في إناء طاهر إلى بيت (يَهْوَه) وأتخذ أيضا منهم كهنة ولاويين) أشعيا ٦٦، «لأن الرب سيرحم يعقوب ويختار أيضا إسرائيل ويريحهم في أرضهم فتقترن بهم الغرباء وينضمون إلى بيت يعقوب» أشعيا، وهذا يؤكد بشكل صريح أن الدين اليهودي ليس حكرا للعبرانيين فقط، وقد جاء في سفر أستير أنه في مرحلة السبي البابلي أثناء الاحتلال الفارسي كان الملك أحشيورش قد أعطى صلاحيات واسعة للزعيم اليهودي مردخاي ليقتل كل من يناصب اليهود العداء، وبسبب الخوف من البطش اليهودي بهم فقد تهود الكثير من الناس «كثيرون من شعوب الأرض تهودوا لأن رعب اليهود وقع عليهم» أستير ٨: ١٧، ومن المعتقد أن الكثير من الناس قد تهودوا في سياق السبي البابلي، الأمر الذي يفسر تزايد عدد اليهود الكبير ما بين سبيهم على أيدي البابليين سنة ٥٨٦ ق.م وعودتهم على يد الفرس بعد خمسين سنة حسب ما ذكر في سفري عزرا، ونحميا.

وبالتالي، فمن المستبعد لأي عقل موضوعي أن يؤمن أو يعتقد بأن اليهود ينحدرون من دم واحد، لأن هؤلاء اليهود أصلا ينحدرون من عدة مجموعات قبلية متفرقة ائتلفت فيما بينها، ثم أن عمليات التهود المسجلة تاريخيا أكثر مما تحصى، لا سيما وأن الشعب اليهودي شعب

ادعائي إعلامي، فقد امتص الكثير من الشعوب لا سيما منها الوثنية، ولا سيما في العهد الروماني على يد الفريسيين، وقد ورد تاريخيا الكثير من الإشارات والحوادث التي تتحدث عن عمليات التهويد، حيث يحكى أن ملك الفرس (أرتاكسيرس) قام سنة ٣٦١ ق.م بنقل بعض اليهود إلى ضفاف بحر قزوين وهناك قامت هذه الجالية بعمليات تهويد لشعوب المنطقة الذين كانوا يعتنقون المعتقدات الشامانية، أما في الحقبة اليونانية فقد ساهمت الجالية اليهودية في الإسكندرية على وجه التخصيص، التي كانت أكبر جالية يهودية في القرن الثالث قبل الميلاد، بنشر الديانة اليهودية في العالم، ولا سيما في العالم اليوناني.

ومن الأمثلة المهمة في هذا السياق هو تهود إيزاط الثالث (٣٦ - ٦٠م) أمير إمارة حدياب (أربيل) في إقليم كردستان والتي كانت تقع بين سيادة الإمبراطورية الرومانية والفرثية في منطقة آشور القديمة في شمالي العراق، (والشعب على دين ملوكهم)، كما أن الفريسيين قاموا بأعمال تبشيرية، ولا سيما في العصرين الإغريقي والروماني، كما تهودت بعض القيادات الرومانية الوثنية، الأمر الذي ساهم، ومن خلال أعمال تبشيرية بتهود بعض الجماعات على شواطئ المتوسط، وفي المرحلة الميكابية تهود الكثير أيضا، ومنهم الأيطوريون العرب، والأدوميون حيث جاء في كتاب المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس (الحوليات اليهودية) أن الكاهن الأكبر هيركانوس قد أجبر الأدوميين (وهم من العرب) على التهود إذا ما أرادوا البقاء في بلادهم، وفي المراحل الأولى للتبشير المسيحي في العهد الروماني دخل الكثير من الناس إلى اليهودية على أنه المدخل إلى المسيحية ولكنهم بقوا يهودا ولم يتحولوا إلى المسيحية، ولا سيما في روما وبعض الجزر اليونانية، كما تهود الكثير من الجماعات الوثنية أثناء الحكم الروماني كي ينعموا بالمكاسب التي كان اليهود يتحلون بها، كما أن اليهود في المرحلة الرومانية على وجه التخصيص كانوا من الجماعات الغنية بشكل عام، وكان لديهم الكثير من العبيد الذين كانوا يدخلون الحظيرة اليهودية طوعا من أجل التحرر في مرحلة قصيرة من نير العبودية حسب الشريعة اليهودية، أو كان يتم ختانهم، وتهويدهم قسرا، كما حصل تهويد قسري، أو تهويد بالإكراه أيضا ومن المعروف أن هيرودوس الكبير كان قد تهود أسلافه قسرا على يد الحشمونيين.

أما في الجزيرة العربية، وفي القرن الخامس الميلادي تهود الملك اليمني الحميري تبان أسعد أبو كرب (٣٧٨ - ٤١٥م) بعد أن جلب معه حبرين (حاخامين) من يثرب من بني قريظة ودعا قومه للتهود، وفي بداية القرن السادس الميلادي تهود الملك اليمني الحميري ذونواس (٥١٠ - ٥٢٥م)، وكذلك الأمر بالنسبة لبعض القبائل العربية التي تهودت، ومنها بعض أفخاذ قبيلة جذام، ومن قبيلة بني غسان.

أما بالنسبة لمملكة الخزر، فيذهب البعض إلى أن اليهود وصلوا إلى محيط بحر قزوين في عصر الملك الفارسي أرتحشتا، حيث قام في سنة ٣٦١ ق.م بترحيل مجموعة من يهود بلاد الرافدين وأسكنهم (كمجموعة وظيفية) على ضفاف بحر قزوين، وأكثر الباحثين الذين يحاولون أن يعيدوا يهودية مملكة الخزر إلى هذه الفترة التاريخية القديمة، من أجل أن يوحوا أو حتى يثبتوا أن يهود مملكة الخزر هم من الجماعات اليهودية العرقية ذات الأصل العبري، وهناك الكثير ممن يعتقد أن يهودية مملكة الخزر قد بدأت في القرنين السابع والثامن الميلاديين بعد أن هاجرت جماعات يهودية من بابل نحو المدن التترية القريبة من بحر قزوين وهناك قاموا بعمليات تهويد لشعوب المنطقة، ولا سيما في المدن التترية المتفرقة، أما الرواية الشعبية التي تحاول أن تفسر كيفية وصول اليهودية إلى مملكة الخزر فتقول إن خاقان الخزر بولان رأى في منامه حلما أوّله إلى أنه يجب أن يتهود فقام باستدعاء مندوبين عن اليهود، ومندوبين عن النصارى ومندوبين عن المسلمين، واشتركوا في مناظرة قرر بعدها بولان أن يعتنق اليهودية، وتبعه قرابة الثلث من شعبه، وقام ببناء خيمة المعبد وكانت المحكمة العليا في المملكة تضم عضوين من اليهود، وعضوين من المسيحيين، وعضوين من المسلمين، وعضو من الوثنيين (الشامانيين)، وقد ازداد اعتناق اليهودية بعهد خليفته، ولكن الخزر الذين تهودوا احتفظوا ببعض الطقوس الشامانية، وتعتبر عملية التهويد هذه أكبر حركة تهود في التاريخ اليهودي، وكانت مملكة الخزر الواقعة بين الإمبراطورية الإسلامية الفتية، والإمبراطورية البيزنطية الآيلة إلى السقوط والتفتت، وكان قد التجأ إليها الكثير من اليهود إبان الاضطهاد البيزنطي أثناء حكم يوستنيان الأول (٥٤٧ - ٥٦٥م) وأثناء حكم نيرون في القرن السابع الميلادي، وقد استطاعت الإمبراطورية الروسية أن تنهي إمبراطورية الخزر سنة ٩٦٥م، ولكن الضربة التي شتتتهم في أوربا الشرقية هي التي سددها لهم جنكيز خان في القرن الثالث عشر الميلادي، حيث انتشروا لا سيما في بولندا وليتوانيا وهنغاريا والبلقان، وهم الذين كان لهم الدور الفعال في تشكيل الحركة الصهيونية لا سيما بعد الضربة الموجعة والاضطهادات الروسية التي تعرضوا لها بعد اغتيال القيصر الروسي ألكسندر الثاني سنة ١٨٨٢ ميلادي.

أما حركات التهود في أوربا بشكل عام فقد ساهمت فيها الكثير من الجماعات اليهودية، وعلى رأسهم جامعو الضرائب اليهود في أوربا في القرون الوسطى والذين كانوا قد هودوا الكثير من الأفراد والعائلات مقابل تخفيف الضرائب عليهم، كما أن الكثير من العبيد في أمريكا في القرن الثامن عشر الميلادي قد تهودوا.

وفي سنة ١٩٩٠م اعتنق اليهودية قرابة عشرين ألف إنسان في ألبيرو، كما اعتنق، أو ادعى اليهودية الكثير من المسيحيين في أوربا الشرقية الشيوعية بعد تفكك الاتحاد السوفيتي طمعا في الخروج من بلدانهم لتحسين مستواهم المعيشي، وكان أحد مصادر التهود أيضا هو الزواج المختلط من خلال تهود الزوج غير اليهودي، والذي، في الوقت نفسه، ساهم بخروج الكثير من اليهود من حظيرة اليهودية إلى الأديان الأخرى، ولا سيما منها المسيحية.

وقد ادعت الصهيونية نقاء العرق اليهودي، لكن علم الأجناس أكد أن اليهود لا يمثلون أجناسا أثنيين منحدرين من عرق واحد، يقول المفكر اليهودي الصهيوني (بريتس سمولنسكين) {نحن شعب تربطه وحدة الروح والنفس، ويجمعه الحب، كما لم يجمع شعبا آخر. على أننا لا نشكل أمة بالمعنى الذي تتشكل به الأمم الأخرى.}، وقد أدرك هرتزل هذه الحقيقة ورفض ما يدعيه المتزمتون أن اليهود يعودون إلى عرق واحد {كل ما أستطيع قوله إننا - نحن اليهود - وحدة تاريخية وأمة ذات أصول بشرية متنوعة.. ويكفينا ذلك لقيام دولة يهودية إذ ليس هناك أمة ذات عرق صاف... أن العداء للسامية قد جعل منا شعبا يهوديا}، أما غوتيل رئيس اتحاد الصهاينة الأمريكيين فيقول: {نحن نؤمن بأن اليهود ليسوا طائفة دينية صرفة وليسوا عرقا فحسب بل هم أمة}.

وفي النهاية فقد كان لعمليات التهود الأهمية الكبيرة في الحفاظ على اليهود عبر التاريخ الذين تعرضوا لعمليات تصفية كبيرة، كما أنهم كانوا يخسرون الكثير ممن يدخلون في الديانات السماوية الأخرى طمعا وراء المال والجاه، وقد دخل الدين المسيحي الكثير منهم في بداية التبشير المسيحي، ولكن الكثير منهم قد دخلوا المسيحية إبان فترة الاضطهادات الأوربية لليهود، أما بالنسبة للإسلام فمن المعروف أن الكثير من اليهود أسلموا في عهد الخلفاء، أما الدفعة الكبرى فكانت في العهد الأموي في الأندلس ومن بعدها في تركيا للذين هربوا من محاكم التفتيش في أوربا وكانوا مشهورين باسم يهود الدونما.

الفصل الثاني

مقاربة النص التأريخي التوراتي

والآن، وبعد هذه المقدمة، نستطيع أن نقوم بمقاربة شمولية وعامة للتاريخ القديم لبني إسرائيل، معتمدين على قراءة متبصرة للتوراة على الأخص، كمقدمة لإعادة كتابة تاريخ القبائل العبرية على ضوء مصادر تاريخية، وأركولوجية متعددة:

في زمان ما من النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد كانت هناك مجموعة من القبائل المنتشرة في منطقة بلاد الرافدين عرفت بالقبائل أو الجماعات العبرية ومنها قبيلة بنيامين، والتي تعود أصولها إلى القبائل العمورية أو الآرامية أو من أحد اشتقاقاتهما أو قبائل من أصل مشترك مع تلك القبائل والتي قد تكون من بقايا السومر - أكاديين الذين اندحروا على يد العموريين.

وقد قامت هذه القبائل أو الجماعات العبرية بالرحيل أو الانتقال، كعادة القبائل البدوية الرعوية، أو بسبب الحروب، أو بسبب القحط والجفاف من بلاد الرافدين باتجاه الشمال على ضفاف نهر الفرات وروافده، ومن ثم انتقلت نحو سورية الداخلية وصولا إلى بلاد كنعان واستقرت هناك لمدة قصيرة من الزمان على الجبال المركزية في الضفة الغربية لنهر الأردن، كما استوطنت على الجبال الجنوبية المحيطة بأورشليم وحبرون (الخليل)، ثم انتقلت بعض هذه الجماعات نحو سيناء ومنها نحو مصر في سياق الفترة الهكسوسية، وهذه الجماعات هي التي تم أسطرة، واختزال تاريخها، في سفر التكوين من خلال قصة الآباء الأوائل.

ومن ثم قدمت أيضا مجموعات عبرية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد في سياق التغيرات الديموغرافية التي شهدتها المنطقة، والتي تزامنت أيضا مع الهجرات الآرامية التي استوطنت في سورية الداخلية، وقد تم ذكر هذه الاضطرابات التي أحدثتها القبائل العبرية في رسائل تل العمارنة التي سأستشهد بها لاحقا، وقد استنجد ملوك المدن الكنعانية بالفراعنة من أجل مناصرتهم في حربهم ضد القبائل العبرية الغازية، ولكن فراعنة تل العمارنة لم يكونوا مهيئين لنجدة ملوك بلاد كنعان بسبب الخلافات الدينية الداخلية التي عصفت في بلاد مصر في زمن الفرعون أمنحوتب الثالث (١٤١٢ - ١٣٨٧ ق.م)، وأمنحوتب الرابع (إخناتون) (١٣٨٧ - ١٣٦٦ ق.م).

وبسبب القحط والجفاف الذي كان قد حلّ بالمنطقة في سياق القرن السابع عشر قبل الميلاد فقد رحلت مجموعات من تلك القبائل التي سبق ذكرها، للعمل والرعي إلى بلاد مصر، واستقرت في المنطقة الشمالية القريبة من سيناء، وقد تزامن هذا الحدث تاريخيا مع دخول الهكسوس إلى مصر، ويعتقد البعض أن تلك المجموعات العبرية كانت جزءا من الزحف الهكسوسي على مصر، وهناك عاشوا في البداية بحالة أفضل مما كانوا عليه في بلاد كنعان، في الوقت الذي استطاعت فيه الجماعات التي بقيت في كنعان بعد امتزاجها مع شعوب المنطقة الكنعانيين أن يوسعوا الحدود السياسية لبعض ممالك المدن، وأن يشكلوا بعض الممالك الصغيرة.

أما بالنسبة لتلك الجماعات التي رحلت إلى مصر فبعد قرابة أربعة قرون وبعد انتهاء حكم الهكسوس في مصر على يد الأمير المصري أحمس (١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق.م)، وبعد أن أنضم إلى القبائل العبرية دفعة أخرى استقدمت قسرا كأسرى، أو طوعا كعمال في عهد الفرعون أمنحوتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤٢٥ ق.م) من بلاد كنعان، تعرض الجميع للاضطهاد في عهد الفرعون حور محب (١٣٥٣ - ١٣١٩ق.م)، على يد رعمسيس ممثل السلطة وقائد الجيش الفرعوني في منطقة الدلتا، قبل أن يصبح فرعونا، والذي قام باستعبادهم، وأجبرهم مع الكثير من الجماعات المختلفة على أعمال السخرة، وعلى إثر ذلك بدؤوا بالهروب إلى سيناء بشكل إفرادي أو على شكل جماعات صغيرة، وما تبقى منهم قرروا العصيان بشكل جماعي بتحريض من موسى - حسب ما جاء في التوراة - الذي تسلم قيادتهم، الأمر الذي جعل الفرعون يزيد من استعبادهم كعقوبة على تمردهم، وبقيادة موسى قرروا الخروج من مصر والعودة إلى حيث كانوا، وهذا يتزامن، حسب ما سآتي عليه، مع فترة الاضطرابات السياسية والدينة التي حدثت في عهد، وأثناء، وبعد غياب الفرعون إخناتون (١٣٨٧ - ١٣٦٦ ق.م) من قمة السلطة في مصر.

ويبدو أن الجماعات المضطهدة من قبل الحكم الفرعوني من عبرانيين، ومصريين، وكوشيين وسواهم بدأت تقوم بعمليات هروب تدريجي وبأعداد لا تتعدى الآلاف من مصر، وربما تم استبعاد البعض منهم طردا من مصر نحو صحراء سيناء، وبعضهم دخل تسللا إلى بلاد كنعان، ومن بقي منهم تمت إعادة تجميعهم في سيناء وحمل لواء قيادتهم موسى، مع ما انضم إليهم من قبائل وشعوب سيناء، وبذلك تشكّل خليط غير متجانس من القبائل العبرية (وأغلبهم من القبائل اليعقوبية) والعبيد، والمضطهدين من أتباع الديانة الإخناتونية المندحرة، والخارجين عن القانون، مع مزيج من معتقداتهم، ولغاتهم، وأعراقهم، ومع عامل واحد يجمعهم هو التحرر من ربقة الفرعون، وسخرته.

وقد حصل خلاف ديني في سيناء ضمن جماعات الخروج، بين القبائل التي تدين بالديانة البعلية الكنعانية والتي كانت تتخذ من العجل رمزا دينيا لها (القبائل الإسرائيلية)، وبين

الجماعات التي تبنت الإله (يَهْوَه) الذي تعرفت عليه في سيناء (الجماعات اللاوية، ومن ائتلف معهم)، وكانت النصرة فيها لأتباع الديانة اليهوية.

وبعد أن تنقلت جماعات الخروج (إيلاف موسى) في صحراء سيناء، ومن محطتها الأخيرة على جبال سعير، انتقلت بقيادة موسى إلى منطقة شرقي الأردن حيث استوطنت هناك بعض جماعات الخروج، وأخذت بعض الجماعات منهم بالتسلل من شرقي الأردن وبصعوبة إلى بلاد كنعان والتي كانت تحوي مزيج سكاني أثني متنوع، على رأسه الكنعانيين أصحاب الأرض الأصليين، وبعض القبائل العبرية التي استوطنت مع الكنعانيين على الضفة الغربية لنهر الأردن.

وبشكل موجز فقد دخل العبرانيون أرض كنعان في ثلاث هجرات:

أولها هجرة (الآباء الأوائل) التي تعود إلى القرن التاسع عسر والثامن عشر قبل الميلاد.

والثانية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد وهي متزامنة مع هجرة الآراميين، في سياق التغيرات الديموغرافية التي عصفت في المنطقة، والذين دخلوا أيضا إلى بلاد كنعان، وربما كان العبرانيون الإسرائيليون جماعة أثنية آرامية - عمورية تختلف جزئيا عن الجماعات العبرية اليعقوبية (التي حسب اعتقادي تحوي مجموعة من الموروثات الجينية، والثقافية السومر - أكادية) التي كانت قد ذهبت إلى مصر، وقد انضم إلى هؤلاء الجماعات الإسرائيلية (الآرامية - العمورية)، جماعات عبرية مختلفة قدموا من أكثر من موضع، وربما كان جزء منهم قد قدم من مصر بحادثة خروج أولى اندخلت أحداثها بشكل جزئي في سفر الخروج، وهم الذين سلكلوا طريقا مباشرا ساحليا من مصر، وهو ما يذهب إليه الأب دو فو، وهذه الهجرة العبرانية الإسرائيلية التي ترافقت، أو كانت جزءاً من الهجرة الآرامية، كان رمزها، هو - حسب ما أعتقد - يشوع بن نون.

أما الهجرة الثالثة فحدثت في سياق القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهي الجماعات التي كانت قد خرجت من مصر بقيادة موسى، ودخلت إلى بلاد كنعان بقيادة يشوع حسب ما جاء في التوراة، حيث استقروا ضمن جيوب منفصلة بين الوجود الكنعاني الإسرائيلي، وقد استفادوا في تسللهم نحو بلاد كنعان من عدة ظروف سياسية واجتماعية وبيئية، كانت بلاد كنعان تحت نظام (المدينة - الدولة) اللامركزي، كما أنهم استفادوا من وجود بعض الجماعات العبرية (الإسرائيلية) في بلاد كنعان والذين لم يهاجروا نحو مصر وبقوا في بلاد كنعان، وكانت كنعان تخضع لبداية الضغط المصري في عهد سيتي الأول (١٣١٨ - ١٢٩٩ ق.م)، ومن بعده رعمسيس الثاني (١٢٩٩ - ١٢٣٢ ق.م) اللذان حاولا أن يستعيدا هيبة مصر في بلاد كنعان التي كانت قد خسرتها في عهد تل العمارنة، وبابل كانت في حالة توسع في سورية الشمالية في عهد نيراري الأول على حساب الميتانيين، أما الحثيون فكانوا يعدّون عدتهم للتوغل في

سوريا في مرحلة الضعف البابلي، إضافة إلى بدء زحف الجفاف على المنطقة الذي بدأ يُدخل تغيراته الاجتماعية والمعاشية، وغلّب النمط المعاشي الرعوي على النمط المدني الحضري.

وقد خضعت القبائل أو الجماعات العبرية البدوية لحكم القضاة الذين جمعوا مع سلطتهم القبلية سلطة دينية أيضا، وهي سلطة تعتمد على البعد الأثني، وتفتقد إلى البعد الجغرافي السياسي، لأن القوى الدولية التي كانت في مرحلة فورانها لا تسمح بذلك، فقد كانت سوريا خاضعة للصراع الحثي المصري والذي انتهى بعد عدة معارك أهمها معركة قادش سنة ١٢٨٦ ق.م، والتي قادت في النهاية إلى توقيع معاهدة سلام بين القوتين في عهد العاهل المصري رعمسيس الثاني (١٢٩٩ - ١٢٣٢ ق.م)، والحثي حاتوشيليش الثالث، أما القوة الرافدية فكانت في حالة انكماش.

ولم تستمر هذه الفورة الدولية، فقد تراجع المد المصري بعد انشغاله بصد الحركات الشعوبية الإيجية الليبية القادمة من الغرب والشمال، والحثيون تراجع نفوذهم في سوريا بعد تعرضهم لموجات نفس الشعوب الإيجية، أما بلاد الرافدين فلم تكن بعد قادرة على التمدد بعد انكماشها.

وهذه المتغيرات الدولية التي ارتبطت أسبابها ونتائجها بحالة من الجفاف الذي ضرب المنطقة، والذي بدوره عزز من التواجد القبلي البدوي على حساب التواجد الحضري الزراعي، سمحت للصراعات الداخلية المحلية البينية أن تطفو على السطح، الأمر الذي قاد تلك القبائل البدوية العبرية أن تقيم تحالفات أثنية سياسية فيما بينها، وبدأت بلعب دور سياسي في المنطقة، وتشكلت - على ذمة التوراة - أول مملكة قبلية عبرية بقيادة شاؤل ثم داود ثم سليمان، ولكن هذه المملكة القضائية لم تستطع أن تضيف إلى بنيتها وحدة سياسية جغرافية حقيقية في تلك الفترة، ولكن ومع مزيد من التدهور الدولي، والذي قاد إلى الانتشار الآرامي السياسي في سورية الداخلية، سمح لتلك الجماعات - التي بدأت بالتوطن والاندماج في بيئتها وشعوبها، وتحولت من النمط الرعوي، إلى النمط الزراعي الرعوي في سياق القرن التاسع قبل الميلاد - أن تمتلك وحدة جغرافية سياسية على منطقة الهضاب المركزية (منطقة السامرة)، وأن تعلن عن وجودها من خلال مملكة السامرة، أو بيت عمري كما جاءت تسميتها في الحوليات الآشورية، أو مملكة إسرائيل كما تسميها التوراة، والتي شهدت الكثير من الانقلابات والحراكية التاريخية إلى أن سقطت على يد الآشوريين سنة ٧٢١ ق.م، وفي سياق مرحلة ضعف مملكة السامرة (إسرائيل)، استطاعت أن تقوم القبائل العبرية الجنوبية في محيط مدينتي أورشليم، وحبرون بتشكيل مملكة يهوذا مع جغرافيا سياسية صغيرة، والتي لم يتسن للتاريخ أن يذكرها لمدة طويلة من الزمان حتى تمت إبادتها على يد البابليين سنة ٥٨٦ ق.م.

المراجــع

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس - مجموعة محررين - دار الكتاب المقدس.

إسرائيل وعقيدة الأرض الوعودة - إبكار سكاف.

بروتوكولات حكماء صهيون - عجاج نويهض - مجموعة الأجزاء الأربعة - الطبعة الرابعة ١٩٩٦ - دار الاستقلال للدراسات والنشر - المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

فلسطين أرض الرسالات السماوية - روجيه غارودي - ت: قصي أتاسي - ميشيل واكيم - الطبعة الأولى ١٩٨٨ - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية - روجيه غارودي - ت: حافظ الجمالي - صياح الجهيم - دار عطية للنشر.

إسرائيل (الصهيونية السياسية) - روجيه غارودي - ت: جبرائيل بيطار - مركز الدراسات العسكرية.

أوهام التاريخ اليهودي- جودت السعد - الطبعة الأولى ١٩٨٨ - الأهلية للنشر والتوزيع.

خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل - كمال الصليبي - الطبعة الرابعة ١٩٨٨ - دار الساقي.

البحث عن يسوع - كمال الصليبي - دار الشروق.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي - الياس شوفاني -الطبعة الثانية ١٩٨٨ - مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

صراعنا مع اليهودية بين الصلح المستحيل والمواجهة الحتمية - العقيد الركن محمد بن مهنا العلي - ط١ ١٩٩٣ - دار أمية للنشر والتوزيع.

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - عبد الوهاب المسيري - دار الشروق.

من هو اليهودي - إسحق دوتشير - ت: نجاة قصاب حسن - دار العروبة للطباعة.

تاريخ أورشليم - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.

آرام دمشق وإسرائيل - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.

لغز عشتار - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.

الأسطورة والمعنى - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.

الرحمن والشيطان - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.

موسوعة تاريخ الأديان - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.

تاريخ نقد العهد القديم - زالمان شازار - ت: أحمد محمد هويدي - ٢٠٠٠ - المجلس الأعلى للثقافة.

أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق القديم - د. كارم محمود عزيز.

الماضي الخرافي: التوراة والتاريخ - توماس طمسن - ت: عدنان حسن.

الإيديولوجية الصهيونية - ج١ ج٢ - د. عبد الوهاب المسيري - ١٩٨٣ - سلسلة علام المعرفة الكويتية.

أحجار على رقعة الشطرنج - وليام غاي كار - ت: سعيد جزائرلي - ط١٤ - ٢٠٠٠ - دار النفائس.

أهل الكهف - هالة العوري - ٢٠٠٠ - رياض الريس للكتب والنشر.

تاريخ اليهود - أحمد عثمان - مكتبة الشروق.

دائرة المعارف الكتابية.

تاريخ يَهْوَه - جورجي كنعان - الدار العربية للعلوم.

محمد واليهودية - جورجي كنعان - بيسان للنشر والتوزيع.

بثور في جلد التاريخ - جورجي كنعان - بيسان للنشر والتوزيع.

مملكة الصعايك - جورجي كنعان - دار الطليعة.

من يجرؤ على محاكمة الإله - جورجي كنعان - دار الطليعة.

الله هو القضية والمسيح هو المشكلة - جورجي كنعان.

الواقع والأسطورة في التوراة - زينون كاسيدوفسكي - ت: د. حسان إسحاق - الأبجدية للنشر.

العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود - د. أحمد يوسف داوود - إصدار خاص.

تاريخ سوريا الحضاري القديم (المركز) - د. أحمد يوسف داوود - إصدار خاص.

تاريخ سوريا القديم - تصحيح وتحرير: د. أحمد يوسف داوود - دار الصفدي.

جغرافية التوراة مصر وبنو إسرائيل في عسير - زياد منى - دار الريس للكتب والنشر.
الأسطورة والتراث - سيد القمني - المركز المصري لبحوث الحضارة.
النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة - د سيد القمني - المركز المصري لبحوث الحضارة.
الإسرائيليات - د سيد القمني - إصدار خاص.
النهايات: الهوس القيامي الألفي - ديتر تسمرلينغ - ت: ميشيل كيلو - دار قدمس للنشر والتوزيع.
ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق - د. أحمد سوسة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات - عبد المجيد همو - الأوائل.
ما بين موسى وعزرا كيف نشأت اليهودية - عبد المجيد همو - الأوائل.
الله أم يَهْوَه أيهما إله اليهود - عبد المجيد همو - الأوائل.
اليهودية بعد عزرا.. وكيف أقرت - عبد المجيد همو - الأوائل.
مفاهيم تلمودية.. نظرة اليهود إلى العالم - عبد المجيد همو - الأوائل.
الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات - عبد المجيد همو - الأوائل.
نقد الدين اليهودي - جميل خرطبيل - الأوائل.
حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل - فوزي محمد حميد - دار الصفدي
مصير إسرائيل في النبوءات - محمد عرب - الأوائل.
دراسات توراتية - حنا حنا - الأوائل.
إرم ذات العماد - فاضل الربيعي - رياض الريس للكتب والنشر.
العصور الحجرية، وما قبل الأسرات في مصر والشرق الأدنى القديم - د. أحمد أمين سليم - دار المعرفة الجامعية.
لبنان القديم - كارلهاينز - برنهردت - ت: ميشيل كيلو - قدمس للنشر والتوزيع.
الديانة الفرعونية - واليس بدج - ت: نهاد خياطة - دار علاء الدين للنشر.
الرومان - د. سيد أحمد علي الناصري - دار النهضة العربية.
تاريخ بلاد الرافدين - د. عيد مرعي - الأبجدية للنشر.
الأساطير - أحمد كمال زكي - مكتبة الأسرة.
العبادات في الأديان السماوية - عبد الرزاق رحيم صلال الموحي - الأوائل.
الخديعة الكبرى - د. محمد جمال طحان - الأوائل.

كيف صنع اليهود الهولوكوست - نورمان فنكلشتاين - ت: د مـاري شهرستان - الأوائل.

مناهضة السامية - برنار دي لازار - ت: د ماري شهرستان - الأوائل.

الأثنولوجيا - محمد الخطيب - دار علاء الدين للنشر.

ديانة مصر القديمة - محمد الخطيب - دار علاء الدين للنشر.

الفهرس

تحرير النص والتأريخ التوراتي

منشورات دار علاء الدين في مجال التاريخ والميثولوجيا

- دراسات حول الأكراد
  ــــــــــ ب ليرخ
- التاريخ السري
  ــــــــــ بروكوبيوس
- الجنس في العالم القديم
  ــــــــــ بول فريشاور
- فتح بلاد الغال يوليوس قيصر
  ــــــــــ بيتي راديس
- السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية
  ــــــــــ جان كلود مارغرون
- من هم الموحدون الدروز
  ــــــــــ جميل أبو ترابي
- أميرات سوريات حكمن روما
  ــــــــــ جودفري تورتون
- أساطير في أصل النار
  ــــــــــ جيمس فريزر
- الاقتباس والجنس في التوراة
  ــــــــــ خالص مسور
- اليوم الآخر ونهاية الزمان
  ــــــــــ د. خالد صناديقي
- في أصل العرب ومواطنهم
  ــــــــــ د. ماجد عبد الله الشمس
- القاهرة وبيت المقدس ودمشق
  ــــــــــ دافيد صمونيل مارجوليوث
- سلسلة الأساطير السورية
  ــــــــــ رينيه لابات
- طقوس الجنس المقدس عند السومريين
  ــــــــــ س. كريمر
- بنو معروف في التاريخ
  ــــــــــ سعيد الصغير
- التشريعات البابلية
  ــــــــــ عبد الحكيم الذنون
- بدايات الحضارة
  ــــــــــ عبد الحكيم الذنون
- الأسطورة في بلاد الرافدين الخلق والتكوين
  ــــــــــ عبد الحميد محمد
- بناة ثقافتنا الحضارية
  ــــــــــ عبود قرة
- ستالينغراد ملحمة العصر
  ــــــــــ ف. تشويكوف
- الحضارات القديمة ١-٢
  ــــــــــ ف. دياكوف / س. كوفاليف
- صراع بين الحرية والاستبداد
  ــــــــــ فارس الحناوي
- الأسطورة والمعنى
  ــــــــــ فراس السواح
- التاو تي تشينغ إنجيل الحكمة التاوية في الصين
  ــــــــــ فراس السواح
- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
  ــــــــــ فراس السواح
- الرحمن والشيطان
  ــــــــــ فراس السواح
- الوجه الآخر للمسيح
  ــــــــــ فراس السواح
- آرام دمشق وإسرائيل
  ــــــــــ فراس السواح

منشورات دار علاء الدين في مجال التاريخ والميثولوجيا

- تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود
  ـــــــ فراس السواح
- جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة
  ـــــــ فراس السواح
- دين الإنسان
  ـــــــ فراس السواح
- لغز عشتار
  ـــــــ فراس السواح
- مغامرة العقل الأولى
  ـــــــ فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان الكتاب الأول
  ـــــــ فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان الكتاب الثاني
  ـــــــ فراس السواح
- سلطان باشا الأطرش تاريخ وطن
  ـــــــ فريد عبد الكريم فياض
- المصادر التاريخية العربية في الأندلس
  ـــــــ ك بويكا
- سحر الأساطير
  ـــــــ م.ف البيديل
- الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم
  ـــــــ ماجد عبد الله الشمس
- معجم الأساطير
  ـــــــ ماكس شابيرو، رودا هندريكس
- شريعة حمورابي
  ـــــــ مجموعة من المؤلفين
- كليوباترا وعصرها
  ـــــــ مجموعة من المؤلفين
- الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية
  ـــــــ محمد الخطيب
- الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية
  ـــــــ محمد الخطيب
- الفكر الإغريقي
  ـــــــ محمد الخطيب
- ديانة مصر الفرعونية
  ـــــــ محمد الخطيب
- مصر أيام الفراعنة
  ـــــــ محمد الخطيب
- موسوعة تاريخ القفقاس والجركس
  ـــــــ محمد جمال صادق إبه زاو
- هل هبط آدم في القفقاس
  ـــــــ محمد عمر بغداي
- صرح ومهد الحضارة السورية
  ـــــــ مفيد عرنوق
- الديانة الزرادشتية مزديسنا
  ـــــــ نوري إسماعيل
- الديانة الفرعونية
  ـــــــ واليس بدج
- التأريخ التوراتي.. والتاريخ - التأريخ التوراتي المزيف بين إسرائيل الكنعانية وإسرائيل العبرية وإسرائيل الصهيونية الكتاب الثاني
  ـــــــ د. إسماعيل ناصر الصمادي
- التأريخ التاريخي ما بين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية - التأريخ التوراتي المزيف بين إسرائيل الكنعانية وإسرائيل العبرية وإسرائيل الصهيونية الكتاب الثالث
  ـــــــ د. إسماعيل ناصر الصمادي



يشكل هذا الكتاب محطة أساسية في دراسة المعتقد اليهودي والشخصية اليهودية، فيؤكد أن التوراة في جانبها النصي الثقافي الأدبي لا تمتلك أي نص أصلي، فجميع نصوصها إما مهوَّدة وإما تشكل حالة تناص مع نصوص حضارات بلاد الشرق الأدنى القديم.

ويدرس الظروف الموضوعية التي أسهمت في تشكيل الشخصية اليهودية التي اتسمت بالعنصرية والأنانية والجشع وحب المال، وتأثير عسر التطور الحضاري، وتمزق اليهودي بين الأنا الفردية والأنا الجماعية على بنية هذه الشخصية.

ويدرس عصر الآباء وعصر الخروج وعصر القضاة وعصر المملكة المتحدة والمملكة المنقسمة، مع قراءة في نصوص عصر. ويتناول بالدراسة أنبياء وملوك إسرائيل و وعلاقاتهم السياسية والدينية.



يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق

ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy